الألف كتاب (الثانى) ٩٥

الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية

منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمى

٢٠-٥٦٧ هـ / ٦٤١-١١٧١م

د. السيد طه السيد أبو سديرة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الألف كتاب (الثاني) ٩٥

الحرف والصناعات في مصر الإسلامية

منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

٢٠ - ٥٦٧ هـ ، ٦٤١ - ١١٧١ م

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعي المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

محمود عبده

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

مراد نسيم

الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية

منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمى

٢٠ - ٥٦٧ هـ / ٦٤١ - ١١٧١م

تأليف

د. السيد طه السيد أبو سديرة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩١

مقدمة

الحمد لله فاتحة كل خير ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد .. فقد حظيت الدراسات الحضارية باهتمام كبير من جانب الباحثين في الآونة الأخيرة ، حتى شملت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وأثرها البارز فى نهضة الأمم وتقدمها في مجالات الصناعات والفنون . وكان من بين هذه الموضوعات الهامة التى أفردت لها هذا الجزء من الكتاب لمعالجته دور طوائف الحرفيين والصناع فى مصر الاسلامية ، وما بذلوه من الجهد والعرق فى أعقاب الفتح الاسلامى حتى زوال حكم الفاطميين ، وما بلغه هؤلاء الحرفيون من مظاهر التقدم والرقي فى مجال حرفهم أو صناعتهم .

وليس من شك فى أن الذين عملوا على بناء صرح الحضارة الاسلامية على ارض مصر الطيبة ، يستحقون منا التوفر على دراسة أحوالهم وظروف معيشتهم ، ومدى العون المادى والأدبى الذى نالوه من جانب الولاة أو الخلفاء والوزراء من الحكام المسلمين .

ويتناول هذا العمل مظاهر الحرف والصناعات بكافة أنواعها أى كل الأعمال والمهن والصناعات التى يتكسب الانسان منها ، وان كانت المصادر العربية لا تفرق كثيرا بين الحرفة والصنعة فى معظمها ..

وقد اشتملت دراسة هذه المظاهر والجهود التى بذلها الحرفيون والصناع خلال تلك الحقبة التى نحن بصددها على عدة فصول هامة نتناول على سبيل المثال أهم العناصر الرئيسية للفصول الأولى منها .

تناولت في الفصل الأول من هذه الدراسة صناعة الكساء والنسيج ودور الطراز في عصر الولاة ، وما كان يصنع بها من القباطى المصرية وغيرها من أنواع الثياب الكتانية والصوفية ، وشهرة كل من الاسكندرية وتنيس ودمياط وغيرها في شمال البلاد فضلا عن حاضرة الديار المصرية الفسطاط ، وأيضا مصانع النسيج في كل من الفيوم والبهنسا والأشمونين والتبس وطما وأسيوط واخميم في صعيد مصر ، وشملت الدراسة حرفة الصباغة وصناعة الألوان والمواد اللازمة لها وأماكن استخراجها ، كما تم التركيز على أسباب تقدم صناعة النسيج في عهد الطولونيين والاخشيديين أو في العصر الفاطمي ، وما أنتجته دور الطراز من الديباج والحرير والشرب والقصب والبوقلمون ، واستخدام أنواع منه للدعاية الفاطمية ، ومظاهر ازدهار فن الزخرفة بفضل تشجيع الحكام الفاطميين ومهارة الصناع النساجين والصباغين والرسامين ، وما تشهد به تلك القطع الباقية المحفوظة منها بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة أو في المتاحف العالمية ٠

وقد عقدت الفصل الثاني للحديث عن صناعة البردى في مصر وشهرتها في عصر الولاة ، وما كانت تصدر منه لسائر أنحاء العالم آنذاك ، والأسباب التي أدت الى تقدم الوراقة وصنعة الكتابة أيام الطولونيين والاخشيديين من بعدهم ، وشهرة أسواق الفسطاط في مجال الوراقة واقترانها بالعاصمة بغداد حاضرة الخلافة العباسية ٠ كما أنهيت هذا الفصل بتناول العوامل التي أدت الى ازدهار حرفة الوراقة في العصر الفاطمي وذكر العديد من هؤلاء الوراقين العلماء والأدباء وما بلغه هؤلاء الكتاب الفاطميون في مجال الانشاء والترسل والكتابة واستخدامهم في سبيل الدعاية والاعلام لمذهبهم وحكمهم الذى استمر نحو قرنين من الزمان ٠

أما الفصل الثالث فكان لتتبع جهود الحرفيين في صناعة الفخار والخزف والزجاج ، ومدى استغلالهم للمواد الخام الموجودة في مصر حينذاك، وفي دراسة مظاهر التأثير الحضارى بين الصناع المصريين وأقرانهم في العراق خاصة في مجال صناعة الخزف ذى البريق المعدنى في عهد الطولونيين ، وما كشفت عنه حفائر الفسطاط من نتائج فنية في هذا المجال ، ومتابعة الدراسة خلال العصر الفاطمي ، وما أبدعته أيدى الخزافين والزجاجين وغيرهم من صناع البللور والمدارس الفنية المتميزة بصناعتها وما احتوت عليه القصور الفاطمية وخزائنها من روائع الفن الفاطمي ٠

وأفردت الفصل الرابع للحديث عن الصناعات المعدنية المختلفة وما كان يتم استخراجه من المعادن في داخل البلاد ، ودور القبائل العربية في استخراج معدن التبر بمنطقة العلاقي بصعيد مصر ، وغير ذلك من

الأحجار الكريمة كالزمرد والياقوت والمرجان سواء من باطن الأرض ، أو من سواحل البحر الأحمر كاللؤلؤ والمرجان أو البلور ٠

وفي هذا الفصل أمكن معالجة سبل الحصول على الحديد والفضة والنحاس ، وطرق صهرها بمسابك الحديد والفولاذ والنحاس بالعاصمة الفسطاط ، وما صنعه الحفارون وغيرهم من الأواني والآلات والتحف المعدنية ، وما بلغته صناعة التكفيت للأواني والأدوات المعدنية زمن الفاطميين ٠

كما درست في هذا الفصل أيضا صناعة سك النقود بدور الضرب المصرية من الدراهم والدنانير ، وأنواع الفلوس النحاسية ، والاشراف على هذه الدور وما تضمه من السباكين وغيرهم من الصناع ٠ ولا يمكن أن نغفل صناعة الحلي والجواهر الكريمة في هذا الصدد ، وطوائف الصاغة في أسواق الفسطاط والاسكندرية وغيرهما من المدن المصرية وما كشفت عنه المصادر التاريخية والكتابات العربية من أسماء هؤلاء الصاغة والشهرة التي حظي بها هؤلاء وعلى الأخص في عصر الفاطميين ٠

واختتمت الحديث عن الصناعات المعدنية بالوقوف على ما كانت عليه صناعة الأسلحة ، وما اشتهرت به مصر من أنواع المناجيق وغيرها من أنواع الأسلحة الثقيلة ابان الفتح العربي ، وذلك بالاضافة الى أنواع الأسلحة الخفيفة كالسيوف والرماح والجواشن وغيرها ، والتي اقبل العرب على شرائها والانتفاع بها في عصر الفتوحات الاسلامية ، وشرح الأسباب التي أدت الى اهتمام كل من الطولونيين والاخشيديين بصناعة السلاح وغيرها من أدوات القتال والحرب في البر والبحر ، ومدى ما بلغته هذه الصناعة من التطور والرقي بعد أن أصبحت مصر مقرا للخلافة الفاطمية ٠

أما المصادر التي استعنت بها في اعداد هذا الكتاب فقد كانت كثيرة ومتنوعة ، وذات أهمية بالغة ، ذلك أن البعض منها كان معاصرا لأحداث الحقبة التي قمت بدراستها ، حيث كان أولئك المؤرخون وغيرهم من الرحالة شهود عيان فيما أوردوه من روايات ونصوص عن أسواق الفسطاط والاسكندرية وغيرهما من المدن المصرية ، وما حفلت به مؤلفاتهم من حقائق تاريخية عن الحرفيين والصناع في مصر الاسلامية ٠

ولعل من الانصاف أن أبدأ بأوراق البردي اليونانية والعربية التي تم تحقيقها ونشرها بمعرفة كل من آدولف جرومان ، وبل وجرنفل وغيرهم، فقد أمدتنا بمعلومات قيمة عن حياة الحرفيين والصناع وما كانوا يتقاضونه

من الأجور وما يؤدونه من الضرائب والالتزامات الأخرى ، وذلك بالاضافة الى أنواع السلع والثياب التى شاع نسجها فى دور الطراز واستعمالها منذ فجر التاريخ .

ويلى ذلك فى الأهمية تلك الكتابات الأثرية التى جمعها كل من فان برشم وسوفاجيه وكومب وفييت فى السجل التاريخى او مجموعة شواهد القبور ، فهى كتابات معاصرة ومحايدة سواء ما نقش منهـا على لوحات الرخام على جدران المساجد والمشاهد أو على شواهد القبور وسائر العمائر فضلا عن الكتابات التى زخرفت بها المنسوجات ومن هذه الكتابات أمكن الاستدلال على أسماء العديد من أصحاب الخزف والمهن المختلفة ، وأسماء دور الطراز والأمراء والوزراء والخلفاء العباسيين والفاطميين .

وقد أفدت من المخطوطات العديدة التى أمكن الاطلاع عليهـا ، مثل كتاب فضائل مصر وأخبارها لمؤلفه ابن زولاق الذى كان معاصرا للاخشيديين وأوائل الحكم الفاطمى ، حيث أشـار الى شهرة مصر ووفرة خيراتها ومعادنها ، وما كان يعمل بهـا من الدواليب والأرحيـة والمناجيق وخبرة المصريين فى سائر الصناعات والفنون .

ومن المخطوطات التى رجعت اليها مخطوط عيون المعارف وأخبـار الخلايف لمؤلفه القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ ، حيث ترجع أهميته الى أن مؤلفه كان مؤرخا معاصرا للفاطميين ، وأنه أفادنى بصفة خاصة فيما بذله الخلفاء الفاطميون فى سبيل إقامة المساجد وشتى المنشآت فى عاصمتهم القاهرة . كما أفدت من مخطوطة صناعة الورق والليق والحبر المحفوظة بدار الكتب المصرية ، ومخطوطة عدة الكتاب وعدة ذوى العقول والآداب والألباب فى عمل الليق وصنعة الأدهان . فانهما كشفا النقاب عن طريقة الوراقين فيمـا كانوا يتبعونه فى تعتيق الورق وفى عمـل أنواع المداد والأحبار المختلفة ، وما يتصل بحرفة النسخ وزخرفة الخزف والزجاج ونحو ذلك من أعمال الرسامين والصباغين .

ونشير أيضـا الى بعض المخطوطات الأدبية التى أشادت بأصحاب الحرف والصنائع فى العصور الوسطى مثل مخطوط « النوادر والطرف للوظائف والحرف » لمؤلفه محمـد بن مسلم الشـافعى ، ومخطـوط « دار الطراز » لمصنفه ابن سناء الملك الأديب المتوفى سنة ٦٥٨ هـ ، فقد ألمح كل منهما الى ما كان شائعا من الطرف التى تخص أهل الحرف ومكانتهم عند الناس ، وما كانت تضمه دور الطراز أو مصانع النسيج من الحريريين والرسامين والمطرزين ونحوهم .

ونذكر من المخطوطات التاريخية مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لمصنفها ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، وكذلك الجزء السادس والعشرين من نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ، فقد أمدنا كليهما بمعلومات هامة عن سياسة الفاطميين وتسامحهم نحو أهل الذمة ، فضلا عما حمله المعز لدين الله من سبائك الذهب الى القاهرة ، وعن قيام الفاطميين بانشاء العديد من القصور والمناظر والمساجد وغيرها مما أدى الى ازدهار فن العمارة فى مصر الفاطمية .

ومن أقدم المصادر المطبوعة التى أفدت منها فى مجال البحث كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، فقد ألمح فى فقرات عديدة الى عرفاء القرى وعرفاء القبائل العربية ودورهم فى تقدير الضرائب والالتزامات الأخرى على الصناع ، كما أشار الى تخطيط الفسطاط واقامة الأسواق بها وما كانت تضمه من الحذائيين وأصحاب القراطيس ودار الضرب بالقرب من جامع عمرو بن العاص ، وعما اشتملت عليه دور الفسطاط من الحمامات التى تم بناؤها من الآجر والحجارة .

ومن المصادر الهامة التى رجعت اليها كتاب الولاة والقضاة للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، فقد أمدنا بأسماء الحكام والولاة المسلمين الذين لعبوا دورا هاما فى تشجيع الحرفيين وفى تقدم بعض الصناعات كصناعة النسيج والبناء منذ فجر الاسلام . أما كتاب ابن الكندى الذى ألفه فى عهد كافور الاخشيدى ، المعروف باسم فضائل مصر ، فقد أمدنى بالفقرات الهامة التى تشير الى شهرة مصر وما كان يعمل بها من السلع وأنواع النسيج من طراز البهنسا وغيرها من القصب التنيسى والديبقى وثياب دمياط ، وعما كان يحمل من مصر الى سائر بلاد العالم من قراطيس البردى وعسل النحل وغيرها من المواد المصنوعة بأيدى المصريين

وقد أفدت أيضا من كتاب سيرة أحمد بن طولون للمؤلف عبد الله البلوي المتوفى بعد نيف وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة ، لما اشتمل عليه من أخبار بناء القطائع وحصن الجزيرة ودار الصناعة ، واهتمام مؤسس الدولة الطولونية بدور الطراز وما كان ينسج بدمياط من الخلع الثمينة التى كان يقدمها الى بلاط العباسيين واهتمامه أيضا بديوان الانشاء وتفضيل المصريين على غيرهم من الكتاب للعمل به .

أما كتاب العيون الدعج فى حلى دولة بن طغج الذى نقله الينا ابن سعيد المغربى فى سيرة محمد بن طغج الاخشيد ، فلا شك أننى استفدت منه ، فقد أتى على ذكر أسماء المعماريين الذين قاموا ببناء القصر والبستان

ودار الصناعة فى عهد الاخشيديين كما أشار الى مشاركة أصحاب الحرف فى تلك الاحتفالات والمناسبات المختلفة التى أقيمت بالفسطاط .

ومن أهم المصادر الأصيلة المعاصرة نذكر كتاب أخبار مصر من تأليف المؤرخ الفاطمى محمد بن عبد الله المسبحى الذى تم نشر الجزء الأربعين منه مؤخرا فقد أشار الى الأسواق المشهورة مثل دار الجوهر ودار الصرف ودار الأنماط وسوق السلاح ، كما أشار الى دور المحتسب والوفاء وديوان العرائف ، وذكر بعض أسماء الدقاقين والنحاسين وفيما اشتهر بعضهم من عمل الدراهم والدنانير وصناعة الزجاج .

ومن المصادر التى اعتمدت عليها كتاب أخبار مصر لمؤلفه ابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وبخاصة فيما احتوت عليه خزائن القصور الفاطمية من أنواع السلاح والفرش والأمتعة والتحف وغيرها من الكتب والمجلدات الثمينة . كما أمدنا ابن ميسر بفقرات هامة عن اهتمام الفاطميين بصناعة البناء واقامة المرصد الفلكى وصناعة الكتابة وعن انشاء دار الضرب بالقاهرة فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله .

ومن المصادر التى أفدت منها كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية لمؤلفه منصور بن بعره الذهبى ، وهو من أغنى المصادر وأقدمها فى الحديث عن دور الضرب ودور الصناع بها من السباكين والضرابين فى مصر الاسلامية . كذلك كتاب أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار للمؤلف أحمد بن يوسف التيفاشى المتوفى عام ٦٥١ هـ ، وترجع أهميته الى أن مؤلف هذا الكتاب كان خبيرا فى خواص الأحجار الكريمة . وقد أشار الى كيفية استخراج الزمرد فى جنوب الصعيد والى خصائص حجر الطلق وجيد البلور ، والى صناعة المجوهرات الرائجة فى الفسطاط والقاهرة والاسكندرية وغيرها .

ووجدت فى كتاب قوانين الدواوين لابن مماتى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ من الفقرات والاشارات الحافلة بذكر المدن والجهات المصرية ودور الصناعة المختلفة كدار العيار ودار الضرب وخزائن السلاح ، فضلا عن الفقرات الخاصة بأنواع المراكب والسفن التجارية والحربية التى كانت تصنع فى مصر والاسكندرية ودمياط وغيرها من الثغور المصرية زمن الفاطميين ، بالاضافة الى ذكر أنواع الكتاب فى ديوان الخراج وغيره من الدواوين الحكومية .

ورجعت الى مقدمة ابن خلدون الشهيرة وأفدت منها خاصة تلك الفصول التى تحدث فيها عن أمهات الصنائع كالبناء والنجارة والحياكة

وشارات الملك المتصلة بالطراز والسكة والخاتم وغيرها من الأسباب التى أدت الى رواج الصناعات وازدهارها فى العصور الوسطى .

ولا يمكن أن نبخس أهمية كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار لمؤلفه ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ ، فهو سجل حافل بأسماء المدن المصرية وأسواقها الهامة وخاصة أسواق الفسطاط وقيسارياتها ودروبها مثل درب الحدادين والنجارين والحجارين والرفائيين ، وسوق السراجين والوراقين ، والأساكفة ، التى ظلت رائجة منذ عصر الولاة وحتى أواخر أيام الفاطميين ، كما أوضح ابن دقماق ما اشتهرت به الفسطاط من مطابخ السكر والصابون وغيرها من مسابك الزجاج والفولاذ والنحاس مما اختصت به العاصمة المصرية آنذاك دون غيرها من الديار المصرية .

ومن المصادر التاريخية التى استفدت منها كتب المقريزى ، مثل كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، واغاثة الأمة بكشف الغمة ، واتعاظ الحنفا ، وترجع أهمية مؤلفات المقريزى الى أنه نقل كثيرا من الفقرات والفصول عن المؤرخين الذين سبقوه من أمثال الكندى والقضاعى والمسبحى وابن الطوير وغيرهم ، ومن أهم الفقرات كانت ما نقله عن صاحب كتاب الذخائر والتحف التى أثرت البحث ، فقد أماطت اللثام عما كانت تحتويه خزائن الفرش والتحف والطرائف وغيرها من خزائن القصر الفاطمى وما بلغه الحرفيون والجوهريون وغيرهم من صناع الأسلحة من التقدم والرقى فى صناعتهم المختلفة .

ولا شك أننى اعتمدت كثيرا على كتب الرحالة والجغرافيين الهامة مثل كتاب البلدان لليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ، وما تضمنه من ذكر أسماء بعض مراكز الصناعات الهامة كصناعة البردى والنسيج . وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ، وما أشار فيه الى الجواهر الكريمة مثل الزمرد ومناطق استخراجه فى صعيد مصر ، وما كان يستخرج بالقرب من شواطئ الأسكندرية من أحجار البوقلمون وغير ذلك من أنواع المعادن التى كانت تجلب من بلاد الهند كالحديد والأخشاب كخشب العاج وسن الفيل أو العاج من سواحل أفريقية وغيرها .

وقد أفدت من كتب الجغرافيين والرحالة بصفة خاصة كتاب المسالك والممالك لابن حوقل المتوفى بعد سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وكتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم لمؤلفه المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ ، وترجع أهمية كل منهما الى ذكر أسماء المدن المصرية وبعض الجهات

وما اشتهرت به من الصناعات المختلفة كطحن الغلال واستخراج الزيوت وغيرها من صناعة الورق والنسيج منذ فجر الاسلام ، وما كان يجلب الى البلاد من المعادن المختلفة كالحديد والفضة والنحاس وما يصدر من مصر الى سائر أنحاء الدنيا من المصنوعات المصرية ٠

ولا شك أن كتاب سفر نامة للرحالة الفارسي ناصر خسروا الذى قام بزيارته لمصر فى عهد الخليفة المستنصر ، كان له من الأهمية خاصة فى وصف أسواق الفسطاط وما اشتهرت به المدن المصرية كتنيس ودمياط وأسيوط وقوص وعيذاب من الأنشطة الصناعية والاقتصادية المختلفة ٠ بالاضافة الى وصفه الضافى للقصر الفاطمى والدور فى كل من القاهرة والفسطاط مما أفادنى فى مجال الحديث عن مظاهر تقدم فن المعمار فى العصر الفاطمى ٠

كما أخذت من كتاب رحلة ابن جبير وكتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر لمؤلفه عبد اللطيف البغدادى ، فقد حفل كل منهما بالاشارات المفيدة فى مجال البحث ٠

ومن كتب الجغرافيين والرحالة كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م ، وقد رجعت اليه فهو سجل حافل بالبيانات والمعلومات الخصبة عن المدن والقرى المصرية وما اشتهر به أهلها من الحرف والصناعات فضلا عن المدن والجهات الأخرى فى البلاد الاسلامية التى كانت مصر تحصل منها على بعض المواد الخام كالحديد والفضة وغيرها ٠ ويشبه كتاب معجم البلدان فى الفائدة كتابى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للادريسى المتوفى سنة ٤٩٥ هـ / ١٢٥١ م وآثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى المتوفى سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣ م ، فهما من المعاجم الشهيرة أيضا التى حفلت بالأخبار والحقائق التاريخية عن المدن والجهات الاسلامية المختلفة فى العصور الوسطى ٠

وتأتى بعد كتب الرحالة فى الأهمية كتب الحسبة ، ومن أهمها كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى المتوفى سنة ٨٥٩ هـ ، وكتاب المدخل الى تنمية الأعمال بحسن النيات لابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧ هـ / ٦٣٣٧ م وكتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة لابن الاخوه القرشى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م وفى آداب الحسبة للسقطى وكتاب معيد النعم ومبيد النقم تاليف عبد الوهاب السبكى وكتاب الأحكام السلطانية لمؤلفه الماوردى ٠ وقد كانت من أهم المصادر الاسلامية فى معالجة دور المحتسب وأعوانه من العرفاء والأمناء حيث كان ينبغى عليهم مراقبة الحرفيين والصناع

جميعهم ، كما كان عليهم أن يكونوا من أهل الخبرة والمعرفة بأسرار الصنائع المختلفة وطرق غشها ومنع هؤلاء الحرفيين من فعل ذلك ٠

ولا شك أنني أفدت كثيرا من مصادر عربية أخرى مثل كتاب التبصر بالتجارة للجاحظ والاشارة الى محاسن التجارة للدمشقى ، والاشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها من المصادر الأصيلة كالكواكب السيارة لابن الزيات وصبح الأعشى فى صناعة الانشا للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢٣ هـ / ١٤١٨ م ٠

كما اعتمدت على مصادر فرعية أخرى تتمثل فى جملة من المعاجم العربية والأجنبية وعلى مواضع متفرقة من دائرة المعارف الاسلامية ٠

وقد استفدت أيضا فى بحثي هذا من بعض المراجع الحديثة ومنها مؤلفات الأساتذة : زكي محمد حسن ، حسن ابراهيم حسن ، محمد جمال الدين سرور ، حسن أحمد محمود ، عبد المنعم ماجد ، سيد كاشف ، سعاد ماهر ، حسن عبد الوهاب ، عبد الرحمن فهمي محمد ، ابراهيم أحمد العدوى ، راشد البراوى ، محمد عبد العزيز مرزوق ، ومن المؤلفات الأجنبية لكل من الفريد بتلر ، وجوستاف لوبون ، وجواتياين ، والفريد لوكاس ، وآدم متز ، وجونسون وفيت ولينبول وديماند وغيرهم ٠

كما يجب التنويه الى ما حظيت به من الفائدة العلمية خلال زيارتى لكل من المتحف المصرى والمتحف القبطى ومتحف الفن الاسلامى ، وما حفلت به من قطع النسيج والتحف الخشبية وأوانى الخزف ذى البريق المعدنى والمصنوعة من الزجاج وغيرها من ألواح الجص وبعض الألواح المنحوتة من الرخام ومن أنواع الحلى وأدوات السلاح والآلات والمعدات المعدنية الدقيقة التى صنعت بأيد مصرية خلال حقبة البحث التى قمت بدراستها ٠

ولا يسعنى فى ختام هذه المقدمة الا أن أتقدم بخالص شكرى لكل من قدم لى يد العون فى سبيل اخراج هذا العمل الى حيز النور ، كما أرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وفقت فيما قصدت ، وعلى الله قصد السبيل ؟

سوهاج   د٠ السيد طه ابو سديره

الفصل الأول

صناعة النسيج
منذ فجر الاسلام
حتى نهاية العصر الفاطمى

١ ـ صناعة النسيج فى عصر الولاة •

٢ ـ دور الطراز فى عهد الطولونيين والاخشيديين •

٣ ـ حرفة الصباغة وصناعة الألوان •

٤ ـ مظـاهر تقـدم صناعة النسيج •

٥ ـ مراكز صناعة النسيج وازدهار فن الزخرفة فى العصر الفاطمى •

١ ـ صناعة النسيج فى عصر الولاة

عرفت مصر زراعة الكتان منذ القدم في دلتا النيل وفى مصر الوسطى وخاصة في منطقة الفيوم (١) • كما عرف المصريون تربية الأغنام ، واستخراج مادة الصوف منها فى صعيد مصر ، وتدل أوراق البردى على وجود نقابات لرعاة الأغنام وغيرهم من أصحاب الحرف منذ العصر البيزنطى (٢) •

---

(١) أشار هيرودوت الى زراعة الكتان فى مصر والى ما كان المصريون يلبسون من ثياب الكتان ، وطريقة النسج المصرية منذ القرن الخامس قبل الميلاد • وانهم كانوا يدفعون اللحمة من أعلى الى أسفل ، بينما كان الاغريق وغيرهم ينسجون الكتان دافعين اللحمة من أسفل الى أعلى • كما اشار أدولف جرومان الى مراحل الاعداد والتجهيز لصناعة الكتان فى مصر الفرعونية ، حيث كانت تبدأ باقتلاع سيقان الكتان من جذورها وتجميعها وربطها فى حزم وتركها تجف ، ثم تمشيطها وتعطينها حتى يلين لحاؤها ، وطرقها بالمطارق وكشط اللحاء عنها ، ثم تندية اليافها وفتلها أو غزلها بالفلكة وأخيرا نسجها • وكانوا يستخدمون لها أنوالا أفقية يجلس الصانع أمامها على الأرض جلسة القرفصاء ، كما يجلس نساجو الحصير الآن •• وقد أشار بلينى الى الناحية التجارية لزراعة الكتان فى مصر اذ يقول : انه وبمعونتها تستورد مصر السلع التجارية من بلاد العرب والهند ، ويضيف الى ذلك أن مصر قد حصلت من الكتان على أعظم الأرباح •

هيرودوت يتحدث عن مصر ، ص ١١٧ ، ١٢٤ ، مصر والحياة المصرية القديمة ، ص ٥١٩ ـ ٥٢٠ ، لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٣٦ •

(٢) كانت أفروديتو (كوم اشقاو) وهى قرية حاليا تابعة لمركز طما بمحافظة سوهاج • تضم العديد من النقابات ومنها نقابة لرعاة الأغنام فى القرن السادس الميلادى •
Johnson : Byzantine Egypt, p. 153.

وقد اشتهرت كل من تنيس ودمياط والاسكندرية بنسيج الكتان في شمال البلاد ، وأيضا مدينة الفيوم ومدينة البهنسا (اكسيرنخوس) في ذلك العصر (٣) ·

وتشير المصادر الى وجود العديد من المناسج الخاصة بنسج الصوف وغيره من أنواع النسيج في كل من أسيوط ومدينة اخميم ، وكثيرا ما كان انتاجهما من النسيج يصدر الى روما وبيزنطة ، لاسيما المنسوجات الفاخرة التي كانت تستعمل كثيرا في الكنائس والأديرة ·

وقد أظهر الصناع الأقباط في هذه المناسج أو المصانع مهارة فائقة في تصميم نماذج من الزخارف الهندسية والنباتية ، مما عثر عليه مرسوما على أوراق البردى (٤) ، كما دلت قطع النسيج المحفوظة في بعض المتاحف على اسراف النساج المصريين قبل الفتح العربي في رسم الموضوعات الدينية المستمدة من الكتاب المقدس وشيوع استخدامها في زخرفة النسيج (٥) · كما ينسب الفضل في اختراع النول اليدوى الى هؤلاء النساج المصريين واستخدامهم له في مناسجهم منذ القرن الخامس الميلادى ·

أما عن الأقمشة الحريرية في ذلك العصر ، فكانت تنسج في دبيق والاسكندرية وكانت صناعة الحرير تخضع لقيود شديدة (٦) ، وحيث كان التجار يرتحلون للحصول على ما تحتاج اليه من بيزنطة من مواد الترف

---

(٣) Ibid, pp. 119-124.

(٤) يضم متحف برلين مجموعة من أورق البردى عليها مسودات تدل على أن النساجين المصريين كانوا يرسمون على تلك الأوراق لبيان زخرفة النسيج بطريقة القباطى (التابسترى) في مصر قبل الفتح العربي ·

Johnson : Ibid, p. 121.

(٥) يحتفظ متحف الفاتيكان بقطعة من النسيج المزخرف المصنوع من الحرير وعليها احدى صور البشارة للسيد المسيح ·

(٦) أصدر أباطرة الرومان عدة مراسيم وقوانين ، منها مرسوم سنة ٤٣٨م يحرم نسج الحرير بمصانع جنسيم التي كانت موجودة بالاسكندرية ، يبدو أن هـذا التحريم جاء نتيجة اخضاع الأقمشة المصبوغة باللون الأرجواني أو الموشاة بالذهب وغيرها من نسيج الحرير بمصانع جنسيم التي كانت موجودة بالاسكندرية ، يبـدو أن هـذا التحريم جاء في القرن الخامس جرائم الاعتداء على شخص الحاكم واستخدام الأفراد للثيـاب والجواهر المخصصة لهؤلاء الأباطرة ، وأصبح علاجها الوحيد احتكار الدولة وتحريمها لانتاج بعض السلع المحرمة · لوبز : محمد وشرلمان اعادة نظر ، ص ١٠٩ ، بحث ـ نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ ترجمة توفيق اسكندر ·

والزينة ، ومن بينها الحرير الخام من غلات الهند والصين لسد حاجة المصانع الامبراطوريه فى الاسكندرية ٠

وكانت غالبية الثياب منسوجة بطريقة القباطى ، وهى أعظم المنسوجات المزخرفة ، وقد حفلت قاعة النسيج بالمتحف القبطى بالعديد من القطع المنسوجه بهذه الطريقة التى يرجع تاريخ صناعتها الى القرن السادس الميلادى (*) ٠ ومن الواضح أن صناعة النسيج كانت من الحرف المألوفة لدى الرهبان داخل الأديرة ٠ كما أن مصانع للنسيج والصباغة كانت تمتلكها الدولة غير أن ذلك لم يمنع من تشغيل بعض المناسج فى دور بعض التجار الذين كانوا يستخدمون عمال المصانع الحكومية فى غير أوقاتهم المحددة ٠

وكان نساجو الكتان يشكلون فى أنحاء البلاد نقابات تحافظ على أسرار حرفتهم التى كانت تنتقل الى أفرادها بطريق التوارث ، كما اشتهر كل مركز أو مدينة مثل الفيوم أو اخميم بنوع من النسيج كانوا ينتجونه سواء للأسواق المحلية أو الخارجية ٠ وكان المشرف على اقامة الأنوال والمناسج يعطى لهؤلاء النساج تراخيص باقامة أنوالهم ومزاولة عملهم ، وذلك فى مقابل أقساط شهرية تدفع منهم كضريبة لمزاولة المهنة فى مناسجهم الخاصة ٠

وهكذا كانت صناعة النسيج فى مصر عند الفتح العربى فى منتصف القرن السابع الميلادى ، وكان العرب يعرفون قدر المنسوجات المصرية ويطلقون عليها عامة اسم القباطى نسبة الى أقباط مصر ، وقد روى المقريزى أن المقوقس أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أهدى قباء وعشرين ثوبا من القباطى ٠ كما ورد ذكر هذه القباطى فى عدة موضوعات، فيذكر الأزرقى أن عمر بن الخطاب كسا الكعبة بالقباطى من بيت المال وكان يكتب الى الوالى المصرى لصناعتها ٠ وكذلك فعل عثمان بن عفان بعده ، فلما تولى معاوية كسا الكعبة كسوتين كسوة القباطى فى آخر رمضان ، وكسوة الديباج فى يوم عاشوراء من كل عام ٠

وكانت الكسوة للكعبة الشريفة تصنع بشطا وتونة ، ويذكر المقريزى أن الفاكهى رأى كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعة فى طراز شطا كسوة الكعبة سنة ١٩١ هـ » ٠ ويذكر الفاكهى أيضا أنه رأى كسوة مما يلى الركن الغربى من الكعبة مكتوبا عليها : « مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى ،

(*) أرقام السجل : ٦٧٦٣ ، ٩٨٢٨ ٠

بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة » . كما روى كذلك أنه شاهد شقة من قباطى مصر فى وسطها ، الا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود ، مما أمر به أمير المؤمنين سنة ست ومائتين » .

وقد شجع الولاة العرب على ذلك أنهم قاموا بالاستيلاء على مراكز النسيج والمصانع العاملة بسائر الجهات والمدن المصرية والتى كانت ملكا للحكومة البيزنطية عند الفتح ، وكانت تلك المصانع تنسج بها الملابس الرسمية وغيرها للدولة ويتم ارسالها الى القسطنطينية . كما شجع فى نفس الوقت على تقدم صناعة النسيج فى العصر الأموى ميل الخلفاء والأمراء العرب ورغبتهم فى الاكثار من الثياب واقتناء الفاخر منها ، خاصة بعد أن زاد تدفق الثروة فى أيديهم من تلك الأقطار التى فتحوها ، فأقبلوا على المنسوجات المصرية وغيرها يسرفون فى اقتنائها ، ويحملون النساج على التسابق فى اجادة نسجها ، وابتكار الأنواع الجديدة منها .

وقد تحدث المسعودى عن اهتمام الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩ هـ) بأنواع الثياب الفاخرة وعمل الوشى الجيد لارتدائه (٧) ففى عهده لبس الناس جميعا جيابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته دون أن يكون عليه ثوب من هذا النوع . وكانت مدينة الاسكندرية شهيرة بانتاجه ، وكما يذكر الجاحظ فان خير الوشى السابورى ثم الوشى الاسكندرانى الكتان البحت .

وفى أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) عمل نوع من الخز (٨) أقبل الناس جميعا على استعماله .

ومن مراكز صناعة النسيج الهامة فى العصر الأموى ما كانت تشتهر بانتاج أنواع معينة من المنسوجات البيضاء أو الملونة الرقيقة أو الثقيلة التى أقبل عليها الحكام العرب وغيرهم من سائر الرعية فضلا عن المصريين ففى الوجه البحرى اشتهرت من هذه المراكز كل من الاسكندرية وتنيس ودمياط وغيرها ، وكانت مصانعها تنتج أنواعا من المنسوجات خاصة الكتانية البيضاء .

---

(٧) الوشى هو نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير وهى مرقومة بألوان شتى ، وكان يصنع منها فى كل من الاسكندرية واليمن والكوفة .

(٨) الخز هو نوع من نسيج الحرير ، أفضله كان مارق نسجه وثقل وزنه ، وأرداه الضعيف السدى الخفيف الوزن ، الرخو النسج ، الردىء الحرير .

الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٤٥ .

ويشير اليعقوبى الى شهرة مدينة تنيس الواقعة فى شمال الدلتا على جزيرة وسط بحيرة اشتهرت باسمها فى العصور الوسطى (بحيرة المنزلة حاليا) بصناعة المنسوجات الكتانية ، فهو يقول عنها : « وكان يحاك بها ثياب الشروب (٩) والأقمشة الرفيعة والرقاق من الدبيقى ، والقصب والبرود والمخمل والوشى » • وقد عمت شهرة ثيابها وكانت تصدر الى سائر الآفاق حتى قيل عنها فى صدر الاسلام « انه ليس فى الدنيا منزل الا وفيه من ثوب تنيس ولو خرقة » •

وكانت دمياط تقارب تنيس في الشهرة في نسج الكتان ، وكان يعمل بها فى عصر الولاة الثياب الشرب والقصب ، وربما بلغت الحلة من ثيابها اذا كانت مطرزة بالذهب ألف دينار ، وبدون ذهب بمائة أو مائتين دينار • واشتهرت من مراكز صناعة نسج الكتان ، التى اشتهرت بطرزها العديدة العامة والخاصة فى العصر الاسلامى ـ وما سنعرض له بعد قليل ـ من نواحى شمال الدلتا أيضا ، شطا ودبيق ودميره وتونه وكانت تقع بين دمياط وتنيس بالقرب من شاطىء البحر المتوسط ، وقد ذكرت المصادر عن شطا أن مصانعها كانت تنسج الشرب الرفيع الذى تبلغ قيمة الثوب منه ثلاثمائة درهم ، وكانت تعمل بها كسوة الكعبة فى طرازها الخاص •

أما دبيق فكانت من المدن المصرية الصناعية القديمة ، وذاعت شهرتها منذ فجر الاسلام بانتاجها للثياب المثقلة والعمائم والشرب الملونة والدبيقى المزركش ، وكان يصدر منه الى بلاد العالم الخارجى آنذاك •

كما أنتجت مناسج دميره الرفيع من المنسوجات والشرب ، وكذلك تونه وبوره فقد اشتغل الناس بهما فى نسج الثياب الكتانية ، وكانت توجد بها مصانع تابعة للدولة أطلق على كل منها دار الطراز • كما اشتغل الرهبان والراهبات فى الأديرة المصرية بحرفة النسج (١٠) ، وشاركت المرأة بالغزل فى المنازل خاصة فى مدن الدلتا ، حيث كانت تترك للرجال مهمة النسيج ، وقد كانت تتقاضى نظير عملها فى الغزل الأجر بحسب ما تقدمه ، مما ساعد فى ذلك الوقت على وفرة الانتاج من غزل ونسج الكتان وأنواع المنسوجات المختلفة منه •

---

(٩) وهى جمع شرب وهو مارق من الكتان ، أما القصب فهو نوع من القماش رقيق جدا يصنع من الكتان • الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٢٤٣ •

(١٠) يذكر لينبول أن الرهبان الأيرلنديين مدينون بالفضل لزملائهم الرهبان المصريين وذلك فى تعليمهم لهم العديد من الحرف الشائعة داخل الأديرة المصرية ، سيرة القاهرة ، ص ٧٢ ، ترجمة حسن ابراهيم وآخر •

وفى عصر الولاة اشتهرت مدينة الفيوم بصناعة ستائر ثمينة من الكتان يبلغ طول الستر الواحد منها ثلاثين ذراعا ، وقيمة الزوج منه كان يباع بثلاثمائة دينار · وكان أهالى مدينة البهنسا يعملون بالنسيج منذ العصر البيزنطى ، وقد ذاعت شهرتهم فى عصر الولاة ، والعصور اللاحقة بعد ذلك بعمل أنواع الستور والمضارب والفساطيط الكتان والطرف وغير ذلك ، ويذكر ابن حوقل أن قيمة زوج الستور من نسيجها كان يساوى ثلاثمائة دينار ·

أما حرفة غزل الصوف والاشتغال بنسجه ، فكانت تلى نسج الكتان فى الأهمية ، ومن أشهر مراكز نسج الصوف فى مصر الوسطى والعليا ، كانت البهنسا والقيس ومدينتى أسيوط وأخميم ، فقد انتجت البهنسا المنسوجات الصـــوفية بالاضافة الى شهرتها بنسج الكتان ، وكان يكتب على طرازها من النسيج اسم المتخذ له عادة ، استمر ذلك جيلا بعد جيل ·

كما اشتهرت فى صدر الاسلام مدينة القيس (١١) بانتاجها لثياب الصوف الجيدة ، وقد انفردت بعمل نوع خاص من آكسية المرعز العسلى غير المصبوغ ، ولم يكن له نظير فى المناسج الأخرى ، يذكر ابن الكندى أن معاوية لما كبر كان لا يدفأ ، فأجمعوا أنه لا يدفئه الا آكسية تعمل فى مصـــر من صـــوفها المرعزى العسلى غير المصـــبوغ ، فعمل له منها عدد ، فما احتاج منها الا الى واحد · وكما يذكر المؤرخون فان الصوف المصرى كان من خير الأكسية ، فقد ذاع صيته لجودة صناعته ودقته وما كان يصدر منه الى خارج البلاد ·

ومن مراكز نسج الصوف مدينة أســيوط ، وهى من أعظم مدن الصعيد ، وبها يعمل الفرش القرمزى الذى يشبه الأرمنى · وقد اكتسب صوفها شهرة واسعة فى ذلك الوقت وكان يسمى بالصوف المصرى · كما أن مدينة اخميم وكانت كورة الاقليم فى العصر الاسلامى فانها اشتهرت بنسيج الصوف وخاصة فى تلك الفترة الممتدة من أوائل القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الميلادى · (١٢)

(١١) تقع مدينة القيس غرب النيل ، وهى الآن قرية من قرى مركز بنى مزار محافظة المنيا وسميت كذلك نسبة الى قيس بن الحارث الذى أرسله عمرو بن العاص لفتح بلاد الصعيد ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ١٩٦ ·

(١٢) عثر فى المقابر القديمة التى نقب عنها عن نماذج ممتازة لنسيج يرجع أقدمه الى القرن الثانى أو الثالث الميلادى وأحدثه الى الثامن أو التاسع ، ويشبه نسيج اخميم فى تلك الفترة أرقى أنواع الجوبلان الفرنسى فى القرون الوسطى ·

سعد الخادم : الصناعات الشعبية فى مصر ، ص ٦٠ ـ ٦١ ·

ومن الجدير بالذكر أن مصانع النسيج فى تلك المدن كانت ملتزمة بانتاج كميات من الثياب الصوفية ، حيث كانت تعطى كنوع من الجزية ، يعزز ذلك ما ذكره البلاذرى بشأن تأدية هذه الجزية حيث قال : « وألزم جميع أهل مصر لكل رجل منه جبه صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخفين فى كل عام ، أو عدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا » وكانت الكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين من الجزية التى فرضت على المصريين ولعل شهرة مصر فى ذلك الوقت بانتاج الصوف وغيره من أنواع النسيج ، قد شجع الحكام العرب على تقرير ذلك ٠

ومما يذكره الكندى أنه فى ولاية الحسن بن التخناخ على مصر سنة ١٩٣ هـ ، قدم الوالى العطاء كاملا لديوان الخلافة ببغداد ، وكان قيمة الثلث منه من البز أو الثياب ٠

ويضم المتحف القبطى قطعا كثيرة من المنسوجات الصوفية ترجع صناعتها الى عصر الولاة ، منها قميص من الصوف منسوج بطريقة القباطى عليه زخارف آدمية ونباتية ، كما يحتوى المتحف على مجموعة من أدوات النسيج كأمشاط الأنوال الخشبية والمغازل التى رسم عليها بعض الزخارف الحيوانية والهندسية (١٣) وقد أشار ابن عبد الحكم الى تلك الدار التى كانت معروفة بدار المغازل بالحمراء بمدينة الفسطاط ، ومن أسماء العاملين بنسج الصوف وتجارته ، وصل الينا عن طريق أحد شواهد القبور وهو مؤرخ فى شعبان سنة ٢١٦هـ باسم : يعقوب بن يحيى الصواف الخولانى ٠

أما انتاج نسيج القطن ، فيبدو أنه ضئيل للغاية فى عصر الولاة ، ولم يكن يعمل منه فى مصر نسيج خالص ، بل كان النساج المصريون يمزجونه بالكتان أو الصوف (١٤) ٠ وهناك من يرى أن زراعة القطن وتجارته وصناعته قد اتسعت بعد الفتح العربى ، حتى أنه وجدت مخازن كبيرة للقطن بمدينة الفسطاط فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ٠

---

(١٣) عثر على هذه الأدوات الخاصة بالغزل والنسيج بمنطقة الفيوم وترجع صناعتها الى القرن السابع الميلادى ٠

(١٤) ذكر جروهمان فى تعليقه على قائمة حساب بزاز من القرن الثانى الهجرى أو الثالث أن القمصان كانت تصنع من الكتان والقطن والحرير المخلوط أو الجلد ، وجاء فى تعليقه على قائمة بثياب مختلفة تم بيعها لبعض الأشخاص ٠ وكان منها عمامة قطن أو كتان سعر الواحد منهما دينار ، مما يدل على أن العمائم فى مصر كانت تصنع من القطن أو القطن المخلوط بالكتان ٠

أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٢٨٠ ص ١٤٠ ٠

لكن الشيء الملاحظ أنه لم يرد ذكره فى أوراق البردى العربية (١٥) ، كما أن المتاحف المصرية قد خلت من وجود أية قطعة من نسيج القطن المصرى الخالص ترجع صناعتها أو نسجها الى تلك الفترة وحتى سقوط الدولة الفاطمية (١٦) ٠

ونختم الحديث عن صناعة النسيج فى عصر الولاة بتناول موضوع نسج الحرير ، وكان يستورد خام الحرير من الهند والصين قبل انتاجه محليا فى الشام ومصر فى القرن السادس الميلادى (١٧) ، ومن الملاحظ أنه بدأت صناعته تنتعش منذ العصر الأموى ، كما أشرنا الى ذلك من قبل حينما أمكن استخدام الوشي الجيد فى بلاط الأمويين ٠

وقد استمرت مراكز نسج الحرير فى مصنع الاسكندرية ومنسج دبيق ، التى اشتهرت به منذ العصر البيزنطى ، فكانت تنتج منه فى صدر الاسلام هذا النوع من نسيج الوشى ، وهى ثياب من الحرير مرقومة بألوان شتى (١٨) ٠ كما ظلت مدينتا اخميم وأسيوط فى صعيد مصر من أهم

---

(١٥) لم يرد لفظ القطن الا فى اشارة عابرة على احدى أوراق البردى تتضمن ثمن بيع القطن قرابة أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى ويبدو من الصيغة أن سعره كان مرتفعا للغاية حيث يشكو المشترى من ذلك السعر فقد جاء النص كالآتى : « قليل قطن يابا مقطلنى ، وسعر القطن عندنا سبعة أرطال بدينار وحسبى الله وحده » أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٧٩ ، ٨٠ ٠
Johnson : Byzantine, Egypt, p. 122.

(١٦) تشير المصادر الى أن زراعة القطن قد تم ادخالها الى مصر فى العصر الرومانى ، لكنه لم تذكر عنه المصادر شيئا الا نادرا فى أوراق البردى اليونانية التى ترجع الى العصر البيزنطى ٠

(١٧) ذكر جونسون Johnson أن انتاج الحرير بدأ منذ القرن الخامس أو القرن السادس الميلادى فى مصانع الحرير السورية بالشام ، كما ظهر تقليد نسيج الصوف وطريقة القباطى المصرية لدى الساسانيين فى مصانعهم ٠ وقد عثر على الحرير المنسوج فى كل من أخميم وناو وأماكن أخرى ، والذى ترجع صناعته الى القرن السادس الميلادى ، كما يحتفظ متحف برلين برسومات على أوراق البردى لطريقة نسجه فى ذلك الوقت ٠

(١٨) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ ٠

ولا غرو فقد كانت دور الطراز « جنسيم » التى وجدها العرب بالاسكندرية عند الفتح ، وهى تعنى المكان المخصص الملحق بالقصر وفيه ارقاء كانوا ينسجون ويصبغون الحرير ويعملون ملابس القصر ، وكان محرما على الرعية ان ينسجوا أقمشة تشبه تلك التى كان يعملها نساج القصر ٠ ويبدو أنها أصبحت ملحقة بقصر الوالى أو العامل بالاسكندرية فى العصر الأموى ، وزادت من انتاجها حتى أن أقمشتها صارت تصل الى بلاد المشرق والمغرب ٠

مرزوق : الزخرفة المنسوجة ، ص ٢٢ ـ ٢٣ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٤٩٦ ٠

مراكز نسج الحرير . وليس لدينا من دليل يشير الى توقف تلك الصناعة منذ ازدهارها فى العصر البيزنطى ، بل انه يوجد من الأدلة ما ينفى ذلك فقد عثر فى اخميم على لباس من الحرير كتب عليه اسم الخليفة مروان ، ولم يذكر تاريخ صناعته أو نسجه لمعرفة المقصود بالخليفة هنا هل هو مروان بن عبد الحكم أم أنه مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، ومهما كان الاختلاف فى نسبة الاسم فانه يكفى كدليل واضح على استمرار تلك الصناعة في ذلك العصر .

هذا ولم يقف الحكام والمسلمون الأوائل موقفا يؤثر على تقدم صناعة المنسوجات الحريرية ، ولكنهم عملوا فقط على تنظيم استعمالات الحرير ، وربما كان فى انتاجه للنساء دون قيد ، وتحديد استخدامه بالنسبة للرجال (١٩) ، قيمة من الناحية الفنية ، ففى ظل ذلك التحديد ازدهرت طريقة تزيين الأثواب بالأشرطة الحريرية بطريقة التابسترى أو القباطى المصرية الشائعة .

ومن أسماء صناع الحرير فى مصر فى ذلك الوقت ، كما ورد على شاهد رخام مؤرخ فى صفر سنة ٢٤٠ هـ/يوليو ٨٥٤ م ، عبد الله بن أحمد المصفى الحريرى ، حيث كان يطلق لفظ الحريريين على المواضع التى اتخذوها أسواقا لتجارة الحرير أو صناعته فى العصور الوسطى . كما يضم متحف الفن الاسلامى من كان يشتغل بالأدب أيضا ، مثل السرى الشاعر المعروف بالسرى الرفاء . وأيضا وردت أسماء على شواهد حجرية كان أصحابها يعملون بمهنة الحياكة وتفصيل الثياب . وهكذا حفلت المتاحف بأسماء العديد من هؤلاء المشتغلين بحرفة النسيج وما يتصل بها فى مدينة الفسطاط وغيرها من المدن المصرية (٢٠) .

---

(١٩) يرى كريستى أنه على الرغم مما ورد عن النبى (ص) أنه كان يحرم استعمال الملابس الحريرية تحريما باتا فان المسلمين لم يكتفوا بتشجيع مصانع الحرير القائمة بل كانوا ينشئون مصانع الحرير اينما ذهبوا » .

تراث الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٦١ — ترجمة زكى محمد حسن .

(٢٠) من تلك الشواهد الرخامية المحفوظة بمتحف الفن الاسلامى شاهد مؤرخ سنة ٢١٧هـ باسم أحمد بن عبد الحميد الحيات ، وشاهد آخر من أسوان باسم آمنة ابنة عيسى ابن جميل الخياط .

حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، جـ ١ ، ص ٥٠١ .

وهكذا استمرت صناعة النسيج في عصر الولاة ، والتي يمكن القول بأنها كانت امتدادا طبيعيا لما كان سائدا منذ العصر البيزنطي ، وان ازداد نشاطها لتلبية احتياجات البلاط الأموى ، والخلافة العباسية فى صـــدر الاســلام ، فضلا عما كانت ترسله مصر الى بلاد الحجاز ولا سيما كسوة الكعبة الشريفة ٠

وليس من شك في أن تشجيع الولاة ، فضلا عن وفرة المواد الخام داخل البلاد من الكتان والصوف ، كان خير حافز للصناع الأقباط من أجل العمل على تطوير صناعتهم ، بما يتمشى وتعاليم الدين الاسلامى (٢١) ٠ وقد ظهـر ذلك جليـا فيما أنتجته دور الطراز المصرية فى شـمال البلاد وجنوبها ، خاصة فى مصر الوسطى ٠

(٢١) ذكر البيهقى أن طراز القراطيس والثياب والستور وغيرها مما كان يصنع فى مصر كان يحمل طراز الروم ، فلم يزل كذلك فى صدر الاســلام الى أن ولى عبد الملك ابن مروان شئون الخلافة ، وقام بتعريب الدواوين ، يقول البيهقى : « فأمر بالكتابة الى عبد العزيز بن مروان وكان عامله على مصر ، بابطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من أثواب وقرطاس وستر وغير ذلك » وهكذا أصبح الطراز أو ما يكتب على النسيج وغيره من أوراق البردى ذا طابع اســلامى ، حيث لم يقتصر الطراز على ما كان يطرز به النسيج أو ما شاع بعد ذلك فى اطلاقه على المصنع أو المكان الذى تصنع فيه مثل هذه المنسوجات ، بل أطلق كذلك على الكتابة الرسمية التى كانت تكتب على درج البردى أو القراطيس ٠

المحاسن والمساوىء ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ ــ ١٢٧ ، جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ١ ، ص ٣ ــ ٤ ٠

٢ ـ دور الطراز فى عهد الطولونيين والاخشيديين

اختلف المؤرخون فى تعيين الموطن الأصلى الذى نشأت فيه مصانع الطراز (١) وكان ابن خلدون على رأس الفريق الذى قال بأن مصانع الطراز الفارسية كانت هى الأصل فى ذلك النظام ، اذ كان من عادة ملوك فارس قبل الاسلام أن يزينوا ملابسهم بصور الملوك وبأشكال معينة تمييزا لهم عن غيرها . ومما يعزز هذا الرأى ما أوضحه روبرت سى . لوبتز أحد الباحثين الغربيين حين قال بأن العرب اتخذوا مثل هذا الاجراء فى ثيابهم الرسمية المطرزة تقليدا لملوك الفرس .

أما الفريق الثانى وعلى رأسه كرابتشك وكونل ، فقد لجأ الاثنان الى مصانع جنسيم التى كانت قائمة فى الاسكندرية زمن الفتح العربى ، حيث عثرا على قطع من النسيج المصرى عليها أسماء بلاد وأشخاص ، مما يدل على أن عادة التطريز للثياب كانت بيزنطية الأصل ، وأن هذه المصانع كانت تحتفظ بسر نظام العمل بالنسبة لبعض الأقمشة الغالية .

والواقع أن مصـــانع الطراز الحكومية كانت موجـودة فى الدولة

---

(١) كلمة طراز فارسية الأصل مأخوذة من كلمة (طرازيدن) ومعنـــاها التطريز وأطلقت على الثوب الذى يزدان بشغل الابرة ، ويذكر ديماند أن طراز تعنى ذلك الشريط المشتمل على كتابة منسوجة أو مطرزة ، وكذلك أطلقت على الأقمشة المزخرفة بهذه الطريقة ، ثم صارت تطلق على المصنع أو المكان الذى تطرز فيه هذه الأشرطة وتنتج فيه هذه الأقمشة . وخير مثال على ذلك ما أوضحه المقريزى فى طراز مدينة البهنسا حيث كانت تكتب على الثياب أو الستور اسم المتخذلة ، مضوا على ذلك فى مصانعهم جيلا بعد جيل » ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٣ ، ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٤٩ ، سعاد ماهر : النسيج الاســـلامى ، ص ٢٤ .

الساسانية والبيزنطية على السواء ، ولكن مصر كانت تابعة للبيزنطيين ، وظلت مصانعها تنتج أنواعا من الثياب عليها الطراز البيزنطي حتى عهـد الخليفة الأموى ابن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) حينما أمر أن تكون الكتابة على النسيج باللغة العربية ، يقول البيهقى (٢) « فأمر بالكتابة الى عبد العزيز ابن مروان وكان عامله بمصر بابطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك ، كما أمر واليه وابنه عبد الله بن عبد الملك بعد ولايته على مصر سنة ٨٦ هـ بأن يتخذا زيا مخالفا لزى الأقباط ، ومن ثم ظهرت بعض الحروف العربية والعبارات الاسـلامية مكتوبة على النسيج المصرى ومنها « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

ولعل مصانع الاسكندرية الحكومية التى أطلق عليها الجنسيم فى مصر البيزنطية ، كانت أول دار للطراز اتخذتها الادارة الأموية ، خاصة فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) يؤيد ذلك قطعة من النسيج عثر عليها ومحفوظة في متحف الفن الاسلامى يرجع تاريخها الى عام ٨٨هـ .

وتشير المصادر الى وجود نوعين من الطراز ، حيث نشأت المصانع الحكومية التى أطلق عليهـا دار الطراز الخاص ، وكانت هناك مصـانع حكومية أيضا تمثل دور الطراز العامة ، وقد كانت تماثلها فى انتـاج ما يحتاج اليه الخلفاء الأمويين والعباسيين من ملابس وثياب وخلع وكسوة للكعبة ، غير أنها تزيد على ذلك بانتاج منسوجات أخرى لأفراد الشعب . يدلنا على ذلك قطعة من الكتان الأبيض عليها أسطر بالحرير الأحمر نصها « هـذه العمامة لصمويل بن عيسى ، عملت فى شـهر رجب من الشهور المحمدية سنة ثمان وثمانين » .

وقد خضعت كل من المصانع أو دور الطراز الخاصة والعامة فى العصر العباسى ، وأصبحت تشرف عليها الحكومة اشرافا تاما ، وكان لزاما على

---

(٢) المحاسن والمساوىء : جـ ٢ ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

ويذكر البيهقى وكما نقل الدميرى عنه أن السبب فى تغيير الطراز أن القراطيس المصرية كانت تطرز بالرومية وعليها العبارات المسيحة (الأب . الابن . الروح القدس) وانه حدث أن وقع قرطاس منها فى يد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وحينما ترجم له معنى ما ورد على طراز ذلك القرطاس أنكر ذلك وأمر بأن يستبدل الطراز بسورة التوحيد (وشهد الله أنه لا اله الا هو) وكذلك الأمر بالنسبة للستور والثياب وغيرها .. ومهما كان مبلغ صدق الرواية فانها تتفق وتلك السياسة العامة التى اتخذها وهى تعريب الدواوين فى عهده ، وحيث اللغة العربية أصبحت هى اللغة الرسمية فى جميع أجزاء الامبراطورية الاسلامية . المحاسن والمساوىء ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ، الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ، جـ ١ ، ص ٥٨ ، ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ ـ ١٦٩ .

تلك المصانع أن ينسج شريطا من الكتابة العربية يحمل اسم الخليفة ومكان الطراز كما كان على صاحب الطراز أن يختار من القطع التى تصنع بدور الطراز ، فيرسلها الى الخليفة تمشيا بما كان يقتضيه نظام الالتزام • وكان الخليفة العباسى يخلع بتلك القطعة المختارة على كبار رجال دولته وذلك تقديرا منه على جليل أعمالهم •

ومن أقدم المنسوجات التى وصلت الينا من العصر العباسى من دور الطراز المصرية التى كانت تزين الأقمشة المنسوجة من الكتان بزخارف من الحرير تلك القطعة المحفوظة بمتحف برلين والمسجل عليها اسم الخليفة هارون الرشيد واسم مروان بن مرعى ، وعليها الكتابات الكوفية والأشكال الهندسية وهى منسوجة بخيوط من الحرير المتعدد الألوان • وقد عثر أيضا على قطعة نسيج صنعت بطراز العامة بمصر للخليفة الأمين ، وعليها الكتابة الآتية : « بسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعته فى طراز العامة بمصر على يدى الفضل بن الربيع ولى أمير المؤمنين » •

والواقع أنه كان لتنظيم دور الطراز فى سائر الولايات الاسلامية أهمية كبيرة عند الخلفاء ، فقد كانوا يتبارون فى ارسال الكسوة السنوية الى الكعبة من المنسوجات النفيسة ، وقد اشتهرت دور الطراز المصرية فى تنيس وشطا ودبيق وغيرها بصناعة هذه الكسوة الشريفة فى ذلك الوقت• كما عنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة ، وكانت الكتابة على النسيج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان •

وقد برع النساجون والمزخرفون فى تطريز اسم الخليفة وألقابه ، وبعض عبارات الأدعية ، وكثيرا ما كان يذكر اسم المدينة أو الجهة التى تضم دار الطراز الخاصة أو العامة ، وكذلك اسم الوزير وصاحب الخراج وناظر الطراز ، وكان الغرض من هذه الكتابات على الأقمشة اثبات اسم الأمير أو الوالى الذى عملت فى عهده ، أو ذلك الشخص الذى خلعت عليه •

وكان من أشهر مراكز الدلتا الصناعية دور الطراز العديدة بها كطراز كل من تنيس وتونه ودبيق ودمياط وشطا والاسكندرية وكانت تنتج

أنواعا من المنسوجات المركبة المزركشة أو ما عرف فى ذلك الوقت بنسيج الزردخان (٣) ٠

كذلك كانت تضم الفسطاط دارا للطراز الخاصة وأخرى عامة ، وقد أحصى فيه العديد من القطع التى تم نسجها فى طراز العامة بمصر، كما عثر على قطعة صنعت فى عهد الخليفة المأمون فى طراز الخاصة وذلك فى سنة ٢١٦ هـ ، وهناك قطعة من النسيج باسم المعتز بالله عملت فى طراز العامة بمصر ترجع صناعتها الى سنة ٢٥٤ هـ ٠

واشتهرت من دور الطراز أيضا طراز الفيوم وطراز القيس والبهنسا وغيرها ، وكان طراز الفيوم بعضه منسوج من الكتان ، والشريط المزخرف من الصوف أو الحرير ، والبعض الآخر رقعته مرسومة من الصوف ومن الجدير بالذكر أن طراز الفيوم فى صدر الاسلام قد أخذ الكثير من عناصر الزخرفة القبطية ، أما طراز القيس التى كانت شهيرة بانتاج نوع من الصوف الجيد ، فقد عمل الصناع على أن تكون زخارفه متميزة عن الطرز الأخرى ، حيث حصرت تلك الزخارف فى أشرطة أفقية متعددة ، تملأ جزءا كبيرا من النسيج ، فكانت أرضيته من الصوف ٠ والواقع أن أهم ما كان يميز دور الطراز فى تلك الفترة انما كانت طريقة الزخارف التى عن طريقها أمكن تحديد أماكن وجهات وتواريخ صناعتها ، وقد كانت ألوان الزخارف باختلاف مادة النسيج ، وتلك الرسوم الحيوانية والنباتية التى كانت تملأ الفراغ كله أو بعض من أرضية النسيج ٠

ويمكن القول بأن صناعة النسيج فى العصر الطولونى كانت تمثل فترة انتقال بين العصر القبطى والعصر الاسلامى الخالص زمن الفاطميين ، ولم يكن من الممكن معرفة ذلك الا بواسطة تلك الزخارف التى عثر عليها فى قطع النسيج المختلفة ٠ ولا شك أن دور الطراز قد نشطت فى انتاج المقادير الكبيرة من المنسوجات تلبية لاحتياجات البلاط الطولونى ومظاهر الدولة شبه المستقلة ٠

ومن المعروف أن الجزية التى كانت ترسلها مصر الى بلاط الخليفة

---

(٣) الزردخان : كلمة فارسية معناها دار السلاح ، ولعل السبب فى اتخاذها اسما لتلك المنسوجات ، انما يرجع الى أن الدروع المتخذة من الزرد المانع وغيرها من الأسلحة كانت تغطى بطريقة من نسيج سميك مزركشة من الحرير الأصفر والأحمر وغير ذلك ٠ والواقع أنه لا غرابة فى ذلك فان دلاص (من أعمال الصعيد) كانت فى فجر الاسلام مشهورة بصناعة نوع من الدروع الكتانية ٠٠ الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٢٥٦ ، سعاد ماهر : النسيج الاسلامى ، ص ٦٩ ٠

العباسي والهدايا التي أرسلها أحمد بن طولون كانت جميعها من دور الطراز في العصر الطولوني ، فقد ذكر البلوي أنه أنفذ كاتبه الى الحضرة أحمد ابن محمد الواسطي ، وحمل اليه من المال وكل شيء حسن وغريب من دق تنيس ودمياط ومن الخيل والبغال بما يحوز الوصف حسنًا وقدرا ، وكذلك الهدايا التي بعث بها أبو الجيش خمارويه بعد وفاة أبيه الى الخليفة المعتضد عام ٢٧٩ هـ ، فقد كانت تضم كثيرا من المنسوجات النفيسة والأقمشة الفاخرة ، ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد يرجع تاريخها الى سنة ٢٧٨ هـ/٨٩١ هـ · وتشبه كل الشبه قطعة أخرى باسم المعتمد وجدتها البعثة في سامرا ، وهي محفوظة الآن بالقسم الاسلامي من متاحف برلين ·

ومما يؤيد ذلك ما يذكره الطبري ، فقد أشار الى أنه حمل مع ابن الجصاص الجوهرة الى المعتضد الهدايا ومن بينها صندوقان فيهما طراز وذلك في عام ٢٧٩ هـ ، ولا شك أنها كانت من مصانع الطراز الخاصة بمصر ·

وفي العهد الطولوني استمرت دور الطراز بمصر في تنيس ودمياط وشطا ودبيق والاسكندرية في انتاج كسوة الكعبة ، وتلك الخلع الثمينة التي كان يغدق بها الخلفاء والأمراء على رعاياهم تشجيعا لهم ، وتقديرا لخدماتهم الجليلة ، وكانت هذه الدور تضم من النساج والصناع فمنهم الحريري والمذهب والساذج والمعلم وغيرهم من أصحاب حرفة النسيج ·

كما نهجت تلك المصانع في مدن الصعيد نفس النهج مثل الفيوم والبهنسا والأشمونين وطحا واشتهرت بطرزها المختلفة ، ولم يختلف المنتج منها الا في ذلك الأسلوب الزخرفي الذي جاء على غرار طراز سامرا ، الذي شجع عليه ابن طولون وأبناؤه من بعده · الا أنه من الملاحظ أن هذا الطراز لم يستمر طويلا على النسيج المصري ، اذ لم يلبث أن اختفى بمجرد سقوط الدولة الطولونية في سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م (٤) ·

وقد بقيت المصانع الأهلية بجوار مثيلاتها الحكومية ، بسائر المدن تعمل في الانتاج دون طراز ، وتمد التجار بحاجاتهم من مختلف الأقمشة

---

(٤) لم ينتشر هذا الأسلوب الزخرفي في طراز مصر الخاصة أو العامة الا بعد أن جاء اليها ابن طولون عام ٢٥٤هـ وكان لنشأته في قصر الخلافة ببغداد — وتأثره بالفن السامرائي السائد بها الى حد كبير أثر واضح في نقل طراز سامرا العراقي الى مصر ·

Garner : I lamic pottery, p. 49.

ويظهر أنه لم تكن حرة في نسج ما تشاء بالقدر الذى تريده (٥) ، بل كانت الحكومة هى التى تمدها بالمواد الخام التى كانت تختم عادة بدور الطراز أو المصانع الحكومية للنسيج - وكانت الحكومة تختص وحدها ببيع تلك المواد الخام بالسعر الذى تحدده بمعرفة موظفى دور الطراز ٠

وقد كانت دور الطراز تكلف النساج فى تلك المصانع الأهلية أن يحملوا ما ينسجون الى مكان خاص يحدد لهم ، حيث تطوى فيه الأثواب وتشد وتوضع فى الأسفاط ، وكل عملية من هذه العمليات كان يقوم بها أحد موظفى دور الطراز الذى كان يحصل على أجر عمله من صاحب المصنع الأهلى ٠ أما دور الطراز الخاصة والعامة فكانت تتبع بيت المال فى الفسطاط ، وكان يشرف عليها موظف كبير يسمى صاحب الطراز أو ناظر الطراز ، وكان مقره الفسطاط ، يتبعه مساعدون فى مصانع النسيج فى الأقاليم ، كان يسمى المتوكل بطراز الأقاليم ، فقد جاء فى وثيقة بردية ترجع الى القرن الثالث الهجرى « قبض حسين بن يحنس بن رماح بن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصنى » ٠

وقد حفل جامع الكتابات الكوفية الذى صنفه عالم الآثار (فيت) بأسماء العديد من دور الطراز ، وبيان قطع النسيج وتواريخ نسجها فى مصر الاسلامية ٠ فمن هذه القطعة التى وردت قطعة باسم الخليفة المهتدى، عملت بطراز الاسكندرية على يد محمد بن هلال سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م ٠ وقطعة نسيج حملت اسم أمير المؤمنين أيده الله ، مما عمل بطراز الاسكندرية أيضا وذلك فى سنة ٢٩٦ هـ أى بعد زوال الدولة الطولونية ٠

ومن القطع التى عملت بطراز الخاصة والعامة بتنيس بشمال الدلتا، قطعة من النسيج تحمل اسم الخليفة المعتمد وقد تم انتاجها فى طراز تنيس سنة ٢٧٨ هـ / ٩٨ م ٠ وهناك قطعة ثالثة باسم المعتضد والأمير أبو موسى هرون بن خمارويه صادرة من طراز تنيس على يدى عمر بن شاهين وعبد الغفار بن جمعة فى سنة ٢٨٥ هـ ٠ ولعل عمر بن شاهين كان هو المتوكل على الطراز فى ذلك الوقت ٠

ومن قطع النسيج التى انفردت بحمل اسم هرون بن خمارويه قطعه

---

(٥) تشير بعض أوراق البردى الى حسابات خاصة لبعض الأشخاص الذين كانوا يودعون أغناما لدى بعض الرعاة لتربيتها فى مقابل اعطائهم الأجر المناسب ، وترجع هذه الأوراق الى القرن الثالث الهجرى ، ومن المرجح أن مالكى هذه الأغنام كانوا يستغلونها فى الحصول على مادة الصوف منها ، أو هؤلاء التجار الذين كانوا يملكون بعض المصانع الأهلية للنسيج ٠

عملت بطراز تنيس على يدى محمد بن خلف ويرجع تاريخها الى سنة ٢٨٧ هـ • وكذلك وردت قطعة نسيج تحمل اسم الخليفة المعتضد وهرون ؛ وقد تم نسجها أيضا فى طراز تنيس وترجع الى سنة ٢٨٨ هـ ، كما حملت اسم عبيد الله بن سلمان متولى دار الطراز • وقطعة أخرى وردت باسم المكتفى بالله من طراز العامة وتنيس سنة ٢٩٣ هـ •

ومما تجدر الاشارة اليه أن مؤسس الدولة الطولونية منذ توليه حكم مصر لم يحرص على ذكر اسمه فى الطراز لأنه كان يعمل على أن يظل ولاؤه للخليفة العباسى نفسه (٦) . أما خمارويه وهارون فقد ظهرت أسماء كليهما فى طراز تنيس ودمياط وغيرهما كما أشرنا من قبل ، فمن القطع التى حملت اسم الخليفة المكتفى وخمارويه تلك القطعة التى أمر بعملها فى طراز دمياط فى سنة ٢٨٩ هـ •

كما أنه يمكن القول بأن العهد الطولونى لم تخل فيه قطع النسيج أو المنسوجات من تلك التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية والتى ظلت سائدة فى صناعة النسيج ، وقد لعبت دور الطراز فى زخرفة المنسوجات دورا هاما ، حيث حرصت الادارة الحكومية على استخدام أمهر النساج وأمهر الرقامين ، وأغلى المواد الخام ، حتى تنتج من أفخر الثياب ما يتناسب بالخلفاء والأمراء العباسيين ورجال دولتهم فى ذلك الوقت •

وكانت المصانع الأهلية تحاول السير على منوال دور الطراز ، وتستمد الوحى فى اتقان الصنعة والزخرفة مما تنتجه تلك الدور الحكومية ، يؤيدنا فى ذلك ما ذكره المقريزى عن شهرة ثياب الاسكندرية خاصة نوع الشرب، حيث بلغ من قيمة الثياب المنسوجة فى مصانعها الأهلية ، أنه كان يباع كل زنة درهم منها بدرهم فضة ، وما يدخل فى الطراز منه كان يبلغ ثمنه أضعاف ذلك • ومن هؤلاء الديباجيين الذين كانوا يعملون بنسج الحرير وتجارته فى عهد الطولونيين أحمد بن الحسين بن عبدان المعروف بالديباجى وكانت وفاته فى سنة ٢٩٣ هـ •

وبعد سقوط الدولة الطولونية وعودة مصر الى حظيرة الخلافة العباسية ، أصبحت دور الطراز المصرية تنتج فاخر الثياب وعليها طرازها وترسل الى بغداد وكانت تحمل أسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم فى نفس

(٦) وتظهر اهمية ذكر الخليفة على الطراز مما ذكره ابن الأثير فى سنة ٢٦٩هـ حينما لعن الخليفة المعتمد ابن طولون فى دار العامة وأمر أن يلعن كذلك على المنابر لأن ابن طولون امتنع عن ذكر الموفق فى خطبة الجمعة وحذف اسمه من الطراز • تاريخ الكامل ، جـ ٧ • ص ١٦١ •

الوقت ، وقد أحصى (فيت) من قطع النسيج التى أنتجتها مصر وعليها أسماء الخلفاء ، فوجد العديد منها مما عمل بطراز الخاصة والعامة ، بمدينة الفسطاط ، منها قطعتان تحملان اسم الخليفة العباسى وترجع صناعتها الى سنة ٢٩٤ هـ . وقطعة أخرى مما عمل بطراز العامة بمصر سنة ٢٩٨ هـ وتحمل اسم الخليفة المقتدر ، وحملت قطعة من النسيج أيضا من نفس دار الطراز ترجع الى عام ٣٠٠ هـ .

وقد تكرر اسم شقيع المقتدرى صاحب الطراز فى تلك الفترة ، فقد ورد اسمه في طرز كثيرة ، كما تكرر اسم الوزير العباسى على بن عيسى وقد حملت اسمه قطع من النسيج ، وأيضا الوزير حامد بن العباس وعلى ابن محمد من الوزراء العباسيين . واشتهرت من دور الطراز فى تلك الفترة كل من طراز تنيس ودمياط ودبيق والبهنسا ، فضلا عن طراز الاسكندرية الشهير . ومن بين تلك القطع التى عملت فى طراز العامة بمدينة دمياط ، قطعة تحمل اسم الوزير العباسى على بن محمد ومعه بشر الخادم مولى أمير المؤمنين ، يرجع تاريخها الى سنة ٢٩٦ هـ .

وقد ظل نظام الطراز يتطور حتى بلغ فى العصر الاخشيدى حدا كبيرا من الجودة والانتاج ، وكانت الحكومة تراقب صناعة النسج الأهلية مراقبة دقيقة وتختم الأقمشة بخاتم رسمى ، ولا تسمح بأن يتولى التجارة فيها الا التجـار الذين ترخص لهم بمزاولة هـذا العمل . وكان عليهم تقييـد ما يبيعونه فى سجلات رسمية . كما كان حزم الأقمشة وربطها وشحنها لا يقـوم به الا عمال من طرف الحـكومة ، يتبادل كل منهم ضريبة معينة كموظف مسئول عن هذه الصناعة .

واهتم محمد بن طغج الاخشيد فى أعقاب توليه الحكم للمرة الثـانية بشئون الصناعة ومنها صناعة النسيج ، وأنشأ بجزيرة الروضة خزائن للكسوة تضم مجموعة من الحرفيين العاملين فى مجال الحيـاكة والنسج والتطريز . كما أنشأ المتاجر الخاصة بالثياب والمنسوجات بمدينة الفسطاط ومنها السوق الخاصة التى تسمى قيسارية البز ، مما يدل على ازدهار تلك الصناعة ورواج تجارتها .

وكانت الفسطاط تزخر بألوان الزينـة وأنواع الديبـاج المثقل فى أسواقها وشوارعها ، فقد ذكر ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق لما أرسـل الخليفة الراضى (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) الى الاخشيد بكسوة الشرف وخلعة الولاية اكتظت الشوارع والأسواق بالأقمشة الثمينة والسجاجيد الفاخرة . وزينت أبواب المسجد العتيق بالأقمشة الحريرية المشجرة بالذهب وذلك بمناسبة تولية الاخشيد شئون مصر فى سنة ٣٢٣ هـ .

وقد كتب ابن حوقل الجغرافي والرحالة المعاصر للاخشيديين عن شهرة تنيس ودمياط وذكر ما بهما من الحلل السنية التي ليس في جميع الأرض ما يدانيها في الحسن والقيمة . وربما بلغ الثوب من ثيابهم مائتي دينار اذا كان فيه ذهب ، وما لا ذهب يبلغ المائة دينار ، كما أشار الى ما كان يصنع في البهنسا من الستور والبسط والمضارب والفساطيط وذكر أن الزوج من بعض هذه الستور كان يساوي نحو ثلاثمائة دينار .

وكانت المنسوجات المصرية في العصر الاخشيدي لا تزال متأثرة بالزخارف التي استعملها النساجون في نهاية العصر القبطي وفي فجر الاسلام ، وأكثرها رسوم طيور أو حيوان أو أشكال آدمية صغيرة في جامات بيضية الشكل متعددة الأضلاع أو موزعة توزيعا غير منتظم ، وفيها أشكال هندسية وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة .

وقد اشتهرت الثياب الدبيقية بزخارفها المتنوعة والتي كان يلبسها بعض الناس في عاصمة الخلافة العباسية ، ومنهم خدم الوزير علي ابن الفرات . وكان ساقي العامة ببغداد في ذلك الوقت ، يسير مؤتزرا بمنديل مصر ، ومعتما بمنديل دبيقي من طراز دبيق ، كما وردت على أسواق بغداد البسط الدبيقية المطرزة .

وكانت مصر في ذلك العصر تصدر من المنسوجات الى أسواق بغداد ما قيمته عشرون ألف دينار الى ثلاثين ألف دينار سنويا ، وظلت هذه المنسوجات ترد الى العراق الى أوائل الحكم الفاطمي ، حيث منع الوزير يعقوب بن كلس تصديرها الى العاصمة العباسية .

وبرغم المنازعات السياسية بين الدولة الاسلامية وبيزنطة ، فانه لم تتوقف العلاقات التجارية ، اذ كانت بيزنطة في حاجة الى بعض المصنوعات المصرية الممتازة خاصة ما ينتج في مدينتي تنيس ودمياط من أنواع النسيج ، وكثيرا ما عمل الأباطرة البيزنطيون على شراء تلك الأنواع الفاخرة لتزيين قصورهم .

وقد بلغت شهرة دور الطراز المصرية وما تنتجه من منسوجات ثمينة جعلت الحكام والأمراء وعامة الشعب معها يقبلون على اقتنائها ، ووسيلة للاهداء والتقرب ، فيما ذكره المقريزي أنه لما حج الوزير أبو بكر محمد ابن علي الماذرائي كان من بين ما وهبه للقرمطي بمكة المكرمة نحو مائتي قميص من طراز دبيق ثمن الثوب الواحد منها خمسون دينارا .

كانت أسماء الخلفاء العباسيين تنسج فى العصر الاخشيدى فى الأقمشة الثمينة بلحمة من الذهب أو الفضة ، ومن الخطوط المتعددة الألوان وذلك تمجيدا لهم ، ودليلا على أنها صنعت فى عهدهم ، وكان على العاملين بدور الطراز أن يتفننوا فى اخراج ما يشبه التحف الثمينة هذه . لكنه من الملاحظ أن أسماء الأمراء الاخشيديين لم تظهر فى كتابات المنسوجات المطرزة أو المزخرفة ، وذلك كما ظهرت أسماء خمارويه وهارون من الأمراء الطولونيين ، وأغلب الظن أن الاخشيد والأمراء من بعده لم يحفلوا بهذا المظهر من مظاهر الاستقلال أو علامات الملك ، فقد كان الأخشيد شديد العناية بتقليد ابن طولون الذى لم يحرص على ذكر اسمه فى الطراز .

ومن الملفت للنظر أن ما حملته قطع النسيج التى صدرت من دور الطراز كانت لأسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم ، والمشرفين على تلك الدور ، دون ذكر هؤلاء الأمراء الاخشيديين ، فقد تكرر اسم شفيع المقتدرى فى قطع من النسيج حتى قبل تولى الاخشيديين . فظل يذكر اسمه على الطراز الصادرة فى عهد الاخشيديين يتضح ذلك من تلك القطعة التى يرجع تاريخ نسجها الى سنة ٣٢٦ هـ .

ويمكن التعرف على أسماء المشرفين أو المتوكلين بالطراز فى ذلك الوقت ، مما كانت تنتجه المصانع الحكومية ، ومن قطع النسيج التى أمدتنا بمعلومات لا ترقى اليها الظنون أو الشك ، فمن أصحاب الطراز فى العصر الاخشيدى ورد اسم كل من جابر وشفيع وبكير وأبو زيد وعبيد وفائز ، ولا شك أنه كان لهؤلاء نشاط ملحوظ فى الاشراف على تلك المصانع والعمل على تطوير انتاجها بصفة مستمرة ، لا سيما وأن ما تنتجه من المصنوعات كان يحمل أسماءهم .

وقد ورد اسم جابر على عدد من قطع النسيج ، منها قطعتان احداهما من الحرير والأخرى من الكتان ، وذلك بعد اسم الوزير الفضل بن جعفر ابن الفرات ، وعلى قطعة نسيج أخرى مؤرخة فى سنة ٣٣٠ هـ ، وعليها اسم جابر بعد اسم الخليفة المتقى بالله العباسى (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ) .

كما حملت الينا قطع النسيج التى أمكن الوصول اليها أسماء بعض دور الطراز بمصر فى ذلك العهد ، بالاضافة الى أسماء هؤلاء المشرفين عليها ، ومن تلك القطع ما كان من طراز مصر أو الفسطاط ومن تنيس ودمياط ، وذكر فى طرازها كل من بكير وعبيد وفائز ومنها قطعة مما عمل بطراز شطا على يد فائز يرجع تاريخها الى سنة ٣٥٧ هـ .

وهكذا كانت دور الطراز الخاصة والعامة الخاضعة لاشراف الادارة

المصرية تنتج من أنواع الثياب المزخرفة أو المطرزة بما يكفى حاجة البلاد وأسواق بغداد من الثياب والبسط والدبيقية ، بالاضافة الى ما كانت تزخر به خزائن الكسوة فى قصور الطولونيين والاخشيديين مما دق من دور تنيس ودمياط ، ولا شك أن الخلع الثمينة التى كانت تحمل أسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم التى حاكتها أيدى النساج وعملت على تطريزها داخل دور الطراز ، كانت من أهم ما أنتجته هذه الدور فى ذلك العصر •

ولا يسعنا أن نختم الحديث عن صناعة النسيج سواء ما كانت تنتجه دور الطراز العامة والخاصة أو المصانع الأهلية فى ذلك العصر ، قبل أن نعرض للأسعار التى كانت تباع بها المنسوجات كما وردت فى أوراق البردى العربيـة ، وكذلك الأجـور التى كان الصـناع يتناولونها نظـير اشتغالهم بعمليات الخياطة وغيرها •

وقد أورد جرومان بعض هذه الأسعار ضمن قائمة حساب بتسليم أثواب مختلفة يرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجرى على النحو التالى :

النـــوع	الثمـن
ثلاثة أسفاط من الثياب	مبلغ الثمن خمسة دنانير ونصف
عشرة أثواب	خمسة دنانير
عشر شقات مشدودة .	الثمن ثلاثة دنانير
ثوب شرب	الثمن ثلثا دينار
ثوبين شرب	الثمن ديناران
ثمن جبة خز	أربعة دنانير وثلث
ثمن منديل تنيسى	ديناران وقيراط
ثمن جبة صوف	دينـار ونصف
ثمن رداء بغدادى	ثلاثة دنانير وثلث

أما عن قيمة الأجور التى كان يتقاضاها الخياطون فيمكن معرفتها من البيان الذى ورد فى احدى البرديات ويتضمن ما يلى :

« بطـانة صفراء بالحشيش ، وفرد بطـانة حمراء بالقم وجبة خز حمراء صفراء ، وقميص وسراويل معصفر بدرهمين » وأيضا جبة عتابية وبطانة صفراء ، وهذا حساب خالد » •

كما ورد فى بردية أخرى أن أجرة خياطة القلايل وهى ثياب النساء المصنوعة من الأنسجة البيضاء الرقيقة مما اختصت به دور الطراز المصرية ، وغيرها أربعة دراهم وربع .. ونستدل من ورقة بردى أخرى على أن أجرة عمل الثوب كانت ثمن دينار . ولا شك أن هذه الأجور كانت تتناسب فى ذلك العصر وأسعار المواد الغذائية بنوع خاص ، وهى تثبت أن حرفة الخياطة وأجرها كان أعلى بكثير من أجرة عامل اليومية فى الزراعة التى كانت لا تزيد عن سدس الدانق . وهكذا كانت حرفة الخياطة وغيرها من الحرف المتصلة بالنسيج تدر على أصحابها ما يجعلهم يقبلون على عملهم فى رضا وسرور ، مما سنعرض له دون ايجاز فى أحد الفصول القادمة ..

٣ ـ حرفة الصباغة وصناعة الألوان

ترتبط مواد الصباغة بصناعة النسيج ارتباطا وثيقا ، وتدل ألوان الخيوط المصبوغة بثباتها وزهائها رغم ما مر عليها من قرون طويلة ، على أن المصريين قد برعوا فى فن الصباغة (١) ، وأنهم قد استخدموا أجود أنواع مواد الصباغة الطبيعية (٢) وقد ورث الأقباط عن المصريين القدماء هذه الحرفة (٣) ، وعرفوا طريقة استخلاص الأصباغ والألوان المختلفة من خاماتها الطبيعية سواء أكانت نباتية أو حيوانية أو معدنية مثل الكركم

---

(١) اتقن الفراعنة فن التلوين وصباغة المنسوجات بالرسوم المختلفة ، وكانوا يكتفون فى اول امرهم بصباغة النسيج بلون واحد مثل الأحمر أو الأزرق ، ولكنهم بمضى القرون اخذوا يصبغون الثياب بالوان عدة ، مرزوق الزخرفة المنسوجة ، ص ٧٣ و ٧٤ .

(٢) اكتشف عالم الآثار بترى وجود مصبغة فى تل اتريب ترجع الى العصر الرومانى وذكر أن احواضها كان معظمها أزرق داكنا بسبب وجود بقايا وآثار النيلة وبعضها احمر ، كما عثرت بعثة إيطالية فى حفائر كوم البريجات على معمل صباغة وتنظيف يرجع الى العصر الرومانى ايضا .

(٣) وقد عثر فى الاقصر على بعض أوراق البردى المصرية المكتوبة بالاغريقية الفها بولس ديموقريطس وهى محفوظة ـ الآن بمتحف استكهولم بالسويد وتعد أقدم دليل مكتوب ، ذكر فيه شىء عن صناعة الأصباغ فى القرن الثالث الميلادى بمصر وفى هذه الأوراق يمكن التعرف على طريقة المصريين الأقباط فى غسل الصوف بالأعشاب الصابونية وتنظيفها وكيفية غليه من أملاح النحاس والحديد والشب ، وأشارت الأوراق أيضا الى خامات الصباغة وكيفية تثبيت الألوان وازالتها .

الفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٤٢

وقشر الرمان والحناء والنيلة والشب وغيرها (٤) • وعرف المصريون كذلك كيفية استخراج الشب واستخدامه وأملاح الحديد فى تثبيت الأصباغ على النسيج ، كما استخدموا بذور شجرة السنط (القرظ) الذى كان ينمو بكثرة بمصر من أجل ذلك (٥) •

ولا شك أن وفرة المواد الخام بجهات مصر المتفرقة سواء عن طريق زراعتها كما هو الحال فى الرمان والآس والسلجم والبلسان والعصفر والقرطم والنيلة ، أم فى استخراجها من أماكن وجودها كالشب والنطرون، وكان الشب يستخرج من الواحات الداخلة والخارجة بالقرب من أسوان ، ومن المعروف أن الحكومة البيزنطية كانت تحتكر انتاجه والنطرون قبل الفتح العربى للبلاد •

وقد شجع الحكام العرب بعد الفتح هؤلاء المحترفين بحرفة الصباغة وعمال النسيج المصريين ، ولم يجد الحرفيون الأقباط صعوبة كبيرة فى ارضائهم ، نظرا لميلهم فى زخرفة الأقمشة والمنسوجات الى العناصر الهندسية والنباتية ، ولكراهية العرب المسلمين تصوير الانسان أو الحيوان وكان هذا الميل نفسه قد دب الى الفن القبطى منذ منتصف القرن الخامس الميلادى •

كما فضل العرب الفاتحون الملابس المصنوعة من الكتان الأبيض أو الصوف الكحلى ، وقد استعمل الانسان الألوان لترمز عن أحواله فرمز باللون الأحمر للحرب مثلا ، وفضل الناس بعض الألوان على بعضها البعض الآخر ، فكان الاهتمام باللون الأخضر لأنه يرمز للسلام ، واللون الأبيض يرمز للاطمئنان والسرور •

أما اللون الأسود فقد كان رمزا للحزن والحداد ، وقد فضل العباسيون شعارهم السواد ، وكانت الدولة تتخذ فى حروبها بعض البنود والأعلام ألوانا معينة كشعار لها ، لكى تتميز بها أثناء القتال •

وكذلك استخدمت ألوان الثياب فى عصر الولاة للتمييز بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة ، يذكر المقريزى أن الخليفة المتوكل أمر الذميين فى

---

(٤) الشب مسحوق قابض استخدم منذ زمن بعيد فى تثبيت الألوان وفى أعمال الصباغة ، المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، الفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٤٧ •

(٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ ، ويذكر المقريزى : أن الحكومة كانت تحتكر انتاجه فلا يتصرف فيه الا الديوان ، ومتى وجد منه مع أحد شىء اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه منه •

سنة ٢٣٥ هـ بلبس الطيالس العسلية ، وعمل رقعتين على لباس رجالهم تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة منها أربع أصابع ، ولون كل واحدة منها تختلف عن لون الأخرى •

وهكذا أصبح من الأهمية بمكان ، أن يقوم الصباغون والرسامون وغيرهم من أصحاب حرفة الصباغة باستخلاص الألوان وفاء للاحتياجات المتنوعة فى صناعة النسيج وغيرها من الصناعات ، واستطاع الصباغون فى مراكز النسيج المنتشرة ، استخلاص الأصباغ اللازمة من المواد النباتية والحيوانية والمعدنية الموجودة داخل البلاد أو ما كان يستورد منها من الخارج (٦) •

وقد أمكن الحصول على الصبغة الحمراء من مادة اللعلى بعد دخول العرب مصر ، اذ عملوا على جلبها من الهند ضمن مجموعة الغلات والمواد الأخرى •

كما أمكن الحصول على القرمز من بلاد أرمينية التى اشتهرت به فى العصر الاسلامى ، وكان يستخرج منها اللون الأحمر (٧) • وفضلاً عن ذلك فان الصناع المصريين أمكنهم استخلاص الأصباغ الحمراء من المعادن ، لاسيما معدن الزرنيخ الأحمر والزنجز الرمانى (أكسيد الزئبق الأحمر) •

واشتهرت مدينة اخميم باستخلاص العصارة الحمراء ، وكان من أسباب تفوقها فى فن الصباغة وصناعة الألوان ، أنه كان ينمو بالقرب منها نبات السلجم وكانت له عصارة حمراء يمكن استعمالها فى الصباغة (٨) ، ومن الجدير بالذكر أن هذا النبات كان يعرف باسم «ملوك»

(٦) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، وكان المصريون فى العصر القبطى يستخدمون الفوه عود وهى صبغة حمراء يحصلون عليها من جذور ونبات عشبى ، ويبدو أن الحصول عليها لم يكن من الميسور ، وكانت كمياتها قليلة لا تكفى لاحتياجات الانتاج المتزايد من المنسوجات بعد الفتح العربى ، وذلك فضلا عن أن مادة اللعلى كانت صبغتها أقوى وأجود •

(٧) يشير الاصطخرى الى شهرة أرمينية بوجود القرمز بها فيقول عنها : « ولهم صبغ يسمى القرمزية أحمر يصبغ الصوف ، وبلغنى أنه دودة تنسج على نفسها مثل دودة القز » المسالك والممالك ، ص ١١٠ ، وقد سبق الجاحظ الاصطخرى فى الحديث عن مادة القرمز ووصفها بأنها دودة حمراء كانت تنبت فى ثلاثة مواضع بجهات الأندلس وشيراز ، وأرض فارس ، كما يشير الى احتكار طائفة من اليهود ومعرفتهم بتلك المواضع واستخراج القرمز منها • التبصر منها • التبصر بالتجارة ، ص ٣١ •

(٨) شاع استخدامه فى استخراج اللون الأحمر منه وصباغة الثياب ، فقد ورد فى احدى أوراق البردى التى ترجع الى القرن الثانى الهجرى أو الثالث ضمن قائمة حساب بزاز ، أنه باع فرد بطانة حمراء بالبقم • جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٨٠ •

لأن عصارته الحمراء الداكنة كانت تستخدم فى صناعة الحرير القرمزى الذى كان يتم تصديره الى بيزنطة قبل الاسلام ، وكذلك تمكن فى مصر من استخدام شجر البقم ، واستخراج اللون الأحمر منه ، وكان يدخل فى تركيب الأصباغ وفى الحصول على ألوان جميلة لتزيين المخطوطات .

كمـا كان يتم استيراد الزعفران النقى والعصفر والزعفران العربى المسمى العروس ، وهو نبات يشبه السمسم ويكون فى اليمن ، ويتحدث عنه آدم متز فيقول : « وكانت جمـال اليمن التى تحمل الزعفران الى الشمال تصفر ألوانها بتأثير أحمالها الغالية » ويظهر أنه كان يحمل بعد ذلك من ميناء عدن أو من جدة الى مصر عبر البحر الأحمر حتى يصل الى القلزم وقد تم استعماله فى التلوين باللون الأصفر ، بالاضافة الى ما كان ينبت فى مصر من نبـات العصفر أو القرطم فى صـعيد مصر ، وأمكن استغلاله فى الحصول على اللون الأصفر كذلك (٩) .

أما عن شجر النيلة ، الذى كان يستخلص منه اللون الأزرق فانه كان يزرع بمصر منذ العصور القديمة (١٠) ، وقد زادت زراعته بعـد الفتح العربى زيادة عظيمة خاصة فى الصعيد الأعلى ، ويشير المقريزى الى طريقة زراعته وحصاده ، حيث كان شجر النيلة بمصر يحصد فى كل مائة يوم ، وهو يبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين ، ولا شك أن وفرة زراعته قد أتاح للحرفيين والصباغين المصريين سهولة الحصول على الألوان الزرقاء فى ذلك الوقت .

كما أتاحت وفرة الشب المستخرج من الواحات فى صبغ الأحمر ، وفى تثبيت الألوان ، وكان يحمل من الواحات الى قوص واخميم وساحل أسـيوط ، ثم ينقل فى المراكب على صفحة النيـل حتى يبلغ الفسطاط والاسكندرية ، حيث كان يباع منه أكثر من خمسة آلاف قنطار أو أكثر فى السنة .

وقد اشتهرت أسيوط فى مصر الاسلامية بحرفة الصباغة لسهولة حصول هؤلاء الصباغين على مواد الصباغة كالشب والنيلة حيث كانت تلتقى

---

(٩) وكانت القمصان والسراويل يستخدم فى صباغتها اللون الأصفر كما ذكر ذلك فى أوراق البردى العربية ، فمن قائمة أحد التجار للثياب اوردت الأوراق أنه باع « قميص وسراويل معصفر » من جملة الثياب . جروهمان : أوراق البردى العربيـة ، جـ ٦ ، ص ٧٩ .

(١٠) كان الصباغون يستعملون اللون الأزرق فى صباغة الأقمشة والألوان الأخرى ، وقد ذكر Milne أن الضرائب على الصباغين فى جهة إيشميزيا ، كانوا يؤدون نحو ٢٦٥ دراخمة سنويا ، وذلك فى العصر الرومانى والبيزنطى .

A History of Egypt under Roman rule, p. 157.

عندها الوارد من هذه المواد من الواحات المجاورة لها . ولا شك أن وفرة مسحوق الشب كان خير معين فى اشتغال الناس لتثبيت أصباغهم الطبيعية فى النسيج المصرى ، مما أدى الى شهرته وتصديره الى سائر البلدان . وكان لدى مصر من محصول الشب والنطرون ما يزيد عن حاجتها ، فكان يصدر منه الى أوروبا لحاجتها اليه فى صناعة النسيج وغيرها ، وليس كما يرى رات حين قال : « ولم يكن استخدامه واسع النطاق فى الصناعة المصرية » .

ويضم متحف الفن الاسلامى مجموعة من شواهد القبور تكشف لنا عن أسماء عدد من الصباغين (١١) ، منها شاهد حجر رملى من أسوان باسم « أحمد بن عباد بن ادريس الصباغ » . وشاهد آخر مؤرخ فى شعبان سنة ٢٣٩ هـ / ٨٥٤ م باسم قاسم بن عبد الله الصباغ . مما يدل على انتشار حرفة الصباغة فى عصر الولاة .

ومن أسماء الصباغين التى أمكن العثور عليها فى العهدين الطولونى والاخشيدى ، ورد ذكر عبد الغنى بن جعفر بن سليم الصباغ على شاهد حجر رملى من الصعيد ويرجع الى القرن الرابع الهجرى ، كما ورد نص جنائزى من أسوان مؤرخ فى ذى القعدة سنة ٣٥١ هـ باسم أحمد ابن ابراهيم بن يحيى بن ابراهيم آل صباغ ، وتوضح مجموعة الفيوم من النسيج التى ترجع الى ذلك العهد مدى قيام الرسامين والصباغين فى تطوير حرفتهم (١٢) ، يتجلى ذلك فى قوام زخرفة تلك المجموعة من صور الطيور والحيوانات والأشكال الآدمية ، وبالوانها الزاهية القوية ، وعليها كتابة تتضمن أنها صنعت فى طراز الخاصة باحدى جهات الفيوم .

ويؤيد ذلك ما أبداه ابن حوقل من اعجاب شديد فى بداية العصر الفاطمى ، بأنواع المصنوع من النسيج فى كل من الفيوم والبهنسا ، وما كانت عليه من دقة الألوان وثباتها ومهارة الصباغين فى دور الطراز بكل منهما ، فهو يصف طراز الفيوم وشهرته قائلا : « وبالفيوم مدن كبار جليلة وطرز مشهورة للسلطان والعامة ، وفيها من الأمتعة ما يستغنى

(١١) كما ورد لفظ دليل الصباغ فى احدى أوراق البردى العربية التى يرجع تاريخها الى القرن الثالث الهجرى .

جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٢٠٩ .

(١٢) يضم متحف الفن الاسلامى مجموعة من الأقمشة اصطلح علماء الآثار على تسميتها بمجموعة الفيوم وهى ترجع الى القرنين الثالث والرابع الهجريين .

بشهرته عن اعادته كاليهنسا المعمول بها الستور والاسترقاق والشرع والخيام والأحله والستائر والبسط والمضارب والقساطيط العظام بالصوف والكتان بأصباغ لا تستحيل وألوان تثبت فيها من صور البقة الى الفيل » .

وقد اتسع نطاق استخدام الألوان في العصر الفاطمي ، وتعددت أغراضه فظهر لون القرنفل المتدرج في رسم الزهر ، والأخضر الزراعي ، والأصفر العاجي ، والأزرق السماوي ، والزخرفة المذهبة وبها الألوان المتدرجة .

ولا شك أنه كان لتقدم صنعة الكيمياء في ذلك العصر ، وخبرة الصباغين الكيميائية بصناعة الألوان وصباغتها أثر كبير في ازدهار فن الزخرفة في الأقمشة المنسوجة ، وفي دبغ الجلود وغيرها من الصناعات السائدة .

وقد بلغ من مهارة الصباغين والرقامين والرسامين والمصورين المصريين أن أوجدوا أصباغاً لتلوين الأنسجة ، وكذلك للفسيفساء ، والأواني الخزفية والزجاجية وغيرها . وكان الصناع المصريون هؤلاء يستخدمون طرقا معينة في ختم الزخارف وطبعها على المنسوجات كان منها استخدام ألواح الخشب وقد عثر على قطعة من النسيج ذات زخارف مرسومة بنفس الطريقة ترجع صباغتها وزخرفتها الى أوائل العصر الفاطمي .

كما يذكر لنا ابن بسام طريقة أخرى استعملها عمال تنيس في ختم زخارفهم ، وهي طريقة الحجارة المنقوشة لضرب الثياب ونقائها وتلوينها .

وقد شجع الفاطميون على زيادة عمل الأصباغ وصناعة الألوان المختلفة ، كما شجعوا المصورين والرسامين على استخدام الرسوم والأشكال الآدمية والحيوانية ، ولم يحفل فقهاء الشيعة برفض أهل السنة وكرههم لرسم الكائنات الحية (١٣) ، حيث أنه من الملاحظ على صناعات الفاطميين أنها زينت بصور آدمية وحيوانية كثيرة .

وفي أوائل القرن الخامس الهجري ظهر في مصر نوع جديد من القماش المسمى « بوقلمون » وهو قماش يتغير لونه بتغيير ساعات النهار ، ويشير آدم متز الى هذا النوع من القماش فيقول : ويظهر للرائي في ألوان مختلفة ، وكان يصنع في تنيس وحدها » ويمكن القول بأنه لولا تفوق الصباغين في تلك المدينة وغيرها من المدن الصناعية المصرية ، وخبرتهم

---

(١٣) أورد الذهبي في كتابه الكبائر تحريم التصوير في الثياب والحيطان والحجر والدراهم وسائر الأشياء . كتاب الكبائر ، ص ١٩٥ .

الوطيدة في صناعة الألوان في ذلك الوقت ، لما أمكن لمصانع تنيس من انتاج البوقلمان ·

ويبدو أن أصحاب حرفة الصباغة قد نجحوا فى مزج الفصوص المعروفة بالبوقلمون والتى أمكن استخراجها من قاع البحر بالقرب من شواطىء الاسكندرية والتى قال عنها المسعودى : « وهي ترى ألوانا مختلفة من حمرة وخضرة وصفرة تتلون في المنظر ألوانا مختلفة » وهذا يفسر لنا ما أوضحه آدم متز ويتمشى فى امكانية استخراج هذه المادة العجيبة وظهور هذا النوع الجديد من القماش بعد صياغته بهذه المادة الجديدة فى العصر الفاطمى ·

ومن أسماء الصباغين التى وصلت الينا من جنوب الصعيد فى عهدى الخليفة الحاكم وابنه الظاهر ، كما يتضح لنا من نص جنائزى كان جعفر ابن محمد الصباغ ، ومن الملاحظ فى ذلك العهد أو تلك الفترة أنه تم الترخيص برسم الأشخاص ، وكما أصبحت صناعة مزج الذهب بالألوان زاهرة ، ووجدت الأعداد الهائلة من التراكيب الزخرفية والهندسية ، مما يدل على تقدم فن الزخرفة فى أواخر القرن الخامس ، وأمكن للصناع المصريين مزج الألوان بطريقة يخيل معها للرائى آن فى الزخارف شيئا من البروز ·

وقد ترجم المقريزى فى كتابه ضوء النبراس لمجموعة من المصورين الذين كان جل اهتمامهم بلا شك صناعة الأصباغ وكيفية استخدامها فى العصر الفاطمى وما تلاه من العصور (١٤) ، وهناك من المضارب والخيام الفاطمية ما كانت رسومها وألوانها تبعث على الدهشة وشدة الاعجاب ، ونقل عن أبى الحسن بن الحسن الخيمى أنه من بين ما وجد من أنواع الخيم فى خزائن الفاطميين فسطاطا كبيرا قد صور فى رفرفه كل صورة حيوان فى الأرض وكل عقد مليح وشكل ظريف · وكذلك ما ذكر من أنه وجد فى القصور الفاطمية حين نهبت فى سنة ٤٦٠ هـ ألف قطعة من المنسوجات مصورة على حاشيتها خلفاء العرب مع مقاتلين ورجال مشهورين · وكانت البسط المصنوعة من نسائج الذهب والحرير والمخمل مستورة بتصاوير ممثل بها رجال وحيوانات من كل نوع ·

وكانت الفسطاط من أهم مراكز صناعة الأصباغ ، فقد أطلق اسم الصباغين على تلك الأحياء التى كانوا يعملون بها ، حيث أشار المقريزى

(١٤) لم يصل الينا ذلك الكتاب وهو طبقات المصورين المنعوت بضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوقين من الناس ·

الى وجود عدة حوانيت للرسامين ، والى عقبة الصباغين وقيسارية العصفر ، وكما أشارت وثائق الجنيز الى اسم أحد أصحاب المصانع بالفسطاط وكان يدعى « عروس بن يوسف » من المهدية بتونس ، وكان له نشاط واسع فى عالم التجارة فى ذلك الوقت خاصة فى البحر المتوسط ٠

ومما يدل على انتشار حرفة الصباغة في الفسطاط وغيرها من المدن المصرية ما أشارت اليه كتب الحسبة حول أساليب الغش فى مواد الصباغة ، وما كان يقوم به الصباغون فى حوانيتهم ، فقد كان أكثر صباغى الحرير الأحمر وغيره يصبغون الغزل والثياب بالحناء بدلا من الفوه ، فيخرج الصبغ حسنا مشرقا لفترة وجيزة ، فاذا أصابته الشمس تغير لونه وزال اشراقه ٠ كما يذكر الشيزرى أن بعض الصباغين كانوا يستعملون الزاج فى صباغة الثياب المراد صباغتها باللون الكحلى ، فتخرج الثياب صافية اللون شديدة السواد ، فاذا مضت عليها أقل مدة تعود الى أصلها ويتغير لونها ، وكان على المحتسب وأعوانه منع هؤلاء الصباغين من فعل ذلك ٠

ومهما قيل عن غش الصباغين فى ذلك الحين ، فان التصميمات الزخرفية التى اتبعت فى العصر الفاطمى الأخير تدل على مدى ما بلغته حرفتهم من تفوق ، وعلى الاهتمام الشديد بالزخرفة ، وما تطلبته من عمل الأصباغ الزاهية ، والتفنن فى تركيبها وتكوينها والتلوين بها ، فقد ظلت هذه الأصباغ ثابتة حافظة على بهائها طوال ألف سنة حتى الآن ٠

٤ ــ مظاهر تقدم صناعة النسيج في العصر الفاطمي

تقدمت صناعة النسيج وراج انتاجها بعد الفتح الفاطمي للبلاد ، واتخاذهم القاهرة مقرا لخلافتهم ، وقد رغبوا فى اتخاذ المنسوجات كوسيلة من أجل تحقيق أهدافهم السياسية ، والعمل على نشر مذهبهم والإشادة به ومحاولة تركيز ذلك فى نفوس الناس داخل البلاد وخارجها ، كما رغبوا فى اتخاذ المال والاغداق به على المصريين حتى تحدث الناس عن ذلك وقالوا « ذهب المعز » ، ولا غرو فقد حمل معه المعز لدين الله حين قدومه الى القاهرة ما يشبه الطواحين من السبائك الذهبية .

ولا شك أن قطع النسيج المطرزة بالعبارات الدينية والدعائية بأسماء الأئمة التى بدأت دور الطراز فى انتاجها فى أعقاب الفتح مباشرة ، وكانت خير شاهد على ذلك ، فضلا عما سعى اليه الفاطميون فى منافسة الخلافة العباسية وبزها فى ميادين الأبهة والعظمة ومظاهر الترف والنعيم .

وقد سعى الامام المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين للتقرب الى الشعب المصرى ، واستمالة قلوب الناس نحو حكمه ، وكانت الخلع الثمينة من الثياب من أهم الوسائل لتحقيق ذلك .

عمل المعز لدين الله على انشاء دار الكسوة ، وكان يفصل فيها أنواع الثياب والبز ، ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف ، وقد انتخب لها مهرة الصناع وعينهم فيها ، يصنعون له ما يشاء من أفخر الثياب والملابس الثمينة ، ولا ريب أنه كان لذلك الأثر البعيد فى تطوير الصناعة ذاتها لدى أرباب الحرف والصناع من عامة الشعب

المصرى ، لأن ما يخرجه صناع البلاط الفاطمي من هذه التحف كان بمثابة نماذج يعمل الحرفيون على تقليدها •

وتبدو مهارة الصناع ومدى حذقهم لفنون الحياكة والتطريز ، من وصف الكسوة التى أمر الخليفة المعز بعملها للكعبة عام ٣٦٢ هـ فى دار الكسوة هذه ، وقد عبر ابن ميسر عن اعجاب الحاضرين فى ايوان القصر ، وذلك حينما نصب المعز الشمسية وكانت من الديباج الأحمر ، ودورها اثنا عشر هلال ذهب ، فى كل هلال أترجة ذهب مشبك ، جوف كل أترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفى دورها مكتوب آيات الحج بزمرد أخضر وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله » يقول ابن ميسر : « ولم يبق أحد حتى دخل من أهل مصر والشام والعراق فذكروا أنهم لم يروا قط مثل الشمسية » •

كانت خزانة الكسوة فى القصر الفاطمى تشتمل على خزانتين احداهما الخزانة الظاهرة ، وقد خصصت لصناعة الملابس الرسمية للخليفه وكبار رجال الدولة والبلاط الفاطمى ، يذكر المقريزى أنه كان يحمل اليها مما يعمل فى طراز تنيس ودمياط والاسكندرية من خاص المستعمل ، كما كان يخصص لها مبلغ من المال ، بلغ حوالى ستمائة ألف دينار في السنة . كما كان بها من أنواع الأقمشة الفاخرة مثل الأقمشة الكتانية الرقيقة والحرير الموشى بالذهب أو القلاطون • وكان يوجد فيها صاحب المقص وهو مقدم الخياطين •

أما الخزانة الباطنة فهى منفصلة عن الخزانة الظاهرة ، يتولى أمر الاشراف عليها امرأة تنعت بزين الخزان ، بين يديها ثلاثون جارية ، لهن الخبرة والمهارة فى أعمال الحياكة وفن التفصيل ، وما يلزم ملابس الخليفة فى زيه المتنوع عند الركوب وسائر المناسبات الدينية والأعياد القومية الأخرى •

والحقيقة أن توزيع الكسى على الناس كان عادة عند الخلفاء العباسيين، وقد شاركت دور الطراز المصرية من قبل فى عصر الولاة فى انتاج مثل هذه الكسوات وارسالها الى بغداد ، وفى عهد الطولونيين والاخشيديين أيضا ، الا أن الفاطميين كانوا أكثر توسعا فى هذا العمل الى حد كبير • ولا ريب أن الحكومة الفاطمية ما كانت لتنفق المبالغ الطائلة الا من أجل تحقيق أهدافها السياسية والعمل على استمالة المصريين واجتذاب قلوبهم بصفة مستمرة ، لدرجة أن الفاطميين خصصوا لذلك ديوانا خاصا يسمى

ديوان خزائن الكسوة يشرف على توزيعها فى المناسبات المختلفة (١) ٠

ولا غرو فقد كانت الكسوات تفرق فى مناسبات عديدة منها غرة رمضان وأول العام وأعياد الفطر والنحر ، وكسر الخليج وعيد الغدير ، وكان هؤلاء الصناع والمهرة من الحرفيين يعملون فى خزائن الكسوة تلبية لتلك الاحتياجات الكبيرة منها ، وما يستلزم من الأزياء المطلوبة لكل من الخليفة وأرباب المناصب والأقلام ، وغيرهم من رجال البلاط الفاطمى ، والمتطلبات الأخرى ٠

وقد أفاض المقريزى وغيره من المؤرخين فى وصف أنواع الكسوات التى كان الخليفة الفاطمى يمنحها للأمراء والأميرات وموظف القصر وأطباء البلاط ووالى كل من القاهرة والفسطاط ، كان لمنح هذه الكسوات مواسم خاصة يغدق فى كل منها على طائفة معينة من هؤلاء الذين تقدم ذكرهم ، فيما عدا عيد الفطر ، فقد كانت تعم فيه الحلل على الجميع حتى أنه أطلق عليه اسم « عيد الحلل » ٠ كانت تختلف هذه الكسى باختلاف الأشخاص الممنوحة لهم ، فالحلل والبدل المذهبة انما كانت تمنح للأمراء ورجال القصر ، وكبار الموظفين وعظماء الضيوف الوافدين من الخارج ٠

وربما كان أول من خلع عليه المعز لدين الله بعد وصوله الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ قائده جوهر الصقلى ، فقد ذكر المقريزى أنه خلع عليه خلعة مذهبة وعمامة حمراء وقلده سيفا ، وقاد بين يديه عشرين فرسا مسرجة وحمل بين يديه خمسين ألف دينار وثمانين تختا من الثياب ٠ وكانت القاعدة المرعية أن يرفقوا الخلع ببراءات يصدرها ديوان الانشاء المختص بمثل هذا العمل ٠

وكان للقواد نصيب وافر من الخلع الثمينة هذه ، كما حدث عند خروج منجوتكين على رأس الجيش الى حلب لاخضاع ابن سعد الله ، اذ خلع عليه الخليفة العزيز بالله ، واشتملت الخلعة على مائة قطعة من الثياب الملونة وعشر قباب ومناطق مثقلة وأهلة وفروش وخمسين بندا ٠

ويصف المقريزى ما أنعم به الحاكم بأمر الله على الحسن بن عمار بوساطة ولقبه بأمين الدولة ، وقد اشتملت الخلعة على مقدار خمسين ثوبا ملونة من البز الرفيع ، وكما يمدنا المسبحى بما خلع به الظاهر لاعزاز

---

(١) يصف المسبحى ما كان عليه زى الخليفة الظاهر عند ركوبه لكسر الخليج عام ٤١٤هـ ويقول : كان عليه فى وقت نزوله الى مصر قميص مذهب ، وعلى رأسه شاشية مرصعة ، وزيه فى طلوع ثياب دبيقى ، وعلى رأسه عمامة شرب مسكر مذهبية » ــ أخبار مصر ، ص ٣٠ ــ ٣١ ٠

دين الله على محمد بن على بن ابراهيم الرسى نقيب الطالبين فى عام ٤١٤ هـ ، وكانت الخلعة عبارة عن ثوب دبيقي مذهب مصقف بأطواق عراض ، ومن تحته ثوب مصمت مذهب ، وغلالة مذهبة وعلى رأسه عماما شرب مذهبة ، يقول المسبحي : « وخرج وفي يده سجل عنوان من عبد الله ووليه الامام على بن أبى الحسن الظاهر لاعزاز دين الله أمير المؤمنين ابن الامام الحاكم أمير المؤمنين الى نقيب الطالبين محمد بن على الحسنى الرسى سلمه الله » وهكذا كانت براءة الخلع والتشريف وما جاء فيها من أمثال هذه العبارات ، من قبيل الاشادة بمركزهم الدينى المتـــاز وتحقيق المغزى الحقيقى من الدعاية لهم ٠

والواقع أننا نلاحظ كثرة مثل هذه العبارات التى استخدموها على الملابس والمباني وغير ذلك ، فقد جاء في قطع النسيج عبارات مثل « الحمد لله رب العالمين ونصر من الله لعبد الله ووليه المنصور أبى على صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وتسليما مما أمر في طراز الخاصة تونه سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ٠٠ لا اله الا الله الخير معين ان شاء الله والتوفيق » ٠ وكذلك العبارة التى وردت فى قطعة النسيج الصـــادرة من طراز العـــامة بتنيس سنة ٤١٢ هـ فى عهد الخليفة الظاهر جاء فيها : « مما أمر بعمله الامام الظاهر لاعزاز دين الله أمير المؤمنين بن الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين صلوات الله عليهم » ٠ وهكذا كانت الدعاية الفاطمية لها أصولها وقواعدها واستخدام المنسوجات فى كل مناسبة والاكثار من توزيع الكسوات على النـــاس مما يساعد الى حـــد كبير على تحقيق هـــذه الأهداف ٠

ومما لا شك أن ما كان يحوزه كبراء القوم من الملابس والخلع الثمينة وقطع النسيج وما كتبت عليه من العبارات الدعائية ما يضيق حصره يشهد بذلك ما خلفه الأمير جوهر عند وفاته من الثياب الديباج ، وقد بلغت خمسة وسبعين ألفا ، ولما قتل برجوان فى سنة ٣٩٠ هـ ، وجد له مائتان واحدى وستون بقجة من القماش وألف قميص حرير اسكندرى وألف منديل شغل اسكندرية ، ومائة منديل يعنى عمامة كلها شروب ملونة معممة شائبة ٠

واشتملت تركة الســـيدة رشـــيدة على ثلاثين ألف ثوب خسروانى وعشرين ألف من الثياب المحصنة ألوانا وذلك عند وفاتها عام ٤٤٢ هـ ٠ وتطالعنا المصادر العربية بتلك المقادير من قطع النسيج المختلفة الأشكال والأنواع مما خلعه الخلفاء والوزراء ووجوه الدولة ، مما يحمل المرء على الشك فى مدى صحتها ، فقد ذكر مؤلف كتاب الذخائر : وقومنا ما أخرج من خزائن القصر ــ يعنى فى سنوات الشدة العظمى ــ من ســـائر ألوان

الخسرواني ما يزيد على خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب . وأرسل ناصر الدولة يطلب المستنصر بما بقي لغلمانه ، فذكر أنه لم يبق عنده شيء الا ملابسه فاخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة .

ولا شك أن خزائن الأمراء والوزراء المملوءة بأنواع الكسوات كانت رمزا لمركزهم الأدبي ودليلا على ثرائهم ، وخير شاهد على ذلك ما وجد فى خزائن الأفضل عند مقتله فى سنة ٥١٥هـ ، فقد ذكر ابن ميسر أنه وجد له من أصناف الديباج وما يجرى مجراه من عتابى وغيره تسعون ألف ثوب وثلاث خزائن كبار مملوءة صناديق كلها دبيقى عمل بتنيس ودمياط ، على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه » وقد نقل الآمر بأحكام الله ما بدار الأفضل الى القصر ، وكان الخلفاء اذا سخطوا على وزير أو كبير صادروا خزائن الكسوة فى داره وحملوه الى قصورهم أو ربما تصرفوا فيها بالبيع وحصلوا على أثمانها .

وقد بلغ ما أخرج من خزائن الكسوة فى أيام المأمون البطائحى وما عمل لكسوة الشتاء بحكم حلوله سنة ٥١٦ هـ أربعة عشر ألفا وثلاثمائة وخمس قطع(٢) .وكانت خلع الفاطميين على الأمراء الثياب الدبيقى والعمائم بالطراز الذهب وكان قيمة طراز الذهب والعمامة لا تقل عن خمسمائة دينار ، ويخلع على أكابر الأمراء الأطواق والاسورة والسيوف المحلاه .

وقد استمرت الكسوات والخلع الثمينة يغدق بها الخلفاء على أمرائهم ووزرائهم حتى نهاية دولتهم ، يصف أبو شامة خلعة الخليفة العاضد على صلاح الدين الأيوبى الوزير فيقول : « وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسى مطرز ذهب وثوب دبيقى بطراز ذهب ، وجبه تحتها سقلاطون بطرازى ذهب وطيلسان دبيقى بطراز دقيق ذهب » ، وهكذا ظلت خزائن الكسوة فى العصر الفاطمى عامرة بالنشاط الحرفى والصناعى ، فقد كشف حاصل الخزائن الخاصة بعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧ هـ ، وقيل ان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى مرصع وعقود ثمينة وذخائر فخمة .

ومن مظاهر تقدم صناعة النسيج أنه لم يقتصر الأمر على استخدام أنواع النسيج لعمل الملابس والكسوات ، بل اتخذ المصريون من انتاج

---

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ – ١٣٦ .

وقد حفظ لنا المقريزى بيان تلك الكسوة وكذلك ما أخرج فى الشهر نفسه من كسوة العيد المسمى بعيد الحلل ، منها ما يختص بالخليفة وأخيه أبى الفضل جعفر والموالى وهم الجلساء من بنى الأعمام ومن البنين والبنات من بنى الأعمام غير الجلساء والأساتذة المحنكين وكتاب ديوان الانشاء ووالى القاهرة ووالي مصر وغيرهم كثير .

المناسج ودور الطراز العــامة أشياء لا حصر لها مثـل الخيم والمضارب والحصون والقصور والشراعات والمشارع والفساطيط المحمولة من الدبيقى والخسروان والديباج والبهنساوى وصنعوا من القماش والمساند والمخاد والمـراتب والبسط والمقـاطع والسـتور والعصـائب النسـائيات والفوط والخرائط للسيوف من الديباج الأحمر والأصفر · كما صنعوا منها البنود والرايات ، وكانوا يحلون مكان الجلد والسروج الديباج الأحمر والأصفر وغيرهما من الألوان ، والسقلاطون المنقوش بألوان الحرير ·

وكان الطلب شديدا على مختلف أنواع النسيج ، لتوافر الأموال فى أيدى الفاطميين الأثرياء من التجار وغيرهم من أمراء الاقطاع وعامة الناس حيث كانوا يدخرونها لوقت الحاجة ، ومن هنـا كان اقبـالهم على شراء النسيج ، سواء احتاجوا اليه أو لم يحتاجوا ، لأنه كان يعد نقدا مدخرا ، خاصة اذا كان من الأصناف الثمينة ، وهكذا أصبحت الأقمشة الفاخرة معدودة من أعيان الثروة فى ذلك العصر (٣) ·

وليس من شك فى أن حيـــاة الترف والنعيم التى أدهشت ناصر خسرو ، كما أدهشت الصليبيين من بعده ، قد دعت الى تقدم صناعة النسيج وغيرها من الصناعات فى العصر الفاطمى ، وذلك من حيث الكم والكيف ، كما ألقت أعباء جديدة على الانتـاج الصناعى المحلى · ومن الظروف التى ساعدت على النشاط الصناعى أيضا اتساع نطاق العلاقات التجارية مع البلاد الأجنبية · وليس لدينا من دليل يبعث على الاعتقاد بأن الحال تغيرت بين مصر وبيزنطة برغم المنـازعات السـياسية فقد استمرت المصـنوعات المصرية الممتازة مما تنتجه مناسج تنيس ودمياط تصدر اليها · ويظهر أن المنسوجات المصرية الفاخرة تمتعت برواج عظيم فى الامبراطورية حتى أن ناصر خسرو سمع أن أحد الأباطرة عرض على السلطان (يعنى الخليفة) مائة مدينة مقابل تنيس وحـدها ، وكان قصده من هـذه المدينة القصب والبوقلمون ·

ومن المؤكد نتيجة للتوسع التجارى أن مقادير كبيرة من انتاج المناسج المصرية من الأنواع الممتازة والسميكة كان يصدر الى الخارج ، وربما كانت الحكومة الفاطمية تشجع هذا الانتاج الصناعى حتى تستغل الفائض عن حاجة السوق المحلية فى التبادل التجارى كى تحصل على ما يلزم من مواد

---

(٣) كان كل رجل ميسور يحرص على أن يكون لديه تخت ثياب اى صندوق من الأقمشة والثياب المصنوعة ، كما يفعل بعض الناس فى الوقت الحاضر اذ يرغبون فى اقتناء أنواع السجاد العجمى الغالى الثمن · حسين مؤنس : عالم الاسلام ، ص ٣٤٨ ·

كالحديد والنحاس والأخشاب وغيرها مما لا يتوافر فى البـــلاد ، وينبغى التنويه عن مجهود الحـكومة نفسها فى النهوض بصناعة النسيج ، فقد كانت تدير لحسابها عددا من المصانع وتشرف على ادارتها اشرافا دقيقا يكفل لها انتاج الأنواع الفاخرة وبخاصة ما يتصل بكسوة الخليفة نفسه ورجال البلاط الفاطمى ، فضلا عن الكسوة الخاصة بالكعبة الشريفة ٠

وقد كانت هذه الكسوة ترسل الى مكة ، كما يذكر ناصر خسرو أنها كانت ترسل مرتين فى السنة ، وكانت كسوة الكعبة من الديباج الأبيض شعار الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة المستنصر ، ولم يكن يقتصر الأمر على هذه الكسوة بل انه حدث فى عام ٤٤٠ هـ أن هاجر الى مصر من أهل الحجاز نحو خمسة وثلاثين ألفا ، فكساهم السلطان جميعهم ، وأغدق عليهم بالصلات ، ثم أمر بترحيلهم الى الحجاز ٠

كما كان من أسباب نشاط صناعة النسيج انشاء العديد من الخزائن الأخرى بخلاف خزائن الكسوة ، ومنها خزانة السروج وكان بها عدد كبير من الصناع لا يفترون عن العمل ، وخزائن الخيم أو الفساطيط التى كانت تصنع أقمشتها فى دبيق والبهنسا والفيوم وغيرها من دور الطراز الفاطمية، وقد اشتهر كل من أبى الحسن على بن الحسن الخيمى ، وزميله أبى الحسن المعروف بابن الأيسر الحلبى بصناعة الخيام المعروفة بالمدورة ، وكانت من عجائب الصناعة ٠

نقل المقريزى عن أبى الحسن على بن الحسن الخيمى أنه أخرج من خزائن القصر أيام المارقين (يعنى الثوار من الجند الأتراك) فسطاطا أكبر ما يكون ، يسمى المدورة الكبيرة يقوم على فرد عمود طوله خمسة وستون ذراعا ، ودائر فلكه عشرون ذراعا ، وقطرها ستة أذرع وثلثا ذراع ، وعدة قطع خرقه أربع وستون قطعة ، كل قطعة منها تحزم فى عدل واحد ، يحمل خرقه وحباله وعدته على مائة جمل ، كان أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازورى قد أمر بعمله أيام وزارته ، فعمله الصناع وعدتهم مائة وخمسون صانعا فى مدة تسع سنين ، وبلغت تكاليفه ثلاثين ألف دينار ٠

ومن الجدير بالذكر أن هذا الفسطاط الكبير فى خلافة المستنصر قام بعمله الصناع على غرار القاتول (٤) ، الذى كان الخليفة العزيز بالله أمر بعمله أيام خلافته الا أن هذا أعلى عمودا منه وأوسع وأعظم ٠ وكانت تلك الخيام تقام بمناسبة الاحتفال بفتح الخليج وفى المناسبات الأخرى ٠

---

(٤) سمى بهذا الاسم لأن فراشا من العاملين فى اقامته سقط من أعلاها فمات ، وكان من السعة بحيث يشبه القصر المستدير وتزيد مساحته على فدانين ٠

أما الخيام التى كانت تقام لرجال الدولة فكانت كثيرة تختلف فى قيمتها وفى بعدها أو قربها من خيمة الخليفة ، بحسب درجاتهم وهى من جميع الأنواع والأشكال مصنوعة من سـائر الأقمشة كالقماش المزركش الدبيقى ، والقمـاش الثقيل المخمل ، والقمـاش الموشى بالديباج من كل الأنواع وكان جميع هذه الخيام مبطنة من الداخل بغرائب النقوش والألوان البديعة وسائر الأشكال منها على شـكل الفيلة أو السباع أو الخيل أو الطاووس ٠ ومنها ما هو على شكل الطيور والآدميين ٠

فلا غرو ان احتاجت الى مئات الصناع والحرفيين لصنع جميع آلاتها من الأعمدة الملبسة بأنابيب الفضة ، والثياب المذهبة وغير المذهبة من سائر أنواعها وألوانها ٠ وكانت خزائن الخيم الفاطمية تحتوى على ما تحتاج اليه تلك الفساطيط الكبيرة من الدكك والمحاريب والأسرة والعود والصندل والعاج والأبنوس والبقم ومن هؤلاء النجارين وأصحاب الصنعة الشيء الكثير من أجود ما يكون ٠ يذكر ابن ميسر أنه عمل للأفضل بن أمير الجيوش خيمة سماها خيمة الفرح ، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع ، وقائمها بارتفاع خمسين ذراعا بذراع ، أنفق عليها عشرة آلاف دينار ، وقد مدحها جماعة من الشعراء ٠

ولابد لنا من التنويه فى هذا المقام عن خزانة البنـود التى أنشاها الفاطميون ، وكانت تشتمل على كميات كبيرة من الرايات والأعلام وآلات الحرب ، وكان بها نحو ثلاثة آلاف صانع لصنع هذه الأشياء ومعظمها من أفخر أنواع النسيج (٥) ٠ ومما يذكر أن الخليفة العزيز حينما خرج بنفسه الى بلاد الشام كان جيشه يحمل من البنود نحو خمسمائة من البنود ومثلها من الأبواق ٠

ومن الجدير بالذكر أنه لم يقتصر على استخدام تلك البنود أو الأعلام فى أوقات القتال فقط ، بل كان لها فى العصر الفاطمى شأن كبير فى سائر الاحتفالات خاصة الدينية مثلها ، وكان الصناع ينسجون عليها أو يطرزون فيها الشهادتين وبعض الآيات القرآنية أو العبارات الدينية ٠ وقد ازدهرت صناعة البنود فى ذلك العصر ، ويشير جروهمان الى خط البنادين فى أوراق البردي العربية ، نذكر منها مثلا عقد بيع مؤرخ فى شوال سنة ٤٥٩ هـ ٠

---

(٥) كانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير ، بناها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ويذكر المقريزى نقلا عن صاحب كتاب الذخائر والتحف أن مبلغ ما كان فيهـا من سائر الآلات والأمتعة والذخائر لا تعرف له قيمة عظما وأن المنفق فيها كل سنة من سبعين ألف دينار الى ثمانين ألف دينار ٠ الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ ٠

وقد تعرضت خزانة البنود لألسنة النيران والحريق فى عهد المستنصر وكما ينقل المقريزى كانت لتلك غلبة عظيمة وخوف شديد فيما يليها من القصر ودور العامة والأسواق ٠

ولم تكن خزائن الفرش والأمتعة أقل من الخزائن الأخرى التى ذكرنا ، وكانت تحتوى على سائر أنواع الفرش الفاخرة مثل المراتب الملونة والأبسطة والحصر السامان المطرزة بالذهب والفضة وبسائر أنواع الصور والستور الحريرية المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها ، ومقاطع القماش المختلفة المنسوجة بالذهب والمحلى بالرسوم المختلفة ٠ ولا ريب أن مثل هذه الخزائن كانت تتطلب من أنواع النسيج ومن المواد الخام الشيء الكثير ، فضلا عن آلاف الصناع المهرة فى سائر الحرف والصناعات ٠

وهكذا يمكن القول بأن خزائن الكسوة والفرش وخزائن الخيم والبنود التى ضمت آلاف الصناع المهرة من الحاكة والحريريين والمذهبين وغيرهم ، كانت من أهم مظاهر التقدم والازدهار لصناعة النسيج فى العصر الفاطمى ٠ ولم يكن تشجيع الفاطميين وتعيينهم لأحد أعيان الدولة للاشراف على دور الطراز الخاصة والعامة المنتشرة فى سائر أنحاء البلاد (٦) ، الا من أجل تلبية مطالبهم من أنواع النسيج ، ووفاء لاحتياجات هذه الخزائن العديدة ، فضلا عن كفاية حاجة الاستهلاك المحلى والأسواق الخارجية ٠

---

(٦) نقل المقريزى عن ابن الطوير أن الخدمة فى الطراز كان لا يتولاها الا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف وله اختصاص الخليفة دون كافة المستخدمين ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ ٠

٥ ـ مراكز صناعة النسيج وازدهار فن الزخرفة :
في العصر الفاطمي

١ ـ المنسـوجات الكتانية :

ظل الكتان المادة الرئيسـية المستعملة فى النسج بسبب انتشـار زراعته فى جهات كثيرة فى مصر وخاصة فى الدلتا والفيوم • وهذا يفسر لنا جانبا هاما من الأسباب التى استدعت تركز صناعة المنسوجات الكتانية فى مصر الشمالية والوسطى • وقد استمرت الأولى فى صنع الأنواع الدقيقة من الشرب والدبيقى والقصب والبوقلمون ، ويبلغ من شهرة هذه الأنواع من ثياب الكتان المصرية أنه كانت أكبرمدينة بفارس لصنع ثياب الكتان مدينة كازرون تسمى دمياط « الأعاجم » وكانت أنواع الأقمشة بفارس هى الأنواع المصرية من الدبيقى والشرب والقصب ، مما يدل على تلك الصلة الوثيقة بين الصناعتين بمصر وفارس فى أوائل العصر الفاطمى •

ويذكر المقدسى أنه كانت تصنع بمدينة سينيز ثياب تشاكل القصب، وأنه وبما حمل اليهم الكتان من مصر ، وفى كلام المقدسى هذا دليل على أن صناعة نسج الكتان نقلت الى فارس من مصر • ولا غرو فقد أعجب المقدسى عند زيارته لمصر فى عهد الخليفة العزيز بالله بمهارة المصريين وتفوقهم فى كثير من الحرف والصناعات على أقرانهم فى الدول الأخرى فهو يقول : « فأما الخصائص فلا نظـير لأقلامهم وزاجهم ورخامهم وحليهن وصـوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وصبغهم وغزلهم » •

وقد أحصى (فيت) عالم الآثار من قطع النسيج التى عملت فى دور الطراز المصرية خلال العصر الفاطمى أعدادا كبيرة ، تكشف لنا عن أسماء هـذه الدور أو أسماء المصـانع الحـكومية التى كانت تعمل فى كل من

الاسكندرية ودمياط وتنيس ودميره وبوره ودبيق وشطا وغيرها فى منطقة الدلتا ، وكذلك فى جهات الفيوم والبهنسا والأشمونين وطحا وغيرها فى صعيد مصر ، وتؤكد المصـــادر التاريخية على صحة ما أوضـحته الأدلة الأثرية (١) فمن ذلك ما يشير اليه المقريزى من شهرة تونه وتنيس ودمياط وما تنتجه مصانعها من فاخر الثياب والأقمشة فى بداية العصر الفاطمى فهو يقـول : « أنه حينما جلس المعز لدين الله فى قصره لاستقبال وفود المهنئين ، حمل اليه أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى هديته وكانت أحد عشر سفطا من متاع تونه وتنيس ودمياط · وقال : كنت أشتهى أن يلبس منها المعز ثوبا أو يتعمم بالعمامة التى فيها ، فما عمل الخليفة قط مثلهـــا » ·

كان طراز تونه من الشهرة فى العصر الفاطمى ، وقد وصل الينا من قطع النسيج فى عهد الحاكم بأمر الله نحو ست قطع ، مما أمر بعمله فى طرازها العامة والخاصة وهى بحسب توالى السنين ترجع الى سنة ٣٨٨ هـ ، وسنة ٣٨٩ هـ ، وفى سنة ٣٩٥ هـ وكذلك مما عمل بطرازها الخاص فى سنة ٣٩٧ هـ ·

ومن مراكز صناعة المنسوجات الكتانية كانت بوره أو بورا Bura وهى من جملة كورة تنيس ، تنتج أنواع الثياب ليس فقط للبلاط الفاطمى، وانما لعامة الشعب أيضا ، ومما يدل على ذلك ما وزد من قطع النسيج التى تحمل طرازها ، منهـا قطعة باســم الخليفة الحاكم بأمـر الله (٣٨٦ – ٤١١ هـ) ·

أما شطا فقد ظل انتاجها من المنسوجات التيلية منذ فجر الاسلام وحتى أواخر العصر الفاطمى ، وكان من أسباب شهرة طرازها أنه كان يعمل بها كسوة الكعبة الشريفة ، وقد جاءت العبارات الدينية للأئمة الفاطميين المنسوجة على طرازها الخاصة والعامة ، دليلا واضحا على اتخاذ المنسوجات وسيلة دعائية من أجل تحقيق أهدافهم السياسية فى ذلك الوقت ·

وكانت دبقو من النواحى التى اشتغل أهلها بنسيج الكتان وكان لها طرازها ، وقد أمدنا (فيت) بالعديد من قطع النسيج التى حملت أيضا

(١) ومن أهم أوراق البردى العربية احدى الأوراق التى تم اكتشافها فى مدينــة البهنسا وهى ترجع الى العصر الفاطمى وتتضمن قائمة بأشخاص يملكون أنوالا للنسيج ، وقد أوضحت هذه الوثيقة الهامة أن من هؤلاء الأشخاص من كان يملك أربعة أنوال ومنهم من يملك خمسة ، مما يبرهن على رواج صناعة النسيج واشتغال أهالى البهنسا فى غالبيتهم بهذه الصناعة التى كانت فخر الصناعة المصرية فى ذلك العصر · جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ٧٠ – ٧٢ ·

اسم الخليفة الحاكم بأمر الله منها قطعة مؤرخة فى سنة ٣٩١ هـ وأخرى مما أمر بعمله فى طراز العامة بدبقو ترجع الى سنة ٤٠٣ هـ ٠

واذا اتفقنا على أن دبقو كانت هى دبيق التى أشار اليها المقريزى ، فانه أمكن لأهلها انتاج أنواع جديدة من المنسوجات فى عهد العزيز بالله(٢)، منها نسيج العمائم الشرب المذهبة ، حيث بلغ طول العمامة منها مائة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب ، وكانت تباع بنحو خمسمائة دينار ٠ كما اشتهرت دبيق فى العصر الفاطمى بنسج القماش المسمى بالدبيقى الثقيل ، وكان يستخدم فى رسم الخرائط عليها بالأصباغ المشمعة ٠

وربما كانت مدينة تنيس هى أشهر المراكز الصناعية لنسج الكتان وغيره من المنسوجات فى العصر الفاطمى ، وكان من أهم المنتجـات نوع القماش المسمى بالقصب الملون وكان ينسج منه الحمامات والوقايات وملابس النساء ، ولم يكن ينسج مثله فى أى جهة أخرى والواقع أن أكثر ما ورد ذكره من قطع النسيج فى ذلك العصر ، انما كان من جملة انتاج تنيس ومن طرازها ، وقد أحصى (قيت) العديد من تلك القطع التى حملت أسماء الخلفاء الفاطميين ، مما عمل فى دار الطراز الخاصة والعامة بها ، ويذكر ناصر خسرو أنه كان بتنيس صـناع مختصـون بنسيج ملابس السلطان (يعنى الخليفة الفاطمى) ويقول : « وقد سمعت أن عاملا نسج عمامة السلطان ، فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى ، وقد رأيت هذه العمامة ويقال انها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى » ومهما كان لون المبالغة فى رواية ناصر خسرو فانها تدل على مدى مهارة الصناع والنساج فى مدينة تنيس ٠

ولا غرو فقد انفردت هذه المدينة بعمل ذلك الثوب الشهير الذى يقال له « البدنه » للخليفة الفاطمى ، حيث كان لا يدخل من الغزل سداه ولحمته غير أوقيتين وينسج باقيه من الذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة ، وتبلغ قيمته ألف دينار » ٠

ويشير ناصر خسرو الى أن ملك فارس أراد أن يعمل له فى تنيس

---

(٢) تقع دبقو بين الفرما وتنيس على ساحل البحر المتوسط ، وقد وردت فى كتاب الخطط للمقريزى باسم ديبق بتقديم الياء على الباء وقال أنها من قرى دمياط وينسب اليها الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة والديبقى العلم المذهب ٠ وقد اندثرت ومكانها اليوم يعرف بتل دبقو بالقرب من شاطىء بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى بناحية صان الحجر بمركز فاقوس بمحافظة الشرقية ٠ ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٥ ص ٧٨ ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، جـ ١ ، ص ٢٤٣ ٠

المصرية على غرار هذا الثوب ، وأرسل رسله الى تنيس بعشرين ألف دينار، وقد بقى رسله بالمدينة عدة سنين ولم يستطيعوا الحصول عليه ، ومهما كان مبلغ الصدق فى روايته أيضا الا أنها تعبر فى جلاء عن مدى شهرة تنيس وتفوق أهلها فى صناعة النسيج فى ذلك العصر · ولا غرو فقد انفردت تنيس بنسيج القماش المسمى البوقلمون ، حيث كان لا ينسج فى مكان آخر من جميع العالم ، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، وتحمل أثوابه من تنيس الى المشرق والمغرب وقد علق آدم متز على هذا النوع من القماش وقال : « وفى القرن الخامس الهجرى ظهر نوع جديد من القماش وهو المسمى « أباقلمون » · وهو قماش يظهر للرائى فى ألوان متقلبة ، وكان يصنع فى مدينة تنيس وحدها » وقد أشرنا من قبل الى أسباب ظهور مثل هذا النوع من الأقمشة وقدرة الصباغين فى استخدام تلك الفصوص والأحجار التى أطلق عليها المسعودى ذات الاسم قبل قرن من الزمان ·

ويمدنا ابن بسام بصورة صادقة عن نشاط أهل تنيس واشتغالهم بحرفة النسيج فى غالبيتهم ، وكانوا من ذوى اليسر والثراء ، فهو يقول عنها : « وبها من المناسج التى تعمل فيها الثياب خمسة آلاف منسج ، عدد عمالها عشرة آلاف نفس سوى من يطبب أو يرقم من ذكر أو أنثى ، وعدد ما فيها من الأسفاط ألف وخمسمائة سفط ، ومن الرزم ألف رزمة » ·

وهكذا تبدو الحركة الصناعية بها ، ولا شك أن الفاطميين شجعوا على نشاط هذه الحركة وعملوا على زيادة الانتاج وجودته ، اذ لم يكونوا ليبخسوا الصناع بل كانوا يبذلون الثمن كاملا لمنسوجاتهم ·

ومن الجدير بالذكر أن مدينة تنيس بقيت عامرة بنشاط أهلها الصناعى والتجارى الى حين خربها الملك الكامل محمد بن أيوب وهدم سورها وبيوتها فى سنة ٦٢٤ هـ (٣) ·

(٣) كانت تنيس من أجمل المدائن وكانت بالقرب من دمياط قال المسعودى كان طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع وكان عرضها من المشرق الى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا · وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد ، وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا ، وبكل مسجد منارة ، وكان بها ستة وثلاثون حماما · ولم تزل عامرة الى سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا يسوقها جماعة من الفرنج وحاصروا أهلها ، فلما أشرفوا على المدينة هرب أهلها الى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ، ثم أخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها واستمرت على ذلك الى سنة أربع وعشرين وستمائة (١٢٢٦م) فى دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقى من سورها وبيوتها واستمرت خرابا ، ولم يبق منها سوى رسومها فى وسط بحيرة المنزلة الحالية ·

وكانت دمياط تلى تنيس فى الأهمية من حيث اشتغال أهلها بحرفة النسـيج ، وكانت تنتج فى العصر الفاطمى القصـب الأبيض ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بالعديد من قطع النسيج الصادرة من دار الطراز الخاصة والعامة ، وخاصة فى عهد الحاكم بأمر الله • وقد استمرت مصانعها تنتج أنواع المنسوجات الكتانية الرقيقـة والتى عرفت بالقماش المسمى « دق دمياط » يتضح لنا ذلك من القطعة التى عملت بطرازها الخاص ، وهى تحمل اسـم الخليفة المستعلى بالله (٤٨٧ ـ ٤٩٥ هـ / ١١٩٤ ـ ١١٠١ م) •

وكان يشرف على دور الطراز فى العصر الفاطمى موظف كبير من الأعيان والأماثل ومن أرباب العمائم والسيوف ، يتبعه مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى ، تحت امـرته عشارى ديمـاس وثلاث مراكب من الدكاسات (٥) ، ولها رؤساء ونواتية نفقاتهم جارية من مال الديوان •

ويذكر القلقشندى أن صاحب الطراز كان له اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين ، ومقامه بدمياط وتنيس وغيرهما من مواضع الاستعمالات• ومن عنده تحمل المستعملات الى خزانة الكسوة • وكان الخلفاء اذا احتاجوا الى صنع شىء من الأمتعة والفرش وغيرها من المنسوجات ، صـدرت به تذكرة من ديوان الخزانة وسيرت الى موظفى الطراز مقرونة بما تقرر من نفقاتها من المال والذهب المغزول • ويذكر المقريزى أن تذكرة الطراز فى أيام الأفضل بلغت واحد وثلاثون ألف دينار ، ثم اشتملت أيام الوزير المأمون بن البطائحى على ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وتضاعفت فى أيام الآمر •

---

(٤) تعد هذه القطعة من التحف الثمينة من المنسوجات الفاطمية ، وهى عبارة عن عباءة طولها ٣١٠ سم وعرضها ١٥٠ سم ، وقد كانت محفوظة بداخل قارورة صغيرة ، وحفظها على هذه الصورة مع كبير حجمها ، يدل دلالة واضحة على دقة نسيجها ورقته ، وقد استطاع الأستاذ فيت أن يقرأ منها « مما عمل فى طراز الخاصة بدمياط سنة تسع ••• » وعلى أساس ذلك ترجع العباءة هذه اما الى سنة ٤٨٩هـ أو سنة ٤٩٠هـ ، فهى ترجع الى عهد الخليفة المستعلى • وهى محفوظة الآن بكنيسة سانت آن بمدينة آبت فى جنوب فرنسا وقد درس كل من جورج مارسيه وجاستون فيت هذه العباءة دراسة مستفيضة حللا زخارفها وقرأ ما عليها ويرجح محمد عبد العزيز مرزوق أن هذه العباءة كانت مصنوعة من القماش المسمى « دق دمياط » الذى أشار اليه المؤرخون ، والذى وجدت منه مئات الأثواب فى تركة الأفضل وزير الخليفة المستعلى ،

Repertoire, tome, 8, No. 2874, pp. 36-37.

الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ •

(٥) الدكاسات نوع من المراكب التى كانوا يخصصونها فى العصر الفاطمى لكبار رجال الدولة ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٣٤٢ •

وكان لكل دار طراز ناظر ومشارف وعامل وشاهد ، وذلك من أجل التنظيم والاشراف الدقيق على صناعة النسيج فى كل مراحلها ومراقبة الصناع بها ، حيث كانت تلك المصانع الحكومية تختص بصنع ما يلزم لخزائن الكسوة والفرش والأمتعة ، لا سيما دار الطراز الخاصة التى كان لا يباع انتاجها لأفراد الشعب ·

وكان النساج فى دور الطراز يعملون بالأجر ، أما فى المصانع الأهلية فكانوا يعملون لحسابهم ، حيث يأتى الناس بالغزل اليهم ليقوموا بنسجه وهذا يسمونه بالقباله ،أو أنهم كانوا يشترون الغزل وينسجونه لحسابهم ثم يقومون ببيعه بعد ذلك · ويبدو أن بعض السماسرة كانوا يتولون هذا العمل ، فيسلمون الغزل الى عمال يقيمون فى غرف يستأجرونها لهذا الغرض ويقوم النساجون بنسجها ، ثم يسلمونها أثوابا ، كما كان يحدث فى دمياط وغيرها ، وقد عبر القزوينى عن ذلك عند وصفه لمدينة دمياط ونشاط أهلها بقوله : « ومن طريف أمر دمياط فى قبليها على الخليج غرفا تعرف بالمعامل يستأجرونها من الحاكم لعمل ثياب الشرب فيها ، فان عمل بها ثوب ونقل الى غير هذه الغرف ، علم بذلك السمسار المبتاع للثوب ، وينقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب » وهكذا كان السماسرة يسيطرون على ما تنتجه المناسج الأهلية فى دمياط ويبيعونه بمعرفتهم بعد ذلك ·

وكما أشرنا من قبل فان صناعة المنسوجات الكتانية لم تكن قاصرة على تنيس ودمياط وغيرها من قرى الدلتا ، بل ان جهات عديدة مثل بنشا ودلاص وأنصنا وأشمون كان يشتغل أهلها بحرفة النسيج ، وخاصة الأقمشة التيلية · وقد توطدت صناعة مثل هذه المنسوجات خلال العصر الفاطمى فى مصر الوسطى بسبب اعتماد هذه المنطقة على ما كان يزرع فى الفيوم من الكتان ·

وكانت أهم المراكز الصناعية فى تلك المنطقة أهناس والبهنسا والأشمونين ، وكان أهل البهنسا يصنعون الستور المنسوبة اليها وينسجون المقاطيع والمضارب الكبار والثياب المحبرة · واشتهرت كذلك بصنع الفساطيط الكبار والطرف السلطانية ، ومما لا شك فيه أن عمال النسيج فى البهنسا وغيرها من تلك المراكز كان عليهم أن يزيدوا من انتاجهم لتلبية احتياجات البلاط الفاطمى ، وما أشار اليه المؤرخون من حياة الترف التى عاشتها الخلافة الفاطمية لا يقع تحت حصر ، ويكفى دليلا على ذلك ما جاء فى وصف خزائن الفرش والأمتعة والخيام وما كانت تحتويه من عجائب الستور والفساطيط المصورة ·

وقد ذكر ابن حوقل أن الفيوم كان يسكنها في أيامه ـ أي في أوائل العصر الفاطمي ـ الصناع وأرباب الحرف والنساجون خاصة ، ولكنه لم يحدد نوع المادة التي استخدمها هؤلاء النساجون ، ومن المرجح اشتغال بعضهم بعمل المنسوجات الكتانية وذلك بالاضافة الى عمل الخيش •

٢ ـ صناعة المنسوجات الصوفية :

اشتهرت منطقة مصر الوسطى بصناعة الصوف ونسجه في العصر الفاطمي ، وذلك بسبب وفرة الصوف لكثرة تربية الأغنام على أيدى القبائل العربية التي استوطنت في القرن الخامس الهجرى وتفوقها من حيث الجودة • على كل من صوف أرمينية وجزيرة كريت •

ومن أهم مراكز نسج الصوف في تلك المنطقة كانت طحا ، وكان يشتغل أهلها بعمل ثياب الصوف الرفيعة • ويشير ابن حوقل الى شهرتها في أوائل العصر الفاطمي ، ويقول • : « أنه كان فيها غير طراز » مما يدل على رواج صناعة النسيج بها • وذكر أبو صالح الأرمني مركزا هاما لعمل النسيج من شعر الماعز وهو سمألوط وقال عنه أنه لا مثيل له في العالم •

أما مدينة القيس الشهيرة بانتاجها من نسيج الصوف منذ عصر الولاة ، فانها كانت من أهم المراكز الصناعية في العصر الفاطمي ، يعزز ذلك ما ذكره ياقوت عن نشاط أهلها واشتغالهم بحياكة ثياب الصوف • كما يتحدث المقريزي عن طرازها ومدينة البهنسا فيقول : « ولهم طراز القيس والبهنسا في الستور والمضارب يعرفون به ومنه طراز أهل الدنيا » والواقع أنه كان لأهالي البهنسا نشاط كبير في صناعة النسيج خلال العصر الفاطمي ، ولم يقتصر عملهم على المصانع الحكومية بل كان كثير ، منهم يملك الأنوال العديدة (٦) •

ومن أهم مراكز النسيج في العصر الفاطمي كانت مدينة أسيوط ، فقد ذكر ناصر خسرو أنهم كانوا ينسجون في تلك المدينة عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها في العالم (٧) ، والصوف الدقيق الذى يعمد الى بلاد

---

(٦) ذكر جروهمان ان بعض الأشخاص في مدينة البهنسا كان يملك أربعة أو خمسة أنواع ، مما يدل على أنهم كانوا يعملون لحسابهم أو في مصانعهم الأهلية •

أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ٧٠ ـ ٧٢ •

(٧) يقول ناصر خسرو : « وقد رأيت في أسيوط فوطة من صوف الغنم لم أر مثلها في لاهور أو ملتان وهي من الرقة بحيث تحسبها حريرا » سفر نامة ، ص ٧١ •

فارس المسمى الصوف المصرى ، وقد اشتهرت به مصر فى ذلك الوقت ، وكانت تصدر منه مقادير كبيرة الى الأقطار الأخرى ٠

وكانت اخميم بها مناسج حكومية تعرف بالطراز ، وكان ثمن الثوب من الطرز الصـوف الرقيق أو المعلم أو المطرف من الكتـان يبلغ عشرين دينارا ٠ وقد ظلت اخميم محافظة على شهرتهـا فى انتاج أنواع الفرش الأنماط (٨) التى أشار اليها المقريزى وأطلق عليها لقب الأنطاع ، وكانت تصدر منها الى سائر البلاد الأخرى فى العصور الوسطى ٠

٣ ـ صناعة نسج الحرير :

لم تلبث القاهرة بعد تأسيسها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، أن ازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية ٠ فقد أنشأ الوزير يعقوب بن كلس دارا لصناعة الديباج والحرير برسم البلاط الفاطمى (٩) ٠ كما شجع الخليفة العزيز بالله على انتاج نوعين جديدين من النسيج ، النوع الأول هو العتابى والثانى ما يسمى بالسقلاطون ، وينسب الأول الى بغداد والثانى الى بلاد الروم ٠

ومما لا شك فيه أن الفاطميين وقد رغبوا فى التفوق على بغداد فى مظـاهر حياتهم ، فـانهم لم يتوانوا فى البحث عن الأنـواع الممتازة من منسوجات الحرير وغيرها فى الدول المعاصرة ، حتى يصنع مثلها فى مصر ٠ ويؤيد هذا الاتجاه ما أشار اليه المقريزى من تكليفهم بعض الوكلاء فى شراء التحف النادرة والأنواع الثمينة من سائر الجهات ٠ ولم يكن نوع العتابى الا الثياب الحريرية التى كانت تصنع فى بغداد (١٠) ، ويمكن

(٨) الأنماط هى البسط التى تفرش وبائعها يسمى الانماطى ، وكانت تستخدم كذلك فى صناعة الستور التى توضع على الهوادج فوق الجمال وأغطية السروج ٠

ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣١١ ٠

(٩) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ٠

الديباج هو قماش لامع ويعتبر تقليدا للحرير الصينى ، وهى كلمة فارسية تعـنى لباس السروج ، عبد المنعم ماجد ٠ تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصـور الوسطى ، ص ١٢٢ ٠

(١٠) كانت تصـنع فى محلة العتابيـة ببغداد وتنسب اليها ، وهى ثيـاب مخططة تحاك من خيوط القطن والحرير ، وكانت هذه المنسوجات تصدر من بغداد الى أنحاء أخرى من العالم الاسلامى ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١ ، الكبيسى : أسواق بغداد ، ص ٦٧٠ ٠

القول بأن العلاقات الطيبة التى سادت بين الخليفة الفاطمى العزيز بالله وبين عضد الدولة كانت تسمح بذلك • كما عمل الفاطميون على نقل الخبرات الفنية من أجل انتاج نوع من القماش السقلاطون المنسوج من الحرير وذلك من بلاد الروم •

وتشير الدراسات الى أن الفاطميين قد بذلوا جهدهم فى أن يستحوذوا، على تجارة الهند من أيدى منافسيهم العباسيين ، وكان من أهم غلات الهند والصين التى تجلب الى مصر الحرير والغضائر والكاغد والدار صينى • وكانت تنقل عن طريق عدن وجده ، ولها سوق رائجة لدى المصريين خلال العصر الفاطمى • وهكذا أصبح من الميسور الحصول على الخز والمادة الخام اللازمة لنسج الحرير • وهناك اشارة واضحة وردت ضمن أوراق الجنيزة تذكر لنا قوائم البضائع التى أرسلت من موانى عدن الى مصر ، ومنها أقمشة حريرية وملبوسات وزجاج فى ذلك الوقت •

وكانت هناك أصناف من المنسوجات الحريرية لا تصنع الا للخليفة الفاطمى نفسه ، ومع ذلك فقد انتشر استخدام نسيج الحرير ، فكان أفراد الشعب يحصلون على أقمشة نفيسة ، تفصل منها الجلاليب والقمصان والعمائم والأحزمة وتزينها شرائط من الحرير أخذ حجمها فى الزيادة حتى صارت فى القرن السادس الهجرى معظم الأرضية فى الأقمشة • يعزز ذلك ما أشار اليه الدمشقى وهو من علماء ذلك القرن الى استخدام الديباج فى أغراض متنوعة ، فمنه يصنع نوع من الثياب وما يحتاج منه فى صناعة الفرش وغير ذلك (١١) •

ويصف المسبحى لنا قصر الذهب فى عهد الخليفة الظاهر ، وقد تزين بالبسط وعلقت فيه الستائر الديباج والستور المذهبة الحسان ، وجميع السقائف علق عليها بالستور وفرشت بالفروش ، مما يدل على كثرة الأغراض التى كان يستخدم فيها نسيج الحرير فى العصور الفاطمية •

ومن أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية كانت الاسكندرية ، فقد ظلت تنتج منها أفضل الأنواع خلال العصر الفاطمى ، وخير دليل على ذلك ما تذكره المصادر التاريخية لنا ، فقد خلفت ست الملك عند وفاتها ثلاثين قطعة من شقق الحرير الأحمر ، ولما قتل برجوان الصقلبى فى عهد

---

(١١) ويصف الدمشقى : نوع الحرير الجيد أو الديباج المستخدم للباس أو الفرش فيقول : « وأفضله ما حسن صبغه وانتظمت نقوشه ودق حريره ، وصفى نسجه وأشرق لونه وثقل وزنه وسلم من النار فى جندرته » •

الاشارة الى محاسن التجارة ، ص ٤٥ •

الحاكم بأمر الله وجد له ألف قميص حرير اسكندرى . ويذكر ابن ميسر فيما خلفه الأفضل حيث وجد له من أصناف الديباج وما يجرى مجراه من عتابى وغيره تسعون ألف ثوب ، لعلها من انتاج الاسكندرية وكانت شهرة الاسكندرية فى ذلك الوقت عظيمة حتى أن الصناع المصريين فى غيرها من المراكز الصناعية كانوا يقلدون انتاج مناسجها ويبيعونه على أنه المصنوع بها . وقد أحصى فيت فى كتابه جامع الكتابات الكوفية قطعتين من الحرير .

أما عن مدينتى تنيس ودمياط التى عمت شهرتهما الآفاق فى ذلك العصر فى صناعة النسيج ، فتشير المصادر الى صناعة الشرب بهما ، وهو نوع من القماش الشفاف (Chiffon) وكانت تدخل فى صناعته خيوط حريرية أو مذهبة ، كما كان يدخل فى صناعة ثوب الخليفة الشهير « بالبدنة » نوع من الحرير المرقوم . ولعل تلك الهدية التى بعث بها صلاح الدين الأيوبى الى نور الدين فى دمشق ، كانت من انتاج طراز هاتين المدينتين ، وكانت تشتمل على أربعة وعشرين ثوبا من الحرير ومثلها من الوشى الحريرية .

وكذلك كان أهل أبوان أو الأبوانية من الأقباط يعملون فى انتاج نوع من الشرب الفائق على غرار ما كان يتم نسجه فى مصانع تنيس .

كذلك كانت سمناى مشهورة بنسج الأقمشة الحريرية ويبدو مما ذكره المقريزى عنها أنها كانت عامرة بأهلها فى العصر الفاطمى ، وأنهم كانوا يحترفون كثيرا من المهن والصناعات .

أما بالنسبة لمدينة الفسطاط ، فان المصادر لم تذكر شيئا عن نوع النسيج الذى كان يصنع منه قماش الفستان (Fustian) المنسوب اليها ، والمرجح أن يكون من الحرير الذى كان يصنع فى الاسكندرية وفى دبيق وغيرها من الجهات السابق ذكرها . وليس من المستبعد أن يكون هذا النوع من القماش الحريرى من صنع طراز مصر أو الفسطاط نفسها ، ومما يعزز ذلك القول ما أشار اليه الشيزرى فى حديثه عن الحريريين وحوانيتهم بها ، وقد أوضح لنا شيئا عن أعمالهم وما كان يجب عليهم من حيث عدم قيامهم بصباغة القز قبل تبييضه لئلا يتغير لونه بعد ذلك فهو يقول عنهم : « ومنهم من يثقل الحرير بالنشا المدبر ، ومنهم من يثقله بالسمن أو الزيت ونحو ذلك » مما يدل على اشتغالهم بتجهيز واعداد نسيج الحرير قبل بيعه واستعماله فى اللباس أو الستور ونحو ذلك .

ونحن لا نستبعد قيام الصناع فى دار الطراز بمصر (الفسطاط) بنسج الثياب الحريرية ، خاصة بعد أن غدت عاصمة البلاد حتى مجىء

الفاطميين الى مصر وتأسيسهم لمدينة القاهرة ، ومن المرجح أن يكون محمد ابن جعفر التميمى قد زاول حرفة القزازة منذ صغره بمدينة الفسطاط ، وكان قد اشتهر بتلك الحرفة وعرف بالقزاز ، حتى بعد أن ذاع صيته وبلغ تلك المنزلة السامية فى علوم العربية والنحو ، يقول ابن خلكان عن شهرته : « ان القزاز فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين » . وليس هناك ما يمنع اشتغاله بالحرفة وعلم النحو فى نفس الوقت ، تماما كما كان شأن بعض الفقهاء وغيرهم من أهل العلم والأدب فى العصور الوسطى .

ومن المعروف أن حرفة القزازة كان صاحبها يقوم بنسج الحرير وبيعه بعد ذلك ، حيث كان بعض الحائكين يملكون المحال الصغيرة لمزاولة المهنة ، وقد روى ابن الزيات عن أبى محمد بن أبى الفرج بن ابراهيم المعروف بالكيزانى أنه كان له معمل قزازة وكان يدير الدولاب بيده . كما أشار ناصر خسرو الى كثرة المحلات الصناعية والتجارية بالفسطاط وقال : انه كان فى مدينة مصر وحدها مائتا خان لبيع المنسوجات ايجار الواحد منها كان لا يقل عن اثنى عشر ألف دينار فى السنة » .

ويتبين لنا من أوراق البردى أن مدينة الأشمونين فى منطقة مصر الوسطى كانت احدى مراكز حرفة القزازه ، فقد أشارت الأوراق الى وجود عدد كبير من القزازين أو ناسجى الحرير بتلك المدينة ، نذكر من هؤلاء قلته بن كيل وقد ورد اسمه فى عقد مؤرخ يرجع الى سنة ٤٤١ هـ ، أبو العلا القزاز وجاء اسمه فى عقد مؤرخ سنة ٤٤٢ هـ .

ومن أسماء الحائكين أيضا التى ذكرتها أوراق البردى قلته القزاز ، ورد اسمه فى عقد مؤرخ سنة ٤٥٩ هـ ، وأيضا عبد المسيح القزاز ، وقد ذكر فى عقد يرجع تاريخه الى سنة ٤٦٠ هـ . وهكذا تكشف أوراق البردى عن ازدهار صناعة نسج الحرير فى تلك المدينة فى العصر الفاطمى ، وخاصة فى عهد الخليفة المستنصر .

وعلى كل حال فمهما تعددت مراكز نسج الحرير فى ذلك العصر ، فانها لم تكن تكفى حاجة البلاد من الأقمشة الحريرية (١٢) ، وعلى الرغم من تلك القيود التى أشار اليها فقهاء أهل السنة فى استعمال الرجال لهذا النوع من النسيج ، فانه يبدو مع حياة الناس فى ظل الحكم الفاطمى ، وما نعموا به من الاستقرار والثراء أن كانت مصر تستورد من صقلية

---

(١٢) ألمح المقريزى الى أن المصريين كانوا يقومون بحضانة دودة القز فى برمهات من الشهور القبطية ، ولا تكفى تلك الاشارة العابرة للنهوض دليلا على أن مصر كانت من البلاد التى تعنى بتربية دودة القز من أجل النتاج الحريز . الخطط ، جـ ١ ، ص ٥٠٩ .

ما ينسج بها من الأنواع الفاخرة (١٣) ، وكان بها وفرة فى الانتاج على عكس الحال فى الديار المصرية ، فقد ذكر ناصر خسرو أن السفن كانت تتوجه من موانى مصر الى هذه الجزيرة وتعود محملة بالمنسوجات من الثياب المنقوشة ، وكانت القطعة الواحدة تباع فى أسـواق مصر بعشرة دنانير مغربية .

كما كانت أسـواق الحرير بمدينة الاسـكندرية ، وكانت تتراوح أسعارم ما بين سنة ٤٥٢ ـ ٤٩٤ هـ ، ما بين ٢١ ، ٢٣ دينارا لكل عشرة أرطال كما كان تجار الغرب يدفعون لتجـار الشرق ثمن السـلعة حريرا بدلا من الذهب .

ويمكن القول بأنه مهما كان اختلاف الباحثين حول المناسج المصرية وانتاجها من الأقمشة الحريرية الخالصة قبل عصر المماليك ، فان ما أوضحته قطع النسيج يعنى أن الأمر لم يقتصر على خيوط اللحمة الملونة فى نسج الحرير ، بل أمكن استعماله كذلك فى خيوط السندى ، وأصبحت كلها منسوجة من الحرير خاصة فى أواخر العصر الفاطمى .

ازدهار فن الزخرفة فى العصر الفاطمى :

قسم علماء الفنون والآثار المنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة الى أربعة أنواع تمثل العصور الرئيسية فى تاريخ الدولة الفاطمية ، وقد ضم متحف الفن الاسلامى بالقاهرة مجموعات من قطع النسيج توضح لنا حقيقة التطور فى هذا الفن ، وما برع فيه النساجون والمزخرفون المصريون من تفوق وازدهار . كما يضم من الشواهد المنحوتة من الحجر الرملى ، ما يحمل أسماء المطرزين فى ذلك العصر (١٤) .

فالنوع الأول وينسب الى عصر المعز والعزيز والحاكم ، كان قوام زخارفه أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى ، بها جامات بيضـاوية الشكل يتداخل بعضها فى بعض وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود . كما يتضح من القطعة المحفوظة بمتحف المترويوليتان وعليها نقش يتضمن

(١٣) اتفق علماء الآثار على ضم المنسوجات المصنوعة فى جزيرة صقلية الى النسيج الفاطمى وذلك لخضوع تلك الجزيرة للفواطم مدة قرنين من الزمان . سعاد ماهر : النسيج الاسلامى ، ص ٨٧ .

(١٤) عثر على أحد الأحجار بجبانة أسوان مؤرخ فى شعبان سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م باسم « عمال أم ولد على بن عبد الله المطرز » والمطرز هو الذى يشتغل بالتطريز على القماش أى بالزخرفة . حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، جـ ٣ ، ص ١١٠٧٦ .

اسم الخليفة الفاطمى العزيز بالله (٣٦٦ هـ - ٣٨٦ هـ) ، وحروف تلك القطعة رشيقة وهى منسوجة من الحرير الأصفر ، ومحددة بخيوط زرقاء .

وأمكن للصانع المصرى أن يبتكر العديد من التصميمات الجديدة التى لم تكن معروفة قبل مجىء الفاطميين الى مصر ، منهـا تلك القطعـة التى نسجت فى طراز الخاصة بدمياط فى سنة ٣٨٧ هـ . كما أصبحت الكتابة الخطية عنصرا زخرفيا تميز بالجمال والتنوع فى العصر الفاطمى ، ومن ذلك القطعة التى تزدان بزخرفة نباتية يعلوها سطر من الكتابة الكوفية يتضمن اسم اليازورى وزير الخليفة المستنصر ويظهر من هذه الكتابة أنها نسجت فى طراز العـامة بمدينة تنيس سـنة ٤٤٣ هـ . وتثبت أنواع الزخرفة بها أنها تنسب الى عصر الظاهر والمستنصر أو النوع الثانى بحسب التقسيم المصطلح عليه . وقد تنوعت الأشرطة الزخرفية واتسعت ، وقوامها جامات عليها رسوم وطيـور وحيوانات ، تحيط بها سـطور من الكتابة الكوفية ، كما نرى الصانع وقد ملأ الفراغ الموجود بين سيقان الحروف بزخرفة هندسية قوامها دوائر بداخلها نقط قد نسق وضعها .

وكانت الكتابة على قطعة النسيج تشمل اسم الخليفة وحده أو مع اسم الوزير الذى أمر بصنعها ثم مكان الصناعة وتاريخها ونوع الطراز وأحيانا يكتب اسم المشرف أو صاحب الطراز ، ومن النادر ذكر اسـم الصانع نفسه ومن ذلك القطعة التى حملت اسم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، والتى عملت بطراز العامة بتنيس سنة ٤١٢ هـ .

ومن أقدم المنســوجات المؤرخة قطعة كبيرة من الكتان عليها اســم الخليفة الظاهر ، ويزينها شريطان على كل منهما صف من الجامات الحمراء المتبادلة مع جامات أخرى سوداء ، وبداخل الجامات رسم طيور وعقبان . وقد أنتجت المصانع الفاطمية فى تلك الفترة قطع من النسيج وفيها أكثر الصناع من استعمال خيوط الحرير من مختلف الألوان مع مراعاة التناسق التام واستخدام الخيوط الذهبية ، يصف ديماند لنا قطعة من نسيج الكتان أيضا حيث تزينها أشرطة أفقية ويزين الشريط الأوسط منها رسم أزواج من الصقور على أرضية خضراء والأشكال المستخدمة فى الزخرفة من نسيج الحرير والخيوط المصنوعة من الجلد المطروق بالذهب (١٥) . ويتجلى

(١٥) كان الصناع فى ذلك الوقت يقطعون الذهب الى صفائح رقيقة ، ثم يسحبون تلك الصفائح الى خيوط ، ثم يقومون بضفر الخيوط الذهبية مع خيوط من الجلد أو الكتان أو غيرها من مواد النسيج ، ويرجع استخدام الذهب فى النسيج الى ما قبل الميلاد ، ولعل المصريين القدماء كانوا أول من ابتدع طريقة استخدام الخيوط الذهبية فى زخرفة النسيج ، مرزوق : الزخرفة المنسوجة ، ص ١٠٦ .

ذلك فيما عمل بطراز تنيس فى عهد المستنصر ، خاصة الثياب الخليفية المسماة بالبدنة • وقد أحيت مصر هذه الصناعة فى العصور الوسطى •

كما نلحظ استمرار تطور فن الزخرفة فيما نسب الى عهد الخليفتين المستعلى بالله والآمر بأحكام الله (٤٨٧ ـ ٥٢٤ هـ / ١٠٩٤ ـ ١١٣٠ م) فقد أحدث النساجون تطويرا فى أسلوب الزخرفة ، وظهرت عناصر جديدة مثل الأشرطة والجدائل التى تتموج وتتداخل ، ويدخل بينهما جامات تضم رسوم طيــور وحيوانات وكؤوسا ، تتخللها ســطور من الكتابة الكوفية تتضمن اسم الخليفة ووزيره • وقد ضم متحف الفن الاسلامى العديد من القطع التى توضح ذلك (١٦) •

أما النوع الأخير ويرجع الى أواخر العصر الفاطمى ويشمل عهد الخلفاء الحافظ والظاهر والفائز والعاضد (٥٢٤ هـ ـ ٥٦٧ هـ) فكان أهم ما تميز به من فنون الزخرفة هو استخدام الحرير الذهبى اللون ، لما كان له من مكانة ممتازة فى النفوس ، فكثر استعماله فى زخرفة المنسوجات ، وكذلك استعمال خط النسخ المدور لأول مرة على المنسوجات ، حيث أصبح هذا النوع من الخط هو المفضل فى العصر الفاطمى الأخير ، فكان يجذب نظر الرائى بشكله الفخم ومنظره الرائع • ولا شك أن هذه التقسيمات الأربعة من حيث الفنون الزخرفية تثبت مدى نشاط الرسامين والصباغين وغيرهم من العاملين فى صناعة النسيج ، كما تدل على ما تميزت به أعمال الزخرفة وقد صارت اسلامية بحتة خلال العصر الفاطمى ، وان كانت لم تخل تماما تلك الزخارف من سمات العلاقة بماضيها فى وادى النيل •

وهكذا نخلص الى القول بأن هؤلاء الحرفيين من النساجين والصباغين والرسامين أو غيرهم من الحريريين والمذهبين ظلوا فى حركة دائبة وفى نشاط مستمر داخل دور الطراز الفاطمية وخارجها ، ولم يكن استعمالهم لخيوط الحرير من مختلف الألوان والخيوط الذهبية وغيرها من خط النسخ المدور فى أعمال الزخرفة الا دليلا واضحا على مهارتهم ومقدرتهم الفائقة على التنوع والابتكار فى مظاهر الزخرفة المنسوجة فى كل مرحلة من مراحل صناعة النســيج ، والتى أصبحت تعــد بحق فخر الصناعة المصرية أيام الفاطميين •

---

(١٦) كانت خيوط الذهب عبارة عن أمعاء الحيوانات لصقت بها صفائح الذهب ، وقد كانت تصدر هذه الخيوط بكثرة من ميناء الاسكندرية • مرزوق : الزخرفة المنســوجة ص ١٠٦ •

الفصل الثانى

حرفة الوراقة
وفن الكتابة

١ ـ صناعة البردى فى عصر الولاة •

٢ ـ الوراقة فى عهد الطولونيين والاخشيديين •

٣ ـ صناعة الكتابة فى مصر منذ فجر الاسلام حتى نهاية عصر الطولونيين والاخشيديين •

٤ ـ ازدهار حرفة الوراقة وفن الكتابة فى العصر الفاطمى •

٥ ـ الكتاب فى العصر الفاطمى •

١ ـ صناعة البردى فى عصر الولاة

انفردت مصر بانتاج ورق البردى المستخدم فى الكتابة لجميع شئون الدولة والمجتمع منذ العصور القديمة (١) • وتكاد تجمع المصادر على أن الاسكندرية كانت وحدها الميناء التى تصدر منه أوراق البردى الى سائر بلاد العالم قبل الفتح العربى • ويبدو أن حق إنتاج وبيع البردى الذى ظلت الدولة تحتكره فى العصر البطلمى ، قد منح فيما يبدو وفقا للسياسة الرومانية فى تشجيع النشاط الاقتصادى لبعض أهالى الاسكندرية ، وأصبح هناك مصانع حكومية ومصانع أهلية للورق ، وأن هذه المصانع الأخيرة كانت تبتاع حق مزاولتها هذه الصناعة •

ولكن بعد أن صدرت مراسيم الامبراطور البيزنطى جستنيان عام ٥٣٦ م ، ألغى هذا الحق ، وأصبح انتاج البردى قاصرا على مصانع للدولة ويدخل فى الطراز ، وصار على الموثقين العموميين وغيرهم من رجال الادارة البيزنطية مراعاة عدم تحرير العقود الا اذا كانت الورقة الأولى من درج البردى سليمة وهى الورقة التى تحوى أسماء موظفى الدولة المشرفين على انتاج البردى ، وأيضا اسم الامبراطور ورسم الصليب وشعار التثليث •

وهكذا كانت الحكومة البيزنطية تحتكر صناعة أوراق البردى ،

---

(١) يضم متحف برلين مجموعة من أوراق البردى ترجع الى العصر البيزنطى ، وقد تم استخدامها على شكل مسودات رسمت عليها طريقة زخرفة النسيج التى كانت شائعة فى ذلك العصر قبل الاسلام وهى طريقة القباطى •

Johnson : Economic Studies, p. 121.

وتشرف عليها اشرافا دقيقا الى حين نجاح العرب فى استيلائهم على البلاد فى منتصف القرن السابع الميلادى ٠

كان نبات البردى ينمو فى مناطق وجهات متفرقة من مصر وبخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم ، وبعد أن يقطع هذا النبات كانت توضع سيقانه فى الماء لتنعم ثم تنزع عنها القشرة الخضراء ، وتقسم الساق الى شرائح ثم ترص عليها شرائح أخرى أفقية وتغطى بشىء أو أداة ثقيلة ، ويقوم الصناع بعد ذلك بصقلها بآلات من العاج ، وكانت الصحائف يوصل بعضها ببعض فتكون لفائف يسهل استعمالها ، يطلق عليها درج البردى أو الدرج (٢) ٠

وقد ظل العمل بمصانع البردى جاريا دون تغيير يذكر فى العمال أو فى مستوى الانتاج ٠ كما استمرت هذه المصانع خاضعة لرقابة الدولة بعد الفتح الاسلامى للبلاد ٠ ومن أهم المراكز لصناعة البردى أو القراطيس كما ورد فى القرآن الكريم وعلى لسان العرب (٣) ، كانت بوره ووسيمة وهما من المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط ٠ كذلك كانت افراحون فى شرق الدلتا (٤) ، والفيوم تضم مصانع لانتاج البردى ٠

ويبدو أن العاصمة الفسطاط كانت توجد بها مصانع للقراطيس منذ وقت مبكر ، حيث يذكر ابن عبد الحكم أن العرب كانوا يختطون حول أصحاب القراطيس الدور والسكن ٠ كما يشير ابن ظهيرة الى أن مدينة اسيوط بالصعيد كانت تضم مصنعا لانتاج البردى أو القراطيس ، ولها طراز خاص بها ٠

ولا شك أن أهم مصانع الورق أو البردى ما كان يوجد منها بالاسكندرية ، فقد اشتهرت منذ العصور القديمة بانتاجها ، وكان من أهم منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، حيث كان يتم تصديره الى بيزنطة وغيرها من بلاد العالم الخارجى ٠

وفى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، حين أمر بتعريب الدواوين وكتابة المراسلات بالعربية ، تنبه الخليفة الى ما كان يكتبه

---

(٢) أشار المقريزى الى أنه كان يطلق عليها فى صدر الاسلام الصحف المدرجة أو الدروج ٠ الخطط ، جـ ١ ، ص ١٦٨ ٠

(٣) قال الله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » ، سورة الأنعام : الآية ٧ ٠

(٤) وردت فى هذه الجهة بالتعريف فهى الفراحون من أعمال الشرقية : ابن الجيعان التحفة السنية ، ص ٦٤ ٠

الصناع الأقباط فى مصر فى طراز القراطيس من العبارات المسيحية (٥) ، فكان أن أصدر الى أخيه عبد العزيز بن مروان والى مصر آنذاك بضرورة تغيير ذلك ، فحلت العبارات الاسلامية فى طراز النسيج والبردى المعد للتصدير محل بسملة التثليث ، وكان أن توقف تصدير البردى الى حين .

وعندما اضطرت بيزنطة الى استيراد حاجتها منه بطرازه الغربى من مصر وكانت المنتج الوحيد ، اضطرت الى مجاراة الظروف الجديدة ، وعمل الأباطرة البيزنطيين على نقل بسملة التثليث والصليب التى كانت على البروتوكول ، الى قائمة الوثيقة (٦) .

كان الصناع المصريون يجيدون عمل أنواع من البردى منه ما نعم وغلا ، ومنه ما خشن ورخص حتى قيل انه كانت المصانع المصرية تنتج سبعة أصناف من ورق البردى ولا شك أن هذه الأنواع الجيدة المستخدمة فى الدواوين كانت باهظة التكاليف غالية الثمن ، ومما يوضح ذلك أن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ) أصدر تعليماته بالاقتصاد فى استعمال الورق (٧) .

وقد ذكر أن دروج البردى منها ما بلغ فى طوله ما يقرب من خمسة عشر مترا ، وكان يباع زوج الطومار منه كما تشير أوراق البردى بمبلغ درهم ونصف ، كما يباع الدرج الواحد منها من النوع الجيد بدينار

---

(٥) كان الطراز على القراطيس فى مصر لا يزال يكتب عليه بسملة التثليث ، وقد حدث كما يذكر البيهقى وينقل عنه الدميرى ، أنه حينما مر عليه ذلك الطراز لمت نظره وقال : ما أغلظ هذا فى أمر الدين والاسلام أن يكون طراز القراطيس وهى تحمل فى الأوانى والثياب وغيرها وأصدر مرسومه الخاص للكتاب بابطال ذلك الطراز على ما كان به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وان يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد « وشهد الله أنه لا اله الا هو » ، المحاسن والمساوىء ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ ــ ١٢٧ ، حياة الحيوان ، ص ١١٥ .

(٦) يذكر Wiet أنه على الرغم مما قام به الصناع من استبدال ذلك بما يتفق والدين الاسلامى الا أن الكتاب ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الدولة الرسمية
Precis de l'Hi toire d'Egypt, tome 2, p. 147.

(٧) قيل ان أبا نواس فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز شكا من حاجته الى الورق فقال :

اريد قطعة قرطاس فتعجزنى ... وجل صحبى أصحاب القراطيس
لهم اسماهم الله عن ود ومعرفة ... ان المياسير منهم كالمفاليس

أحمد أمين : ضحى الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٢٢ .

ونصف (٨) • وقد ذاعت شهرة مصر بانتاجها من البردى أو القراطيس ، وظلت الدولة الاسلامية تستورده منها فى صدر الاسلام •

والواقع أن انتاج البردى لم يكن قاصرا فى استخدامه أو استغلاله على التصدير والحصـول على الدنانير البيزنطيـة فحسب ، بل كان النسـاخ المصريون فى أعقاب الفتح الاسـلامى يستعملونه فى كتابة المخطـوطات وزخرفتها (٩) ، وكان جلهم من الرهبان فى الأديرة القبطية ، حيث ينفقون أعمارهم فى نسخ الكتب القديمة وتحلية صفحاتها بأنواع الزخارف وأجمل الألـوان •

ومن تلك الأديرة التى ذكرها المقريزى دير أرض الحاجر بالقرب من أسيوط (١٠) اذ كان يضم عدة نساخ من الرهبان لنسخ الكتب الدينية وخاصة الانجيل ، بالاضافة الى كتب العلوم الأخرى •

وكانت أول بردية كتبت بالعربية فى مصر الاسلامية بقلم حنا العمدة والشماس وأبى حديدة ، كما ورد بالبردية من مدينة اهناسيا ، وقد عثر عليها مؤرخة بعام ٢٢ هـ • ويبدو أن كثيرا من رجال الكنائس والأديرة ظلموا يمارسون فن الكتابة والنسخ واعداد المخطوطات والكتب ، ولا غرو فقد مارس الرهبـان وغيرهم العـديد من الحرف والصناعات داخل تلك الأديرة والكنائس القبطية فى عصر الولاة • ويعزى لينبول نبوغ الرهبان الايرلنديين وتفوقهم فى أعمال النسخ والنقوش البيزنطية الذهبية والفضية فى مخطوطاتهم الى هؤلاء الرهبان المصريين ومحاولة تعليمهم وتدريبهم على الكثير من الحرف ، خاصة أعمال النسخ والكتابة وزخرفة المخطوطات •

كما تبرهن تلك المخطوطات والكتب الدينية الاسلامية على أن المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام غيرهم من أهل الذمة من الأقباط • ويعد أقدم كتاب مكتوب على ورق البردى أو القراطيس المصرية هو كتاب فى الحديث (١١) لأبى محمد عبد الله بن وهب الفهرى المولود عام ١٢٤ هـ أو ١٢٥ هـ ، وقد

---

(٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ١٨٠ •

الطومار والطامور مشتقة من اللفظة اليونانية Tomarian وهى بمعنى اللفافة وجمع الطومار طوامير • عبد العزيز الدالى : البرديات العربية ، ص ٣٠ •

(٩) كانت زخرفة الجلد واستخدامه وتغليف المخطوطات والكتب صناعة زاهرة فى العصر القبطى ، واستمرت كذلك فى عصر الولاة •

(١٠) كان من جملة أديرة درنكة دير بالقرب من مدينة أسيوط ، وكان يقع على طرف جبل يطلق عليه : أرافونه وأغرافونا ، ومعناه النساخ • المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٥٦٠ •

(١١) وهو من جمع عبد الله بن وهب بن مسلم القريشى ، وقد نشره وعلق عليـه David Wiell ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة عام ١٩٣٩ • عبد العزيز الدالى : البرديات العربية ، ص ٥٨ ـ ٥٩ •

عثر عليه بمدينة ادفو بالقرب من أسوان ، ولا ريب أنه كان من عمل النساخين المسلمين ، كتلك المصاحف الشريفة التى نسخت بالخط الكوفى على الرق فى القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة (١٢) ٠

ومن الطبيعى أن تكون المصاحف الشريفة ميدانا فسيحا لفن تجويد الخط ، وكان النساخ أو الخطاطون فى بداية عهدهم يكتبونها بضروب من الخط الكوفى الذى تطور على أيديهم ، وقد أمكن معرفة الأبجدية لخطوط المصاحف المخففة من أبجدية أحد المصاحف التى نسخت منذ وقت مبكر بخط أحمد بن الاسكافى الوراق ، مما يدل على تقدم حرفة الوراقة وأعمال النسخ والكتابة فى عصر الولاة ٠

وتعد أوراق البردى العربية التى جمعها وعلق عليها جروهمان والتى ترجع الى ذلك العصر ، من أهم الوثائق التى تكشف لنا عن شيوع استخدام الطوامير أو القراطيس ، كما أطلق عليها العرب ، واستغلالها فى تحرير العقود والمراسلات وغيرها من أعمال نسخ الكتب والمخطوطات العلمية والأدبية ، ولا غرو فقد انفردت مصر بصناعة هذا النوع من الورق ، فضلا عن شهرة المصريين فى صناعة الأقلام والمحابر وأدوات الكتابة الأخرى ٠

وكان الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون يفضلون القراطيس المصرية على غيرها من تلك المواد الأخرى ، ولا سيما ما كان يستخدمه العرب من اللخاف والعشب كأرضيات للكتابة عليها ، أو ما كان حتى المصريون يستعملونه مثل الألواح الحجرية وكسر الفخار وتلك الألواح الخشبية الموصولة قبل الاسلام ٠

ويبدو شغف أبى جعفر المنصور واهتمامه بأمر الحصول على القراطيس (١٣) هذه من مصر ، حيث كانت ترد الى أسواق بغداد ، فقد وقف الخليفة العباسي على كثرتها فى خزانته وهم ببيعها اذ أوعز لصاحب المصلى ببيع القراطيس المكدسة حتى لو بيع الطومار بدانق ، فى الوقت الذى كان يباع الطومار بدرهم الا أن المنصور عدل عن رأيه هذا وقال

---

(١٢) يضم معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة من المصاحف المخطوطة منها مصحف شريف مخطوط بالقلم الكوفى مكتوب على رق غزال على طريقة أبى الأسود الدؤلى (قاعة المعرض لوحة ٣) ٠

(١٣) وقد شمل كل من الجزء الأول والخامس والسادس أوراق البردى التى بلغت نحو مائتين واربع وخمسون بردية فى الجزءين الأخيرين منها ما يتعلق بحسابات الزراعة والصناع والتجار وعقود البيع وغيرها من شئون المجتمع ، وقد كان (H. Becker) أو من نشر نصوصا بردية عربية ، حيث قام فى عام ١٩٠٦ ، بنشر اثنين وعشرين ورقة بردى عربيسة مما عثر عليه فى كوم اشقاو ٠

عبد العزيز الدالى : البرديات العربية ، ص ٧٩ ٠

لصاحب المصلى : « فكرت فى كتبنا ، وأنهـــا قد جرت فى القراطيس ، وليس يؤمن حادث بمصر فتنقطع القراطيس بسبب فنحتاج الى أن نكتب فيما لم نعوده عمالنا فدع القراطيس استظهارا على حالها » •

والواقع أن الجهشيارى لم يوضح لنا أسباب خشية المنصور أو ماهية الظواهر الطبيعية التى قد تعوق وصــول القراطيس المصرية الى عاصــمة الخلافة العباسية ، أم أن أبا جعفر كان يتوقع نفوذ الأمويين وتطلعهم الى السيطرة على شمال افريقيا ، فتخرج ولاية مصر من قبضة الخلافة لتنضوى تحت راية بنى أمية فى الأندلس ؟

ومهما يكن من أمر ، فقد ظلت أسواق بغداد تستورد قراطيس مصر الى أن صارت تزاحمها كواغيد سمرقند فى هذه الأسواق •

كما ظل الصناع فى مراكز صناعة أوراق البردى أو الدروج كما أشار المقريزى من المصريين الأقباط حتى بداية القرن الثانى الهجرى بدليل تلك الصيغة التى نجدها على هذه الأوراق التى يرجع تاريخهـا الى ذلك الوقت ، حيث تمتع البردى المصرى بشهرة واسعة فى العالم الى نهاية القرن الثالث الهجرى وبداية القرن الرابع بعد الهجرة •

وتكشف لنا أوراق البردى التى أمكن العثور على بعضها فى الفيوم والقيس والأشمونين وفى كوم اشقاو بسوهاج ، عن رواج صناعة البردى وشيوع استخدامه فى شئون الزراعة والمعاملات مثل عقود العمل والايجار والزواج والبيوع ، فضلا عن أمور الدولة وما يخص الادارة المالية وجوازات السفر وغيرها • والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذى وصــل الينــا ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ فى بداية عهد الاخشيديين ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكواغيد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ ، يشهد بذلك الطراز المكتوب بتولية أبى موسى عيسى بن موسى النوشرى عاملا على مصر من قبل الخليفة المقتدر أى بعد زوال الدولة الطولونية وهو على ورق بردى أصفر يميل الى السواد وتاريخه يرجع الى سنة ٢٩٥ هـ ، ولدينا عقد بيع على ورق أبيض مؤرخ فى شهر المحرم سنة ٣٤١ هـ ، ولعله كشف بمدينة الفيـــوم •

وهكذا كانت أهمية القراطيس المصرية ، وعلى الرغم من أن الكاغد

أو الورق الأبيض أمكن تصنيعه فى بغداد فى عهد الخليفة هرون الرشيد(١٤)، فانه ظل الخلفاء يفضلونه فى أوائل العصر العباسى ، وقد ذكر اليعقوبى أن « الخليفة المعتصم أرسل الى واليه على مصر أن يحمل اليه من يعمل القراطيس وغيرهم من أهل الحرف والصناعات · ونحن لا نشك فى أن صناع القراطيس انما كان الهـــدف من طلبهم صناعة الكاغد أو الورق والمشاركة فى اقامة المصـــانع الخاصـــة بذلك فى مدينة سامرا العراقية الشهيرة » ·

ولا شك أن سيادة مصر البردية فى عالم الورق وصناعته ، وجدت لها منافسا خطيرا باستخدام الكاغد فى الأقاليم الشرقية للدولة الاسلامية منذ منتصف القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى ، الا أن مصانع الورق فى شمال الدلتا وفى الاسكندرية ظلت تنتج قراطيس البردى حتى سقوط الدولة الطولونية فى مصر وعودة البلاد الى حظيرة الدولة العباسية (١٥) ·

ويبدو أن قيام صناعة ورق الكتابة وما يسمى بالكاغد الذى نقلت طريقة صناعته من الصين الى البلاد الاسلامية ، انما جاءت مع الوقت الذى انتهت فيه صناعة الورق المصنوع من البردى وقيام دولة الاخشيديين(١٦)، وكما قيل فى ذلك الوقت من أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر · كما يعزى الى تدهور صـــناعة قراطيس البردى فى العهد الاخشيدى قلة العملات الأجنبية الواردة الى مصر بسبب قلة الصادرات المصرية من البردى·

وخلاصة القول أن مراكز صناعة البردى ظلت تنتج من القراطيس أو الطوامير طيلة ثلاثة قرون بعد الهجرة كما كان الصناع المصريون يعملون منها ما يبلغ طوله ثلاثين ذراعا وأكثر ·

(١٤) استولى المسلمون على مدينة سمرقند على يد قتيبة بن مسلم الباهلى فى سنة ٩٤هـ ، وقيل انه تم استغلال هؤلاء الأسرى من عمال الصين فى هذه المدينة فى تطوير صناعة الكاغد أو الورق والعمل على تنقيته من الشوائب ، بحيث أصبحت سمرقند بعد فترة قصيرة من أهم مراكز صناعة الكاغد · وقد انتقلت صناعته من سمرقند الى بغداد حينما أشـــار الوزير العباسى الفضل بن يحيى البرمكى على الرشيد بضرورة اقامة مصنع للورق ، وأمر أخاه جعفر بالعمل على احلال الورق المصنع داخل بغداد محل الورق فى دواوين الدولة ·

قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة ، ص ٤٠٨ ، آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ١٣٤ ــ ١٣٥ ·

(١٥) يقول كرابتشك : ان صناعة تجهيز ورق البردى بمصر قد أصـــبحت منتهية بالاجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى ·

(١٦) اذ نجد أن الورق المصرى المصنوع من نبات البردى ينتهى فى عام ٣٢٣هـ/٩٣٥م انتهاء تاما ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠هـ/٩١٢م وذلك وفقا لما تم العثور عليه وأمكن نشره من أوراق البردى · جروهمان : أوراق البردى ، جـ ١ ، ص ٥٥ ، ص ١٥٣ ·

ومن أسماء أصحاب القراطيس التي وصلت الينا على احدى شواهد القبور ، على بن جامع القراطيسي وكانت وفاته فى ربيع الأول سنة ٣٠٢ هـ . ويبدو أنه كان يزاول حرفته فى مدينة الفسطاط .

والواقع أن حرفة الوراقة والكتابة كانت مرتبطة أشد ما يكون بصناعة قراطيس البردى المصرية وغيرها من الأرضيات المستخدمة فى الكتابة منذ فجر الاسلام كالرق والجلود . ولا شك أن اتخاذ الدواوين ومحاولة تعريبها فى عهد عبد الملك بن مروان ، وتعدد كتاب الديوان ، وما أفرد له العلماء كما يذكر المقريزى فى كتابة الخراج والانشاء والرسائل وكتابة الجيوش من عدة مصنفات قد شجع على تقدم وازدهار صناعة الورق ونشاط الوراقين فى بغداد والفسطاط وغيرهما من الحواضر الاسلامية .

٢ ـ الوراقة فى عهد الطولونين والاخشيدين :

تشير المصادر الى انتشار محال الوراقة بمصر منذ القرن الثالث الهجرى ، ففى احدى أوراق البردى ورد خطاب يتضمن ارسال بعض العقاقير والكتب المنسوخة ، يقول المرسل فيه « وأحب منك أكرمك الله أن تتفضل وتوجه الى دفاتر ملاح أكون أقرأ فيها » . وفى بردية أخرى يرجع مكان اكتشافها الى مدينة الأشمونين من القرن الثالث الهجرى ، ومن أهم ما ذكر بها بيان بتلك المصروفات التى دفعت لكل من المكارى الذى قدم بالكتب والحارس الذى خرج بالكتب ، ومن المرجح أنها كانت مرسلة من الفسطاط الى الأشمونين والعامل عليها من قبل الوالى المصرى حينذاك .

ولا شك أن البهنسا التى تقع بالقرب من الأشمونين كان بها عدد من الوراقين وهواة اقتناء الكتب أو المخطوطات فى العصر الاسلامى ، ولا غرابة فى ذلك فقد كشف خطاب بردى طريف من عهد غير بعيد عن الحياة الممتعة التى كان يعيشها بعض أهالى المدينة من هواة الكتب والدفاتر منذ العصرين الرومانى والبيزنطى (١) . ومن المعروف فى العصر الاسلامى أن البهنسا ظلت تحافظ على شهرتها فى صناعة النسيج وغيرها من الحرف والصناعات حتى أن الصناع كانوا يكتبون على الستور والثياب المصنوعة من الصوف أو القطن أسماء مستعملى هذه الثياب . يقول المقريزى فى شأن ذلك : « فلابد أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوبا » على ذلك مضوا جيلا بعد جيل » .

(١) ورد فى ذلك الخطاب طلب نسخ وارسال الجزئين السادس والسابع من كتاب شخصيات فى الكوميديا ، ويشير المرسل للخطاب أنهما يوجدان لدى ديمتريوس بائع الكتب . بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

كانت الوراقة فى الفسطاط والاسكندرية وغيرهما من المدن المصرية تشمل صناعة الورق ونسخ المخطوطات وبيعها ، وصناعة أدوات الكتابة مثل الأقلام والمحابر وأنواع المداد أو الأحبـــار الى غـير ذلك • ويمدنا القلقشندى بمعلومات عن نوع الورق المصرى الجديد الذى صنعه الوراقون فى الفسطاط ، فهو من القطع المنصورى ، وكان أكبر قطعا وحجما من نوع الحموى والبغدادى ، ولكنه دونهما فى الرتبة • وكان فيه ما يصقل من كلا الوجهين ويسمى فى عرف الوراقين المصلوح وهو على درجتين من حيث القيمة فمنه الوسط ومنه غالى الثمن •

ويظهر أن صناع الورق فى أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجرى كانوا يستخدمون مادة الكتان المضروبة بالقطن كما كانوا يصنعونه من الخرق البالية (٢) ، ولا شك أنها كانت متوفرة جميعها فى نواحى عديدة من البلاد مثل منطقة الفيوم وشمال الدلتا ، ومن الجدير بالذكر أن الورق الذى أخـــذ الوراقون يصنعونه فى مصر فى عهـــد الطولونيين والاخشيديين لم يكن يباع بسعر واحد ، بل كانت أسعاره تختلف بحسب جودته ، فالورق الأبيض المصقول الذى يصنع فى الصيف أغلى ثمنا من الورق الأسمر الخشن الذى يصنع فى الشتاء ، ويرجع الفرق بينهما فى نوع المادة المستخدمة فى الصناعة فالنوع الجيد ما كان يتم صنعه من الكتان المضروب بالقطن ، أما الوسط فهو ما كان يصنع من الخرق البالية والمواد الأخرى (٣) •

ومن أنواع الكاغد أو الورق ما كان يتم تعتيقه بمعرفة الوراقين ، حيث يتخذ من الأوانى النحاسية المناسبة ما يوضع فيها الماء العذب الصافى ويطرح فيها النشا النقى الجيد ويتم غليانه حتى ينقص الماء ، ثم يضاف اليه يسير من مادة الزعفران بقدر ما يحتاج اليه من تلوين الورق ، ويصب فى أطباق واسعة ، ثم يغمس فيه الورق غمسا رفيقا ، ثم ينشر بعد ذلك لكى يجف حتى لا تلتزق أطراف الورق على بعضها ، وكلما جف يسيرا يقلب على الغاب لئلا يلتصق فيه ، وهكذا حتى يصير الورق فى أحسن حالاته لاستخدامه فى الكتابة •

---

(٢) تم العثور على مخطوط يرجع تاريخه الى سنة ١٠٠٩م محفوظ بمكتبة الاسكوريال وترجع أهميته الى أنه يثبت أن العرب كانوا هم اول من صنع الورق من القطن • لوبون : حضارة العرب ، ص ٥٠٩ ترجمة عادل زعيتر •

(٣) ذكر عبد اللطيف البغدادى أن الناس كانوا يبحثون بين المقابر عن الأكفان القديمة المنسوجة من القنب ويبيعونها الى مصانع الورق فى مصر • عبد اللطيف البغدادى فى مصر ، ص ٤٨ •

كما تفنن الصناع فى صناعة الليق المختلفة وهى تشبه المداد فى استخدامها ، فمنها ما أطلق عليه بالليقة الذهبية وغيرها (٤) ، وكذلك برع هؤلاء فى اتخاذ الشب الأبيض والكبريت الأصفر وغيرهما من المواد لمحو الكتابة على الورق ، فكانوا يسحقون هذه المواد ويضيفون عليها الخل الأحمر حيث تحك بها الدفاتر أو المخطوطات فانها تزول كتابتها .

أما أدوات الكتابة وصناعة الأقلام والمحابر ، وما كان الوراقون أو النساخون يستعملونها فى نسخ المخطوطات والكتب ، فتشير المصادر الى صناعة أنواع من أقلام البوص منذ فجر الاسلام ، بعد أن كان يتم عملها من نوع السمار ، حيث كان ينمو بكثرة فى جهـات متفرقة وخاصـة فى المستنقعات والبرك المالحة . وقد شاع عملها أيضا من الغاب والقصب .

وكان الغالب يقطع ويبرى أو يقلم ، ويذكر القلقشندى أن الوراقين كانوا يتخيرون من أنابيب القصب أقلها عقدا وأكثفها لحما وأصلبها قشرا وأعدلها استواء . وكان يصنع من الأقلام الجيدة خمسة أنواع منها قلم الطومار ، وقلم الراسى والنصف وقلم الثلث ، كما كان لكل خط نوع من الأقلام ينسخ به ، وقد أشارت المصادر الى الشروط الواجب توافرها فى عمل القلم الجيد ، وكلها أمور كان يجيد عملها النساخون أو العـاملون بحرفة الوراقة فى عهد الطولونيين والاخشيديين .

كمـا صنع الوراقون أنواعـا مختلفة من المداد المسـتخدم فى كتابة المخطوطات ، فكانت تتخذ من سخام النفط ، وقد أوضح ابن مقلة طريقة صنع أجود المداد أو الحبر وبيان النسب بين المواد المستعملة من الماء والملح والصمغ والنفط والعسل وغير ذلك . كما أشار صاحب عمدة الكتاب الى الطرق الصناعية التى كان على النساخين اتباعها فى عمل الأحبار بألوانها المختلفة ، حيث كان ما يعمل منها الحبر الأصفر والأحمر والذهبى وحبر السماق ومنها صناعة الأحبار الخاصة بنسخ المصاحف الشريفة . ولا ريب أن الخطاطين والنساخين قد أجادوا هذه الطرق العديدة لصناعة الأحبار ، وما يناسب منها للكتابة على الرق أو الورق كما تكشف لنا أوراق البردى عن شيوع استخدام الحبر الأسود فى كتابة الرسائل والايصالات والعقود وغيرها خلال القرن الثالث الهجرى .

---

(٤) وذكر من عمل الليق الذهبية أنه كان يؤخذ من الزاج الأصفر الجيد ومثل ربعه من النوشادر بحيث يدق الزاج جريشا مع النوشادر ويجعل فى احدى الزجاجات ثم يحكم اغلاقها وتوضع على تنور فاتر لطيف الحرارة مدة نهار كامل ثم يتم اخراج المادة الشخينة فيكتب بها على الثياب والرقوق بعد جفافها بما يشبه الذهب .

وقد ذكر القلقشندى أن هناك نوعا خاصة للرق هو الحبر الراسى فهو المناسب ولا دخان فيه ، واذا كتب به فى الكاغد نفذ منه مباشرة ، وكان يصنع من العفص الشامى المجروش بعد اضافة المقدار المناسب عليه من الماء ويجعل فى طنجير ويوضع على النار حتى ينضج .

وذكر أحمد بن يوسف الكاتب أنه كان يأتى اليه رجل يصنع من أنواع المداد أو الأحبار فى عهد خمارويه ،لم ير أنعم منه ولا أشد سوادا منه ، فسأله المعروف بابن الداية من أى شيء استخرجه فأخبره أنه من دهن بذر الفجل والكتان أمكن له صناعة هذا النوع الجيد من المداد .

وتدل مجموعة المحابر الفضية والأدوات الكتابية الأخرى المحفوظة بالمتاحف على تقدم صناعة تلك الأدوات وغيرها من المساحن لصناعة المداد بأنواعه المختلفة (٥) ، كما تكشف لنا عن استخدام ألواح من الخشب والعاج للكتابة عليها ، وشيوع استعمال الكتان الى جانب الحرير كأرضيات يكتب عليها منذ فجر الاسلام (٦) . وقد اشتهرت كل من بوصير وسمنود فى مصر بانتاجهما نوعا من الكتان كمادة يكتب عليها .

وقد انتشرت محال الوراقة فى عهد الطولونيين والاخشيديين خاصة بعد شيوع صناعة الورق وتقدمها باطراد منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، ولم تعد هناك معوقات فى سبيل رواج عمل الوراقين ، حيث كانت أسعار الطوامير وقراطيس البردى باهظة اذا قيست بسعر الورق .

ويمدنا ابن زولاق بصورة صادقة عن نشاط سوق الوراقين بمدينة الفسطاط فى ذلك العهد ، وما كان يدور فيها من المناظرات والمساجلات العلمية والأدبية فضلا عن مزاولة الوراقين لعملهم فى نسخ المخطوطات وبيع الورق والأقلام والأدوات الكتابية .

ولم تقتصر صناعة الورق وعمل النساخ والمجلدين على العاصمة الفسطاط ، بل انه يمكن القول بأن تنيس ودمياط والاسكندرية وغيرها من

---

(٥) يضم المتحف القبطى مجموعة من المحابر الفضية وعدة من أقلام الغاب ، كما يضم معرض دار الكتاب المصرية واحدا منها كان يستخدم فى القرن الرابع الهجرى - رقم السجل : ١٨٩٦٠ .

(٦) وتحتفظ دار الكتب أيضا بمجموعة من الفخار كانت تستخدم كمذكرات ، وقطعة من الخشب مكتوب عليها سورة « والنجم اذا هوى » وقطعة من الحجر الرخام مكتوب عليها ترجع الى عهد الوليد بن معاوية المتوفى ٢٠٥ هـ . ويحتفظ المتحف القبطى بقطع من العظم والخشب مكتوب عليها نصوص دينية واعداد حسابية وأيضا من قطع الفخار عليها نصوص عربية من الجهتين وبعض القطع الأخرى .

المدن والمراكز الصناعية كانت تضم أسواقا هامة لهؤلاء الوراقين ، فقد نقل ياقوت عن يوسف بن صبيح أحد كتاب ديوان الرسائل فى العصر العباسى، أنه رأى بمدينة تنيس خمسمائة صاحب محبرة يكتبـون الحـديث وأنه دعاهم سرا الى بعض جزائرها وعمل لهم طعاما يكفيهم فتسامع الناس فجاءه من هؤلاء النساخ ما لا يحصى كثرة ، مما يدل على ازدهار وازدحام المدينة بالنساخ والوراقين .

ويذكر ياقوت أن الوزير أبا الفضل بن جعفر كان فاضلا يحب العلم ونقـل عن بن الحبال المؤرخ المصرى أنه كان يصـنع للوزير ابن حنزابه الكاغد بسمرقند ويحمل اليه فى كل عام ، كما كان فى خزائنه عدة من الوراقين الذين يعملون فى نسخ الكتب وتجليدها (٧) ومما قيل أن أحد الوراقين حاول ترك خزائنه يوما ، لكنه تبين أن عليه دينا مقداره نحو مائة دينار ، فعاد الى الوراقة وصرف الأمر عن رفعه الى القضاء .

ومن هؤلاء الوراقين الذين ذاع صيتهم فى أيام الاخشيديين ، على ابن الحسين بن على العبسى المعروف بابن كوجك ، كان وراقا أديبا فاضلا ، والكاتب ابن حنزابه فى عهد الأخشيديين وأوائل حكم الفاطميين .

---

(٧) ذكر أبو المحاسن ان الوزير ابن الفرات كانت له خزانة كتب خاصة ضمت ألف جزء من كتب التفسير ، كما كانت لديه مائة كتاب فى التفسير وأخرى فى التاريخ وقد خلف ثمانية عشر صندوقا من الكتب اكثرها بخطه . النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٦٨ .

٣ ـ صناعة الكتابة فى مصر منذ فجر الاسلام حتى نهاية عصر الطولونيين والأخشيديين :

ظل الكتاب من الأقباط المصريين فى أعقاب الفتح العربى يعملون وفقا للأنظمة البيزنطية الادارية منها والمالية حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) وقد أشار ساويرس بن المقفع الى الكاتبين الأرثوذكسيين أثناسيوس واسحق فى عهد عبد الملك وواليه على مصر أخيه عبد العزيز ابن مروان ، حيث كان أحدهما مختصا بديوان مصر العليا ، والآخر بديوان أسفل الأرض أو شمال البلاد • كما ظل رؤساء المالية أو مندوبى ديوان الخراج والأموال من الأقباط •

وقد ارتبطت كتابة الدواوين فى صدر الاسلام بما كان يستعمله هؤلاء الكتاب من الدروج وأوراق البردى حتى زوال الدولة الأموية ، ولم تلبث الأمور أن بدأت صناعة الكواغيد فى سمرقند وبغداد ، فاتخذت الكواغيد وشاع استخدامها لدى كتاب الدواوين المختلفة • وكان لكل ولاية ديوان ببغداد يشرف على شئونها •

ويشير المقريزى الى تعدد الكتاب ، فاصبح منهم كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضى ، وكان أهم هؤلاء الكتاب فى الرتبة كاتب الرسائل • ويوصى الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان أخيه عبد العزيز والى مصر بأن يهتم بأمر كاتبه فهو يقول له : « تفقد كاتبك وحاجبك وجليسك ، فان الغائب عنك يخبره عنك كاتبك ، والمتوسم يعرف بحاجبك ، والداخل عليك يعرفك بجليسك » : وحينما تخلف عبد الله بن عبد الملك عمه عبد العزيز عام٨٦هـ على ولاية مصر ، صرف عبد الله اشتناس الكاتب القبطى عن الديوان ، وجعل عليه ابن يربوع الفزارى

من أهل حمص ، وذلك من أجل تعريب الديوان وما يتسع فيه من شئون الادارة والحكم •

والواقع أن مصر كانت دار امارة ليس لديوان الانشاء بها شأن يذكر ، وكان الولاة يتخذون كتاب رسائل لهم يعملون على تحرير الكتب وصياغتها، والقيام بأرسالها الى مقر الخلافة فى دمشق ثم بغداد بعد أن أصبحت عاصمة الخلافة العباسية •

ويظهر نشاط الكتاب لاسيما كتاب الخراج فى عهد الوليد ابن عبد الملك وواليه على مصر عبد الملك بن رفاعة ، ويذكر ابن عبد الحكم أنه حينما تولى امارة مصر عام ٩٦ هـ خرج الى سائر أنحاء البلاد ليحصى أهلها وبرفقته طائفة من الأعوان والكتاب ، فأقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، والكتاب فى جد وتشمير يكفونه ذلك ، ثلاثة أشهر بأسفل الأرض ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية • ولا شك أن قيام الكتاب بعمل ذلك الاحصاء لعدد السكان والقرى انما كان لتقدير الخراج والجزية والضرائب الأخرى التى فرضت على الحرفيين والصناع فى القرى المصرية •

وكما احتاج الوالى الى كتبة كثيرين ليستعين بهم فى تحرير رسائله الى مختلف الجهات فى مصر والى الخليفة نفسه ، مما يدل على أنه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان إنشاء ، الا أنه قليل الأهمية بالنسبة لديوان الخلافة أو ديوان الانشاء فى مصر فى بداية الدولة الطولونية •

وتبدو أهمية كتاب الخراج والشئون المالية فى عهد الخلافة العباسية ، وقد وردت كتابة بخط عكرمة أحد كتاب ديوان أسفل الأرض فى خلافة أبى جعفر المنصور وواليه على مصر حميد بن قحطبة سنة ١٤٣ هـ • كما يروى الجهشيارى أنه كان لعمر بن مهران عامل الرشيد على مصر جهبذ (٨) وهو أحد كتاب الخراج يقوم بوظيفة محاسب لدى العامل أو الوالى فى مصر آنذاك •

وكان على هؤلاء الكتاب أن يكونوا من الفصاحة والبلاغة وحسن الالفاظ ، ولهم ملكة يقتدرون بها على مدح المذموم وذم الممدوح على حد تعبير الكتاب أنفسهم كما كان من شروط الكاتب أن يكون عالما بصنوف الحياة وما تتطلبه من اجادة فن الحساب وعلوم الهندسة والرى ، ومعرفة

---

(٨) يرجع ظهور الجهبذ ككاتب خراج الى زمن الساسانيين ، وقد عرف عند المسلمين منذ أوائل حكم الأمويين فى عهد معاوية بن أبى سفيان •

عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ •

بالموازين وأنواع المكاييل . يقول ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ : « من لم يكن عالما فى وزن الموازين وذرع المثلث والمربع ومختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالى والنواعير على المياه وحال أدوات الصناع ، ودقائق الحساب ، كان ناقصا فى حال الكتابة » .

وهكذا كانت صناعة الكتابة تتطلب من الخبرات والمهارات والالمام بكافة شئون الحياة ، بقدر ما تتطلب من البلاغة وحسن البيان وجودة الخط وفن النقش على ألواح الرخام وغيرها ، كما تجلى ذلك فى الكتابات الأثرية . فقد وصلتنا من هذه الكتابات كتابة أثرية كانت على قنطرة الفسطاط يرجع تاريخها الى سنة ٦٩ هـ / أغسطس ٦٨٨ ، جاء فيها : « هذه القنطرة أمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير وقام ببنائها سعد أبو عثمان وكتب عبد الرحمن » .

وتكتشف لنا شواهد القبور التى يضمها المتحف الاسلامى عن تطور الخط العربى على الحجر فى عصر الولاة والعصور اللاحقة (٩) . كما تدلنا فى الوقت نفسه على أسماء هؤلاء الكتاب والخطاطين المشهورين ، فهناك كتابة أثرية تحمل اسم أحد كتاب الخراج ، اذ تم العثور على شاهد من الرخام مكتوب عليه « يعقوب سلمراك الكاتب » .

ومن شواهد القبور التى تدل على ظهور الكتابة البارزة ما جاء على لوح منها مؤرخ سنة ٢٠٣ هـ ، وكان على الصانع أن يحفر اللوح الحجرى كله ما عدا الكلمات المكتوبة فيتركها بارزة ، ومن أقدم تلك الكتابات الكوفية البارزة التى أجادها صناع الكتابة والحفر ، الكتابة التى تعلو جدران البئر الذى يتوسط مقياس النيل بالروضة ، الذى أمر بانشائه الخليفة العباسى المتوكل سنة ٢٤٥ هـ ، وقد نفذت هذه الكتابة بطريقة الحفر البارز فى الحجر ، وتحمل الكتابة بعض آيات من القرآن الكريم ، وتنتهى بنص تاريخى على جانب كبير من الأهمية .

ومن الشواهد الرخامية نعرف اسم أحد الكتاب الذى عاش فى عهد المتوكل العباسي بمصر هو مبارك المكى ، وجاء توقيعه على شاهد منها بتاريخ ذى الحجة سنة ٢٤٣ هـ ولا ريب أن الكتابات الأثرية وتلك النقوش والزخارف على جدران المساجد تدل على تقدم صناعة الكتابة ، حيث وردت صيغة كاتب أو مشتقاتها فى كثير من هذه الكتابات الأثرية المخطوطة بمتحف

(٩) كان يتحتم على صانع الكتابة التذكارية ان يكون ملما بصناعة الخط وصناعة الحفر فى المواد الصلبة فى وقت واحد ، وترجع بداية صناعة هذه الكتابات الأثرية فى وادى النيل الى أعقاب الفتح العربى مباشرة ، وخير شاهد على ذلك نقش أسوان المؤرخ ٣١هـ/٦٥٢م ؛ ابراهيم جمعة : دراسة فى تطور الكتابات الكوفية ، ص ١٣٠ .

الفن الاسلامي ، وربما كان الكاتب خبيرا بصناعة المادة التى كتب عليها النقش مثلا ، وربما كان هو الذى رسم حروف النقش فقط وقام غيره بحفرها .

ومن خير الشواهد على ما بلغه هؤلاء الصناع وأصحاب حرفة الكتابة فى عصر الولاة ما قام به هؤلاء من نقش وزخارف على جدران المساجد بالقرآن الكريم كاملا ، ومنها تلك الألواح الرخامية البيضاء التى استطاع الكتاب أن يكتبوا عليها القرآن الكريم بالخط الكوفى ، وبها زينت جدران جامع عمرو ابن العاص بالذهب واللازورد ، فيقرأ الانسان جميع القرآن منها وهو قاعد » . وهكذا لتكون المساجد مساجد ومصاحف فى وقت واحد ، ومن المرجح أن تكون هذه الألواح الرخامية قد تمت كتابتها ونقشها من جملة الزيادة وأعمال الإصلاح التى قام بعملها الوالى عبد الله بن طاهر من قبل الخليفة المأمون عام ٢١١ هـ .

وهكذا تنوعت أغراض الكتابة كما تعدد الكتاب فمنهم من كان يعمل كاتبا للرسائل وكانوا من المنزلة لدى الولاة والحكام المسلمين كما يسميهم الجهشيارى كانوا تراجم الملوك ، ومنهم من يعمل فى كتابة ديوان الخراج والمال ، ومنهم كذلك من كان يحرر عقود الناس ومستنداتهم وما يتصل بشئون المعاملات وغيرها (١٠) .

وكما حث الاسلام على الكتابة وأمر بها ، فان المصادر الأدبية تشير الى تفضيل العرب لهؤلاء الكتاب على غيرهم من أصحاب المهن وأرباب الصنائع (١١) ، فقد قيل أن الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك ، وذكر أيضا أن الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة مما شجع على رواج صناعة الكتابة والسعى اليها دون غيرها من الحرف والصناعات الأخرى فى عصور مصر الاسلامية .

وبدأت الكتابة مرحلة جديدة بمجيء أحمد بن طولون الى مصر سنة ٢٥٤ هـ ، فقد كان أول من أنشأ ديوان للرسائل أو المكاتبات على غرار ديوان الانشاء بعاصمة الخلافة العباسية ببغداد . كما كان من أهم مظاهر

---

(١٠) وقد ورد فى شأن المعاملات قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل . ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه » ، سورة البقرة : الآية ٢٨٢ .

(١١) ذكر الجاحظ أنه كان أبا بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما يكتبان للنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم صارا الى الخلافة بعد ذلك .

القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ، ص ١١ .

الإستقلال بمصر السيطرة على ديوان الخراج فأصبح خاضعا لابن طولون بعد أن استطاع أقصاء أحمد بن مدبر عن ولايته للخراج بمصر (١٢) ·

وكان من اهم الكتاب الذين أصبحوا يدينون لمؤسس الدولة الطولونية بالطاعة والولاء ابن عبد كان ، حيث كان أهل بغداد يحسدونه عليه « ويقولون بمصر كاتب محرر يقصدون ابن عبد كان ليس لامير المؤمنين بمدينة السلام مثله ·· » وكانت تصدر عنه جليل المكاتبات الى ديوان الخلافة وغيرها ، وقد اشتهر بالبلاغة وحسن الكتابة ·

ويشير البلوى الى تفضيل ابن طولون للكتاب المصريين على غيرهم من الكتاب ، فهو يذكر أنه حينما اتخذ جعفر بن عبد الغفار كاتبا له ولم يكن من الكفاية مثل ابن عبد كان ، بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء منصبه ، أشار ابن خاقان على الأمير أحمد بن طولون بصرفه عن الكتابة فقال له : « أنا أحتمله لأنه مصرى » ، فقال له ابن خاقان : أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى ، فقال لا والله ، ولكنه أصلح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه » ·

ومن كتاب خمارويه الذى خلف أبيه فى حكم البلاد عام ٢٧٠ هـ ، الكاتب اسحق بن نصر العبادى ، وقد بلغت صناعة الكتابة على يديه ومن سبقه أمثال ابن عبد كان درجة عالية تشهد بتطور الحياة الأدبية فى مصر فى عهدهم ·

وقد نهج محمد بن طغج الاخشيد حينما استقل بالحكم على منوال أحمد ابن طولون فى العناية بشئون الدواوين وبالكتاب العاملين بها ، وكان من أشهر هؤلاء ابراهيم النجيرمى ، وكان مجيدا لفن الكتابة ، وحفظ لنا ابن سعيد نسخة الكتاب الذى بعث به الاخشيد الى أرمانوس ملك الروم ردا على كتابه ، وكما يذكر ابن سعيد أن الأمير الاخشيد لم يختر من جماعة الكتاب الا النجيرمى لعلمه بوجوه الكتابة وذلك للرد على ما جاء فى كتاب حاكم بيزنطه فى ذلك الحين ·

وقد ازدهرت صناعة الكتابة فى عهد الاخشيديين حتى أن الكتاب أنفسهم وضعوا الكتب وصنفوا التآليف ، نذكر من هؤلاء أحمد بن محمد النحاس الكاتب ، فقد صنف كتابا بعنوان « أدب الكتاب وصناعة الكتابة »

---

(١٢) ذكر الكندى : انه لما ورد كتاب المعتمد الى أحمد بن طولون يستحثه فى حمل الأموال اليه كتب اليه قائلا : لست أطيق ذلك والخراج بيد غيرى ، فانفذ المعتمد نفيس الخادم الى أحمد بن طولون لتقليده الخراج بمصر وبولايته على الثغور الشامية · الولاة ، ص ٢١٧ ·

تحدث فيه عن فضيلة الكتابة ، وما يجب على الكتاب أن يتبعوه حتى يجودوا صنعتهم وكانت وفاته سنة ٣٣٧ هـ ٠

وكان يحتاج الكاتب فى صناعته الى أن يكون ماهرا فى أصل الترسل عارفا بوجوه المعانى ، لابد له أن يقف على وجوه كتب قد كتب فى أمثالها ، وقد أفاض فى وصف ذلك وأتى على نسخ كثيرة من السجلات الصادرة بولاية الثغور والبريد وغيرها الكاتب الشهير قدامة بن جعفر الذى تولى الكتابة لابن الفرات فى ديوان الزمام (١٣) ، وقيل أنه كتب لبنى بويه لمعز الدولة البويهى ٠ ومما لا شك فيه أن كتابه الخراج وصناعة الكتابة وما اشتمل عليه من فصول ، انما يدل على ما بلغته صناعة الكتابة من تقدم وازدهار ، وتلك الصفات التى كان على الكتاب الاحاطة بها (١٤) ٠

ومن الكتاب أيضا الذين ذكرهم ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق فى عهد الاخشيديين كان عبدالوهاب بن سعيد ، وكاتب الأخشيد ابن قرماقس، وعلى بن محمد بن كلا الذى أوفده محمد بن طغج الأخشيد الى محمد ابن رائق وكان بالرملة للموافقة على عقد الصلح بينهما ٠

كما نذكر من هؤلاء محمد بن عبد الرحمن الروذبارى الكاتب قيل ان الاخشيد قبض عليه وصادر أملاكه ، وكذلك عيسى بن بقطر بن شفا كاتب الخراج ، وكان أحد الكتاب الأقباط الذين تولوا ديوان الخراج فى عهد الاخشيديين ٠ ومن الكتاب نذكر على بن صالح الروذبارى ، وقد كتب المقريزى أنه كان كاتبا لكافور وأنه حسن له أن يوفر له من الأموال وذلك بخفض الرواتب ، وأن الله ابتلاه بمرض قضى عليه سنة ٣٤٧ هـ ، وأن هذه موعظة من الله لمن توسط للناس بالسوء ٠

ويبدو من الموازنة بين النصوص التاريخية المختلفة أن طائفة الكتاب فى عهد الاخشيديين كانت تنقسم قسمين ، الأول : الكتاب السياسيون ، وكان القوم يخلطون بينهم وبين الوزراء ، أما القسم الثانى فهم الذين كانوا يشتغلون بتحرير الرسائل ويؤلفون ديوان الانشاء ٠

---

(١٣) كانت وفاته سنة ٣٢٨هـ وقيل سنة ٣٣٧هـ أيام الخليفة المطيع العباسى ٠ ياقوت معجم الأدباء ، جـ ١٧ ، ص ١٢ ، الخراج وصناعة الكتابة ، ٥ ـ ٩ شرح وتعليق محمد حسين الزبيدى ٠

(١٤) ألف قدامة ووضع كتبا كثيرة كان فى أولها كتاب الخراج وصنعة الكتابة ٠ ابن النديم : الفهرست ، ص ١٨٨ ٠

٤ ـ ازدهار حرفة الوراقة وفن الكتابة في العصر الفاطمي

أخذت صناعة الورق تتقدم باطراد منذ أوائل القرن الرابع الهجرى، وكان لمجىء الفاطميين الى مصر وتاسيسهم للقاهرة وحكمهم للبلاد أثر كبير فى ازدهار هذه الصناعة وحرفة الوراقة ، فقد كان تشجيعهم للعلماء والأدباء كبيرا ، وحرصوا على جمع أكبر قدر من المخطوطات وتكوين المكتبات العامة والخاصة فى قصورهم ، حيث وجد الوراقون فرصتهم ، وقد أشار الكتاب الى اتساع نطاق صناعة الورق بمصر فى العصر الفاطمى فذكر أبو صالح أن بمصر صناعة الورق الأبيض • كما ذكر ابن سعيد الوراقات وقال ان الفسطاط اختصت بالمطابخ التى كان يصنع فيها الورق المنصورى •

ولا شك أن تقدم صناعة الورق وشيوع استخدامه كان له الأثر الملموس فى انتشار محال الوراقة فى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية كالاسكندرية وتنيس فى الوجه البحرى •

وقد حظى الوراقون باهتمام وتشجيع كثير من جانب الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ، الذين حرصوا على اقتناء المكتبات العظيمة فى قصورهم ، واخراج الكتب والمخطوطات فى أحسن صورة ، وانجازها فى أسرع وقت حيث كان بمقدار الناسخ القيام بنسخ مائة صفحة فى اليوم الواحد من أجل الحصول على أعلى المكافآت السخية •

وقد سار الخليفة العزيز على نهج أبيه المعز (١) فى حرصه على جمع

---

(١) كان الخليفة المعز يهوى الاطلاع يقضى معظم وقته بمكتبة قصره فى المنصورية وكان يقول : « والله ما تلذذت بشىء تلذذى بالعلم والحكمة • القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ، جـ ٢ ، ورقة ٥٩٩ مخطوط •

النسخ الموجودة من بعض الكتب والمراجع حتى تكون المكتبة بالقصر الفاطمي هي المكان الوحيد الذي يوجد به هذا الكتاب أو ذاك . ومما يدل على درجة اهتمام الخليفة العزيز بالله بهذه المكتبة ما يذكره المقريزي من أنه كان يشرف عليها بنفسه ويقوم بزيارتها فهو يقول : « فيجيىء راكبا ثم يترجل ويتخذ مجلسا له فوق دكة منصوبة ويمثل بين يديه أمين الخزانة ، ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين كما يعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص » . ونقل المقريزي عن ابن أبي طي المؤرخ الفاطمي وصفه لهذه المكتبة بأنها كانت من عجائب الدنيا وأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها ، فقد احتوت على أصناف من الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات والمخطوطات التي كان بعضها مزينا بالصور والرسومات الدقيقة . . . .

وكان من أشهر المكتبات الخاصة ما كانت ليعقوب بن كلس الوزير الفاطمي وقد عمل على تكوينها في قصره ، والتي سرعان ما أصبحت تنافس مكتبة القصر الفاطمي ، ولا غرو في ذلك اذ رتب لها الكتاب والأطبـــاء والعلماء ، وأفرد مكانا بها لعدة كتاب لنسخ المصاحف وكتب الفقه والأدب، كانوا اذا فرغوا من نسخها روجعت وضبطت وضمت الى مكتبته التي زخرت بأصناف الكتب . ذكر ابن خلكان أن الوزير ابن كلس كان يجري بأمر العزيز بالله في كل شهر على أهل العلم وهؤلاء الوراقين والمجلدين العاملين بهذه المكتبة نحو ألف دينار . كما ذكر المقريزي أنه كان يوجد في قصره خزانة للدفاتر . ومن طريف ما ذكره المقريزي أيضا أنه كان يستخدم الكواغد في الرسائل التي تحملها الحمـــائم الى القـــاهرة من بلاد الشـــام وغـــيرها .

وفي عهد الحاكم بأمر الله تم افتتاح دار الحكمة بعد أن تم اعدادها وتجهيزها في العاشر من جمادى الآخرى سنة ٣٩٥ هـ ، وقد اشتملت على مكتبة عامرة بها عدد كبير من النساخ والوراقين حيث كان يؤتى لهم بالكتب لينقلوا صورا منها تزود بها المكتبة ، وبما عسى الا يكون موجودا بها . وكان الغرض من انشاء دار الحكمة أو دار العلم كما أطلق عليها بث الدعوة الفاطمية بطريقة علمية منظمة ، تمتزج فيهـــا النظريات والآراء الفلسفية بالأصول والمذاهب الفقهية وتكون أبعد أثرا في غزو الأذهان من مجالس القصر التي عرفت في ذلك الوقت بمجالس الحكمة .

كانت حرفة الوراقة وصناعة الكتابة تتطلب كل منهما معرفة بفنون مختلفة من العلوم وسعة الاطلاع على النحو الذي كان عليه ابن النديم صاحب الفهرست ، كما كانت تتطلب جودة الخط والبراعة فيه وكذلك صناعة

الألوان الفضية والذهبية وأنواع المداد والأحبار المختلفة ، والطرق اللازمة لتثبيت الكتابات على أنواع الورق ، وكيفية ازالة الكتابة عن الورق أو محوها (٢) .

ومن المعروف أن الكتابة العربية سواء ما سطر فى المخطوطات منها أو تلك الكتابات الأثرية على ألواح الرخام وغيرها ، كانت من أعظم ما خلفه هؤلاء النساخ والخطاطون فى مصر وغيرها من الدول الاسلامية ، فقد كانت تلك السطور العربية دليلا على سيادة الاسلام والمسلمين ، ولأنها الخط الذى دون به القرآن الكريم ، وطالما تنافس الخطاطون فى تحسين حروفها الجميلة . وقد عمل الخطاطون في العصر الفاطمى على تحسين هذه المكتبات ونسخ الكتب فى أحسن صورة يرونها حتى أصبح الكتاب الجميل كنزا لا يقدر بثمن ، بل أصبح كما يقول كريستى تحفة فنية يتسابق الهواه الى حيازتها واقتنائها » .

والواقع أن ذلك لم يكن غريبا على المصريين ، فقد أجادوا فن النقش والكتابة والزخارف الخطية منذ أقدم العصور ، كما عبر عبد اللطيف البغدادى عن دهشته حينما شاهد هذه النقوش الأثرية أثناء زيارته لمصر فى أواخر القرن السادس الهجرى وبعد سقوط الدولة الفاطمية بزمن قليل (٣) .

وقد شجع الفاطميون على ازدهار الوراقة والكتابة فى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية منذ بداية عهدهم ، ومن الطريف أن نذكر ظهور اختراع القلم الأبنوسى أداة للكتابة فى عهد المعز لدين الله ، فقد ورد على لسان القاضى النعمان ابن حيون أحد قضاة المعز أن هذا الخليفة أول من فكر فى عمل القلم النباع ، وكان يرمز به الى علم الباطن ، فهو قلم يكتب به بلا استمداد من دواة ، ويكون مداده من داخله ، فاذا قلب فى اليد أو مال الى كل ناحية لا يبدو منه شىء من المداد . فكان الكاتب يجعله فى كمه أو حيث شاء دون أن يلطخ اليد أو الثياب ، ويقول المعز : « فيكون آلة

---

(٢) يشرح صاحب عمدة الكتاب طرق ازالة الكتابة حيث كان يعمد النساخ الى أخذ كمية من البورق (الاسفيداج) وكمية مثلها من صمغ عربى وما يعادلها أيضا من الكبريت ويدق الجميع ويسحق المخلوط جيدا يخفف فى الظل ، وعند الحاجة اليه يصب عليه قدرا من الماء ، ويؤخذ منه بطرف القلم ويكتب به على الحروف او تعلق الكتابة فانها تزول » .

مجهول المؤلف : ورقة ٣٦ ، مخطوط .

(٣) شاهد عبد اللطيف البغدادى على المسلات الفرعونية بعض الكتابات الأثرية وعلق على احدى تلك المسلات التى رآها بقوله : والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم » .

عبد اللطيف البغدادى فى مصر ، ص ٤١ .

عجيبة لم نعلم أنا سبقنا اليها دليلا على حكمة بالغة لمن تأملها وعرف وجه المعني منها » • وهكذا كان الابتكار لهذا النوع من الأقلام المنسوب الى الخليفة المعز دليلا على اهتمام الأئمة الفاطميين بأدوات الكتابة والتوصل الى صناعة أقلام الحبر من الأبنوس التى لم يسبقهم اليها أحد ، حيث كان ظهورها احدى حسنات الفاطميين •

كما تشير المصادر الى اهتمام الفاطميين بمثل هذه الأدوات الكتابية والي مكانة الدواة فى دولة الفاطميين ، وهى المكانة التى لم تعرفها الدواة فى أى زمان آخر قبلهم أو بعدهم ، فقد اعتبرت من شاراتهم الرسمية فهى احدى شارات الخليفة الفاطمي نفسه ، مثل تاجه الشريف الذى يضعه على رأسه وقضيب الملك الذى يكون بيـده ، فكانت دواة ثمينـة ، يقـول القلقشندي « وتعتبر أعجوبة من أعاجيب الزمن » وكان يتم صنعها من خالص الذهب كما كانت حليتها من المرجان وتلف عادة فى نسيج شفاف أبيض ، ولها أستاذ محنك يحملها فى موكب الخليفة لتعرض مع غيرها من شارات أمام الناس ، وقد ذكر المقريزى أن احدى النساء تدعى ست غزال كانت هذه صاحبة دواة الخليفة ، لا تعرف شيئا الا صناعة الدوى والليق ومسـح الأقلام والدواة ، وكان برسم خدمتهـــا الأسـتاذ مأمون الدولة الطويل (٤) •

وكانت الدواة فى الدولة الفاطمية ترمز الى كبار موظفيها ، ولاسيما الذين يشتغلون بصناعة القلم أو الكتابة ، حيث كان لكل منهم دواة ذات قيمة خاصة تلازمه فى عمله الرسمى أو حتى فى تنقلاته مثل الوزير الذى كانت دواته محلاة بالذهب أيضا ولها صاحب يرسم حملها فى مجالسه ومواكبه الرسمية ، أما دواة قاضى القضاة وهو على رأس الجهاز القضائى ، فكانت محلاة بالفضة ولها موظف خاص بها ، يضعها على الكرسى أو القمطر فى مجلس الحكم •

وهكذا كان اهتمام الفاطميين وتشجيعهم من أهم الأسباب التى دعت حيث صناعة الورق ونسخ الكتب وصناعة الأقلام وأنواع المداد والمحابر وغيرها من أعمال الوراقين •

---

(٤) وكان لهذه السيدة مسجد إشتهر باسمها قامت ببنائه فى القرافة الكبرى عام ٥٣٦هـ ، الخطط ، جـ ٣ ، ص ٤٦٠ •

(٥) يمكن مقارنة سوق الفسطاط العظيمة وانتشار محال الوراقة بها بما كان عليـه الوراقين فى مدينة بغداد ، فقد ذكر اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٤هـ إنه كان فى عصره أكثر من مائة وراق فى بغداد •

وكان لهؤلاء الوراقين أماكنهم في الأسواق أسوة بغيرهم من أصحاب الحرف والتجار كما كانت مجالسهم ملتقى الطبقات المثقفة في ذلك العصر ومن هؤلاء الذين أجادوا حرفة الوراقة علي بن محمد المصري ، ذكر أبو المحاسن أن الوزير ابن الفرات المتوفى سنة ٣٨٤ هـ كانت لديه خزانة كتب خاصة ، ضمت ألف جزء من كتاب التفسير بخط علي بن محمد المصري وحده •

واشتهر بحرفة الوراقة في عهد العزيز بالله الفاطمي علي بن نصر ابن سليمان الزنبقي ، وكان يتقن الخط والضبط ومقامه بمدينة الفسطاط ، ذكر ياقوت أنه رأى له كتبا أدبية وغيرها بخط يده ، وكان بمجرد نسخ الكتاب وخروجه من يد مؤلفه يتهافت الوراقون على نسخه وسرعان ما يتنقل من مكان إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر آخر ، ويتداول في الأيدي ويجلد ويوضع في القماطر (٦) •

ويذكر السبكي أن حرفة الوراقة ونسخ كتب العلم هي من أجود الصنائع ، وعلى الوراق أو الناسخ أن يرفق بطالب العلم ، وعليه أن يفضل من يشتري منه الورق لنسخ الكتب العلمية دون غيره ، مما يدل على أن أصحاب هذه الحرفة لم يكونوا مجرد تجار ينشدون من ورائها الربح فحسب ، وانما كانوا يرغبون من وراء امتهانهم لحرفتهم مساعدة طلاب العلم والأدب بقدر ما تكفل لهم من أسباب المعيشة الكريمة •

ويذكر من هؤلاء الوراقين الأدباء علي بن الحسين بن علي العباس المعروف بابن كوجك ، وأخيه أبي القاسم الحسن بن الحسين العبسي ، وكان صاحب شهرة في الخط المعروف والمرغوب فيه ما يشبه خط ابن جرير الطبري ، وقد غلبت عليه حرفة الوراقة مثل أخيه وقرض الشعر •

وفي عهد العزيز بالله وابنه الحاكم بأمر الله كان الشاعر ابن أبي الجوع من الوراقين المشهورين بالفسطاط ، ذكر ابن خلكان أنه كان مشهورا بالنسخ الجيد ينسخ كل خمسين ورقة بدينار ، وخطه موجود بأيدي الناس مرغوب فيه • كما اشتهر بحرفة الوراقة وبخطه الجيد في ذلك الوقت أيضا محمد بن علي بن محمد أبو سهل ، قام بنسخ العديد من كتب اللغة والنحو وغيرها • وكان على هؤلاء الوراقين ألا ينسخوا شيئا من الكتب المضلة مثل أهل البدع والأهواء ، ولا يكتبون الكتب التي لا ينتفع بها أو ينفع الله بها •

---

(٦) القمطر وجمعها قماطر هي ما يصان فيها الكتب : المصباح المنير ؛ محمد كرد علي : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ١٩٥ •

ومن الذين اشتهروا بتجليد الكتب بعد نسخها اسماعيل المجلد ، فقد ذكر المسبحى فى ترجمته أنه كان مشهورا بحرفة النسخ والتجليد ، وكانت وفاته فى عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله .

ومن هؤلاء الوراقين المشهورين فى العصر الفـاطمى على بن خلف الوراق ، فقد ذكر ابن القفطى أنه عهد اليه بمهمة تطوير مكتبة القصر فى عهد المستنصر ، وتجديد ما أتلف من كتبها واعادة تجليدها وعمل فهرست لها .

ومما شجع على ازدهار حرفة الوراقة أيضا العمل على تخصيص مكتبة فى كل جامع كبير كجامع عمرو والجامع الأزهر وجامع الحاكم وغيرها من الجوامع ، فهى تحتاج الى المزيد من الكتب التى كان النساخ يعملون على نسخها . كما كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على هذه الجوامع . وكان أبو الحسين بن على بن بقاء المصرى من هؤلاء العلماء الوراقين ، ذكر ابن العماد أنه كان من علماء الحديث فى عهد المستنصر ، لكن شهرته جاءت بسبب كثرة اشتغاله بأعمال النسخ للكتب فى داره ، وكانت وفاته سنة ٤٥٠ هـ .

ومن هؤلاء المحدثين والمؤرخين فى عهد الخليفة المستنصر من اشتغل بنسخ الكتب والمجلدات والاتجار فيها ، مثل أبى اسحق الحبال ، يذكر ابن العماد أنه حدث بعد منعه من القاء دروسه فى الجامع ، أن ازداد نشاطه فى مجال الوراقة وصار طلاب العلم يلتمسون الكتب بخط يده الى حين وفاته عام ٤٨٣ هـ .

والواقع أن حرفة نسخ الكتب وبيعها لم تقتصر على الوراقين فى أسواق الفسطاط فى ذلك الوقت ، فقد ذكر ابن أبى أصيبعة وغيره أن الحسن بن الهيثم كان يشتغل بحرفة النسخ بجوار الجامع الأزهر ، وذلك بعد أن خرج من عزلته بعد وفاة الحاكم بأمر الله عام ٤١١ هـ ، فكان ينسخ فى كل سنة ثلاثة كتب فى علوم الأوائل من الفلك والرياضيات ، وكان اذا شرع فى نسخها جاءه من يعطيه فيهـا مائة وخمسين دينارا يجعلها مؤونته طوال العام . وتشير المصادر الى أنه كان صاحب خط جيد فى غاية الصحة مرغوب فيه ، وقد عاش فى عاصمة الفاطميين الى حين وفاته فى عهد الخليفة المستنصر وذلك فيما بعد سنة ٤٣٠ هـ .

ويمكن القول بأن حـرفة الوراقة لم تكن قاصرة على الفسطاط أو القاهرة بل كانت منتشرة ورائجة فى المدن المصرية الأخرى كالاسـكندرية وتنيس ودميـاط وغيرها فى العصر الفاطمى ، فمن هؤلاء الوراقين الذين

اشتغلوا بنسـخ الكتب والعمـل على تجليدها وبيعها بعد ذلك فى ثغر الاسكندرية أبو الرضا يزيد بن محمد بن عبد الحميد الطرابلسى المجلد ، وأبو محمد محمد بن عبد الوهاب بن اسماعيل الوراق ·

وكذلك اشتهر أبو الحسن على بن محمد بن على بن الحسين بن يحيى الجيزى الكتبى ، وكان من أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب ·

ومن الجدير بالذكر أنه لم يقتصر عمل الوراقين على نسخ الكتب وبيعها ، بل كانوا يصنعون من أدوات الكتابة كالمحابر والأقلام ، فقد كانوا يصنعون الدوى المختلفة من المعادن كالنحاس والحديد تارة ، ومن الزجاج تارة أخرى ، كذلك كان يتم صنعها من الأبنوس المحلى بالذهب (٧) ، وكانت مجالس الكتابة وحوانيت الوراقين تزخر بأنواع الدوى حتى أنه كان يعرف عدد الطلاب بإحصاء محابرهم التى يضعونها أمامهم التى كانت أهم عتاد الطالب · كما ذكر ياقوت أن أحد الكتاب أحصى نحو خمسمائة محبرة بأيدى الكتاب وعلماء الحديث بمدينة تنيس وحدها ·

وقد بلغ من شأن النساخ وشيوع ذكرهم أن المؤرخين وأصحاب التراجم كانوا محل اهتمامهم ، يذكر المقريزى أنه فى سنة ٥٠٦ هـ فى عهد الخليفة الآمر ووزيره الأفضل ، وصل يانيس الناسخ من الشام ، فاستخدم فى خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنانير فى الشهر وثلاث رزم كسوة له فى السنة ، وذلك بالاضافة الى الهبات والرسوم التى كانت تخلع عليه من الوزير الفاطمى ·

وتبدو قيمة الكتب وفضل اقتنائها فى ذلك الوقت ، من قول أحد القواد حين يصف الكتاب قائلا : « ولا أعلم جارا أبر ولا خليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفاية ولا أقل حسنا ولا أكثر أعجوبة وتصرفا من الكتاب » · وقد أشار المقريزى الى سوق الكتبيين التى كانت موجودة فى الفسطاط آنذاك (٨) ، ولا شك أنها كانت تضم الكثير من دكاكين الوراقين ، كما كانت ملتقى العلماء والأدباء يترددون عليها لشراء الكتب وما يلزم من الورق وأدوات الكتابة الأخرى فضلا عن تبادلهم للآراء العلمية ونحو ذلك ·

---

(٧) ذكر المقريزى أنه وجدت بخزائن الكتب بالقصر الفاطمى صناديق مملوءة أقلاما مبرية من براية ابن مقله وابن البواب ، وكان ابن البواب من النساخين المتفوقين فى كتابة الخط الكوفى ، وقد تفوق على ابن مقلة الذى نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين · ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦٢٧ ·

(٨) كانت تقع هذه السوق تجاه الجانب الشرقى من جامع عمرو بن العاص فى أول زقاق القناديل · الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧٣ ·

ويصف ابن الحاج حركة الصناع بمحال الوراقة وهم يصنعون الورق ، ويحذر طلاب العلم وغيرهم ممن يرغبون في شراء ما يلزمهم من الورق الا في الأوقات المناسبة لذلك فهو يقول : « وليحذر عند شراء الورق من الوراقة أن يكون في وقت يعلم أنه يكشف فيه على عورات من يعمل فيها من الصناع ، اذ أن أكثرهم يجعلون في أوساطهم خرقة تصف العورة لصغرها وانحصارها على العورة وابتلالها بالماء والفخذ عن آخره مكشوف فان دخل والحالة هذه فهي معصية » ، وكما يحذر ابن الحاج الوراقين من قيامهم بغش الورق وخلطه بالنوع الخفيف منه الذى لا يصلح للنسخ لأن ذلك تدليس على المشترى حيث لا يتحمل الورق الخفيف الكشط لازالة الكتابة لخفته ٠

ويظهر أن محال الوراقة لم تعد تكفي حاجة القوم في العصر الفاطمي من الورق ، خاصة الورق الأبيض منه فكانوا يجلبونه من طرابلس بالشام وكان مثل الورق السمرقندى وأفضل منه ، ومن المعروف أن طرابلس وغيرها من بلاد الشام كانت تابعة للخلافة الفاطمية ٠

ولا شك أن محال الوراقة كان الصناع بها يقومون بتجليد الكتب فيها ، وقد تعلم هؤلاء الصناع هذه الصناعة من الأقباط المصريين منذ فجر الاسلام ، ونقلوا أساليبها الى سائر أنحاء العالم الاسلامي ٠ ومن الجدير بالذكر أن أقدم جلود الكتب المعروفة في العصور الاسلامية قد تم صنعها في مصر ويمكن تأريخها فيما بين القرنين الثامن والحادى عشر للميلاد ٠

وكانت عملية التجليد تشمل الجلد والبطانة والحرير ، فكان يختار الجلد الصافي الحسن اللون الجيد الدباغة ، وكما يستخدم الورق في عمل البطانة ولصق الجلد عليه ، وكان المجلد يستخدم في ذلك آلات منها الابر والسيف والبياكير لمساعدته على التجليد (٩) ، وقد اعتبر عمل المجلد متمما معمل الناسخ والرسام وغيرهما ، اذ كان يتوقف عليه حفظ أوراق الكتاب ، والعناية بمظهره الخارجي معا بحيث يتناسب ذلك وقيمة الكتاب وما يحتويه من فصول العلم ٠

ويصف أصحاب الصنعة ما يجب أن يكون عليه المجلد من سرعة الفهم واجادة النظر والتأني وملاحة الاستعمال ، كما يصفون هؤلاء المذهبين الذين كانوا يعملون على تذهيب المخطوطات ، وكانت تلك المعرفة تلي مهنة الخطاط في الأهمية ، فالمذهب هو الذى يقوم بزخرفة الصحيفة ، وكانوا يبذلون عنايتهم الفائقة في فاتحة الكتاب في المصاحف الشريفة بحيث

---

(٩) البياكير نوع من الآلات التى كان يستخدمها المجلد في عمل الدوائر المفرغة التى تقع في وسط الكتاب - زكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٠٧ ٠

تختفي نصوصها ومفرداتها في هالة من الذهب واللون . وكانت بعض المخطوطات تزين بالصور والرسوم الدقيقة . وقد اهتم المذهب في محال الوراقة بتلك الجلود الجميلة التي كانوا يجلدون بها المخطوطات فجاءت جميلة النقوش بديعة الصناعة ، وكان المجلدون في اليمن يلزقون الدروج ويبطنون الدفاتر بالنشا ونحو ذلك (١٠) .

وتشير المصادر الى ما أخرج في سنوات الشدة العظمى وما نهبه الجنود الأتراك من خزائن الكتب بالقصر ، وما حفلت به من الكتب الجميلة المعدومة المثل في سائر الأمصار ، وقد أخذ العبيد جلود هذه الكتب الجميلة وعملوا منها أمدسة يلبسونها في أرجلهم ، وكان المجلدون والمذهبون قد بذلوا فيها من العناية الفائقة والجهد الشيء الكثير .

ومهما يكن من شيء فقد استمر صناع التجليد والمذهبين في العناية بصنعتهم حتى أواخر العصر الفاطمي ، وقد نسج الصناع في عهد المماليك على منوالهم ، كما أخذ الغربيون عنهم في العصور الوسطى كثيرا من أساليبهم .

وقد ظلت حرفة الوراقة رائجة حتى سقوط الدولة الفاطمية ، يذكر المقريزي أن القاضي الفاضل كان يعتني بالكتب ويقتني من كل فن منها ، ويبذل الجهد في الحصول عليها ، وكان له عدة نساخ لا يفترون ومجلدون لا يتوقفون عن نشاطهم في التجليد ، قيل ان خزانة كتبه بلغ عددها مائة وأربعة وعشرون ألف كتاب . وذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان من جملة النساخ بخزانة كتبه جمال الدين المعروف بابن الحماله حيث كان خطه منسوبا جيدا .

وهكذا كان تشجيع الفاطميين وكبار دولتهم من القضاة والكتاب والأعيان واهتمامهم بشأن الحصول على الكتب واقتنائها من أهم أسباب رواج حرفة الوراقة وازدهار سوق الكتبيين بالفسطاط وغيرها ، ذكر ابن خلكان أن ابن صورة سمسار الكتب كان يجلس في دهليز داره ، ويجتمع لديه في يومي الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب ، ولا يزالون مجتمعين عنده الى انقضاء وقت السوق (١١) .

كما كان تقدم فن التجليد الذي أبدى فيه الصناع مهارة كبيرة وروحا فنية عالية في ذلك العصر ، اذ به كانت تصان المصاحف وكتب الأحاديث والعلوم الشرعية .

---

(١٠) ذكر المقدسي أن أهل اليمن في ذلك العصر كان يعجبهم التجليد الحسن ويبذلون فيه الأجرة الوافرة : أحسن التقاسيم ، ص ١٠٠ .

(١١) هو أبو الفتح ناصر بن أبي الحسن علي بن خلف الأنصاري المعروف بابن صورة ...

٥ ـ الكُتّاب فى العصر الفاطمى

وتنوعت أغراض الكتابة وأخذت فى النمو والازدهار بمجىء الفاطميين الى مصر وحكمهم للديار المصرية (١) ، حيث أخذ نفوذ ديوان الانشاء يزداد على التدريج ، وارتفع شأن الكتاب وصاروا يعدون من أعيان الدولة وكبرائها ٠

وكان اهتمام الفاطميين وعنايتهم منذ بداية حكمهم بكتاب ديوان الانشاء من هؤلاء الحاصلين على قدر كبير من العلوم والمعارف ، حيث كان يتم اختيارهم من بين أفاضل العلماء ونابغيهم ٠ ولا شك أن تلك الصفات التى كان ينبغى على كاتب هذا الديوان أن يتحلى بها ، قد دفعت الكثير من رجال العلم والأدب الى الاقبال على صنعة الكتابة والعمل على اجادتها ، لاسيما وأن منصب الكتابة هذا كان يؤهل صاحبه للوصول الى الوزارة أو الوساطة وغيرها من المناصب الكبرى فى الدولة الفاطمية ٠

وكان يلقب صاحب الديوان أو رئيس ديوان الانشاء بكاتب الدست الشريف وبكاتب السر ، وقد ذكر القلقشندى أن الفاطميين لما ولوا الديار المصرية بذلوا عنايتهم الفائقة لديوان الانشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره وذاع صيته فى الآفاق ، كما أوضح القلقشندى كذلك أهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها رئيس الديوان ، ومن أهمها أنه يجب عليه أن يكون عالما بالعربية وتصريف اللغة فانه أحوج الناس الى هذه العلوم ٠ وكان

---

(١) جاء الفاطميون الى مصر وهم عرب لهم الذوق العربى والثقافة العربية ، وكان الخلفاء من الأدباء والشعراء أيضا ، فقد ذكر ابن خلكان أن الخليفة المعز كان أديبا شاعرا دقيق الحس رقيق الشعور ، فلا غرو أن بلغت أساليب الكتابة على أيديهم ما بلغه النثر والشعر من تقدم وازدهار فى عصرهم ٠ وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ١٠٣ ٠

ديوان الانشاء أهم دواوين الادارة فى عهد الفاطميين ، وقد أطلق عليه ديوان الرسائل ، حيث كان من اختصاص الكتاب العمل على اخراج تلك الرسائل والسجلات من هذا الديوان على شكل رسائل أدبية لخدمة الاعلام الفاطمى والدعاية لمذهبهم الدينى • وقد عبر آدم متز عن تلك الرسائل التى كانت تخرج من ديوان الانشاء فقال : « كانت رسائلهم هى أدق آية من ازدهار الفن الاسلامى » •

وقد حفلت مصر بطائفة من الكتاب فى دواوين الدولة المختلفة ، وكان من جملتها ديوان الجيش وديوان الرواتب والاقطاع وديوان التحقيق ، وديوان المجلس وديوان خزائن الكسوة وديوان الأحباس ومنها أيضا ديوان الصعيد ، وديوان أسفل الأرض ، وديوان الثغور والعمائر ، وديوان الخراج ، وديوان الجوالى والمواريث الحشرية ، هكذا تعددت الدواوين التى زخرت بالعديد من هؤلاء الكتاب العاملين بها •

وقد حرص الفاطميون على أن يكونوا من ذوى الخبرة والمعرفة فى أعمالهم ، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية • ويذكر المقريزى أن يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله نصب فى داره الدواوين ، فجعل ديوانا للعزيزية فيه عدة كتاب ، وديوانا للجيش فيه عدة كتاب وديوانا للأموال فيه عدة كتاب وجهابذة ، وديوانا للخراج وديوانا للسجلات والانشاء وديوانا للمستغلات ، وأقام على هذه الدواوين زمانا • كما جعل فى داره خزانة للكسوة وخزائن للمال ، وخزائن للدفاتر ، وخزانة للأشربة ، وعمل على كل خزانة ناظرا ، ولا شك أن هذه الدواوين كانت تتطلب من أنواع الكتاب وممن يكونوا على علم ودراية بكافة ما يحتاج اليه فن الكتابة •

وقد أمدنا ابن مماتى ببيان مستفيض عن أنواع الكتاب الذين كانوا يعملون فى ديوان الخراج وغيره من الدواوين الفاطمية (٢) ، وذكر من هؤلاء الكتاب المستوفى (٣) والمعين (٤) ، والعامل والجهبذ (٥) والحايز

---

(٢) ابن مماتى كان جده من كبار الكتاب لدى أمير الجيوش بدر الجمالى فى أواخر عهد الخليفة المستنصر •

(٣) يطالب المستخدمين بما يجب عليهم رفعه من الحسابات فى أوقاتها وينبه متولى ديوان الخراج الى ما يجب استخراجه من المال فى حينه ويقيم الجرايد ويقابل بكل ما يرد عليه من حساب ويستوفيه قوانين الدواوين ، ص ٣٠ •

(٤) المعين : هو الكاتب المساعد للمستوفى فى الأعمال المذكورة ، ويوقع بشهادته على الجريدة • نفس المصدر •

(٥) الجهبذ هو المختص لقبض المال واعطاء الايصالات الدالة على ذلك •

والماسح ، والشاهد والنايب والخازن والحاشر ، وكان يخرج كتاب الخراج من الأقباط المصريين وكانت لهم معرفة بعلم الخراج ، فيحررون مساحة ما شمله ري الفيضان من الأراضي ، مما لعله بار أو شرق ، ويكتبون بذلك المكلفات الواضحة بالمساحات والقطائع على جميع الأصناف المزروعة ، ثم يقومون باحضار سجلاتهم الى الدواوين بالقصر الفاطمي ، وهكذا لم تكن أعمال الكتاب هي رسم الحروف أو زخرفة في الرسائل والمكاتبات بقدر الحاجة الى علمهم وخبرتهم بصنوف الحساب والهندسة وأعمال المساحات وغيرها من الشئون المدنية والادارية التي أشرنا اليها من قبل .

ولا شك أن كتاب ديوان الانشاء كانوا من أهم طوائف الكتاب في العصر الفاطمي ، وتشير المصادر الى أنه لم يكن هناك ثمة اختلاف في الوظيفة بين الوزير والكاتب وصاحب الوساطة (٦) . وكان صاحب الانشاء يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا ، وكان يتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت امرته ثلاثين دينارا . ويلي صاحب الانشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذي كان يوقع على المظالم ويجالس الخليفة في خلوته ، وصاحب التوقيع بالقلم الجليل لبسط ما أشار اليه صاحب القلم الدقيق .

ومن أهم هؤلاء الكتاب الذين تولوا رئاسة ديوان الانشاء وغيره من الدواوين الفاطمية ، وبلغوا المنزلة السامية لدى الخلفاء حتى أن المؤرخين عملوا على الاشارة بأسمائهم ، نذكر منهم يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن حيث كتب لهما بذلك سجلا في عهد المعز لدين الله وقرىء على منبر جامع أحمد بن طولون . كما كتب يعقوب بن كلس للعزيز بالله الفاطمي ثم أبو عبد الله الموصلي من بعده ، وكذلك أبو منصور بن سورين فقد كتب للخليفة العزيز ومن بعده لابنه الخليفة الحاكم بأمر الله ، يذكر ابن سعيد أنه وجد له خطا مكتوبا في بعض الكتب كما كان شاعرا أديبا .

(٦) يشير القلقشندي الى هؤلاء الوزراء من أرباب الأقلام ويقول : « اعلم أن أكثر وزرائهم في ابتداء دولتهم (يعني الفاطميين) الى أثناء خلافة المستنصر كانوا من أرباب الأقلام تارة (وزارة تامة) وتارة وساطة وهي رتبة دون الوزارة » وكما يصف كاتب الدست الشريف وهو صاحب ديوان الانشاء ومنزلته لدى الخليفة الفاطمي قائلا : « ويستشيره الخليفة في أكثر أموره ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه ، وربما بات عنده الليالي ، ولا سبيل الى أن يدخل الى ديوانه ولا يجتمع بكتابه أحد الا خواص الخليفة وله صاحب من الأمراء الشيوخ وله مرتبة عظيمة للجلوس عليها بالمخاد والمسند ، ودواته من أخص الدوى وأحسنها » .

صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٨٩ ، ص ٤٩٠ ،

Lane-poole : A History of Egypt, p. 155.

وفى عهد الحاكم بأمر الله كان أبو الطاهر محمد البهركى النحوى ممن تولوا ديوان الانشاء ، وكان يبلغ الحاكم بما يشكو الناس منه بشأن ظهور أهل الذمة من النصارى وغلبتهم أو سيطرتهم على شئون الحكم ، وكان أبو المنصور بن حورس النصرانى يكتب للخليفة الحاكم من قبله . وتذكر المصادر من أهل الذمة هؤلاء كذلك ابن أبى الدم اليهودى أحد كتاب الانشاء ، وحبيش النصرانى الكاتب ، فقد ذكر المسبحى أنه حينما أمر الحاكم بلبس العيار والزنار لأهل الذمة ، وكانت حاله قد حسنت وصار لديه من المال الكثير من جراء وظيفته ، فانه فضل اعتزال الوظيفة والسكنى على ساحل الفسطاط .

ومن كتاب الحاكم بأمر الله نذكر أيضا على بن ظفر الأزدى ، والكاتب أبا القاسم على بن أحمد الجرجرائى ، الذى أمر بقطع يده بسبب أنه كان يكتب عند أخته الشريفة ست الملك ، فانتقل من خدمتها الى خدمة أحد القواد خوفا على نفسه من خدمتها فقبضت عليه ودست له عند الحاكم ، وقد أنشد ابن ظفر الأزدى الكاتب حين أمر الحاكم بقطع يديه بسبب ذلك شعرا .

ويمدنا ابن سعيد وغيره من الكتاب والمؤرخين بطائفة أخرى من هؤلاء الكتاب الذين تفوقوا فى الكتابة ونظم الشعر أيضا ، كان منهم أحمد ابن الحسن الكاتب وقد مدح المؤرخ الشهير الفاطمى المسبحى فى قصيدة له . وكذلك كان حسن بن عيسى من جملة الكتاب الذين خدموا فى عهد الخليفة الحاكم .

وكتب للحاكم بعده القاضى أبو الطاهر الهولى ، ثم كتب لابنه الخليفة الظاهر . ومن أشهر الكتاب كان ولى الدين بن خيران تولى ديوان الانشاء الخليفة المستنصر ، وقد ذكر ياقوت أن ابن خيران تولى هذا الديوان بعد أبيه فى عهد الظاهر لاعزاز دين الله ، وكان أبوه فاضلا بليغا أعظم قدرا من ابنه وأكثر علما ، بلغ رزقه فى العام نحو ثلاثة آلاف دينار .

ثم تولى الكتابة بعد ابن خيران أبو الفرج الذهلى سنة ٤٣٦ هـ ، كما تذكر المصادر من هؤلاء أبا سعيد العيدى وكان من علماء اللغة والنحو فى عصره .

ومن هؤلاء الذين ذاع صيتهم فى الكتابة والعربية معا ، أبو الحسن طاهر بن بابشاذ ، وقد عهد اليه المستنصر بتصحيح الرسائل الصادرة من ديوان الانشاء ، فكان لا يخرج كتابا أو رسالة من هذا الديوان الا وتعرض

عليه فيراجعها ويصـــوب ما قد يكون قد وقع فيها من الأخطاء اللغوية أو النحوية .

كانت صناعة الكتابة فى العصر الفاطمى من الصنائع التى أقبل عليها الناس ، فقد قيل فى ذلك العصر لو أن فى الصناعات صناعة مربوبه لكانت الكتابة ربا لكل صناعة « كما قيـــل أيضا ان الكتابة قطب الأدب وملك الحكوة وبالكتاب قامت السياسة والرياسة » . وقد اهتم الفقهاء والمؤرخون وغيرهم بهـــذه الصـــناعة وما يجب على كاتب ديوان الرســائل مراعاته فيما يكتب يقول أحد الفقهاء فى ذلك : « وعليهم بالرفق بالرعية فيما يكتبون والتخفيف من التشديدات التى يؤمرون بكتابتها ولا يسوغ الأمر بها ، فان كان لا يقدر على التخفيف فلا أقل من ألا يزيد الطين بلة ويشدد » .

ومما نقله المقريزى عن ابن خيران الكاتب فى توقيعــه عن الخليفة المستنصر وأثر عنه ، كتابته بخط يمينه : « الفقر مر المذاق والحاجة تذل الأعناق وحراسة النعم بادرار الأرزاق فليجروا على رسومهم فى الاطلاق ، فما عندكم ينفد وما عند الله باق » . وهكذا كانت بلاغة الكتاب ومراعاتهم لمقتضى الأحوال .

والواقع أن المصادر التاريخية لم تحفل بذكر أسماء الكتاب الذين كانوا أشبه بالكتاب العموميين وغيرهم من الخطاطين المشهورين وأصحاب النقوش والكتابات الأثرية البديعـــة ، وذلك كما زخرت بأسماء أصحاب صنعة الكتابة فى الدواوين الحكومية ، ممن بلغوا المكانة المرموقة فى عصر الفاطميين .

وليس هنـــاك شـــك فى أن الخطاطين كان لهم دور هام فى تقـــدم صناعة الكتابة وازدهارها فى ذلك العصر ، يشهد بذلك ما رآه ناصر خسرو من الكتابات الذهبية الجميلة على حائط الكعبة ، ومنها باســـم الخليفة العزيز بالله ، كما يدل على ذلك ما شاهده من الألواح الأخرى المصنوعة من الفضة ، وعلى كل لوح من هذه الألواح الأربعة كتابة جميلة تحمل اســـم السلطان (أى الخليفة) الذى أرسله من سلاطين مصر ، وكان كل من الخلفاء الفاطميين يرسل لوحا فى عهده ، وكلها تبرهن على ما بلغه الخطاطون المصريون من المهارة الفائقة وما قاموا به من اعداد مثل هذه اللوحات بأنواع الخطوط الذهبية والفضية بكامل زخرفتها .

ولم تقتصر حرفة الكتابة على كتاب ديوان الانشاء أو غيرهم من كتاب الدواوين وموظفى الادارة الفاطمية ، بل كانت هناك جماعات من الكتاب يجلسون فى المساجد ، ويأتيهم من الأميين من يريد كتابة عقد أو خطاب

ونحو ذلك ، وقد ذكر ناصر خسرو أن جامع عمرو بن العاص كان لا يكاد يرسم أو يجدد وحتى يستهلك لكثرة تردد الناس فيه حتى قيل ان عدد الموجودين فيه فى أى ساعة من ساعات النهار لم يكن يقل عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها • وليس هناك شك فى أن الجوامع الشهيرة فى الاسكندرية وتنيس ودمياط وغيرها فى شمال البلاد ، كما كانت الجوامع ومساجد الصعيد فى أسوان وادفو وقفط واسنا وقوص وقنا وغيرها من المدن بأنحاء الصعيد الأوسط على هذا النحو ، فهى فضلا عن تأدية الشعائر الدينية وعقد الحلقات العلمية بها (٧) ، كانت حافلة بهؤلاء الكتاب الذين احترفوا مهنة الكتابة وصاروا يتكسبون منها رزقهم •

ولا شك أن وقوع الأزمة وانتشار الأوبئة والمجاعات ، مما عرف فى التاريخ بسنوات الشدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر (٨) ، كان له أثره فى نشاط حركة الكتاب وصناعتهم ، فقد أقفرت الدواوين ، وأصبح الخليفة لا يجد من حوله من الكتاب أو غيرهم من الخدم ورجال حاشيته ، وتوقفت أعمال الكتابة ومحال الوراقة بالفسطاط وغيرها ، وبات الناس لا يجدون ما يأكلونه حتى قيل ان الناس أكل بعضهم بعضا فضلا عن القطط والكلاب وما أشبه ذلك •

على أية حال لم يمض وقت طويل حتى عاد الاستقرار والرخاء بفضل أمير الجيوش بدر الجمالى الذى عاد الى مصر من بلاد الشام ، وخلص البلاد من دعاة الفتنة وأعمل القتل فى قادتهم ، ونجح فى القضاء على الجند الأتراك الثائرين من العرب ومن العبيد السودان فى جنوب الصعيد •

---

(٧) اشتهرت من الأسرات التى انفردت باشتغالها بالعلوم والآداب فى صعيد مصر أسرة بنى السديد حيث كانت لهم شهرة واسعة ، كما كان بنو النضر من أجل العلماء الذين ذاع صيتهم فى العصر الفاطمى فقاموا ببناء جامع الخطبة بمدينة اسنا فى عهد الخليفة الظاهر ، وكان من أشهر علمائهم على بن النضر فقد نبغ فى علوم كثيرة ، فلا غرو اذا انتشرت الكتابة وكثر عدد الكتاب فى هذه المدن أو تلك الجهات • الادفوى : الطالع السعيد : ص ٣٧ – ٣٨ •

(٨) تمتعت البلاد بفترة من الرخاء والاستقرار بعد مجيىء الفاطميين الى مصر عام ٣٥٨هـ ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد حلت المصائب وعم الوباء والقحط فى سنة ٤٤٦هـ حيث انقطع ماء النيل وأهملت الزراعة وعم الوباء وامتد ذلك ثمانى سنوات (٤٤٦ – ٤٥٤هـ) ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت فى سنة ٤٥٩هـ وظل الحال كذلك الى سنة ٤٦٤هـ ، واقترن ذلك بقيام الفتن والحروب الأهلية بين الجند الأتراك الثائرين بقيادة ناصر الدولة ابن حمدان وبين الجند والسودان التى كانت تشد من أزرهم أم الخليفة المستنصر •

ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٢٠ ، المقريزى : اغاثة الأمة ، ص ٢٤ •

وهكذا انتظمت الحياة العامة ، وبدأت الحياة الثقافية ومجال الوراقة وغيرها تستعيد نشاطها من جديد في أواخر القرن الخامس الهجرى .

ومن الذين اتصلوا بخدمة أمير الجيوش بدل الجمالى وكتب فى ديوان مصر شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى المليح (٩) ، وقد ولى استيفاء الديوان ، ولما توفى ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا ديوان الجيش بمصر فى أواخر أيام الدولة الفاطمية .

وتولى ديوان الانشـاء فى عهد الخليفة الآمر ومن بعده من الخلفاء الفاطميين الكاتب الشهير أبو القاسم على بن منجب الصيرفى ، مؤلف كتاب قانون الرسائل . وقد عنى فيه بكل ما يتصل بصناعة الكتابة ، وما ينبغى على الكتاب مراعاته وتلك الصفات الواجب التحلى بها أثناء تأدية مهمتهم بديوان الرسائل . وقد ذكر ابن ميسر أنه أخذ صناعة الترسل والكتابة من ثقة الملك أبى العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ، ثم انتقل الى ديوان الانشاء ، وبه الشريف سناء الملك أبو محمد الحسينى ، ثم تفرد بالديوان بعد ذلك فصار فيه بمفرده . وكانت وفاته فى شهر صفر سنة ٥٤٢ هـ فى عهد الخليفة الحافظ .

ومن هؤلاء الكتاب الذين حظـوا بالمكانة السـامية لدى الخلفـاء عبد العزيز بن الحسين بن الحباب السعدى التميمى ، وكان يدعى بالجليس المكين لجلوسه الى الخليفة الفائز (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ) وقد ذكر أنه تولى ديوان الانشاء للفائز مع الكاتب الشهير القاضى الموفق بن الخلال . وكان ابن الخلال من الذين تولوا ديوان الانشاء بقية أيام الخليفة الحافظ الى آخـر أيام الخليفة العاضد آخـر الخلفاء الفاطميين . ويقول السيوطى : « ثم أشرك العاضد مع ابن الخلال فى ديوان الانشاء القاضى جلال الدين محمود الأنصارى » .

وفى وزارة صـلاح الدين الأيوبى فى أواخر أيام الفاطميين ، كتب القاضى الفاضل عبـد الرحيم البيسانى بين يدى ابن الخـلال فى ديوان الانشاء (١٠) . فلما ملك صلاح الدين البلاد كتب له القاضى الفاضل ،

---

(٩) وهو جد أسعد بن مهذب بن زكريا بن قدامة الشهير بابن مماتى مؤلف كتاب قوانين الدواوين المتوفى سنة ٦٠٦هـ . مقدمة كتاب القوانين ، ص ٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٧٧ .

(١٠) هو عبد الرحيم بن على بن الحسن بن أحمد بن الفرج ، كان أبوه يتقلد قضاء مدينة بيسان فلهذا نسبوا اليها وكانت ولادته بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩هـ وخدم الموفق يوسف بن محمد الخلال صاحب ديوان الانشاء فى أيام الحافظ لدين الله ، وعنه أخذ صناعة الانشاء .

المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٣٢٠ .

ثم أضيفت اليه الوزارة ، ويذكر الادفوى أن أول من كتب الانشاء للملك الناصر صلاح الدين كان ابراهيم بن محمد الأسوانى الملقب بفخر الدولة ، وكان ابن أخت الرشيد والمهذب بن الزبير الأديب الكاتب • ويقول الادفوى أن القاضل عبد الرحيم البيسانى بعد أن تولى الوزارة كان اذا بلغه أن ولد فخر الدولة ببابه وأحمد بن عرام واستأذنا عليه يقول (١١) : « يدخل رضى الدولة لأجل أبيه يعنى فخر الدولة هذا وابن عرام لأدبه » • مما يدل على منزلة الكتاب لدى الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ومن حكم البلاد من بعدهم من الأيوبيين •

وهكذا لعب الكتاب فى مصر أيام الفاطميين دورا هاما ، واليهم يعزى فضل ازدهار فن الكتابة فى ديوان الانشاء أو الرسائل وفى غيره من الدواوين ، كما أصبحت الكتابة قطب الأدب وربا لكل صناعة فى العصور الاسلامية المختلفة •

---

(١١) الطالع السعيد ، ص ٦٤ •

الفصل الثالث

صناعة الأوانى والأدوات الخزفية والزجاجية منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمى

١ ـ صناعة الفخار والخزف منذ فجر الاسلام .

٢ ـ صناعة الزجاج فى عصر الولاة والولاة المستقلين .

٣ ـ ازدهار صناعة الزجاج والبلور الصخرى فى العصر الفاطمى .

١ ـ صناعة الفخار والخزف منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمى

كانت صناعة الفخار من الصناعات المصرية القديمة (١) ، وفى العصر البيزنطى استخدم الصلصال فى صناعة الأوعية الفخارية وغيرها على نطاق واسع ، وتخصصت بعض المدن المصرية فى انتاج أنواع معينة كالجرار الفخارية التى اشتهرت بها مدينة قنا ، وجرار النبيذ التى كانت تصنع منها كميات هائلة ، تستخدم فى الأغراض الدينية وغيرها ٠

كما انتشرت مصانع الفخار فى كل من البهنسا والشيخ عبادة والفيوم وطيبة وغيرها من المدن المصرية (٢) ، فكانوا يصنعون الأزيار والقلل وأوعية الخل والعسل والنبيذ والسمن وغير ذلك من الأدوات التى كانت ذات أهمية فى حياة الشعب (٣) ، وقد ترك العرب عجلة الصناعة تدور كما كانت فى العصر القبطى ، وظلت البلاد تصنع أدوات وأوانى الفخار مثل المسارج Lamps ، والأوانى الصغيرة ذات الرسوم الدينية التى أجادها الصانع المصرى اجادة تامة ، حيث زينت المسارج بنقوش دينية وخاصة تلك التى

---

(١) عثر بترى على عشرات من الجرار المصنوعة من الفخار عليها كتابات بالمداد ، وهذه الجرار ترجع صناعتها وما الى منتصف عهد الأسرة السابقة للملك مينا ٠ لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٥٨٦ ٠

(٢) ذكر Johnson انواعا عديدة من الفخار والخزف التى عثر عليها فى كل من البهنسا وطيبة وباخوم وهيرومونتس وأرسينوى والأشمونين والفيوم وغيرها من المدن المصرية والتى ترجع صناعتها الى ما بين القرن الخامس والسابع الميلاديين ٠

(٣) تشير المصادر الى أنه تم تأجير عدد ٢٤٠٠ جرة من الجرار الفخارية لمدة عام فى الروديتو (كوم اشقاو) وذلك فى سنة ٥٦٥م ٠

كانت تصنع بجوار أديرة وكنائس القديس ميناس ، وكانت تعرف بقوارير مينا (٤) •

وكانت صناعة الفخار منتشرة فى الوجه القبلى ، وخاصة فى الصعيد الأعلى ، ويحدثنا أبو صالح الأرمنى عن طين أسوان فينعته بطين الصناعة ، حيث صنعوا منه الأوانى ، وهو نوع من النبيذ يتخذ من الشعير - كما أشرنا من قبل (٥) • وكان بالقرب من مدينة أسوان جبل هناك يعرف بجبل الطفل يعمل منه الفخار • وكان المصريون يصنعون من مادة الطفل الأزيار والقلل المستخدمة فى حفظ الماء ، كما كان الفخار المصنوع بالأقصر لا نظير له فى ديار مصر ، وقد استخرج من المعدن أو الطين بالقرب من قنا وقوص وأطلق عليه معدن البرام ، صنع منه المصريون بعض الأوانى المنزلية المستخدمة فى طهو الطعام •

ولا شك أن المادة التى كانت تصنع منها بقية الأوانى ومعظم الأوعية لحفظ الخل والعسل والنبيذ كانت هى الطمى المتوفرة فى كل مكان بسائر أنحاء البلاد • وقد بلغ من انتشار صناعة الفخار من الطمى أنهم كانوا يصنعون من تلك الأوانى والأوعية بمختلف الأشكال والأحجام ، ومجموعات من لعب الأطفال بأشكال العرائس والفرسان والحيوانات كالحصان والجمل وغيرها (٦) •

كما انتشرت فى عصر الولاة صناعة الأنابيب الفخارية لاستخدامها فى توصيل وتوزيع المياه داخل الدور والمنازل فى المدن المصرية •

أما صناعة الفخار المدهون أو الخزف Pottery فقد عرفت لدى المصريين القدماء ، لكنها كما يبدو لم تكن واسعة الانتشار فى العصر

---

(٤) ظل الأقباط فى العصر البيزنطى وبعد دخول العرب مصر يحرصون على اقتناء قوارير مينا كى يملئونها بالماء تبركا بالقديس مارى مينا فى مريوط ، وكان ضابطا بالجيش الرومانى واعتنق المسيحية وقد استشهد بسبب ذلك سنة ٢٩٦ م ومما يذكر أنه شاعت بين الناس بعد دفنه فى مكان بالصحراء غرب الاسكندرية أن من يشرب من عين الماء القريبة من قبره كان يشفى من مرضه ، حتى أنهم أقاموا مصنعا لعمل الأوانى الفخارية الصغيرة خصيصا لذلك ، وقد زينت هذه الأوانى بصورة القديس ، وتم اكتشاف العديد من تلك الأوانى فى أكسرنخوس (البهنسا) وأنطوبيوبوليس ، الشيخ عبادة يرجع معظمها للقرن السادس الميلادى •

(٥) كما عثر فى منطقة تل البندارية فى الوجه البحرى على مجموعة من المبانى المبنية من الطوب اللبن وأسقفها مغطاة بالفخار ومجموعة من مصانع الفخار ترجع الى العصر القبطى والاسلامى • جريدة الأهرام : العدد : ٣٦٠٥٨ - ١٣ ذى الحجة سنة ١٤٠٥هـ •

(٦) يضم المتحف القبطى مجموعة من لعب أطفال مصنوعة من الفخار ، كما يضم وعاء مصنوع من الفخار عليه كتابة تتضمن دعاء لثلاثة من الرهبان ، وترجع صناعتها الى القرن السابع وحتى القرن العاشر الميلادى •

البيزنطي ، وتشير المصادر الى أن منطقة مصر الوسطى والفيوم كانت احدى مراكز صناعة الخزف (٧) ، فقد اشتهرت كل من البهنسا والشيخ عبادة بهذه الصناعة حيث وجد عدد من مصانع الخزف بها (٨) . وليس هناك ما يشير الى توقف تلك المصانع فى فجر الاسلام .

كما تشير الحفائر التى أجريت فى منطقة الفيوم أن حركة صناعة الفخار والخزف لم تتوقف فى صدر الاسلام ، فقد عثر على أوان فخارية وخزفية ، مما يدل على استمرار المصانع فى انتاجها . وقد استطاع صناع الخزف ، كما يذكر كريستى Christie فى مصر بعد الفتح العربى أن يجربوا طرقا فنية وموضوعات زخرفية جديدة ، وكان مما أنتجه المصرى آنذاك لوحات القاشانى التى كانت تكسى بها الجدران ، تلك اللوحات أو البلاطات المصنوعة من الخزف بالألوان والأشكال المختلفة .

وفى عصر الولاة أستمر انتاج أنواع من الأختام التى كانت تصنع فى مصر البيزنطية ، كما استمر انتاج نوع من الخزف ذى المهاد الأحمر وعليه زخارف نباتية ، وقد كان هذا النوع معروفا فى مصر فى نهاية العصر الرومانى وظل مستعملا فى فجر الاسلام (٩) .

وقد استطاع الصناع فى مراكز صناعة الخزف فى مصر أن يبتكروا أنواعا جديدة من الخزف كالأطباق والصحون العميقة والمسطحة التى كانت تستخدم فى الطعام (١٠) ولا ريب أن المسلمين قد شجعوا هؤلاء الصناع حيث زاد الاقبال والطلب على الأوانى الخزفية الذين وجدوا فيها عوضا عن الأوانى الذهبية والفضية والتى كره الاسلام استعمالها (١١) .

---

(٧) الفرق بين الفخار والخزف ، فالاول ما صنع من الطين أو الطمى فقط دون تزجيج أما الخزف فهو المصنوع من الطين وقد غطى بطبقة من الزجاج بعد دهانه بماء الزجاج الذائب ، فالتزجيج glazing أن يدهن الاناء المصنوع من الطين المحروق بعد دهانه بماء الزجاج الذائب ، عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ص ٥٢ .

(٨) عثر على بقايا عدد من مصانع الخزف ، وتشير أوراق البردى اليونانية الى أنه تم ايجار أحدها مقابل ألفين وأربعمائة دراخمة .
The Oxyhnchus papyri, No, 1655.

(٩) يحتفظ المتحف البريطانى من هذا النوع بصحن مربع عليه كتابة نصها « عمل أبو نصر البصرى بمصر » . زكى محمد حسن : أطلس الفنون ، ص ٤٠٣ .

(١٠) ومن المرجح أن هذه الأنواع من الأطباق الخزفية وغيرها كانت تصنع فى مدينة الفسطاط فى عصر الولاة
Johnson : Economic Studies, p. 114.

(١١) وردت أحاديث نبوية شريفة منها قول النبى صلى الله عليه وسلم : (لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها فانها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة » ويقول أيضا صلى الله عليه وسلم : « الذى يشرب فى اناء الفضة انما يجرجر فى بطنه من نار جهنم » صحيح البخارى : كتاب الأطعمة ، كتاب الأشربة .

كما حاول الصناع تقليد الخزف الصيني في مصر ، خاصة في العصر العباسي نتيجة العلاقات التجارية بين مصر والصين ، حيث وجدت الأواني الخزفية الصينية سوقا رائجة لها في البلاد ، وكانت تلك الأواني من الغضائر والطرف البديعة ، مما كان لها في نفوس المسلمين مكانة سامية ·

ويشير بتلر الى أن صناعة الخزف الاسلامي في مصر في عصر الولاة لم تكن أقل من مثيلتها في منطقة العراق ، وأن الخزف المصري المحلي والمتطور عن العصور السابقة ، قد استمر انتاجه بنفس الطرق والمهارات السابقة التقليدية والموروثة عن تلك العصور (١٢) · والواقع أنه ليس هناك ما يحول دون قيام المصريين بصناعة مثل هذه الغضائر الصينية ، أو ما تم صنعه على يد الفخاريين في مدينة سامرا نفسها بالعراق ، وأن يحذو المصريون حذوهم في هذا التقليد في العصر العباسي أو في أواخر عصر الولاة وفي بداية عهد الطولونيين ·

ولا غرابة في ذلك فقد مهر المصريون في صناعة أنواع الخزف بأساليب متعددة وعرفوا الوقت المناسب لعمل أواني الخزف من السنة ، وكما يذكر المقريزي فانه اختص شهر أمشير من الشهور القبطية بصناعة أواني الماء ، فان ما عمل فيه من هذه الأواني الخزفية يبرد الماء في الصيف أكثر من تبريد ما يعمل في غيره من الشهور · هذا ولم تقتصر مراكز صناعة الخزف على الفسطاط ، بل كانت أسوان واسنا واخميم وأسيوط والأشمونين والفيوم وغيرها من المدن المصرية · وقد صنع الخزافون في هذه المراكز الصناعية من الأنواع المختلفة لتلبية احتياجات الناس مثل الفناجين والأقداح والكئوس والصحون والسلاطين والأكواب والقوارير والأباريق والأزيار والمسارج ·

كما سادت صناعة الفخار في ذلك العصر (١٣) ، وقد وردت لفظة الجرار وهو صانع الجرار أو القدور من الخزف وذلك في عقد بيع من ادفو على أوراق البردي مؤرخ بآخر صفر سنة ٢٣٣ هـ ، واسم البائع أو الزوج فيه « يزيد بن قاسم الجرار » كما ورد في عقد آخر يرجع تاريخه الى شهر ذي القعدة سنة ٢٣٩ هـ واسم البائع فيه يزيد الجرار من جهة

---

(١٢) يرى بتلر أن صناعة الخزف في مصر ترجع الى العصور القديمة ، وأن الصناعة التي ظهرت في المغرب والأندلس في العصر الاسلامي ترجع في أصلها الى الصناعة المصرية · فتح العرب لمصر ، ص ٩٦ ·

(١٣) وفي خطاب بشحن سفينة من جهة ادفو بالصعيد الأعلى تضمن طلب ارسال عدد ١١٧ جرة من الجرار الفخارية ، وكانت الجرة تسع ما بين ١٣٦ الى ١٤٠ رطلا من العسل · جروهمان : أوراق البردي العربية ، جـ ٥ ، ص ١٣٥ ـ ١٣٧ ·

ادفو بالقرب من أسوان ومما يدل على أن منطقة الصعيد الأعلى كانت احدى المراكز الهامة لصناعة الجرار الفخارية والقدور الخزفية ٠

وفي عهد الطولونيين تطورت صناعة الخزف في مصر ، وأنتج الصناع نوعا جديدا من الخزف عرف بالخزف ذى البريق المعدنى Lustre-painted pottery ومن المرجع أن المصريين فى مصر قد اكتسبوا فن صناعة هذا النوع الجديد من هؤلاء الصناع الذين قدموا فى صحبة ابن طولون الى مصر (١٤) ، ومن المعروف أن مؤسس الدولة الطولونية كان متأثرا الى حد بعيد بما كانت تجرى صناعته فى سامرا بالعراق ، والتى عاش فيها شطرا كبيرا من حياته ، وكانت سامرا احدى المراكز الهامة لترويج وصناعة المنتجات والغضائر الصينية ٠

ويختلف الخزف ذو البريق المعدنى عن الخزف العادى الذى كان منتشرا فى عصر الولاة فى طريقة صناعته ، حيث كان يبدأ الخزاف بتشكيل الاناء من الطين العادى ، ثم يغطى هذا الطين بطبقة رقيقة من البطانة Slip ، ثم يسوى الاناء فى الفرن ، ويخرج بعد تسويته لكى يتم دهانه بالزجاج الأبيض المعتم ، ثم يدخل الفرن مرة ثانية لكى يثبت هذا الدهان الزجاجى ثم يخرجه الصانع لكى يزخرفه بأن يرسم عليه مزيج مكون من مواد مختلفة قوامها الكبريت وأكسيد الفضة أو أكسيد النحاس الأحمر وبرادة الحديد ، وتذاب هذه المواد فى الخل ٠ وكان الخزافون يستخدمون هذه المواد فى رسم عناصره الزخرفية المختلفة ، ثم يدخل الخزاف الاناء بعد تجميده للمرة الثالثة لكى يثبت الزخارف عليها ، وينبغى أن يراعى أن يكون الفرن ذا نار هادئة (١٥) ، بحيث تكسبه النار فى النهاية بريقا معدنيا يختلف لونه بين الأحمر النحاسى ، والأصفر الضارب للخضرة ، وكانت تنبعث من هذا البريق أحيانا ألوان قوس قزح الشهيرة ٠

وتشير المصادر الى الخزف ذى البريق المعدنى الذى صنع بهذه الطريقة فى العصر الطولونى فى مراكز صناعة الخزف المصرية ، من أنها لم تكن تختلف كثيرا عن الخزف ذى البريق المعدنى الذى عثر عليه فى سامرا

---

(١٤) ليس هناك اتفاق بين مؤرخى الحضارة فى تعيين الاقليم الذى نشأت فيه صناعة الخزف ذى البريق المعدنى ، ففريق يرى أنه نشأ فى مصر ، وفريق آخر يحبذ فكرة نشأته فى بلاد المشرق أو فى بلاد فارس على الوجه الخصوص ٠

كريستى : تراث الاسلام ، جـ ٢ ، ص ٤٥ ٠

(١٥) يشير اخوان الصفا الى استخدام النار والافران ، حيث كان الجرارون والقدوريون والغضارون ، ومن يطبخ الآجر يستخدمونها فى صناعة الفخار والخزف والغضار المذهب كما أطلق عليه العرب ٠

رسائل اخوان الصفا ، جـ ١ ، ص ٢١٦ ٠

وفى الرى ومدينة الزهراء • يؤيد ذلك ما عثر عليه من آلاف القطع الصغيرة والكبيرة التى كشفت عنها حفائر الفسطاط وقد يكون من بينهـا قطع مستوردة من العراق وقطع أخرى قد صنعت فى مصر تقليدا للغضار المذهب العراقى Golden Lustre Pottery .

وقد امتاز الغضار المذهب المصرى فى الواقع عن نظيره العراقى ببعض الخصائص الناتجة عن طبيعة التربة المصرية • فالطينة تميل فى لونها الى الاحمرار ، وكذلك من الناحية الزخرفية فمنها العناصر الهندسية والمستمدة من صور الحياة العامة بما يكشف عن قدرة الصناع المصريين ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة من الأوانى المصنوعة من الخزف ذى البريق المعدنى زخارفها مرسومة فوق الطلاء الخارجى بأكاسيد معدنية تعطى بريقا معدنيا خاصا ، وكانت هذه الأنواع من النماذج التى اثبتت مهارة الصناع المصريين وقدرتهم على ابتكار أساليب جديدة تفوقوا بها على نوع الخزف الصينى بعد فترة قصيرة •

ومن أسماء الصناع المصريين التى أمكن قراءتها على قطعة من الغضار المذهب اسم ابن دهان أو ابن خلدان ، وربما كان هو الخزاف الوحيد فى عهد الطولونيين الذى عمل على انتاج هذا النوع من الخزف ذى البريق المعـدنى •

وقد أصبحت الفسطاط من أهـم مراكز صناعة الخزف فى العصر الطولونى ، كذلك ظلت الفيـوم تنتج أنواعـا من الخزف المسمى بخزف الفيـوم ، واشتهرت أيضا مدينة البهنسا بمصانعها الخزفية ، كما حافظت أسيوط على شهرتها فى هذه الصناعة ، وكان أحد الصناع منها هو المعلم أحمد الأسيوطى ، يشهد بذلك تلك القطعة من الخزف التى يحتفظ بها من القطع العديدة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة •

وهـكذا ازدهرت صناعة الفخـار والخزف بأنواعـه المختلفة وشاع استخدام تلك الأوانى والقدور والقصاع المصنوعة منها ، ويشير المقريزى الى تلك الصدقات التى كان يقوم ابن طولون بتوزيعها على الفقراء من عامة الشعب ، حيث كان يذبح فى مطابخه من البقر والكباش وتفرق للناس فى القدور الفخار والقصاع الخزفية • وكما استمرت صناعة المسارج والقلل والأوانى المختلفة من الفخار والخزف ، فانه كشفت حفائر الفسطاط عن مجموعة من التماثيل الصغيرة ولعب الأطفال وبعضها على هيئة كباش أو أسود ولا غرو فقد صنعت منها فى ذلك العهد تماثيل من كل نوع من أنواع المواد ، منها ما يصنع من الفخار أو الخزف ، ومنها ما يصنع من الذهب والفضة أو حتى من الكافور والعنبر •

ويظهر تقدم صناعة أنواع الخزف والغضـائر فى عهد الاخشيديين

ويذكر ابن دقماق من بين المواضع زقاق الغضارين بالفسطاط ، ولا شك أنه كان يضم العديد من حوانيت صانعي الأواني الخزفية وبائعيه في ذلك الوقت ٠

وتشير رواية ابن سعيد كما ينقلها عن ابن زولاق الى استخدام الغضائر والطيافير وغيرها من أنواع الخزف ذى البريق المعدنى فى بلاط الاخشيد ، فقد حدث يوما أن كانت أم الاخشيد تشرف على المائدة ، ولم تعجب بالأوانى والطيافير المصنوعة من الغضار لقدمها ، فأمرت بشراء مائدة حسنة ومجموعة من الغضائر والطيافير الجدد ، والتى فرح الاخشيد بها عند مشاهدته اياها ٠

يضم متحف الفن الاسلامي العديد من قطع الخزف التى ترجع صناعتها الى عهد الاخشيديين ، منها ذات الزخارف المرسومة على هيئة طيور على حافتى شجرة الحياة ، كما ورد اسم أحد الصناع المهرة ويدعى هارون ابن قاسم الفخار على شاهد جنائزى من حجر رملى يرجع الى سنة ٣٢٤ هـ محفوظ بالمتحف ، لعله كان أحد الفخرانيين أو الغضارين الذين كانوا يعملون بزقاق الغضارين بالعاصمة الفسطاط فى ذلك الوقت ٠ وفى الواقع فان ما تم العثور عليه من منتجات العهد الاخشيدى من الخزف بأنواعه المختلفة لا يكفى للحكم على نشاط الخزافين ، ويمكن القول بان عهد الطولونيين والاخشيديين لم يطرأ فيه على صناعة الفخار والخزف من جديد سوى ما شاع ذكره وأقبل عليه الناس فى مصر وما عرف بالخزف ذى البريق المعدنى ٠

كما عرفت مصر فى ذلك العهد صناعة الأوانى الفخارية السوداء ، لاستخدامها فى نقل الزئبق وفى تحضير الأدوية ، وكذلك قوارير النفط التى شاع استعمالها خاصة فى أوقات الحرب ٠ وقد تم العثور على مجموعات كبيرة من الأوانى الخزفية المتعددة الأشكال ، والأوانى الفخارية المستعملة بين مداميك البناء كما عثر فى مدن الفسطاط والاسكندرية والفيوم على بعض الأوانى الفخارية السوداء التى أطلق عليها الفقاعات ، يبدو أنها كانت تستخدم فى حفظ الفقاع أو فى شربه كما هو الحال بالنسبة لتلك الأوانى التى كانت تصنع من طين أسوان الذى سبق ذكره ٠

ويعتبر العصر الفاطمى هو العصر الذهبى لصناعة الخزف وخاصة هـذا النوع المعروف بذى البريق المعدنى ٠ فقد عشق الفاطميون الآداب والفنون ، وشجعوا الصناع فى كل ميدان لابتكار أدوات الترف والنعيم ، كما بلغ بهم الأمر أن كانوا يستدعون من بغداد وغيرها من الحواضر الاسلامية

الأخرى هؤلاء الحرفيين للنهوض بصناعة الخزف ذى البريق المعدنى وغيرها من الصناعات الأخرى ٠

وتشير المصادر الى ازدهار صناعة الخزف بأنواعه المختلفة فى كل من الفسطاط ثم القاهرة والاسكندرية والفيوم ، وقد كانت من أهم مراكز صناعة الخزف ذى البريق المعدنى فى مصر الفاطمية ، ومما يدل على ذلك ما أمكن العثور عليه بظاهر الفسطاط من القطع الخزفية ، وهى تختلف صناعتها عما كانت عليه من قبــل العصر الفاطمى من حيث رقة جدارها وتغطيتها بطلاء أبيض يرسم عليه ببريق معدنى وضاء باللون الذهبى أو البنى (١٦) ، كما عثر على مجموعة من الخزف فى مدينة الفسطاط من نوع الخزف المحزوز تحت الدهان ، وتشبه كثيرا فى زخرفته موضوعات الخزف ذى البريق المعدنى ٠

ومن هؤلاء الذين ذاع صيتهم فى صناعة الخزف مسلم وسعد فقد كانا من أمهر صناع الخزف ذى البريق المعدنى فى العصر الفاطمى ، وقد كان مسلم بن الدهان من أعلام الخزافين وكان له صبيان وتلاميذ يتعلمون منه أصول الصنعة ، ومن المرجح أن مصنعه كان بمدينة الفسطاط ، ويميل أحد الباحثين الى أن هذا الخزاف الشهير مسلم بن الدهان كان يعمل فى مصنعه فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، بينما عم نشاط سعد فى عهد الخليفة المستنصر (١٧) ٠

ولعل من أشهر الأطباق التى شاع ذكرها طبق غبن مولى الحاكم بأمر الله ، وتنسب صناعة هذا الطبق الى على البيطار الخزاف ، حيث جاء مطابقا فى أسلوبه الزخرفى ٠ كذلك اشتهر من تلاميذ مسلم بن الدهان كل من ابراهيم الخزاف وابنه هيثم بن ابراهيم ، حيث كان يعد ابن الدهان صاحب مدرسة كبيرة من الخزافين المصريين فى القرن الخامس الهجرى ٠

وقد وردت من توقيعات هؤلاء الخزافين على قطع الخزف ما نعرف منها أســـماءهم نذكر منهم الطيب ، والحسين بن نظيف الآمــرى ، وجعفر

---

(١٦) تميزت زخارف الخزف الفاطمى بانها كانت مزدحمة بالموضوعات الآدمية ورسوم الطيور أو الحيوانات على أرضية من الزخارف النباتية ٠

ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢١٧ ٠

(١٧) لا يتفق كارل جوهان لام أستاذ الفنون الاسلامية بمعهد الآثار مع على بهجت الذى كان يعمل مديرا لدار الآثار العربية فى تحديد الزمن الذى عاش كل من مسلم وسعد فيه ، وفى أن سعد عاش فى عصر سابق لعصر زميله مسلم بن الدهان ، الخزف الفاطمى ، بحث نشر مجلة المقتطف ، ص ٥٧١ ، ترجمة عبد الرحمن زكي ٠

المصرى (١٨) • كذلك نعرف بعض الأسماء لصناع الخزف فى العصر الفاطمى الغيبى والمصرى والشامى وغزال الهرمزى وأبى العز ، وكانت شهرتهم فى التصوير على الخزف وغيره من طلاء الجدران فى ذلك العصر •

ولا شك أن أوجه الخلاف بين صناعة مسلم بن الدهان وتلاميذه وبين ما كان ينتجه سعد فى مصنعه ومعه تلاميذه أيضا ، انما كان يتركز حول زخرفة الأطباق والأوانى الخزفية ، حيث جاءت زخارف الخزاف الشهير سعد خالية من زخرفة ظاهر الأطباق ، بما يشبه تلك الزخارف والرسومات المختلفة التى تميزت بها منتجات أبى القاسم مسلم بن الدهان • ومن أهم القطع الجميلة التى كانت من صناعة الفنان سعد تلك السلطانية المحلاة برسم شخص يحمل فى يده مشكاة أو مبخرة والمحفوظة حاليا بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن •

ولا ريب أن تنوع انتاج الخزف والزخارف انما يدل على ازدهار صناعة الخزف ذى البريق المعدنى وغيره ، كما كان تشجيع الخلفاء الفاطميين ورجال الدولة لأصحاب مصانع الخزف من عوامل تقدم هذه الصناعة وسائر الصناعات والفنون الأخرى • فقد كانت الأطباق الخزفية تستخدم بكثرة على أسمطة الفاطميين ، حيث كان يصل عددها نحو خمسمائة على المائدة الواحدة من تلك الصحون المترعة بالألوان الفائقة من الحلوى وكان يسع الطبق الواحد منها سبع دجاجات بالاضافة الى أنواع أخرى من الأطعمة والحلوى ، وكان من رسوم الدولة الفاطمية توزيع الحلوى فى الجامات المصنوعة من الخزف وأيضا المتارد وغيرها •

ويذكر القلقشندى أن خزانة الشراب فى القصر الفاطمى كانت تحتوى على مجموعة كبيرة من الأوانى والأدوات النفيسة ، منها الأوانى والزبادى والصحون والبرانى والأزيار وكلها مصنوعة من الخزف ذى البريق المعدنى وغيره من أنواع الفخار الحسن الصنعة •

ومما يدل على ازدهار صناعة الخزف فى عهد الخليفة المستنصر ما أشار اليه ناصر خسرو فى وصفه للخزف المصنوع بالفسطاط ، حيث قال : « ان المصريين كانوا يصنعون بمصر الفخار من كل نوع وهو لطيف وشفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع

---

(١٨) يحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة من التحف الخزفية منها سلطانية من الخزف ذى البريق المعدنى وجزء من اناء مكتوب عليه من عمل الطبب ، وسلطانية أخرى من الحسين بن نظيف الآمرى •

حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف ، جـ ٢ ، ص ٧٥٩ •

منه الكئوس والأقداح والأطباق وغيرها ، وهم يلونوها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف فى كل جهة تكون بها » . وهكذا كان الصناع المصريون يصنعون من أنواع الفناجين والقدور البرانى والصحون وغيرها ويقومون بزخرفتها بألوان تشبه ألوان القماش المسمى بالبوقلمون.

ومما يدل على شيوع استخدام الأوانى الخزفية وازدهار صناعتها أيضا فى العصر الفاطمى ما ذكره ناصر خسرو عن استخدام التجار والبقالين لهذه الأوانى الخزفية فيما يستخدمه التجار من الورق فى العصر الحاضر ، فقد كانوا يضعون فيها ما يبيعونه ويأخذها المشترى بالمجان .

كما يشير الشيزرى الى استخدام مدقوق الخزف المصنوع بالفسطاط وغيرها من مراكز الصناعة ، فى تنظيف مقالى النحاس وغيرها من أوانى النحاس المستعملة فى اعداد وتجهيز أنواع الحلوى ، وقد شاع استعمال الخزف كذلك فى صنع بلاطات ونجوم لكسوة الجدران ، كما صنعت القوارير والمسارج والمباخر ومساند الأقلام فضلا عن التماثيل الصغيرة . وكان يؤخذ على الخزافين ألا يبيعوا قدور الخزف أو الأوانى المغشوشة بحيث لا تخفى أعمال الدهان على جدارها العيوب أو الثقوب والكسور التى بها أو أن تعمل من الجبس المعجون بالشحم وبياض البيض أو الخزف الأحمر المسحوق ، حتى يمنعهم العريف أو أمين الصنعة من ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن صناعة الفخار غير المدهون كانت واسعة الانتشار ، وقد شهد العصر الفاطمى تطورا ملحوظا فى أشكال الأوانى وانتاج القدور ذات الأحجام المتوسطة والجرار الكبيرة ، كما انتشرت صناعة الأختام الفخارية لزخرفة الكعك وغير ذلك من الأغراض .

كما تعددت أشكال المسارج المصنوعة من الفخار ، وتنوعت زخارفها فى العصر الفاطمى ، حيث نجح الخزاف أو الفخرانى فى عمل جدارين لها الخارجى منهما ذات زخارف هندسية والداخلى منهما فهو لحفظ الزيت .

ولم تكن الفسطاط فحسب من مراكز صناعة القلل ، بل كانت المراكب النيلية ترد محملة بأنواع الفخار من القلل والجرار من جهات اسنا والأقصر وقنا من مدن الصعيد ، حيث كان لكل مركز أو مدينة طراز خاص يناسب ميول الصناع ومهارتهم الفنية .

وكانت الاسكندرية تؤلف مركزا هاما لصناعة التحف الفخارية الصغيرة المتخذة للزينة كأنواع الكئوس ذات الرسوم البارزة وكانت تغطى

باللون الأصفر ، أما الجزء الداخلى فكان لونه يميل الى الاصفرار (١٩) ٠ وهكذا أثبت الصانع المصرى حرصه على أن يضفى على كل ما أخرجته يداه جمالا زخرفيا يبعث على البهجة والسرور ٠ كما يشهد له بحسن الذوق والمهـــارة ٠

وتشير المصادر الى استمرار تقدم صناعة الفخار غير المدهون وأنواع الخزف المختلفة حتى أواخر العصر الفاطمى ، فقد ذكر ابن ميسر أن الوزير الأفضل بعـد مقتله عـــام ٥١٥ هـ ، خلف من أنواع الأباريق والقـدور والزبادى ، ومن برانى الصينى ما لا يعد ولا يحصى ، كما تدل مجموعة القدور والصحون من الخزف ذى البريق المعدنى المحفوظة بمتحف الفن الاسلامى على ازدهار هذه الصناعة ، وكذلك المجموعة الأخرى التى يحتفظ بها المتحف القبطى المشتملة على أجزاء من رقاب وبرابخ للقلل والتى تم زخرفتها بالأشكال النباتية والهندسية وبالكتابات العربية الجميلة (٢٠) ٠

---

(١٩) أسفرت الحفائر الأثرية فى كوم الدكة بالاسكندرية عام ١٩٤٨ عن كشف قطع هائلة من الخزف الفاطمى ، والخزف الشائع فى مصر فى عصر المماليك ٠

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٥٢٩ ــ ٥٣٠ ٠

(٢٠) ومن الكتابات العربية التى أبدعها الصانع مثل « من خف عف » وترجع صناعتها الى أواخر العصر الفاطمى ٠

٢ ـ صناعة الزجاج فى عصر الولاه والولاه المستقلين

عـرف المصريون القدماء صناعة الزجاج (١) ، كما ذاعت شـهرة الاسكندرية فى العصر الرومانى والبيزنطى بصادراتها من الورق والزجاج والمنسوجات (٢) ولم يقتصر الحاكم الرومانى على حمل الرمال الجيـدة بالسفن البحرية وارسالها الى روما بل حمل معها صناع الزجاج من أهل الاسكندرية لشهرتهم فى ذلك الوقت المبكر ومهاراتهم الفائقة فى صناعة أنواع الأطباق والسلاطين والقوارير وزجاجات العطور ، وفى عمل الأكواب الزجاجية المطلية بالمينا •

وكانت الاسـكندرية قبـل الفتح العـربى تنتج كميـات كبيرة من الزجاج تكفى لحاجة الاستهلاك المحلى ، ولسد حاجة الأسواق الخارجية •

وقد عثر فى جهات الفيوم وهيرموبوليس (الأشمونين) وأكسيرنخوس (البهنسا) فى منطقـة مصر الوسطى ، وفى أرمنت بالصعيد الأعلى على

(١) بدأ انتاج الزجاج على نطاق واسع فى مصر القديمة فى أوائل الأسرة الثامنة عشر ، وكان من أنواعه الخرز والتمائم الصغيرة والأوانى من الزجاج الأخضر • وقد عثر على جفنات صغيرة لصهر الزجاج بنواحى تل العمارنة بالقرب من المنيا ، وأشار فلندرز بترى الى أنها كانت تستخدم فى أعمال الزجاج وفى زخرفة الاناء الزجاجى•

لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٩٧ ، ٣٠٦ ـ ٣١٤ •

(٢) كان الزجاج من بين السلع التى فرضها اغسطس الامبراطور الرومانى على المصريين بعد احتلال البلاد عام ٣١ ق•م ، حيث كانت ترسل عينا ضمن الجزية السنوية • بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٩٥ ،

Johnson : Byzantine Egypt, Economic Studies, p. 100.

بعض قطع الزجاج ، مما يدل على الأرجح أنها كانت تضم مصانع للزجاج منذ العصر البيزنطي (٣) • وليس من شك أن تأثيرات الصناع الفنية ـ كما تشير النماذج العديدة التي عثر عليها ـ على زملائهم في العالم الخارجي كانت شاملة ، من حيث طرق الصناعة وأشكال المنتجات الزجاجية منذ القرنين الثالث والرابع الميلاديين •

ومما لا شك فيه أن وفرة المواد الخام اللازمة لصناعة أنواع الزجاج كان احدى الأسباب الهامة لتقدم هذه الصناعة ، فقد كان النطرون يوجد في وادي النطرون بالقرب من الاسكندرية ، وفي جهات البحيرة في شمال البلاد ، كما توفرت في نواحي الكاب بالوجه القبلي ، أما الرمال الصالحة فقد عرف المصريون أماكنها المنتشرة على شواطيء البحر المتوسط وفي سيناء وغيرها منذ العصور القديمة (٤) • وفي صحراء النطرون كما ذكر استرابو كان صناع الزجاج المصريون لهم أسرار يحفظونها ولاسيما في معامل (ديوسبوليس) وانهم كانوا يقلدون الجواهر في صناعتهم ويعملون قماقم المر لحفظ الدهون • ولعل هذه المعامل المشار اليها هي التي انفرد المقريزي يذكرها بعد ذلك من المؤرخين المسلمين •

أما استخراج النطرون من البركة التي عرفت باسمه بعد الفتح العربي وكما أشار القلقشندي فانه كان مباحا لعامة الشعب من هذه الجهة التي كانت تقع الى القرب من مديرية البحيرة ، ومن جهة الخطارة من أعمال مديرية الشرقية • ولا شك أن هؤلاء المصريين الذين كانوا يعملون على استخراجه ، كانوا يذهبون به الى معامل الزجاج بوادي النطرون أو بمسابك الفسطاط بعد انشائها في عصر الولاة •

---

(٣) قامت بعثة الحفائر التابعة لجامعة ميتشجان بالبحث في جهات كارنيس Caranis وفي أرمنت ، وقد عثرت على قطع زجاجية عديدة ترجع صناعتها الى القرن الرابع الميلادي ، وكما أجريت حفائر أخرى في هيرموبوليس (الاشمونيين) وارسينوى بالقرب من الفيوم وغيرها من الجهات فضلا عما عثر عليه بحفائر مدينة الاسكندرية ، وما أشارت اليه الوثائق التي عثر عليها في تلك الجهات •

Johnson : Economic Studies, p. 112.

(٤) كانت وفرة المواد الخام مثل رمل الكوارتز وكربونات الكالسيوم والنطرون بالقرب من مراكز صناعة الزجاج ، وكانت توجد كميات وافرة من الرمل الصالح للصناعة على السواحل المصرية • ومن المعروف أن الزجاج الخام يتكون بتسخين مواد الرمل والجير والصودا عند درجة حرارة معينة حتى تتحد سيليكات الصوديوم والكالسيوم ، كما كان الرصاص يحل محل الكالسيوم في صناعة أنواع خاصة من الزجاج ، هولمز : قصة الكيمياء ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٤١٧ •

ومن الطبيعي أن يصبح المركز الرئيسي لصناعة الزجاج في العاصمة الفسطاط خاصة بعد أن تم تخطيطها وازدادت أعداد السكان بها وتبحرت في العمران على حد قول ابن خلدون (٥) . ويبدو من رواية ابن عبد الحكم التي ذكرها في معرض حديثه عن خطط الفسطاط من أنه كان يوجد مصانع للزجاج قائمة بالمواضع التي اختطت بها القبائل العربية فهو يقول : « أن بلى اختطت خلف خارجة بن حذافه ثم مضوا بخطتهم من دار عمرو بن يزيد الى دار مسلمة ودار واضح ، حتى جاوزوا دار مجاهد بن جبير الى درب الزجاج » . وهكذا يمكن القول بوجود مواضع لصناعة الزجاج أثناء سكنى العرب واستقرارهم بها .

أما عن اشارة ابن سعيد بوجود مسابك للزجاج ، بمدينة الفسطاط فلا غرابة في ذلك (٦) ، حيث أمكن العثور على قطع من الزجاج المزخرف بالبريق المعدني فقد كشفت حفائر الفسطاط عن كأس جميلة تزينها زخارف نباتية متنوعة وعلى حافتها من الخارج كتابة بالخط الكوفي نصها « الأمير عبد الصمد بن على » وكان واليا على مصر سنة ١٥٥ هـ ، ولعله الأمير موسى بن على كما ذكر الكندي ، فقد تولى الامارة على مصر من قبل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في هذا العام المشار اليه .

ويؤيد أيضا مدى تقدم صناعة الزجاج المصري في العصر العباسي ما يحتفظ به متحف الفن الاسلامي من قطع الزجاج ذي البريق المعدني ، وعلى قاع اناء صغير مزخرف من تلك القطع كتابة كوفية نصها « مما عمل في طراز الفيلة بمصر سنة ١٦٣هـ » والواقع أن هذه اشارة هامة تدل على وجود أكثر من مصنع للزجاج في القرن الثاني الهجري بالفسطاط وغيرها من المدن المصرية ، وربما كان يقع مصنع الزجاج المعروف بطراز الفيلة بالقرب من بركة الحبش بجنوب الفسطاط ، وذلك وفقا لما أوضحه

---

(٥) يذكر ابن خلدون في مقدمته أسباب ازدياد الطلب على الحرفيين والصناع وأرباب المهن في سائر الصناعات ، حيث يقبل الناس على البناء والعمارة وما تتطلبه من المواد الخام والسلع المصنوعة وأعمال النجارة والحدادة ومن الأدوات والأواني والألواح الزجاجية وغيرها . المقدمة ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٦) لم يحدد ابن دقماق شيئاً عن تاريخ انشاء أو قيام تلك المسابك بمدينة الفسطاط ولم نعثر على شيء من المصادر التي نقل عنها ابن سعيد روايته ، وحتى ابن سعيد في كتابه المغرب في حلى المغرب لم يذكر ذلك صراحة كما نقل عنه صاحب الانتصار ، ومن المرجح أن العرب بعد استقرارهم بالعاصمة الفسطاط واقبالهم على اقتناء أدوات الترف والكماليات وجدوا أنفسهم يعملون على قيام مثل هذه المصانع الخاصة بسبك الزجاج ، وصناعة الأواني الزجاجية وغيرها ، دون التأثير على المصانع القائمة بالاسكندرية أثناء الفتح الاسلامي للبلاد ، ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ١١ ، الانتصار ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ .

المقريزى فى بناء جامع القبلة المطل على بركة الحبش ، وقيل ان السبب فى تسميتها كذلك انما يرجع الى وجود تسع قباب بهذا الموضع ، اذا رآها الانسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة كالتى كانت تسير فى المواكب أيام الأعياد وعليها السرير وفوقها المدرعون أيام الخلفاء العباسيين .

ومن خير الشواهد على تقدم صناعة الزجاج فى مصر منذ فجر الاسلام ما أنتجته تلك المصانع والمعامل من الصنج والأوزان الزجاجية اذ كان ضرب السكة وتحقيق أوزانها عن طريق الصنج الزجاجية معروفا منذ العصر البيزنطى (٧) ، وكان لابد عند اصلاح الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٥ هـ) ، للسكة من ضرورة التحقق من أوزان الدينار والدرهم الشرعية ، ولم يكن يتحقق ذلك الا عن طريق تلك الصنج المصنوعة من الزجاج (٨) .

ومن أقدم الصنج الزجاجية التى تحمل اسم الولاة ، التى تم العثور عليها اسم الوالى على مصر قره بن شريك (٩٠ ـ ٩٦ هـ) وليس بين أيدينا من دليل واضح يدلنا على أنها صنعت بمعامل الزجاج بمصر أم أنه تم صنعها بمصانع الاسكندرية . وهناك مجموعة من الصنج هذه تكشف عن أسماء بعض هؤلاء الزجاجيين وأسماء الخلفاء الأمويين والعباسيين(٩) . كذلك تحتفظ المتاحف بمجموعة من صنج أوزان العملات كنصف الدينار وثلثه وعلى دينار باسم الأمير يزيد بن حاتم (١٠) ، وعبارة صنعة «كميل» وغير ذلك من الأسماء على هذه الأوزان الزجاجية التى تدل على ازدهار صناعتها فى عصر الولاة .

---

(٧) كان الزجاج مستعملا فى صناعة الأوزان الزجاجية وتلك الصنج ابان العصر الرومانى . زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٧٩ .

(٨) كانت تصنع على شكل أقراص زجاجية تتخذ عيارات للوزن ، كما كان يطبع بها على الأوانى لبيان أحجامها المختلفة وكثيرا ما كانت تحمل أسماء الولاة أو الحكام المسلمين ، زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٨٢ ، عبد الرحمن فهمى ، صنج السكة فى فجر الاسلام ، ص ١٣ .

(٩) وصلت الينا بعض القطع التى تحمل اسم عبد الملك بن يزيد ، وأخرى تحمل توقيع نصه « صنعة كميل على صنجة زجاجية بدينار باسم الخليفة أبى جعفر المنصور » .

(١٠) الأمير يزيد بن حاتم تولى امارة مصر من قبل الخليفة أبى جعفر المنصور سنة ١٤٤هـ وهو أول من قام بضم برقة الى أعمال مصر وأمر عليها عبد السلام بن عبد الله ابن هبيره وذلك فى سنة ١٤٨هـ . الولاة والقضاة ، ص ١١١ ـ ١١٩ ، رقم السجل : ٦٩١٦ .

وتشير المصادر الى اقبـال المسلمين فى مصر وفى غيرها من البلدان المفتوحة على استعمال الأوانى الزجاجية والقوارير لحفظ العطور وغيرها أكثر ممن سبقهم (١١) ، والى تفضيل أوانى الشرب المصنوعة من الزجاج على غيرها لما لها من مميزات وفوائد جمة،فهى لا تصدأ ولا تندى ولا يتخللها وسخ كما يقول الغزولى ، وان اتسخت فالماء وحده لها جلاء ، ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ، والشراب فيها أحسن منها فى كل جوهر ٠

ولا شك أن الاسكندرية ظلت فى عصر الولاة على حالها فى انتاجها للزجاج ، حيث كان الصناع يشكلون الزجاج بنفخه فى قالبين الواحد بعد الآخر (١٢) وكانت القوالب أحيانا عبارة عن قطعتين من الفخار أو المعدن أو من الخشب ، وكانت تصنع من الزجاج الأوانى والقارورات والأختام ٠ وتشير رواية الكندى الى أنه حينما توفى عقبة بن أبى سفيان وكان واليا على مصر سنة ٤٤ هـ تم دفنه بمنية الزجاج بالاسكندرية (١٣) ، مما يدل على أن هـذا الموضـع كان يخص صناعة الزجـاج فى العصر الاســلامى المبكر (١٤) ، كما أشار المقريزى الى معمل الزجاج بوادى النطرون بالقرب من الاسكندرية ، وتبدو مهارة المصريين فى استغلال المواد الخام اللازمة لصناعة الزجاج التى كانت متوفرة فى هذه المنطقة ٠

وكانت مصانع الاسكندرية تنتج أنواعا من الزجاج ، وقد نقل الصناع الذين وفدوا من العراق طريقة صنع الزجاج على أيدى المصريين ، حيث كشفت حفائر مدينة سامرا عن وجود نماذج كثيرة من نوع الزجاج المسمى الف زهرة والذى استمرت مصانع البلاد فى انتاجه فى فجر الاسلام ٠

وهكذا أصبحت صناعة الزجاج فى الاسكندرية والفسطاط وغيرها من المدن المصرية تمثل جزءا هاما من الحرف والصناعات التى اشتهرت بها

---

(١١) ورد فى احدى البرديات المتضمنة نفقـات مختلفة بالمتحف منهـا قارورة ماء ورد جيد ، جروهمان : أوراق البردى العربية ، حـ ٦ ، ص ١٨٠ ٠

(١٢) اكتشف الصناع المصريون منذ العصر البيزنطى طريقة نفخ الزجاج ، ولا يزال الزجاج المصنوع باليد يستغرق زمنا طويلا ، ويتطلب مهارة فائقة ، ولذلك فهو نادر الوجود وغالى الثمن ٠ بحث نشر مجلة الشباب وعلوم المستقبل عام ١٩٨٤ ٠

(١٣) وقد ذكر أن منية الزجاج كانت من ضواحى الاسكندرية ، وهى تقع على ترعة المحمودية فى المنطقة الواقعة بين فم الترعة وشارع الرصافة بقسم محرم بك بالاسكندرية ٠ الولاة والقضاة ، ص ٣٦ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ٤٣٢ ٠

(١٤) ظل النطرون مستعملا فى صناعة الزجاج بالاسكندرية منذ العصر الرومانى وحتى عام ١٧٩٩م حين مجيء الحملة الفرنسية على مصر ، لوكاس : المواد والصناعات ص ٦١٢ ٠

مصر ، فقد تم صنع الأوانى الزجاجية بمختلف الأشكال والأحجام ، فضلا عن الأدوات والصنج الزجاجية وما الى ذلك من القوارير لحفظ العطور(١٥)٠

وحينما استقلت البلاد تحت حكم الطولونيين والاخشيديين شهدت نشاطا ملحوظا فى سائر الحرف والصناعات ، فقد تطلبت نشأة القطائع ومظاهر الترف فى القصور الطولونية المزيد من انتاج مصانع الزجاج ، وازدياد نشاط العاملين بالمسابك الزجاجية وغيرها من مسابك الفولاذ والنحاس التى أقيمت بالفسطاط ٠

ومن أشهر الصناع الذين سجلوا توقيعهم على احدى التحف الزجاجية فى عهد الدولة الطولونية ، كان نصير بن أحمد بن هيثم ، فقد صنع لأحد أمراء هذه الدولة تحفة من الزجاج مكتوب عليها « مما عمل للأمير ربيعة » (١٦) ولعل نصير الزجاج هذا كان ابنه اسحق الذى أشار اليه ابن النديم فى أخبار الكيميائيين ، وقد جاء فى ترجمته أنه كان يخرط الزجاج ويصنف الكتب فى هذه الصناعة ، ومنها كتابه المسمى بالتلاويح وسيول الزجاج ، وكتاب صناع الدر الثمين ، وقد توفى سنة ٣٢٦ هـ فى بداية عهد الاخشيديين ٠

فلا غرو ان تقدمت صناعة الزجاج فى عهد الطولونيين والاخشيديين، وقد عرف الصناع الطرق الكيميائية وراحوا يمارسون عمليا ما لم يختبر قبل ذلك ، كما اخترعوا آلات التقطير ، وباشروا تحليل المواد ، ولم يقتصر نشاطهم على مجال الصنعة ، بل انهم وضعوا الكتب فى صناعة أنواع الزجاج ٠

كما تشير المصادر الى أن أصحاب صنعة الكيمياء لم يقتصر الأمر عليهم في الاشتغال بخرط الزجاج (١٧)، بل كان من علماء المسلمين وأرباب

---

(١٥) يضم متحف الفن الاسلامى (قاعة الطراز الفاطمى) مجموعات من القشانى والقماقم المصنوعة من الزجاج ذات زخارف مختلفة بارزة منفوخة فى قوالب معينة وترجع صناعتها الى القرن الثانى وحتى القرن الثامن بعد الهجرة ، كما ورد فى أوراق البردى ذكر القوارير لحفظ الروائح العطرية ، جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٦ ، ص ١٨٠ ٠

(١٦) والأمير ربيعة هو فى الغالب ابن أحمد بن طولون الذى قيل انه قام بثورة ضد ابن اخيه هارون بن خمارويه فى سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م ، ولكن انتهت بالفشل وقتل ربيعة ٠ الكندى : الولاة ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤ ، مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ص ٢٢٩ ٠

(١٧) ورد اسم الحسين بن صالح الزجاج فى عقد بيع يرجع تاريخه الى سنة ٢٧٤هـ وكان يعمل فى صناعة الزجاج بمدينة اشمون احدى مدن الصعيد الأوسط ٠

جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ١ ، ص ١٢٣ ، ١٢٥ ٠

اللغة والنحو ممن كان يخرط الزجاج مثل أبى اسحاق بن ابراهيم الزجاج النحوى ، وكانت وفاته سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م ٠

وقد نجح الصناع أو الزجاجون فى ذلك العهد فى عمل نوع من الزجاج السميك لعلهم قصدوا به تقليد البلور الصخرى الذى كانت له فى النفوس مكانة سامية ٠ وأمدتنا حفائر الفسطاط وغيرها من مناطق صناعة الزجاج بكثير من القطع عبارة عن أكواب وأباريق بأشكالها التى تشبه الكمثرى وكذلك عثر على مجموعة منها حليت رسومها بالكتابات الكوفية وبالأختام والنقوش البديعة ، وكما اشتهرت مصانع الزجاج فى كل من الفسطاط والاسكندرية والفيوم بانتاج ما يلزم الاستعمال المنزلى من كافة الأوانى الزجاجية وما يستخدم لحفظ الزيوت والعطور ، كانت من الجودة والكثرة ما عبر عنه ديماند قائلا : « وبلغت أشكال هذه الأوانى وأحجامها من التنوع والكثرة مبلغا يصعب معه حصر أنواعها » ٠

وفى عهد الطولونيين والاخشيديين تقدمت صناعة البلور الصخرى ، ويبدو أن شهرة مصر فى هذه الصناعة كانت واسعة قبل الاسلام ، يتضح ذلك من وصف الجاحظ لأنواع البلور المعروف فى عصره حيث كان منه الزجاج البلورى الصافى الأبيض النقى ، ومنه الفرعونى الفائق ٠

وكان الصناع فى الاسكندرية والفسطاط يحصلون على البلور الصخرى من مناطق الحجاز ، ومنه ما يؤتى من الصين ، كما ظهر منه بالمغرب على مقربة من مراكش ، حيث يأخذون القطعة من حجر البلور ، ثم يهذبونها ويحولونها الى التحفة التى يريدونها ، ثم ينقشون عليها بالزخارف والكتابات العربية بطريق الحفر عليها ٠

ويمدنا البلوى بوصف لتلك الأباريق المعمولة من البللور الصخرى ، وكانت تقدم بين يدى الأمير أحمد بن طولون فيقول : « وقدم بين يديه صينية فيها ثلاث خرداديات وكوز ماء وقدح لطيف (١٩) ، وجعل بين يدى الجارية صينية فيها خردادى وقدح لطيف وكوز ماء ، وكانت الخرداديات تستخدم فى الشراب ٠

وهكذا تشير المصادر الى شيوع استخدام هذا النوع من أوانى وأباريق البلور فضلا عن استخدام الزجاج المطلى بالمينا منذ أوائل القرن الثانى الهجرى فى مصر وغيرها من البلدان الاسلامية ٠ فقد قيل ان الخليفة

---

(١٨) الخردادى هو ابريق من البلور له عنق ضيق وجسم يزداد اتساعا من أعلى الى أسفل ، والخردادى الخمر وهو معرب ٠٠ والغالب أنه الإناء المخصص لشرب الخمر ٠

العباسى المعتمد لما ورد الخبر بوفاة ابن طولون فى مصر اشتد حزنه عليه ، فكان اذا قعد للشرب جعلت بين يديه صينية صينية فيها خردادى وقدح وكوز مصنوعة كلها من البلور .

وكان يصنع فى مصر وفى بعض بلاد العالم الاسلامى نوع من البلور المزخرف يستخدم فى صناعة المصابيح البلورية المزدانة بالنقوش والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، وكثيرا ما كانت تزدان الجوامع والقصور بهذا النوع من المصابيح .

٣ ـ ازدهار صناعة الزجاج والبلور الصخرى في العصر الفاطمي

ويبدو أن صناعة المصابيح البلورية وغيرها من الأوانى والتحف قد عادت الى الاحياء والازدهار من جديد خلال العصر الفاطمى ، يتجلى ذلك فى قيام الصناع المهرة بالفسطاط والاسكندرية بانتاج المصنوعات البلورية المزدانة برسوم الطيور والأشكال النباتية والزخارف البديعة . ويعد خير شاهد على تقدم هذه الصناعة وازدهارها ذلك الابريق الصخرى المحفوظ فى كاتدرائية القديس مرقص بالبندقية ويحمل اسم الخليفة العزيز بالله الفاطمى .

ولا شك أن حياة الترف التى عاشها الخلفاء الفاطميون ورجال دولتهم كانت احدى العوامل الهامة فى ازدهار صناعة التحف البلورية ورواجها فى أسواق الفسطاط وقد بلغ الأمر فى عهدهم أنهم خصصوا لهم خزانة خاصة بالقصر الفاطمى تسمى خزانة البلور . وينقل المقريزى عن مؤلف كتاب الذخائر والتحف أنه رأى بطرابلس قطعتين من البلور الصافى حسن الصنعة ، احداهما خردادى والآخر باطيه ، مكتوب على جانب كل واحدة منها اسم العزيز بالله ، تسع الباطيه سبعة أرطال ماء بالمصرى ، والخردادى تسعة ، وكان أحد الناس قد اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من خزانة البلور فى سنوات الشدة العظمى .

وكان من أسباب انخفاض ثمنه ، انتاج الأدوات والتحف الكثيرة من البلور ، حتى استطاع الخلفاء والوزراء وعليه القوم فى العصر الفاطمى أن يجمعوا منها المقادير الكبيرة ، كما اتخذ الفاطميون من أوانى البلور المرصع بالجوهر . وتشير وثائق الجنيزة الى تنوع صناعة الزجاج والبلور فى ذلك العصر حتى أصبح عمل عصا الكحل لتزيين المرأة ، صناعة قائمة بذاتها فى أسواق الفسطاط .

ويصف ناصر خسرو حركة الصناع وتفوقهم فى هذه الصناعة فى هذه الأسواق العامرة فيقول : « ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال ، وهم يحضرونه من المغرب ، وقيل انه ظهر حديثا عند بحر القلزم بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب » • وهكذا أصبح من الميسور جلب هذا النوع من البلور من القلزم وسواحل البحر الأحمر ، وكان يفوق المستورد من المغرب شفافية وجمالا •

ومن التحف البلورية التى حملت اسم الخليفة الفاطمى الظاهر تلك الحلقة من البلور على شكل هلال ، وعليها كتابة بالخط الكوفى العبارة الآتية : « لله الدين كله الظاهر لاعزاز دين الله أمير المؤمنين » ، مما يدل على أن صناعة البلور قد بلغت أوج ازدهارها فى عصر الفاطميين ، وقد شاعت تحلية قطع البلور بالزخارف النباتية ورسوم الطيور فضلا عن الكتابات الكوفية عليها •

كما تدل أعمال الصناع على مهارتهم الفائقة وشيوع استخدام البلور، فمن ذلك ما قام به الصناع المصريون من عمل تلك المرمة من البلور الخالص بمسجد قبة الصخرة وذلك فى سنة ٤١٨ هـ فى عهد الخليفة الظاهر • ويذكر الغزولى أن من جملة التحف المصنوعة من البلور ما وجد منه فى خزانة السيدة بنت المعز لدين الله حين وفاتها ، كان أبريق من البلور مزخرفا بالياقوت الأحمر وزنه تسعة وعشرون مثقالا •

كما يذكر ابن ميسر أن من جملة ما أخرج من التحف والطرائف من خزائن المستنصر ثلاثون ألف قطعة بلور كبار • مما يدل على مدى شغف الفاطميين واقبالهم على اقتناء التحف المصنوعة من البلور الخالص •

وقد ذكر أن من جملة الصناديق التى نهبت أيام الشدة العظمى من خزائن القصر كان منها صندوق مملوء بأباريق من البلور المنقوش بالزخارف والرسومات الجميلة وبعضها غير منقوش • ويذكر المقريزى أن أحد الذين يوثق بهم نقل أن قدحا من البلور النفيس الذى لا زخارف له بيع أمامه بمائتين وعشرين دينارا ، وأن خردادیا من البلور بيع بثلاثمائة وستين دينارا ، وأن كوز بلور بيع بمائتين وعشرة دنانير ، وأن صحونا مموهة بالمينا كان يباع الواحد منها بمائة دينار أو أكثر •

وكانت الأوانى والأباريق المصنوعة من البلور الصخرى تختلف فى قيمتها وثمن شرائها بحسب كبر الآنية واحكام صنعتها ، فالقطعة التى تحمل رطلا اذا كانت فى غاية الصفاء والسلامة من التشعير تساوى عشرة دنانير مصرية فى ذلك العصر • وليس هناك شك فى أن الاقبال على شراء

او اقتناء مثل هذه الأواني والأباريق وغيرها لم يـــكن قاصرا على بلاط الفاطميين ، بل تعداه الى سائر المصريين ، لاسيما بعد أن تمتعوا بحياة النعيم والاستقرار في ظل الحكم الفاطمي • فقد أقبل علية القوم على شراء الأباريق والخرداديات والمصابيح البلورية لأنها كانت أصلب من الزجاج العادي وألطف منظرا ، كما اتخذوا من البلور آنية اعتقدوا أن للشرب فيها فوائد •

ويظهر أن صناعة البلور الصخري كان لها أثرها على صناعة الزجاج على مثال أواني البلور ، واستخدموا في زخرفتها أسلوب القطع على غرار ما كان متبعا في زخرفة البلور الصـخري (١) • ومن الملاحظ أنه كثر استخدام الأواني الزجاجية ذات الزخارف بدلا من الأواني البلورية ، وذلك لرخص ثمنها ومساواتها في القيمة الزخرفية الا أنها كانت دونها بكثير من حيث القيمة الصناعية •

وتشير المصادر الى ازدهار صناعة أنواع الزجاج في العصر الفاطمي ، فقد اشتهرت مصر بصناعة الزجاج المطلي بالمينا ، وقد عثر على قطع منه عليها زخارف مختلفة ورسوم متنوعة وكتابات وشـارات • حيث تمكن الصناع من ابتكار أساليب صناعية جديدة مثل النفخ واستخدام القالب والزخرفة بالاضافة الى أعمال القطع والطبع والتهذيب والتلوين بالمينا(٢) أو بمادة البريق المعدني •

ومن أهم أنواع الزجاج ذى البريق المعدني الذي أنتجه الصناع أو الزجاجون في الفسطاط والاسكندرية وغيرها ، ذلك النوع الأحمر وعليه زخارف من رسوم طيور ، يبدو أنها ذات الصلة الوثيقة بتلك الرسـوم التى نعرفها على الخزف الفاطمي ذى البريق المعدني ، وهناك قطعة من هذا عليها توقيع الخزاف الشهير « سعد » • كما أنتج الزجاجون في الفسطاط وفي مراكز صناعة الزجاج الأخرى نوعا من الزجاج الأبيض السميك(٣) •

---

(١) كان من ابرز النماذج هذه التحف الزجاجية التى صنعت تقليدا للبلور مجموعة من الكؤوس اصطلح الأوربيون على تسميتها باسم كؤوس هدفيج وتضم المتاحف الاوربية منها حتى الآن ثلاثة عشر كوبا في نورمبرج ومتحف ركس بامستردام وغيرها • ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٣٧ •

(٢) الميناء : مادة كالزجاج نصف شفافة تذاب وتستخدم في زخرفة المعادن كالذهب والفضة والنحاس • زكي محمد حسن : المكنوز الفاطمية ، ص ٣٧ •

(٣) يضم المتحف القبطي بالقاهرة مجموعة من الأواني المختلفة المصنوعة من هذا النوع من الزجاج الأبيض السميك •

كما استمرت فى العصر الفاطمى صناعة الصنج الزجاجية لوزن نقود الذهب والفضة ، ويرجع ذلك الى احتفاظ هذه الأوزان الزجاجية بنظافتها فلا يعلق بها شيء الأمر الذى يجعل الوزن بها دقيقا ، فضلا عن عدم تآكلها. وقد اكتشف فى سمناى احدى قرى جزيرة تنيس فى القرن التاسع الهجرى مجموعة من الصنج الزجاجية مكتوب عليها أسماء الخلفاء الفاطميين ابتداء من الخليفة المعز وحتى الخليفة المستنصر (٤) ، كما أمدنا لينبول ببعض نماذج وأشكال تلك الصنج والكتابات الكوفية المنقوشة عليها أسماء معظم الخلفاء الفاطميين (٥) وكانت هذه الصنج الزجاجية يتم صنعها بدار العيار ويتم بيعها لأصحاب الحرف والصنائع تحت اشراف المحتسب بعد تصحيح عيارها أو وزنها كسائر الصنج والموازين والأكيال الأخرى .

وكانت أكبر مراكز صناعة الزجاج مسابك الزجاج بالفسطاط التى أشار اليها ابن دقماق ، وقد ظلت هذه المسابك فى عملها وانتاج أنواع الزجاج رغم ما أصاب المدينة الكبيرة فى سنوات الشدة العظمى ، وبعد الحريق الذى أمر به الوزير شاور فى خلافة العاضد . وكانت صناعة الزجاج من الصناعات المقلقة للراحة والتى ربما تضر بالصحة ، ولذلك كان يفرد لمسابكها أطراف المدينة ، كما كان يشترط على أصحابها شروط صحية ، مثل سعة الأماكن وتهويتها وارتفاع سقفها ، وكان على والى المدينة أن يشرف على توفير ذلك .

ولعل سوق الزجاجين الذى أشار اليه المقريزى كان يقع بالقرب من منيل الزجاج أو معمل الزجاج الواقع بأرض الحسينية خارج باب الفتوح بالقاهرة ، ولا شك أنه كانت تباع فى هذه السوق كافة أنواع الأوانى والأدوات المصنوعة من الزجاج (٦) .

ومن أسماء الزجاجين الذين نعتقد أنهم زاولوا عملهم بمسابك الزجاج والمعامل التى أشارت اليها المصادر التاريخية ، كان عباس بن نصير

---

(٤) تم اكتشاف هذه المجموعة حوالى سنة ٨٣٧هـ وكان مكتوب على بعضها اسم الامام المعز ، وعلى بعضها اسم الامام العزيز بالله ، ومنها ما عليه اسم الامام الحاكم بأمر الله ومنها ما يحمل اسم الظاهر لاعزاز دين الله ، والمجموعة الكبرى منها تحمل اسم الخليفة المستنصر .

المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٩ ، زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٨٠ .

(٥) أحصى Lane-poole من أسماء الخلفاء الفاطميين التى حملتها تلك القطع من الأوزان الزجاجية مثل الحاكم بأمر الله والخليفة المستنصر ، والآمر بأحكام الله ، وكذلك الظافر والخليفة العاضد .

(٦) استمرت تقريغه عليه رسوم الانتاج حتى العصر المملوكى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٦٤ ، ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ٧ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، جـ ١ ، ص ٤٢٢ .

ابن ابى يوسف جرير بن سعيد البلاوى ، فقد ورد توقيعه على قطعة من الزجاج المشرب بالزرقة من مصر ، ويرجع تاريخها الى حوالى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م .

كما كان من هؤلاء الزجاجين المشهورين فى بداية العصر الفاطمى ، أبو جعفر الوزير أبو الفضل ، فهو كما يذكر المسبحى كان حاذقا فى صناعة الزجاج ، وكانت وفاته فى عهد الخليفة الظاهر فى سنة ٤١٤ هـ/١٠٢٣م .

ومن أسماء محترفى خراطة الزجاج فى ذلك العصر ما تشير اليه شواهد القبور ، منها شاهد يرجع الى سنة ٤٠٢ هـ ويحمل اسم « محمد ابن مرزوق بن رزق الله بن عيسى بن اسحاق بن كامل الزجاج » ، وشاهد آخر يحمل اسم « يوسف بن اسحاق بن كامل » . ومن الشواهد أيضا التى يحتفظ بها متحف الفن الاسلامى شاهد من مصر العليا باسم « معلا ابن أحمد بن رزق » وكانت وفاته فى سنة ٤٢٠ هـ / ابريل ١٠٢٩ م .

ولا شك أن نشاط حركة البناء فى العصر الفاطمى مما تجلى فى القصور والمناظر والمساجد والمشاهد وغيرها ، استلزم الاكثار من مسابك الزجاج لسد حاجة هذه المبانى العديدة من المصابيح والقناديل التى كان لها سوق خاص فى الفسطاط (٧) ، يذكر ناصر خسرو بأنه لا يعرف سوق مثله فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من طرائف .

وهكذا كانت صناعة القناديل أو المصابيح من الصناعات الرائجة فى العصر الفاطمى ، وقد حرص الفاطميون على تزويد الجوامع والمساجد مثل الأزهر وجامع عمرو بن العاص وجامع الحاكم بالكثير من هذه المصابيح، وكان من عادتهم الاكثار من اضاءتها فى ليالى المواسم والأعياد حيث كانت تزيد عن سبعمائة قنديل لجامع عمرو منها مائة قنديل وحده . وكان لأرباب صناعة هذه المصابيح من المهـارة والفن الزخرفى لكى يظهروا روائع مبتكراتهم ، وما يستلزم ذلك من قطع الزجاج المناسب لهذا الفن الزخرفى الرائع .

وكانت قصور الخلفاء والأمراء والأعيـان تضم الآلاف من القطع الزجاجية التى كانوا يستخدمونها فى الأسمطة والأغراض الأخرى ، فضلا عن تلك المصابيح أو القناديل التى تزين تلك القصور ، ومما يذكره المقريزى

---

(٧) سمى بسوق القناديل لكثرة ما كان يصنع ويباع من القناديل كما ذكر انه قد اكتسب اسمه من قيام سكان الحى الواقع به بوضع على باب كل واحد منهم .

سفر نامه ، ص ٥٩ .

انه وجد للسيدة رشيدة ابنة المعز لدين الله نحو مائة قطرميز مملوءة بالكافور ·

وقد حافظت الاسكندرية كاحدى مراكز صناعة الزجاج الهامة فى العصر الفاطمى ، ولم تفقد كل ما كان لها من خطير شأن فى ميدان هذه الصناعة وبعض الصناعات الأخرى · وكشفت الحفائر الأثرية بمنطقة كوم الدكة عن كميات من القطع الزجاجية والبلورية وقطع من الزجاج المزخرف والمموه بالمينا من النوع الشائع فى المشكاوات ·

كما كشفت الحفائر عن العديد من التحف الزجاجية فى كل من قوص وأبيدوس وأخميم وأسيوط والبهنسا واهناسيا وهواره وسقاره وأطفيح وغيرها · ولا يعنى اكتشاف بعض قطع الزجاج على هذا النحو فى تلك المدن أو الجهات أنها كانت مراكز لصناعة الزجاج ، مثلما كان الأمر فى مدن الفيوم والأشمونين والشيخ عبادة بمنطقة مصر الوسطى ·

ويمكن القول بأن اتساع نطاق التجارة الداخلية يجعل من الميسور معرفة أن الكثير مما عثر عليه من القطع الزجاجية قد تم صنعها بعيدا عن أماكن صناعتها · ومن الجدير بالذكر أن التجار المسافرين الى بلاد النوبة كانوا يحملون معهم الكثير من السلع والأوانى الزجاجية والخرز ، كما كانت مصر تصدر من أنواع الزجاج الى البلاد الأوروبية وبلاد المشرق الأقصى · فقد ورد فى أوراق الجنيزة من بين قوائم البضائع التى أرسلت من موانىء البحر الأحمر مجموعات من الأقمشة الحريرية ، وأنواع الزجاج الى بلاد الهند ·

ولا غرو أن أصبحت للسلع والأوانى الزجاجية سوق رائجة فى العالم الخارجى فى العصر الفاطمى ، وذلك لما بلغته من الشهرة ودقة الصنعة وطرق الزخرفة التى مارسها صناع الزجاج ، فقد دلت حفائر الفسطاط على أن هؤلاء الصناع مارسوا الرسم على القطع الزجاجية بالذهب الخالص ، اذ تم العثور على قطع عديدة لم تستخدم فيها رقائق الذهب ، بل تم رسمها وزخرفتها بماء الذهب (٨) ·

وهكذا حافظت مصر على شهرتها فى صناعة أنواع القنينات والقوارير والأطباق والأوانى الزجاجية لحفظ المواد الكيماوية ، كما استطاع الزجاجون أن يصنعوا نوع الزجاج المسمى بالفسيفساء الزجاجية والذى بلغت فيه مصر الذروة فى عصر المماليك ·

---

(٨) يحتفظ المتحف البريطانى بجزء من قنينة عليها زخارف عبارة عن راقصات وأشجار وطيور مرسومة بالذهب ترجع صناعتها الى العصر الفاطمى ·

ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٣٥ ·

الفصل الرابع

الصناعات المعدنية من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى

١ ـ استخراج المعادن والأحجار الكريمة .

٢ ـ صناعة الأدوات والآلات الحديدية والنحاسية وصناعة التكفيت .

٣ ـ صناعة الحلى والمجوهرات .

٤ ـ صناعة سك النقود ودور الضرب المصرية .

٥ ـ صناعة الأسلحة الخفيفة والثقيلة .

الصناعات المعدنية فى مصر الاسلامية

عرف المصريون المعادن المختلفة منذ العصور القديمة (١) ، حيث تم اكتشاف معدن الحديد فى الصحراء الشرقية وفي شبه جزيرة سيناء ، وبالقرب من أسوان وفى واحات الصحراء الغربية • كما كان الرصاص من أقدم الفلزات التى عرفها المصريون القدماء حيث تم اكتشافه فى منطقة جنوبى القصير على شاطىء البحر الأحمر ، وقد استخدم الأكسيد الأحمر للرصاص (السلاقون) لتلوين أحد الجدران منذ العصر اليونانى والرومانى • وقد دلت الأبحاث على أن النحاس والذهب والحديد والرصاص والفضة والقصدير كانت من المعادن الهامة التى استخدمها المصريون منذ قرون طويلة قبل الفتح الاسلامى للبلاد • ولا شك أن المصريين الأقباط قد عرفوا المعادن وغيرها ، وأنهم صنعوا منها التحف المعدنية المختلفة •

---

(١) تعنى كلمة معدن أنها المادة التى تستخرج من المناجم ، وهناك فرق بين المعادن التى تعنى الفلزات بالمعنى الحديث ، والمعادن الأخرى كأحجار البناء والأحجار الكريمة الأخرى • التيفاشى : نزهة الأفكار ، ص ٤١ ـ ٤٢ •

١ ـ استخراج المعادن والحصول على المواد الخام والأحجار الكريمة

دلت الأبحاث أن قدماء المصريين استغلوا مناجم ومعادن تلك البلاد منذ وقت بعيد (١) • وقد وجد الذهب قديما في مصر ، وكانت الطريقة لاستخراجه من خامات بسيطة ، وتتلخص في غسل الرمل والحصى بالماء الحار عند وجود خاماته الطفلية ، فيحمل الماء معه المواد الخفيفة تاركا حبيبات الذهب الثقيلة التي كانت تجمع وتصهر وتتكون منها الكتل الصغيرة •

وكانت خامات الذهب تقع في تلك المنطقة الفسيحة فيما بين وادي النيل والبحر الأحمر في الصحراء الشرقية الممتدة من جنوب طريق قنا ـ القصير الى حدود السودان • كما وجدت عدة مراكز قديمة لاستخراج الذهب على مسافة كبيرة شمال خط عرض قنا ، وهناك مراكز أخرى تقع في بلاد النوبة •

وكانت بيزنطة تعتمد على مناجم الذهب منذ القرن الخامس الى القرن السابع وعلى ما يرد اليها من ذهب النوبة وشمال السودان عن طريق أسوان (٢) •

---

(١) تشير بردية تورين وهي أقدم خريطة في العالم الى مناجم العلاقي على انها اقدم مناطق استخراج الذهب في وادي النيل •

سليم حسن : مصر القديمة ، جـ ٦ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ •

(٢) يرى موريس لمبار أن ذهب مناطق النوبة والعلاقي لم يعد منتظما في القرن السابع الميلادي حيث كان البليميون (ويعني قبائل البجة) يسيطرون على الذهب وارتياد الصحراء الشرقية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وهضبة الحبشة •

الذهب الاسلامي منذ القرن السابع ، ص ٥٤ •

وهناك من يرى أن الفضة والذهب التى استخدمت خاماتها في سك النقود وفى صناعة الحلى انما تم جلبها من الخارج ، ولم يكن يوجد فى مصر خلال العصر البيزنطى سوى أعمال التعدين فى مناجم الحديد والنحاس التى حظيت بشهرة واسعة فى ذلك الحين ٠

وربما انطبق ذلك على معدن الفضة التى كانت من أندر المعادن وأنفسها عند المصريين القدماء لقلة توفرها ، على عكس الذهب الذى كان متوفرا فى مصر الفرعونية ، خاصة فى الصحراء الشرقية فيما يلى قفط من وادي الحمامات وعند أم الروس عند ساحل البحر الأحمر وفى مناجم النوبة (٣) ٠ وليس هناك ما يدل على توقف استمرار البحث من أجل الحصول على الذهب من تلك المناطق قبل الفتح العربى للبلاد ٠

ومن المعروف أن السيطرة علي بلاد النوبة بدأت مع الفتح العربى ، فقد وجه عبد الله بن سعد بن أبي سرح حملاته عام ٣١ هـ التي وصلت الي دنقلة ، وانتهى القتال بعقد معاهدة تجارية تفتح بلاد الطرفين أمام رعاياهما ٠ غير أن استغلال ذهب النوبة لم يبدأ الا بعد اخضاع قبائل البجة الضاربة فى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، وكانت تعمل على قطع الطريق للحصول على الذهب فى أواخر العصر البيزنطي ، فصالحهم عبد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر في خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) ومن ثم أمكن استغلال مناجم الذهب هنـــاك ٠

ولما نزح العرب الي بلاد البجة وخاصة عرب ربيعة عرفوا طريقهم الي هذه المناجم وعملوا علي استخراج التبر من المنطقة التي عرفت باسم العلاقى ٠ ويذكر اليعقوبى عدة مواضع لمعدن التبر كانت توجد جنوب أسوان وتنتهى الى وادى العلاقي يقصدها أصحاب المطالب من العرب فيجتمعون فى الوادى الذى صار كالمدينة العظيمة على حد قوله ، وبها الأسواق والتجارات ٠

وحدث أن ثارت قبائل البجة عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، وامتنعت عن دفع الجزية وهاجمت الصعيد عند مدينتى اسنا وادفو ونهبوهما وطردوا أهلهما منهما ٠ فكتب بذلك عنبسه بن اسحق العبسى « والى مصر » آنذاك

---

(٣) كانت مناجم النوبة وحدها تغل على البلاد ما يقدر فى المتوسط بمائتين وسبعة عشر كيلوجراما من الذهب كل عام ٠ أحمد عبد الحميد يوسف : مصر فى القرآن والسنة ، ص ١٧٢ ٠

الى الخليفة المتوكل ، فأرسلت حملة كبيرة عن طريق النيل ، وأخرى عن طريق البحر الأحمر واستطاعت اخماد الثورة واخضاع بلاد البجة •

وقد استطاع العرب بعد توقيع الصلح الذى عقده عبد الله القمى مع البجة وايقاف غارتهم على الصعيد ، أن يواصلوا العمل فى مناجم الذهب ومعادن الزمرد دون خوف من تعرض البجة لهم • واجتذبت حالة الهدوء والأمن جماعات عربية أخرى جاءت تبحث عن الثروة • ولم يقتصر الأمر على ربيعة التى أدت مصاهرتهم بعد ذلك مع أهل البجة واستيلائهم على معدن الذهب بالعلاقى الى اتساع نفوذهم وكثرة أموالهم بل توافدت موجات من بنى سليم وغيرهم التى استقرت فى مراكز عدة نزلوا بها لاستخراج معادن التبر بها (٤) •

أما عن طريقة استخراج الذهب ، فلم تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل نزوح قبائل ربيعة وغيرها من القبائل الى تلك المنطقة ، فكان الناس هناك يتجولون فى الليالى التى يضعف فيها ضوء القمر ويعلمون على المواضع التى يرون فيها شيئا مضيئا بعلامات يعرفونها ، ويبيتون هناك • فلاذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التى علموا عليها ومضوا بها الى آبار هناك ليغسلوها بالماء ويستخرجوا منها التبر ، ثم يقمون بمزجه بالزئبق ويسبكونه بعد ذلك (٥) •

والواقع أن الحصول على الذهب لم يقتصر منذ الفتح العربى على استخراجه من تلك المناطق ، بل تشير المصادر الى الكنوز والدفائن التى كان يحتفظ بها الأقباط المصريين واستيلاء الحكام العرب عليها ، فقد ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر : ان من كتمنى كنزا عنده فقدرت عليه قتلته •

وتشير الروايات الى كثرة الكنوز التى صادرها عمرو بن العاص من قبط مصر •

---

(٤) ذكر المقريزى : من المراكز التى نزلت بها قبائل العرب موضع يقال له الشكرى وآخر يقال له « الكلبى » وموضع ثالث أطلق عليه اسم « العجلى » ولعل هذه الأسماء ترجع الى رؤساء القبائل التى نزلت وخالطت قبائل ربيعة الذين هاجروا الى أرض المعدن وذرياتهم فى أعداد كبيرة •

البيان والاعراب ، ص ١٦٣ •

(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ٢ ، ص ٣٦٩ ، محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ •

وثمة مورد آخر من موارد الثروة استغله الفاتحون في مصر وهو الكنوز المدفونة في المقابر الفرعونية . اذ يذكر المؤرخون أنه منذ أوائل الحكم العربي وحتى القرن الحادي عشر الميلادي عثر على الكثير من هذه الكنوز ، فمن ذلك أنه أمكن العثور في عهد عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٥ هـ) على تماثيل من أنواع الصور المختلفة المصنوعة من الذهب، وعلى أجربة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها وتم احكام غلقها بأعمدة من الذهب الخالص (٦) .

وفي عهد الطولونيين والإخشيديين زادت الهجرات العربية الى بلاد البجة ، وكان يهدف أحمد بن طولون من وراء تشجيع الهجرة الى تلك البلاد إبعاد عدد كبير من القبائل العربية التي نزحت الى مصر في تلك الفترة ، والعمل على تأديب النوبة والبجة وكف هجومهم على بلاد المسلمين . ويروى المسعودي وهو مؤرخ معاصر ما تم من عملية الاندماج بين قبائل ربيعة بالبجة وما أدت اليه المصاهرة والتزاوج بين رؤساء ربيعة من بناء رؤساء البجة ، من اتساع نفوذها وزيادة ثروتها ، كما صارت لهم بلاد البجة مرافق ، واختطوا لهم بها قرية تعرف بالنمايس حفروا بها آبارا . وهكذا استقرت أعدادا كبيرة من قبائل ربيعة وجهينة ، وزادت أعمال البحث والحصول على المزيد من الذهب .

كما تشير المصادر التاريخية الى أعمال البحث عن الكنوز في مصر وزيادة الاهتمام بها منذ عهد ابن طولون ٢٥٤ ـ ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ ـ ٨٨٣ م حيث أصبحت تتولاها السلطة الحاكمة ، وكون أصحاب المطالب أو الباحثون عن الكنوز نقابة حقيقية من نقابات الحرف ، وصارت خاضعة للضريبة كسائر الحرف الأخرى .

ومما يذكر أنه تم العثور على كنز قدره بألف ألف دينار (٧) أيام ابن طولون ، وهو ما شاع ذكره بحديث الكنز .

---

(٦) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ . ويذكر المسعودي أن الأمير عبد العزيز بن مروان بذل آلاف الدنانير لأجرة العمال وزاد في عددهم وأوسع في النفقة عليهم من أجل البحث عن الدفائن والكنوز الفرعونية . نفس المصدر ، ص ٣٦٦ .

(٧) يقول موريس لمبار : ان مليون دينار تساوي اربعة آلاف كيلوجرام من الذهب ويردف قائلا في تعليقه على كنز ابن طولون : « لكنا لا يجب أن نتهم المؤرخ الذي اورد لنا هذه الحادثة بالمبالغة التي عرف بها الشرق ، اذ أنه في عهدنا هذا قدر وزن الذهب الصافي في كنوز مقبرة توت عنخ آمون بضعف الغطاء الذهبي في البنك الأهلي المصري ، الذهب الاسلامي منذ القرن السابع ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

ويتحدث المسعودي عن إستمرار البحث فى عهد الاخشيديين فمن ذلك ما قيل أنه فى باطن الأهرام مطلبا عجبا ، وصار خبره الى محمد ابن طغج الاخشيد ، فأذن لهم فى حفره وذلك فى سنة ٣٢٨ هـ ، ولكن عمال الحفائر لم يعثروا على الكنوز من الذهب ، وانما بعض الصور من أنواع الجواهر كالياقوت والزبرجد والفيروز والزبرجد وغير ذلك من الآلات من المرمر والرخام .

ومن المصادر التى حصلت منها الادارة العربية على الذهب تلك الثروات التى تجمعها فى كنوز الكنائس المصرية والسورية ، وخير دليل على ذلك ما أشار اليه يحيى بن سعيد الانطاكى حينما تم فتح خزائن كنيسة تنيس فى أوائل حكم الاخشيديين ، فقد أخرج سائر آلاتها وجمع صياغاتها ونحاسها وستورها عن آخرها وكانت من الوفرة بمكان حتى أن ذهبها فضتها لكثرتها تم وزنها فى القرسطون (٨) وكما يقول يحيى ابن سعيد : « وعظم تعجب من حفر من المخالفين فى الديانة من كثرة ما شاهدوا ورأوا فيها » ويعنى المسلمين ، وهكذا عادت كميات ضخمة من الذهب المدفون داخل الكنائس والتى كانت تجمعت منذ قرون الى الدورة النقدية بعد قيام دور الضرب وغيرها بسكها من جديد .

وفى عهد الفاطميين ، ظلت موارد الذهب فى العلاقى متوفرة ، وقد أشرفت الدولة على هؤلاء المشتغلين باستخراج الذهب من بنى الكنز وغيرهم، يقول موريس لمبار : « فعاد الحال الى ما كان عليه من ازدهار استغلال الذهب فى عهد البطالمة » ولم تتوقف الجهود المبذولة من أجل الحصول على معدن الذهب النفيس الا حينما بدأت موارد هذه المنطقة فى النضوب فى أواخر أيام الفاطميين ، حيث زهد هؤلاء فى الاقامة بصحراء مصر الشرقية ، وبدأوا فى الرحيل عنها نحو بلاد النوبة والسودان فى بداية حكم الأيوبيين للبلاد .

وكان الفاطميون فى بداية القرن الرابع الهجرى وقبل مجيئهم الى مصر ، قد أصبحوا سادة طرق الذهب الوارد من السودان وأعماق أفريقيا ، وصارت لديهم المقادير الهائلة من الذهب ، حيث خصصوا مبالغ ضخمة لدعايتهم فى وادى النيل منها . وقيل انه لما قدم المعز لدين الله الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ حمل معه من السبائك الذهبية فى هيئة أحجار الطواحين المستديرة ليسهل حملها على الجمال ، كما ذكر أن القائد جوهر فى غزوته

---

(٨) القرسطون : لعله نوع من الموازين الكبيرة مثل الميزان القبانى فى عصرنا الحاضر .

من أجل فتح مصر حمل معه ألف حمل من الذهب (٩) • وهكذا كان دخول الفاطميين للبلاد يحملون معهم تلك المقادير الضخمة من الذهب وقيام دولتهم في مصر من أهم العوامل التي أدت الى وفرة الثروة من هذا المعدن النفيس •

ومن وادى العلاقى كان يحمل التبر خلال العصر الفاطمي بعد سبكه الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر ، حيث يأتي التجار فيجلبونه وغيره من العاج واللؤلؤ في المراكب الى القلزم ومنها الى الفسطاط •

أما عملية صهر المعادن وصبها ، فكانت معروفة لدى المصريين منذ عصورهم القديمة (١٠) • وقد ساعد على ذلك معرفة تحضير الفحم النباتي في الصحراء الشرقية موطن المعادن النفيسة ، وفي شبه جزيرة سيناء المصرية (١١) ، كما تمكن المصريون من صهر خامات الحديد بالقرب من الاسكندرية وخير دليل على ذلك ما وجد من آثار لأعمال الصهر التي قام بها الصناع المصريون في القرن السادس الميلادي وقبل الفتح العربي لمصر •

ومن المحقق أن خبرة المصريين العالية في صهر المعادن ، واجادتهم لتشكيل الذهب والنحاس والرصاص والفضة والبرونز والقصدير (١٢) ،

(٩) ويذكر المقريزى أنه حينما عبرت عساكر القائد جوهر الى الفسطاط ومعهم صناديق المال على البغال ، قيل ان المال كان في ألف وخمسمائة صندوق ، اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٥٨ ، تحقيق الشيال •

(١٠) تظهر عملية صب المعادن في النقوش المصورة على جدران مقبرة رخمارع بطيبة من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وهي تمثل صنع بابين لمعبد آمون بالكرنك وكان المصريون يصهرون المعادن في قوالب مفتوحة أو يحيلونها بالطرق الى صفائح رقيقة وكانت رقائق النحاس تتخذ في كساء التماثيل المصنوعة من الخشب أو صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية• ولم يجد صناع النحاس صعوبة في صنع الأنابيب النحاسية لكي تستخدم في التخلص من مياه الأمطار التي تتساقط فوق أسطح معابد الملوك في مصر القديمة ، بترى : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، ص ٢٦٧ ، لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٧٢٢ ، هولمز : قصة الكيمياء ، ص ٧ •

(١١) كان صنع الفحم النباتي نتيجة طبيعية لحرق الخشب ، ومن العسير أن نتصور أنه بدون فحم الخشب أن يكون هناك تقدم في صناعات التعدين أبعد من هذه الطرق البدائية ، ويذكر لوكاس أنه لا تزال هذه الصناعة وهي تحضير الفحم النباتي باقية في هاتين المنطقتين حتى الآن وان كانت بشكل محدود للغاية ، وأنه كان لهذه الصناعة أبلغ الأثر في انقراض أشجار هاتين المنطقتين ، المواد والصناعات ص ٧٢٢ — ٧٢٣ •

(١٢) مما يدل على ذلك أن بائع القصدير خلال العصر الروماني والبيزنطي كان عليه أن يدفع ضريبة شهرية قدرها ١٦ دراخمة •

Milne : A History of Egypt under rule, p. 156.

وكذلك وفرة عدد السباكين الذين كانوا يعملون بمدينة اكسيرنخوس (البهنسا) في العصر البيزنطي ، وغيرهم من صناع أدوات الزينة والحلي في بانوبوليس (اخميم) وغيرها •

Johnson : Economic Studies, p.p. 109, 118-119.

كانت خير عون لهم فى سبيل صنع وانتاج كافة الأدوات والآلات المعدنية منذ فجر الاسلام ، وفى تقدم وازدهار تلك الصناعات المعدنية حتى عصر الفاطميين ٠

ومن خير الأمثلة على ذلك ما قام به الصناع المصريون فى عهد خمارويه ابن أحمد بن طولون حينما صهروا النحاس وكسوا به أجسام النخل ، وجعلوا بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر ، فجاءت فى أحسن صـنعة وما تم استخدامه من معادن النحاس والذهب والفضة فى صناعة المرصد الفلكى حين أراد المأمون البطائحى فى عهد الآمر بأحكام الله اعادة بنائه (١٣) ، وقد ذكر المقريزى أن المأمون أراد أن يستكمل ما قام به الأفضل من قبل ، وذلك حينما تم اختيـار مكان الرصد فوق جبل المقطم ثم عدلوا عنه الى الموضع الواقع بالقرب من مسجد الفيلة ٠ وقيل انه احتاج الى اطلاق مائتى قنطار من النحاس النجر ، وثمانين قنطارا من النحاس القضيب الأندلسى ، وأربعين قنطارا من النحاس الأحمر، ومن الرصـاص ألف قنطار ، ومن الحطب ومن الحـديد والفولاذ من دار الصناعة لعله يحتاج اليه ٠ وقد حضر الأفضل أعمال صهر تلك المعـادن وصبها فى الأشكال المطلوبة ، وكان من جملة ما رمى به الى الصناع كيس فيه ألف درهم ٠

ولا شك أن ما تطلبته أعمال اقامة المرصد الفلكى ، وما أحضر له من جميع صناع النحاس ومن سائر الصناع والمهندسين ، فضلا عن تلك المقادير الكبيرة من المعادن المختلفة ، توضح لنا مدى ما بلغه هؤلاء الصناع من خبرة فائقة بصهر أنواع النحاس والحديد والفولاذ فى ذلك العصر (١٤) ٠

لم تقتصر أعمال التعدين فى مصر منذ فجر الاسلام على استخراج

---

(١٣) ذكر ابن دقماق ان الحاكم بأمر الله أمر ببناء المرصد بالقرب من القصر المعروف بباب اليون وذلك فى سنة ٤٠٣هـ ، ثم ان المأمون البطائحى عمل على نقله الى مكان بالقرب من باب النصر ، وكانت قد فسدت واتلفت آلاته واصبحت الحاجة تدعو الى بنائه من جديد وما يتطلب ذلك من النحاس والذهب والفضة ٠ الانتصار : ج ٤ ، ص ٥٨ ٠

(١٤) يعتبر النحاس من أقدم المعادن التى عرفها الانسان المصرى القديم ، وقد أمكن استخلاصه من شوائبه بعد أن أمكن العثور عليه فى شبه جزيرة سيناء ٠ وفى القرن الأول الميلادى كان النحاس الأصفر يرسل بالسفن عن طريق البحر الأحمر من مصر الى بلاد النوبة والسودان ، ومن مواضع صهر النحاس القديمة فى مصر احدى نواحى الفيوم ، حيث أطلق عليها فى العصر الاسلامى المبكر كوم مدينة النحاس ٠

لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٣٦٠ ، محمد رمزى : القـاموس الجغرافى ، ج ١ ، ص ٣٩٨ ٠

الذهب أو النحاس والرصاص وغيرها من أنواع الفلزات بالمعنى الحديث ، واشتغال المصريين بصهرها فى المسابك وتشكيلها وفقـا لما تطلبته حاجة الصناعات المعدنية ، بل يذكر المؤرخون أنه كان من فضائل مصر وجود الأحجار الكريمة مثل الزمرد والزبرجد والياقوت واللؤلؤ وأنواع أخرى من المعادن ، خاصة فى منطقة الصعيد الأعلى ٠

ويحدد اليعقوبى المواضع التى قام المصريون باستخراج معدن الزمرد منها فيقول : فهو على بعد ثمانى مراحل من قفط ، ويستخرج من جبلين عرف أحدهما بالعروس والآخر بالخصوم ٠ كما يصف المسعودى طريقة استخراج الزمرد ، حيث كان العمال يحفرون عليه فى الجبل ، فيجدونه على شكل عروق خضر فى تجاويف الأحجار البيضاء (١٥) ، ويتم اخراجه واستخلاصه على هيئة قطع صغيرة كالحصباء منبثة فى تراب المعدن ، وكان عمال مناجم الزمرد ينخلون التراب ثم يوجـد خلاله فيغسل كما يغسل تراب الفضة (١٦) ، وكان يجمع ما يستخرج من هذا المعدن النفيس ويصدر الى الفسطاط وقد أصبح من أهم موارد الثروة فى صعيد مصر ٠ ويذكر ابن فضل الله العمرى أنه كان له مباشرون وأمناء من جهة السلطان يتولون استخراجه وتحصيله ولهم جوامك على ذلك ٠

ولم يزل استخراج الزمرد حتى أيام الناصر محمد بن قلاوون وكان من أفضل أنواعه ، وقد اشتهرت به مصر الاسلامية ، ومنها كان يحمل الى سائر بلاد الدنيا ٠

ومن الأحجار الكريمة التى اشتغل المصريون باستخراجها من منطقة صعيد مصر ومناجمها ، نوع الزبرجد ، وهو أقل وجودا وندرة من الزمرد ، ويشير ابن حوقل الى موضع استخراجه فيقول : « انه فى برية منقطعة العمارة ليس فى الأرض غيره » (١٧) ويتحدث الجاحظ عن أوصافه فى

---

(١٥) ويذكر المسعودى أن الزمرد كمعدن ينقسم الى أربعة أنواع تبعا لأوصافه فمنها النوع الذى يعرف بالمر وهو أعلاها والنوع الثانى البحرى ، والثالث المغربى ، أما النوع الرابع فقد عرف باسم المكى ، ومبلغ الغدسة منه عشرة دنانير ، وكان الزمرد المصرى ينافس الزمرد الهندى ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، الطبعة الرابعة يونيو ١٩٦٤ ٠

(١٦) ويذكر التيفاشى مصادر الزمرد على وجه الدقة فى مصر ، فيقول : « وهى سلسلة جبال الصحراء الشرقية المحصورة بين البحر الأحمر ونهر النيل فى صخور الشـيست ، ولا تزال بعض هذه المناجم تنتج حتى الآن » ٠

ازهار الأفكار ، ص ٢٥٤ ٠

(١٧) ويحدد التيفاشى مناجم الزبرجد فهو يذكر أنها كانت فى جزيرة سان جونز المصرية بالبحر الأحمر ، وفى منطقة جبل زبارا جنوب القصير فى صخور الشيست البركانى ، ويقول : « وهو المكان الوحيد فى العالم الذى به بلورات بالحجم الكبير الذى يسمح باستخدامها فى أغراض الحلى وصناعات المجوهرات ٠ ازهار الأفكار ، ص ٢٥٦ ٠

Johnson : Economic Studies ,pp. 110-111.

صدر الاسلام فهو يقول : « وخير الزبرجد الشديد الخضرة الصافى الجوهر ، ومعرفة الزبرجد الفائق المعمول المتحد كمعرفة اليواقيت برزانة وبرودة مذاقه وعمل المبرد فيه على مهل » وكان لا يوجد منه الا فى خزانة بعض الخلفاء العباسيين .

ونقل التيفاشى عن البيرونى أن الزمرد والزبرجد اسمان يترادفان على معنى واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر فى الجودة والندرة ، ولكن أهل الصناعة فانهم يميزون بينهما ، فلا شك أن الزمرد فى تركيبه الكيميائى يختلف عن الزبرجد (١٨) ، ويصف التيفاشى لون معدن الزبرجد فمنه أخضر مغلوق اللون ومنه أخضر مفتوح اللون ، ومنه معتدل الخضرة ، رقيق المستشف وكانت الهند والفرنج تعظمه . وقد ظل المصريون يستخرجون هذا النوع من الزبرجد النادر حتى عام ٦٤٠ هـ أو ما قبل ذلك بقليل ، كما يقول التيفاشى : « وأما فى هذا التاريخ الذى وضعه فيه هذا الكتاب وهو عام ٦٤٠ هـ فانه لا يوجد فى المبدأ أصلا ، وانما الموجود منه يستخرج بالنبش من الآثار القديمة التى بثغر الاسكندرية » وهكذا يمكن القول بأنه حتى زوال الدولة الفاطمية كانت مصر تعمل على استخراجه وتشتغل بتجارته ولها الشهرة فى مجال تصديره الى الخارج (١٩) .

وكما تشير المصادر الى استخراج الياقوت من مناجم الذهب التى كانت تقع فى المنطقة الممتدة بين نواحى قفط وساحل البحر الأحمر أو ما أطلق عليها فى العصر الحديث بجبل زبارا (٢٠) ، ولم يتحدث عنه المؤرخون المسلمون كسائر الأحجار الكريمة أو النفيسة مثل الزمرد والزبرجد أو اللؤلؤ ، وعن اشتغال أهل الصعيد الأعلى باستخراجه من مناجمه ، كما أشار التيفاشى مثلا الى استخراجه من جزيرة خلف سرنديب .

وعلى كل حال فان استخراج الياقوت والاشتغال به لم يكن عملا اقتصاديا يذكر كما هو الحال بالنسبة للمعدن المعروف باللؤلؤ ، فقد كان

---

(١٨) فالزمرد تركيبه الكيميائى من سليكات البريليوم والالومنيوم بصلادة قدرها ٧ر٥ ، وكثافة نوعية ٢ر٧ ومعامل انكسار ١ر٥٧ ، أما الزبرجد فيتكون من سليكات الماغنسيوم والحديد ودرجة صلادته ٦ر٥ – ٧ ومعامل انكسار الضوء فيه ١ر٦ – ١ر٧ وكثافته النوعية ٣ر٢ وتتميز عنه بلون أخضر صافى . التيفاشى : ازهار الأفكار ، ص ٢٥٥ .

(١٩) يتحدث عنه الجاحظ وشهرة مصر به خلال القرن الثالث الهجرى فهو يقول : « ومن مصر المعدن الزبرجد الفائق .. » التبصر بالتجارة ، ص ٣٥ .

(٢٠) كان الياقوت من بين المعادن النفيسة التى اشار اليها Heliororus فى معرض حديثه عن المناجم والحفائر التى كان يعمل بها المصريون خلال القرن الرابع الميلادى .
Johnson : Ibid, p. 110.

من بين موارد الثروة التى عنى باستغلالها فى منطقة البحر الأحمر (٢١) . ويشير ابن جبير الى اهتمام أهل عيذاب فى العصر الاسلامى باستخراجه من الجزائر القريبة من ساحل البحر الأحمر ، حيث كان يخرج الغائصون الى تلك الجزر فى زوارق يقيمون فيها أياما ، فيستخرجون اللؤلؤ من قاع البحـر وهو جوهر نفيس له قيمـة عظيمة ، فكانوا يجمعون منه الشيء الكثير .

ويظهر أن نوع اللؤلؤ المستخرج من البحر الأحمر لم يكن ينافس اللؤلؤ الصافى العمانى فى جودته ، أو فى ثمنه الذى كان يباع به لدى الجواهرجيين فى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية (٢٢) . ولكن يبدو أن أهل عيذاب كانوا يستخرجون منه المقادير الكبيرة التى تدر عليهم أموالا طائلة خلال العصر الفاطمى .

ومن المعـادن التى اشتهرت بها مصر فى العصور الاسلامية الشب والنطرون ، فلم يقتصر الأمر على استخراج المعادن النفيسة أو الأحجار الجريمة ، بل عرف عمال المناجم سبيلهم الى استخراج معدن الشب من الواحات الخارجة بالقرب من مدينة أسوان (٢٣) ، وكان يتكلف استخراج القنطار منها ما يوازى ثلاثين درهما أو أقل من ذلك . وتهبط به العرب الى سواحل النيل عند قوص واخميم وأسيوط ، وكذلك من الواحات حيث يتم استخراجه الى البهنسا ، ثم يحمل من هذه السواحل جميعهـا فى المراكب الى الاسكندرية .

وكان معدن الشب من بين الموارد التى احتكرت الحكومة الفاطمية عملية استغلالها تماما ، وكان ما يباع منه فى المتجر بالاسكندرية نحـو خمسة آلاف قنطار ، وسعره من خمسة دنانير الى خمسة دنانير وربع لكل

(٢١) ويوضح لنا الجاحظ انواع اللؤلؤ المعروف فى عصره فيقـول : « وخير اللؤلؤ الصافى العمانى المستوى الجيد ، فهو أنفس وارفع من القلزمى (أى المستخرج من البحر الأحمر قرب القلزم) واذا بلغت الحبة نصف مثقال سميت درة ، والمدحرجة المعتدلة فى التدور ، اذا بلغ وزنها نصف مثقال وبما بلغت فى الثمن ألف مثقـال من الذهب . والبيضية (أى ذات الشكل البيضاوى) دون ذلك فى الثمن . التبصر بالتجارة ، ص ١٧ .

(٢٢) ذكر التيفاشى المتوفى سنة ٦٥١هـ أن اللؤلؤ القلزمى ولو كانت الدرة منه فى نهاية الكبر فانها لا يكون لها طائل فى الثمن اذ ليس فيها شيء من أوصاف الدر الثمين . أزهار الأفكار ، ص ٤٩ .

(٢٣) من الجدير بالذكر أن الواحات القريبة ظلت كورة جليلة ذات أشجار ومزارع حتى عصر الطولونيين والاخشيديين ، ويشير المقدسى الى ذلك فيقول : « والى اليوم يوجد فيها صنوف الثمار والأغنام والنعم قد توحشت » أحسن التقاسيم ، ص ٢٠١ .

قنطار ، ولم يكن يباع منه بالقاهرة أكثر من ثمانين قنطارا بسعر القنطار سبعة دنانير ونصف • وهكذا كان يدر على الدولة الفاطمية عائدا كبيرا بفضل سياسة الاحتكار التى اتبعوها •

أما عن معدن النطـرون (٢٤) فكان يستغل من منطقتين احـداهما تسمى الطرانة من أعمال البحيرة بالوجه البحرى ، ويذكر صاحب التعريف أنه لا يعلم فى الدنيا بقعة صغيرة يستغل منها أكثر مما يستغل منها ، فانها نحو مائة فدان تغل نحو مائة ألف دينار فى كل سنة •

أما المنطقـة الثانية التى يتم استخراج النطرون منها فهى منطقـة فاقوس بشرق الدلتا ، ولم يكن من الجودة كالمستخرج من منطقة الطرانة ، وهناك مكان آخـر كان يوجـد به رواسب للنطرون بالقرب من البهنسا بالوجه القبلى وتبلغ مساحته حوالى المائة فدان • وقد قيل عنه انه بدىء فى استغلاله منذ عهد أحمد بن طولون (٢٥٤ ـ ٢٧٠ هـ) وأن الايراد السنوى الناتج منه كان يربو على الخمسين ألف دينار •

وكان استخراج النطرون مباحا للناس منذ الفتح العربى ، وكان أول من حظر عليه هو أحمد بن مدبر ، وجعله فى ديوان السلطان ، وظل كذلك حتى عصر المماليك ، وقد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه فى كل سنة عشرة آلاف قنطار ويعطى الضمان منها فى كل سـنة قدر ثلاثين قنطار يتسلمونها من الطرانة فتباع فى مصر •

ويذكر ابن مماتى أن اسـتخراج النطرون كـان فى طور محدود سنة عشرة آلاف قنطار ، ويعطى الضمان منها فى كل سنة قدر ثلاثين لا يتصرف فيه غير المستخدمين من جهـة الديوان ، وكان ينفق على كل قنطار منه درهمان ، مما يدل على ضعف الأجور التى كان يتقاضاها العمال أو الأجراء ممن يعملون فى مناطق استغلال النطرون • وكان ثمن القنطار منه بالفسطاط أو الاسكندرية لضيق الحاجة اليه سبعين درهما •

وكان أكثر المهتمين باستخراجه وحمله الى الجهات التى يباع فيها هم العربان خلال العصر الفاطمى ، يقول ابن مماتى : « والعادة المستقرة أنه متى اتفق من الديوان مع العربان على أجرة حمولة عشرة آلاف قنطار ألزموا بحمـل خمسـة عشرة ألف قنطـار ، حسابا عن كل قنطـار

---

(٢٤) النطرون مادة طبيعية تتركب من كربونات الصوديوم وبيكربونات الصوديوم ويوجد النطرون فى مصر فى الوقت الحاضر فى ثلاث مناطق وهى وادى النطرون ومديريه البحيرة وفى الكاب بالوجه القبلى • لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٤٠٠ •

ونصف ، مما يدل على وفرة انتاجه والزام الذين يتكفلونه بالنقل العمل على حمل النصف تقريبا بدون أجرة تدفع لهم ٠

ومن الجدير بالذكر أن معدنى النطرون والشب من المواد الهامة التى كانت تستخدم فى كثير من الحرف والصناعات ، وعلى الأخص حرفة الصباغة وصناعة الألوان ٠

٢ ـ صناعة الأدوات والآلات الحديدية والنحاسية وفن التكفيت

أشرنا من قبل الى أنواع المعادن التى أمكن للمصريين استخراجها منذ الفتح العربى لمصر ، ويجدر بنا أن نشير الى أنواع المعادن التى كانت مصر تحصل عليها من الخارج والتى تدخل فى صناعة الآلات والأدوات التى قام بصنعها الحدادون والنحاسون أو الصفارون وغيرهم من صناع الأدوات الحديدية والنحاسية فى مصر الاسلامية .

وتكاد تجمع المصادر العربية على أن معادن الفضة والحديد والرصاص والنحاس كانت تستوردها مصر من خارج البلاد (١) ، ولم يكن المستخرج منها فى العصر الاسلامى يكفى حاجة مسابك النحاس وغيرها مما تطلبته هذه الصناعات المعدنية المختلفة . ويبدو أن الصناعة المصرية لم يكن يتعذر عليها الحصول على المواد الخام مثل الحديد والنحاس والزئبق وغيرها فى أعقاب الفتوحات الاسلامية ، لا سيما وأن الجهات التى أشار اليها الجغرافيون والرحالة أصبحت فى حوزة الدولة الاسلامية ، وكانت تنتج من أنواع

(١) على الرغم من وجود خامات الحديد فى بعض المناطق المصرية ، الا أن هناك من الدلائل ما يشير الى حصول الملك توت عنخ آمون على خنجر من الحديد وكمية أخرى من الحديد قد اهديت له من أحد ملوك غرب آسيا موطن صناعة الحديد اذ ذاك . ويقول : لوكاس « ولابد أن الحديد كان نادر الوجود أيضا فى كل من سوريا وفلسطين حتى نهاية الأسرة الثامنة عشر على الأقل : المواد والصناعات ، ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ .

المعادن مما يكفى لمصر وغيرها من الولايات الاسلامية فى عصر الولاه والعصور اللاحقة (٢) •

يعزز ذلك مما أوضحه اليعقوبى من أنه كانت توجد بمدينة مجانة بالقرب من مدينة القيروان معادن الفضة والكحل والحديد والرصاص ، كما أشـار كل من الادريسي والقزويني الى مدينة بجاية بالمغرب الواقعة على ساحل البحر المتوسط وكان بها مناجم للحديد الطيب ، ويصف القزويني بلاد القيروان بأنها تضـم معـادن الفضة والحديد والنحاس والرصاص ، ويتحدث عن جزيرة صقلية وخيراتها التى فتحها المسلمون خلال القرن الثالث الهجرى ما بين عامى ٢١٢ هـ ـ ٢٩٦ هـ ، ويخص بالذكر معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وكذا معدن الشب والزئبق ، وكلها من المواد الداخلة فى الصناعات المعدنية •

ويذكر ابن حوقل أنه كانت تجلب من الأندلس من أنواع التجارة معادن الحديد والرصاص وضروب من القرش كقطع الأرمنى ، كما يشير الى وجود معدن الحديد بمدينة بونه المغربية بكميات وفيرة ، ولم تقتصر بلاد المغرب فى صدر الاسلام على إستخراج مواد الحديد بل كانت هناك المسابك الخاصة بالحديد والنحاس ، كما هو الحال فى مدينة فاس المغربية •

ويوضح كل من ابن زولاق والمقدسى حركة النشاط التجارى بين مصر والمغرب والأندلس خلال القرن الرابع الهجرى وما كانت تستورده أيضا من بلاد المشرق الاسلامى ، يقول ابن زولاق وتحمل الى مصر من بلاد المغرب معادن الحديد والنحاس والفضة والرصاص والقصدير وغير ذلك من سائر المواد • وكان يحمل من تجارة اليمن وعدن الى القلزم من أنواع الصبر والحديد والرصاص والصندل والبلور والفلفل • كما كانت تستورد من بلاد الشام من نوع الرصاص الجيد ، يقول عنه ياقوت : « ليس فى الدنيا معدن الرصاص القلعى الا فى هذه القلعة (٣) » •

وكما كان يستورد من بلاد المشرق الاسلامى مواد الحديد والنحاس والفضـة وخاصـة من بـلاد فارس والهند ، وكان الحديد أكثر ما يؤخذ

---

(٢) يرجع تاريخ أقدم دليل لاستيراد النحاس من الخارج ـ فيما عدا شبه جزيرة سيناء ـ الى الأسرة الثامنة عشرة ، اذ كان النحاس يرسل الى مصر من جهات سوريا وغرب آسيا • كما عثر على لوحة يرجع تاريخها الى حكم أحد ملوك الأسرة الثانية عشر ، ذكر عليها أن الملك قد كلف موظفا معينا اسمه حورس أن يحضر نحاسا من بلاد النوبة • نفس المرجع ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ •

(٣) يشير ياقوت الى احدى جبال الشام وكان يسمى القلعة وكان يوجد بها نوع من الرصاص الجيد • معجم البلدان ، ص ٧٨ ، ١٤٨ •

منها (٤) ، كذلك من اقليم سفالة (موزمبيق) وكانت مناجمه تستغل ويؤخذ منها الى الهند للصناعة ومن أوراق الجنيزة التى ترجع الى العصر الفاطمى يمكن معرفة المواد المختلفة التى كانت تصدر الى مصر كمادة خام الحديد والصلب غير المصنعة الى الفسطاط ٠

وهكذا توفرت مصادر الحديد والنحاس وغيرهما من الخامات اللازمة للصناعات المعدنية ، ولا شك أن وفرة المعادن والعمل على استخراجها سواء من بلاد المغرب والأندلس ، أو ما تم استخراجه من مصر وبلاد الشام والمشرق الاسلامى ، انما يعنى إهتمام الحكام والخلفاء المسلمين وتكريس الجهود من أجل صناعة الآلات والمعدات التى تطلبتها مستلزمات الحضارة وسائر الفنون ، وخاصة مطالب الزراعة والصناعة والعلوم ٠

وقد احتفظت الاسكندرية بعد الفتح العربى بما اشتهرت به من صناعة التحف المعدنية والأحجار الكريمة ، كما ازدهرت بها صناعة الأطباق والأوانى المنزلية التى كانت تصدر منها الى القسطنطينية منذ العصر الرومانى والبيزنطى ٠

ومما لا شك فيه أن الفيوم وعاصمتها (أرسينوى) والبهنسا وأفروديتو بوليس (كوم اشقاو) وغيرها من المدن المصرية ظلت تنتج من الأدوات والآلات المعدنية فى فجر الاسلام على أيدى الحدادين وغيرهم من الصناع ما كانوا يصنعونه من الأدوات والآلات ومن المسامير الحديدية وغيرها قبل مجىء العرب الفاتحين الى مصر وتأسيسهم لمدينة الفسطاط (٥) ٠

وقد اهتم الحكام العرب فى مصر وغيرها من الأقطار الاسلامية بحرفة الحدادة والحدادين ، فهى احدى صناعات الأشراف فى صدر الاسلام (٦) ٠
ولم يقتصر عمل الحدادين على صناعة أنواع الآلات الحديدية البسيطة ووسائل الزراعة التى كان يحتاج ـ وما يزال ـ اليها الفلاح المصرى ، بل

---

(٤) يشير ابن حوقل الى غنى بلاد فارس وما كانت تستخرجه من المعادن خاصة من الفضة والحديد والكبريت والنفط وأشباه ذلك ٠ المسالك والممالك ، ص ٢١٥ ٠

(٥) ويضم المتحف القبطى بالقاهرة مجموعات من المفاتيح المصنوعة من الحديد ، وفيها ما هو مطعم بالبرونز ، ومن الملاعق تجويفها من الصدف وأيديها من الحديد ، وكذلك من المقصات والزمزميات وأدوات الزراعة المصنوعة من الحديد عبارة عن فئوس ورؤوس ومناجل وغير ذلك ، مما يرجع تاريخ صناعتها فيما بين القرن الخامس والقرن الحادى عشر الميلادي ، وهى تنسب الى كل من الفيوم وادفو وغيرهما من المدن المصرية ٠

(٦) ذكر ابن رسته أن العاصى بن هشام كان حدادا ، والوليد بن المغيرة كان حدادا أيضا ، الأعلاق النفيسة ، ص ٥٣٦ ٠

صنعوا الأدوات اللازمة للعمارة مثل الأقفال والأبواب الحديدية (٧) ، كما قاموا بصناعة الصنج والأوزان المختلفة من الحديد (٨) وقد وصلتنا مجموعة من الصنج المصرية تشتمل على أسماء بعض الأمراء الذين تولوا حكم البلاد فى العصر الأموى والعباسى ، منها صنج ترجع الى العصر الأموى باسم الأمير قرة بن شريك (٩٠ ــ ٩٦ هـ) وباسم الأمير حفص بن الوليد ١٢٥ هـ والأمير عبد الملك بن مروان (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) ٠

ومن العصر العباسى وصلت بعض الصنج الحديدية التى تحمل اسم « الأمير صالح بن على (١٣٦ هـ / ٧٥٣ م) والأمير عبد الملك بن يزيد ، وباسم الأمير محمد بن الأشعث ، وباسم الأمير يزيد بن حاتم ، والأمير محمد بن سعيد وغيرهم » ٠

وقد نسج الصناع الأقباط على منوال أسلافهم ، حيث سادت التقاليد الفنية القديمة فى صناعة الأدوات والأوانى المعدنية سواء من الحديد أو النحاس والفضة ، ويضم متحف الفن الاسلامى مجموعة من أطباق النحاس بأشكال مختلفة ترجع الى القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، وبعض الشمعدانات المصنوعة من البرونز التى ترجع صناعتها الى فجر الاسلام ٠

وتوجد فى المتاحف الخارجية مجموعة من الأباريق البرونزية التى صنعت فى تلك الفترة ذات مقابض طويلة وصنابير ممتدة مزينة بأشكال آدمية وحيوانية ، كما تضم أيضا مجموعة من التحف المعدنية جاءت على أشكال الحيوانات والطيور محرفة عن الطبيعة ، من هذه المجموعة مباخر وآنية للماء على هيئة بطة أو حمامة أو ديك ٠

وهكذا ظلت صناعة المعادن وزخرفتها فى العصرين الأموى والعباسى حرفة الأقباط فى مصر ، حيث استخدموا كثيرا من الأدوات المعدنية فى كنائسهم وذلك خلال القرن الأول الهجرى ٠ وبدأ المسلمون بعد انتشار الاسلام فى البلاد فى القرن الثانى الهجرى فى العمل على تقليد الأقباط

---

(٧) عرف المصريون صناعة الأبواب الحديدية قبل الفتح العربى ، وقد أشار بتلر الى الباب الحديدى تجاه الخندق والمرسى فى الجهة الجنوبية من الحصن المعروف بحصن بابليون ٠ وهناك مجموعة من الأقفال الحديدية التى قام الحدادون بصنعها فى كل من البهنسا والفيوم وترجع الى سنة ٦٢١م ٠ فتح العرب لمصر ، ص ٢١٨ ٠

Johnson : Economic Studies, p. 118.

(٨) وكانت دار العيار بالفسطاط تعمل بها تلك الصنج والأوزان ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ ٠

في صناعة أشكال كثيرة من الأدوات المعدنية من النحاس والبرونز كالمسارج وغيرها .

ومن الجدير بالذكر أن معظم الأواني النحاسية وغيرها من الأدوات المعدنية كان يتم صهرها واعادة تشكيلها من جديد ، وربما كانت التحفة المعدنية الوحيدة التي ترجع الى العصر الأموي هي ابريق مروان بن محمد ، وقد عثر عليه في ناحية أبي صير الملق في اقليم الفيوم . ومهما كان من أمر اختلاف الباحثين حول المكان الذي تم فيه صناعة هذا الابريق (٩) ، فانه يعد التحفة البرونزية التي تكشف لنا عن الدقة والرشاقة التي بلغتها صناعة التحف المعدنية في ذلك العصر . وقد شاعت في العصر الأموي صناعة هذا النوع من التحف البرونزية التي نهجت في أسلوبها الأسلوب القديم حتى صار من المتعذر معرفة ما صنع منها قبل ظهور الاسلام وبعده ، حيث حافظ الحكام المسلمون على التقاليد الصناعية النافعة في البلاد التي فتحوها في صدر الاسلام .

وتشير المصادر الى بعض الصناعات المعدنية مثل عمل المسامير والمثبتات والمراسي والسلاسل ، وما يستلزم دور الصناعة وحاجة بناء السفن منها . كما تشير المصادر الى خبرة الحدادين والسباكين وغيرهم من الحرفيين (١٠) ومعرفتهم التامة في ذلك الوقت بأنواع الحديد وطريقة صناعة الآلات والمعدات التي تخص كل نوع منها ، وذلك بحسب أسمائها فيقال حديد معمول ، وحديد مصفي ، وحديد شق الفأس ، وحديد سكين ، وحديد مسله ، وحديد مسمار ، وحديد بنادقي ، وهكذا بحسب استغلال الحديد ونوعه .

وقد ذكر المؤرخون أنه حينما حضر الى مصر الخليفة العباسي المأمون عام ٢١٧ هـ ، ورغب في معرفة باطن الأهرام أرسل في طلب الحدادين وأمرهم أن يجمعوا من آلاتهم الحديدية ويحدونها والمناجيق ، وأنه أنفق في ذلك مالا عظيما في سبيل الكشف عما هو مخبوء في باطن الهرم من الكنوز والمطالب ، وقد وجدوا منها الكثير .

---

(٩) من المحتمل أن يكون قد صنع في مصر التي اشتهرت منذ عصورها القديمة بصناعة المعادن ، وان كان عبد الرؤوف على يوسف يذهب الى أن صناعة الابريق تمت في سوريا ، لا سيما وأنه يتبع الطراز الساساني في الصناعة والزخرفة .

(١٠) كانت المدن المصرية تضم من طوائف الحدادين والسباكين منذ العصر البيزنطي أعدادا كبيرة كما كان في مدن اكسيرنخوس (البهنسا) وانطونيوبوليس (الشيخ عبادة) باقليم المنيا .

Johnson : Economic Studies, pp. 152-154.

ومن أسماء الحدادين التي وردت على شواهد القبور والتي ترجع الى أواخر عصر الولاة وأوائل حكم الطولونيين ، شاهد باسم سعيد بن عبد الله الحداد مؤرخ في ربيع الأول سنة ٢٧٤ هـ ، وآخر باسم عمره ابنة عبد الله المعروف بجديد الحداد . ومن الصعيد شاهد باسم بهره ابنة اسماعيل ابن عبد الله اسماعيل الحداد . كما تحمل الشواهد الجيرية اسم محمد ابن طالب بن محمد بن الحداد مؤرخ بسنة ٣٣٢ هـ ، وشاهد آخر من عصر الاخشيديين يحمل اسم أحمد بن حماد الحداد ويرجع تاريخ وفاته الى صفر سنة ٣٥٢ هـ .

ومن الأسماء التي اشتهرت بحرفة الحدادة في عصر الاخشيديين أيضا ، كان أبو بكر محمد بن محمد بن جعفر الكتاني المعروف بابن الحداد، وقد أخذ العلم عن القفال المروزى (أى صانع الأقفال الحديدية) وكان من الأئمة الكبار ، وقد توفى ابن الحداد سنة ٣٤٤ هـ بالفسطاط ، وكان أجداده وآباؤه يتوارثون هذه الحرفة فنسب اليها .

وكما يضم المتحف مجموعة من مسارج البرونز المصنوعة على شكل طيور وبعضها ذو مقابض تعلوها صلبان أو رؤوس حيوانات (١١) ، فانه يحتفظ بمجموعة من شواهد القبور كذلك تشتمل على أسماء بعض الصفارين أو صناع الأدوات النحاسية ، منها شاهد رخام مؤرخ في ربيع الآخر سنة ٢٣٦ هـ باسم « علم جاريه زكير بن يحيى الصفار » وشاهد آخر من جهة عين الصيرة يرجع تاريخه الى شهر رجب سنة ٢٤٨هـ ـ سبتمبر سنة ٨٦٢ م باسم كامل بن منير الصفار ، وشاهد رخام من حفائر الفسطاط مؤرخ في شعبان سنة ٢٧٢ هـ باسم رهج أم ولد يحيى ابن ميمون بن تجيح الصفار ، وشاهد حجر رملي باسم رحمة بنت يحيى ابن كامل بن سعد الصفار ، مما يدل على كثرة صناع الصفر بمدينة الفسطاط في القرن الثالث الهجرى .

وكما قام الصفارون بصنع المكايل من البرونز للسوائل وغيرها(١٢)، فانهم صنعوا أيضا الأواني الفضية ، وان كانت مصر لم تحتفظ بشيء من تلك الأباريق الفضية التي زخرفت برسوم حيوانات وطيور كما كان من زخارفها البارز والمحفور .

---

(١١) يضم المتحف مجموعة من الشوريات (المباخر) المصنوعة من الفضة والبرونز وهي تنسب الى فجر الاسلام .

(١٢) الصفار هو صانع الأدوات والأواني والقدور من نوع النحاس الأصفر .

وفي عهد الطولونيين والاخشيديين أمدت مظاهر النهضة الصناعية الى المعادن ، حيث راجت صناعة الحلي والأدوات النحاسية ، وقد ظهرت بوضوح في زخرفة التحف المعدنية عن طريق الحز والحفر والتخريم وتشكيل الأواني المصنوعة من النحاس • ولا غرابة في ذلك فقد أنشئت مسابك النحاس بالفسطاط (١٣) ، كما وجدت دار النحاس بالقرب من سويقة معتوق بالفسطاط ، وسوق النحاس التي كانت تقع بالقرب من جامع عمرو بن العاص ، كما وردت الاشارات منذ الفتح العربي ، فقد أشار ابن عبد الحكم الى دار مجاهد بن جبر التي اختطها في النحاسين • وهكذا حفلت الفسطاط بمظاهر رواج وتقدم صناعة النحاس والأسواق التي تضم مجموعة الحوانيت لبيع الأواني المنزلية وغيرها من المستلزمات المصنوعة من النحاس •

ولا شك أن الفسطاط العاصمة المصرية كانت تزخر بالعديد من هؤلاء صناع الحديد ومن غيرهم من أصحاب الحرف ، يؤيد ذلك أنه كان بالعاصمة عدة دروب ورحاب وخوخ تحمل أسماءهم فكان بها زقاق القفاصين وزقاق الرزازين ودرب الحدادين ، كما كانت دار الضرب ودار العيار بالفسطاط تضم العديد ممن يعملون بحرفة الحدادة والسباكة وغير ذلك من سائر الحرف والصناعات •

وقد ازدهرت الصناعة في عصر الفاطميين ، وأصبح عمل المصانع ليس مقصورا على امداد الجيش والأسطول الفاطمي بالسلاح والعتاد الحربي والملابس لطوائف الجند ، بل تنوعت المنتجات والمصنوعات لتغطية احتياجات الأسواق الخارجية من المنتجات المصرية ، فضلا عن الحاجة لسد متطلبات القصور الفاطمية ورجال الدولة وعامة الشعب وأصبحت مصر تستورد خام الحديد من دلماشيا وصقلية وشمال افريقيا •

كما أتقن الصناع المصريون فن تسقية الفولاذ ، ومما ساعدهم على ذلك انشاء مسابك خاصة بالفولاذ بالفسطاط ، وكان موضعها بأرض الحسينية خارج باب الفتوح بالقاهرة •

ولا شك أنه كان للحكام الفاطميين دور ملحوظ في توفير خامات الحديد وغيرها من المواد ، فقد عملوا على انشاء المتجر الخاص بهم ، وكان

---

(١٣) أشار ابن دقماق الى مسابك الفولاذ ومسابك النحاس وغير ذلك مما بلغته مدينة الفسطاط من وفرة المسابك والمطابخ ومظاهر الصناعة بها ، لكنه لم يوضح لنا شيئا عن تاريخ معين لقيام أو انشاء مثل هذه المسابك أو المصانع •

الانتصار ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ ؟

يحتوى على الكميات الوفيرة من أنواع الأخشـاب والحديد والطواحين ، مما تحتاج اليه الصناعات المعدنية وغيرها •

كما كان للحكام الفاطميين أيضا اهتمام كبير بدار العيار وصناعة الأوزان المختلفة من الأرطال الحديدية وغيرها (١٤) ، وقد أشار المقدسى الى أن الفاطميين اتخذوا فى شمال افريقيا صنجا من رصاص وجاءوا بهذه الصنج معهم الى القاهرة ، وانتشرت صناعتها فى عهدهم ، وقد وصل الينا بعضها من بين مقتنيات المتحف الاسلامى •

وكان لرمي البندق شأن كبير فى العصور الاسلامية بالعراق والشام ومصر وغيرها ، وقد تطورت صناعة البندق من الطين والحجارة الى صناعتها من الرصاص في مصر ، وكما يشير المقريزى فقد أصبح لها خط يسمى بخط البندقيانيين نسبة الى صناعة البندق •

ويذكر ناصر خسرو أنه كان بمدينة تنيس صناع كثيرون يصنعون من آلات الحديد مثل المقصات والسكاكين وغيرها ، ويقال : « انه رأى مقراضا فى مصر من صنع تنيس ثمنه خمسة دنانير مغربية » •

كمـا صنع الحدادون المفـاتيح الحديدية المطعمة بالبرونز ومطارق الأبواب بأشكال فنية ، وكذلك قدور الرصاص التى كانت تستعمل فى الحمامات ، والأدوات الدقيقة مثل الابر والمسلات التى كانت تصنع من حديد الفولاذ • ويشير الشيزرى الى غش الحدادين وما يجب أن يراعيه كل حداد فى صناعة السكاكين أو المقاريض ، فلا يضرب سكينا أو مقراضا من حديد الأرمهان ويبيعه على أنه فولاذ ، ولا يجب على الحداد أن يخلط المسامير الرجيعة المطرقة بالمسامير الجديدة •

ومن المحدثين والأدباء من اشتهر فى عصر الفاطميين بحرفة الحدادة ، وكان يتكسب منها قوته ومعاشه ، وكما نسمع عن أحد الأئمة الشافعية الفقيه القفال المروزى الذي كان يصنع الأقفال الدقيقة ، فقد صنع قفلا زنته أربع حبات فقط ، فاننا نذكر من هؤلاء الأدباء المشهورين فى مصر الشاعر السكندرى أبا منصور ظافر بن القاسم الحداد ، وكان يزاول صناعة الحدادة ، ومما يذكر أنه استدعي يوما الى قطع خاتم كان قد ضاق فى أصبع والى الاسكندرية الأمير السعيد بن مظفر ، وقد أنشد بمناسبة قطعه لخاتم الأمير شعرا •

ومن هؤلاء الفقهاء من أصحاب الصنعة كان أبو بكر الحداد ، اشتهر

---

(١٤) كان لكل مدينة من المدن المصرية ارطال خاصة تتعامل بها عند الوزن بهـا ، كمدن قوص وأسيوط ومنفلوط وغيرها • وكان يتعين على البائعين أن يتخذوا الأرطال والأوزان من الحديد ، ولا يتخذونها من الحجارة •

فى أواخر العصر الفاطمى بصناعته للمبارد الحديدية وكانت وفاته سنة ٥٥٢ هـ . وقد نبغ هؤلاء الفقهاء والشعراء فى علومهم كما تفوقوا فى صنعتهم كغيرهم من الصناع فى العصر الفاطمى ، ومما يدل على مهارة هؤلاء الصناع تلك المرايا التى صنعوها من الحديد المصقول والمحلاة بالذهب والفضة ، المكللة بالجواهر النفيسة ، وقد وجدت صناديق مملوءة من هذه المرايا المحفوظة داخل أغلفة من الجلد المتين بخزائن القصور الفاطمية .

ومن الملاحظ أن الأدوات التى كانت تستخدم فى الأغراض المنزلية وخاصة المصنوعة من النحاس والبرونز ، كانت أكثر شيوعا وانتشارا عن صناعة الأدوات والآلات الحديدية منذ فجر الاسلام .

وتشير حفائر الفسطاط الى تلك الأنابيب الصغيرة المصنوعة من النحاس المتخذة فى جدران الدور والبيوت بمدينة الفسطاط ، كما تشهد أعمال الصفارين فى عهد خمارويه من قبل مجىء الفاطميين الى البلاد بمدى تفوق وانتشار صناعة النحاس والبرونز على غيرها من الصناعات المعدنية ، فقد ذكر المقريزى أن الصناع قاموا بكساء أجسام النخل من النحاس المذهب ، وجعلوا ما بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص لجريان الماء فيها وذلك فى البستان الذى أنشأه خمارويه والذى تميز عهده بالحياة الاجتماعية المترفة .

ازدهرت صناعة التحف المعدنية فى العصر الفاطمى ، وقام المصريون بجلب معدن النحاس من أصفهان ، ومن بخارى النحاس الأصفر الذى كان يستعمل فى طلاء أعلى المنائر . وتشير وثائق الجنيزة الى جهود الفاطميين من أجل استحواذهم على تجارة الهند من أيدى منافسيهم العباسيين ، وكان جنوب غرب الهند مشهورا بمناجم النحاس وبصناعة الأوانى والأدوات البرونزية والنحاسية . كما تكشف أوراق الجنيزة (١٥) عن العديد من أسماء التجار اليهود الذين كانوا يتاجرون فى السلع القادمة من والى الهند وبلاد الشرق الأقصى خلال العصر الفاطمى ، ومن هؤلاء التجار من كان يملك مصانع لسبك النحاس الأصفر فى بلاد الهند (١٦) .

---

(١٥) تعنى كلمة الجنيزة ، المخزن الملحق بالمعبد اليهودى ، وكان هو المكان الذى تم اكتشافه ، وفيه مجموعة الأوراق المكتوبة بالخط العبرى ، ولم تكتشف حتى الآن سوى جنيزة الفسطاط (مصر القديمة) .

(١٦) من هؤلاء التجار ورد اسم ابراهيم بن ييجو وكان من المهدية بتونس ويمتلك مصنعا للنحاس الأصفر فى الهند . وتردد ذكر اسمه كثيرا فى أوراق الجنيزة ، وتحكى الأوراق أنه بعد موت ابنه الوحيد هناك عاد الى الفسطاط ليزوج ابنته الوحيدة الى واحد من أبناء العائلة الموجودين بمصر فى ذلك الوقت .

ويصف ناصر خسرو تلك الأواني النحاسية الكبيرة المصنوعة من النحاس الذى كان يستورد من دمشق ويقول : « وقد حدث مرة أن وجدت هناك (يعني في أسواق الفسطاط) امرأة تملك خمسة آلاف من هذه الأواني ، وكانت تؤجر الواحدة منها بدرهم واحد في الشهر » وتدل رواية ناصر خسرو على أن مصر كانت تستورد أيضا النحاس من دمشق كما تدل على وفرة تلك الأواني الكبيرة المصنوعة من معدن النحاس في ذلك العصر •

وقد صنع فنانو العصر الفاطمى الأواني النحاسية والبرونزية على أشكال الحيوانات ، وكانت في الغالب أباريق من النحاس الأصفر ، ويصر ناصر خسرو على أن مصر كانت تستورد أيضا النحاس من دمشق كما المتحف القبطي من هذه التحف المعدنية منها الصواني والأطباق النحاسية عليها رسوم أسماك ونصوص قبطية ، وقد نقش عليها أسماء أصحابها وتاريخ صناعتها (١٧) ، ومن التحف المعدنية التى كانت تحفل بها القصور الفاطمية ما يدل على مهارات الصناع وتفوقهم في صناعة تماثيل البرونز التى كانت تستعمل أحيانا مباخر أو صنابير للأواني ، وأحيانا أخرى للزينة فحسب ، وبعض الأواني تم صنعها وتشكيلها على شكل طائر أو حيوان ، كان من أشهرها عقاب البرونز الموجود الآن فوق احدى أروقة المقابر بمدينة بيزا في ايطاليا •

وتشير المصادر الى أن القصر الفاطمى كان حافلا بالتماثيل المصنوعة من البرونز وغيرها والتى كانت تزين قاعاته الفسيحة • ومن أسماء هؤلاء الصناع لتلك التماثيل في العصر الفاطمى نذكر سعيد بن على الذى جاء اسمه محفورا على احداها ، كما ورد اسم عبد الله المثال على أحد هذه التماثيل الصغيرة المصنوعة من البرونز (١٨) •

وتدل رواية ابن أبى الصلت على أن صناعة النحاس ظلت رائجة حتى

---

(١٧) تم العثور عليها في كنائس الفيوم وترجع صناعتها الى القرن الرابع الهجرى ، وكان يستخدم القسس بعضها في غسل أيديهم أثناء قيامهم بالقداس •

زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، الكنوز الفاطمية ، ص ١٤٠ •

ومن التحف التى وجدت كذلك قدران من النحاس ومباخر وقباب ترتكز على أربعة أعمدة على كل منها صليب مفرغ وعلى دائرة القبة والصلبان نصوص قبطية باسم الصانع والتاريخ في القرن العاشر الميلادى •

نفس المرجع والصفحة •

(١٨) ورد اسم ذلك المثال ضمن توقيع حفر على تمثال لأسد من البرونز ، ترجع صناعته الى سنة ٤٠٠هـ وهو محفوظ الآن في متحف كسل •

Wiet : Repertoire, tome, 6, No, 2139, p. 74.

أواخر أيام الفاطميين (١٩) ، وأن النحاس الخام كان يستورد من المغرب والأندلس (٢٠) ٠

ومما لا شك فيه أن الاسكندرية كانت احدى مراكز صناعة النحاس والصناعات المعدنية الأخرى خلال العصر الفاطمي ، وهناك اشارة قصيرة الى فندق الصفار الذى كان يقع على مقربة من الصبانة ذكر ذلك ابن جبير حين نزوله الى الاسكندرية ، وتكشف لنا تلك الاشارة عن وجود أحد صناع النحاس بالاسكندرية ، وأنه كان يملك فندقا أو وكالة بها تجار النحاس وغيرهم من الوافدين من بلاد المغرب والأندلس وغيرهم ٠

وكانت صناعة القناديل والثريات فى مصر قد عمت شهرتها خلال العصر الفاطمي ، ويصف ناصر خسرو سوق القناديل بالفسطاط بأنه لا يعرف سوقا مثله فى أى بلد وفيه كل ما فى العالم من طرائف ، كما يشير المقريزى الى زقاق القناديل وأنه كان من أعمر أخطاط مصر ، حيث كانت أبواب الدور يعلق على كل باب منها قنديل ، وقيل انه كان به مائة قنديل توقد كل ليلة على أبواب الأكابر والأعيان ٠

ومما يدل على ازدهار هذه الصناعة ما كان الفاطميون يستخدمونه من القناديل فى ليالى المواسم والأعياد ، يذكر ناصر خسرو انهم كانوا يوقدون فى ليالى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل ، كما يذكر أن الخليفة الحاكم أمر سنة ٣٩١ هـ باهداء جامع عمرو تحفة فضية عظيمة ، اشتملت على سبعمائة مصباح ، قيل ان وزنها خمسة وعشرون قنطارا من الفضة ، وبلغ من كبر حجم هذه الثريا الثمينة أن اضطر الى هدم أحد أبواب المسجد لكى يتم تركيبها فى مكانها داخل المسجد ٠

---

(١٩) كان أبو الصلت من علماء الرياضيات ومن مشاهير الأطباء أيضا ولد بناحية دانية سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م ، وأقام بالأندلس مدة ثم توجه الى مصر سنة ٤٨٩هـ ، حيث بقى بها مدة ثم عاد الى وطنه الأندلس مدة ثم توجه الى مصر سنة ٤٨٩هـ ، حيث بقى بها مدة ثم عاد الى وطنه الأندلس وتوفى به سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م ٠

قدرى طوقان : تراث العرب فى الرياضيات والفلك ، ص ٣٣٧ ٠

(٢٠) وقد حدث أثناء تواجده فى عهد الوزير الفاطمى الأفضل ان غرقت احدى السفن التى كانت تحمل خام النحاس بالقرب من الاسكندرية ، فعزم أبو الصلت على رفعه من قاع البحر فاجتمع بالوزير الأفضل وحاكم الاسكندرية حينذاك ، وطلب منهما تهيئة الظروف له وتزويده بالآلات اللازمة حتى يتمكن من رفع المركب الغارق ، الا أن الرواية تكشف لنا عن عدم قدرته وتمكنه من ذلك ٠

ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء [illegible]

ولم تقتصر حاجة المساجد على القناديل والثريات ، بل كانت تعمر أيضا بالسلاسل النحاسية ، ويذكر المقريزى أن الحاكم بأمر الله أمر بعمل تقدير ما يحتاج اليه جامع باب الفتوح من الحصر والقناديل والسلاسل فبلغت النفقة على ذلك خمسة آلاف دينار .

والواقع أنه مع حياة الرخاء والاستقرار وخاصة فى العصر الفاطمى الاول ، وما تمتع به الأثرياء وعامة الشعب من مظاهر الترف والنعيم (٢١) ، فان الحاجة زادت الى الكثير من الأثاث والأدوات البرونزية والنحاسية ، وكان لابد للصفارين وغيرهم من صـــناع المعادن أن ينتجـوا من الجرار النحاسية والمعادن وأدوات الكتابة الشىء الكثير (٢٢) .

وكما اتقن الصناع أدوات الكتابة وحرصوا على تطويرها وتجميلها لحفظ الأقلام والحبر مثل المقلمات والمحبرات ، فانهم أبدعوا فى صناعة الشمعدانات الفاطمية فقد زينوها بالزخارف النباتية وبكتابات الخط الكوفى المزهر .

كمـا صنع المصريون من آلات الموسيقى وأدوات الطرب كالنقارات والصفارات والصنوج والأبواق وغيرها . وكانت تصنع من النحاس والذهب والفضة ، وتستخدم فى المواكب الفاطمية والأعياد .

وتوصـــل الصـــناع المصريون الى اختراع الآلات الدقيقة مثـل الابر المغناطيسية (٢٣) وبندول الساعات (٢٤) ، وآلات الجراحة الطبية الدقيقة وخاصة تلك التى كانت تستخدم فى جراحة العيون (٢٥) .

---

(٢١) وقد عبر المقدسى عن راحة الرعية وحسن السياسة التى اتبعها الفاطميون ، فالكل سامع ومطيع ولا يخطب الا لأمير المؤمنين .

أحسن التقاسيم ، ص ٢١٢ .

(٢٢) المرادف ما كان يصنع من النحاس المضروب الأصفر وهى خاصة بصناعة الغزل : ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٣٢٩ .

(٢٣) كانت مصر شهيرة فى صناعة وبناء السفن البحرية والحربية منذ الفتح العربى وليس من المستغرب أن يكون المصريون من أوائل الشعوب التى اهتدت الى صنع واستخدام الابر المغناطيسية التى تستخدم فى تحديد الاتجاهات الأربعة .

حسين مؤنس : عالم الاسلام ، ص ٣٣٥ .

(٢٤) كان أول من توصل الى اختراع بندول الساعة وضعه ابن يونس المصرى المتوفى سنة ٣٣٩هـ وكان أحد علماء الفلك البارزين فى عهد الخليفـــة العزيز وابنه الحاكم . سيديو : تاريخ العرب العام ، ص ٣٤٧ ، ترجمة عادل زعيتر .

(٢٥) من الذين نبغوا فى جراحة العيون عمار الموصلى فى عهد الخليفة الحاكم ، ومما لا شك فيه أنه استخدم مثل هذه الآلات الدقيقة .

Leclerc : Histoire De la Medecine Arabe, p. 511.

وتشير المصادر الى صناعة الأوانى الفضية والآلات من الفضة المكفتة بالذهب ذات النقش العجيب والصنعة الدقيقة ، وذلك فى الوقت الذى شاعت فيه صناعة أدوات الفلك الدقيقة مثل الاسطرلابات بأنواعها المختلفة والمرايا وغيرها من الآلات التى أمكن استخدامها فى الأغراض العلمية .

ومن الجدير بالذكر أنه كان أول من آلف فى صنعة الاسطرلابات الفلكية اليهودية المصرى ماشاء الله (٢٦) ، وقد وضع فى أيام الخليفة المنصور « كتاب صنعة الاسطرلاب » ، مما يدل على تقدم المصريين منذ عصر الولاة فى هذا المجال .

وقد شاع استخدام الاسطرلابات بين المصريين فى العصر الفاطمى وذلك لشغفهم بشئون الفلك والتنجيم ، يقول أمية بن الصلت الأندلسى : « والمصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقا عليها وشغفا بها وسكونا اليها » .

ومما يدل على حرص الفاطميين واهتمامهم بشئون الفلك والتنجيم منذ قدومهم الى مصر ، اهتمام الخلفاء بانشاء المرصد الفلكى فوق جبل المقطم منذ عهد العزيز بالله ، وكان للرصد آلات تختلف باختلاف الأغراض، وتحتاج فى صناعتها الى خامات النحاس والرصاص وغيرهما من المعادن وقد ذكر ابن اياس نقلا عن القضاعى أن الأفضل عندما بنى الرصد الفلكى عند المسجد المطل على بركة الحبش (٢٧) ، كان فوقه كرة من نحاس أصفر قدرها قنطار ، وهى قائمة على عمود رخام من أجل تحرير الساعات وتحديد دخول أوقات الصلاة .

---

(٢٦) الاسطرلاب معناه باليونانية مقياس النجوم ، واسطر هو النجم ولاب هو المرآة ، وكان من أكثر الآلات المستعملة عند الفلكيين والمسلمين ، كما كان من الأدوات الهامة التى ساعدت على تقدم فن الملاحة فى العصر الاسلامى ، بحيث أصبح من الميسور على السفن والمراكب السير فى البحار ليلا ونهارا فى البحار والمحيطات . الخوارزمى : مفاتيح لعلوم ، ص ١٣٤ - ١٣٥ ، نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافيا ، ص ١٧٩ ، تراث الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢٧) ويذكر ابن ميسر أن المأمون البطائحى حينما أراد أن يتم ما بدأه الأفضل ويستكمل الرصد ، وذلك فى حوادث سنة ٥١٧هـ ، فانه تقدم شيوخ الصناعة الفلكية أبو عبد الله الحلبى وابن الهيثمى وأبو جعفر بن حسداى وابن سند وأحمد بن مفرج الشاعر وابن قرقة ومعهم جماعة من العمال والصناع ، فوجدوا الطارة الواحدة قد فسدت فجمع السباكون وأحضر لهم ما يحتاج اليه من النحاس والذهب والفضة وسبكت الدائرة وأعيدت بحضرة الشيوخ بعد تعب كبير ومصروف كبير » وهكذا تدل رواية ابن ميسر على خبرة هؤلاء الشيوخ بصناعة الآلات الفلكية وكذلك جماعة السباكين الذين عملوا على تشكيل وسبك ما تحتاج اليه الدائرة الفلكية المطلوبة . أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

ومن أسماء الصناع الذين ذاع صيتهم في العصر الفاطمي ابن مزخرف النحاس ، ويبدو أنه كان شيخ طائفة النحاسيين (٢٨) • كما ورد اسم الشيخ عبد الجبار بن محمد المعروف بالنحاس وذلك في كتابة جنائزية ترجع الى سنة ٥٥٤ هـ بجبانة القرافة ويظهر من نص الكتابة انه كان يشغل وظيفة شيخ طائفة النحاسين في أواخر أيام الفاطميين •

صناعة التكفيت فى العصر الفاطمى :

وقبل أن نختم الحديث عن صناعات النحاس والبرونز ، تجدر بنا الاشارة الى ما اشتهرت به مصر في ذلك العهد من صناعة التكفيت فقد أجاد الصناع استعمال عدة طرق لتزيين المنتجات المعدنية المختلفة ، كان من أهمها طريقة الحز والترصيع بالمينا (٢٩) ومحاولة تطعيم أواني النحاس والبرونز بالذهب والفضة

وكان من عوامل تقدم وازدهار صناعة التكفيت هذه اقبال المصريين على شراء مثل هـذه التحف المعـدنية (٣٠) • والعمل على اقتنائها في بيوتهم (٣١) ، حيث بدأ الفن يأخذ الصبغة الشعبية لدى الناس ، وأصبحت بيوت القوم وما فيها من مظاهر فنية تدل على هذه الصبغة الشعبية ولم يعد عمل الصناع وفنهم نابعا عن تلبية رغبة الحكام وميولهم الخاصة نحو اقتناء بعض التحف الفنية داخل قصورهم •

وهكذا عمل الصناع والصفارون في مدينة الفسطاط وغيرها على انتاج قطع النحـاس المكفت كالأباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسـارج والأواني المنزلية والموائد • ولا غرو فقد بلغوا في معرفتهم في ذلك العصر

---

(٢٨) دفن في سفح المقطم • المسبحي ، أخبار مصر ، ص ٢١٧ •

(٢٩) الحز هو اجراء حزوز أو نقوش خفيفة غير غائرة على سطح المعدن وفقا لرسم معين يعده الصانع قبل تنفيذه ثم يقوم بنقله على سطح المعدن لحزه بآلة الحز الخاصة ذات النهاية المدببة التي تشبه آلة « الزينة » التي يستعملها الصناع الحاليون • حسن الباشا وآخرون : القاهرة — تاريخها — ، ص ٣٧١ •

(٣٠) تجلت روح الابداع على الخصوص في ترصيع المعادن الصالحة لصنع الأسلحة وفي الأواني والأباريق والأدوات المنزلية وما اليها • لوبون : حضارة العرب ، ص ٦١٧ •

(٣١) وقد عثر في أطلال الفسطاط على قرص صغير من الذهب ، ووجه هذا القرص مغطى بالمينا ، وهو مقسم الى ثلاثة أقسام ، في الأوسط كتابة كوفية بيضاء مزخرفة باللون الأحمر على أرضية سنجابية ، ونصها « الله خير حافظا » والقسمين الأعلى والأسفل زخرفة حمراء محدودة بالذهبي على أرضية خضراء والراجح أن هذه التحفة ترجع الى القرن الخامس الهجري • زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٥٢١ •

بخواص المواد الكيميائية وأوزانها النوعية ودرجة انصهارهاواعادة تشكيلها أو سبكها ، مما ساعدهم على فنهم . وما تميزت به صناعة التكفيت وازدهارها في العصر الفاطمي .

وكان سوق المكفتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت وهو ما يطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة (٣٢) . ويذكر المقريزى انه كان لهذه الصناعة بمصر رواج عظيم وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة ، فلا تكاد تخلو دار فى القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس مكفت ، لابد أن يكون فى جهاز العروس دكة نحاس مكفت (٣٣) وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ كبراها ما يسع نحو الأردب من القمح ، وطول الأكفات التي نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض أصبعين نحو ذلك .

وقد أوضح المقريزى أنواع الدكك التى كانت بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب وأماثل التجار تطلبها فى جهازها ، منها ما يكفت بالفضة أو من النحاس الأصفر المكفت ، ومن الدكك ما كان يكفت بالنحاس الأبيض الى غير ذلك من أنواع التكفيت (٣٤) .

ومما يشهد بتفوق وازدهار صناعة التكفيت للمعادن في العصر الفاطمي ، ما حوته القصور الفاطمية من تلك التحف المعدنية المكفتة فقد أخرج من خزائن القصر الفاطمى خلال سنوات الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر آلاف الآلات من الفضة المكفتة بالذهب ذات النقش العجيب والصنعة الدقيقة . كما يذكر المقريزي أن الجند الأتراك أخرجوا من القصر نحو أربعمائة قفص مليوءة بالأواني الفضية الثمينة المكفتة بالذهب ، وقد سبكت كلها ووزعت على الثوار من هؤلاء الجند الأتراك .

---

(٣٢) ويشير غوستاف لوبون الى صناعة التكفيت بالقاهرة فيقول : « وتارة يعمر الصانع بمهارة عجيبة ، كما يفعل في القاهرة بمنقاشه المهمازى الشكل بسرعة على المعدن الذي يرغب في زخرفته ، فيركب خيط الفضة بالمدق على تلك الأجزاء المعدة ليعلق بها متمسكه » . حضارة العرب ، ص ٦١٧ .

(٣٣) الدكة عبارة عن شيء يشبه السرير ، يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس او من خشب مدهون ، وكانت تبلغ قيمة الدكة من النحاس المكفت نحو مائتى دينار ذهبا وزيادة . المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ ــ ٤٧٩ .

(٣٤) وكانت هناك طرق أخرى للتكفيت منها ما يعنى ادخال خيط من الذهب او الفضة في المعدن المراد تكفيته ويكون هذا الخط بارزا او مستويا ، وأحيانا يتم تركيب زهرة من الذهب او الفضة وذلك فى الأواني المصنوعة من الفولاذ أو النحاس ، وقد يتكرر رسم هذه الزهرة في شكل متناسق . ريسلر : الحضارة العربية ، ص ١٢٤

٣ ـ صناعة الحلى والجواهر الكريمة

تشهد التحف الذهبية التى وصلت الينا من مصر الفرعونية بحذق الصائغ المصرى ومهارته الفائقة(١) ، فقد نجح هذا الصائغ فى طرق الذهب الى أوراق غاية فى الرقة كان يستعملها فى تزيين الأثاث المصنوع من الخشب أو فى طلاء التحف النحاسية والفضية ·

وفى السنوات الأخيرة جرى بمصر اكتشاف بعض القطع من الحلى الثمينة ترجع الى العصر البيزنطى ، منها عقود رائعة من الذهب تتوسطها أنواط تحمل صور الأباطرة ، ومنها خواتم وأساور وخلاخيل ، تدل على مهارة الصياغ وذوقهم الفنى ·

وكانت الاسكندرية ـ بطبيعة الحال ـ فى مقدمة المراكز الهامة لصناعة أنواع الحلى والجواهر الكريمة (٢) ، كما أنتج الصناع فى كل من البهنسا والشيخ عبادة ومدينة قفط بصعيد مصر من أنواع الحلى من العقود والخواتم والأقراط الذهبية ما هو محفوظ في المتحف القبطى وغيره من المتاحف المصرية ·

كما يحتفظ المتحف القبطى بمجموعة من أقراط مصنوعة من الذهب الذهب على شكل عناقيد تم اكتشافها في الواحات البحرية ، وأيضا مجموعة

---

(١) عرف المصريون صهر المعادن وطرقها حتى كانت تصل سمك بعض المعادن المطروقة الى أقل من ١ : ٥٠ من البوصة ، وكان لخام المعادن بنفس مادتها مستخدما فى صناعة الحلى منذ عهد الأسرة الأولى · بترى : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، ص ٢٦٧ ·

(٢) يحتفظ المتحف البريطانى بمجموعة من أدوات الحلى ترجع صناعتها الى القرن الرابع الميلادى تم اكتشافها فى منطقة أبى قير احدى ضواحي الاسكندرية ·

Ibid, pp. 116-117.
Ibid, p. 118.

من الدلايات والخواتم والأساور التى ترجع صناعتها الى تل أتريب بنواحى اخميم من العصر القبطى (٣) ٠

وعثر بدير القصير ومدينة هابو بالصعيد أيضا على مجموعة من أدوات الزينة مصنوعة من الفضة والبرونز ، وتشمل أساور وخلاخيل وأقراص وخواتم وقنينات للعطور وغير ذلك من أدوات الزينة والحلى (٤) ٠

وقد استمر الصناع الأقباط فى عصر الولاة فى صناعة الحلى والجواهر الكريمة ، وتزينت المرأة بوضع القرط الدائرى الواسع فى أذنيها أو أقراطا على شكل عنقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهى برأس حية من كل ناحية ، وبعضها كان مبروما ينتهى برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر ، وكان بعض حليها الذهبية مرصعا بالجواهر الكريمة ، كما كانت تصنع عقدا ذهبيا أشبه « باللبة » المعروفة الآن فى مصر (٥) ٠

وكانت تلبس الخلخال الذى يصنع من النحاس أو الفضة ، وقد ترغب المرأة الثرية فى صناعته من الذهب ٠ وهكذا كان على الصياغ أن

---

(٣) اشتهرت كل من كوم أوشيم بنواحى الفيوم وكانت من المدن العامة خلال العصر الرومانى والبيزنطى ، ومدينة اخميم (بانوبوليس) بصناعة أنواع الحلى وأدوات الزينة ، وتوجد قائمة بمختلف المواد وأنواع الحلى التى صنعها الصياغ من الفضة والتى عرفت بقائمة Reil 57-FF

Johnson : Economic Studies, p. 117.

(٤) وقد ورد فى دليل معرض الآثار القبطية عام ١٩٤٤م مجموعة من القلادات والأساور الذهبية والجامات التى ترجع صناعتها الى ما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين ، وهى تكشف لنا عن مدى احتفاظ المصريين بمهارتهم الفنية فى صناعة الحلى وزخرفتها بأشكال وصور مختلفة ٠

دليل المعرض ـ مطبوع عام ـ ١٩٤٤ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠

وكان من أهم استعمال الفضة منذ العصور المبكرة ، صنع الخرز والحلى والأقداح والأوانى ، على أنها كانت تطرق كالذهب الى صفائح وأوراق رقيقة ، كما تستخدم فى تزيين قطع الأثاث الفاخر من الخشب أيضا ٠

لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٣٩٥ ٠

Johnson : Economic Studies, p. 118.

(٥) ولا يعنى افتقار العصر الاسلامى المبكر الى قطع الحلى أن العرب الفاتحين أو المسلمين الذين هاجروا الى مصر ، لم تكن نساؤهم تتزين بالحلى الذهبية والفضة ، وربما يرجع ذلك الى طريقة دفن الموتى عند المسلمين التى لا تسمح بوضع شىء مع الميت من قطع الحلى ، والتى كان يعاد صهرها واعادة تشكيلها من جديد ٠ محمد عبد العزيز مرزوق ٠ الفنون الزخرفية الاسلامية فى مصر قبل الفاطميين ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ٠

يلبوا احتياجات الناس بحسب درجة ثرائهم ، فالى جانب إستعمال الفضة والذهب ، استعمل أيضا النحاس فى صنع بعض قطع الحلى مما كانت تتزين به المرأة فى الطبقات الفقيرة ، وصنعت من النحاس الأصفر الخلاخيل والأساور ، كما كانت تصنع منه قطع الحلى الصغيرة التى اقتصر استعمالها على الأطفال كوسيلة من وسائل الزينة .

ومن عوامل تقدم صناعه الحلى وأدوات الزينة وفرة استخراج الذهب من منطقة العلاقى ، ونشاط المصريين في طلب البحث عن الكنوز الذهبية فى مقابل الفراعنة كما أشرنا من قبل ، كما أصبحت بغداد مركزا للتبادل فى المعادن النفيسة ، وذلك من منطقة الفضة فى الشرق الاسلامى ومنطقة الذهب فى الغرب . كما بلغت صناعة الحلى وأدوات الزينة فى قصور العباسيين ما يؤيد ذلك (٦) ، فقد قدر العرب قيمة الذهب والفضة ، فهو كما قال الجاحظ عن الذهب : « لا يدحضنــه خبث الكير ولا يفسده مر الدهور » ويستحسن منه سبيكة وغير سبيكة » . كما أنه من المعروف أن الجواهر الثميـنة انما يرغب فى اقتنائها الخلفاء والملوك والأمراء لعظم ثمنها والمباهاة بها عند العامة .

كانت مدينة الاسكندرية من أهم مراكز صناعة الحلى والجواهر فى مصر الاسلامية فقد بقيت الى ما بعد الفتح الاسلامى بزمن طويل تحافظ على صناعة الذهب وتطعيم المعدن ، ولم تلبث أن ازدهرت سائر الصناعات بها طوال العصور الوسطى .

وكما تشير المصادر الى وجود طائفة صياغ الذهب وصانعى الحلى من الفضة بها منذ فجر الاسلام ، فانه كان يستخرج بالقرب من شواطئها من أنواع الجوهر الشيء الوفير ، فقد ذكر المسعودى أنه كان حول منارة الاسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجواهر وتتخذ منه فصوص للخواتم يشبه أنواعا من الجواهر . وكان الجواهرجيون يركبون فصوص الفيروزج وغيرها فى أنواع الخواتم بحيث يكثر عامة الناس من استعمالها فى ذلك الوقت .

ومما لا شك فيه أن وفرة أنواع الأحجار الكريمة من الزمرد والزبرجد واللؤلؤ ، وما كان يستخرج منه . . صعيد مصر وساحل البحر الأحمر

(٦) كان من جملة أدوات الزينة فى قصر الخليفة المقتدر العباسى شجرة من الذهب والفضة بأغصانها تتمايل بحركات موضوعة والطيور من كل نوع مذهبة ومفضضة تصفر بحركات مرتبة تتمايل بتمايل أغصانها ، آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

بالقرب من عيذاب (٧) ، كانت من أسباب تقدم صناعة الجوهر والمجوهرات في مصر الاسلامية :

وقد أمكن الحصول على أنواع أخرى من الأحجار الكريمة مثل أنواع المرجان من بلاد المغرب (٨) ، والطلق من جزيرة قبرص (٩) ، والألماس من بلاد الهند (١٠) كما تشير المصادر الى استخراج الفيروز المصرى من مناطق المغارة وسرابيت الخادم وأم بجمة وغيرها من سيناء . وكان يستورد الجزع والعقيق من اليمن ، وبه كان صناع الجواهر يحلون أصناف اليواقيت التى أمكن الحصول عليها بالقرب من الفسطاط بموضع يسمى طرا ، ويذكر التيفاشى أنه رأى من الياقوت الأحمر فصوصا حمرا صفارا كالخردل وأكبر قليلا (١١) .

ومن أنواع الأحجار الكريمة اللازورد فهو يجرى مجرى العقيق ، وهو من أحسن الجواهر ، والفرق بينهما أن الأول كان صناع الجواهر يصنعون منه فقط للأمراء والأثرياء من الناس، أما العقيق(١٢) ، فيكثر وجوده ويعتد

---

(٧) اشرنا من قبل الى استخراج هذه الأحجار الكريمة ومنها ما كان يدخل اليها بالمصابيح والجمال يستدل بها على الرجوع خشية الضلال والهلاك فى تلك المناجم . رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٠ ، التيفاشى : أزهار الأفكار ، ص ٩٤ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٨ ، عطية القوصى : تاريخ دولة الكنوز الاسلامية ، ص ١١٦ ، فريد شافعى : العمارة العربية فى عصر الولاة ، ص ٥٣٥ .

(٨) يذكر ابن حوقل أن المرجان كان يستخرج من جهات مثل مدينة سبتة والجزيرة الخضراء بالمغرب ، وكان له تجار وسماسرة يعملون على شرائه وبيعه فى جهات أخرى . المسالك والممالك ، ص ٥٦ .

ويقول المقدسى : « ومن خصائص اقليم المغرب المرجان يخرج من جزيرة فى البحر اسم مدينتها مرسى الخرز » . احسن التقاسيم ، ص ٢٣٩ .

(٩) الطلق نوع من الحجر الكريم بجزيرة قبرص وهو نوعان فضى وذهبى ، ومن خواصه أنه اذا دخل النار لم يحترق ولم يتكلس كما تتكلس سائر الأحجار ؛ ولهذه العلة يقول الحكماء أنه اذا حل وطليت به الأجسام لم تحرقها النـــــار . التيفاشى ، أزهار الأفكار ص ٢٠٤ .

(١٠) كان المصدر الوحيد للألماس بلاد الهند وجزيرة سرنديب ، واستمر الأمر كذلك طوال العصور الوسطى . نفس المصدر ، ص ٢٦٧ .

(١١) كان وزن فص الخاتم الذى يسمى الجبل مثقالين قوم واشتراه أبو جعفر المنصور بأربعين ألف دينار . الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ١٩ .

(١٢) يقول الجاحظ : « وخير العقيق اليمانى الشديد الحمرة الذى يرى فى وجهه شبه الخيوط ، وكلما كان أصفر وأضوأ كان أجود فى الثمن » التبصر بالتجارة ، ص .

علمة النـاس على التزين به ، ومنـه ما يحتاج اليه في صيـناعة التزويق والزخرفة فقط .

ومن الجدير بالذكر ان التيفاشي المتوفي عـام ٦٥١ هـ كان خبيرا بأنواع الأحجار الكريمة ، مجيدا لصناعة الجواهر ، فهو يتحدث عن اللازورد ويقول : « وقد يصنع اللازورد بالكيفية التي أنا واضعها » مما يدل على مهارته الفنية ، والقدرة على صناعة نوع من اللازورد كما يوجد في معدنه الأصلي .

وكان للجوهرجية أسواق خاصة وأحياء يعملون بها في الفسطاط والاسكندرية وتنيس وغيرها من المدن المصرية . كما كان للصناعة أو صناع الحلى وأدوات الزينة أسواق لهم في سائر المدن يمارسون بها مهنتهم(١٤) .

وفي العصر الطولوني تمتعت مصر بمكانة مرموقة بين الدويـلات الاسلامية التي كانت خاضعة للخلافة العباسية ، وتوضح لنا المصادر اهتمام الطولونيين بأنواع الحلى وأدوات الترف والزينة ، والى ما كانت تضمه ثروتهم منها . ويعتبر جهاز قطر الندى ابنة خمارويه خير شاهد على ذلك ، فقد تفنن صناع الحلى والجوهر في ابداع الأشكال العجيبة من التحف الذهبية وغيرها من الطرائف ، يذكر المسعودى ان ابن الجصاص (١٥) الذى تـولى أمر صنع جهازها ، حمل معها جوهرا لم يجتمع مثله عند خليفة قط .

فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، في كل عين من التشبيك قرط فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها

---

(١٣) الجوهرى هو صاحب الجوهر المزخرف بالجوهر والمينا ، والجوهر لفظ معرب وممن اشتغل بهذا الفن مماتي الجوهرى جد أسعد بن مهذب الكاتب المصرى مؤلف كتاب قوانين الدواوين . مقدمة الكتاب .

(١٤) ويذكر ابن الاخوة أنه كان على الصاغة الا يبيعونها أواني الذهب والفضة والحلى المصنوعة الا بغير جنسها ليحل فيها التفاضل ، وان باعها بجنسها حرم فيها التفاضل . معالم القربة ، ص ٢٢٨ .

(١٥) هو الحسين بن عبد الله الجوهرى المعروف بابن الجصاص ، وكان تاجرا عراقيا يتجر في الجواهر ، ثم رحل الى الفسطاط في عهد الأمير الطولوني خمارويه (٨٨٣ ـ ٨٩٥م) ثم اتصل به ونال حظوة عنده ، وجعله وكيله الوحيد لتجهيز البلاط بالأحجار والجواهر الكريمة . وقد صادر الخليفة المقتدر العباسي ثروة ابن الجصاص ، وأخذ ما عنده من المال ما قيمته أربعة آلاف دينار . توفى ابن الجصاص سنة ٣١٥ هـ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ١٨ ، عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ١١٥ .

قيمة ، وصناديق مملوءة بالشمعدانات وأواني الذهب والفضة ، منها مائة هاون من الذهب . وقد بلغت نفقات قطر الندى عند زواجها من المعتضد عام ٢٨١ هـ عشرين ألف دينار في حين كان صداقها مليون درهم . كما يصف المقريزى جهاز قطر الندى فيقول : « أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها » .

ومما لا شك فيه أن ما حفلت به المصادر التاريخية في هذا الصدد ، انما يعكس في جلاء ووضوح مدى تقدم الصناع ومهارتهم الفائقة في صناعة أنواع الحلي والجواهر أيام الطولونيين ، وذلك على الرغم مما قيل في ذلك الوقت أن الخليفة العباسي المعتضد انما أراد بزواجه من ابنة خمارويه العمل على استنزاف موارد الدولة الطولونية وافتقارها (١٦) .

وقد انتشرت صناعة الأقراط والخواتم والسوارات والدمالج (١٧) وأنواع القلادات والخلاخيل وغيرها من أنواع الحلي ، وكان على الصائغ اذا أراد صياغة شيء من الحلي لأحد الناس ، ألا يقوم بسبكه في الكور أو في الروباص (١٨) الا بحضرة صاحبه بعد تحقيق وزنه ، فاذا فرغ من سبكه أعاد الوزن وان احتاج الى لحام فانه يزن قبل ادخاله فيه ، ولا يركب شيئا من الفصوص والجواهر على الخواتم والحلي الا بعد وزنها بحضرة صاحبها (١٩) .

ومما يدل على ازدهار صناعة الحلي والجواهر في عهد الاخشيديين تلك المظاهر التي جاءت في وصف الاحتفال بليلة الغطاس بمصر ، وقد خرج مئات الألوف من الناس من المسلمين والنصارى يشاركهم الاخشيد ، وعليهم من الملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر ما يفوق الوصف .

وقد اهتم محمد بن طغج الاخشيد بصناعة الجواهر ، يذكر ابن سعيد أن الاخشيد كان مغرما بجمع المال واقتناء الجواهر ، بلغ ما خلفه من الثروة حين وفاته عام ٣٣٤ هـ ما قيمته مائتا ألف دينار من نوع المجوهرات الثمينة . ويذكر المقريزى تلك الهدية التي تقدم بها القائد جوهر حين

---

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان . جـ ١ ، ص ١٧٤ ، الكبيسى : أسواق بغداد ، ص ١٦٧ .

(١٧) الدمالج جمع دملج وهو ما يلبس لتزيين العضد والقلادة للعنق . الثعالبي : فقه الله وأسرار العربية ، ص ٢٤٨ .

(١٨) الروباص : هو الاناء الذى تصهر فيه المعادن لتصبح خالصة من الشوائب .

(١٩) الشيزرى : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ٧٧ .

قدم المعز وجلس فى قصره ، وكان منهــا أربعــة صناديق مشـبكة يرى ما بداخلها من أوانى الذهب والفضة ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ودرجات من فضة محرقة فيها جوهر وشاشية مرصعة فى غلاف وغيرها من ذخائر مصر ، ولا شك أنها كانت كلها من صناعة المصريين فى أواخر عهد الاخشيديين وبداية العصر الفاطمى .

ولم تقتصر صناعة الحلى والجواهر الثمينة على الفسطاط وحدها بل كانت الاسـكندرية وغيرها من مـدن الصعيد تضـم أسـواقا للصـاغة والجوهريين ، وقد وصلتنا مجموعة من شواهد القبور تشتمل على أسماء بعض الصاغة من عهد الطولونيين والاخشيديين تعزز ذلك ، فمنها شاهد رخام من الصعيد باسم « يانسية ابنة زكريا بن يحيى الصائغ » ، وشاهد حجر رملى بتاريخ ٢٨ رجب سنة ٢٩٨ هـ باسم فاطمة ابنة أحمد بن جعفر الصائغ ، وآخر من الفسطاط يرجع تاريخه الى جمادى الأولى سنة ٣٦٢ هـ باسم « حسون بن على بن داود بن سليمان الصائغ » كذلك من الشواهد التى وردت من الصعيد ومؤرخة فى أول شعبان سنة ٣٧٥ هـ/١٧ ديسمبر سنة ٩٨٥ م باسم لولو ابنة رزق الله حسين بن داود الصائغ ، ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بهذه المجموعة من شواهد القبور التى تكشف لنا مدى انتشار هذه الصناعة فى ذلك العصر فى سائر المدن المصرية .

كذلك يحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة بمجموعة من شواهد القبور التى تحمل أسماء بعض الجوهرية وهى ترجع الى أواخر عصر الولاة وعصر الطولونيين والاخشيديين . فمن هذه الشواهد ورد اســـم زوجة عبد الله بن سعيد المرى الجوهرى مؤرخ بسنة ٢٧٩ هـ/ديسمبر ٨٩٢ م ، وشاهد آخر باسم خفيف مولى محمد بن موسى الجوهرى ، وشاهد رخام بالمتحف نفسه ربما يرجع الى القرن الثالث الهجرى باسم فاطمة ابنة عبيد بنت محمد بن أبى عمران الجوهرى ، وشاهد رخام يرجع تاريخ وفاة صاحبه الى سنة ٣٥٥ هـ وقد حمل اسم عثمان المكنى بأبى عمرو عبد الله ابن الحسين بن عبد الله الجوهرى المعروف بابن الجصاص .

وقد نشطت حوانيت الصاغة بالفسطاط والاسكندرية وغيرهما بمجىء الفاطميين وحكمهم للبلاد فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ولا غرو فقد جاءوا يحملون معهم ما يشبه الطواحين من الذهب ، كما كان جل اهتمامهم بشأن الحصول على الذهب من مناجمه بالعلاقى ، فضلا عن البحث عن الكنوز والمطالب ، وجدهم فى ذلك السبيل ، يذكر ناصر خسرو أنه كان للسلطان خادم اسمه عمدة الدولة ، وهو أمير المطالبين ، وكان عظيم الجاه والمال ومن اختصاصه البحث فى تلال مصر عن الكنوز والدفائن ، كما كان

يأتى لهذا الأمر رجال من المغرب ومن بلاد الشام ، وينفقون المال الكثير في تلال مصر ومحاجرها ، وكثيرا ما يجدون الدفائن والكنوز •

وفي العصر الفاطمي لم تقتصر صناعة الحلى على أنواع أدوات الزينة الخاصة بالنساء ، وانما كانت أدوات كثيرة تصنع من الذهب وتحلى بمختلف أنواع الجواهر واليواقيت والزمرد ، وهى لا شك توضح لنا مدى استخدام الذهب والفضة ومظاهر الترف لدى الفاطميين ، وحرصهم على اقتناء التحف الثمينة من جهة ، كما تكشف لنا من جهة أخرى عن المهارة الفائقة التى بلغها صناع الحلى والجواهر فى عصرهم •

وأول ما يطالعنا من استخدامات الذهب والجوهر فى قصور الفاطميين تلك المسميات التى أطلقوها على مجالس حكمهم ، ومنها قاعة الذهب بالقصر الشرقى الذى بناه القائد جوهر لمولاه المعز ، وقصر الذهب الذى تم تشييده فى عهد العزيز بالله ، وهى تدل فى وضوح على تشجيع صناعة الحلى والجوهر ، فقد استخدم الصناع مقادير هائلة فى صناعة التحف الثمينة من الذهب والفضة على أشكال مختلفة وزينوا بها مجالس الحكم • فقد قيل فى كتاب الذخائر والتحف أن وزن ما استعمل من الذهب الأبريز الخالص فى سرير الملك كان مائة وعشرة آلاف مثقال (٢٠) ، كما نسج لصناع تلك الستائر من خيوط الذهب لتزيين القاعات ، فضلا عن التماثيل والتحف الذهبية التى وضعوها فى صدر هذه القاعات •• فمن أجل النفائس التى كانت تزين القصر الفاطمى تحف على شكل حيوانات وطيور منها طاووس من ذهب مرصع بالجواهر عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج المموه بالمينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس •

كما يذكر المقريزى أن وزن ما حلى به الستر الذى أنشأه سيد الوزراء أبو محمد اليازورى من الذهب ثلاثون ألف مثقال ، وأنه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه • وأن ما تم به تحليته وتزيين الشمسية الكبيرة التى أقامها كان ثلاثون ألف مثقال ذهبا وعشرين ألف درهم مخرقة وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر الألوان •

وقد أفاض المؤرخون فى ذكر التحف الفاطمية النفيسة والآلات الملوكية المصنوعة من الذهب والفضة التى كانوا يستخدمونها فى مواكبهم العظيمة ، ونخص بالذكر منها تاج الخليفة فكان فيه جوهرة عظيمة تعرف

---

(٢٠) المثقال يساوى درهم وثلاثة أسباع وزنة من الذهب •

باليتيمة زنتها سبعة دراهم ، ولا يقوم لنفاستها وحولها جواهر أخرى دونها ، وقضيب الملك الذى كان يمسك به الخليفة وهو ملبس بالذهب المرصع بالدر والدواة التى كانت تتخذ من الذهب وحليتها مصنوعة من المرجان • وكما يذكر القلقشندى من التحف التى كان يستعملها الفاطميون فى مواكبهم الرمح والدرقة ، فالرمح فى غلاف منظوم باللؤلؤ والحافر وهى قطعة من ياقوت أحمر فى شكل الهلال ، زنتها أحد عشر مثقالا ، ليس لها نظير كانت تلف حول عمامة الخليفة عند ركوبه فى المواكب المختلفة •

وكما استخدم الفاطميون الذهب والفضة كذلك فى تحلية السروج والسيوف ، فانه بلغ من ترفهم ومظاهر النعيم أن صنعوا الآلات الموسيقية من الأبواق والنقارات والطبنبول وغيرها من الذهب والفضة وكانوا يستعملونها فى مواكبهم العظام • وقد أطنب المقريزى وغيره من المؤرخين فى حديثهم عن خزائن الفاطميين ، وما حفلت به خزائن الجوهر والطيب والطرائف ، وما كانوا يحتفظون به من سائر الأوانى والتحف الذهبية والأوانى الكريمة والحلى •

كان حرص الخلفاء الفاطميين ووزرائهم على اقتناء المجوهرات والتحف المعدنية الثمينةمن أهم مظاهر الترف والنعيم منذ بداية عهدهم ، فقد جاء فى ترجمة العزيز بالله أنه كان أديبا فاضلا ، يعرف قيمة الجوهر ويحرص على اقتنائه • كما كان حرص وزيره المخلص يعقوب بن كلس على حوزة الجوهر واقتنائها أيام توليه الوزارة ، يذكر ابن منجب الصيرفى أنه : « وجد له من الجواهر ما يبلغ أربعمائة ألف دينار حين وفاته » •

ومما يذكر أن الحاكم بأمر الله فى بداية عهده كان يلبس على صدره العسجدة وهى درقة من ذهب مكللة بفاخر الجوهر يضىء لها ما حولها ، اذا وقعت عليها الشمس لا تطيق العيون النظر اليها • كما ذكر أن من جملة ما خلفه وصيه برجوان حين أمر الحاكم بقتله عام ٣٩٠ هـ من الحلى والمصاغ والطيب والصياغات من الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة • وقد ذكر المقريزى أن هدية ست الملك الى أخيها الحاكم بأمر الله كان من بينها تاج مرصع بنفيس الجوهر وبديعه ، وشاشية مقطعة (٢١) ، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر ، مما فاق فى صنعه ما كان معمولا فى قصر المقتدر الخليفة العباسى (٢٢) •

(٢١) الشاشية : هى من نسيج حريك محلاة بالذهب وتصنع من القصب المذهب .

(٢٢) كان قصر المقتدر به شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم وكان عليها من الطيور التى تتمايل فوق أغصانها وتصفر فى حركات بديعة تبهر الناظرين (آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٨٢)

وكذلك خلفت الأميرة عبدة بنت المعز لدين الله حين وفاتها سنة ٤٤٢ هـ ثروة طائلة وتحفا لا تحصى ، منها نحو أربعمائة سيف محلى بالذهب ، ونحو أردب من الزمرد وغير ذلك من الجواهر والأقمشة النفيسة والأباريق والطسوت من البلور الصافي وهكذا توضح لنا الأدلة التاريخية أن الفاطميين بزوا منافسيهم العباسيين في بلاطهم ، وفي حوزتهم للمجوهرات والكنوز التي حفلت بها خزائن ملكهم .

كما تشير المصادر الى حياة الرخاء والترف التي عاشها المصريون أيام حكم الفاطميين ، ولا سيما قبل وقوع الشدة العظمى في عهد الخليفة المستنصر ، فقد أقبلوا على شراء واقتناء الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة وقد عبر ناصر خسرو عن أمن المصريين واطمئنانهم وعن تجار الجواهر والصيارفة ورخائهم العظيم ، وقيل انه كان بمصر أحد التجار اليهود وافر الثراء يتجر بالجواهر ، كان يعتمد عليه الخليفة في شراء ما يريد من الجواهر الكريمة . وقد جاء في أوراق الجنيزة ما يتضمن أن حرفة الجوهرية كانت من أعمال اليهود بمدينة الفسطاط ، كما تشير الى رحيل بعض الصاغة المغاربة ونزوحهم الى العاصمة المصرية آنذاك .

وهكذا ازدهرت صناعة الحلي وأدوات الزينة وغيرها من الجواهر بالفسطاط ، وقد عثر في حفائر الفسطاط على أساور وخواتم وأقراط من من الذهب أو الفضة ، وعليها زخارف نباتية دقيقة ، ومن المرجح أنها ترجع الى العصر الفاطمي وأنها صنعت في دار الجوهر بها (٢٣) .

وكان الصياغ يصنعون قطع الحلي والجواهر من الفضة بمدينة الفسطاط ، حيث تتمتع الفضة بعدة خصائص فنية وجمالية من أهمها لونها الأبيض البراق ، وعدم تأثرها بالهواء أو الماء ، وقابليتها للطرق والسحب والصقل (٢٤) ، ويذكر المقريزي أن الصناع كانوا يتخذون منها الحلي والأواني ، فضلا عن سك بعض النقود منها لزوم نفقات البيوت وفي حياة الناس اليومية .

ولا شك أن صناعة الحلي أو الجواهر لم تكن قاصرة على الفسطاط ، بل ظلت الاسكندرية من مراكز الصناعات الهامة خلال العصر الفاطمي .

---

(٢٣) ذكر ابن دقماق أن دار الجوهر كانت تقع بجوار خوخة السراج : وهي رحبة واسعة كانت سوقا هاما لصناعة وبيع الجواهر بالفسطاط .

الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٨٣ .

(٢٤) كان من الممكن عمل رقائق فضية يصل سمكها الى جزء من الألف من السنتيمتر : حسن الباشا وآخرون : القاهرة ــ تاريخها ، ص ٥٦٦ .

ويذكر التيفاشى أنه كان بها من الجوهرين من أهل الأندلس من يعمل بصناعة الجوهر والأحجار الكريمة ، كما كان من المرجان المغربى ما يحمل الى الاسكندرية فيصنع بها ٠

وقد برع الجوهريون فى كيفية الكتابة على فصوص الخواتم المتخذة من المرجان ، ويوضح لنا هذه الطريقة فيقول : « كان يضع على جميع الفص أو الخاتم شمعا ، ثم يعمد الى موضع النقش منه فيكفت فيه برأس ابرة ما أحب حتى ينكشف الشمع عن موضع الكتابة لا غير ، ثم ألقاه فى خل خمر حاذق يوما وليلة ، ثم رفعه وأزال عنه الشمع فانه يجد موضع الكتابة محفورا قد تآكل بالخل وبقية الفص أو الخاتم على حاله لم يتغير » ٠

كذلك اشتهرت المدن المصرية الأخرى كالفيوم والأشمونين والبهنسا وأسيوط واخميم وقوص بالصعيد (٢٥) ، وكذلك تنيس ودمياط وغيرهما من مراكز الصناعة والحضارة بالوجه البحرى ، فقد كانت حافلة بأسواقها وفى قيام الصاغة والجوهرين بصناعة أنواع الحلى وأدوات الزينة بها أيام الفاطميين ٠

ومن أسماء الصاغة أو الصياغ التى وصلتنا من العصر الفاطمى ، ما أوضحتها تلك المجموعة من شواهد القبور ، منها شاهد يحمل اسم هبة ابنة على بن عبد الله بن شبيب الصائغ عثر عليه بأسوان ويرجع تاريخه الى آخر شهر رجب سنة ٣٦٥ هـ/٣ ابريل سنة ٩٧٦ م ، مما يدل على قيام هذه الصناعة فى مدينة أسوان فى أقصى جنوب الصعيد ٠ ومن الأسماء ما ورد على شاهد حجر رملى من الصعيد أيضا بتاريخ ١٥ جمادى الآخرة سنة ٣٨٤ هـ باسم محمد بن على سراب بن أحمد بن داود بن سليمان الصائغ ٠ وشاهد حجر رملى بتاريخ ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨٩ هـ ، باسم ابراهيم بن حسين بن سليمان بن داود بن سليمان الصائغ ٠

وفى عهد الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر كان ممن يمارسون صناعة الحلى والجوهر ـ من واقع ما ورد على شواهد القبور من الأسماء ـ جعفر بن ابراهيم بن أحمد بن داود بن سليمان الصائغ ، وشاهد آخر باسم الحسن بن محمد بن محان بن ابراهيم بن مسلمة الصائغ وغيرهما ٠

---

(٢٥) تشير مثلا كتب الرحلة الى مدينة قوص وان اهلها ارباب ثروة واسعة ، وانها مدينة قديمة وكانت عاصمة اقليم الصعيد فى العصر الفاطمى ، وجاء فى وصفها انها حفيلة الاسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق ٠ ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤١٣ ؛ رحلة ابن جبير ، ص ٣٥ ، ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٥ ، ص ٢٨ ٠

وبالمتحف البريطاني شاهد من الصعيد يحمل اسم هرون بن يحيى الصائغ المتوفى سنة ٤٣٢ هـ ، وشاهد ثان من مصر العليا باسم حسين ابن رزق الله بن على بن حسن بن داود الصائغ ، ومما يلفت النظر أن معظم هذه الشواهد بأسماء أفراد من أسرة واحدة هى أسرة سليمان بن داود الصائغ ، مما يدل على توارث حرفة الصياغة والحرف الأخرى فى العصور الاسلامية .

ومن الجدير بالذكر أن صناعة الحلى والجوهر والاتجار بها كانت من الحرف الرائجة ، وكان يعيش أصحابها فى حالة من الأمن والاطمئنان فضلا عن ثرائهم . فقد ذكر ناصر خسرو أن تجار الجوهر كانوا لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر .

ويبدو من الروايات التاريخية ما يدل على خبرة الجوهريين العالية ، وان كانت لا تعطينا من الأدلة ما يكفى لاثبات انفرادهم فى اعداد أو صناعة هذه الجواهر بالمقادير الهائلة التى كانت تحفل بها خزائن القصر الفاطمى.

ومهما يكن فان ما يضمه متحف الفن الاسلامى من مجموعة الخواتم الذهبية (٢٦) ، وغيره من المتاحف فى الخارج (٢٧) ، يكشف لنا عما بلغه صناع الحلى والجوهريين من دقة واتقان فى صنعتهم زمن الفاطميين .

كما توضح لنا المصادر مدى شغف الفاطميين حتى أواخر أيامهم باقتناء للتحف والأموال والنفائس ، فقد خلف الأفضل بن أمير الجيوش من الثروة والجوهر الشىء الكثير ، كان من بينها ثلاثون راحلة أحقاق ذهب عراقى ، ودواة من ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ، ومائة مسمار من الذهب وزن كل مسمار منها مائة مثقال .

ولما استولى صلاح الدين على خزائن القصور الفاطمية بعد موت العاضد عام ٥٦٧ هـ ، أخذ منها ما يخرج عن الاحصاء والتحف الثمينة العجيبة التى تخلو الدنيا من مثلها ، فمن ذلك الجبل الياقوت الذى بلغ

---

(٢٦) يضم متحف الفن الاسلامى بالقاهرة مجموعة من خواتم الذهب المزخرفة بزخارف نباتية أو حيوانية وعليها الكتابة الكوفية ، وأيضا من مشابك الصدر المصنوعة من الذهب بأشكال مختلفة بزخارف نباتية أو طيور بالمينا وسواران من الذهب عليهما شبكة بكتابة كوفية ، وكذلك يضم المتحف علبة من الفضة لحفظ التميمة مزخرفة بكتابة كوفية ترجع صناعة هذه المجموعة كلها الى القرنين الخامس والسادس من الهجرة .

(٢٧) ويضم متحف المتروبوليتان ثلاث قطع جميلة هى زوج من الأقراط ودلاية على شكل هلال يمكن ارجاع صناعتها الى منتصف القرن الحادى عشر الميلادية . ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ١٥٣ .

وزنه سبعة عشر درهما ، أو سبعة عشر مثقالا ، والقصاب الزمرد ، فكان من الذخائر المعدومة المثل ما لا يعد ٠

ويرجح لوبون وغيره من المؤرخين الغربيين أن يكون الأوروبيون قد اقتبسوا صناعة الحلى المنقوشة من تلك المنتجات فى مصر وغيرها من بلاد الشام ، والتى دخلت الى الممالك الأوروبية عن طريق التجارة والتى جلبها معهم الصليبيون عند عودتهم من الشرق الاسلامى ، وقد عثر على قطع من الحلى والمجوهرات عليها زخارف ذات مسحة شرقية اسلامية فى بلاد السويد والنرويج والدانمرك لا شك أنهـــا وصلت الى تلك الجهات النائية عن طريق التجار المسلمين فى العصور الوسطى ٠

٤ ـ صناعة سك النقود ودور الضرب المصرية

كانت دار الضرب بالاسكندرية من أهم دور الضرب فى مصر قبل الفتح العربى ، وذلك منـذ أعـاد الامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) ضرب نقود مصرية فى عاصمة البلاد المصرية ٠

ويبدو أن هذه النقود كانت تقتصر فى ضربها على معدن البرونز ، ولم تصدر عن دار الضرب هـذه أى عملة فضية أو ذهبية ، منـذ العصر الرومانى (١) ، وذلك على الرغم مما تشير اليه أوراق البردى التى ترجع الى القرن السابع الميلادى من أن قاعدة الذهب Gold Standard كانت أساسا للنظام النقدى فى مصر حتى بعد الفتح الاسلامى للبلاد (٢) ٠

وقد ظلت دار الضرب بالاسـكندرية تسك بها النقود بعـد الفتح الاسلامى ٠ وفى عهد معاوية بن أبى سفيان (٤١ ـ ٦٠هـ/٦٦١ ـ ٦٨٠م) بدأ الصناع يضربون سكة ذهبية على الطراز البيزنطى فى هذه الدار كما حدث فى العاصمة الأموية دمشق ، وكان ذلك فى نطاق محدود حيث أن معظم السكة (٣) التى كانت تغذى الأسواق فى مصر وسوريا كانت تأتى من بيزنطة سدادا لأثمان البردى المصدر اليها ٠

---

(١) تشير أوراق البردى الى العملات النحاسية والبرونزية والى التعامل بالأفلاس ابان الفتح العربى ، كما تشير المصادر الى أنه منذ عهد أغسطس كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية فقط ٠ جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ١٥٦ ، ابراهيم صبحى : مصر فى عصر الرومان ، ص ١٤٢ ، بحث نشر مجلد الحضارة المصرية ، جـ ٢ ٠

(٢) نفس المرجع ، جـ ، ص ١٥٧ ٠

يضم المتحف القبطى مجموعة من العملات الذهبية من الطراز البيزنطى والاسلامى يرجع ضربها الى القرن الخامس وحتى العاشر الميلادى ٠

(٣) لفظ السكة كان اسما للطابع ، وهى الحديدة المستخدمة للختم على الدينار والدرهم بما ينقش عليها من صور وكلمات ٠ ابن الأزرق : بدائع السلك ، جـ ١ ، ص ٢٦٤ ٠

ومن الملاحظ أن معاوية لم يحدث تغييرات تذكر في سك النقود من حيث العيار وخلافه ، وانما قام الضرابون بضرب الدنانير وعليها صورته وبيده سيف ، كما تم ضرب دراهم وزن الواحد منها ستة دوانق .

والواقع أن الجزية والخراج والضرائب الأخرى وأجور العمال وسائر المعاملات كانت تدفع بالدراهم والدنانير في العصر الأموى (٤) ، وكانت تعرف الدنانير في أوراق البردى اليونانية باسم Solidi ، كما كانت تؤدى في العصر الرومانى والبيزنطى بالدراخمات (٥) ، والتى كانت تسك من مزيج من البرونز والفضة .

وهكذا أصبحت دار الضرب بالاسكندرية تسك بها النقود على أنواعها المختلفة منذ أوائل العصر الأموى ، واستمر بها الضرابون والنقاشون وغيرهما من الصناع في عصر الولاة ، مع الأخذ في الاعتبار أن دار الضرب لم يكن يسجل اسمها في مصر على السكة قبل سنة ١٩٩ هـ ، وأغلب الظن أن هذه الدنانير التى كانت تحمل اسم مصر كانت تضرب في دور السك القائمة في الاسكندرية والفسطاط على السواء باعتبارها أعظم دور الضرب وقتئذ .

أما دار الضرب التى تم تأسيسها في الفسطاط العاصمة بالقرب من جامع عمرو (٦) ، فأغلب الظن أن الوالى عبد العزيز بن مروان ـ كان أول من اتخذ ذلك (٧) كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفى حينما اتخذ دارا

---

(٤) يذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب ، كتب الى أمراء الأمصار الا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه المواسى .(أي من بلغ سد الرشد) وجزيتهم أربعون درهما وعلى أهل الورق ، وأربعة دنانير على أهل الذهب . فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٥ .

(٥) أوضح Milne أن الصباغين والقصارين وغيرهما ممن كان يعمل في حرفة النسيج كانوا يؤدون ما قيمته ١٩٢ دراخمة للقصار ، وكان الصباغ يدفع ٢٨٨ دراخمة سنويا كضريبـــة .

A History of Egypt under Roman rule, p. 156.

(٦) وردت أول اشارة عن دار الضرب حينما قام عقبة بن عامر (٤٠ ـ ٤١هـ) من قبل معاوية ببناء دار لرمله ابنة الخليفة ، كما يذكر ابن عبد الحكم أنه سميت دار الرمل بجملة ينتقل من الرمل الى دار الضرب ، وفي حديثه عن اضـــافة عبد الله بن طاهر وتلك الزيادة التى أحدثها عام ٢١٣ هـ باذا من الخليفة للمأمون يشـــير الى أنه أذن له في اضافة ما بقى من دار الرمل كلها الا ما بقى منها من دار الضرب ، مما يدل على انشائها بجوار الجامع العتيق بالفسطاط . فتوح مصر والمغرب ، ص ١٤٤ ـ ١٧٩ .

(٧) أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز واليه على مصر في عام ٧٦هـ أن يأمر الصـــناع والمشرفين ع دور الضرب بسك العملات بالصبغة الاسلامية . المقريزى : اغاثة الأمة ، ص ٥٥ ، عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ٤٤ .

للضرب له بالعراق ، ونقش اسمه على الدراهم ، فعرفت بالعملة الحجاجية وسميت مكروهة لكره أهل العراق لها .

ومن المرجح أنه كان من أسباب انشاء دار للضرب بالفسطاط فى عهد الأمويين والاهتمام بأمرها ، تلك الدوافع الحقيقية التى أعادت حق ضرب النقود الى الخلافة الاسلامية ، ورغبة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) فى ضرب العملة ونقشها بالصيغة الاسلامية (٨) ، ونهيه فى أن يضربها غير المسلمين فى بيزنطة وغيرها .

كان الوالى أو الحاكم هو الذى يراقب سك النقود بدار الضرب ويعمل على معاقبة من يحاول غشها (٩) ، ويوضح المقريزى سبب ضرب الفلوس أو العملات النحاسية فى مصر فهو يرجع الى وجود « محقرات » فى المبيعات تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه ، فكان الخلفاء بازاء هذه المحقرات يضربون اليسير من معدن النحاس قطعا صغارا تسمى فلوسا لشراء ذلك .

وقد أمكن العثور على عملات نحاسية ، فبينما نجد فلوس (القاسم ابن عبد الله) صاحب خراج مصر (١١٦ — ١٢٤ هـ) لا يذكر عليها اسم

---

(٨) يورد كل من البيهقى والدميرى أن تعريب العملة فى عهد عبد الملك بن مروان كان بسبب تلك القراطيس التى كانت تصنع بمصر والتى كانت تطرز بالرومية وأنه حينما رفض تلك الصيغة المسيحية على القراطيس ، حدث أن هدد امبراطور الروم ان أصر الخليفة على تغيير الطراز أن يأمر بنقش الدنانير والدراهم وفيها ما يسىء الى نبى الاسلام ، عندئذ أمر عبد الملك بن مروان بعد استشارة القوم فى ذلك بضرب الدنانير والدراهم وعليها سورة التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه العملة ، وأمر أن يكتب فى ذلك الى جميع بلدان الاسلام ، وأن يتقدم الناس فى التعامل بها . المحاسن والمساوىء ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ — ١٢٩ . وقد ذكر المقريزى أن السبب فى ضرب العملة بالصيغة الاسلامية انما حينما أشار الأمير خالد بن يزيد على عبد الملك بوجوب سك العملة بما يتفق والصبغة الاسلامية وترك دنانير البيزنطيين . والواقع أن الخليفة الأموى حينما قام بمهمة التعريب لكل الدواوين فى مصر وفارس والشام ، والعمل على استقرار الدولة اقتصاديا بعد أن تهيأت لها أسباب الاستقرار السياسى ، فانه أصبح من لوازم السيادة الاسلامية تعريب العملة وسكها داخل دور الضرب فى كل من مصر والشام وغيرها ، اذ لا سبيل الى الاستقرار الاقتصادى ، مادامت مقومات الدولة المالية تدور فى فلك الدنانير البيزنطية والدراهم الساسانية . المقريزى : النقود الاسلامية ، ص ٤ ، عبد الرحمن فهمى : فجر السكة العربية ، ص ٥٢ .

(٩) اهتم الأمويون بمراقبة نقش الدراهم ، يذكر البلاذرى أن مروان بن عبد الحكم أخذ رجلا يقطع الدراهم فقطع يده بسبب غشه لها ، كما عاقب ابان بن عثمان وكان عاملا على المدينة كان يقطع الدراهم بأن ضربه ثلاثين سوطا وطوف به . فتوح البلدان ، ص ٤٥٦ .

مصر ، نجد فلوس عبد الملك بن مروان صاحب الخراج (١٣١ ـ ١٣٢ هـ) ووالى مصر يسجل عليها اسم مصر ـ الفسطاط • وهكذا يمكن القول بأن دار الضرب بالفسطاط بدأت عملها بسك العملات النحاسية ولم تبدأ فى ضرب الدنانير الا فى العصر العباسى حينما حصل الوالى فى مصر على حق الضرب للدنانير الذهبية (١٠) •

وهناك نوع من الفلوس التى نقشت ولا تحمل أسماء الولاة أو عمال الخراج ، ولكنها تشير فقط الى مكان الضرب ، حيث كانت هناك مراكز أخرى عديدة فى المدن المصرية لسك العملات النحاسية بها ، نذكر منها مدينة الفرما القديمة Pelusium (١١) وبجهة نبروه (١٢) وبمدينة الفيوم وأتريب (١٣) ، وأبوان واهناس وغيرها ، وقد كانت بمثابة دور ضرب مساعدة ، قامت على اصدار بعض المسكوكات الاقليمية الى جانب دار الضرب الرئيسية فى مصر أو الفسطاط •

ويشير ياقوت الى أنه فى العاصمة كانت تضرب الدنانير كما ذكر عند حديثه عن حلوان فهو يقول : « وأول من اختطها عبد العزيز بن مروان وضرب بها الدنانير وبنى بها دورا وقصورا واستوطنها وزرع بها بساتين وغرس فيها كروما ونخلا » ، كما ذكر المقريزى أن عبد العزيز بن مروان حينما وفد على أخيه عبد الملك فى سنة ٧٥ هـ ، وبعد أن هدم جامع الفسطاط كله وزاد فيه من جوانبه كلها فى سنة ٧٧ هـ أمر بضرب الدنانير المنقوشة •

وقد أشار الكندى الى صاحب السكة ونفوذه فى أوائل العصر العباسى ، لكنه لم يذكر لنا شيئا عن اسمه ، وذلك فى معرض حديثه عن

---

(١٠) اجرت بعثة كلية الآثار بعض الحفائر بظاهر الفسطاط عام ١٩٧٢م ، وقد عثرت على بعض المقابر وكانت تقع على ثلاث طبقات ، ترجع الطبقة الأولى منها الى العصر الأموى ، وعثر فيها على عملات نحاسية ، سعاد ماهر : حفائر كلية الآثار بظاهر الفسطاط ، ص ١٠٣ ـ بحث مجلة كلية الآثار ، العدد الأول •

(١١) ذكر اليعقوبى انها كانت اول مدن مصر وبها اخلاط من الناس وهى تقع الى الشرق من جهة بورسعيد • البلدان ، ص ٣٣٠ •

(١٢) نبروه من البلاد القديمة بمركز طلخا بمحافظة الغربية وقد اشار اليها ابن مماتى • قوانين الدواوين ، ص ٢١٥ •

(١٣) كانت كورة عظيمة منذ العصر الرومانى والبيزنطى وهى تقع بالقرب من بنها ومواقعها التلول التى بأحواض أتريب فى الجهة الشمالية من سكن بندر بنها • المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٢٩ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، جـ ١ ، ص ٦١ •

حركة العلويين ، حين قدم أحدهم الى مصر ونزوله على عسامة بن عمرو المعافرى ، فهو يتحدث عن صاحب السكة وأنه هو الذى أرشد الوالى على مصر حميد بن قحطبه من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور عام ١٤٣ هـ . ومن المرجح أن صاحب السكة هذا هو الذى كان مشرفا على دار الضرب بالعاصمة الفسطاط ، كما كان أحد عيون الخليفة العباسى فى مصر على الولاة أنفسهم وتصرفاتهم ازاء الحكم العباسى حينذاك .

وكان على بن سليمان أول من ضرب الدنانير فى الفسطاط عام ١٦٩ هـ وهناك من الدنانير ما تحمل اسمه وترجع الى سنة ١٧٠ هـ ، ١٧١ هـ ثم تعددت بعد ذلك دنانير الولاة وعمال الخراج فى مصر فى العصر العباسى وفى سنة ٢١١ هـ ظهرت النقود فى الفسطاط مضروبة باسم عبد الله ابن طاهر قائد جيوش المأمون ، وأضيفت الى كتابات الدنانير بعض الآيات القرآنية مثل « لله الأمر من قبل ومن بعد » كما أكملت بعض العبارات المقتبسة من القرآن الكريم وأضيفت البسملة كاملة الى عبارات الضرب وتاريخ ذلك على الدنانير التى تم سكها بدور الضرب بالفسطاط .

كانت دور الضرب المصرية فى عصر الولاة تضم العديد من هؤلاء الصناع من النقاشين والسباكين والضرابين ، وجميعهم من خيرة الفنيين المهرة فى صهر المعادن وسك النقود ، وقد أوضح ابن بعرة تلك المراحل التى كان يمر بها المعدن فى دار الضرب ليصبح عملة صالحة للتداول بعدها . كما أشار الى اعداد سبيكة الدراهم وطريقة تصفيحها ، حيث كانت الدراهم المصرية منذ فجر الاسلام عبارة عن صفائح رقيقة من الفضة (١٤) ، مضروب عليها بقالب الدرهم من وجهين بعد التأكد من نقاء سبيكة الفضة حيث تضرب الدراهم على القطع التى تم تدويرها دون تشقق (١٥) . وكان تقطع سبائك الفضة ، ويضاف اليها جزء من الرصاص ، حيث يقوى صلابة الصفائح الفضية ثم تجلى بعد ذلك عن طريق جمعها فى كبشة وتنطفىء وهى ساخنة فى ماء الليمون والملح حتى اذا ظهر بياض الفضة جليت بالرمل الناعم ويختم عليها .

---

(١٤) كان أول من ضرب الدراهم فى الاسلام هو مصعب بن الزبير عام ٧٠هـ بالمدينة ، ونقش عليها « بركة من جانب رسول الله » . ابن الاخوة : معالم القربة فى معالم الحسبة ، ص ٤٤٣ .

(١٥) ويضم متحف الفن الاسلامى درهم ضرب بدار الضرب بالفسطاط فى سنة ٢٠٤هـ باسم « السرى بن الحكم » وقد سجل عليه اسم الخليفة المأمون وطاهر بن الحسين قائده ، وفى أسفل ظهر الدرهم ظهرت كلمة السرى .

عبد الرحمن فهمى : فجر السكة العربية ، ص ١٠٣ .

وكان على المقـدم أن يحافظ على عيـــارى الذهب والفضـــة بدار الضرب (١٦) ، وذلك بفضل تحقيق وزن كل خرجة (سبيكة) ترد الى دار الضرب ، ولابد للمقدم من معرفة ما فى الأتون (الفرن) من سبائك ويختم على الأتون حتى لا يتطرق الى السبائك أبواب الشك والفساد ٠

أما عمل النقاش فهو حفر الكتابات المزمع ابرازها على السبيكة مقلوبة على القالب الأم ، من أجل اظهار بروزها على السكة ، وكان من عمل السباك أن يحضر وزن النحاس قبل طرحه فى البوتقة والفضة فى حال السبك ، وعليه أن يوزن العيار ونسبة النحاس الى الفضة ، فان درك الحاصل كما يقول ابن بعرة فى حالة السيطرة عليه والمسلم تحت يده ٠

ومن أهم الأعمال بدار الضرب تلك التى كان يقوم بها الضراب فعليه الختم على السكة المصبوبة قبل أن تبرد وتعود الى صلابتها ، واعداد القضبان المعدنية من السبائك المصهورة لانتاج الدنانير أو الدراهم والفلوس أيضا ، أو الختم على الأجزاء المستديرة من كل معدن فيها ثم جلاء سكة الذهب والفضة قبل السماح بتداولها ٠ وهكذا كانت دور الضرب وما تضم من النقاشين والسباكين والضرابين من أهم المراكز للصناعات المعدنية فى مصر الاســـلامية ٠

وقد كان أساس المعاملات المالية بين الناس الدينار الذهبى والدرهم الفضى (١٧) وكانوا يفضلون الذهب والفضـــة فى جميع الأحوال وذلك لسرعة سبكها وطرقها وتشكيلها بأى الأشكال مع حسن الرونق ٠ وتشير المصادر الى أن الناس كانوا يقدمون خامات الذهب والفضة وغيرها لكى تضرب لهم على هيئة نقود فى دور الضرب ، يتضح ذلك من قول ابن مماتى من أنه كانت تحصل على كل ما يضرب فيها من النقود ضريبة يسمونها ثمن الحطب وأجرة الضرابين ، ومقـدار ذلك درهم عن كل مائة درهم وربما اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن ، وكانت الدولة تحصل من وراء ذلك على دخل كبير ٠

---

(١٦) يقصد بالعيار تلك النسبة القانونية من وزن المعدن الصافى الموجود فى قطعة السكة ووزنها الكلى ، ويحدد هذا العيار بالنسبة للعدد ألف أو العدد ٢٤ – الذى يمثل الوزن الكلى ، فمثلا عيار قطعة فضية السكة ٢١ يعنى أن هذه القطعة تحتوى على ٨٧٥ من الف جزء أو ٢١ من ٢٤ جزءا ٠

(١٧) يذكر ابن خلدون أن عشرة دراهم من الفضة كانت تساوى سبعة مثاقيل من الذهب وكان وزن المثقال من الذهب يساوى ٧٢ حبة من الشعير ، وقد بلغ الوزن الأساسى للدينار مثقال من الذهب الخالص أى ٤٫٢٥ جرام ، وكان وزن الدرهم مثقالا أيضا ولكن من الفضة ٠ المقدمة ، ص ٢٣٠

وكان النـــاس فى عصر الولاة يقبـلون على ضرب الدنانير الذهبية والدراهم ، ويعملون على اقتنـائها أو اكتنـازها ، فمن طـريف ما ذكره المقريزى ما حكاه عن العجوز القبطية صاحبة قرية طاء النمل ، وما قدمته للخليفـة المأمون وأخيـه المعتصـم ورجال حاشيته من فاخر الطعـام ولذيذه (١٨) ، وما وضعته بين يديه ـ أثناء مروره على تلك القرية ـ من أكياس الذهب المضروبة ، فاذا هى من ضرب عام واحد كلها حينما تأملها وفكر فى ردها اليها ٠

ومن الدنانير التى عثر عليها ما يحمل اسم الخليفة المأمون ، وقد عثر على واحد منها من ضرب دار الفسطاط فى عام ١٩٩ هـ / ١٨٤ م ٠ مما يدل على أن الدنانير لم تكن تحمل اسم الولاه أو عمال الخراج فقط فى العصر العباسى وانما كانت تحمل اسم الخلفاء العباسيين على أحد وجهى العملة المضروبة بمصر وغيرها من الأمصار الاسلامية ٠

وفى عهد الطولونيين انعكس الرواج الاقتصادى الذى أصابته مصر على عملتها القوية آنذاك ، فقد سك أحمد بن طولون دينارا ذهبيا خاصا به، ومستقلا عن الدينار العباسى فى سنة ٢٦٦ هـ ، وعرف بالدينار الأحمدى ٠

وقد اختلف المؤرخون فى سر اهتمـام ابن طولون من أجل تنقية الذهب ليرفع عيار ديناره الأحمدى (١٩) ، كما اختلف الأمر بالنسـبة للدار التى ضرب هذا الدينار الجديد بها ، ولا شك أنه بعد نجاحه فى

---

(١٨) قدم الخليفة المأمون الى مصر فى سنة ٢١٧هـ حينما ثار الناس أو أقباط مصر على واليهم عيسى بن منصور الرافعى ، وكان قد بلغ خراج مصر فى أيام المأمون أربعة الاف الف ومائتى الف وسبعة وخمسين دينار ٠

الخطط ، جـ ١ ، ص ١٤٩ ٠

(١٩) ينقل القلقشندى عن ابن الطوير أن سبب خلوص الذهب بالديار المصرية ما حكى أن أحمد بن طولون كان يسير يوما بجهة عين شمس ، اذ ساخت قدم فرسه فى أرض صلدة فأمر بحفر ذلك المكان ، وعثر على لوح لطيف على صدر أحد الموتى مع بعض النواويس المملوءة بسبائك الذهب ، فأحضر ابن طولون أحد الرهبان من الصعيد لقراءة اللوح فلما وقف على ما فى اللوح قال : « ان هذا اللوح يقول : أنا أكبر الملوك وذهبى أخلص الذهب ، فلما بلغ ذلك ابن طولون شدد فى العيار على دار الضرب ، وكان يحضر ما يعلق من الذهب ويختم بنفسه فبقى الأمر على ما قرره فى ذلك من التشديد فى العيار ٠ صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٦٢ ٠ وروى المقريزى أن أحمد بن طولون ركب يوما فى سـمت الأهرام والعمال يحفرون فكشفوا عن حوض مملوء بالدنانير وعليه غطاء مكتوب عليه بما يشـبه ما رواه ابن الطوير فقد جاء على لسان الملك والذى ميز الذهب من غشه ودلسه فمن أراد أن يعلم فضل ملكى على ملكه ، فلينظر الى فضل عيار دينارى على عيار ديناره ٠٠٠ » ٠ الخطط ، جـ ١ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ٠

توحيد مصر والشام ، فإنه أقدم على ضرب الدنانير التي تحمل اسمه ، وهو مستعد لخوض غمار الحرب في سبيل اقرار هذا الحق لنفسه ، ومن المعروف أن سك العملة كانت احدى مظاهر الاستقلال ، وشارات الملك في العالم الاسلامي في ذلك الوقت ·

وهكذا كانت الدوافع الحقيقية وراء ضرب الدنانير الأحمدية ذات العيار الجيد ، والتى أقبل المصريون على التعامل بهما بدلا من الدنانير العباسية ، حيث حظيت من التقدير لنقاوتها ، كما اتجه الصاغة بوجه خاص الى اقتنائها على اعتبار أنها أفضل ذهب يستخدم في صناعة التذهيب ·

أما بالنسبة لانشاء دار ضرب جديدة على يد أحمد بن طولون لضرب هذه الدنانير التي عرفت بالأحمدية ، فربما كان الأمر يقضى بتأسيسها أو قيامها فى العاصمة الجديدة القطائع ليتسنى تحرير العيار الجيد على ما ارتآه ابن طولون (٢٠) ، وأما دار الفسطاط فقد أوقف العمل بها على ضرب الدراهم أو العملات النحاسية التى كانت أيسر حالا في سبكها وضربها ، كما كانت عليه الحال في بداية عملها في العصر الأموى على نحو ما أشرنا من قبل (٢١) ·

وتنحصر الدنانير الأحمدية فيما بين ٢٦٦ هـ ، ٢٧٠ هـ على التوالى ، وهى دنانير تشير الى دور سك مختلفة بعضها ضرب في مصر (٢٢) ، والآخر ضرب الرافقة ودمشق ، ومن تلك الدنانير التى ذكرها Lane-poole ما ضرب في مصر عام ٢٦٨ هـ/٨٨١ م ·

هذا ولم يقتصر الأمر على سك النقود من الدنانير فى عصر الطولونيين والاخشيديين ، بل استمرت دور الضرب فى اصدار السكة من الدراهم ، وكان يقترب وزنها من الوزن الشرعى للدرهم الاسلامى (٢٣) ، كما اهتم

---

(٢٠) يذكر البلوى ان الأمر الطولوني خصص لكل صنف من جميع الصنائع وافرد له سوقا حسنا عامرا ، ولكنه لم يذكر صراحة أنه تم تأسيس دار للضرب جديدة بالقطائع · سيرة أحمد بن طولون ؛ ص ٥٣ — ٥٤ ·

(٢١) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ج ١ ، ص ١١٧ ·

(٢٢) استطاع عبد الرحمن فهمى ان يجرى الكشف عن تقدير عيار السكة الطولونية فى حدود بعض القطع التى يملكها متحف الفن الاسلامى وقدرها نحو عشرين قطعة من الدنانير الاحمدية وقد ثبت لديه أن جميعها من عيار ٢٣½ قيراط من ٢٤ قيراط ، أو ٩٧٩ر٢ بحساب العيار الألفى ، وهو أعلى عيار وصلت اليه السكة الاسلامية على أى حال ، ولعل ذلك ما دفع المقريزى الى الاشارة الى تفوق العيار الأحمدى الذى لم يكن يصاب بأجود منه · الخطط ، ج ١ ، ص ٧٦ ، فجر السكة العربية ، ص ١٣٤ ·

(٢٣) تراوح وزن الدراهم الطولونية بين ٤٥ر٢ ، ٣ جرام بينما كان وزن الدرهم الشرعى يقدر بنحو ٩٧ر٢ جرام ·

ابن طولون بضرب الفلوس ، فبينما ضربت الدنانير الأحمدية ابتداء من سنة ٢٦٦ هـ ، ترى الفلوس الطولونية تظهر منذ بداية حكم الطولونيين .

كما يبدو الجديد فى سك النقود أنه لم يقتصر على تحرير العيار الجيد بالنسبة للدنانير التى ذاعت شهرتها (٢٤) ، وانما كان فى طريقة الصب التى اتبعها السباكون فى دور الضرب فى عهد الطولونيين والاخشيديين بالاضافة الى طريقة الطرق ، فبعد أن كان ينقى الذهب والفضة بالسبك عدة مرات ، كانت تصب منه قطع ذات وزن معين ، كما كانت تقطع منها قطع وتطرق لتأخذ شكلا دائريا ، ثم تطبع القطع المستديرة بحديدة منقوشة كان يطلق عليها السكة . وكان يعتبر ضرب النقود خارج الدور المخصصة لذلك جريمة يعاقب عليها .

كما يظهر أنه كان يتم وزن النقود المضروبة عند استلامها من دور الضرب ، وكذلك عند التعامل بها كما يتضح لنا من أوراق البردى العربية (٢٥) .

ومن أسماء الضرابين التى حفظتها لنا شواهد القبور من عهد الطولونيين اسم « عمر بن محمد الضراب » حيث ترجع وفاته الى سنة ٢٨٥ هـ/٨٩٨ م .

كما أمدنا ابن سعيد باسم متولى دار الضرب فى عهد الاخشيديين ، فهو ينقل لنا عن ابن زولاق رواية أشار فيها الى جشع الاخشيد وحبه للمال (٢٦) ، وذكر أنه حينما قدم صدقة بن الحسن المشرف على دار الضرب ومعه دنانير وسبيكة ، أحضر معه السباكين ليقوموا عيار الدنانير ، وقد جاء صدقه ومعه خمسون ديناراً لتسبك بحضرته فقال له الأخشيذ : « كم

---

(٢٤) ومن الأسرة الطولونية التى ضربت الدنانير باسمها الأمير هارون بن خمارويه ، لقد تم ضرب دنانير حملت اسمه بالفسطاط وذلك عام ٢٩٢هـ/٩٠٤م . الكندى : الولاة والقضاه ، ص ٢٤٢ .

Lane-poole : A History of Egypt, p. 76, Fig, 16.

(٢٥) جاء فى خطاب خاص بدفع مال يرجع تاريخه الى القرن الثالث الهجرى من طراز الأشمونين ما يحمل هذا المعنى فقد جاء فيه « صار الى على يد صبح خمسة دنانير ينقصوا ثلثين دينار غير ثلث قيراط » . جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ١٠٠ .

(٢٦) قيل ان ما خلفه الأخشيد بعد وفاته سبع مطامير ، فى كل مطمورة منها نحو مليون دينار ، كما خلف من الجواهر ما قيمته ألف دينار . والمطمورة هى الحفيرة فى الأرض تخبأ فيها الأشياء او الوعاء التى تخزن فيها النقود .

المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩٦ .

معك » فقال : « خمسون دينارا » فقال : « هاتها وأخرج منهـــا عشرة دنانير » فقال : « اسبكوا » فسبكت · واعتدل العيار ، فقال : « يكون العيار على هذا » ورد العيار الى على بن اسحق وسلم اليه السكك وانصرف · وهكذا أخـذ منهـا الاخشيد أربعين دينارا وسبكت فقط الدنانير العشرة الباقيـة ، وانصرف المشرف على دار الضرب بعد ذلك بعـد أن اضطر الى تعويض أصحاب الدنانير التي حصل عليها الاخشيد ·

ومهما يكن من أمر حب المال وجشع الاخشيد ، فقد اهتم بأمر دار الضرب فكان يشرف عليها بنفسه أحيانا ، وعنى بالنظام فيها ، وقد حسن حال مصر على يديه ، وأمر بضرب الدينار الاخشيدى على عيار كامل وصلحت النقود في عهده بعد فسادها ·

وكان متولى دار الضرب له الاشراف المباشر على العمال والصناع بها ، ولم يكن هناك ثمة تعارض مع أشراف القاضى عليها من الوجهة الادارية بل كثيرا ما كان القاضى يكتفى باختيار من يريده من نواب الحكم لمباشرة أعمال دار الضرب · وكما يذكر الكندى فان الحسين بن زرعة الدمشقى قد تولى قضاء مصر في شوال سنة ٣٢٤ هـ والنظر فى المواريث والأحبـاس ودار الضرب ·

ويظهر أن اســناد الاشراف الرسمى على دار السك أو الضرب الى القـــاضى انما كان هدف الحكام والولاه منــه هو ضمان شرعية الدنانير والدراهم التى تصدر عن الدار بأسمائهم سواء من حيث جواز العيار أو الوزن ، خاصة وأن القاضى كان يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره ·

ومن أسماء العاملين بدار الضرب فى عهد الاخشيديين كما يذكر ابن سعيد كان يحى بن رجاء المعدل ، لعله كان يشغل وظيفة المقدم الموكول اليه أمر حفظ العيار للذهب والفضة فى سك العملات الصادرة عنها ·

ولسنا ندرى من أمر أنواع الدنانير التى أطلق عليها المعســولة أو المشرقية ، والتى ورد ذكرها فى أوراق البردى وترجع الى القرن الرابع الهجرى ، ومن المرجح أنها لم تضرب بدار الضرب بالفسطاط ، بل حملها التجار من خارج مصر نتيجة لمعاملاتهم التجارية ·

ومن الملاحظ أنه لم تضرب الدنانير باسم مؤسس الدولة الاخشيدية وانما باسم الخليفة العباسى ، أما نقش اسمه على الدنانير بمفرده ، فقد حدث ذلك فى سنة ٣٢٩ هـ ، حينما فكر الاخشيد فى الاستقلال التام عن

الخلافة العباسية ، واتخاذ نقش السكة كاحدى شارات الملك (٢٧) .

كان الغلاء الشديد الذى وقع فى مصر سنة ٣٤٢ هـ واستمر نحـو تسع سنين متتابعة من الأسباب التى أضعفت الدولة الاخشيدية وعجلت بسقوطها ، كما يبدو أنه كان من أسـباب تعطيل دار الضرب بالفسطاط نتيجة لتلك الظروف السيئة ، خاصة بعد موت كافور واضطراب الأحوال وكثرة الفتن ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار .

ويؤكد المقريزى على أن دار الضرب بمصر قد تعطلت فى تلك الفترة، كما يتضح لنا من قوله صراحة : « وأمر جوهر بفتح دار الضرب ، وضرب السكة الحمراء (٢٨) وعليها دعاء الإمام معد بتوحيد الإله الصمد فى سطر وفى السطر الآخر المعز لدين الله أمير المؤمنين » .

كما يفيد النص فى أن القائد جوهر قام بضرب الدينار المعزى منذ فتحه للبلاد فى سنة ٣٥٨ هـ (٢٩) . ولا شك أن منع جوهر من التعامل بالدينار الأبيض (٣٠) وكان بعشرة دراهم (٣١) ، وكذلك الدينار المنقوش

(٢٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٢٩ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ٢٠٤ ، أما أن كافور الاخشيدى لم ينقش اسمه على السكة . فيبدو أن ذلك كان وقفا على نقش الدنانير والدراهم ، فهناك قطعة من الفلوس المضروبة باسم الأستاذ كافور وقد صنعت من خامة مصبوبة فى القلب مباشرة ، وتلك القطعة من بين مجموعة المسكوكات التى يضمها متحف الفن الاسلامى بالقاهرة . سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشـيديين ، ص ٢٠٤ ، عبد الرحمن فهمى : فجر السكة العربية ، ص ٢٢٤ .

(٢٨) ولعله يعنى بالسكة الحمراء الدينار الاحمر أى المصنوع من الذهب الجيد العيار الذى كان يمتاز به العصر الفاطمى . الكرملى : النقود العربية ، ص ٥٩ .

(٢٩) وجاء فى السطر الآخر على وجه الدينار الذى امر بضربه جوهر « بسم الله ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » . المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٣٠) ورد ذكر الدراهم البيض أنها كانت من ضرب الحجاج بن يوسف فى العراق ، كما يتضح مما أورده المقريزى أن هذا الدينار كان قليل القيمة جدا ، فلعله كان يشتمل على كمية كبيرة من الفضة مما اتضعت به قيمته ، ومما جعل الناس يسمونه بالابيض . نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٧٢ ، حاشية تحقيق جمال الدين الشيال .

(٣١) كان الدينار فى القرن الرابع الهجرى يساوى نحـــو الأربعة عشر درهما ، والدرهم ستة دوانق ، والدانق اثنى عشر قيراطا . آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

باسم الخليفة العباسى الراضى (٣٢) قد أدى منذ بداية حكم الفاطميين للبلاد الى نشاط دار الضرب المصرية وحاجتها الى سك المزيد من الدنانير والدراهم بما يتفق وسياسة الفاطميين الجديدة ٠

كما شجع على ذلك ما حمله المعز لدين الله من السبائك الذهبية فى هيئة أحجار الطواحين المستديرة ، وذلك حين قدومه الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ ٠ وقد قدرت هذه السبائك الذهبية بنحو ثلاثة وعشرين مليون دينار ، أعاد المعز ضربها من جديد فى دار الضرب المصرية بالفسطاط ٠

ويذكر المقدسى أن النقود كانت زمن دخول الفاطميين هى المثقال والدرهم والدينار الراضى ، وقد غير الفاطمى (يعنى الخليفة المعز لدين الله) تلك النقود ، وابطل القطع والمثاقيل والمكاييل ٠ كما جاء فى عقد الصلح بين جوهر المصريين فى الاسكندرية فى الثامن من شعبان سنة ٣٥٨ هـ أن وافق الطرفان على تغيير النقود وتجويدها ، ومنع الغش بها وصرفها الى العيار الذى عليه النقود والتى ضربها الفاطميون فى عاصمتهم المنصورية بشمال افريقيا (٣٣) ٠

وهكذا نشطت حركة سك الدنانير والعملات الأخرى ، بعد أن حملت السياسة الفاطمية الناس على التعامل بالدنانير الفاطمية ، والعمل على الاكثار من ضربها حتى تغمر الأسواق ٠ كما عمل الفاطميون على ضرب عملات جديدة من الذهب هى ربع الدينار أو الربع ، وأصدروا منها الكميات الضخمة ، ينقل القلقشندى عن ابن الطوير أن الخليفة الفاطمى كان يعطى فى نهاية العام الهجرى أمرا بسك كميات من النقود بمناسبة السنة الجديدة تسمى « الفره » وهى مجموعة من الدنانير ومن الرباعيات والدراهم المستديرة ٠

وكان يحمل منها الى الوزير ثلثمائة وستون دينارا وثلثمائة وستون

---

(٣٢) نسبة الى الخليفة العباسى الراضى ، وقد أصدر الخليفة المعز تعاليمه الى عمال الخراج الا يتسلموا الخراج الا بالدنانير المعزية ، وامتنع كل من يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ان ياخذا فى الخراج الا دينارا معزيا وهكذا اتضع الدينار الراضى وانحط ونقص من صرفه أكثر من ربع الدينار ، وقد كان الناس قبل مجىء الفاطميين يكثرون من التعامل به ٠ المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٤ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٧٢ ، ١٩٩ ، النقود الاسلامية ، ص ١٤ ٠

(٣٣) المنصورة نسبة الى الخليفة المنصور بن القائم بن عبد الله المهدى ، وقد ولد بالمهدية فى سنة ٣٠٣هـ وبويع له فى شوال سنة ٣٣٤هـ ٠ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٣ ٠

رباعيا وثلثمائة وستون قيراطا كذلك والى أرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام من عشرة دنانير وعشر رباعيات وعشرة قراريط الى دينار ، وكان هؤلاء من رجال الحاشية والبلاط الفاطمى يقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة .

وقد جرت العادة أيضا أنه كانت توزع فى عيد الفطر بعض المسكوكات الذهبية والفضية التى كانت تضرب خصيصا بهذه المناسبة ، كما كانت دار الضرب تقوم بضرب نوع من المسكوكات التذكارية صغيرة الحجم خفيفة الوزن أطلق عليها اسم خراريب ، لتوزع على أفراد الشعب فى بعض المواسم والأعياد ، كما هو الحال فى خميس العهد ، يذكر المقريزى أنه كان يطلق عليه العامة من الشعب « خميس العدس » وكان يحتفل به قبل عيد الفصح بثلاثة أيام ، وكان يتم ضرب ما قيمته خمسمائة دينار ذهبا عشرة آلاف خروبة يتم توزيعها على جميع أرباب الرسوم الفاطمية (٣٤) .

وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله تم ضرب دراهم جديدة من الفضة تم تحديد قيمتها بالنسبة للدينار ، وكان الهدف منها تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن ، ولعل الحاكم كان يسعى الى الاصلاح بعد أن نزعت الأسعار واضطربت أمور الناس (٣٥) ، فقد ذكر المقريزى أنه فى سنة ٣٩٧ هـ تزايد أمر الدراهم القطع فبيعت أربعة وثلاثون درهما بدينار ، ولم تر الحكومة مناصا من التدخل لحماية نقدها ورحمة بالناس ، فرفعت الدراهم ، وأنزلت عشرين صندوقا من بيت المال فيها دراهم جدد ، ففرقت فى الصيارف وقرئ سجل بمنع المعاملة بالدراهم الأولى ، وترك من فى يده منها شئ ثلاثة أيام يورد جميع ما تحصل منها الى دار الضرب . وهكذا تحولت مصر بشكل واضح الى نظام المعدنيين bimetallic system ، وقررت الحكومة الفاطمية أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار .

كانت دار الضرب يتولاها فى العصر الفاطمى قاضى القضاة تعظيما لشأنها ، ويقيم لمباشرة ذلك من يختاره من نواب الحكم ، وبقى الأمر حتى

---

(٣٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ١٦٦ .

(٣٥) ولعل الحاكم توقع قلة الانتاج من الذهب ازاء الزيادة فى استخدامه والاقبال الهائل على اختزانه ، فهداه التفكير الى اتخاذ هذه الخطوة حتى لا تفاجأ البلاد بأزمة فى النقد قد يتعسر مواجهتها فى المستقبل . ومما يعزز ذلك ما أشار اليه حسين مؤنس من نضوب المناجم المعروفة ، واخفاء التابعين ما لديهم من الذهب والفضة حيث بلغت أزمة الذهب والفضة ذروتها فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ص ٣٠٥ ، عالم الاسلام ، ص ٣٢٨ .

بعد زوال الدولة الفاطمية ٠ وقد أمدنا ابن مماتي بعيار الدراهم التي كانت تضرب بها ، حيث كان يتم سبك ٣٠٠ درهم من الفضة مع ٧٠٠ درهم من النحاس الأحمر ويسبك ذلك حتى يصير ماء واحدا ، ثم يصب قضبانا ويقطع من أطرافها خمسة عشر درهما ثم تسبك ، فان خلص منها أربعة دراهم ونصف درهم من كل عشرة دراهم ، والا أعيدت الى أن يصح العيار ثم تختم ٠

كمـا أوضح لنا قيمة أجـرة الضرابين وغيرهم من الصـناع في دار الضرب ، وقد بلغت نحو أربعة وثلاثين دينارا وربع وذلك حتى عام ٥٨٦ هـ أى الى ما بعد زوال الدولة الفاطمية ٠ ويبدو أن أبا جعفر الوزير أبى الفضل ابن الفرات ظل يعمل بدار الضرب ويسبك الدنانير والدراهم حتى وفاته عـام ٤١٤ هـ (٣٦) ٠

وقد تميزت العملات الصـادرة من دور الضرب في العصر الفاطمي بزيادة النقوش والزخارف ، اذ عمل الصناع على نقش كل وجه من وجهيها بثـلاثة دوائر داخل بعضها ، وكانت الكتابة على النقود بالخط الكوفي البارز ، كما يتضح ذلك من الدنانير الفاطمية التي تم سكها في دار الضرب بالاسكندرية ٠ وقد حافظ الأيوبيون على طراز الكتابة الكوفية الفاطمية فوق سكتهم التي ضربت بالاسكندرية حتى عهد السلطان الكامل حين بدأت تشيع الكتابات النسخية في دنانير الأيوبيين ٠

كما يعلل لوبون مسألة عدم تحريم التصوير لدى الخلفاء بما ظهر من صور لهم على النقود التي تم سكها في دور الضرب في ذلك العصر ، فهو يقول : « فانهم لم يترددوا في رسم صورهم على نقودهم » ٠ وهكذا كان الضرابون من أمهر الرسامين والصناع في دور الضرب المصرية وغيرها في العالم الاسلامي ٠

ولا شك أن نشاط حركة سك النقود ظل مقرونا بسياسة الخلفـاء الفاطميين ونقش أسمائهم وصورهم على الدنانير والنقـود الأخرى طوال عهدهم ٠ ففي سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م ضرب الخليفـة الآمر بمصر نوعا من المسكوكات الفضية المشهورة بالآمرية ، يتحدث عنها المقريزي فيقول : « ثم اشتهر في كتب الأخبار أن الفضة صارت تضرب نقودا بمصر وأنهـا

---

(٣٦) لم يوضح لنا المسبحي عما اذا كان يضرب الدنانير والدراهم التي اشتهر بها وكان حاذقا لصنعته بها في أي دار للضرب ، حيث كانت أعمال سك النقود خارجهـا يعد جريمه يعاقب عليها ٠ أخبار مصر ، ص ٣٦ ، ٢١١ ، حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع ، ص ٥٤٤ ٠

سميت بين الدراهم باسم المسوذة ، وبها كانت معاملة أهل مصر والقاهرة والاسكندرية وتعرف بنقد مصر » •

والواقع أننا نشهد نشاطا ملحوظا فى عهد الخليفة الآمر منذ توليه الخلافة ، فلم يقتصر اهتمامه على سك النقود التى حملت اسمه ، بل تم تأسيس دارين للضرب فى عهده ، وأظهر مدى حرصه على عيار الذهب بهما وبدور الضرب الأخرى ، يشير ابن بعرة الى ذلك قائلا : « وأمعن الكشف فى أسرار عمل الذهب بدار الضرب سنة ٥١٤هـ ووقف على أصل لا يجوز لغيره أن يتعداه وبالغ فى الاستقصاء عنه الى حد لم يصل اليه سواه ، وصار قدوة يقتدى به من بعده » •

أما عن دار الضرب الجديدة التى أمر ببنائها بالقاهرة على القرب من الجامع الأزهر ، فقد ذكر ابن ميسر أنه فى شوال سنة ٥١٦ هـ أمر الوزير المأمون بعمل دار ضرب بالقاهرة ، وأن يكون دينارها أعلى عيارا من جميع ما يضرب فى سائر الأمصار ، وقد أطلق عليها الدار الآمرية ، واستخدم لها العدول (٣٧) • وقد بقيت الدار القديمة بالفسطاط لصنع بعض المسكوكات الخاصة حيث كانت تضرب بها العملات التذكارية ومنها مسكوكات خميس العدس •

كما جاء فى كتاب وصف مصر بأنه تم بناء دار للضرب فى مدينة المنصورة بالقرب من النيل على فرع دمياط ، ولا شك ان فى ذلك مجافاة للحقيقة ذلك أن هذه المدينة لم تكن قائمة أصلا زمن الفاطميين ، وقد تولى بناءها السلطان الملك الكامل الأيوبى فى سنة ٦١٦ هـ حين استولى الفرنج على مدينة دمياط ، وبدأ فى تجهيز العدد والقوات لملاقاتهم (٣٨) •

وتشير المصادر الى أن الخليفة الآمر أمر ببناء دار لسك النقود الذهبية

---

(٣٧) ذكر المقريزى أنها كانت بحى القشاشين بالمكان الذى يشغل اليوم مجموعة المبانى التى يحدها من الشمال شارع الصنادقية ، ومن الغرب شارع الغورية ومن الجنوب شارع الأزهر ، وكانت هذه أول دار للضرب بالقاهرة المعزية • الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٤ – ١٩٥ ، ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية ، تقديم عبد الرحمن فهمى ، ص ٣١ •

(٣٨) يشير الباحث الى أن دار الضرب تم انشاؤها فى مدينة المنصورة على يد الخليفة المنصور بالله والد المعز لدين الله عام ٣٨٨هـ ، ولا ريب أن الخليفة المنصور المولود بمدينة المهدية بالمغرب ، قد تولى الحكم سنة ٣٣٤هـ وبنى مدينة المنصورة بالقرب من القيروان فى المغرب وتوفى بها سنة ٣٤١هـ قبل مجىء الفاطميين بعشرات السنين • المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٣٢ ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ١٢٩ – ١٣٣ • تحقيق الشيال • صموئيل برنارد : وصف مصر ، ج ٦ ، ص ١٢٦ – ١٢٧ • ترجمة زهير الشايب •

بمدينة قوص وذلك فى سنة ٥٢٤ هـ ، ويبدو أنه تم ذلك حين استجاب بنو الكنز لطلب الخليفة من أجل العمل على استخراج كميات كبيرة من الذهب تكفى لحاجـة دور الضرب المتزايدة ، ولكى تكون الدار الجـديدة بقوص بالقرب من موطن استخراج الذهب من جهة أخرى .

وهكذا تعددت دور الضرب فى أواخر أيام الفاطميين ، فأصبحت فى كل من الاسكندرية والفسطاط والقاهرة وتنيس وقوص من المدن المصرية، كما كانت فى كل من صور وعسقلان وطبرية ودمشق من بلاد الشام .

ومن الجدير بالذكر أن دور الضرب فى العصر الفاطمى لم يقتصر دورها على سك النقود للدولة وحدها (٣٩) ، بل كان مصرحا لسائر الأفراد بالالتجاء الى هذه الدور لضرب ما معهم من سبائك ذهبية حيث تسك لهم نقودا وذلك فى مقابل رسوم مقررة . وقد أمدنا ابن مماتى بما يؤيد هذا الرأى بالنسبة لما كان يتم ضربه من دنانير بدار الضرب بالقاهرة حيث قال : « وأجرة كل ألف دينار تضرب بالقاهرة ثلاثون دينار يخرج من ذلك أجرة الضرابين ثلاثة دنانير ، ورسم المشارفة ربع وسدس وثمن وحبـة وثلثى دينار » . والفضة يؤخذ فيها ثلاثمائة درهم تضاف الى سبعمائة من النحاس ، وأجرة ضرب كل ألف درهم كان أربعة عشر درهما ونصف ، يخرج من ذلك المشارفة درهمان وربع .

كما أمدنا لينبـــول بأســـماء الخلفـــاء الفاطميين التى نقشـت أسماؤهم على الدنانير والمسكوكات حتى الخليفة العاضد الفاطمى .

وتشير المصادر التاريخية الى نضوب موارد الذهب فى منطقة العلاقى فى أيام الخليفة العاضد ، والى زهد بنى الكنز فى الاقامة بهذه المنطقـة من الصحراء ورحيلهم عنهـــا الى بلاد النوبة والسودان فى بداية عهـد الأيوبيين . كما حرمت خزائن الدولة من حوالى عشرين ألف دينار كانت تحصل من مدينة تنيس سنويا لما كانت تصدره من الثياب والأقمشة ، وذلك نتيجة لنهب الصليبيين لهذه المدينة فى أواخر أيام الفاطميين (٤١) .

---

(٣٩) ويظهر مدى حرص الوزراء وشغفهم بحوزة الأموال وما كانوا يدخرونه منها ، فمما قيل أن الوزير الأفضل خلف عند مقتله فى رمضان سنة ٥١٥هـ مائة ألف ألف دينار ومن الدراهم مائة وخمسين اردبا . وربما كانت الأرقام تحمل معنى المبالغة اذ ليس من المعقول أو المناسب أن يكون الأمر كذلك . زكى محمـــــد حسن : الكنوز الفاطمية ، ص ١٥٨ .

(٤٠) كان لتنيس فى العصور الوسطى شأن خطير من الناحيتين الحربية والصناعية ، فقد كان الروم يغيرون عليها بأساطيلهم كلما فكروا فى غزو مصر ، ولهذا كانت بها دار صناعة وأسطول مقيم ، وكانت بها حصون وقلاع قوية ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، حـ ١ ، ص ١٥٥ ، حاشية تحقيق جمال الدين الشيال .

وهكذا يصف المقريزى اختفاء النقد الذهبى فى نهاية العصر الفاطمى فيقول : « وعمت بلوى المصارف بأهل مصر ، لأن الذهب والفضـة خرجا منها وما رجعا وعدما فلم يوجدا ، ولهج الناس بما عمهم من ذلك ، وصاروا اذا قيل دينار أحمر فكأنما جاءت بشارة الجنة له » ولا شك أن انعدام الذهب والفضة ، كان السبب الرئيسى فى تعطل دور الضرب المصرية ، ولم تجد من المعادن النفيسة أو من المقادير ما يسمح لها باستمرار نشاطها وضربها للدنانير الذهبية والدراهم الفضية • ولم تجد تلك الدور من مناص في ضرب تلك الدراهم السود وهى تختلف عن الدراهم الفضية النقرة التى ضربت فى عهد الحاكم بأمر الله ، حيث كان الصناع يسبكونها من النحاس مع اليسـير من الفضـة • ولم تزل دور الضرب تصـدرها حتى استولى الأيوبيون على البلاد ، وتقدم السلطان محمد الكامل فى ذى القعدة من سنة ٦٢٢ هـ ، وأمـر بضرب دراهم مستديرة غير الدراهم المصرية التى كان يطلق عليها المصريون « الورق » •

٥ ـ صناعة الأسلحة ومعدات السفن الحربية فى مصر الاسلامية فى عصر الولاه

تعد صناعة السيوف والدروع والخوذ وغيرها من السهام والرماح من أنواع الأسلحة الخفيفة من أهم الصناعات المعدنية فى مصر فى عصر الولاه ·

وكما عرف المصريون صهر المعادن واحالتها الى صفائح رقيقة من الحديد والنحاس واستخدامها فى صناعة الأسلاك والسلاسل منذ العصور المبكرة (١) ، فانهم تمكنوا من صنع الرماح والسهام المعدنية وغيرها من أدوات القتال والحرب ، وقد ذكر ابن زولاق أن المصريين كانت لهم شهرتهم فى عمل المجانيق ورمى الحصون بها قبل الفتح العربى ·

ولا شك أن العرب الفاتحين حينما استولوا على البلاد عام ٢١ هـ / ٦٤١ م ، قد غنموا بعض المعدات والآلات الحربية فى حصارهم لبعض الحصون والمدن المصرية مثل أنواع المناجيق والدبابات ونحوها من الأسلحة الثقيلة التى سرعان ما تعلموا طرق اصلاحها وادخال التحسينات فى صناعتها (٢) ·

وتشير المصادر الى أن حركة صناعة الأسلحة بالاسكندرية وتجارتها

---

(١) تمكن المصريون منذ العصور القديمة من صناعة رقائق النحاس التى تستخدم فى كساء التماثيل المصنوعة من الخشب أو صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية ·

بتزى : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ص ٢٦٧ ·

(٢) ذكر بتلر أن العرب غنموا بعض آلات الحرب فى غزوهم الفيوم وعند حصارهم لحصن تراجان فى منوف وأشار الى أنهم كانوا لا خبرة لهم بأمرها ، ولا علم عندهم بطرق اصلاحها

كانت رائجة عند دخول العرب الى البلاد ، وقد اشتملت قوانين جستنيان الصادرة فى سنة ٥٣٩هـ بعض الفقرات التى تقضى بوجوب حرص حكام الأقاليم واهتمامهم بصناعة الأسلحة فى مصانع الحكومة ، ولا يجرى بيعها الى الأفراد ، وألا تستخدم فى الفتن والاضطرابات الداخلية ، وعلى من يخالف ذلك دفع غرامة قدرها عشر صولدات من حكام الأقاليم (٣) . كما ورد أن لامبراطور البيزنطى أبلغ حاكم الاسكندرية وهدده بدفع غرامة قدرها عشرون صولدا اذا لم يمعن فى مراقبة تجارة الأسلحة .

وكما ورث العرب الفاتحون النظم البيزنطية وعملوا على الاستفادة منها . فان حاجة الجيش الفاتح من السيوف والدروع والسهام والرماح وغيرها من أنواع السلاح المصنوعة من الحديد والمعادن المختلفة ، قد ازدادت بزيادة أعداد هذا الجيش ورجال الأسطول المصرى بعد ذلك (٤) .

ولا شك أن مصانع الأسلحة التى كانت تملكها الدولة فى الاسكندرية والفرما والفيوم وغيرها من عواصم الأقاليم المصرية قد زادت من حجم انتاجها ، خاصة وأن مصر ظلت قاعدة للفتوحات والتوسع ، تخرج منها الحملات العسكرية متجهة نحو الجنوب ونحو الغرب ، اما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التى سارت لفتح النوبة أو لفتح برقة أو من أجل المشاركة فى جيوش الخلافة ، عندما ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان ، وخرج منها لغزو افريقيا .

وكما ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (٥) : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز » ، فقد كان اهتمام العرب بأنواع الأسلحة التى يحاربون

---

(٣) الصولدى أو السوليدس Solidus هو الدينار البيزنطى أو النوزما كما تعارف عليه فى مصر وقدره أربعة وعشرين قيراطا . عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص ١٩ .

(٤) ولا شك أن الفاتحين العرب قد استفادوا من خبرة المصريين ومهارتهم فى عمل المناجيق ورمى الحصون والحيل على الجيوش برا وبحرا فى أعقاب الفتح وفى تأمين البلاد المفتوحة . ابن زولاق : فضائل مصر وأخبارها وخواصها ، ورقة ٩ مخطوط .

(٥) سورة الحديد ، الآية ٢٥ .

بها ، وصار ذكر أنواع السيوف والرماح والتروس والدروع تجرى على لسانهم فى مجالسهم (٦) .

وجاء فى وصف الجيش فى العصر العباسى ، أنه لم يكن يختلف على مدى قرن كامل من تأليفه فى عدته وعتاده وتدريبه عن الجيش البيزنطى ، فاستعمل نفس الأسلحة وهى القوس والسهم والرمح والقلاع والسيف والبلطة . أما ملابس الجند فجمعت بين حسن المخبر والمظهر ، فكانت هناك البيضة للرأس والدرع للجسم ، وذلك فضلا عن الأحزمة والمناطق .

وكما أشرنا من قبل ، فان مصر كانت تحصل على حاجتها من الحديد والصلب والرصاص من نواحى الشام ومما يصل من بلاد الهند الى القلزم حيث كانت الهند مصدرا هاما لحاجيات أسواق المدن الاسلامية من الحديد والصلب ، وكان العصر الذهبى لصناعة الحديد ، كما اشتهرت به منذ القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد ، وظلت كذلك حتى نهاية العصر الفاطمى .

وكان من أهم السلع المجلوبة الى مصر الحديد والصلب اللذان كانا يستعملان فى صناعة السيوف ، وقد أفاض كل من ابن سلام المتوفى فى بغداد سنة ٢٢٤ هـ فى وصف أنواع السيوف التى صنعت بعناية فائقة ودقة عظيمة ، والعالم والفيلسوف اسحق الكندى فى رسالته الشهيرة ، وفيما يطرح على الحديد والسيوف فلا تتلم ولا تكل ، فقد أوضح فيها من أنواع الحديد والفولاذ وفى كيفية صناعة السيوف وطلائها حتى لا تصدأ ، وأصناف الخناجر وطرق سقيها بالسموم (٧) ، وكان أقوى السيوف وأفضلها ما صنع من الفولاذ وكذلك أسنة الرماح .

(٦) سال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن معدى كرب عن السلاح فقال ما تقول فى الرمح قال أخوك وربما خانك فانقصف ، قال ما تقول فى الترس قال هو المجن وعليه تدور الدوائر قال : فما تقول فى النبل ، قال : منايا تخطىء وتصيب ، قال : فما تقول فى الدرع قال : مفشلة للراجل مشغلة للفارس وانها لحصن حصين ، قال فما تقول فى السيف . قال : هنالك لا أم لك يا أمير المؤمنين فعلا بالدرة » وروى ابن عبد ابه أيضا أن يبعث الى عمر بن الخطاب بسيفه المعروف بالصمصامة فبعث به اليه . الغزولى : مطالع البدور ، جـ ٢ ، ص ١٥٩ العقد الفريد ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٧) ومن أسماء السيف ونعوته النصل والصارم وفرند السيف جوهره ، وذبابة طرفه وعزارة حده ، كما كان يطلق على السيف المصنوع من الحديد سيف ليث وسيف صلب وهو المصنوع من الفولاذ ، والسيف العربى المصنوع وفق الطراز الفرنجى من الحديد وله حد من الصلب أطلق عليه « سيف مذكر » . رسالة الكندى ، ص ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، نشر مجلة المورد ، ابن منكلى : الأحكام المملوكية والضوابط النموسية ، نشر مجلة المورد ، بغداد ، الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٣٨٨ ، ماير : الملابس المملوكية ، ص ٧٨ ، ترجمة صلاح الشيتى .

ولا شـك أن السـيوفيين بالعاصمة الفسطاط كانوا يحصلون على حاجتهم فى صناعة السيوف من مسابك الفولاذ التى كانت بها ، كما كانوا يصنعون مقابض السيوف ـ كما يذكر الاصطخرى ـ من جلد التمساح الذى لا يعمل السلاح فيه ٠

وفى مناطق البجة الواقعة بين قوص وعيذاب فى الصحراء الشرقية والتى أطلق عليها المقريزى أرض المعادن ، كانت تصنع الحراب السباعية ابان الفتح العربى وكان مقدار طول الحربة ثلاثة أذرع والعود أربعة وبذلك سميت سباعية ، وعرضها فى عرض السيف . لا يخرجونها من أيديهم الا فى بعض الأوقات ، ويقول المقريزى : « وصناع هذه الحراب نساء فى موضع لا يختلط بهن رجل الا المشترى منهن » ٠ وقد شجع أهل البجة ونساؤهم على هذه الصناعة وجود الحديد والرصاص والجشت وكان معدن الجشت هذا تفضله العرب فى تزيين آلات الحرب وجلائها ٠

وكما تشير المصادر الى كثرة استخدام السيوف والحراب فى الحملات العسكرية لردع أهـل البجة خاصـة وأن علاقاتهم كانت تتسم بالعـداء والتمرد منذ الفتح العربى حتى عصر الخليفة المأمون ، وقد كان استخدام الدروع أمرا شائعا بين الخيالة والرجالة من الجند المدرعين (٨) وكانت الدروع تصنع من صفائح الحديد المجمعة مع بعضها بدقة ومتانة وتلبس فوق ثوب طويل ، وقد سبق ابن سلام كثير من أعلام اللغة ومؤرخى الاسلام فى تصنيف الدروع ونعوتها ، مما يدل على كثرة استعمالها منـذ العصر الاسلامى المبكر ٠

ويذكر الثعالبى من أنواع الدروع والبيض(٩) البدن واللامة والسابغة والقونس (١٠) والمغفر (١١) ، والقتير وهى مسامير الدروع ٠ وكان من أنواع الدروع من الفولاذ كالدروع السلوقية (١٢) ، ومنها ما يصنع من

(٨) من اقدم المعارك التى خاضها الجيش الاسلامى بقيادة عبد الله بن سعد كانت غزوة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ ، ويذكر ابن عبد الحكم أن القتـال فيها كان بالسيوف وذلك بعد ان ربط الجند العرب المراكب بعضها ببعض ، وقد كان ذلك من أسباب انتصارهم النهائى فى المعركة ٠

فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ٠ والمقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ٠

(٩) البيضة هى الخوذة التى تصنع من الحديد والفولاذ ، الثعالبى : فقه اللغة ، ص ٣٣٩ ٠

(١٠) القونس : وهو أعلى الخوذة فى مقدمة الرأس ٠

(١١) المغفر : وهو الزرد ينسج على قدر الرأس ٠

(١٢) نسبة الى سلوقة قرية باليمن ٠

الكتان ويسمونه درع الكتان دلاص نسبة الى المدينة المصرية القديمة ، وكانت من أعمال البهنسا فى العصور الوسطى .

ومن أنواع الأسلحة الأخرى التى كانت تصنع من المعادن ، التروس والقسي والرماح والسهام ، وكانت التروس تصنع من الفولاذ وهى تحمل للوقاية من ضربات السيوف ونحوها (١٣) ، ومنها ما كان يصنع من جلود الحيوان ، ولما كان السيف لا يفارق يمين المحارب ، كذلك الترس لا يفارق يساره ، أو ظهره عند حمله .

وقد شـاع استعماله منذ العصـور القديمة ، فقد صنعه المصريون القدماء ، وكذلك اليونانيون والرومان والفرس ، وكان الترس من أدوات القتال الشائعة فى الجيوش العربية ، ولا شك أن التراسين كانوا من جملة صناع السلاح فى أسواق الفسطاط والاسكندرية وغيرهما من المدن والثغور المصرية فى عصر الولاه (١٤) .

وكما شاع صنع الدروع واستخدامها لدى الجند المدرعين كما ورد فى أوراق البردى (١٥) كذلك تفنن الجند المسلمون فى الرمى بالقسى ، حتى عملوا من الأقواس آلات مركبة . أما الرماح فكانت تصنع من الصلب فى مصر منذ العصر البيزنطى ، وكذلك من الخشب وبسن فولاذ . وقد جرت العادة فى المواكب الخاصة لدى الولاه والأمراء أن يزين الجند الخاص بهـذه الرماح (١٦) . ومن أنواع الرماح صنعت منهـا ما عرف بالأسمر والعراصن والخمان والرائش والمنجل أى الواسع الجرح .

أما السهام فكان يصنع منها أنواع أيضا ، فالغالب فى الاستعمال لدى الرماة سهم الأهداف ، وهو سهم طويل له أربعة أذان ، ومنها المسير الذى فيه خطوط ، واللجيف الذى سهمه عريض ، ويفسـر ابن منكلى

---

(١٣) من أسماء التروس الحوب والحجفة والدرقة والمجن لأنه يستجن به . ابن سلام ؛ كتاب السلاح ، ص ٢٤٠ .

(١٤) يقال فى اللغة رجل تارس أى ذو ترس ، ورجل تراس أى صانع تروس .

(١٥) ورد فى احدى البرديات من جهة اهناس يرجع تاريخها الى سنة ٢٢هـ اشارة واضحة عن الخيالة والجند المدرعين . جروهمان : المحاضرة الثانية عن الأوراق العربيه ، ص ١٢ ، ترجمة توفيق اسكاروس .

(١٦) اشار الرسول (ص) الى فضل الرماح فى حديثه الشريف : « ان الله جعـل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أخرى ، ومن تشبه بقوم فهـو منهم » .

الى رماة النشاب والسهام الرائشة (١٧) ، يقوم فى استخدام هذه السهام : « وأما حذاق الرماة فيختارون تقصير الريش وجعلونه أربعة أصابع أو خمسة أصابع ويجعلون لرمى البعيد ثلاثة أصابع » وقد عرفت صناعة السهام فى مصر منذ العصور القديمة ، ولا شك أن الجند الفاتحين في مصر كانوا يستخدمون تلك السهام فى قتالهم فضلا عن الأغراض الأخرى (١٨) ، وربما كانت طائفة المطوعة التى كانت ملحقة بالجيش المصرى (١٩) هى التى كان أفرادها يصنعون مثل هذه الأدوات القتالية كالسيوف والدروع والرماح والسهام وغيرها من أنواع الأسلحة الخفيفة ، كما كان من بين الواجبات المفروضة على كل كورة واقليم من الأقاليم المصرية ، تزويد الأسطول المصرى فى عصر الولاة بمعدات السفن الحربية مثل الزرد والخوذ والدرق والتروس والرماح والكلاليب والباسيليقيات وهى سلاسل فى رؤوسها رمانة مصنوعة من الحديد ونحو ذلك مما تحتاجه السفن الحربية فى ذلك الوقت (٢٠) .

وليس من شك فى أن دار الصناعة بجزيرة الروضة منذ انشائها فى عام ٥٤ هـ ، كان بها فريق من الصناع يعملون فى انتاج بعض معدات

---

(١٧) كان صناع السهام يلصقون عليها بعضا من ريش الطير فيسمى واحدة بالسهم الرائش اى السهم ذو الريش ، وقالوا الريش من السهام ، وهو ما ألصق عليه ريش ليحمله فى الهواء كما يحمل الطير .

- ابن منكلى : التدبيرات السلطانية فى سياسة الصناعة الحربية ، ص ٢٣٦ . نشر مجلة المورد ، بغداد - العراق .

(١٨) كانت السهام أكثر شيوعا عند العرب ، فهو عماد العربى فى صحرائه الواسعة ، يلتر عليه ثوبه فيستظل به اذا لفحه الهجير ، ويصيد به الوحش اذا جاع ، ويهش به أوراق الشجر على غنمه ويدفع به عن نفسه عدوان المعتدين ، يتخذه الفقير من فروع الشجر والغنى من نادر الخشب وكرائم العيدان كالأبنوس .

عبد الرؤوف عون : تاريخ فن الحرب عند المسلمين حتى نهاية القرن الثانى الهجرى ، ص ١٦٢ .

(١٩) يذكر الكندى أن مواحيز مصر كان يعمرها أهل الديوان وطائفة المطوعة والماحوز المكان الذى يكون به القوم وعدوهم وهو من استعمال أهل الشام . الولاة والقضاة ، ص ٤١٨ - ٤١٩ .

(٢٠) وينطبق قول ابن خلدون على المصريين فى استخدام الحكام الأمويين والعباسيين لهم فى شئون الجهاد وانشاء السفن وامدادها بالمعدات ، فقد جاء : « انه لما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجتهم البحرية .. الخ » المقدمة ، ص ٢٢٢ ؛ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٩٢ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٢٠٣ .

السفن الحربية ولا سيما تلك التى كانت تصنع من الحديد أو الفولاذ ، فضلا عما كانت تحتاج اليه تلك السفن فى تركيبها من المسامير والسلاسل ونحوها (٢١) .

ولابد من الاشارة هنا الى صناعة المنجنيقات والعرادات وغيرها من أنواع الأسلحة الثقيلة (٢٢) ، وان كانت مادة الخشب تشكل معظم أجزائها وتدخل فى غالبية صناعتها ، الا أنها كانت من أنكى الأسلحة وأشدها فتكا بالعدو ، وكما كانت تحمل فى السفن الحربية وتستخدم فى ضرب المدن والثغور ، فانها استخدمت فى حصار المدن وضرب أسوارها وهدم الحصون المنيعة . ومن أنواع الأسلحة الثقيلة كانت الدبابات وكانوا يصنعونها من كتل خشبية صلبة على هيئة برج له سقف من ذلك الخشب ، وبين كتل البرج مسافات قليلة يستطيع الرجال العمل من خلالها . وقد تعلم المسلمون فى القرن الأول الهجرى صنعة الدبابات ، ثم أدخلوا عليها كثيرا من التحسينات حتى صارت ضخمة كثيرة العجل .

ومما لا شك فيه أن المصريين قد برعوا فى صناعة هذه الأنواع الأسلحة ، كما تفوقوا فى صناعة الآلات التى ترمى بالنار المهلكة ابان الفتح العربى (٢٣) . كما شاع ذكر الزراقة أو الزراقين وهم الذين كانوا يستخدمون تلك الاسطوانات النحاسية المستطيلة فى قذف هذه « النار الاغريقية » .

---

(٢١) يذكر السقطى ان ما يدخل فى كل قطعة من القطع البحرية من أنواع المسامير فقط اربعون ربما من المسمار منها ألف وخمسمائة مسمار فى الربع ، ومسمار التقريط منه اربعة عشر الفا وزنة كل ما به تسع أواق ، ومن التقريط الكبير الفان اثنان وزن المائة منه أربع وعشرون أوقية . فى آداب الحسبة ، ص ٧٢ .

(٢٢) عرف العرب المسلمون أنواعا من المناجيق . وقد ذكر أرليغا الزردكاش كيفية تركيبها واستخداماتها المتنوعة . كتاب الأنيق فى المناجيق ، ص ٢٢ — ٢٣ . أما العرادة فهى نوع صغير من المنجنيق كان يستحق لالقاء الحجار والسهام فهى أشبه شئ بالمدفعية الخفيفة التى توجه قذائفها الى مواقع العدو فى الميدان ، عبد الرؤوف عون : تاريخ فن الحرب عند المسلمين ، ص ١٤٤ .

(٢٣) ناقش بتلر مسألة صناعة الآلات التى ترمى بالنار التى عرفت بالنار الاغريقية وأيد رأى جبنون بأن مخترع هذه النار الاغريقية انما كان مصريا ، وان نسبتها الى البيزنطية بعد ذلك ربما يرجع الى كون اختراعها تم بمصر أثناء الحكم البيزنطى لها . كما يشيد بتلر بالصانع القبطى زمن الفتح العربى ويقول : « وفى هذا ما يدل على أن الصانع القبطى فى هذه الصناعة وفى غيرها من الصناعات الكبرى فى وادى النيل كان مستقلا بنفسه بغير ارشاد ولا تسيير من الروم اذا لم نقل انه كان فى الحقيقة الصانع المعلم » . فتح العرب لمصر ، ص ١٠٢ .

ولا شك أن صناعة السفن الحربية فى الاسكندرية وجزيرة الروضة فى عصر الولاة ، كانت تتطلب من آلات القتال ومن صنع مثل تلك الاسطوانات النحاسية وغيرها من المعدات التى اشتهر بها الصناع المصريون ٠

وفي عهد الطولونيين لقيت صناعة الأسلحة رواجا كبيرا ، من أجل تزويد الجند وحرس الأمير ابن طولون بما يلزمه من أنواع الأسلحة والدروع ومعدات القتال والحرب ومن الجدير بالذكر أن مؤسس الدولة الطولونية كان قد اتخذ عددا وافرا من جند السودان والروم وخصص مدينة العسكر مقاما لهم ، ولما ضاقت اتخذ مدينة القطائع ، وفيها أقامت القطائع المختلفة من جند السودان وغيرهم ٠

وكان لابد استجابة للحركة الاستقلالية وانشاء الجيش الطولونى (٢٤) ، من قيام المصانع الحكومية للأسلحة لكى تمده بما يحتاجه منها بالرغم من وجود صناعة أهلية زاهرة ٠ ويصف اليعقوبى الأمير الطولونى وهو يستعرض جيشه فى ليلة عيد الفطر سنة ٢٦٢ هـ والجنود فى زيهم الحسن بالسلاح وملونات البنود والأعلام وكثرة الكراع بشكل يثير الاعجاب ٠

كما تشير المصادر الى كثرة استخدام أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة ٠ مثل المجانيق والدبابات وغيرها فى الحروب التى خاضها ابن طولون ، وقد ذكر المقريزى أنه سار فى جيش عظيم حتى وصل الى نهاية حدود بلاد الشام وحاصر انطاكية ورماها بالمجانيق حتى دخلها فى المحرم سنة ٢٦٥ هـ ٠

ويبدو نشاط صناعة السلاح ملحوظا فى عهد ابنة خمارويه ، وكان قد اتخذ من قطاع الطرق ضخامة الأجسام ما عرفوا بالشجاعة والبأس ، وأدخلهم فى خدمته وأدر عليهم الأرزاق والعطايات ، ومنع الناس من أذاهم ، وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون بالسيوف المحلاة ، وتسير خلفهم طوائف العسكر ، يتلوهم ألف من الجند السودان لهم درق مصنوع من الحديد ، وعليهم الأقبية والعمائم السود ، فيخالهم الناظر بحرا أسود لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم ، ويزيدهم بهاء بريق درقهم ووهج سيوفهم البيض التى تلمع من تحت العمائم ٠

والواقع أنه بعد دخول القائد العباسى محمد بن سليمان مدينة

---

(٢٤) وقد بلغ عدد الجيش فى عهد الطولونيين قرابة سبعين ألف ما بين جنود أتراك وعبيد سودان وجنود مرتزقة ٠ المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٧٣ ٠

القطائع في مستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ/٩٠٥ م وأمره باحراق القطائع · ونهب الفسطاط ، وقتل جند الطولونيين من السودان ، لا نكاد نعلم شيئا عن مصانع الأسلحة التي أقامها ابن طولون ، اذ أصبح القطر المصري وعاصمته الفسطاط فريسة لاستبداد الجند وعدوانهم · وكان قواد الخلفاء العباسيين يفعلون ما يحلو لهم لمدة ثلاثين عاما بعد سقوط الطولونيين ·

ويبدو أن صناعة الأسلحة أخذت تستعيد نشاطها بعد تولى محمد ابن طغج الاخشيد شئون البلاد ، فقد كان شديد الاعجاب بابن طولون حريصا على التشبه به في بلاطه ومواكبه ، كما عرف عن الأمراء الطولونيين والاخشيديين من بعدهم أنهم كانوا يفضلون صناعة الأسلحة هذه في مصر داخل مصانعهم الحكومية بقدر المستطاع ولم يكونوا يفضلون عملية الاستيراد لأنواع السلاح على يد اليهود أو غيرهم من الخارج ·

ويذكر المقريزي أن مؤسس الدولة الاخشيدية كان يستعرض جيوشه على طريقة ابن طولون ، وكان عدد الفرسان والرجالة لا يقل عن أربعمائة ألف يستغرقون اليوم كله في العرض يتبعهم حرسه الخاص المكون من ثمانية آلاف من المماليك بملابسهم الزاهية الجميلة وأسلحتهم اللامعة · ويمدنا ابن سعيد بصورة واضحة لأنواع الأسلحة التي كان يستخدمها الجيش في عهد الاخشيديين وذلك من خلال وصفه للعرض العسكري فهو يقول : « وجلس الاخشيد في المنظرة على باب دار الامارة ، ومرت العساكر فلما انقضى العسكر ركب غلمانه في أحسن زى بالتخافيف (٢٥) والجواشن (٢٦) ، والدروع ، فلم يفرغوا الى العشاء ، ثم أصبح فركب لصلاة العيد » ·

ولا شك أن انشاء دار جديدة للصناعة بساحل الفسطاط والتي سميت « الصناعة الكبرى » في عهد الاخشيد (٢٧) ، أحدث نشاطا في حركة الصناع والحرفيين كالحدادين والزراقين وغيرهم من صانعي مستلزمات السفن الحربية وآلات القتال المطلوبة ·

ومن الملاحظ أنه في عهد الطولونيين والاخشيديين لم تقتصر مصانع الأسلحة على تزويد الجيش والسفن الحربية بحاجتها من المعدات وآلات الحرب ، بل كان أصحاب الشرطة يحتاجون الى بعض آلات السلاح

(٢٥) التجافيف : كان يلبسها الفارس كالدرع ليتقى بها الطعنات ·

(٢٦) الجواشن : هي دروع الخيل · ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ، جـ ٢ ، ص ٧٨ ·

(٢٧) لم يقض انشاء هذه الصناعة على دار الصناعة التي كانت قائمة بجزيرة الروضة ، وبقيت مراكب الاسطول تنشأ في الجزيرة بعد عام ٣٢٥هـ وحتى أيام الخليفة الآمر باحكام الله · المقريزي : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٨ ·

يحملونها تسمى الطبرزين ، وهى نوع من السكاكين الطوال أشبه ما تكون بالسيوف . كما يظهر أن هذه المصانع لم تكن تكفى حاجة البلاد ، فكانوا يعملون على استيراد نوع من السيوف من الخارج لاسيما السيوف الأندلسية (٢٨) .

أما عن صناعة الأسلحة أيام الفاطميين فقد راجت وازدهرت بفضل عناية الحكام من الخلفاء والوزراء الفاطميين ، وأصبحت تمد الجيش والأسطول بما يلزمها من سلاح وعتاد حربى . كان جيش المعز لدين الله حينما قدم الى القاهرة عظيما حتى قيل انه « لم تطأ أرض مصر بعد جيوش الاسكندر الأكبر من الجيوش أكثر من جيوش المعز » (٢٩) .

وقدر ناصر خسرو عدد الجيش الفاطمى أيام الخليفة المستنصر بحوالى مائتين وخمسة عشر ألفا من البيادة وخمسة وثمانين ألفا من الخيالة أو الفرسان (٣٠) أما حرس القصر فبلغ عددهم نحو عشرة آلاف جلبوا من بلاد افريقيا وآسيا وأوروبا (٣١) .

(٢٨) من أجمل التحف المعدنية الأندلسية السيوف ، فهى من أروع ما صنعه المسلمون ومن احسنها ما هو معروض الآن فى المكتبة الأهلية بباريس .

ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٧٥ ، عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية ، ص ١٧٧ .

(٢٩) يقدر النويرى من قدم فى خدمة المعز لدين الله بمائة ألف مقاتل كتامى واربعين الف من البربر وستين ألف من الزنوج . نهاية الأرب ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٤ ، مخطوط ؛ وكان الخليفة المعز أول من اتخذ صبيان الحجر وهم فرقة من الحرس الخاص كانت تتكون من الشبان الأقوياء ، بحيث يكونون على أهبة الاستعداد للقتال فى أية لحظة ، وقد أطلق على المكان المخصص لهم بالقصر « صبيان الحجر » المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ .

(٣٠) ذكر ناصر خسرو أن جيش السلطان كله كان يخرج للعرض والاحتفال بيوم فتح الخليج فرقة فرقة وفوجا فوجا وكان يتالف من : فرقة الكتاميين وهم من القيروان وقيل أنهم عشرون ألف فارس . وفرقة تسمى البطاليين وهم من رجال المغرب دخلوا مصر قبل مجئ السلطان (الخليفة) وقيل انهم خمسة عشر ألف فارس ، وفرقة تسمى المصامدة وهم سود ، قيل انهم عشرون رجل . وفرقة تسمى المشارقة وهم ترك وعجم ، وقيل ان عددهم عشرة آلاف رجل ، وفرقة تسمى البدو وهم من أهل الحجاز وكلهم يجيدون حرب الرماح ، قيل انهم خمسون ألف فارس وفرقة الاستاذين اشتروا للخدمة ، وهم ثلاثون ألف فارس ، وفرقة تسمى السراثين وهم مشاة قيل ان عددهم عشرة آلاف رجل ، وفرقة اخيرة تسمى الزنوج يحاربون بالسيف وحده قيل انهم ثلاثون ألف رجل . سفر نامة ، ص ٥٢ — ٥٣ .

(٣١) يذكر ابن ميسر ان عبيد السيدة أم المستنصر بالله كانت عدتهم نحو خمسين ألف عبد سوى طوائف العسكر ، وكانوا من العبيد السودان . وقد بلغت عدة الجيوش بمصر فى أواخر أيام الفاطميين اربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف رجل - اخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ١٥ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٧٤ .

O'Leary : A Short History of the Fatimid Khalifate pp. 198-200.

وقد أنشأ الفاطميون مصانع خاصة تمد الجيش بما يتطلبه من أنواع الأسلحة ، يتضح ذلك مما جاء فى وصف خزائن السلاح التابعة للقصر الفاطمى ، حيث كانت تصنع بها السيوف ، وكما قيل فان السيف كان أشرف الأسلحة عند العرب ، وكانت السيوف على أنواع منها الطويل والقصير وغيرها . وكانت تتخذ للسيوف حمائل تكون على الأكتاف أو يتخذ لها معاليق .

وكانت تصنع بخزائن السلاح الأقواس والسهام التى يركب فيها من الأمام قطعة مديدة من الحديد ، وأيضا الخود والدروع ، ودروع أخرى تسمى كراغندات ، ودروع للخيل (جواشن) أو تخافيف ، والعمد الحديد المسماة مستوفيات . وكانت للدروع والتروس خزائن منفصلة عن خزائن السلاح تعرف بخزائن الدرق .

كما خصصت من خزائن السلاح قسم كانت تصنع به الآلات الثمينة التى تستخدم فى المواكب الرسمية ، مثل أسلحة حرس الخليفة مثل سيوف مستقيمة (صماصم) وهى مصقولة ومذهبة ، وأعمدة (دبابيس) مغطاة بالجلد (الكيمخت) الأحمر والأساد لها رؤوس مدورة ومضرسة ، وأعمدة حديدة اسمها (لتوت) ذات رؤوس مضرسنة أيضاً (٣٢) ، والآلات يقال لها مستوفيات ، وهى عبارة عن عمد مصنوعة من الحديد ، طولها ذراعان ، مربعة الأشكال لها مقابض مدورة تمسك باليد منها . كما يصنع بهذه الخزانة كذلك من أنواع الحراب ، التى كان يحملها عبيد السودان يقال لهم أرباب السلاح الصغير . لعلهم من حرس الخليفة أيضا . وكانت لهذه الحراب مقابض تصنع من الفضة كل واحد منهم يأخذ خربتين مربوطتين بشرابة من حرير .

ومن الطريف أن نذكر نوع الأسلحة التى كانت تصنع خصيصا برسم وتشريف الوزير والموظفين وقواد الجيش ، وهى عبارة عن رماح باسم « قضب فضة » مصنوعة بطريقة خاصة ، وكان للوزير الحق فى عشرة من هذه القضب ، ولغيره من كبار موظفى القصر وقائد الجيش أربعة فقط ، أما بقية القواد فكانوا يستلمون ثلاثة أو اثنين أو واحداً على قدر طبقاتهم .

وينقل المقريزى عن ابن الطوير المؤرخ الفاطمى المعاصر أن الخليفة كان يشرف على خزائن السلاح ويتابع أخبارها ، ويتأمل حواصلها من

---

(٣٢) وقد أطلق عليها كل من القلقشندى والمقريزى « بخزانة التجميل » وذلك بسبب ما يعمل بها من أنواع السلاح والآلات المغطاة بأنواع الزخرفة من الفضة وغيرها . صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٧ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ، ١٩٦ .

الدروع المدفونة بالزرد (٣٣) ، المنشاه بالديباج ، المحكمة الصناعة ، والجواشن المبطنة المذهبة والخوذ المحلاة بالفضة ، وغيرها من أنواع الزرديات والسيوف والرماح والقسى لرماية اليد ، المنسوبة الى صناعها مثل الخطوط المنسوبة الى اربابها ، وذلك مما يدل على مهارة الصناع وتميزهم فى صناعة كل نوع من أنواع الأسلحة المعروفة فى العصر الفاطمى .

ومن الذين أسندت اليهم مهمة الاشراف على خزائن السلاح أبو سعيد ابن قرقة الحكيم ، فقد تولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح فى الدولة الفاطمية كما تظهر أهمية هذه الخزائن من اختيار أستاذ محنك للاشراف عليها ، ومن زيارة الخليفة لها بين وقت وآخر ، وتخصيص أفضل المستخدمين والصناع الذين كانوا يعملون فيها ما يؤمرون من آلات السلاح على اختلاف أنواعها وتباين أصنافها .

وتبدو العناية بأمر الصناع المهرة وصناعة الأسلحة منذ بداية حكم الفاطميين ، فقد أشار المقريزى الى اهتمام الخليفة المعز بامر هؤلاء الصناع والحصول على الماهرين فى كل صنعة من سائر أفراد الشعب ، والعمل على الحاقهم بالخدمة فى خزائن القصر (٣٤) ، كما يذكر أيضا أن الخليفة الظاهر اتخذ حجرا بالقصر ، وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب . واتخذ خزانة البنود وجعل فيها ثلاثة آلاف صانع ، وكانت فى بداية أمرها يعمل فيها السلاح . وظلت كذلك الى أن احترقت فى سنة ٤٦١ هـ (٣٥) .

كما عملت الدولة الفاطمية — كما أشرنا من قبل — على توفير ما يلزم من الحديد والآلات اللازمة لصناعة أنواع الأسلحة ، يتجلى ذلك فى حديث ابن الطوير عن المناخ السعيد ، وما يرد اليه من الأخشاب والحديد وغير

---

(٣٤) ويبدو أن حاجة المعز لدين الله بعد قدومه الى القاهرة الى هؤلاء المهرة من الصناع وارساله الى ولاة أعماله فى الأقاليم المختلفة فى طلبهم ، انما كان من أجل الخدمة فى خزائن السلاح أو المصانع الحكومية التي بدأ فى نشأتها فى أعقاب الفتح مباشرة . ذكر ابن أبى طى أن المعز جعل كل ماهر فى صنعة صانعا للخاص ، وافرد لهم مكانا برسمهم . الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٣٥) ونقل المقريزى عن صاحب كتاب « الذخائر والتحف » أنه احترق بخزانة البنود عشرات الالوف من قربات النفط ومن زراقات النفط أمثالها ، ومن الدرق (الدروع) والسيوف والرماح والنشاب ما لا يحصى ، مع ما فيها من قضب الفضة وثيابها المذهبة وغيرها . ويقول : « وحدثنى من أثق به أيضا أنه احترق فيها من السيوف عشرات الألوف وما لا يحصى كثرة » . نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ — ١٥٦ .

ذلك ، كما يتضح لنا من سياق الحديث أن الفاطميين قد استعانوا ببعض الصناع من الفرنج لصناعة آلات الأساطيل ومعدات السفن الحربية ٠

وكان الاهتمام بالأساطيل وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع ، وقد خصص الفاطميون لهذه العمارة ديوانا خاصا يقال له « ديوان العمائر » وكان موضعه بدار صناعة السفن بالفسطاط ٠ ويذكر القلقشندى أن أساطيلهم كانت مرابطة بكافة البلاد الساحلية كالاسكندرية ودمياط وتنيس وعيذاب من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام ٠٠٠

ويذكر ناصر خسرو أن تنيس كان يرابط حولها ألف سفينة ، منها ما يتبع الدولة وما هو للتجار ، ويقول أيضا : « ويقيم بتنيس جيش كامل السلاح وذلك للدفاع عنها من خطر الفرنج أو الروم والاغارة عليها ٠ كما يذكر القلقشندى انه كان للفاطميين أسطول بعيذاب يتلقى به الكارم ، وكان والى قوص هو المشرف والمتولى لأمر هذا الأسطول ، ويحمل اليه من خزائن السلاح ما يكفيه ٠

وكانت السفن الحربية تحتاج من المعدات وأنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة المعروفة فى العصور الوسطى ، ومن أهمها المناجيق (٣٦) ٠ ويذكر القضاعى المؤرخ الفاطمى أنها كانت تصنع ثم تنصب على جبل يشكر من أجل اختبارها وتجريبها قبل ارسالها الى الثغور المصرية ٠

ومن الأسلحة الثقيلة التى صنعت فى أيام الفاطميين كذلك الدبابات، وكانت تصنع من الخشب السميك وجلود البقر والابل واللبود والجلود المنقوعة فى الخل لتقيها النار وغيرها ٠ كما استطاع المصريون صنع المدافع، وكانت تسمى المكاحل قبل اختراع البارود ، وكانت تستخدم فى هدم الحصون والقلاع الحصينة حيث تطلق المدافع هذه مقذوفات من الحجر ، غير أنه بعد اختراع البارود استعملت قذائف من البارود فى طلائق المدافع٠

ومن الجدير بالذكر أن صناعة السلاح فى العصر الفاطمى لم تكن قاصرة على خزائن السلاح بالقصر أو دور الصناعة بجزيرة الروضة والمقس وغيرها ، بل وجدت أسواق للسيوفيين والأسلحة الأخرى (٣٧) ٠

(٣٦) من أهم الكتب التى تناولت كيفية تركيب المجانيق واستخداماتها كان كتاب « الأنيق فى المناجيق » لما يحتويه من دقو الرسوم لأجزاء المنجنيق وكيفية صنعه واستعماله لمؤلفه ارنبغا الزردكاش ، تحقيق نبيل عبد العزيز ٠

(٣٧) يحدد المقريزى موضوع سوق السيوفيين فى أيام الفاطميين ، فهو يقع فى مقابلة سوق الصبارف عن جهة وسوق الزجاجين من جهة أحرى ٠

الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ٠

وليس من شك فى أن هذه الأسواق كانت تصنع بها أنواع الأسلحة الخفيفة على اختلافها وتباع لعامة الشعب • يذكر المقريزى أنه حينما وقع الغلاء وارتفع السعر وكثر الازدحام على الخبز فى عام ٤٠٣هـ ، أمر الحاكم بتوزيع المال على الفقراء • وكثر ابتياع الناس للسيوف والسكاكين والسلاح ، وحمله من لم يحمله قط من العوام والصناع ، وكثر الكلام فيه •

وفى عهد الخليفة الظاهر حينما وقع الغلاء أيضا فى عام ٤١٥ هـ وتجمع العبيد ومن انضم اليهم من النهاية من عامة الشعب ، فقبض على طائفة منهم فضربت رقابهم ورميت جثثهم على باب زويلة وعلى باب الفتوح وفى سوق السلاح كما أوضح المسبحى المؤرخ الفاطمى — وعند شرطة القاهرة •

ويظهر مدى انتشار صناعة الأسلحة الأهلية وبيعها لعامة المصريين (٣٨) ، مما أوضحه المقريزى فى حوادث سنة ٤١٥ هـ أيضا ، حينما كثر النهب من جانب الجند العبيد السودان ، وأخذوا ما وجدوه فى الساحل من القمح والشعير وغير ذلك مما فى الحوانيت ، يقول المقريزى : « ودخلوا الى منازل أهل السلاح فنهبوا ما وجدوا » وخرج اليهم عامة المصريين بالسلاح فقاتلوهم وزمتهم النساء من أعلى الدور بالحجارة والطوب والجرار حتى هزموهم » وهكذا كانت بيوت صناع الأسلحة من السيوف والرماح وغيرها عرضة لنهب الجند ومواجهة عامة الشعب لهم باستخدامهم للسلاح وقتالهم به •

وقد شجع على هذه الصناعة وجود مسابك الحديد والفولاذ بالفسطاط فى أيام الفاطميين ، كما ذكر ابن دقماق من بين الدروب بالمدينة دربالحدادين (٣٩) وقد كان لهم شأن كبير فى المجال الحربى وصناعة الأسلحة ، وربما كانوا من صناع الجواشن وأسنة الرماح وغيرها من أدوات الحرب •

كما عملت الدولة الفاطمية على استيراد الحديد والأخشاب وغيرها من مواد الحرب ، الأمر الذى يساعد على قوتها ، وقد حاولت الشعوب الأوروبية أن تدفع حكوماتها الى منع تصدير مثل هذه المواد من الحديد

(٣٨) ويحدد المقريزى سوق السيوفيين فى زمنه حيث قال : « هذا السوق فيما بين المدرسة الظاهرية بيرس ومن باب قصر بشتاك استجد فيها بين الدولة الفاطمية فى خط بين القصرين ، وقد جعل لبيع القسى والنشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح • الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ •

(٣٩) هو الدرب المسلوك من الحدادين الى مربعة سوق وردان بالفسطاط •

والرصاص والمعادن التى ترد الى الديار المصرية ، تجلى ذلك فيما نصت عليه المراسيم الصادرة من حاكم البندقية وقناصل جنوه من أجل تحريم الاتجار مع مصر ٠

وتشير وثائق الجنيزة الى محاولات الفاطميين وبذل جهودهم فى أن يستحوذوا على تجارة الهند من أيدى منافسيهم الخلفاء العباسيين ، وكان من أهم السلع المجلوبة من تجارة الهند الحديد والصلب اللازمان فى صناعة السيوف وغيرها من أنواع الأسلحة (٤٠) ٠

وتشير المصـــادر الى رواج صـناعة الأسلحة الخفيفـة لدى الأهالى والحرفيين والصناع بالفسطاط وغيرها من المدن المصرية ولا سيما فى الثغور كما هو فى دمياط وتنيس والفرمان فى الوجه البحرى ٠ اذ ليس من المقبول أن يقف أهالى تلك المدن والثغور مكتوفي الأيدى فى مواجهة غارات الروم المتكررة عليها ومحاولة نزول الفرنج ونهب أهلها خاصة فى أواخر أيام الفاطميين (٤١) ، وكان لابد للأهالى ــ لاسيما وأنهم كانوا من العرب كما هو الحـال فى مدينة الفرما (٤٢) ــ من شراء الأسـلحة والعمل على اقتنائها للمشاركة الفعلية فى الدفاع عن أنفسهم ضد هؤلاء المعتدين من خارج البلاد ٠

أما صناعة الأسلحة الثقيلة ، فقد ظلت طوال العصر الفاطمى ، كما ظل استخدام المناجيق وغيرها من هذه الأسلحة التى كانت قاصرة ــ بطبيعة الحال ــ على مصانع الحكومة ، يذكر المقريزى أنه فى سنة ٤٩١ هـ أمـر الوزير الأفضل بنصب المناجيق على بيت المقدس ، عندما خرج من القاهرة ونزل عليها ، فكانت نيفا وأربعين منجنيقا ، وأقام عليها يحاصرها حتى هدم جانبا من السور ، ولم يبق الا أخذها ٠

---

(٤٠) عملت الدولة على انشاء المتجر الفاطمى ، وكان المتجر يشترى لحسابه جميع الخشب والحديد والرصاص والمعادن التى ترد الى الديار المصرية ، وكانت تقوم بدورها ببيعها للتجار مقابل كسب يسير ، ولا شك أن صناع الأسلحة من عامة الشـــعب والحرفيين من السيوفيين والحدادين وغيرهم فى الفسطاط وغيرها كانوا يحصلون على حاجتهم من الخامات المعدنية اللازمة لصناعاتهم ٠ كما كانت الدولة تشترى من نفس التجار الذى باعتهم اياها بأسعار عالية تصل أحيانا الى اضعاف الثمن ٠ عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٨٨ ٠

(٤١) ذكر المقريزى أنه فى شهر رجب سنة ٥٤٥هـ نزل الفرنج على الفرما فى جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها ٠ الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٩٨ ٠

(٤٢) كان بالفرما والبقارة عرب من جذام يقال لهم القاطع ٠ نفس المصدر والصفحة ٠

كما استمر الجيش الفاطمى فى تزويده بفرق النفاطين ، الذين كانوا يقومون بإعداد القوارير المملوءة بالنفط (٤٣) ، ورميها على قوات الأعداء لتحول دون تقدمها • وكان بالفسطاط مصانع لصنع قوارير النفط هذه وهى تشبه قنابل يدوية صغيرة ، وقد استخدمت أعداد كبيرة منها فى حريق الفسطاط فى عهد وزارة شاور سنة ٥٦٤ هـ • يذكر المقريزى أن شاور بعث الى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها ، فارتفع لهب النار ، ودخان الحريق الى السماء ، فكان منظرا مهولا ، فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما •

وهكذا كانت مصانع الحكومة الفاطمية تعمل على تلبية احتياجات الجيش والأسطول الفاطمى من المعدات والآلات الحربية ، كما كانت خزائن السلاح وصناعة العماير تحفل بالآلاف من الصناع المهرة لصناعة أنواع الأسلحة المختلفة الخفيفة منها والثقيلة مثل المناجيق وغيرها ، والتى كان يجرى تجهيزها ونصبها لاختبارها وتجريبها قبل ارسالها الى الثغور المصرية بمصر والاسكندرية ودمياط والعمل على استخدامها فى الحملات البرية والبحرية •

كما يمكن القول بأن أسواق السيوفيين بالفسطاط ظلت رائجة ، كما راجت غيرها من أسواق السلاح فى المدن والثغور المصرية التى ضمت العديد من المحال والدروب كدرب الحدادين وغيرهم من صناع الأسلحة الأهلية كالسيوف والجواشن وأسنة الرماح وبيعها لعامة المصريين •

وليس هناك شك فى أن صناعة السلاح كغيرها من الصناعات المعدنية كانت من الأهمية بمكان منذ الفتح العربى ، شأنها فى ذلك شأن صناعة سك النقود فى دور الضرب المصرية ، وصناعة الحلى والجواهر وغيرها من الأدوات والمعدات والتحف المعدنية المختلفة ، وما تطلبته احتياجات الدولة والمجتمع معا حتى زوال حكم الفاطميين •

---

(٤٣) يذكر القلقشندى أن مواضع النفط بساحل البحر الأحمر من القلزم ، وكان يتم استخراجه حيث تأتى به العرب ، ويحمل الى خزائن السلاح الفاطمية ، كما كان يحمل عليه أيام الفاطميين من جزيرة صقلية •

صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٢٨٨ ؛ القزوينى : آثار البلاد ، ص ٢١٦ •

الفصل الخامس

الحرف والصناعات الخشبية

١ ـ بناء السفن الحربية والتجارية فى عصر الولاة •

٢ ـ مظاهر النهضة فى دور الصناعة فى عهد الطولونيين والاخشيديين •

٣ ـ ازدهار صناعة السفن وتجهيزها فى دور الصناعة الفاطمية •

٤ ـ حرفة النجارة وصناعة الأثاث فى عصر الولاة •

٥ ـ الحفر على الخشب ومظاهر التأثير الحضـــارى فى عهد الطولونيين والاخشيديين •

٦ ـ فن النحت والتطعيم بالعاج فى العصر الفاطمى •

الصناعات الخشبية

غدت صناعة الأخشاب من الصناعات الهامة منذ بداية الفتح الاسلامي ، وكان المصريون من الشعوب التى تمتعت بشهرة واسعة فى العصور القديمة سواء فى صناعة المراكب وبناء السفن البحرية والحربية(١)، أم فى صناعة الأثاث والأدوات الخشبية المنزلية ٠

وقد احتفظت الدولة البيزنطية بدور لصناعة السفن فى الاسكندرية وعكا ، وحيث تم بناء كثير من السفن الحربية والتجارية التى كانت تقوم بنقل الجنود والامدادات فى وقت الحرب ٠ كما بلغ من ضخامة السفن البحرية التى تم بناؤها بالاسكندرية زمن الفتح العربى أن احداها كانت تسع عشرين ألف مد (أى نحو ٤٠٠٠ أردب من الحنطة) ٠

كما عرف المصريون من أنواع الأخشاب المحلية خشب الجميز والأثل والصفصاف وخشب السنط والسدر والصنوبر ، وذلك من واقع ما ورد فى النصوص المصرية القديمة (٢) كذلك اشتهر الصناع الأقباط بحرفة

(١) أشار هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميـلاد الى صناعة السفن المصرية فقال : « وتصنع سفنهم التى تحمل البضائع من شجر اللبخ ، فبعد أن تقطع أخشابه الى ألواح طول الواحد منها نحو ذراعين ، ثم يقطعون هذه الألواح حول أوتاد متلاصقة ، ويسدون الفواصل بالبردى ، ويضعون دفة واحدة تدفع فى قاع السفينة ، كما يتخذون السارى من اللبخ والشراع من البردى ٠

(٢) أمدنا الفريد لوكاس بجداول أوضح فيها أنواع الأخشاب التى استعملها القدماء المصريون فى التجارة وصناعة السفن ، وكان من أهم تلك الأنواع السنط واللوز وخرنوب ـ الجميز ـ الأثل (طرفا) والصفصاف واللبخ والنبق ، كما أوضح لنا أن خشب السنط كان يستخدم فى التسقيف ولعمل جوانب السفن والى شهرة سنط طيبة والمناطق المجاورة لها ٠ المواد والصناعات ، ص ٧٠٦ ، ٧٠٨ ٠

النجارة ، فصنعوا السقوف والشبابيك والأبواب والمقاصير وغيرها. وعرفوا بل أجادوا زخرفة الأخشاب التى قامت على أعمال التلوين Painting وعلى الحفر العميق deep cut وأيضا عن طريق التطعيم بالعاج والأبنوس (٣) .

ولما كانت مصر فقيرة فى الأخشاب الكبيرة التى تعد المصدر الطبيعى للأخشاب الجيدة ، فقد كانت تستورد من بلاد الشام خشب الأرز وغيره من أخشاب الزينة كخشب التك والساج والأبنوس من البلدان المنتجة لهذه الأنواع من الأخشاب .

---

(٣) يضم المتحف القبطى مجموعة من اللوحات المرسومة ترجع صناعتها الى اليوم ، ومجموعة من أدوات الزينة عبارة عن أمشاط عليها زخارف نباتية وهندسية من القرن السادس والسابع الميلادى .

١ ـ بناء السفن الحربية والتجارية فى عصر الولاة :

كانت صناعة بناء السفن فى ثغر الاسكندرية من أهم وأكبر الصناعات عند الفتح العربى لمصر ، ولا غرو فقد كانت الاسكندرية من أكبر أسواق العالم ، وأكثر ثغوره ازدحاما وحركة ، وكانت بها تجارة عظيمة فى القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك من محاصيل البلاد .

وكانت السفن تحمل اليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة وأثيوبيا ، ومن أنواع البهار والحرير والفضة والجواهر وغيرها ، تأتى من بحار الهند والصين الى البحر الأحمر ، ومن القلزم تحمل فى ترعة منفيس ، ثم تنحدر فى نهر النيل نحو الاسكندرية ، حيث كانت ترسل الى أطراف البحر المتوسط .

وكما تبدو أهمية صناعة السفن التجارية ، وتلبية مطالب الحركة التجارية الواسعة ابان الفتح الاسلامى ، فان الأمر لم يكن أقل أهمية بالنسبة لانشاء العديد من سفن الأسطول المصرى ، لاسيما بعد أن قرر الحكام العرب فى عهد معاوية بن أبى سفيان نزولهم البحر وغزو بلاد الروم (١) .

ولا ريب أن السفن الحربية التى بلغت مائتى مركب أو يزيد ، كانت من صناعة الاسكندرية (٢) ، وقد غزا بها عبد الله بن سعد عام ٣٤هـ ،

(١) كان العرب يتهيبون ركوب البحر فى أول أمرهم ، وقيل ان أول من ركب البحر للغزو فى الاسلام العلاء بن الحضرمى فى خلافة عمر بن الخطاب ، اذ ندب أهل البحرين الى غزو بلاد فارس عن طريق البحر بغير اذن الخليفة ، فغرقت سفن المسلمين وغضب عمر على العلاء وعزله عن الامارة . المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٣ .

(٢) تمت صناعة السفن الحربية هذه على أيدى الصناع المصريين من النجارين والقلفطين والنواتية ، وكما ذكر ابن خلدون فان العرب اعتمدوا فى بداية أمرهم على أبناء الأمم التى خضعت لسلطانهم ممن كانت لهم دراية بالبحر وثقافته ، وحيث تقرب كل ذى صنعة بمبلغ صناعته لديهم ، واستخدموا من النواتية فى حاجتهم البحرية ، المقدمة ، ص ٢٢٢ .

حيث هزم الروم ، وذلك فى الموقعة التى عرفت بذات الصوارى (٣) ، وكانت بالقرب من غرب الاسكندرية ·

اهتم الولاة فى مصر بصناعة السفن الحربية ، لاسيما بعد تولية معاوية عام ٤١ هـ شئون الخلافة ، فقد أمر ببناء عدد من السفن الحربية فى الاسكندرية وسواها من الموانى التى أصبحت تقع تحت سيطرة الدولة الأموية ·

وفى أعقاب غزو الروم لثغر البرلس والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتالهم ، عمل العرب الفاتحون على انشاء دار صناعة بجزيرة الروضة بالقرب من ساحل الفسطاط وذلك فى عام ٥٤ هـ · وقد شجع على بناء الصناعة فى ذلك الموضع وجود نحو خمسمائة من الفعلة والصناع به آنذاك (٤) · وكانت أول دار للصناعة يتم انشاؤها وسميت جزيرة الروضة حينئذ جزيرة الصناعة (٥) ·

ولم تمض بضع سنين ، حتى أمر معاوية بن أبى سفيان بجمع الصناع والنجـارين من مصر وبلاد الشام ، وذلك للاشتراك فى بناء دار جديدة للصناعة بعكا ، وقد ذكر البلاذرى أنه فى سنة ٤٩هـ حدث أن هاجم الروم السواحل الاسلامية ، وكانت الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بانشاء دار للصناعة بها · كذلك تشير المصادر الى انتفاع الحكام بخبرة الملاحين والصناع من المصريين فى صناعة السفن فى جهات أخرى ، فقد ذكر البكرى أنه لما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة (٦٥ ـ ٨٦ هـ) بعث الى حسان ابن النعمان عامله على افريقيا يأمره باتخاذ دار صناعة بتونس · وقد كتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده لانشاء دار صناعة بها · ومن الملاحظ أن مهمة البربر كانت قاصرة على حمل ما تحتاجه دار الصناعة من الأخشاب اللازمة لصناعة وبناء السفن ·

(٣) سميت بذات الصوارى لكثرة صوارى المراكب بها · وقيل ان مراكب الروم بلغت فى هذه الغزوة الف مركب أو سبعمائة أما المسلمون فقد لقوهم فى مائتى مركب ·

الكندى : الولاة ، ص ١٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٥ ·

(٤) كان قبل بناء دار الصناعة بها خمسمائة فاعل تكون مقيمة على الدوام لأعمال مقاومة الحريق أو سقوط المنازل وانهيارها · المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٧ ·

(٥) انفرد مكان صناعة السفن بهذه التسمية دون غيره من مراكز الصناعات الاخرى حيث أطلق العرب لفظ الصناعة على اسم المكان المعد لانشاء المراكب الحربية والتى كان يتم صنعها وتجهيزها لغزو العدو ، بعد شحنها بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة ، وهى ما كان يطلق عليه اسم الاسطول · الخطط ، جـ ٣ ، ص ٣ ·

ويبدو أنه تكرر سفر الصناع المصريين الى تونس فى عهد عبد الله ابن الحبحاب سنة ١١٤ هـ/٧٣٣ م ، حيث زاد بها دارا لصناعة السفن وجامع تونس الكبير وهكذا شاركت مصر فى فجر الاسلام بالصناع المهرة فى بناء السفن فى الثغور الاسلامية مثل عكا وتونس ، مما جعلها محل تقدير الخلافة الأموية فى دمشق ٠

وقد أظهرت أوراق البردى التى تم العثور عليها (٦) ، أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة (٧) ، وفى القلزم وفى الاسكندرية ٠

كما أمدنا ابن عبد الحكم بمعلومات هامة عن الموضع الذى أقيمت به صناعة الجزيرة (٨) ، وعن قيام الولاة بجمع الأخشاب اللازمة لبناء السفن من أهل الذمة وذلك بعد دفع أثمانها لهم (٩) ٠ ويبدو أن أول من ولى على دار الصناعة بجزيرة الروضة كان فهد بن كثير كما يذكر ابن عبد الحكم وله قصر مشهور بخطة المعافر بالفسطاط (١٠) ٠

وليس من شك فى أن صناعة السفن بالجزيرة لم تقتصر على الحربية منها ، بل كانت السفن التجارية أهم ما يعمل بها ، خاصة بعد اعادة حفر

---

(٦) تم اكتشاف اوراق البردى هذه عام ١٩٠١ فى كوم اشقاو ــ مركز طما ــ محافظة سوهاج وهى ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦هـ) ، ومما يذكره ابن عبد الحكم أن الخليفة الوليد كانت له بعض الحوانيت المجاورة بجزيرة الصناعة أو ما أطلق عليها جزيرة الروضة فيما بعد ٠ فتوح مصر والمغرب ، ص ٨٦ ٠

(٨) يذكر ابن عبد الحكم انه لما رأت الحامية الرومانية بقيادة المقوقس (قيرس) صبر العرب وشدة بأسهم فى القتال ، استقر رأى المجتمعين على أن يذهب قيرس وأصحابه تحت ستار الليل الى جزيرة الروضة ، وفتح الباب الحديدى المفضى الى النيل حيث استقل الخارجون السفن من هناك ، ونزلوا فى الموضع الذى انشئت فيه دار الصناعة فيما بعد بجزيرة الروضة ٠ فتوح مصر والمغرب ، ص ٩٦ حاشية ٠

(٩) كتب حيان بن سريج عامل الخراج على مصر فى عهد عمر بن عبد العزيز يطلب من الخليفة المشورة والرأى فى الحصول على خشب لصناعة الجزيرة وكان عند بعض أهل الذمة ، وانه كره أن ياخذ منهم حتى يعلمه ، فكتب اليه عمر ، خذها منهم بقيمة عدل أى بالثمن المناسب ، المصدر السابق ، ص ١٣١ ٠

(١٠) يقول ابن عبد الحكم عنه : وكان والى برقة أيام أسامة بن زيد الأولى ، وكان قد ولى جزيرة الصناعة ، مما يدل على اهتمام الولاة وعمال الخراج فى العصر الأموى بتلك الدار وما يجرى بشأنها ٠ المصدر السابق ، ص ١٧٣ ٠

القناة النيلية التى كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمال الفسطاط ، والتى أطلق عليها خليج أمير المؤمنين (١١) ٠

وكانت القلزم مثل الاسكندرية مركزا تجاريا وقاعدة بحرية(١٢) ، بفضلها احتفظ الأمويون بقطع بحرية فى البحر الأحمر ، وأرسلت منها حملة لقتال عبد الله بن الزبير فى الحجاز عام ٧٢ هـ/٦٩٣ م ٠ ويظهر من أوراق البردى ، ذلك الخطاب الذى أرسله قره بن شريك الى نائبه بالقلزم طالبا منه اصلاح السفن التى فى ميناء القلزم وارسال البحارة سريعا قبل جفاف مياه خليج أمير المؤمنين ٠ وفى خطاب آخر يكشف لنا عن اسم محمد بن أبى حبيب الذى كان مشرفا على دار الصناعة بالقلزم وقد ورد الخطاب مؤرخا فى عام ٩١ هـ/ ٧٠٩ هـ وهو موجه من الوالى المصرى قرة بن شريك (٩٠ ــ ٩٦هـ) الى الحاكم على أفروديتــو (كوم اشقاو) وفيه يطلب ارسال نجار مع أدواته الى المشرف المذكور للعمل لمدة اربعة أشهر ، وقد حدد له أجرته فى الخطاب وقدرها ٢½ صولدى شهريا تدفع له من بيت المال ٠ وكانت القلزم من أهم الموانى التجارية على البحر الأحمر فى ذلك العصر (١٣) ٠

كما تشهد أورق البردى بأن الوالى كان يتفق مقدما على أجور العمال هؤلاء والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى ، وكان يفرض على الكور قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها ، وكذلك يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون فى اعداد الأسطول ٠

ومن الجدير بالذكر أن الملاحة فى البحر الأحمر كانت تتطلب صناعة نوع خاص من السفن (١٤) ، تستطيع الابحار فيه بسبب صعوبته وكثرة

(١١) يقول ابن عبد الحكم : « ثم احفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين ، مسافة من النيل الى القلزم ، فلم يأت الحول حتى جرت فيــه السفن » ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٠ ٠

(١٢) القلزم : بالضم ثم السكون هى فرضة مصر والشام ، ومنها تحمل حمــولات مصر والشام الى الحجاز واليمن ٠ ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ١٤٦ ٠

(١٣) وقد وصف اليعقوبى مدينة القلزم بانها « كبيرة يقيم بها المشتغلون بتصدير المواد الغذائية الى الحجاز واليمن ، وبها مرسى المراكب وأهلها أخلاط من الناس وتجار أهل يسار » ٠ البلدان ، ص ٣٤٠ ، ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٣٨ ، سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية الى الشرق ، ص ١٥٠ ٠

(١٤) يعلل المسعودى عدم استعمال المسامير فى بناء هذا النوع من الســفن الملاب لسبب الخوف من تآكلها ، وزعم آخرون أن السبب فى ذلك انما يرجع الى خوف الملاحين من جذب جبال المغناطيس الموجودة فى البحر الأحمر لهذه المسامير الداخلة فى بناء الســفن وتثبيتها ، ونقل ياقوت عن المهلبى المؤرخ الفاطمى قوله : « ويتصل بجبل القلزم جبل يوجد فيه المغناطيس ، وهو حجر يجذب الحديد » ٠ مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ١٦٣ ، معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ١٤٥ ٠

الشعاب المرجانية والجبال الناشئة فيه ، ولم تذكر المصادر لنا شيئا عن السفن الحربية التى كان يتم صنعها بالقلزم ، أكانت مثل الجلاب ، وهى تلك السفن أو المراكب الخاصة بالبحر الأحمر والتى كانت تصنع فى عيذاب على ساحل البحر الأحمر ، ولا يستعمل النجارون فيها المسامير المعدنية البتة .

وقد أمدنا ابن جبير بمعلومات هامة عن كيفية صنع هذه الجلاب ، وأوضح أن مراكب البحر الأحمر لا يستعمل فيها مسمار البتة ، وانما هى مخيطة بأمراس من القنبار ، وهى قشر النارجيل يدرسونه الى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل . وقد كانت مراكب البحر الأحمر والمحيط فى العصور القديمة تخاط بحبال الليف ، وكانت هذه الطريقة القديمة هى الطريقة الوحيدة عند جميع الأمم .

ونحن نشك فى أن مثل هذه الجلاب ، لم تكن من المتانة أو القوة بحيث يمكن تجهيزها للغزو أو القتال عليها (١٥) ، لاسيما وأنه قد ذكر أن سفن البحر الأحمر والمحيط الهندى كانت تحتاج الى أنواع من الخشب يمتاز بمتانته وصلابته حتى يستطيع مقاومة وتحمل التأثيرات الجوية والبحرية القاسية وحيث كانت تصنع ألواح الهياكل من خشب الساج أو خشب جوز الهند .

ومهما يكن من شىء ، وما قام به الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور من ردم خليج أمير المؤمنين (١٦) ، وانتقال مركز الخلافة من دمشق الى بغداد ، واعتماد العباسيين على الأسطول البحرى فى الموانى السورية وفى ثغر طرسوس لتعزيز حملاتهم البحرية المستمرة ضد بيزنطة . فان صناعة السفن الحربيـة ظلت زاهـرة فى مصر فى العهد العباسى أيضا ، يذكر المقريزى أنه بعد نزول الروم دمياط فى سنة ٢٣٨ هـ فى خلافة المتوكل ، وفى ولاية عنبسه بن اسحق على مصر ، وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر

---

(١٥) ويعزز ذلك ما ذكره ابن الأثير من أنه من عادة المصريين اذا أرادوا الغزو فى البحر الاحمر يفصلون أجزاء السفن فى دور الصناعة فى مصر ، ويحملونها على الجمال الى الطور ، فاذا وصلوا الى ساحل بحر القلزم وصنوها وسمروها وأكملوا انشائها وتاليفها ورفعوها فى البحر وركبوها . الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١١٠ ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، ص ١٨٥ .

(١٦) لم تزل تجرى فيه السفن من الفسطاط الى مدينة القلزم ، وذلك منذ أن أمر عمر بن الخطاب واليه على مصر عمر بحفره ، وجعل فيه السفن ، حتى عام ١٥٠هـ حينما أمر أبو جعفر المنصور بطمه . ابن عبد الحكم : فتـــوح مصر والمغرب ، ص ٢١٨ ـ ٢٢٧ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٣٠ .

الأسطول ، وأنشئت الشوانى (١٧) برسم الأسطول (١٨) ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كمـــا هى لغزاة البر وانتدب الأمراء له والرماة فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد والعارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب .

ويبدو من قول المقريزى أن الخلافة العباسية لم تكن تهتم بما يجرى فى دور الصناعة بكل من جزيرة الصناعة ودار الاسكندرية أو القلزم بعد سقوط الدولة الأموية حيث قال : « وأول ما أنشىء الأسطول بمصر فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل » وهكذا وقع الاهتمام بصناعة السفن الحربية ، حين أصبحت دمياط وتنيس وغيرهما من الثغور المصرية عرضة لغزو الروم ونزول أعداء المسلمين عليها .

كان الحرفيون من النجارين والحدادين وغيرهم من الصناع منتشرين في سائر القرى المصرية ، وكان على حكام الكور توزيع خامات الحديد وما يلزم من النحاس والقصدير والرصاص على هؤلاء الصناع دون تحيز فى القرى التابعة لهم لتصنيعها بالمواصفات المطلوبة ، مع حثهم على سرعة التشغيل ، وتكشف أوراق البردى عما كان يتم صنعه على أيدى الصناع من عمل المسامير والمثبتات والمراسى والسلاسل وما تحتاج اليه دور الصناعة فى عصر الولاة .

وكانت دور الصناعة تزود أحيانا باحتياجاتها من الأخشاب المحلية ، فكان الوالى يكتب الى الباجارك وهو حاكم الكورة أو الاقليم محددا المقدار المطلوب من الخشب وأنواعه من الجهات التابعة له ، كى يرسل مع مندوبين أمناء ويتم تسليمه الى متولى الصناعة واستلام المخالصة الدالة على ذلك . وقد كتب قرة بن شريك الى عبد الله بن أبى المسلم متولى دار الصناعة آنذاك خطابا يرجع تاريخه الى عام ٩٢ هـ/٧١٠ م من أجل توريد جذوع أشجار نخل من تحديد الأثمان المطلوبة ، ويدل تحديد أثمان الأخشاب فى هذا الخطاب على أن الأشجار كانت بطبيعة الحال ـ ملكية خاصة للأهالى ، تحصل عليها الدولة بالشراء .

كما تشير أوراق البردى الى نقل مجموعة من الكتل الخشبية من مدينة

---

(١٧) الشواني : جمع شونة وهي السفينة الحربية الكبيرة ، وهي من اهم القطع البحرية التي يتكون منها الأسطول .

(١٨) الأسطول : أطلق العرب على مجموع السفن الحربية لفظ اسطول وهو لفظ يونانى ثم عرب . سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٢٧١ .

الفيوم الى أحد تجار الخشب بالفسطاط (١٩) ، وقد ورد فى خطاب مرسل من أحـــد المستخدمين الى موظف بشأن ارسال سفينتين محملتين بخشب السنط ويرجع تاريخه الى القرنين الثانى والثالث من الهجرة • وقد كانت السفن من أهل وسائل النقل ـ ان لم تكن الوحيدة ـ خاصة فى النواحى التجـارية •

ومن السفن التجارية التى كان المصريون يصنعونها فى ذلك الوقت المراكب السفرية لنقل المتاجر الى خارج البلاد ، والسفن الشراعية الكبيرة المسكونة التى تستعمل فى نقل السلع التجارية بين مصر والشام وهى سفن بسارية واحدة لها قلوع مربعة ، ونصف سارية ذات قلوع مخروطية (٢٠)•

كما قام النجارون والصناع ببناء وتشييد نوع من السفن أطلق عليه المعديات (٢١) والحمالات (٢٢) والطيارات (٢٣) ومراكب المعاش • ومن أنواع القوارب والزوارق أمكن للنجـارين صناعة الكثير منهـا • مثـل الشنختوره والزلاج والسنبوك وغيرها •

---

(١٩) ورد ذلك فى احدى البرديات العربية المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ويرجع تاريخها الى الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ٨٦٥م • جروهمان : أوراق البردى العربيه ، ج ٥ ، ص ٦٥ •

(٢٠) كانت تســـتعمل عادة فى نقل المتاجر بين مصر والشـــام وهى بالانجليزية Schooner وبالفرنســـية Schooner or Schoner وقد كانت الثغور المصرية المطلة على البحر المتوسط الى عهد قريب تشاهد هذا النوع من السفن • درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ٦٥ ـ ٦٦ •

(٢١) وهى المراكب التى استخدمت لتعدية الناس عبر النيل ، وكان لها مواضع خاصة لضبط رسوم التعدية • ولا شك انها كانت تستخدم كثيرا بين ساحل الفسطاط وجزيرة الروضة من جهة وبين جزيرة الصناعة والجيزة من جهة أخرى • المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ •

(٢٢) ويذكر ابن مماتى أنها كانت مخصصة لحمل الغلال وهى من نوع المراكب الديوانية • قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ •

(٢٣) وهى نوع من السفن النهرية القديمة التى تتميز بخفتها وسرعة جريانها فوق صفحة النهر الخالد ، وكأنها لسرعتها تطير على وجه الماء • درويش النخيلى : السـفن الاسلامية ، ص ٩٢ ـ ٩٣ •

اما عن أنـواع السفن الحربية التى تم بنـاؤها بدور الصـناعة فى الاسكندرية وجزيرة الروضة والقلزم بمصر فى عصر الولاة ، فيمكن القول بأنها كانت متنـوعة ، نذكر منهـا الطرادات (٢٤) ، والعـلابيات (٢٥) والاعواديات (٢٦) والقوابيس (٢٧) وقوارب الخدمة (٢٨) وغيرها .

---

(٢٤) نقل بتلر عن سيبروس أن السفن التى كانت تصنع بالاسكندرية ابان الفتح العربى كانت على نوعين احداهما ما يمكن ان نسميه البوارج والآخر الطرادات وكانت البارجة تحمل الف رجل ، فى حين أن السفن الحربية الصغرى كانت تحمل كل منها مائة رجل ، وكانت تجعل للسير السريع الالتفاف حول السفن الكبرى . فتح العرب لمصر ، ص ١٠١ .

(٢٥) هى نوع من السفن التى كانت تصنع خصيصا للحرب ، فهى من سـفن الاسطول ومفردها (العلابى) .

سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٣٥٨ .

(٢٦) ومفردها (الاعوادى) وهى من نوع من السفن الصغيرة التابعة للاسطول المصرى ، وقد أخطأ سوريال فى قراءته عنـد نشره لكتاب قوانين الدواوين لابن مماتى فرسـمه « الأعزازى » درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ٥ ـ ٦ .

(٢٧) اسم نوع خاص من سفن الحرب ، وقد جاء ذكره كثيرا فى أوراق البردى التى تم اكتشافها فى كوم اشقاو من إعمال محافظة سوهاج . جروهمـان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٦٩ .

(٢٨) هى تلك السفن الصغيرة التى تكون مع أصحاب السفن البحرية تستخف لحوائجهم فهى من توابع الأسطول . وهى كانت معروفة فى مصر منذ اقدم العصور ، وقد وردت فى كتاب عمرو بن العاص الذى وصف فيه مصر . وجاء فى قوانين ابن مماتى : أن أعمال الديوان كانت لهم مراكب خاصة تعرف باسم قوارب الخدمة ينتقلون بها من اقليم الى آخر لجمع الخراج للديوان .

المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦١٤ .

٢ ـ مظاهر النهضة فى صناعة السفن الحربية والتجارية فى عهد الطولونيين والأخشديين

بادر أحمد بن طولون الى دعم قوته البحرية فى أعقاب توليه شئون الحكم فى مصر عام ٢٥٤ هـ/٨٦٨ م ، محاولا الاستقلال عن الخلافة العباسية فى بغداد ،والدفاع عن ولايته ضد محاولات الخلافة لاسترداد نفوذها المطلق عليها (١) • ومن ثم اتجه الى الاهتمام بشئون الأسطول المصرى • وقد تجلى اهتمامه هذا وعنايته بالناحية البحرية حينما أمر ببناء الحصن على الجزيرة ، وأبقى على دار الصناعة فيها ، وحشد الصناع والبحارة كما ذكر البلوى لبناء مائة مركب حربية كبيرة ، بالاضافة الى العلابيات والحمائم والعشاريات والصنادل وقوارب الخدمة التى شرع فى تجهيزها مباشرة •

وكانت مشروعات الموفق طلحه وارساله فرق الجيش العراقى بقيادة موسى بن بغا التى تحركت صوب الشام لملاقاة ابن طولون من أجل القضاء عنيه ، من أهم الأسباب التى جعلته يعجل بتجهيز الأسطول ، ويجتهد فى سبيل ذلك كما يذكر الكندى حين قال : « واجتهد أحمد بن طولون فى بنيان المراكب الحربية واطافتها بالجزيرة وأظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه » •

وقد كان العمال والصناع فى دار الصناعة بالجزيرة من الأقباط أو المصريين المسلمين الذين استعان بهم فى بناء السفن الحربية ومن العلابيات

---

(١) بويع الخليفة المعتمد بعد وفاة المهدى فى شعبان سنة ٢٥٦ هـ ، فاقر أحمد ابن طولون على ولايته ، وبدأ فى بناء الميدان وجملة القصور الطولونية بالقطائع • الكندى ، الولاة ، ص ٢١٥ •

والحمائم (٢) والعشاريات (٣) والسناديل (٤) وقوارب الخدمة كما ذكر المقريزى ، حتى يسد ابن طولون وجه البحر المتوسط ، وأن يصد ما يجىء اليه من السفن الحربية القادمة من طرسوس وغيرها ٠

وقد بلغ من اهتمام ابن طولون بشأن الأسطول الذى أشاد بذكره الشعراء وبحركة الصناع وهم يعملون فى تجهيزه (٥) ، أن أسند مهمة الاشراف الى أبى كامل شجاع بن أسلم الحاجب (٦) وكان أحـد علماء الهندسة البارزين فى عصره كما كان فنيا فى مهنته ٠ ونعتقد أن مهمة مدير دار الصناعة ومتولى شئونها فى ذلك العصر كانت أقرب ما تكون ، كما وردت فى سجل توليته أمر الثغور ، وقد جاء فيه : « أن يتفقد أمر المراكب المنشأة حتى يحكمها ويجود آلاتها ، ويتخير الصناع لها ويشرف على ما كان منها فى الموانى ، ويرفعها من البحر الى الشاطىء فى المشاتى وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها » ٠

---

(٢) نوع من السفن الشراعية ذات المجاديف ، وقد ذكر الكندى هذا النوع من السفن فى حوادث سنة ٢٩٢هـ ، الولاة والقضاة ، ص ٢٦٣ ٠

(٣) العشاريات هى نوع من السفن الكبيرة التى كانت تستخدم فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، كما كانت هذه السفن يكثر استعمالها فى النيل ٠ والاسم معرب ويجر بعشرين مجدافا ، وتنقل البضائع والرجال من ساحل الى آخر كما يستخدم فى الأسطول الحربى لنقل المقاتلة والعتاد ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى مصر القاهرة ، ص ٧٤ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٣٥٦ ٠

(٤) السنادل أو الصنادل وهى جمع صندل وهى القوارب المستخدمة للشحن أو من القطع الحربية الصغيرة الملحقة بالأسطول ٠ درويش النخيلى : السفن الإسـلامية ، ص ٨٧ ٠

(٥) أورد الكندى قصيدة للشاعر محمد بن داود لأحمد بن طولون يصف فيها الأسطول المصرى وحركة الصناع أثناء بنائهم وتجهيزهم لقطع الأسطول :

لما ثوى ابن بقـا بالرقتين مـلا ... سافيـة زرقا الى الكعبين والقصب

بنى الجزيرة حصـنا يسـتجن به ... بالعسف والضرب والصناع فى تعب

له مراكب فوق النيـل راكـدة ... لما سوى القار للنظـار والخشب

الولاة والقضاة ، ص ٢١٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦١٤ ٠

(٦) ويبدو أن أحمد بن طولون كان قد سجنه قبل أن يطلق سراحه ويعينه مديرا لدار الصناعة بالجزيرة ٠ يقول البلوى : « حدث أبو كامل شجاع بن أسلم الحاجب قال : لما أطلقنى أحمد بن طولون ألزمنى دار الصناعة » ، وربما كان سبب سجنه هذا أنه كان قريبا لاحمد بن القاسم بن أسلم احد أعوان العباس بن أحمد بن طولون فى ثورته عليه ٠ سيرة أحمد بن طولون ، ص ٢٠٨ ٠

ويظهر الدور الهام لمتولى الثغر أو دار الصناعة في اشرافه الدقيق وواجباته نحو العمال والصناع والنفاطين والنواتية ، فلم يقتصر عمله على اختيار هؤلاء وغيرهم من ذوى الصناعات والمهن فى المراكب ممن يتميزون فالفطنة ، والذكاء والحذق والمهارة الفائقة ، بل كان عليه الاشراف على صناعة المراكب ذاتها ، فعليه أن ينظر فى صناعة المراكب – كما يقول قدامه بن جعفر – « نظرا يستكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمشاقة والزفت وغيره ، حتى يحكمها ويجيد بناء المراكب وتاليفها وقلفطتها وتركيبها ، ويستجيد التقاذيف ويجيرها ، وينتقى الصوارى والقلوع ، وينتخبها ويميز النواتية ، ويعتمد من له الحذق والدربة منهم والحنكة والتجربة من جميعهم حتى لا يدخل فيهم من لا يصلح دخوله ، ولا يخلط بهم من يكون غيره أحق بالعمل منه » .

ومهما قيل ان البحرية أو الأسطول المصرى بعد اتمام تجهيزه فى عهد ابن طولون ، لم يلعب دورا ، ولم يزد نشاطا ، لما كانت عليه السيادة فى البحر المتوسط للاغالبة (٧) فانه عندما توفى مؤسس الدولة الطولونية عام ٢٧٠ هـ ترك لابنه خمارويه أسطولا بلغ مجموع سفنه الكبيرة والصغيرة وكذلك التجارية منها نحو ألف قطعة ، كان منها كما ذكر البلوى نحو مائتى مركب أو قطعة حربية تامة التجهيز بالعدد والسلاح .

ويشير الكندى الى استمرار خمارويه فى العناية بالأسطول فى مواجهة أعداء الخلافة ، فكانت القطع البحرية ترابط بسواحل الشام تعزيزا لجيوشه البرية ، الى أن تم الصلح باعتراف الخلافة بولاية خمارويه وولده على مصر والشام ثلاثين عاما وذلك فى سنة ٢٧٣ هـ/٨٨٦ م .

وتبدو أهمية صناعة السفن الحربية والتجارية فى عهد الطولونيين والاخشيديين فى استخدام هذه القطع البحرية فى حصار الثغور وغزو البلاد ، فتشير المصادر التاريخية الى أن محمد بن طغج الاخشيد أقبل على مصر ومعه أسطول بقيادة صاعد بن كلملم ، ودخل هذا الأسطول ثغر دمياط ، وسارت سفنه فى النيل فى شعبان سنة ٣٢٣ هـ بعد أن هزمت

---

(٧) أقام القائد العباسى موسى بن بغا بالرقة نحو عشرة أشهر مترقبا السير الى مصر لكنه ما لبث أن توفى سنة ٢٦٤هـ ، لكنه من المعروف أن حمله أحمد بن طولون على الشام أتاحت له استخدام أسطوله ، بل أنشأ قاعدة بحرية له فى عكا ، وحصن هذا الميناء على يد مهندس من بيت المقدس ، وهو جد المقدسى الجغرافى المعروف ، الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٢٦ – ٢٣٢ .

السفن المصرية ، ووصلت قطع الأسطول الى جزيرة الروضة وتم الاستيلاء على ما فيها من السفن (٨) ٠

ويذكر ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق أن حصار القائد المغربي حبش ابن أحمد الجزيرة الروضة واحراق ما بها من السفن كان سببا فى نقل دار الصناعة بالجزيرة الى موقع آخر لا يفصله عن الفسطاط ماء فكان أن حول محمد بن طغج الاخشيد بعد أن تولى شئون الحكم في مصر ، موقع الصناعة الى بستان سمى المختار بساحل الفسطاط وأسس له دارا جديدة للصناعة عام ٣٢٥ هـ/٩٣٧ م ٠

ولكن من الواضح أن انشاء هذه الصناعة الكبرى لم يقض تماما على الصناعة في جزيرة الروضة ، اذ استمرت مراكب الأسطول تنشأ فى الجزيرة حتى أواخر العصر الفاطمي ، يقول المقريزى : « وكانت مراكب الأسطول مع ذلك تنشأ فى الجزيرة وفى دار صناعتها الى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله تعالى » وهكذا أصبحت فى عهد الاخشيديين تصنع السفن الحربية والتجارية في دار صناعة مصر تارة وفي دار صناعة الجزيرة تارة أخرى ٠

وقد خلف الاخشيد حين وفاته نحو مائة مركب حربية سوى العشاريات التى بلغت كل مركب منها فى القيمة نحو ثلاثة آلاف دينار ٠

والظاهر أن المصريين كانوا يعرفون فى العصر الاخشيدى التقليد المتبع في عصرنا الحاضر بشأن الاحتفال بانزال السفن الى البحر حين يتم بناؤها ٠ فقد كتب يحيى بن سعيد الانطاكى أن كافورا « ركب الى دار الصناعة ووقف ليطرح مركبا حربيا كان بهـا الى البحر ٠٠ وكان على الشط مركب آخر راس فاجتمع الناس فيه وجلسوا على حافته وتزاحموا عليه لينظروا نزول المركب الآخر الى البحر ، فانفلت ذلك المركب الذى كانوا مجتمعين فيه بهم ، ومال عليهم فقتلهم بأجمعهم وغرقت عدة من المراكب اللاصقة له فى البحر مملوءة أناسا وهلك جميع من كان فيها ومات من الناس زهاء خمسمائة رجل » ٠

وتبدو مظاهر تقدم وازدهار صناعة المراكب النيلية فى ذلك العهد مما جاء فى وصف المسعودى لاحتفال المصريين بليلة عيد الغطاس ، فكان الناس يخرجون مئات الآلاف من المسلمين والنصارى منهم فى الزوارق والمراكب ، ومنهم في الدور الدانية من النيل ٠

---

(٨) ويذكر ابن سعيد نقلا عن ابن زولاق أن القائد المغربي حبش بن أحمد فى حملته الى مصر سنة ٣٢٣هـ/٩٢٥ أسر القائد الاخشيدى صاعد بن كلملم وقتله وذلك فى مضيق خليج الفيوم ، كما قام برجاله أثناء انسحابه باحراق دار الصناعة بجزيرة الروضة ، يقول ابن سعيد : « وركب الأخشيد فوقف حذاءهم عند دار بنت الفتح وهو لا يقدر عليهم ثم انحدروا الى الاسكندرية » ٠ المغرب ، جـ ١ ، ص ١٥٨ ٠

ويتجلى نشاط المصريين فى صناعة المراكب النيلية والبحرية فى تلك الحركة الدائبة وضخامة الأعـداد من السفن والمراكب التى كانت تغدو وتروح على صفحة النيل الخالد ، وكما ذكر ابن الكندى فى وصف المدن المصرية حيث قال : « وكلها تأتى منها السفن وتحمل الطعام والمتاع والآلات الى الفسطاط وتحمل السفينة الواحدة ما يحمله خمسمائة بعير » .

وليس هناك ما يفوق وصف المقدسى لتلك الأعداد الهائلة من السفن والمراكب كأنها الجبال وهى على ساحل الفسطاط حينما قال : « وكنت يوما أمشى على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة فقال لى رجل منهم (أى المصريين) من أين أنت قلت من بيت المقدس ، قال : بلد كبير أعلمك يا سيدى أعزك الله أن على هذا الساحل ، وما قد أقلع منه الى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت الى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان ها هنا مدينة » .

ولا غرو فقد كانت السفن ترد الى الفسطاط فى أعداد كبيرة ، وكان ساحلها كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من سائر أنحاء البلاد والأقطار يقول ابن سعيد : « ان ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى (البحر المتوسط) والبحر الحجازى (البحر الأحمر) فوق ما يوصف وأن بها مجمع ذلك» وكانت هناك مراس مخصصة لرسو كل نوع من أنواع السفن بها . منها المراكب المشحونة بالغلال ترسو فى موردة خاصة من الساحل . وفى ناحية أخرى منه كانت ترسو المراكب المشحونة بالأخشاب المخصصة لبناء السفن وصناعة المراكب ، أو لأشغال التجارة وصناعة الأثاث » .

ومن مراكز صناعة السفن والمراكب النيلية دار الصناعة بتنيس ، وكانت تقع مما يلى الغرب ودار الامارة بالمدينة وبينهما بنيت الحمامات وعرصتان(٩) عظيمتان يرد اليهما ما تحمله المراكب من سائر البلاد القريبة والبعيدة . وقد اشتهرت تنيس فى ذلك العصر بنشاطها الصناعى والتجارى كما اشتهرت بحيرتها (بحيرة المنزلة حاليا) فى شمال الدلتا (١٠) ، يصف

(٩) العرصة : الفضاء الواسع الذى ليس فيه بناء وهو ما يشبه الميناء . المصباح المنير .

(١٠) يصف القلقشندى بحيرة تنيس وصلتها بدمياط كما ينقل عن صاحب الروض المعطار فيقول : « وطمى عليها البحر قبل الفتح الاسلامى بمائة سنة فغرقها ويتصل بهذه البحيرة من جهة الغرب بحيرة دمياط ، وهما فى الحقيقة كالبحيرة الواحدة » صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٣٠٨ .

ابن حوقل نشاط حركة الملاحة بهـا فيقول : « وفيها مدن مثل الجزائر تطوف البحيرة بها ، ولا طريق الا بالسفن والبلاد المعروفة بها تنيس ودمياط ودبيق وشطا وتونه ، وهذه البحيرة قليلة العمق يسار في أكثرها بالمدارى ، وتلتقى السفينتان تحك احداهما الأخرى هذه مصعدة ، وهذه نازلة بريح واحدة مملوء شراعها بالريح ومتساوية في سرعة السير » ٠

ولا شك أن ذلك يدل على مهارة الملاحين وحذق البحارة والنواتية ، حتى أنهم كانوا يقلعون بريح واحدة يريدون القلوع بها ، حتى يذهبوا ـ كما يقول ياقوت ـ في جهتين مختلفتين ، فيلقى المركب مختلف السير في مثل لحظ الطرف بريح واحدة ٠

وقد أمدنا بن بسام بأسماء أنواع السفن والمراكب التى كانت تصنع بتنيس ، وحتى ذلك النوع المسمى بالعصافير والتي كانت تعد خاصة لصيد الطيور في البحيرة ، حيث بلغت مائة وثلاثة عشر مركبا ٠ وذكر من أنواع السفن التجارية والكمائن والعشاريات الصادرة من تواصل السير الى سواحل الشام في كل سنة نحو خمسمائة قارب ومركب ٠ فلا غرابة في نشاط حركة الصناع والنجارين وغيرهم من الحرفيين بصناعة ثغر تنيس، وقد كان يقطنها كما سبق القول ـ من أرباب الحرف والصناعات وأهل العلم حتى ذاع صيتها ، وغدت بها ادارة امارة مصر الاسلامية ٠

ويمكن القول بأن دمياط ورشيد كانتا من المراكز الهامة لصناعة السفن أيضا في العصر الاسلامى ، فقد كان ميناء دمياط همزة الوصل بين نهر النيل والبحر المتوسط ، كما كانت من مراكز التجارة والصناعة الهامة ، وقد حازت من الشهرة بما حظيت به تنيس في صناعة وتجـارة المنسوجات والتى طبقت شهرتها الآفاق ٠ أما رشيد فقد كانت من الثغور المصرية القديمة ، ويقال انها كانت تقع الى الشمال من موقعها الحالى الذى نقلت اليه في سنة ٢٥٦ هـ في عهد أحمد بن طولون (١١) ٠ ويصف ابن حوقل مدينة رشيد في عصر الاخشيديين فيقول (١٢) : « انها مدينة

---

(١١) وذكر ابن مماتى أنها كانت من الثغـور المحروسة والموانىء الهامة ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٥ ، سعاد ماهر ٠ محافظات الجمهورية ، ص ١٣٦ ٠

(١٢) ذكر المقريزى أن أشجار السنط كانت تنمو في البهنسا والأشمونين والأسيوطية وفي اخميم وقوص بالصعيد الأعلى ، حيث كانت الدولة تقيم حراسة على مناطق هـذه الأشجار لحمايتها حتى يعمل منها مراكب الأسطول ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ ، سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ، ص ١٤٠ ، الطبعة الثالثة ٠

على النيل قريبة من مصبه فى البحر المالح من فوهة تعرف بالأشتوم وهى المدخل من البحر ، وبها أسواق صالحة وحمامات ونخيل كثير وارتفاع واسع » ولا شك أن موقعها الهام على النيل وبالقرب من البحر المتوسط يجعل أهلها يعملون فى بناء السفن التجارية والمراكب ، والتى كان خير وسيلة لأعمال النقل والتجارة فى العصور الوسطى ٠

ولم تكن مدن الصعيد الواقعة على النيل من أسوان وقوص واخميم واسيوط والبهنسا وحتى بلوغ الفسطاط . بأقل حركة أو نشاط فى صناعة المراكب النيلية ، لاسيما وأنها كانت ترفع منها أخشاب السنط احدى المصادر الهامة للخشب الصالح لبناء السفن (١٣) ٠ كذلك شجر اللبخ الذى كان ينمو بأنصتا Antince (١٤) ، وكان من أعلى أصناف الخشب الذى تصنع منه المراكب ، فقد ذكر المقريزى نقلا عن أبى حنيفة الدنيورى أن شجر اللبخ كان لا ينبت الا بجهة أنصنا وهو عود تنشر عنه الواح السفن ، وربما أرعف ناشرها ، ويباع اللوح منها بخمسين دينارا أو نحوها ، واذا شد لوح منها بلوح ، وطرحا فى الماء ستة أيام التأما وصارا لوحا واحدا » مما يدل على جودته وشهرته فى ذلك الوقت ٠

وكانت السفن والمراكب التى يمتلكها الأهالى وخاصة القوارب والمراكب النيلية ، فقد ورد فى خطاب خاص بدفع أموال أن أحد التجار عمل على تأجير قارب من صاحبه يدعى صدقه الاسناوى (من مدينة اسنا) ويرجع تاريخ ذلك الخطاب الى القرن الثالث أو الرابع الهجريين ٠ كما تشير وثائق الجنيزة الى امتلاك العديد من الأثرياء والتجار والسفن التجارية ٠

وقد ورد فى المصادر أيضا أنه كان لليهود نشاط واسع فى التجارة وملكية السفن التجارية فى البحرين المتوسط والأحمر حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ٠

---

(١٣) اغلب الظن أنها كانت تقع على مسافة من دير القلمون الذى ذكره المقريزى وكان من جملة الأديرة الواقعة بالقرب من الفيوم - الخطط ، جـ ٣ ، ص ٥٥٨ ٠

(١٤) كان شجر اللبخ ينمو بوفرة فى اقليم طيبة فى العصور القديمة ، وكان دائم الخضرة ، وقيل ان زراعته نقلت من أرض فارس الى الشام والى مصر ، وقد نقل عبد اللطيف البغدادى من رواية أبى حنيفة الدينورى فى وصفه ، ثم علق على روايته فقال : « وأكثر ما حكاه الدينورى لا أعرف صحته » ٠

٣ ـ ازدهار صناعة السفن وتجهيزها في دور الصناعة الفاطمية

كانت صناعة بناء السفن كصناعة البناء ، من حيث أنها تضم طوائف كثيرة من أهل الحرف والصناعات ، فهى تشمل ، النشارين والنجارين والمقلفطين والحدادين وغيرهم من النفاطين والنواتية والقذافين وخاصة فى تجارة السفن البحرية والحربية منها • وقد عنى الخليفة المعز لدين الله منذ قدومه الى مصر سنة ٣٦٢ هـ عناية كبيرة بانشاء الأساطيل واعداد القوات البحرية ، ويذكر المقريزى نقلا عن ابن أبى طى أن المعز أنشأ دار الصناعة بالمقس (١) ، وبنى فيها ستمائة مركب ، ولكن المسبحى ينسب فضل انشاء دار الصناعة هذه الى الخليفة العزيز بالله • أما الرقم الذى ذكره ابن أبى طى فعليه مسحة من المبالغة الشديدة ، كما أننا نرجح رواية المسبحى المؤرخ المعاصر ، فهى أقرب الى الصدق والدقة • ومما يجعلنا نميل الى الأخذ برواية المسبحى هذه أن المعز لم يلبث أن توفى عام ٣٦٥ هـ وأخذت الحالة السياسية بين مصر والدولة البيزنطية فى التوتر ، مما أدى الى استعداد العزيز بالله للخروج بنفسه الى الشام ، وتكليف وزيره عيسى ابن نسطورس بسرعة العمل على تجهيز الأسطول الذى جاء فى وصفه على حد قول المسبحى أنه لم ير مثله رشاقة وحسنا ، كما أكد أنه لم ير مثل قطع الأسطول الفاطمى فى البحر على أى ميناء •

---

(١) المقس : ضيعة تعرف باسم أم دلين وتقع على ساحل النيل ، وقد خصصها المعز لدين الله لتكون مرفأ صناعيا ، وقد عرفت فى أول الأمر باسم المكس نسبة للدراهم التى كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق • كما أنشأ الحاكم بأمر الله جامع المقس • المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ •

وقد ذكر المسبحي في حوادث سنة ٣٨٦ هـ أنه شب حريق أحرقت فيه خمس عشاريات وأتى على العدد والسلاح ، ولم يبق سوى ستة مراكب، واتهم العامة الروم المعتمرين بالقرب من دار الصناعة بتدبير الحريق وهاجموهم ونهبوا دورهم وقتلوا منهم نحو مائة رجل .

ويصور المسبحي مبلغ اهتمام الوزير عيسى بن نسطورس بانشاء أسطول جديد يقوم مقام الأسطول الذي كان معدا لوقف تقدم البيزنطيين بالشام واحترق ، فيقول : « وأمر عيسى بن نسطورس أن يمد للوقت عشرين مركبا ، وطرح الخشب ، وطلب الصناع ، وبات في الصناعة وجد الصناع في العمل » وقد أصدرت الحكومة الفاطمية الأوامر بقطع الأخشاب من مختلف جهات القطر .

ومن الجدير بالذكر أن خشب بناء السفن ، كان يجلب في ذلك الوقت من بلاد الشام ، ومن مناطق الغابات في كثير من جهات صعيد مصر ، كما كان يستورد الخشب الذي يتميز بصلابته من أوروبا عن طريق البنادقة . وكثيراً ما تدخل الأباطرة البيزنطيون لمنع المدن الايطالية من تزويد مصر بما تحتاجه من الخشب .

وقد تعرضت جمهورية البندقية الى تهديدات الامبراطور البيزنطي بالانتقام منها اذا لم تمتنع عن مد مصر وغيرها من البلاد الاسلامية بالخشب اللازم لبناء السفن فأصدرت حكومة البندقية أمرا بمنع تصدير هذا النوع من الخشب وسمحت بامدادها بالخشب الذي لا يصلح لانشاء السفن (٢) ، وشرطت أن يكون من اللبخ والسنديان على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف قدم ، كما أذنت أيضا أن يباع للمسلمين الأدوات المصنوعة من الخشب .

كانت أهم مراكز انشاء السفن بمصر والاسكندرية ودمياط ، ولكل واحد منها مستخدمون يستدعون ما يحتاج اليه . ومن الذين أسندت لهم مهمة الأشراف على دار الصناعة بمصر كان الشريف أبو طالب العمي(٣) :

---

(٢) لم تحرص حكومة البندقية على التقيد بهذه السياسة التي تؤدي الى التضحية بمصالحها في سبيل ارضاء أباطرة الدولة البيزنطية ، فعملت على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين ، ومن ثم أرسلت بعثات الى بلاد الدولة الاسلامية سنة ٣٩١هـ/١٠٠٠م ، حصلت على امتيازات لسفنها . وكانت سفن البندقية التي تصل الى مصر تنقل منتجات آسيا الى أسواق أوروبا .

Heyd : Histoire du commerce de levent au moyen age, tome, I, p. 114.

(٣) ذكر المسبحي أن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله احتاج مرة الى عشرة آلاف دينار فطلبها من متولي دار الصناعة الذي أجابه الى دفع خمسة آلاف دينار منها . أخبار مصر ، ص ٢٠٧ .

ويبدو أن صناعة مصر التى أنشأها الاخشيد بساحل الفسطاط قد أهملت منذ انشاء دار الصناعة بالمقس فى بداية العصر الفاطمى ، واستمرت كذلك مراكب الأسطول تنشأ فى صناعة الجزيرة وبالمقس الى أن ولى الوزير المأمون بن البطائحى الذى أنكر ذلك ، وأمر أن يكون انشاء الشوانى (٤) والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر القديمة هذه ، وأضاف اليها دار الزبيب كما أنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة فى الاحتفالات الخاصة بعرض القطع البحرية .

وأضاف المقريزى أن الوزير المأمون أقر انشاء الحربيات والشلنديات بصناعة الجزيرة (٥) ، كما كان فيها محل ديوان الجهاد ، مما يدل على أن كل من الدور الثلاثة بالجزيرة أو بساحل الفسطاط والمقس كانت تعمل فى بناء السفن بأنواعها المختلفة الحربية والتجارية والنيلية أيضا .

وكان ديوان الجهاد أو ديوان العمائر يشرف على أعمال بناء السفن وتجهيزها ودفع رواتب الصناع والبحارة من العاملين فى دور الصناعة ورجال الأسطول . كما كان يستولى من أخشاب الخراج على حاجة الأسطول والسفن التجارية ، ويبيع الباقى لتجار الأخشاب وغيرهم من النجارين وصناع أدوات الأثاث . كذلك كانت الحكومة الفاطمية تعمل على صناعة السفن التجارية وتبيعها للتجار وغيرهم من المصريين .

وهكذا كانت الحكومة تعمل على احتكار الأخشاب التى كانت تحصل عليها من أشجار السنط التى لا تحصى كثرة فى البهنساوية والأشمونين والاسيوطية والاخميمية والقوصية ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد مائة دينار . ولا يقطع من أشجارها الا ما تدعو الحاجة اليه . كما عملت على احتكار صناعة السفن التجارية .

وقد عملت الدولة على توفير المواد اللازمة لبناء السفن الحربية والتجارية من الأخشاب والحديد وآلات الأساطيل من العنب والكتان

---

(٤) وردت فى قوانين الدواوين باسم الشينى ، وهى أقدم أنواع السفن ، وكانت أهم القطع التى يتألف منها الاسطول الرومانى ، ووردت فى التاج للزبيدى الشونة المركب المعد للجهاد فى البحر والجمع الشوانى . وكانت من أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة للجهاد ، وكانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكان متوسط ما يحمله الشينى الواحد ١٥٠ رجلا ويجدف بمائة مجداف . ابن مماتى : ص ٣٤٠ .

(٥) الشلنديات جمع شلندى وهى مركب حربى كبير مسطح كان مخصصا لنقل المقاتلة والأسلحة ويذكر ابن مماتى : « هو مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره » قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

والمنجنيقات ، والتى كان معظمها يتم استيراده من خارج البلاد ، وكذلك العديد من الصناع الأوروبيين وغيرهم من أهل كل صنعة من الصنائع .

وقد أمدنا ابن مماتي بأسماء وأنواع السفن التى كانت تنشأ بدور الصناعة برسم الأسطول ، وما كان يقرره ديوان العمائر ، حيث قال : « وأسماء مراكبه (يعنى الأسطول) طريدة وحمالة وشينى ومسطح ، حراقة ، مركوشي ، شلندى ، أعزازى (أعوادى) »،ويشير الى خصائص وفوائد كل منها فهى أكثر من أن تحصر (٦) ، فأما الطريدة فانها برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يحصل فيها أربعون فرسا ، وأما الحمالة فيحمل فيها الغلة ، وأما الشلندى فانه مركز مسقف تقاتل الغزاة على ظهره (٧) ، وجدافون يجدفون تحتهم ، كما يذكر المسطح(٨) والشينى ويسمى الغراب أيضا والحراقة (٩) ، والاعزازى أو الاعوادى من توابعه تحمل فيها الازواد والمركوش مركب لطيف لنقل الماء ويكون وسعه دون مائة أردب ، وقد ذكر

---

(٦) من بين هذه السفن ما كان يخص الاسطول ، وما يخص خدمة الخليفة الفاطمى فى ركوبه وتنزهاته النيلية ، فقد ذكر ناصر خسرو أنه كان للسلطان (يعنى الخليفة المستنصر) احدى وعشرون سفينة ، وأنه قد عمل لها حوض خاص قرب القصر الفاطمى . سفرنامة ، ص ٥٥ .

(٧) ويصف المقريزى حركة الملاحة فى النيل والسفن الحربية فيقول : « ولا ننس الجوارى والمنشآت فى البحر كالاعلام التى تسبق عند طياتها الرياح مفرقات السهام واعجابها بغربانها البحرية وحراقاتها الحربية وشوانيها وهول مبانيها وجلال شكلها وجمال معانيها تبدو موشاة بالنضار الأحمر منقشة باللون الأفخر فهى كالأرقم المنير معبرة ببباس الحديد والأحجار مجمولة على سطح الماء التيار منصورة عند القتال مصونة بالمن والنبال » الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٩ .

(٨) المسطح جمعها مسطحات وهو نوع من المراكب الكبيرة الحجم يشبه البطة كانوا يجرونها فى البحار وقت الحرب خلف المراكب الأخرى من مراكب الاسطول خشية أن تغرق بالمقاتلين عليها ، وهى من أكبر السفن فى الاسطول الاسلامى .

سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٣٦٨ .

(٩) وتجمع الحراقة على حراقات وحراريق ، وهى نوع كان ينشأ من السفن الحربية التى ترمى بالنيران ، استعملها المسلمون فى العصور الوسطى وذكر المقريزى أن الحراقات هذه كانت تستعمل أيضا فى البحر الأحمر ، حين قال فى حوادث سنة ٥١٢هـ أن الأفضل كتب الى والى قوص بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه الى عيذاب ، وأن يتشون ما يدخل عيذاب من الشوانى والحراريق ، فمهما كان يحتاج الى اصلاح ومرمه ينجز الأمر فيه ، وتقدم الى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حراريق وتكميلها الى الحجاز . وكان قد ورد من التجار من عيذاب أنه خرج عليهم مراكب شنها قاسم بن أبى هاشم صاحب مكة . اتعاظ الحنفا جـ ٣ ، ص ٥٨ ، تحقيق المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

ابن مماتى أن هذه الأنواع من السفن الحربية جميعها كانت تصنع فى دور الصناعة بكل من مصر والاسكندرية ودمياط ٠

ومن أنواع المراكب التى شاع استخدامها فى العصر الفاطمى وكانت دور الصناعة تقوم ببنائها ، الدكاسات وهى نوع من المراكب كانت مخصصة لكبار رجال الدولة نقل المقريزى عن ابن الطوير حديثا عن صاحب الطراز وحقوقه وواجباته جاء فيه « وله ثلاث مراكب من الدكاسات ، ولها رؤساء ونواتية لا يبرحون ونفقـاتهم جارية من مال الديوان ٠ ونذكر أيضـا العشـاريات والديماسات التى ذاعت شـهرتها وكان الخلفـاء الفاطميون يستخدمونها أثناء تنزهم على صفحة النيل ، ويصف عبد اللطيف البغدادى النوع المسمى بالعشارى وصفا مسهبا جاء فيه « أما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال وأغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه العشارى ، شكله شكل شباره داخله ، الا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداما وشكلا ، قد سطح بألواح من خشب ثخينة محكمة وأخرج منها أفاريز كالرواشن(١٠) نحو ذراعين وبنى فوق هذا المسطح بيت من خشب وعقد عليه قبة ، وفتح له طاقات وروازن (١١) بأبواب فى البحر من سائر جهاته (١٢) ، ثم تعمل فى هذا البيت خزانة مفردة ومرحاض ٠ ثم يزورق بأصناف الأصباغ ويذهب ويدهن بأحسن دهان » ٠ ولا شك أن هذا الوصف يدل على مبلغ مهارة الصناع الذين كانوا يقومون بهذه الصنعة المحكمة البديعة ٠

أما الديماس فكان منها ما يعمل خاصا برسم الخليفة فى عهد الدولة الفاطمية يخرج بها أيام الاحتفـالات بيوم فتح الخليج وغيره ، وكان من الدواميس ما هو برسـم ولاة الأعمـال وللمشـارفين بالأقاليم المصرية المختلفة (١٣) ٠ كما كانت تصنع فى دار الصناعة بمصر والجزيرة من

---

(١٠) الرواشن : مفردها روشن وهى كلمة فارسية ومعناها ما نتأ أو برز عن الحائط ـ سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٣٥٦ ٠

(١١) الروازن : مفردها روزنة وهى الكسوة معربة ٠

(١٢) ذكر ابن المأمون ما كان يعمل يوم الاحتفال بفتح الخليج ، أنه تم ترتيب موكب الخليفة الفاطمى حيث قدم العشارى بالخليفة الآمر بأحكام الله والوزير المأمون الى الصناعة بمصر ، وزميت العشاريات بين أيديهما ، ثم عدنا فى احداها الى المقياس وصلينا هناك » المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ ٠

(١٣) وذكر المقريزى أن الدواميس كانت برسم ولاة الأعمال المميزة ، فهى تجهز لهم ، وتقيم مع أحدهم مدة مقامه ، فاذا صرف عاد فيه ، وخرج المتولى الجديد فى العشارى الرسمى بالصناعة ٠ الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ٠

نوع المراكب الشبابيك والشخاتير (١٤) والزوارق ، والسميرات (١٥) ، والقراقير ، والتى كانت تستخدم فى الاحتفالات والأعياد الفاطمية ، كما تستخدم فى نقل الجنود والمؤن وغير ذلك من الأغراض الحربية •

وكانت هناك رسوم وتقاليد عند تجهيز الأسطول واقلاعه للغزو ، فكانوا اذا تم الاستعداد ، وكب الخليفة والوزير الى منظرة المقس ، فاذا ما وصلت السفن الحربية من دار الصناعة (الترسانة) قامت بعض المناورات ، ويتقدم المقدم بعدها والرئيس الى حضرة الخليفة حيث يوصيهما، ويدعو لهما بالنصر والسلام ، ويعطى المقدم مائة دينار والرئيس عشرين دينار • وبعد انتهاء الاحتفالات تنحدر السفن فى فرع النيل الشرقى نحو دمياط ومنها تخرج الى البحر المتوسط •

ولم يزل الأسطول يعد فى جزيرة الروضة تارة وبالمقس تارة أخرى ويصير الاحتفال بتجهيزه واعداده للغزو وفقا للتقاليد الجارية حتى أواخر أيام الفاطميين ، حين أمر الوزير شاور باحراق قطع الأسطول بعد أن استولى الصليبيون على بلبيس ، واستعدوا للزحف على العاصمة المصرية ، فأمر باحراق الفسطاط ومراكب الأسطول •

ولم يقتصر الأمر على الأسطول الحربى ، بل نشطت صناعة المراكب لأغراض النقل والتجارة نتيجة للتوسع التجارى الذى شاهدته البلاد فى عصر الفاطميين ، فكانت السفن تقلع الى موانى شمال افريقيا وجنوب أوروبا وجزيرة صقلية والشام وتعود محملة بالسلع اللازمة كما كانت السفن تملأ سطح النيل محملة بالغلال الى الفسطاط والمتاجر من أسوان وقوص بعد وصول قوافل عيذاب اليها • وقد دهش ناصر خسرو من آلاف السفن التى رآها فى كل من تنيس وساحل مصر •

ومن الجدير بالذكر أن صناعة السفن وخاصة منها الزوارق والمراكب النيلية لم تقتصر على دور الصناعة الحكومية ، بل كانت هناك مراكز عديدة بطبيعة الحال لعمل المراكب وغيرها من القوارب والزوارق بمعرفة الأهالى لاسيما فى المدن والثغور المصرية • نذكر منها مدينة الصالحية ، حيث

---

(١٤) وهى من المراكب النيلية ، والشخاتير واحدها شختور ، وهى برسم تعدية الناس من الشط الى الآخر فى ابان زيادة النيل من مصر الى الجيزة • درويش النخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ٧٤ •

(١٥) كانت احدى القطع النهرية المعروفة فى العصر الفاطمى ، وكانت تنقل بها الجنود والمؤن وتقام لحراسة أفواه الأنهار ، كما تستعمل لنقل التجارة • عطيه مشرفة : نظم الحكم بمصر ، ص ١٨٤ •

كانت تصنع بها سفن كبيرة حمولة كل منها مائتا خروار • ومن الثغور الهامة والمراكز ألالتى أشار اليها ابن مماتى مدينة رشيد (١٦) ، ولا شك أن صناعة المراكب بها خلال العصر الفاطمى كانت رائجة •

وكما ذكر ابن بسام أنه كان يوجد بثغر تنيس دارا صناعة وامارة ، لا شك أنها كانت محل العناية والرعاية من جانب الحكومة الفاطمية (١٧) ، فان أهلها الذين اشتهروا بالعديد من الحرف والصناعات ، كانوا يعملون فى صناعة القوارب والمراكب لحسابهم ، ولا سيما تلك الأنواع المختلفة التى ذكرها ابن بسام المخصصة لصيد الطيور والأسماك ، فضلا عن الأغراض التجارية الأخرى •

ومن مراكز التجارة الداخلية مدينة دمياط التى تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها ، وليس من شك فى آن صناعة السفن التجارية وغيرها من المراكب النيلية قد ازدهرت بها ، ولم تقتصر على دار الصناعة الحكومية ، وانما كان أهلها يشتغلون بهذه الصناعة الهامة ، لاسيما وأنها أصبحت الميناء المصرى الوحيد فى الجزء الشرقى من البحر المتوسط •

كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية ، فقد ضمت الأســواق الكبيرة لوقوعها عند نهــاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل ، ولابد أن أهلها كانت لهم علاقة كبيرة بملكية السفن والاهتمام بصناعتها ، لاسيما وأن منطقة قوص كانت ضمن مناطق الخراج وخشب السنط التى ذكرها المقريزى من جهات صعيد مصر • وقد أقام حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتى سنة لا يذهبون الى مكة لأداء فريضة الحج الا من صحراء عيذاب ، فكانوا يركبون السفن من ساحل مدينة مصر حتى مدينة قوص ، ثم يركبون الابل من قوص أو من أسوان ثم يعبرون هذه الصحراء الى عيذاب •

---

(١٦) ويذكر ابن مماتى أنها أصبحت من الموانى الهامة والثغور المحروسة فى العصر الأيوبى • قوانين الدواوين ، ص ٣٢٥ •

(١٧) كان لتنيس فى العصور الوسطى شأن خطير من الناحيتين الحربية والصناعية ، فقد كان الروم يغيرون عليها بأساطيلهم كلما فكروا فى غزو مصر ، ولهـذا كان بها دار صناعة وأسطول مقيم ، وكان بها حصون وقلاع قوية ، وقد ذكر ابن بسام أن الفاطميين جعلوا فوق كل مسجد من مساجدها (وكان بها ١٦٠ مسجدا) منارة يرصدون منهـا سفن العدو ، اذا قدم للغزو ومداهمة الأسطول الفاطمى • نفس المصدر ، ص ٩٨٤ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٥٥ ، حاشية •

وكان من أهم الموانى التجارية على البحر الأحمر فى العصر الفاطمى القلزم وعيذاب ، وكان للفاطميين أسطول فى عيذاب ليحمى المراكب المصرية من مراكب القرصنة ببحر القلزم (١٨) ، وتشير المصادر التاريخية الى ان أهل البجة ظلوا يصنعون الجلاب فى العصر الفاطمى بعيذاب ، التى اخذت تجذب المتاجر والحجاج بكثرة فى القرن الخامس الهجرى . وقد افاض ابن جبير فى بيان عظمة هذا الثغر اذ قال : « وعيذاب من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدا الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة » .

كانت الجلاب التى يصنعها أهل البجة وسفن البحر الأحمر تختلف عن سفن البحر المتوسط (١٩) ، ليس فقط فى نوع الأخشاب وكيفية تثبيت الألواح ، بل تعداه الى عملية الجلفطة ، فبينما كانت سفن البحر المتوسط تقلفط بالقار ، نجد أن سفن البحر الأحمر كانت تقلفط كما كما يذكر ابن جبير بالدسر (٢٠) من عيدان النخل ، ثم تسقى بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أضمنها ، ومقصد صناع الجلاب من دهان الجلبة أن يلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة فى قاع البحر الأحمر .

وكانت هياكل السفن الحربية والتجارية فى البحر المتوسط تصنع من خشب الصنوبر أو خشب البلوط ثم تغطى عادة بطبقة من خشب الزان فضلا عن استخدام المسامير الحديدية فى بنائها وتجهيزها فى دور الصناعة سواء بجزيرة الروضة أو فى المقس وفى غيرها بالاسكندرية ورشيد ودمياط من الثغور المصرية .

ومن الأخشاب الهامة كذلك فى بنـــاء السفن المصرية كان خشب

---

(١٨) يقول القلقشندى : وكان لهم أيضا أسطول بعيذاب يتلقى بالكارم فيما بين عيذاب وسواكن ، وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب فيحميهم الأسطول منهم » . صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٥٢٤ .

(١٩) ذكر ابن بطوطة أن أهل البجاه كانوا يصنعون الحبال التى يخيطون بها المراكب او الجلاب عوضا من مسامير الحديد ، من شجر جوز الهند ومن اليافه التى تشبه الشعر . مهذب رحلة ابن بطوطة ، جـ ١ ، ص ١٨٧ ، ص ٢٠٦ .

وقد علل المسعودى أسباب اتخاذ ليف النارجيل او ليف شجر جوز الهند بأن مياه البحر الأحمر كانت تعمل على ضعف المسامير ورقتها حيث تذيب الحديد فاتخذ أهل الحياطة او صناع المراكب الخياطة بالليف بدلا منها » مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ١٦٣ .

(٢٠) الدسر : هى المسامير التى تشد بها الألواح . وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » . سورة القمر : الآية ١٣ .

السنط كما تميزت مصر فانها كانت تنبت نوعا من الكتان تصلح اليافه صلاحية تامة لعمل الحبال وأدوات السفن الأخرى (٢١) ٠

أما الشراع فكان المصريون يعملونه من التيل المكون من خلط من الياف البردى والياف الكتان التى تكثر زراعته فى مصر ، وكانت شرع السفن التى تسير فى البحر الأحمر والمحيط الهندى تنسج من أوراق جوز الهند أو سعف النخيل أو تصنع من نسيج الأشرعة القطنى ٠

وأشار التيفاشي الى كيفية طلاء السفن وزخرفتها واهتمام الصناع الذين كانوا يقومون بأعمـــال القلفطة وتجهيـزات السفن ، وقد ذكر أنهم كانوا يستخدمون حجر الطلق في طلائها حتى لا تفعل فيها النار شيئا من التأثير أو الاحراق ٠

وكان هذا النوع من الأحجار تحصل عليه مصر من جزيرة قبرص وجهات أخرى ، كما استخدم فى طلاء جدران البيوت كذلك لجودته وثبات ألوانه (٢٢) ٠

وقد لعبت الزخارف دورا هاما فى صناعة السفن لما كانت لها من قيمة كبيرة فى نفوس الحكام من الخلفاء والوزراء ورجال الدولة فى العصر الفاطمى ، كما فى نفوس البحارة (٢٣) ٠ وكانت أكثر السفن زخرفة هى سفن الخلفاء والملوك والأمراء وكبار القواد والتجار كمـا أوضح الرحالة عبد اللطيف البغدادى والمقريزى وغيرهما فى وصفهما لهذه السفن التى كانت تصنع خصيصا لهم (٢٤) ٠

ولا غرو فقد كان هؤلاء الأمراء وكبار رجال الدولة يمتلكون هـذه السفن التجارية وغيرها ، كما ورد فى سجلات الجنيزة أن السفن كانت

---

(٢١) ذكر ابن الفقيه أنه كان من عجائب مصر نوع الكتان اسمه (الدقس) ، كانت تصنع منه حبال السفن ، وكانت تسمى القرقس ، مختصر كتاب البلدان ، جـ ٥ ، ص ٦٦ ٠

(٢٢) ويصف التيفاشى طريقة عمل الطلاء من حجر الطلق فيقول : « خذ رطلا من الطلق المحلول بالماء المذكورة مثله شب ومثله صمغ ، ومن المغره رطلين ثم اطل به السمن فانه جيد مجرب » ٠ أزهار الأفكار ، ص ٢٠٦ ٠

(٢٣) كانت السفن الحربية تحتوى على زخارف تعتبر روائع فنية أهاجت قريحة الشعراء فأفاضوا فى وصفها ٠

(٢٤) يصف المقريزى زخارف الجوارى المنشآت فى البحر والأعلام ويعنى السفن المصرية فيقول : « وجلال شكلها وجمال مبانيها تبدو موشاة بالنضار الأحمر تنقشه باللون الأخضر فهى كالأرقم المنبر ، أو كنتلون الشمس ، أو الطاووس الذكر ، أو الناووس البنى الأصفر » الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٩ ٠

ملكا للأفراد . فهناك سفن كان يملكها الخليفة الفاطمى فى البحر الأحمر وأخرى كانت ملكيتها لكبار رجال الدولة ، وقد تسمت باسم الوظائف التى كان يتقلدها بعضهم مثل مركب القائد ، ومركب الحاجب أو الوزير وغيرهما من أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف .

ومن الأسماء الشهيرة التى كان لها شأن خطير فى العصر الفاطمى « ناصر الدين بن حمدان » (٤٥٤ ـ ٤٦٦ هـ) (٢٥) وكانت له سفن كثيرة وله مصالح تجارية كبرى ، وكذلك أخوه فخر العرب ، ولما كان بعض القضاة يمتلكون سفنا خاصة بهم ، ويذكر المقريزى أن أحد الكتاب البارزين المسمى بالراهب فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (٢٦) ، أنشأ له جلبة بعيذاب يقال لها اللامعية لحمل الحجاج الى جده على ساحل البحر الأحمر ، وهكذا شجع الوزراء والقواد والكتاب الفاطميين على تطوير صناعة السفن ، بفضل حرصهم أو رغبتهم فى امتلاكها ، والعمل على استغلالها فى تحقيق أطماعهم الاقتصادية ، كما عمل التجار وغيرهم من المصريين على حوزة السفن ، حتى أنه أصبح لكل تاجر سفنه التجارية المستقلة (٢٧) .

(٢٥) كان يتولى قيادة الجند الأتراك فى أوائل عهد المستنصر ناصر الدولة الحسين ابن حمدان التغلبى ، وقد بلغ شانه فى الثورة على الخليفة أن بعث الى الب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من قبله يسأله أن يرسل اليه عسكرا ليقيم الدعوة العباسية على أن تؤول اليه السيادة على مصر . كما كان له فى أحداث سنوات الشدة العظمى أخبار ومواقف هامة . ابن ميسر : تاريخ مصر ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٢٦) قدم هذا الراهب من جهة أشمون الى القاهرة واتصل بخدمة الديوان ، فلما قتل الوزير المأمون استفحل أمره حتى عم البلاء وشكا منه الرؤساء والقضاة والكتاب . المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٧ .

(٢٧) تشير وثائق الجنيزة كما يذكر جواتياين الى ان ملكية السفن كانت عموما للأفراد ، ويقول : ولقد علمنا أن من بين كل خمسين سفينة كانت هناك واحدة من الذين ذكروا فى سجلات الجنيزة يمتلكها شركاء » . دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ١٨١ .

٤ ـ حرفة النجارة وصناعة الأثاث فى عصر الولاة :

اشتهرت مصر منذ العصر البيزنطى بحرفة النجارة (١) ، وما تطلبته صناعة البناء والعمارة وقطع الأثاث ومستلزمات الحياة من آلات ومعدات أخرى · ويذكر ابن هشام أن العرب فى مكة قبل الاسلام قد استعانوا فى بناء سقف الكعبة الشريفة بأحد النجارين من المصريين الأقباط · كما عثر على عـدد من عقود بين اثنين من النجارين فى مدينة أنطونيوبوليس (الشيخ عبادة) لافتتاح ورشة · ونصت العقود على أن الربح والخسارة مناصفة ، ويرجع ذلك الى العصر البيزنطى وقبل الفتح العربى للبلاد ·

وعلى الرغم من خلو البـلاد من الأشجار الكبيرة التى تعد المصـدر الطبيعى للأخشاب الجيدة التى تصلح لعمل قطع الأثاث من المقاعد والأسرة وغيرها ، الا أن الصناع المصريين قبل الفتح العربى ، تمكنوا من الحصول على خشب الأرز من سوريا ولبنـان ، وأخشاب الزينة من بلاد الشرق الأقصى ، كخشب الساج من الهند والأبنوس من السودان ، وكذلك خشب

---

(١) مهر المصريون فى صناعة الخشب منذ العصور القديمة ، وخير شاهد على ذلك تمثال شيخ البلد المصنوع من الخشب والموجود حاليا بالمتحف المصرى · وقد عثر على آلات مثل المطارق ، القواديم والبلط والأزاميل والمناشير وآلات النجارة مثل تلك التى عثر عليها العلامة الأثرى أمرى قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة (١٩٣٩م) وهى عبارة عن سبعة مناشير نحاسية فى مقبرة ترجع الى الأسرة الأولى وهى أقدم وأكبر مناشير معروفة حتى الآن

محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ، ص ١٣ ، نشر مجلة جمعية الآثار القبطيـة عام ١٩٣٧ ·

البلوط والزان (٢) ، وكما عبر الفريد لوكاس عن مهارة النجارين وصناع الأثاث وخبرتهم بفن النجارة حيث قال : « فاذا لم تكن هناك معرفة سابقة بفن النجارة فمن الصعب أن نفهم لماذا كان هناك أى طلب على هذه الأنواع من الأخشاب والعمل على استيرادها من الخارج » ·

ولا غرو ان رأينا فن الحفر فى الخشب وزخرفة قطع الأثاث وفن التطعيم بالعاج والأبنوس (٣) ، تزدهر فى مصر بعد أن صارت فى أيدى العرب المسلمين الذين كانوا من الحكمة حينما تركوا هذه الصناعة فى أيدى الصناع والنجارين الأقباط وقد وصلت الينا قطع كثيرة من الخشب ذى الزخارف مستعملة فى الأبنية وفى قطع الأثاث ، وفيها ظهرت الأساليب القبطية مع تطورها التدريجى لتتخذ لنفسها مسحة اسلامية ·

وفى الواقع فان المسلمين لم يستخدموا الخشب بكثرة فى فجر الاسلام سواء فى منازلهم ، أم فى مساجدهم وعمائرهم ، اذ لم يكونوا فى حاجة الى نوع من الأثاث الفاخر ، أو غير ذلك من أثاث الكنائس ، فلم يستعملوا الخشب الا فى السقوف والأبواب والدكك والمنابر ، والتى لم تتطلب الا أعمال النجارة البسيطة (٤) ·

وكان أقدم منبر خشبى هو الذى صنعه المعلم بقطر النجار فى مصر لجامع عمرو بن العاص ، ويرجع تاريخه الى حوالى سنة ٣٠ هـ/٦٥٠م (٥)،

---

(٢) كان خشب البلوط يوجد كثيرا فى أوربا وفى آسيا الصغرى ، وينمو على جبال لبنان ، وهذا الخشب صلد جامد مرن ، وقد ترجم بريستد النصوص المصرية القديمة وأسماء الأخشاب التى استخدمها المصريون القدماء وبقيت مجموعة مكونة من اثنى عشر نوعا من الخشب لم يقم بترجمتها من مجموع أسماء الأخشاب وعددها نحو اربعة وعشرين نوعا · كما أوضح الفريد لوكاس فى جداوله التى أعددها أنواع الأخشاب المستخدمة فى الصناعات الخشبية منذ العصور القديمة · المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٦٩٤ — ٦٦٦ ·

(٣) قامت زخرفة الأثاث قبل الفتح العربى على التلوين Painting وعلى الحفر العميق Deep Cut وعلى التطعيم بالعاج والأبنوس ، محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية فى مصر قبل الفاطميين ، ص ٨٨ ·

(٤) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، جـ ١ ، ص ٩٢ ·

(٥) قيل ان ملك النوبة هو الذى أهدى المنبر الى عبد الله بن سعد ، وبعث معه نجاره ، كما قيل أن الذى صنع المنبر الخشبى لمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة كان قبطيا يسمى باخوم أو باقول ، وانه صنعه من درجتين ثم مقعد يجلس عليه الرسول · وكما ذكر ابن رسته فان ارتفاع منبر رسول الله كان ثلاثة أذرع ونصف من الخشب وأنه تم صنعه فى عهد الدولة الأموية · الأعلاق النفيسة ، ص ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١١٢ ، حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع ، ص ٥٤٤ ، حسين مؤنس : المساجد ، ص ٨٣ ·

لكنه مما يذكر أنه لم يعرف أقدم من منبر قره بن شريك بعد منبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى أى بلد من البلاد التى تم فتحها على يد المسلمين . ويؤيد الكندى هذه الرواية واستمر منبر قره بجامع عمرو حتى أزيل على يد الوزير يعقوب بن كلس فى أيام العزيز بالله الفاطمى ، وجعل مكانه منبرا مذهبا ، واستمر بالجامع حتى نقل الى الاسكندرية .

ولا شك أن انتشار المنابر فى قرى مصر فى عصر الولاة كان له أثر كبير فى رواج صناعة الأخشاب وحرفة النجارة ، وقد ذكر الكندى أن الوالى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير أمر باتخاذ المنابر فى جميع الأقاليم ، ولم تأت سنة ١٣٢ هـ/٧٥٠ م الا وكانت جميع الأقاليم بها منابر ، وفى ذلك يقول الكندى : « وأن عبد الملك أمر باتخاذ الناس المنابر فى الكور ولم تكن قبله » وقد ظلت المنابر الخشبية فى المساجد جزءا من أثاث المسجد المنقول ، ولم تدخل فى بنيته الا فى بعض المساجد فى العصور المتأخرة .

والواقع أن أعمال النجارة فى المساجد لم تقتصر فى عصر الولاة على صناعة المنابر ، فان الصناع كانت لهم مهارتهم فى عمل القطع والأفاريز الخشبية مثل تلك التى وجدت فى جامع عمرو فوق تيجان الأعمدة ، وترجع الى أيام عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل الخليفة العباسى المأمون ، وكان قد أمر بتوسيع الجامع والعمل على زخرفته .

ولا شك أن الولاة قد لعبوا دورا هاما فى نشاط حركة العمارة وأعمال النجارة فى الفسطاط العاصمة المصرية ، وفى حلوان حيث أمر الوالى عبد العزيز بن مروان (٦٥ ــ ٨٥ هـ) باقامة القناطر وبناء القصور والبساتين بها ، فقد تطلبت تلك الدور الفخمة والقيساريات والقناطر وعمل الأسواق فى حلوان بعد أن اتخذها مقرا لامارته (٦) وبالاضافة الى تلك الدار الضخمة التى سميت بالدار المذهبة وكانت تطل على النيل عمل الكثير من أهل أرباب الحرف والصنائع ، ولا سيما النجارين وأمثالهم من الصناع .

ولم تكن حرفة النجارة فى عصر الولاة قاصرة على هؤلاء النجارين أو الخراطين بل شملت كذلك الحفارين على الخشب والدهانين والمطعمين والمرصعين وصانعى الزرنشان ، ولا ريب أن فروع النجارة انما ترقى وتزدهر حينما يكثر العمران وتعظم الحضارة كما يقول ابن خلدون ، حيث

---

(٦) وذكر الكندى أنه لما وقع الطاعون بمصر فى سنة ٧٠هـ ، خرج عبد العزيز ابن مروان يرتاد مكانا يصلح للاقامة بعيدا عن الوباء ، فنزل حلوان وأعجبته ، فاتخذها وسكنها ، وجعل بها الحرس والأعوان والشرطة ، وبنى فيها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وأحكمها . الولاة ، ص ٤٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٩٢ .

يتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف ابتداء من أسقف البيوت والمنازل والأبواب وغيرها من المقاعد وقطع الأثاث المزخرفة ٠

وقد أدرك النجـــار المصرى طبيعة الجو فى بلاده ، فهـو يدرك أن الأخشاب تنكمش صيفا لجفاف الطقس وحرارته ، وتتمدد فى رطوبة الجو شتاء ، ولذلك كان تفضيله للحشوات الصغيرة فى أشغال النجارة ، وكما قيل قديما ان حرفة النجارة من الصناعات القديمة التى تحتاج الى أصل كبير من الهندسة ، كذلك زاول أهل هذه الحرفة عملهم وفقا للأصول الفنية والهندسية التى توارثوها عن أجدادهم المصريين وغيرهم من اليونانيين من أصحاب الحضارات القديمة (٧) ٠

وكان من أسباب انتشار حرفة النجارة فى المدن والقرى المصرية نمو أشـجار الأخشاب المحلية العديدة مثل شـجر السنط (٨) والجميز (٩) والصفصاف (١٠) أو اللبخ (١١) والنبق أو السدر (١٢) وشجر النخيل ، ونخيل الدوم ، وكان يصنع منها الأبواب والأثاث وآلات الزراعة وأدواتها كأسلحة المحاريث والفئوس والسواقى وأسقف البيوت والمساجد وغيرها من أعمال النجارة البسيطة ٠

وتمدنا أوراق البردى بأسماء أنواع من الأخشاب المنتجة محليا فى

---

(٧) أشار ابن القفطى الى أن أئمة الهندسة من اليونانيين القدماء كانوا من أئمة النجارة مثل اقليدس ، اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٤٥ ٠

(٨) كانت شجرة السنط تنمو فى جميع أنحاء البلاد ومازالت ـ وقد أشار المقريزى الى مناطق الغـابات فى نواحى البهنسا وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية وأشجارها التى لا تحصى من السنط ، وكان يستخرج من هذه النواحى مال يقال له رسم الخراج ٠ الخطط ، جـ ١ ص ٢٠٥ ، الفريد لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٧٠٦ ٠

(٩) تمتاز شجرة الجميز بضخامتها وخشبها يتحمل الرطوبة والبقاء تحت الماء ويستخدم فى صنع بعض أجزاء السواقى خنزيرة الآبار » ، وقد وصف عبد اللطيف البغدادى شجرة الجميز وقال عنها انها معروفة حق المعرفة فى مصر ، كما ذكر أن خشبها تعمر به المساكن ويتخذ منه الأبواب والآلات ، طوله بقاءه على اليبس وصبر على الماء والشمس ، وقلما يتآكل مع ان خشبها خفيف ٠ عبد اللطيف البغدادى فى مصر ، ص ٢١ ٠

(١٠) ادخلت زراعتها الى مصر منذ فجر التاريخ ، وهى تزرع على شواطىء النيل والترع ويمتاز خشبها بلونه الأبيض الناعم ، ويستعمل فى صناعة آلات الزراعة والأثاث ، وليم نظير : الزراعة فى مصر الاسلامية ، ص ٨٣ ٠

(١١) ذكر عبد اللطيف البغدادى أن زراعة شجر اللبخ نقلت من فارس الى الشام والى مصر ، وخشبه فى غاية الجودة ، وقيل ان ثمن اللوح منه خمسون دينار ٠ عبد اللطيف البغدادى فى مصر ، ص ٢١ ، نشر سلامة موسى ٠

(١٢) ظهرت أشجار النبق الشبيهة فى مصر منذ العصور القديمة ، ويمتاز خشبها بجودته ولونه الأصفر وكثيرا ما يستعمل فى أعمال النجارة وآلات الزراعة ٠ بترى : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ص ٢٥٠ ، ترجمة حسن محمد جوهر وآخر ٠

مصر فى عصر الولاة مثل خشب السنط واللبخ والجميز ، وتكشف لنا عن نشاط تجارة هذه الأخشاب بين سائر المدن وآنحاء البلاد المصرية ، فقد ورد فى احدى أوراق البردى ما يتضمن ارسال ١٠٢ كتلة من الخشب من مدينة الفيوم الى على بن حطام تاجر الخشب بالفسطاط • وذلك مما ورد فى المنشور الصادر بلطب حصر شجر السنط وتسجيله •

وقد أدت التجارة فى القرى وفى المدن المصرية دورها فقد استخدمت فى صنع مصاريع الأبواب والشبابيك ، والأشرطة الكتابية وكذلك الأثاث المنزلى ، وكان معظمها ثابتا فى الدور والقصور فيما عدا الدكك والمقاعد وكراسى العشاء وما اليها فى القرون الأولى من الهجرة (١٣) • وتظهر لنا تلك المجموعة التى يحتفظ بها متحف الفن الاسلامى بالقاهرة والتى ترجع الى القرن الثانى الهجرى مدى تقدم صناعة الأثاث على أيدى المصريين(١٤) • كما عثر فى عين الصيرة على تحف خشبية منقوشة مزينة بطريقة التطعيم بقطع من العظم والعاج •

وفى حفائر الفسطاط تم اكتشـــاف لوح من الخشـــب يجمع بين الزخرفة والكتابة الكوفية ، ويضم متحف المتروبوليتان مثالا رائعا من تلك الحشوات الخشبية المغطاه بزخارف من العظم بطريقة الترصيع ، وكلها ترجع فى صناعتها الى عصر الولاة • والواقع أن صناعة العاج والترصيع به كانت معروفة لدى أجدادنا الفراعنة (١٥) ، لتوفر العاج وسن الفيل فى جنوب السودان •

وبعد الفتح العربى ظل الصناعُ من الأقباط أو ممن اعتنقوا الاسلام يحترفون صناعة العاج (١٦) ، وبدأوا يعملون على تقليل الزخرفة بالصور

---

(١٣) كانت كراسى العشاء تصنع من الخشب الزكى الرائحة والصناديق المتنوعة التى أعدت لحفظ المصاحف وغير ذلك من الأغراض • محمد توفيق جاد وآخر : تاريخ الزخرفة ، ص ١٠٦ ، زجب عزت : تاريخ الأثاث من أقدم العصور ، ص ١٢٨ •

(١٤) تضم هذه المجموعة من الألواح الخشبية التى تكسوها طبقة رقيقة من الفسيفساء الدقيقة وهى تتألف من قطع صغيرة من الأبنوس وسن الفيل وهى تؤلف زخارف هندسية ، ومجموعة أخرى عليها زخارف تحف بها أسطر من الكتابة الكوفية عبارة عن آية الكرسى • ارقام السجل : ٢٤٦٢ ، ٩٥١٨ •

(١٥) يوجد تطعيم من الخشب والعاج على صندوق خشبى صغير من الأسرة الأولى عثر عليه فى مقبرة مصاكا بسقارة ، كما وجد تطعيم من الأبنوس على كرسى لنقل حتب حورس من الأسرة الرابعة ، وقد اكتشف باللاهون قرب الفيوم على صناديق الحلى وعليها تطعيم من الأبنوس والعاج وترجع صناعتها الى عصر الأسرة الثانية عشر • لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٧٣٠ •

(١٦) وقد أشاد بتلر بهذه الصناعة ابان الفتح العربى • وقال : « ولكن صناعة نحت العاج بلغت وقتئذ قصارى الكمال ، نرى معها دقة الصناعة وابداع الفن » كما أشار الى تلك الآلة المصنوعة من العاج والمستخدمة فى صقل أوراق البردى زمن الفتح : فتح العرب لمصر ، ص ٩٥ •

الآدمية وصور الحيوانات والطيور ، واقبل الصناع على استخدام الزخارف الهندسية والنباتية • وظهرت مهارة الصناع المسلمين فى تلك التحف الخشبية التى رصعوها بقطع صغيرة من العاج •

وتشير المصادر التاريخية الى أن مصر كانت تستقبل التجار الذين يحملون التمر والعاج وغير ذلك من المراكب الواردة الى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر (١٧) وقد ظلت الاسكندرية على شهرتها فى صناعة العاج وتطعيم وترصيع القطع الخشبية به (١٨) ، وكذلك مدينة أسيوط وغيرها من المدن المصرية التى كانت من مراكز صناعة التحف العاجية فى العصر الاسلامى الأول (١٩) • كما تؤيد الحفائر الأثرية فى الفسطاط وغيرها من المناطق ذلك ، خاصة بعد أن جادت تلك الحفائر ببعض من التحف المصنوعة من العاج أو العظم أو من الخشب المطعم والمرصع بهاتين المادتين ، وترجع بعض هذه التحف فى صناعتها الى صدر الاسلام ، كما يظهر من زخارفها أنها استمرار للزخارف القبطية (٢٠) •

كما تشير المصادر التاريخية الى نزوح العديد من النجارين والخراطين والدهانين المصريين الى العواصم العربية والمشاركة فى تعميرها ، ولا سيما فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) التى اتسمت سياسته بتشجيع العمارة والفنون ، وولعه الشديد بعمران المساجد والمدن (٢١) • وتكشف لنا أوراق البردى أن الأمويين كانوا يستعينون بالعديد من هؤلاء الفعلة والبنائين والنجارين •

(١٧) كان تجار العرب يشترون العاج من بلاد الزنج بافريقية الشرقية ويحملون منه الى البلاد ، والى الصين فى أقصى الشرق ، ويذكر المسعودى أنه لولا تصدير العاج الى عمان والهند والصين لكان كثيرا فى بلاد الاسلام • اليعقوبى : البلدان ، ص ٣٣٥ ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٧ ، آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ •

(١٨) تشهد بذلك الأدوات المصنوعة من العاج التى كان لها بسوق الاسكندرية أهمية تجارية ، فكثيرا من الأعمال الفنية المصنوعة من العاج تعبر عن الخبرة الفائقة ، لا سيما تلك اللوحات المصنوعة من العاج والعظام التى جرى العثور عليها فى مقابر الاسكندرية • السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٢٨٩ •

(١٩) لا تزال للصناع الأقباط فى صناعة العاج وزخرفته مهارة فائقة ، ولا سيما فى اسيوط وبعض بلدان الوجه القبلى • زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ، ص ٣١ •

(٢٠) يضم متحف الفن الاسلامى مجموعة من قطع الخشب ذى الزخارف المحفورة والمزخرفة بطريقة الفسيفساء ، وجميعها من صناعة المصريين فى القرنين الثامن والتاسع بعد الميلاد • زكى محمد حسن : أطلس الفنون ، ص ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ •

(٢١) أشار البلاذرى الى قيام الصناع الموفدين من مصر بعمارة الحرم النبوى سنة ٨٧هـ وقد علق الأثرى حبيب الزيات على هذا الخبر بأنه قرأ فى قراطيس البردية المحفوظة بالمتحف البريطانى أن القبط كانوا يستعينوا بهم وكانوا من البنائين والنجارين • حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع ، ص ٥٤٢ •

وقد أوضح اليعقوبى أن الخلفاء العباسيين كانوا يرسلون فى طلب أصحاب المهن والصناعات للمشاركة فى بناء وتعمير بغداد ، ثم سامرا فى عهد الخليفة المعتصم بعد ذلك ، ومما لا شك فيه أن مجموعة النجارين والخراطين وغيرهم من الصناع كانوا فى طليعة هؤلاء الذين رحلوا الى العراق للمشاركة فى تعمير تلك الحواضر الاسلامية ٠

وفى عصر الولاة لم تقتصر حرفة النجارة على عمارة المساجد أو المنازل والقصور ، بل كانت هناك صناعات خشبية للزينة والآلات الموسيقية ، ويضم المتحف القبطى مجموعة منها عليها زخارف هندسية ونباتية تشهد بمقدرة الصانع المصرى وتفوقه (٢٢) ، كما تبرهن على صحة ابتكار النجار المسلم فى مصر وتجميعه لهذه الوصلات الخشبية أو الحشوات بعضها الى بعض وتعشيقها فى بعضها البعض ، تلك الطريقة التى سرعان ما ذاعت فى بلاد العالم الاسلامى بعد ذلك ٠

كذلك تفوق الرهبان فى صنع المعابر الخشبية وفى عمل الأحجبة حيث كانوا من النجارين المهرة فى ذلك العصر (٢٣) ٠ ولا يبعد أن يكون العرب فى مصر ، قد اتخذوا لأنفسهم شكل الكثير من قطع الأثاث القبطية كالدواليب والموائد ، ولعلهم أخذوا عنهم أيضا الكرسى الذى يحمل عليه المصحف ، والذى يعرفه القبط باسم منجليه ، أى محل الانجيل ٠

وقد وصلت الينا أسماء كثير من النجارين على ورق البردى وشواهد القبور من الحجر الرملى ، من جهات متفرقة من البلاد ، فمن مدينة ادفو بصعيد مصر وصلنا عقـد بيع على ورق البردى يرجع تاريخه الى شـهر ذى القعدة سنة ٢٣٩ هـ ، أشير فيه الى منزل قيس بن هارون النجار ٠ ومن شواهد القبور ، شاهد من أسوان مؤرخ فى رجب سنة ٢٢٧ هـ باسم « بلال بن نادى النجار ــ وشاهد آخر من أسوان أيضا باسم خلف بن بشير النجار ويرجع تاريخ وفاته الى سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م » ٠

(٢٢) وهى عبارة عن امشاط عليها زخارف هندسية ونباتية ومكاحل ، ومجموعة من الأدوات الخشبية الموسيقية التى عثر عليها فى دهشور وسقارة وترجع صناعتها الى القرن السابع الميلادى ، كما ورد فى دليل معرض الآثار القبطية عام ١٩٤٤ مجموعات من التصميمات الزخرفية وحشوات من الخشب وافساط تزدان بزخارف مخرمة وحيوانات وأيضا النعال من الخشب (القباقيب) المطعمة بالمعدن ٠ كتاب دليل المعرض ، ص ١٤ ــ ١٧ ٠

(٢٣) كانت تستخدم تلك المعابر الخشبية لحماية الأديرة ، وقد وجد فى الدير الأحمر بسوهاج والدير المحرق بأسيوط ، كذلك الأحجبة فى الكنائس التى لم تكن موجودة قبل العصر الاسلامى ٠

زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ، ص ١٤ ، حجاجى ابراهيم محمد : مقدمة فى العمارة القبطية الدفاعية ، ص ٨٨٧

٥ ـ الحفر على الخشب ومظاهر التأثير الحضارى فى عصر الطولونيين والاخشيديين ٠

وقد نشطت حركة العمارة وازداد الطلب على الحرفيين من الخراطين والنجارين والحفارين وغيرهم حينما شرع ابن طولون فى بناء عاصمته الجديدة القطائع ، وما حوته من القصور والأسواق والحمامات ، وما أفرد لكل صنعة وأصحاب حرفة بها ٠

وظهر التأثير الحضارى فيما قام به هؤلاء الحرفيون والصناع فى استخدامهم الأخشاب فى مبانيهم وقصورهم ومساجدهم ، وفى عمل السقوف والأبواب والمنابر والدكك وأشرطة الكتابة التاريخية الكوفية أو الزخرفية ، ويتجلى ذلك التأثير فى طابع العصر الطولونى فى جامع ابن طولون ، والأخشاب ذات الكتابات تحت السقف بأعلى الجدران ، وما حفرته أيدى الصناع من كتابة عليها (٢٤) ، وقد نقشت هذه الحروف بارزة فى الألواح الخشبية ، وليست قطعا منفصلة ومسمرة فى الخشب ، كما ظن بعض علماء الآثار ٠

كما يتضح أسلوب سامرا الذى جاء به أحمد بن طولون من العراق بجلاء فى الزخارف النباتية التى اكتسبت طابعا تجريديا ، كما هو الحال فى مجموعة الألواح الخشبية التى تكسو باطن أعتاب جامع ابن طولون وقد عثر على قطع متشابهة تماما لها فى مدينة سامرا بالعراق وكأنهما من صناعة فنان واحد وتتميز هذه الزخارف بأنها محفورة حفرا مائلا أو مشطوفا ، وذلك ما تميز به أسلوب سامرا ٠

كذلك قام النجارون بخرط وحفر تلك القطع الخشبية التى كانت تزين البيوت والدور فى الفسطاط بوحداتها المعمارية ، وقد زخرفوها على شكل أشرطة وإزارات وحشوات ، وكان بعضها مزخرفا بالحفر أو بالألوان

---

(٢٤) اشتملت الكتابات على آيات قرآنية حروفها من الكوفى البسيط المعاصر للبناء : زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ج ١ ، ص ٩٦ ٠

الذهبيـة أو بهما معا (٢٥) • وكانت النـوافذ والشبابيك فى الوحـدات السكنية المختلفة تزود غالبا بالمشربيات الدقيقة الصناعة والغالية الثمن ، وذلك فى بيوت الأمراء والأثرياء وذوى المقدرة المالية فى ذلك الحين •

وهكذا بلغ أصـحاب حرفة النجـارة مهارة فائقة فى فن الحفر على الخشب فى عهد الطولونيين ، ولا سيما نوع الحفر المائل الذى كان يتألف من عناصر نباتية محورة من مراوح نخيلية ، وكان القصر الطولونى حافلا بهذه الأخشاب المزخرفة القيمة ، نذكر منها أحد الأبواب المطلة على الميدان الكبير ، وقد صنعه النجارون من خشب الساج ، وكان من أحب أصناف التحف الخشبية عند الثراه تلك المصنوعة من خشب الساج الهندى •

ويعد عهد الطولونيين فى الحقيقة مرحلة انتقال من الطراز القبطى فى صناعة الخشب الى الطراز الاسلامى البحت ، حيث تأثر الطولونيون كثيرا بالفن العراقى بسامرا ، كما تأثروا فى العمارة والفنون الأخرى • وليس من شك فى أن أعمال النجارة ، وما شهدته تلك الفترة من تطور فى فن الحفر على الخشب ، كان لها أثرها على صناعة الأخشاب الفاطمية بعد ذلك •

هذا ولم يقف الصناع عند حـد عمل الألواح والازارات الخشبية المتنـوعة فى المساجد والقصور ، بل انهم تميزوا عن غـيرهم فى صناعة التماثيل الخشبية وزخرفتها ، وتشير المصادر الى أنه حينما شيد خماروية بن أحمد بن طولون قصره الذى عرف بقصر الذهب ، زين جدرانه بتماثيل من الخشب • وقد وصف أبو المحاسن هذه التماثيل فقال : « وجعل فى حيطانه على مقدار قامة ونصف صورا بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللائى تغنينه فى أحسن تصوير وأبهر تزويق ، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفى آذانها الأقراط الثقال الوزن المحكمة الصنع ، وقد لونت أجسام هذه التماثيل بما يشبه الثياب » (٢٦) •

وليس من شك فى أن هـذا الوصف انما يدل على تفوق أصحاب

---

(٢٥) يضم متحف الفن الاسلامى بالقاهرة قطعا من الخشب لا حصر لها ، وقد تم زخرفتها بزخارف نباتية من طراز سـامرا • فريد شافعى : العمـارة العربية فى مصر الاسلامية ، ص ٤٥٥ •

(٢٦) كانت مشكلة صناعة التماثيل ذات الأبعاد الثلاثة كما أطلق عليها علماء الفنون الجميلة من المشاكل التى ناقشها الفقهاء فى الاسلام ، وقد تبين أن أجدادنا فى العصور الوسطى انما صنعوا التماثيل هذه للزينة فقط ، حيث عملوا على تزيين القصور بها من الداخل والخارج • محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية قبل الفاطميين ، ص ٢٠٩ •

حرفة النجارة ، ودقة صناعتهم ، وتنوع التقاسيم والزخرف (٢٧) ، ومن هؤلاء النجارين الذين فاقوا زملاءهم فى بقية الأقطار الاسلامية فى ذلك الوقت والذين عثرت على توقيعات لهم ، محمد بن عينو أحد نجارى الجامع الطولونى ، ومن المرجح أن يكون هو الحفار الذى قام بحفر الكتابات الكوفية الأثرية على الأشرطة الكتابية التى تدور على أعلى الجدران (٢٨) ٠

ومن هؤلاء النجارين الذين وصلت الينا بعض أسمائهم على شواهد القبور ، شاهد يحمل اسم سعيد بن عيسى بن هرون النجار ، وكانت وفاته سنة ٢٩٣ هـ ٠

ومما يدل على رواج صناعة الأخشاب ، وكثرة الحرفيين فى هـذا المجال ، ما أوضحه المقريزى من أنه كان للخشب سوق هام فى الفسطاط منذ العصر الطولونى ، وكانت المراكب النيلية كما أشرنا من قبل تحمل تلك الأخشاب المحلية الى ساحل الفسطاط ، حيث يتم بيعها للتجار ويتم تشغيلها فى الصناعات الخشبية المختلفة أو تستخدم لبناء سفن الأسطول ٠

كما كان المصريون فى ذلك الوقت يجلبون خشب الأرز والصنوبر من جهات آسيا الصغرى وبلاد الشام ، والأبنوس من السودان،والتك(٢٩) من بلاد الهند وخشب الساج (٣٠) ، فضلا عن جنوب أوربا حيث كان يتم استيراد بعض أنواع الأخشاب التى تصلح لصناعة الأثاث المنزلى والتحف الخشبية ٠

وتشير أوراق البردى الى رواج تجارة الأخشاب فى عهد الطولونيين والاخشيديين حيث كانت المراكب النيلية تقوم بحمل الأخشاب لحساب التجار من بلد الى آخر ، فقد ورد فى خطاب يرجع تاريخه الى أوائل عهد

---

(٢٧) تنوع النجارون فى عهد الطولونيين والأخشيديين ، وقد تم العثور على أسماء كثير منهم ما بين نجار واويمجى وصدلجى ، حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع ، ص ٥٤٥ ، نشر المجمع العلمى الفرنسى ٠

(٢٨) ومما يذكر أنه كان للمسجد ازار خشبى يدور على أعلى الجدران يضم كتابات قرآنية بالخط الكوفى الجميل ، وأن هيئة الآثار بصدد اعادة ما عثر عليه من أجزاء هذه الأزار الى موضعه تقريبا ٠

حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع ، ص ٥٤٦ ٠

(٢٩) التك نوع من الخشب يمتاز بالصلابة والقوة ويستخدم فى صـــناعة الأدوات والتحف الخشبية الدقيقة ٠

(٣٠) ويصف لنا المقريزى البرج الخشبى الذى أمر بعمله خمارويه من خشب الساج قائلا « وبنى فيه (يعنى القصر) برجا من الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وزوقه بأصناف الأصباغ ، الخطط : ج ١ ، ص ٥٩٥ »

الاخشيديين مرسل من قوص الى البلينا فى صعيد مصر ، ما يتضمن وصول بقية الخشب بالأقصر الى الجيزة والفسطاط وتذكرة بحساب قيمة الأخشاب ومستحقات أخرى ٠

ويبدو من القطع الخشبية التى صنعت فى عهد الاخشيديين أن صناعة الحفر على الخشب كانت تطورا للأساليب المعروفة فى عهد الطولونيين ، أى للطراز العباسى عامة ، وحيث استطاع النجارون والحفارون فى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية فى أوائل القرن العاشر الميلادى أن يجعلوا الحفر على الخشب أكثر عمقا والزخرفة أكثر تجسيما (٣١) ٠

كما اعتنى أصحاب الحرفة بصناعة التماثيل الخشبية فى العهد الاخشيدى . واستخدام أنواع منها فى مجال اللهو والتسلية ، فقد جاء فى وصف استقبال الاخشيد للوزير الفضل بن جعفر انه خلع عليه عند باب المدينة خلعا سلطانية ، وزينت لهما المدينة (يعنى الفسطاط) ونصب لهما على جوسق ابن الخلاطى فرس من خشب ينحدر ويصعد وابن الخلاطى راكب عليه ، مما يدل على تطور صناعة الأشكال المجسمة من الخشب ٠

أما أخشاب الأدوات المنزلية ، فقد قام الصناع بزخرفتها بالصور الهندسية والحيوانية كالأسد والغزال (٣٢) ، وكانت الألواح الخشبية الصغيرة وطريقة الحفر عليها بالخط الكوفى ، من أهم سمات أو مظاهر النجارة فى ذلك العصر ٠ وكانت هذه الألواح تستخدم فى تسجيل ملكية الأفراد عليها من دور ومعاصر وطواحين وحوانيت ونحو ذلك ، وهذه اللوحات كانت تثبت على الأبنية إشهارا لملكيتها ، وقد عثر على أمثلة كثيرة منها فى حفائر الفسطاط ٠

كما استخدموا العاج فى زخرفة الأخشاب ، اذ كانت تطعم بعض التحف بفصوص من العاج ، وكان لمصر شأن عظيم فى التجارة فى العهد الاخشيدى ، كما كان لكل من الفرس (٣٣) واليهود نشاط ملحوظ فى هذا الميدان ، ولا شك أنهم عملوا على جلب سن الفيل أو العاج وغيره من

---

(٣١) يضم متحف المتروبولتيان بالولايات المتحدة ، قطعتان توضحان هذا الأسلوب المصرى الذى اتبعه النجارون والحفارون على الخشب فى العصر الإخشيدى ٠

ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ١١٧ ٠

(٣٢) كما يضم المتحف القبطى مجموعة من هذه الأدوات المنزلية وهى ترجع الى ما بين القرن التاسع والحادى عشر الميلادى ٠

(٣٣) ذكر الكندى أن الفرس كانوا يتمتعون بالفسطاط بمركز مرموق فى ذلك الوقت فقد جعل القاضى منهم ثلاثين رجلا ضمن الشهود فى مجلس القضاء ٠

أنواع السلع الثمينة من بلاد الزنج حيث يكثر وجود الفيلة(٣٤) واستعمال العاج وما يتخذ منه من التحف والأدوات مثل الشطرنج والنرد وغير ذلك (٣٥) ·

(٣٤) ذكر المسعودى أن رجال الزنج أو الهنود كانوا يخرجون الى الفيلة التى كانت فى نهاية الكثرة بأعظم ما يكون من الحراب فيقتلونها لأخذ أنيابها ، فمن أرضهم تجهز أنياب الفيلة فى كل ناب منها خمسون ومائة من بل أكثر من ذلك · مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٦ ، ٧ ·

(٣٥) كان سن الفيل يجهز الأكثر منه ويحمل الى بلاد الهند والصين ويقول المسعودى : « وذلك أنها تحمل من بلاد الزنج الى عمان ، ومن عمان الى حيث ذكرنا ، ولولا ذلك لكان العاج بأرض الاسلام كثيرا » ·

نفس المصدر ، ص ٧ ·

٦ ـ فن النحت والتطعيم بالعاج فى العصر الفاطمى :

اهتم الفاطميون منذ استقلالهم بالديار المصرية وجعلها مقرا لخلافتهم بالحرف والصناعات المختلفة ، فقد كان هدفهم منافسة الخلافة العباسية وبزها فى ميادين العظمة والقوة والبذخ ۰ وكان من الطبيعى قيامهم باستغلال موارد الثروة ، فضلا عن رغبتهم فى استغلال مهارة الصناع الأقباط فى الانتاج الصناعى ، ومنها مهارتهم فى صناعة الأخشاب المنقوشة وشهرتهم السائدة فيها ۰

ولا شك أن سياسة التسامح الدينى التى بدأ الخلفاء الفاطميون فى تطبيقها منذ توليهم السلطة ، كان لها أثر كبير على هؤلاء ، حيث أمنوا على أنفسهم وأموالهم ، وأخذوا يتفرغون لأعمالهم ومهنهم ، كما عمل الفاطميون على تشجيع الصناع الأجانب واجتذابهم للعمل فى قصورهم ، فكان من هؤلاء الخراطون والنجارون والدهانون والفعلة ، كما ذكر المقريزى نقلا عن ابن الطوير فى حديثه عن المناخ السعيد ۰

وقد شهد العصر الفاطمى نشاطا ملحوظا وتطورا كبيرا فى صناعة النقش على الخشب ، وكانت أول تجديد لعمارة جامع عمرو بن العاص قامت به الدولة الفاطمية على يد النجار المعروف بالمقدسى الأطروشى وذلك فى سنة ۳۷۸ هـ ، حيث أمره الخليفة العزيز ووزيره يعقوب بن كلس بعمل السقائف الخشبية المحيطة بالقبة ، وعمل منبر جديد مذهب ، ويذكر المقريزى انه تم نقش خمسة ألواح خشبية وذهبت ، ونصبت على أبوابه الخمسة الشرقية ، وكان الحاكم بأمر الله ووزيره برجوان قد أمر بعملها فى سنة ۳۸۷ هـ ۰

ويتجلى مدى التقدم فى صناعة الحفر على الخشب والكتابات عليه فى عصر الفاطميين ، من تلك الدعامات التى قام النجارون بعملها تحت قبة مسجد الحاكم ، وقد زخرفت بزخارف من فروع نباتية وأوراق شجر محفورة عليها حفر عميقا ، ويعد الباب الخشبى الذى أمر الحاكم بصنعه عام ٤٠٠ هـ نموذجا فريدا للحفر على الخشب ، حيث قام النجارون بتزيين الباب بالحشوات المستطيلة ، المحفور عليها بتفريعات نباتية ذات عروق طويلة .

ولا شك أن أسلوب الزخارف وعمق الحفر على الخشب من أهم ما يميز صناعة الأخشاب فى العصور الوسطى ، ومن أهم التحف الخشبية التى ترجع الى بداية العصر الفاطمى حجاب الهيكل فى كنيسة الست بربارة ، والسياج الخشبى فى كنيسة أبى سيفين بمصر القديمة ، وهى تجمع فى رسومها بين أسلوب الفن البيزنطى والفروع النباتية والرسوم الهندسية المتشابكة والمتفرعة .

ومن أنواع الزخرفة التى امتاز بها ذلك العصر مناظر الطرب والموسيقى ، أو الصيد والقتال ، وقد بذل الصانع المصرى جهده فى محاكاة الطبيعة بدقة وأمانة لم يبلغها تصوير الانسان والحيوانات الا فى أيام الفاطميين .

كما تتجلى دقة الصانع المصرى ومهارته الفنية فى صناعة المنابر الخشبية ، ومن أقدم المنابر الفاطمية منبر مصلى الصالحية ، والمنابر التى وجدت فى أسيوط ، وبمدينة قوص ومدينة البهنسا وغيرها فى دير سانت كاترين بشبه جزيرة سينا .

ومن التحف الخشبية التى صنعت فى عهد الخليفة المستنصر منبر حرم الخليل فى فلسطين ، وقد نقشت على بابه وعلى جانبيه كتابة تاريخية من اثنى عشر سطرا بخط كوفى مورق وبارز ودقيق باسم الخليفة المستنصر ووزيره بدر الجمالى ، وترجع الى سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ ـ ١٩٠٢م .

ومن الواضح أن عمارة المساجد والقصور وتزيينها بالمصنوعات الخشبية كانت من أبرز أعمال النجارين فى ذلك العصر ، يتضح ذلك فيما خلفوه من المحاريب والمقصورات والتوابيت الخشبية وغيرهما مما صنع من خشب الساج وغيره من الأخشاب الثمينة (٣٦) . وقد ترك كثير منهم الأسماء التى تشهد بقدرة أصحابها وتفوقهم فى مجال حرفتهم ، ومن تلك الأسماء التى وردت على شواهد القبور النجار محمد بن رمضان وترجع وفاة

---

(٣٦) كان خشب الساج من أهم صادرات الهند الى مصر فى ذلك العصر ، المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٩ ، جواتياين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ٢٦٥ .

ابنته مكيه الى عام ٤١١ هـ ، وقد عثر على هذا الشاهد بأسوان . وشاهد آخر باسم « على بن محمد بن هرون النجار » وكانت وفاته فى سنة ٤٢٦هـ. وكذلك ورد اسم « محمد بن ابراهيم بن على بن محمد بن رمضان النجار » على أحد شواهد القبور . ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة أخرى من الشواهد ، التى تدل على انتشار حرفة النجارة ورواجها وتوارث الأبناء لحرف آبائهم وأجدادهم فى العصور الوسطى .

وكما تنوعت الأخشاب المحلية والمستوردة المستخدمة فى صناعة الأثاث من الدكك والأسرة والمقاعد وغيرها خلال العصر الفاطمى (٣٧) ، تفرعت عن حرفة النجارة خمس صناعات خشبية مختلفة ، أشارت كتب الحسبة الى محترفيها وما يجب عليهم فى سبيل عملهم فى ورشهم وحوانيتهم .

وكان النشارون والنجارون والخراطون وغيرهم يستخدمون أنواع الأخشاب المستوردة فى عمل السقوف والأبواب والمنابر والمحاريث غير الثابتة وربط القوائم والأعمدة بعضها ، وصناعة القباب أو تدعيمها . أما الأخشاب المحلية المنتشرة فى كافة أرجاء البلاد وما كانوا يحصلون عليها من الغابات المحروسة فى مناطق كثيرة من البهنسا وأسيوط واخميم وقوص وغيرها فى الوجه القبلى ، فقد كان أصحاب حرفة النجارة يستعملون هذه الأنواع من الأخشاب فى أثاث البيوت وعمل السواقى وغيرها من الآلات رافعة الماء ، وكذلك الطواحين والمحاريث والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل وكثير من الآلات التى كانوا يستخدمونها فى الصناعة فى العصر الفاطمى .

وقد بلغت مهارة الصناع والدهانين المصريين ، أنهم استخدموا بعض الدهانات والمواد الكيميائية فى طلاء الأخشاب لمنع احتراقها ، مما لم يتوصل اليه الغرب الأوربى الا فى القرن العشرين (٣٨) .

كما انتشرت بمصر فى ذلك العصر كسوة الأبواب التى كانت تصنع من الخشب المحلى بالنقوش ، بالنحاس المفرغ بأشكال هندسية وزخرفية خاصة منذ أواخر الدولة الفاطمية وحتى القرن الثامن عشر الميلادى ..

---

(٣٧) ذكر ابن مماتى من أنواع الأخشاب الواح الصنوبر ، والواح بوارتيه والواح ثلاثية ، والواح أساقيل وقاطية ومشاقية ، وأفلاق صنوبر ، وأنصاب شوح ، ومربعات قرو وعيدان سنديان وشوح فولى ، وشوح طويل وغير ذلك . قوانين الدواوين ، ص ٣٦٥ .

(٣٨) ومن المرجح أنهم استخدموا حجر الطلق بعد صحنه واضافة بعض المواد الكيميائية اليه حيث كان من خواصه اذا دخل النار لا يحترق ولا يتكلس ، وكما قال الحكماء قديما « أنه (أى حجر الطلق) اذا حل وطليت به الأجسام لم تحرقها النار » التيفاشى : أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار ، ص ٢٠٥ ، سعيد عاشور : المدنية الاسلامية ، ص ١٤٠ .

بينما استعملت الكسوة بالفضة فى أبواب الحرمين الشريفين وفى العتبات الشريفة فى بغداد ٠

وكان لجامع الصالح طلائع بن رزيك باب خشبى مكون من مصراعين، صفح وجهاهما بالنحاس المزخرف ، أما ظهر المصراعين فمن الخشب المحفور بزخارف فاطمية ٠ ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بهذين المصراعين وهو أقدم الأبواب الفاطمية المصفحة بالنحاس فى القاهرة المعزية ٠

ومما يدل على تجـارة الأخشاب وازدياد الطلب عليها من النجارين والخراطين وغيرهم ، وجود سوق للخشابين بالفسطاط ، كانت ترد اليه الأحمال كالجبال من الأخشـاب بالمراكب الكبيرة ، كذلك يذكر المقريزى سوق الصنادقين وفيه كانت تباع الصناديق والخزائن والأسرة وسوق الأمشاطين ، ذكر ناصر خسرو أنه شاهد هذه الامشاط حيث كانت تباع فى سوق القناديل ، كما أشار ابن الاخوة الى صناعة الأمشاط (٣٩) من البقس الرومى فانه أنفع ما يعمل لهذا ، وألا يكون أخضر فانه اذا جف يتعوج وينكسر ٠

ولم يقتصر النجارون والخراطون وصانعو الصناديق وكان لكل منهم سوق سمى باسمهم فى الفسطاط ، على صناعة الضباب الخشبية واقفال الابواب والمزاليج أو المفـاتيح المصـنوعة من الخشب وعليهـا زخارف هنـدسية ، بل انهم صنعوا من أنواع الأخشاب أدوات التسـلية ولعب الأطفال على شكل حصان وفارس وطائر بعضها بعجلات صغيرة ، ويحتفظ المتحف القبطى من هذه الأدوات الخشبية بالشىء الكثير ٠

وبلغ من دقة الصناع ومهارتهم أنهم صنعوا بعض الأوانى والطيافير من خشب الخلنج (٤١) ، وكان يستورد من جرجان على بحر الخزر ، وقد تم استعمالها فى القصور الفاطمية ٠ كما كانت ترد أخشاب الأبنوس من النوبة والسودان ، حيث صنعت منه الموائد الصغار والكبار ، وكذلك الدكك والمحاريب والأسرة ٠ ومن الصندل والبقم وغير ذلك صنعت أنواع الأثاث التى حفلت به قصور الفاطميين والدور المصرية ٠

وقد واجت صناعة العاج رواجا كبيرا فى العصر الفاطمى ، يذكر ناصر خسروا أنه شاهد فى أسواق الفسطاط قطعا من سن الفيل ، مما ورد الى البلاد من زنجبار وكان وزن كثير منها يزيد على مائتى من المن(٤٢) ٠ وقد

---

(٣٩) يضم متحف الفن الاسلامى (قاعة ٨ أخشاب) مجموعة من امشاط عليهـا زخارف نباتية ورنوك وكتابات ترجع صناعتها الى العصر الفاطمى وعصور اخرى ٠

(٤١) الخلنج كلمة فارسية تطلق على نوع من الشجر يؤخذ منه خشب ثمين تصنع منه الأوانى ، زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ، ص ١٣٦ ٠

(٤٢) المن : وزن قدره رطلان ، الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ٢٧ ٠

انتجت مصر فى ذلك العصر حشوات عاجية مزخرفة بعناصر نباتية وحيوانية وآدمية متشابهة زخارفهـا مع زخارف الألواح الخشـبية التى وجـدت بمارستان قلاوون ٠

ويظهر اهتمام الفاطميين باستخدام العظم والعـاج فى تطعيم قطع الأثاث والألواح الخشبية (٤٣) ، كما يظهر من زخارفها ولع الفنان الفاطمى باستخدام الوحدات الساسانية ، ولا تمثل التحف الفاطمية الموزعة حاليا على المتاحف العالمية والكنائس الا النزر اليسير مما كانت تحتويه القصور الفاطمية من كنوز ونفائس ٠

ويذكر المقريزى أنه مما أخرج من خزائن القصور أيام الشدة العظمى من قطع الشطرنج والنرد المعمول من سائر أنواع الجواهر ومن الأبنوس والعـاج الشىء الكثير ٠ كما وجـد من الدكك والمحاريب والأسرة العـود والصندل والعاج والأبنوس والبقم جيد الصنعة ٠

ويصف المقريزى شيوع استخدام العاج على يد الصناع فى تطعيم قطع الأثاث وغيرها من أعمال الحفر على الخشب ، وكثرة استعمال المصريين فى جهـاز العروس ، وكان من بين قطع هذا الجهـاز الدكة أو ما يشبه السرير ، حيث يتم عملها من الخشب المطعم بالعاج والأبنوس ٠ أو من الأخشاب المدهونة ٠ كذلك كانوا يصنعون من العلب الصغيرة لصيانة الحلى والجواهر للعروس ٠

وبلغ من دقة الصناعة واستخدام العاج أنه وجد بين ذخائر الأفضل التى خلفها دكة من العاج والأبنوس المحلاة بالفضة عليها قطعة من العنبر مثمنة الشكل ، فى أعلاها تمثال طائر من الذهب أرجله من المرجان ومنقاره من الزمرد وعيناه من الياقوت ٠ كما تدل على براعة الفنان المسلم ما عثر عليه من اللوحات العاجية كانت أجزاء من صناديق مطعمة بالعاج محفوظة الآن بكل من متحف فلورنسا بايطاليا ومتحف اللوفر فى فرنسا (٤) ٠

---

(٤٣) وقد عثر على صندوق فى احدى القرى القريبة من بلنسيه بالأندلس مصنوع من العاج لأمير المؤمنين المعز لدين الله ، يبدو أنه صنع له فى المغرب قبل قدومه الى مصر ، كما يتضح من النص العربى المنقوش عليه بالخط الكوفى جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معز أبى تميم الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطيبين وذريته الطاهرين ، ما أمر بعمله بالمنصورية المرضية صنعة ٠٠ الخراسانى » ، محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والأندلس ، ص ١٨٢ ٠

(٤) يضم متحف Barjello بفلورنسا منها عدد ست لوحات ، أما متحف اللوفر بباريس فيضم اثنين منها ، ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ١٣٢ ٠

وهكذا بلغ أصحاب حرفة النجارة من الدقة والاتقان فى حفر الخشب المطعم بالعــاج ، وفى صــناعة الأخشاب المدهونة من أنواع الدكك ، والمحاريب والأسرة وغيرهامن قطع الأثاث ، ما بلغه هؤلاء الصناع من بنائى السفن البحرية والحربية من الجودة والشهرة فى دور الصناعة المختلفة سواء بجزيرة الروضة وساحل مصر والمقس أو بثغر الاسكندرية ودمياط وغيرهما من الثغور المصرية فى عصر الولاة وحتى زوال الدولة الفاطمية .

الفصل السادس

الصناعات المعمارية فى مصر الاسلامية

١ ـ صناعة البناء فى عهد الولاه •

٢ ـ العمارة ومظاهر التأثير الحضارى فى عهد الطولونيين والاخشيديين •

٣ ـ تقدم فن المعمار فى العصر الفاطمى •

١ ـ صناعة البناء فى عصر الولاه

كانت صناعة البناء فى مصر البيزنطية تحكمها ظروف البيئة والمناخ والعوامل الجغرافية الأخرى ، ففى الصعيد حيث يندر المطر كانت البيوت تبنى باللبن (١) ، ولكن ذلك لم يمنع من بناء الدور والمساكن من الطوب المحروق أو الأحمر فى بعض الجهات مثل الفيوم والأشمونين والشيخ عبادة وكوم اشقاو وغيرها من المدن • كمـا تدل أوراق البردى التى تم العثور عليها فى هذه الجهات على قيام مصانع للطوب واقامة قمائن تمهيدا لحرقها •

أما فى الوجه البحرى فقد كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر الجيرى فضلا عن اقامة بعضها من الطوب اللبن • وكانت توجد هناك محاجر بالقرب من الاسكندرية فى شمال البلاد ، كما وجدت فى نواحى الفيوم وبالقرب من البهنسا والأقصر وأسوان ، حيث تقطع الأحجار وتحمل عبر النيل بالمراكب الى حيث يتم استخدامها فى أعمال البناء ، وليس هناك شك فى أن تلال المقطم كانت من المناطق الشهيرة التى يقطع من محاجرها الحجر الجيرى ناصع البياض •

ومن الطريف أن نذكر أنه وجدت منـذ العصر البيزنطى نقابة تضم عمـال البناء من البنائين والدهانين وغيرهم من أصحاب الحرف المتصلة بالعمـارة ، وكانت مهمـة النقيب كما يقول بل : هى الدفاع عن هؤلاء الحرفيين الفقراء وحمايتهم من بطش أصحاب النفوذ والأثرياء ، كما كانت

---

(١) ظهرت صناعة اللبن فى مصر منذ فجر التاريخ ، وتوجد فى أبيدوس قلعة مشيدة من الطوب اللبن يلغ ارتفاعها نحو ٣٥م قدما يرجع بناؤها الى عهد الأسرة الثانية وهى لا تزال قائمة لم تتأثر بالعوامل الجوية الا قليلا • بترى : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ص ٣٦٧ •

النقابة مسئولة فيما يبدو عن عمل أعضائها ، وقد كانت صناعة الطوب من الصناعات ذات الأهمية فى مدينة أكسيرنخوس (البهنسا) لكثرة الانشاءات والعمارة • كما وجد العديد من الدهانين والمبيضين أو النقاشين فى هذه المدينة وفى هرموبوليس (الأشمونين) وفى أفرديتوبوليس (كوم اشقاو) • وأرسينوى عاصمة الفيوم •

وتشير المصـــادر الى استخدام الكلس أو الجص وأحجار الجرانيت والرخام وغيرها من الأحجار التى مهر المصريون في استغلالها ونحتها ، كما تدل على ذلك تلك الآثار الباقية من الأديرة التى عثر عليها فى باويط(٢) ، واسنا وطيبة وسقارة وأسوان وكذلك الدير الأبيض والدير الأحمر اللذين لا يزالان قائمين بالقرب من سوهاج • وكذلك تيجان من الأعمدة المحفوظة بالمتحف القبطى •

ولا غرو أن بلغت صناعة البناء في مصر قبل الفتح العربى ما بلغته من تقدم ، حيث تشير المصادر التاريخية إلى نبوغ العديد من علماء الهندسة والرياضيات بمدرسة الاسكندرية القديمة نذكر منهم ابرن العالم الرياضى الذى صنف فى الهندســـة ، وقام بحل شـكوك كتاب اقليدس • وعالم الهندسة الشهير هيرون الاسكندرى (٣) ، ولا شك أن مؤلفاته فى مجالات الهندسة والآلات كان لها أثر كبير فى تقدم فن العمارة بالاسكندرية وغيرها من المدن المصرية قبل الاسلام •

ولا شك أن العرب بعد الفتح ــ وكان أكثرهم قوما رحلا متنقلين أو من أهل الوبر كمـا يقولون ــ لم يلبثوا أن إستخدموا المصريين فى كل ما يحتاجونه من الأبنية وما يناسب تقشفهم وبعدهم عن الترف فى بداية الأمر تجلى ذلك فى اختطاط مدينة الفسطاط وبناء جامع عمرو بن العاص ودار عمرو بن العاص ، وكانت في غاية البساطة فى تخطيطها وبنائها •

وقد أشار ابن عبد الحكم عند حديثه عن خطط القبائل فى الفسطاط الى الدور العديدة التى أنشأت فعددها وذكر أسماءها ، الا أن وصفه لها لا يتعدى الوصف العام • ويمكن القول بأنها كانت بسيطة كما كانت ذات مساحة كبيرة اذ يذكر ان عبد الله بن عمرو بن العاص اختط هذه الدار الكبيرة التى عند المسجد وبنى فيها قصرا على تربيع الكعبة الأولى • فهذا

---

(٢) غطت جدران هذا الدير منذ العصر البيزنطى بكساوى مصنوعة من الرخام وحجر السماق (الصوان) السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٣١٥ •

(٣) عاش هيرون عالم الهندسة والرياضيات فى أواخر القرن الثالث الميلادى وكان من مشاهير علماء مدرسة الاسكندرية •

The Legacy of Greece, p. 134.

يدل على مدى اتساعها بحيث كان يسمح ببناء قصر بداخلها كما يدل على بساطة تخطيطها على نسق الكعبة فى بداية أمر بنائها ٠

كما يدل تعدد أبواب بعض الدور التى تطل على شوارع مختلفة على اتساع الرقعة التى بنيت عليها مثال دار العمد التى ذكرها ابن عبد الحكم وذكر ان بابها فى زقاق القناديل وبابها الآخر مما يلى دار البركة من هناك راجعا الى سوق بربر الى قصر ابن جبير ٠

كانت معظم الدور فى بادىء الأمر فى الفسطاط ذات طابق واحد اذ لم يكن هناك داع للارتفاع بالمسكن رأسيا لتوفر المساحة الأفقية وتعكس عدم موافقة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على بنـاء غرفة أرادها خارجة ابن حذافة فوق داره ذلك الأمر ، حيث يذكر ابن عبد الحكم أن خارجة كان أول من بنى غرفه بمصر فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو بن العاص يقول له : « أنه بلغنى أن خارجة بن حذافه بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها » ٠

وتشير الحفائر الى أن معظم هـذه الدور والبيـوت فى الفسطاط كانت مبنية باللبن حيث أن سمك جدارها كان ذراعين بذراع البناء وهذا لا يتأتى الا باستعمال اللبن ٠ وقد أدى شيوع استخدامه أو استعماله كمادة لبناء الدور فى تلك الفترة المبكرة الى سرعة تهدم تلك الدور واختفائها ٠ كما أن المساكن التى أنشئت بالعسكر بعد ذلك اندثرت هى الأخرى حتى أن السرى بن الحكم عام ٢٠٠ هـ ٢٠٥ هـ أذن للناس بالبناء فى العسكر مرة ثانية فامتدت عمارتها حتى اتصلت بالفسطاط ٠

كما تدل المصادر التاريخية على أن المبانى بالفسطاط لم تقتصر على بنائها من اللبن ، اذ تشير الى استخدام الحجارة والأعمدة الرخامية التى كانت تؤخذ من مبان قديمة مثل دار عبـد الرحمن الفهرى التى جعلها « تدور بعمد رخام وجعل قاعاتها مستديرة ولم يجعل فوقها بناء » ٠

والواقع أن العمارة الاسلامية لم تلبث أن تقدمت فى جميع أنحاء البلاد المفتـوحة دون استثناء ومن بينهـا مصر ، فسرعان ما نمت مدينة الفسطاط ودب فيها العمران وبنيت فيها الحمامات والأسواق كمـا تم تشييد الدور العالية ، فقد أشار ابن عبد الحكم الى قيام عبد الله بن سعد والى مصر فى خلافة عثمان ببناء قصر كبير له عرف باسم قصرالجن ٠ وخلال الفترة القصيرة التى أقامها فى مصر مروان بن الحكم أمر ببناء الدار البيضاء ليسكنها وقال : « انه لا ينبغى لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها دار » ٠

وقد شهدت مصر نهضة عمرانية بعد أن تولى عبد العزيز بن مروان ولاية مصر (٦٥ ـ ٨٦ هـ) ، فقد أمر ببناء الدار المذهبة سنة ٦٧ هـ فى غربى المسجد الجامع وكانت تدعى المدينة ، مما يدل على كثرة مبانيها وضخامتها ، فقد ذكر أنه كانت تضم خمسة مساجد وحمامان وعدة أفران يخبز فيها عجين أهلها ٠

كما قام عبد العزيز بن مروان ببناء المساجد والحمامات والأسواق بحلوان بعد أن اتخذها عاصمة له وعمرها أحسن عمارة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، حتى قيل انه أنفق فى بنائها مليون دينار (٤) ٠

وقد ذكر ابن عبد الحكم أنه فى عهد الوالى عبد العزيز تم انشاء الأسواق وبنى القيساريات مثل قيسارية العسل وقيسارية الحبال وقيسارية الكباش ، والقيسارية التى كان يباع فيها البز وكانت تعرف بقيسارية عبد العزيز ٠ وبلغ من شغف الوالى أو الأمير بالمنشآت والحمامات أنه بنى لابنه زيانا حماما وأقام على بابه تمثالا عجيبا من الزجاج على صورة امرأة وأطلق عليه اسم أبى مرة فى مدينة الفسطاط ٠

ومما يذكر أنه أمر ببناء مقياس للنيل ، فى حلوان حيث كانت مقرا له وكان هذا المقياس صغير الذرع ٠ كما تشير المصادر الى أنه أمر ببناء قنطرة بطرف الفسطاط على خليج أمير المؤمنين فكتب عليها اسمه ، كما ورد اسم المهندس سعد أبو عثمان منقوشا عليها ، مما يدل على قيام المهندسين فى فجر الاسلام بالاشراف على تنفيذ مثل هذه المشروعات العمرانية ٠ ومن أعماله أيضا ما تم تشييده من القناطر على أعمدة من أجل توصيل المياه العذبة الى حلوان وهو ما عرف بالسقايات ٠

ولا شك أن بناء المساجد واقبال المسلمين على اقامتها فى الفسطاط وفى غيرها من المدن والقرى المصرية كان من خير البواعث على نشاط حركة البناء والعمران ، ومما يشهد بذلك ما حظى به جامع عمرو من اهتمام الولاة فقد تعهدوه بالزيادة والتحسين وزخرفة جدرانه وسقوفه(٥) ، فمنذ

---

(٤) ذكر الكندى أن عبد العزيز بن مروان اتخذ من حلوان دارا لاقامته فى سنة ٧٣هـ بعد أن انتشر وباء الطاعون بالعاصمة الفسطاط ، حيث نقل معه بيت المال وأقام بها حتى سنة ٨٦هـ وهى السنة التى توفى فيها ، الولاة ، ص ٤٩ ٠

(٥) كان جامع عمرو فى بادىء الأمر طوله خمسون ذراعا وعرضه ثلاثون ذراعا ٠ وكان هناك بابان فى شرقى المسجد يقابلان دار عمرو بن العاص ، وجعل له بابان فى شماليه وبابان فى غربيه وكان سقفه واطئا جدا ولا صحن له وكان بينه وبين دار عمرو سبع أذرع ٠ المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ ٠

ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر من قبل معاوية ، وكان المسجد قد ضاق بأهله وشكوا ذلك الى مسلمة ، فكتب فيه الى معاوية ، فأمره بالزيادة فيه سنة ٥٣ هـ من شرقيه ومن شماليه وجعل له رحبة فى شماليه وطلاه بالجص وقام مسلمة بزخرفة جدرانه وسقوفه ولم يكن قبل ذلك فيه طلاء أو زخرف ٠

كذلك أمر مسلمة ببناء منار المسجد فجعل له أربعة صوامع أو مآذن فى أركانه الأربعة ، وهو أول من جعلها فيه (٦) ٠ ولم يلبث حين تولى عبد العزيز بن مروان شئون الحكم فى مصر أن هدم الجامع وزاد فيه من جوانبه كلها وذلك سنة ٧٧ هـ ٠ وتكرر ذلك الأمر فى ولاية قره بن شريك حين أمره الوليد بن عبد الملك بالزيادة فيه بعد هدمه وبنائه من جديد ، وقد ابتدأ قره فى بنائه فى شهر شعبان سنة ٩٢ هـ ، وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بنى عامر ونصب المنبر الجديد فى سنة ٩٤ هـ بعد أن نزع المنبر القديم ، كما تشير المصادر الى أنه لم يكن لجامع عمرو فى بادىء الأمر محراب مجوف (٧) ، وقيل أن أول من جعل له المحراب الوالى قره بن شريك وذلك بعد أن أعاد بناءه كما أشرنا من قبل ٠

وليس من شك أن العرب فى بادىء أمرهم لم يشغلوا أنفسهم بالبناء ، وانما كان البناءون والدهانون والمزخرفون من الأقباط المصريين ٠ وقد عمد العرب على نقل كثير من الأعمدة والتيجان من المعابد والكنائس القديمة حيث تم استخدامها فى مساجدهم وبيوتهم ، كما يتضح ذلك من وجود تلك الأعمدة فى جامع عمرو وفى معظم المساجد ٠ والواقع أن ذلك لم يكن غريبا فى ذلك الوقت ، فقد كان الأقباط يحصلون على حاجتهم من هذه الأعمدة والتيجان من المعابد القديمة ويستخدمونها فى بناء كنائسهم وأديرتهم(٨) ٠

---

(٦) كان أول من أمر ببناء المآذن أو الصوامع فى الاسلام معاوية بن أبى سفيان وته أمر معاوية مسلمة بن مخلد عامله على مصر أن يبنيها لجامع عمرو ٠ وقيل انها بنيت على غرار الابراج الأربعة التى كانت بسور المعبد الوثنى القديم بدمشق ومكانه الآن يقـوم الجامع الأموى ٠ المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١١١ ، زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٣٤ ٠

(٧) قيل ان فكرة المحراب مأخوذة عن الحنية التى توجد فى صدر الكنيسة الى الشرق وان مآذن الجوامع الاسلامية مأخوذة من أبراج الكنائس ٠ زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ، ص ٩ ٠

(٨) ويجب الا يتطرق الى الأذهان بأن الكنائس خربت عمدا لتسد حاجة البناء فى المساجد ، انما كان من المسهل أن يأخذ العرب بقايا ما خربه الفرس أثناء غزوهم لمصر قبيل الفتح العربى عام ٦١٨م ٠ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٧٦ ــ ٢٧٧ ٠

. ومما يدل على مهارة المصريين وشهرتهم فى صناعة البناء فى العصر الأموى ، أن الأمر لم يقتصر على استخدامهم فى بنـاء الدور والمشروعات العمرانيـة فى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية ، بل كثـيرا ما أمكن استغلالهم فى المبانى واقامة المنشآت خارج البلاد ، يتضح ذلك فيما أشارت اليه أوراق البردى ، ففى كتاب قره بن شريك (٩٠ ـ ٩٦ هـ) الى صاحب كورة أشقوه نراه يحدد أجر أحد العمال بجامع دمشق لمدة ستة أشهر • وفى كتـاب آخر يطلب الوالى على مصر عـدة عمـال من أماكن مختلفة للعمل فى تشييد قصر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، وورد فى كتاب ثالث أنه يطلب أحد العمال ويحدد أجره للعمل لمدة ستة أشهر فى جامع بيت المقدس • وقد ورد فى كتاب آخر من قره ما يشمل المصروفات التى تم انفاقها على أربعين من الصناع المهرة الذين استخدموا فى بناء جامع دمشق ، وفى جامع بيت المقدس وفى قصر أمير المؤمنين • كما حفلت أوراق البردى بكتب أخـرى تختص بالصرف على العمـال الذين كانوا يعملون فى بيت المقـدس أو فى دمشق وفى قصر أمـير المؤمنين الوليـد بن عبد الملك •

ويذكر البلاذرى أن الخليفة الوليد كتب الى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث اليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صـانعا من الروم والقبط من أهل الشـام ومصر ، فبنـاه عمر بن عبد العزيز وزاد فيه وكان ذلك فى سنة ٨٧ هـ ويقال فى سنة ٨٨ هـ • وهذا يدلنا على مدى تقدير العرب لمهارة المصريين فى فن البناء والعمارة ، وكيف كانوا يستخدمونهم فى مصر وفى غيرها من البلاد الاسلامية •

وتشير المصادر الى استمرار أصحاب الحرف والصناعات من البنائين والنقاشين المصريين فى تشغيلهم خـارج البـلاد خاصة فى العراق مقـر الخلافة العباسية ، وقد بالغ المؤرخون فزعموا أن الخليفة المنصور كتب الى البلدان المفتوحة ومنها مصر فى حمل من فيها ممن يفهم شيئا فى صناعة البناء فحضر مائة ألف من أرباب المهن والصناعات ، ولا شك أن عددا كبيرا من هؤلاء الصناع المصريين قد شارك فى بناء وتعمير مدينة السلام •

كما يمدنا المقدسى بمعلومات توضح لنا أن الخليفة المهدى طلب من واليه على مصر أن يحمل من الصناع والفسيفساء فى البحر الى جده لاعادة بناء المسجد الحرام وقد تم تزيين حيطان الكعبة بها من ظاهرها • ويبدو أن المقدسى اطلع على أسماء هؤلاء الصناع المصريين وغيرهم من بلاد الشام الذين قاموا بهذا العمل فهو يقول : « وحمل اليها صناع الشام ومصر ألا ترى أسماءهم عليه » •

ولا غرو فقد مهر المصريون في صناعة الفسيفساء البديعة وعرفوا كيف يزينون بها الدور والمبـــانى وحتى الأرضيات فى قصــورهم ، فى الاسكندرية وغيرها من المدن المصرية منذ العصر البطلمى • ولعل تلك الفسيفساء التى صنعت من الزجاج المذهب كانت بأيد مصرية ، والتى عمل منها برسم الجامع الأموى الشيء الكثير فى العصر الأموى (٩) •

وليس من المستبعد مشاركة العمال والصناع المصريين فى بنـــاء المساجد والأسواق وغيرها من الدور والمنشآت فى مدن الحجاز مثل بدر والجار وجدة على ساحل البحر الأحمر ، فكما كانت تحمل المؤن والطعام من الفسطاط اليها ، كان أصحاب الحرف يتوجهون الى تلك الجهات للعمل، تماما كما يفعل المصريون فى وقتنا الحاضر (١٠) •

وقد شــهد العصر العباسى نهضـــة كبيرة فى تشييد الدور والقصور والمساجد ، فكانت تبنى بالطوب المحروق ، كما شاع استخدام الأحجار فى البناء ، وكان المصريون فى عصر الولاة يقتطعونها من تلال المقطم الشهيرة، وقد ظلوا يستخدمونها حتى أيام الفاطميين ، ويصــف ابن حوقل هذه المحاجر بالمقطم فيقول : « وفى المقطم مقاطع حجارة بيض خشنة تنشر كما ينشر الخشب » ، وقد عرف المصريون كيف يستخدمون مثل هذه الأحجار فى تزيين المبانى والعمائر بالفسطاط وغيرها •

وكان حجر السماق الأحمر والأخضر يؤتى به محمــولا على صفحة النيل من محاجر أسوان وغيرها بالقرب من الأقصر الى الفسطاط حيث يتم استخدامه(١١) ، وكما قام النحاتون بصنع الشواهد التى شاع استخدامها فى فجر الاسلام ، وكانت خير شاهد على تقدمهم فى صناعة النحت وطرق الانتفاع بها • كما يشير بتلر الى ذلك النوع من المرمر الثمين المستخدم

---

(٩) ذكر ابن فضل الله العمرى انه حصل منها عدة صناديق غير تلك التى أصابها التلف والحريق الذى شب سنة ٧٤٠هـ ويصف المعمول من الفسيفساء فيقول : « ان المعمول القديم من الفسيفساء ، لا يوجد مثله فى صفاء اللون وبهجة المنظر » مسالك الأبصار ، جـ ١ ، ص ١٩٣ •

(١٠) ويشير ديماند الى رحيل كثير من البنائين والصناع المصريين للعمل فى عمارة كل من بيت المقدس ودمشق وبلاد الحجاز حيث اتبع العباسيون نقل المواد الخام اللازمة للبناء والصناع كما كان يفعل الأمويون وذلك من مختلف الأقاليم ، الفنون الاسلامية ، ص ٢٤ •

(١١) مازال البناءون حتى وقتنا الحاضر يطلقون عليه الحجر الفرعونى ، لا ينحته ويقوم ببنائه الا المهرة من الصناع وأصحاب الخبرة فى أعمال البناء •

فى تزيين العمـائر بالعاصـمة الفسطاط والاسـكندرية وغيرهما من المدن المصرية (١٢) .

ويصـف ابن اياس ما اشـتهرت به مصر فى عصرها الاسـلامى ، وما كانت تستخدمه من أنواع الرخام والأحجار التى أمكن استغلالها من محاجر الصعيد وجهة السويس أو القلزم فيقول : « وبها مقطع الرخام المرمر وله منـافع عديدة ، ومقطع الرخام الأبيض الصعيدى ، والأسـود السويسى ، والرخام السماقى والفستقى لا يوجـد الا بهـا ، وبها حجر الصوان المانع الذى تعمل منه الأعمدة والأعتاب » كما يشير المؤرخ الشهير ابن اياس الى توفر حجـر الكدان الذى كان المصريون يبلطون به دورهم وقصورهم ويعقدون به الدرج من السلالم العالية .

وتشهد تلك التحسـينات والزيادات التى أدخلت على جامع عمرو بن العاص فى العصر العباسى بما بلغته العمارة الاسـلامية ، واستخدم البنائين واستغلالهم لهذه المواد من أنواع الأحجار والرخام ؛ ففى ولاية صالح بن على على مصر عام ١٣٣ هـ عمل على زيادة مؤخرة الجامع ، فكانت أربعة أساطين أو أعمدة من الرخام . وفى عهد الخليفة هرون الرشيد زاد موسى بن عيسى الرحبة أو الفناء للجامع وذلك فى سنة ١٧٥ هـ .

وقد بلغت العسكر من المبـانى والمنشآت حتى صارت مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة ، ويقول المقريزى : « ونشطت العمارة فى العسكر الى أبعد حد ؛ ولا شك أنه تم استخدام الحجارة والأعمدة الرخامية التى كانت تؤخذ من المبانى القديمة . ومن الدور التى شيدت من الحجارة وغيرها من مواد البنـاء على جبل المقطم تلك الدار التى شيدها حاتم ابن هرثمة أحد ولاة مصر فى العصر العباسى سنة ١٩٥ هـ وقد عرفت بقبة الهواء ، واستمرت قائمة حتى عصر الطولونيين .

كما كان بناء الحمامات يستلزم أنواعا من الحجارة والرخام التى كانت تجلب من المحاجر العديدة التى أشار اليها ابن اياس وغيره من الرحالة والمؤرخين ، ومن الجدير بالذكر أن بعض الدور التى تم تخطيطها بالفسطاط كان بها حمامها الخاص مثل الدار التى اختطها أبو ذر الغفارى « دار العمد

---

(١٢) كانت مصر منذ أيام الفراعنة مشهورة بما فيها من أنواع المرمر البديع وكانت حلية الكنائس والقصور فى سائر انحاء العالم من هذا الحجر الثمين وكانت له سوق رائجة فى العاصمة الاسكندرية وبقيت هناك حتى أيام الفتح العربى ، بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٩٢ .

ذات الحمام » ودار السلسلة التى أقطعها عبد العزيز الفهرى مولى ابن رمانة وبناها له يزيد بن رمانة وجعل بها حماما ٠

ومن خير الشواهد على استخدام الرخام فى صناعة البناء ما كان فى مقاييس النيل ، فالمقياس عبارة عن عمود من الرخام الأبيض المثمن ، كان يقام فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه ، وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع ٠ وكان الخلفاء يهتمون بمقياس النيل لارتباطه بالفيضان وتقـدير الخراج ، يذكر الكندى أن الخليفة المأمون أثناء اقامته بمصر ركب اليه ونظر فى موضع القياس ، وأمر باقامة جسر آخر فعمل له هذا الجسر القائم بالفسطاط وترك القديم ٠

وقد اهتم المؤرخون والرحالة بشأن مقياس النيل ، ويبدو أنه حدث تضارب فى ذكر أسماء الخلفاء العباسيين الذين أولوا هذا المقياس عنايتهم، يشير ابن دقماق الى ذلك فيقول : « ويزعم أكثر الناس أنه عمارة المأمون وليس الأمر كذلك ، فان المأمون مات فى سنة ٢١٨ هـ ، وهذا المقياس عمر فى سنة ٢٤٥ هـ » أى فى خلافة المتوكل العباسى ٠

وقد ذكر الكنـدى أنه ورد كتاب الخليفة المتوكل بابتناء المقيـاس الهاشمى للنيل ، وبعزل من كان يشرف عليه من أهل الذمة ، فجعل عليه أبو الرداد المعلم ، وقد أجرى عليه كاتب الخراج سليمان بن وهب سبعة دنانير وذلك فى سنة ٢٤٦ هـ (١٣) ٠ كما ذكر ابن خلكان أن الذى أشرف على تنفيذه وبنائه أحمد بن محمد المحاسب بأمر المتوكل ، ولعل المهندس الذى قام بتصميمه المعمارى كما أشار ابن الزيات هو أحمد بن محمد الذى نعته بمهندس المقياس ٠

ويدل وصف الادريسى لمقياس النيل على ما بلغه فن العمارة فى ذلك الوقت وما استخدم فى تنفيذه وتشييده من الرخام وغيره من مواد البناء والزخرفة حيث قال : « وهى دار كبيرة يحيط بها من داخلها من جهة أقبية دايرة على عمد ، وفى وسط الدار فسقية كبيرة عميقة ينزل اليها بدرج رخام على الداير ، وفى وسط الفسقية عمود رخام قايم ، وفيه رسوم أعداد أذرع وأصابع بينهما ، وعلى رأس العمود بنيان متقن من الحجر وهو ملون مرسوم بالذهب اللازورد وأنواع الأصباغ المحكمة » ولا شك أن وصف

---

(١٣) كان جدهم عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن الرداد من البصرة ، ثم رحل الى مصر وحدث بها ويكنى بأبى الرداد ولقبه المقريزى المعلم ٠ الولاة والقضاة ، ص ٢٠٣ ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٥ ٠

الادريسي المتوفى ٥٤٩ هـ/١٢٥١ م هو ما كان عليه في أواخر عصر الولاة ، حيث بقى دون تغيير يذكر ، اذ لم يذكر لنا المقريزى شيئا من التفاصيل عما كان عليه أمر اصلاح المقياس فى عهد أحمد بن طولون (١٤) ، وذلك على غرار أوصاف تلك التعديلات أو التحسينات التى كانت تتم بالنسبة لجامع عمرو بن العاص •

ولا شـك أن تشجيع الخلفاء والولاة واهتمـامهم الملحوظ باقامة وتشييد المنشآت الدينية والهندسية كالقناطر ومقاييس النيل وغيرها كان له الأثر الملموس فى نشاط حركة البناء والتبحر فى العمران كما يذكر ابن خلدون ، وقد اهتم الولاة فى مصر باقامة الجواسق وبناء المصانع التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم (١٥) ، وهى أشبه بالأحواض التى تبنى فى الأرض لتخزين المياه وحفظها ولجمع مياه المطر • وذكر أنه حينما شكت قبيلة المعافر الى يزيد بن حاتم أمير مصر من قبل المنصور لتعذر وصـول الماء اليهم ، أمر لهم ببناء فسقية وأجرى اليها الماء ، وأنفق فى ذلك أموالا طائلة •

وفى عهد الخليفة المأمون قام عبد العزيز الجروى الثائر ببناء المصانع فى وسط مدينة تنيس (١٦) ، ذكر ابن بسام أنه كان بتنيس مصنعان عظيمان ينسبان الى عمر بن حفص أحد من تولى أمرها ، ومصنع مسقوف وسط المدينة بناه عبد العزيز الجروى ، وكان يسع ثلاثة آلاف وستمائة جرة من الماء • وليس من المستبعد أن يكون عمال دمياط والفرما وغيرهما من المدن الساحلية قد قاموا ببناء مثل هذه المصانع لحفظ الماء العذب لحاجة السكان اليه طوال أيام السنة كما حدث فى تنيس •

---

(١٤) ذكر المقريزى أن أحمد بن طولون ركب فى سنة ٢٥٩هـ ومعه ابو أيوب صاحب خروجه وبكار بن قتيبه فنظر الى المقياس وأمر باصلاحه ، وقدر له الف دينار فى سـبيل تعميره • الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠٥ •

(١٥) يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » سورة الشعراء : الآية ١٢٩ • والمصانع المقصود بها حياض الماء • حسنين محمد مخلوف : كلمات القرآن تفسير وبيان ، ص ٢٢٩ •

(١٦) انتهز عبد العزيز الجروى فرصة خلع الأمين فى جمادى الآخرة سنة ١٩٦هـ وثار فى قومه بجهة فاقوس وبلبيس وبعث بعمال له لجباية الخراج من مصر السفلى ، وظل على ثورته يحارب الولاة بالوجه البحرى حتى قتل أثناء حصاره الاسكندرية للمرة الرابعة وذلك فى آخر شهر صفر سنة ٢٠٥هـ •

ومما يدل على نشاط حركة البناء في عصر الولاة ما تم تشييده من الجواسق والحصون والرباطات في الثغور المصرية وعلى الحدود المتاخمة للبلاد من جهة الجنوب • فقد ذكر ياقوت أن سور تنيس ابتدىء فى بنيانه فى شهر ربيع الأول سنة ٢٣٠ هـ وكان والى مصر يومئذ عيسى بن منصور الخراسانى المعروف بالرافعى • ويبدو أن تشييد هذا السور استغرق وقتا طويلا حيث تم الفراغ من بنـــائه سنة ٢٣٩ هـ فى ولاية عنبسة بن اسحق فى عهد الخليفة المتوكل •

وكانت دمياط قد تعرضت لغزو الروم عام ٢٣٨ هـ ، وأصدر الخليفة المتوكل أوامره ببنـاء حصن لها ، فابتدىء فى بنـائه فى رمضـــان عـــام ٢٣٩ هـ • كما عمل المتوكل على اقامة حصن آخر لمدينة الفرما على ساحل البحر المتوسط ، وتولى الاشراف على بنائه الوالى عتبة بن اسحاق فى نفس العام أيضا ، وأنفق فى سبيل ذلك أموالا طائلة • وهكذا نشطت حركة البناء فى تشييد الأسوار والحصون وفى اقامة الرباطات مثل هذه الرباطات التى أقيمت من جهة الأحباش والبجة • وما يقرب منهم ، وكذلك رباط أسوان على حدود النوبة والواحات على حدود البربر والسودان •

وخلاصـــة القول أن تشجيع الخلفـاء والأمراء على اقامة مثـل هذه الحصون وغيرها من المنشآت الدينية والهندسية كان له أثره الملموس فى ازدياد نشاط الحرفيين والبنائين وغيرهم من صناع العمارة فى عصر الولاة •

٢ ـ العمارة ومظاهر التأثير الحضارى في عهد الطولونيين والاخشيديين

لم يكن مؤسس الدولة الطولونية أحمد بن طولون ليقنع بدار الامارة في العسكر ، بعد أن ضاقت بحاشيته وجنده الكثيرين ، وبدأ في تأسيس حاضرة له وفى ذلك يقول الكندى : « وابتدأ أحمد بن طولون فى بنيان الميدان فى شعبان سنة ست وخمسين وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى وبنى موضعهما » •

ولا شك أن تفكير الأمير الطولونى فى ترك الامارة بمدينة العسكر او فى الفسطاط انما يمثل اتجاهه الجديد فى الاستقلال بمصر ، ورغبته في منافسة بلاط العباسيين من حيث العظمة والأبهة • وقد قسم ابن طولون مدينته الجديدة بين جنده ورجال حاشيته ومن احتاجوا اليهم من صناع وتجار ، فصارت لكل طائفة قطيعة ، وكانت كل قطيعة تعرف باسمها كما يذكر البلوى ، فكان هناك قطيعة الروم وقطيعة السودان ، وقطيعة البزازين ، وقطيعة الجزارين ، وأصبح يطلق على مدينة ابن طولون اسم القطائع (١) • ويبدو أن تخطيط القطائع هذه كان يشبه الى حد كبير تخطيط سامرا حيث كان يطلق اسم القطائع على مدينة سامرا التى بناها المعتصم الخليفة العباسى اللهم الا القصور الملكية (٢) •

وكان لقصر أحمد بن طولون عدة أبواب كبيرة ، وكان لكل باب منها

---

(١) وذكر ياقوت فى تعريفه القطائع أنها جمع قطيعة وهو ما أقطعه الخلفاء لقوم فحازوه ، وتعرف بقطائع الموالى • معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ١٢٠ •

(٢) ويمدنا اليعقوبى بأسماء القطائع التى أقطعها المعتصم العباسى الى قواد جنده من خراسان وما أقطعه الأشناس وأصحابه الموضع المعروف بالكرخ وضم اليه عددا من قواد الأتراك ، وقطائع الجند والشاكرية واخلاط الناس وغيرهم البلدان ، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٤ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥٨٩ •

اسم يدل أحيانا على الجهة التى يؤدى اليها ، أو نوع الخدم وذلك كما كان متبعا فى قصور سامرا . وكان أهم أبواب القصر باب الميدان ، ومنه كان يمر الجند ، وباب الخاصة للمقربين من الأمير ، وباب الصوالجة وكان يؤدى الى الميدان الكبير المخصص للعب الصوالجة . وباب الحرم وباب الصلاة وكان يوصل الى جامع ابن طولون ، وباب الجبل وتشرف عليه تلال المقطم ، وباب الساج نسبة الى الخشب الذى اتخذ منه ، وأبواب أخرى مثل باب السباع نسبة الى سبعين كبيرين عملا من الجص كانا على جانبيه .

وهكذا يمكن القول بأن تخطيط القطائع كان على طراز سامرا فى العراق ، وكان القصر الطولونى من الضخامة والاتساع وتعدد الأبواب بما يشهد على ما احتاج اليه الأمر من مئات الصناع والبنائين والحرفيين . ومن الجدير بالذكر أن القطائع لم تبق مدة طويلة كمقر للأمير ورجال حاشيته فحسب ، بل ما لبثت أن اتسع نطاقها وزادت عمارتها .

فقد ذكر مؤرخو مصر الاسلامية أنها أصبحت مدينة كبيرة زاهرة وأنشئت فيها المساجد الجميلة والحمامات والأفران والطواحين والشوارع والمحال الصناعية فضلا عن المنازل وغير ذلك مما تحتاج اليه المدن الكبرى وامتدت عمارتها حتى اتصلت بمدينة الفسطاط . والواقع أن هذه النهضة العمرانية كانت من أهم الأسباب لتقدم وتطوير الصناعات المعمارية فى العصر الطولونى ، فقد كان الاقبال على طلب ما تصنعه أيدى هؤلاء الحرفيين من جانب الدولة وسائر أفراد الشعب خير حافز لهم على تطوير صناعاتهم واقبالهم على المزيد من التعلم واكتساب الخبرات . ويعلل ابن خلدون وتلميذه ابن الأزرق ذلك بقولهما : « أما اذا كسدت أسواقهم (يعنى قلة الطلب والحاجة) فان الحرفيين يقعدون عن التعلم ويصيبهم التراخى والاهمال » .

ومما يدل على نشاط حركة المعماريين وشدة الحاجة الى هؤلاء المهندسين والبنائين وغيرهم من الحرفيين ـ فى عهد ابن طولون ـ ما أوضحه المؤرخون فى هذا المجال ، فقد بدأ أحمد بن طولون فى بناء الجامع الشهير باسمه والبيمارستان وذلك فى نفس العام الذى أمر فيه ببناء حصن الجزيرة ليكون معقلا لماله وحرمه . وكما يذكر أبو المحاسن أن جملة ما أنفقه على هذا الحصن بلغ ثمانون ألف دينار ، وقيل مائة ألف دينار .

وكان ابن طولون يشرف بنفسه على الصناع من البنائين وغيرهم فى تنفيذ تلك المنشآت الضخمة وتشييد الحصون ، وكما يذكر البلوى فانه كان يباكر الصناع فى السحر حين يخرجون من منازلهم فى كل يوم الى مواقع العمل ، وكان يجزل لهم العطاء .

وبلغ من اهتمام ابن طولون بأمر انشاء الجامع ، وقد أراد أن يكون من الاتساع والضخامة ما يتضاءل الى جانبه جامع عمرو وجامع العسكر ويكون عنوانا لعظمة الأمير ولرخاء البلاد فى عصره ويعلل الكندى أسباب التفكير فى انشاء جامع ابن طولون بقوله : « وشكا أهل مصر الى أحمد ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بجنده وسودانه ، فأمر بابتناء المسجد الجامع بجبل يشكر (٣) وابتدىء فى بنائه سنة أربع وستين وفرغ منه فى سنة ست وستين ومائتين » وان كان جامع السيرة الطولونية كما نقل عنه المقريزى وقد ذكر أن بناء الجامع بدأ فى سنة ٢٦٣ هـ بعد بناء القطائع (٤) ٠

ومهما كان وجه الخلاف فى السنة التى بدأ تشييد الجامع فيها ، فان الذى يهمنا مدى ما بلغه فن المعمار من تقدم فى أساليب البناء حيث تبرهن الروايات التاريخية على قيام المهندسين فى ذلك العصر بعمل الرسومات الهندسية والنماذج المجسمة للمنشآت المعمارية تماما كما يحدث فى عصرنا الحديث ، فحينما شرع ابن طولون فى بناء مسجده بالقطائع عام ٢٦٣ هـ/٨٧٦ م كتب اليه مهندسه يقول : « أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد الا عمد القبلة ، وأنا أصوره حتى تراه عيانا » فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت ورسم المسجد له فأعجبه واستحسنه » ٠

وكما أثر عن ابن طولون بشأن تصميم الجامع وتنفيذه أنه قال : « أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى ، وان غرقت بقى ، فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار الى السقف ولا يجعل فيه أساطين من رخام لانه لا صبر لها على النار » ٠ وهكذا كانت المبانى فى عصر الطولونيين لا يبدأ العمل فى انشائها الا بعد عمل الرسومات والمقايسات كما يقال فى عصرنا الحاضر ٠

---

(٣) ويذكر جامع السيرة الطولونية ان جبل يشكر الذى كان يشرف على النيل وعلى بركة الفيل وبركة قارون كانت أحجاره ينشر منها ويسطح ويعمل منها الجير ويبنى بها الى ان فرغ من جميع بنيانه وبياضه ٠

البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ١٨٢ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٣٢ ٠

(٤) ويؤيد جامع السيرة الطولونية المقريزى فى التاريخ الذى بدأ فيه بناء الجامع وهو سنة ٢٦٣هـ ما هو مسجل بالخط الكوفى فى لوحة لتاسيس المثبتة فوق احدى بدنات رواق القبلة للجامع ٠ سيرة أحمد بن طولون ، ص ١٨٢ ، الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٤٢ ، محمود عكوش : الجامع الطولونى ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ٠

وقد تم تشييد جامع ابن طولون بمعرفة أحد المهندسين (٥) وكان البناء من الآجر الأحمر الداكن ، كما أقيمت أقواس الأروقة محمولة على دعامات ضخمة من الآجر أيضا تكسوها طبقة سميكة من الجص • وتبدو مظاهر التأثير الحضارى فى بناء الجامع ، كما ذكر ابن دقماق أنه كان على غرار بناء جامع سامرا وكذلك المنارة أو المئذنة التى تم تشييدها على قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية ، وعليها طبقة أخرى مثمنة ، وأما السلالم فكانت من الخارج على شكل مدرج حلزونى حول المئذنة (٦) وهكذا فانه لم يقتصر الأمر فى ظهور طراز سامرا فى الزخارف الجصية فى الجامع ، بل غدت العقود المدببة تسود كل البناء ، وتعلو الدعائم والنوافذ والمحراب، فضلا عن الشكل الهندسى الذى شيدت عليه المنارة والزخارف النباتية التى امتدت على أفاريز الدعائم والعقود والزخارف الخطية المحفورة على الخشب (٧) •

وقد ذكر المقريزى أن أحمد بن طولون كان يشرف على بناء الجامع بنفسه وأنه رأى الصناع يبنون فى الجامع الى حين وقت العشاء فهو يصف ذلك قائلا : « كان فى شهر رمضان فقال : متى يشترى هؤلاء الضعفاء افطارا لعيالهم وأولادهم ؟ أصرفوهم العصر • فصاروا سنة الى اليوم بمصر » •

كما نقل المقريزى عن المسبحى وصفه للفوارة التى قام الصناع بعملها فى وسط صحن الجامع ، وكانت عبارة عن قبة مشبكة من جميع

---

(٥) يصف البلوى ذلك المهندس بأنه كان رجلا نصرانيا حسن الهندسة حاذق فيها وانه هو الذى تولى بناء العين والسقاية أو القناطر وغيرها من المنشآت المعمارية فى عهد ابن طولون وكان اسمه سعيد بن كاتب الفرغانى وأكبر الظن أن هذا المهندس كان مسيحيا من العراق لأنه لو كان من مصر لما أغفل المقريزى أن ينص على أنه قبطى ، ولو كان بيزنطى الأصل لقال انه رومى وقد نفى المهندس فريد شافعى بشدة أن يكون من أقباط مصر ، وقام بتفنيد آراء الآخرين تبعا للأسس العلمية والهندسية البحتة والواقع ان بناء الجامع وزخارفه الجصية تدل على أن المهندس الطولونى أتى من سامرا وأنه كان خبيرا بما ازدهر فيها من العمارة والفنون ، سيرة أحمد بن طولون ، ص ١٨١ ، الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٤٣ ، أحمد تيمور : أعلام المهندسين ، ص ٢٤ ، العمارة العربية فى مصر الاسلامية ، ص ٤٧/ ، محمود عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولونى ، ص ٢٦ — ٢٧ •

(٦) ذكر أبو المحاسن أن ابن طولون كان يستشير الصناع فى الشكل الذى تقوم عليه ، وأنه أمسك درجا من الكاغد ورسم لهم الشكل الذى ارتآه ، وأمرهم بتنفيذه • النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٨ •

(٧) متز : الحضارة الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ هل : الحضارة العربية ، ص ١٤٩ ، ترجمة العدوى •

جوانبها وهى مذهبة على عشرة عمد رخام ، وســتة عشر عمود رخام فى جوانبها ، مفروشة كلها بالرخام ، وتحت القبة قصعة رخام سعتها أربع أذرع فى وسطها فوارة تفور بالماء ، وفى وسطها قبة مزوقة يؤذن فيها ، وفى أخرى على سلمها ، وفى السطح علامات الزوال ، وقد عملت بدرابزين ساج . وقد ظلت هذه الفوارة وما اشتملت عليه من علامات المبقات وغيرها الى أن احترقت جميعها فى سنة ٣٧٦ هـ فى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى .

ولا شك أن بناء المسجد على هذه الصورة من الأساطين الواسعة والسقوف العالية والزخرفة الجصية ، كان أكبر وأبهى من جامع عمرو بن العاص ، وقد عبر المقدسى عن اعجابه حين مشاهدته له بعد أكثر من قرن من الزمان على اتمام بنائه حيث قال : « والجامع الفوقانى من بناء ابن طولون اكبر وأبهى من السفلانى (٨) ، على أساطين واسعة مصهرجة ومسقوفة عالية فى وسطه قبه على عمل قبة زمزم فيها سقاية مشرف على فم الخليج وغيره » .

وكان جـد عبد الله محمد المقدسى مؤلف كتاب أحسن التقاسيم أبو بكر البنا أحد المهندسين الذين اشتهروا بصناعة البناء والعمارة فى العصر الطولونى ، ذكر المقدسى أن أحمد بن طولون حينما زار عكا بالشام وأراد أن ينشىء لها ميناء كالتى رآها فى مدينة صور ، جمع الصناع وشاورهم فى ذلك ، فقيل له انه من الصعوبة الاهتداء الى أحد البنائين فى الماء فى هذا الزمان ، ثم ذكر له كما يقول المقدسى : « جدنا أبو بكر البناء فكتب اليه ، فلما حضر أعلمه بأن الأمر هين وليس من العسير انجازه » .

وقد وصف المقدسى تلك الطريقة التى اتبعها جده فى بناء الموانىء ، فكان كلما بنى خمس دوامس أى مداميك ، ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت على فلق الجميز الغليظة (٩) كلما ثقلت نزلت حتى اذا علم أنها استقرت على الرمل فى القاع تركها حولا كاملا حتى اذا أخذت قرارها، عاد فبنى من حيث ترك ، وهكذا حتى تم له بناء الميناء على النحو المطلوب ، ثم جعل على الباب قنطرة المراكب فى كل ليلة تدخل الميناء مثل صور ، وقيل ان الأمير ابن طولون دفع اليه بالف دينــار مكافأة له سوى الخلع الثمينة .

---

(٨) ويعنى بالسفلانى الجامع العتيق بالفسطاط وكان يقال له تاج الجوامع ، وجامع عمرو بن العاص ، وهو أول مسجد اقيم فى الديار المصرية ، المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٠٧ .

(٩) فلق الجميز الغليظة هى ما نسميه اليوم بكتل الخشب الضخمة .

ومن الجدير بالذكر أن نشاط المهندسين لم يكن مقصورا على الاقليم الذى يقومون فيه ، بل انهم كثيرا ما كانوا يوجهون للعمل فى الخارج ، وعلى ذلك فمن المرجح أن يكون أبو بكر البناء من الذين شاركوا فى عمارة الثغور المصرية والقناطر التى تم تشييدها فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع ، وقد ذكر البلوى أن جملة ما أنفقه ابن طولون على الثغور وحصن يافا كان مائتى ألف دينار .

ولا غرو فقد اهتم ابن طولون بهؤلاء المهندسين والصناع وتشير المصادر الى أنه حين قدومه الى مصر استقدم معه طائفة من الصناع والبنائين وغيرهم من الفنانين الذين كان لهم الفضل فى اقامة الدور وبناء القصور والعمائر فى بغداد وسامرا عاصمة الخليفة المعتصم العباسى .

وقد بنيت قناطر ابن طولون بآجر يماثل فى الشكل والحجم آجر الجامع الطولونى ويقال أن الذى تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو المهندس النصرانى الذى شيد له بعد ذلك المسجد الجامع .

ولم يقتصر اهتمام ابن طولون على انشاء مثل هذه القناطر التى لا تزال بعض عقودها قائمة وكان الماء يسير فى عيونها حتى القطائع ، وانما تذكر المصادر أنه قام ببناء المصانع لحفظ المياه فى الفسطاط ، وفى تنيس وغيرها من المدن المصرية . وكانت هذه المصانع شائعة فى المدن منذ العصور القديمة (١٠) . فقد ذكر ابن بسام أن أحمد بن طولون أقام ثلاثة مصانع فى تنيس أحدهما بالقرب من السوق والأخرى فى زيادة الجامع ، ويحدد ياقوت وقت دخول الأمير الطولونى المدينة حيث ذكر أنه دخل تنيس فى سنة ٢٦٩ هـ فبنى عدة صهاريج وحوانيت فى السوق كانت تعرف بصهاريج الأمير .

والواقع أن أحمد بن طولون قام بعدة اصلاحات أخرى هامة فى مجال المشروعات العمرانية والهندسية كمقياس النيل بالروضة حيث تم تعميره ، كما قام باصلاح منارة الاسكندرية (١١) ، ولا شك أن هذه الأعمال المعمارية تطلبت الكثير من جهود الصناع والمهندسين ، فقد استغرقت

---

(١٠) ذكر الرحالة الاندلسى ابن جبير انه كان باخميم آثار ومصانع بنيان القبط والبربا التى ادهشته بنقوشها وما كان عليها من الكتابات والتصاوير على جدرانها . رحلة ابن جبير ، ص ٣٠ .

(١١) ذكر المقريزى انه أصلح أجزاء من المنارة وجعل فى أعلاها قبة من الخشب بيصعد اليها من داخلها ، كما كان قد تهدم أحد أركانها الغربية فقام ابنه خمارويه ببنائها . نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٩٢ .

السنوات الطوال والأموال الطائلة ، حتى أنه لم يستطع ارسال الأموال السنوية الى الخلافة كالمعتاد ، حيث بلغت جملة ما أنفقه على الجامع والبيمارستان والقناطر وحصن الجزيرة ومرمات الثغور نحو ستمائة وعشرون ألف دينار •

وتشير المصادر التاريخية الى أن حركة العمارة واقامة الدور والمنشآت لم تتأثر بوفاة مؤسس الدولة الطولونية فى عام ٢٧٠ هـ ، فقد استمرت حركة البناء فى عهد ابنه خمارويه وزاد نشاطها ، يصف ابن دقماق هذه الحركة قائلا : « ولم يفتر من البناء ولا الزيادة أيام حياته ، ثم لم يزل ابنه أبو الجيش خمارويه يعمر بعده ويزيد فيه ، وعمل فيه التاج وبركة الزئبق والقبة المذهبة ويقصد بذلك زيادته فى عمارة القصر الطولونى والميدان عما كان عليه •

ولا شك أن وصف ابن دقماق والمقريزى وغيرهما من المؤرخين لقصر خمارويه انما يدل على ما بلغه الدهانون والرسامون من رقى الفن وكمال الصنعة وخاصة فن التصوير ولا غرابة فى ذلك فقد تم طلاء جدران القصر كلها بالذهب الممزوج باللازورد ، وأصبح بعد الزيادات التى أدخلت عليه من أعجب مبانى الدنيا ، وقد أطلق عليه بيت الذهب •

أما بركة الزئبق التى شاع ذكرها فى الآفاق فى ذلك العصر ، فقد بلغ طولها خمسون ذراعا وعرضها خمسون ، وكان فى أركانها أساطين من الفضة الخالصة فيها زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة • وقيل فى وصفها (١٢) : وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية ، فكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب اذا تالق نور الزئبق ، ولا ريب أن تصميم هذه البركة وتنفيذها على هذه الصورة انما يعكس قدرة المهندسين وابداعهم بقدر ما يدل على حياة الترف والنعيم التى عاشها أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون •

وذكر المقريزى أنه لما فرغ خمارويه من جهاز ابنته قطر الندى ، أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد فكانوا

---

(١٢) قيل فى أسباب انشاء بركة الزئبق بين يدى القصر الطولونى أن خمارويه كان يعتريه الأرق وكثرة السهر ، فامر بعمل بركة وتملأ زئبقا ، وجعل عليها من الأدم ما يحشى بالريح ، وحتى ينتفخ ويحكم حينئذ شده وينزل الأمير الطولونى فينام عليه ، فلا يزال الفراش يرتج ويتحرك الزئبق حتى ينام متغلبا على الأرق الذى كان مصابا به • ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٢٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٦٢ •

يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فاذا دخلت المنزل وجدت لها قصرا قد فرش فيه جميع ما يحتاج اليه ، وعلقت فيه الستور ، وفيه من أنواع الأثاث والتجهيزات ما يصلح لميلها فى حال الاقامة • مما يدل على نشاط حركة البناء وازدهار العمران فى عصر الطولونيين •

وليس من شـك فى أن الطولونيين استخدموا بعض الفنيين ومهرة الصـناع من العراق للاستعانة بهم ربما للتخطيط فى بنـاء قصـورهم والمنشـآت الدينية والقناطر وغيرها وفقـا للأساليب الفنية أو الهندسية الشائعة فى بغداد أو سامرا ، لكن التنفيذ كان يقع دائما على كاهل الصناع والبنائين والحرفيين المصريين • وقد أثبتت حفائر الفسطاط أن الدور(١٣) كانت تبنى أسسها بالدبش وبالمونة والطين أو الطين المخلوط بالجير (١٤) وأحيانا كان البناءون يقومون برص الآجر على هيئة مداميك تختلف درجة انتظامها ، حيث تسقى بمونة الجير والرمل وقد يضـاف اليه القصرمل أو الحمرة •

أما الجدران فكانت من الآجر الأحمر الداكن شديد الصلابة ، وقد جرت عادة البنائين أنهم كانوا يصنعون الآجر مداميك أفقية متبادلة مدماك بالطول وآخر بالعرض ، أشبه ما هو عليه نظام البناء فى وقتنا الحاضر • وكانت تستخدم مونة الطين والجير وذلك فى البيوت قليلة الشأن ، أما الدور الهامة أو القصور فكانت تبنى من المونة المكونة من الجير والرمل أو الحمرة وهى الآجر المسحوق • وفى بعض الأحيان كانت هناك مون تخلط فيها الجص بالجير على نسب مختلفة ، ومن الجص الخالص والجير الخالص حسب ظروف البناء (١٥) •

---

(١٣) وسميت الدار دارا لتدويرها بالطوب الأحمر أو الحجر النحت وغيره وهذه صفة دور المدن وهى تختلف فى بنائها عن القرى فربما تبنى من الوحل أو الطين ، وقيل ايضا فى التسمية للدور لأن الشخص يدور ويرجع اليها • الشربينى : هز القحوف ، ص ١٩٠ •

(١٤) ترجع الحفريات التى اجراها على بهجت والبير جبرائيل فى سنة ١٩١٢م بالفسطاط ، الى تلك الفترة التى حكم فيها مصر أحمد بن طولون فى منطقة القطائع • ومن الجدير بالذكر أن القطائع خربت أيام الشدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر ، وهلك جميع من كان فيها من السكان ، وكانت تزيد على مائة ألف دار نزهة للناظرين • الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٠٦ •

(١٥) أجرى عباس حلمى دراسة مستفيضة على بيوت الفسطاط وانتهى الى نسبة جميع تلك الدور التى كشفت عنها الحفائر التى أجراها على بهجت وزميله البير جبرائيل الى العصر الفاطمى •

وفى داخل الدور فانهم كانوا يبيضون الجدران بالجير الخالص ، والجير المخلوط بالرمل أو بالجص ، وقد يضيفون اليه التبن ، وأما الطين المخلوط بالتبن فما كان يستعمل الا فى بيوت الفقراء ٠

وكان الصناع يعملون على رباط الجدران التى تشيد بالآجر بأخشاب توضع وضعا أفقيا ، ثم تربط بمسامير من حديد تدق فى خوابير قائمة أو منحرفة تدخل فى جنب الجدار ، وقد عثر على أمثلة عديدة من هذه الأربطة احكم صنعها ٠

ويصف الأصخرى الجغرافى مبانى الفسطاط فيقول : « ومعظم مبانيهم بالطوب طبقات ، وأكثر السفلى بها غير مسكون ، وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى طبقات » ، ولا شك أن فى هذا مبالغة اذ لم تكن لتصل فى علوها نحو ذلك ٠ وذكر المقريزى أن بيوت الفسطاط كانت مبنية بالبوص والطين ، ولعله كان يقصد بالبوص الخشب ، ولكنه لم يكن أكثر دقة فى تعميم البناء بالطين أو باللبن ، فان البيوت الطولونية قد شيدت جدرانها بالآجر على نحو ما كشفت عنه الحفائر بالفسطاط ٠

وكانت الزخارف الجصية للجدران أهم ما تميزت به العمارة الطولونية وكشفت الحفائر عن قيام الصناع والنقاشين بعمل تلك الزخارف من الجص الخالص ، وزخارف أخرى كان يتخذ فيها الجص بالآجر ٠ وتشبه الزخارف الجصية التى عثر على نماذج عديدة منها فى دور الفسطاط أو القطائع تلك الزخارف التى كانت سائدة بسامرا فى العراق ، مما يدل على أن طريقة الصناعة ومظاهر الزخرفة هذه قامت على أصول واحدة فى العهد الطولونى (١٦) ٠

وقد تبين من حفريات الفسطاط أن صناعة الجص فى مصر كانت منتشرة فى عهد الطولونيين ، وأن الزخارف الجصية كانت بسيطة (١٧) ،

---

(١٦) وقد تم العثور فى سنة ١٩٣٢م بالتلال المجاورة لأبى السعود على أطلال منزل طولونى واحتفظ متحف الفن الاسلامى بالزخارف الجصية التى عثر عليها فى أطلال هذا البيت ، كذلك كشفت حفائر دار الآثار العربية (متحف الفن الاسلامى الآن) عن جدران جزء من دار كبيرة بالآجر وعليها زخارف من الجص على النحو المتبع فى سامرا وفى الجامع الطولونى ٠ زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ج ١ ، ص ٦٣ ٠

(١٧) وهناك فرق فى الصناعة بين الزخرفة بالجص والزخرفة بالآجر والجص ، ومن الشواهد القديمة المؤرخة فى سنة ٣٠٧هـ ، وشاهد آخر يرجع الى سنة ٣١٣هـ وهما يكشفان تبيانا مدى اختلاف طريقة الرسوم والزخارف على كل منهما على بهجت : حفريات الفسطاط ، ص ١٢٩ ٠

فلم يستخدم فى الزخرفة غير لونين ، لون الطوب الأحمر الداكن والأبيض الجصى ، ولا شك أنهم كانوا يقصدون بذلك الاقتصاد فى النفقة وسهولة العمل لدى المزخرفين للدور والقصور ٠

ومما يدل على تقدم صناعة الجص فى العصر الطولونى تلك المجموعة من الشبابيك الجصية المفرغة بأنواع الزخارف النباتية ، ويحتفظ المتحف القبطى بنموذج من الجص للزخرفه النباتية من الطراز الطولونى (١٨) ، وعدة لوحات معمولة من الجص عليها رسوم تمثل القديس بطرس وهو يمسك بمفتاح ، ومنظر يمثل السيدة العذراء وهى جالسة تحمل الطفل يسوع المسيح (١٩) ٠ كما يحتفظ متحف الفن الاسلامى بألواح ونماذج أخرى مصنوعة من الجص عليها زخارف نباتية من أوراق وثمار ، وما عرف بعد ذلك بزخارف الأرابيسك أو التوريق (٢٠) ٠

وقد شاعت صناعة التماثيل الجصية فى عهد خماروية وكذلك الشبابيك الجصية فى العمارة الطولونية ٠ كما تقدمت صناعة شواهد القبور ونحتها من حجر الرخام وغيره من الأحجار ، وكانت فى بداية أمرهما بسيطة حيث يتم نقشها من الأحجار ٠ ويرجع الى هذه الصناعة وما أمدتنا به من الشواهد الفضل فى معرفة أسماء الكثير من الصناع والحرفيين من البنائين والطحانين والزياتين وغيرهم من أرباب الحرف المختلفة ٠

ومن أسماء البنائين التى وردت الينا عن طريق تلك الشواهد من عصر الطولونيين كان يحيى بن هرون البناء ، ويرجع تاريخ وفاة ابنته حجة صاحبة الشاهد الى شهر ذى الحجة سنة ٣١٥ هـ ٠ وذكر ابن دقماق من أسماء المهندسين فى عهد خماروية المهندس أحمد بن محمد العجيفى (٢١) ، وقد أسندت اليه مهمة اعادة ما تهدم من جامع عمرو حينما وقع حريق به ، وكان للكتابات الأثرية الفضل فى معرفة اسم الأمير وتاريخ الاصلاح للجامع ، حيث كتب اسم خماروية فى دائرة الرواق الذى عليه

---

(١٨) رقم السجل : ١٣٨٧٠ ٠

(١٩) رقم السجل : ١١٤٤٩ ، ١١٤٦٢ ٠

(٢٠) رقم السجل : ١٣٨٦٨ ٠

(٢١) لم يكن لقب مهندس يعنى نفس المعنى المعروف فى الوقت الحاضر ، وانما كان معناه أحيانا أقرب الى الصانع الفنى ٠ فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية ، ص ٣٠٩ ٠

اللوح الأخضر (٢٢) ، حدث ذلك في صفر سنة ٢٧٥ هـ ، يقول ابن دقماق عنها « وهى موجودة الآن وكانت عمارته فى السنة المذكورة » وهكذا كان لصناعة شـواهد القبور ونقشها ، كما كان للكتابات الأثرية على الجص وغيره من المواد أثر كبير فى ازدهار العمارة وفى معرفة أسماء صانعيها .

ومن أهم مظاهر تقدم البناء ما تشير اليه المصادر والكتابات الأثريه التى وصلت الينا من عهد خمارويه ، فقد ذكر المقريزى أنه قام ببناء دار الحرم وكانت تخص حرمـه وبلغت تكاليف ثمن الأرض وأجرة الصـناع والبنائين سبعمائة ألف دينار .

كما تصف الكتابات الأثرية ما كانت عليه المبانى فى عهد الطولونيين وما بذله القوم فى زخرفتها ، وكانت تتكون من الدهاليز والقاعات السفلى ، والرواشن المطلة على الجهات الأربعة (٢٣) ، وغير ذلك بما جاء فى الوقفيات التى صاغها أصحابها ، وقد ورد فى احدى هذه الكتابات ما نصه : « ان هذه الدار .. أحمد بن الحسن الأزرق بناها من فضل الله وعطائه سنة ٢٨٩ هـ » .

وتشير المصادر التاريخية الى شغف خمارويه وولعه بالبناء وزخرفته بالصور الجميلة ، ذكر أبو صالح الأرمنى أنه ابتنى غرفة بدير القصير ، كانت تطل على أربع جهات ، وكان الدير مزخرف وحوائطه بالصور الجميلة الصنعة ، ومنها صورة السيدة العذراء حاملة للسيد المسيح والملائكة عن يمينها ويسارها ، ويقول أيضا : « وكان خمارويه يقف عند هذه الصور ويتبصر فى حسن صنعتهم ويتعجب كثيرا من ذلك » .

وقد اشتهر من المهندسين أو الفنيين فى عهد الاخشيديين المهندس صالح بن نافع ، وذكر ابن سعيد أن محمد بن طغج الاخشيد طاب اليه أن يخطط له بستانه والقصر الذى شيده بالروضة بعد أن خلع عليه بامارة البلاد من قبل الخلافة العباسية ، وكان التخطيط يشمل تصميم القصر والبسـتان ودار الحرس ودار الغلمان وخزائن الطعام والملابس والفرش وما الى ذلك . وعندما عرض هذا التصميم أو الرسم فى رقعة كبيرة من الورق على الاخشيد استحسنه ، وسأل عن تكاليفه فقيل له ثلاثون ألف

---

(٢٢) نصب هذا اللوح الأخضر فى الموضع المشـار اليه الأمير عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون ، ولما احترق الجامع احرق ذلك اللوح ، فجعل أحمد بن محمد العجيفى مكان ذلك . المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١١٤ .

(٢٣) الروشن : جناح السطح أو المنظرة التى تشرف على خارج البيت : الشابشتى : الديارات ، ص ٢٨ ، حاشية .

دينار ، فطلب من المهندس صالح تخفيض قيمتها ، ثم أذن له بعد ذلك بالتنفيذ • وهكذا تدل رواية ابن زولاق المؤرخ المعاصر للاخشيديين على قيام المهندسين بعمل الرسومات الهندسية والمقايسات اللازمة بالتكاليف والنفقات قبل البدء في تنفيذ المشروعات بما يشبه تقريبا أعمال المكاتب الهندسية في وقتنا الحاضر •

ومما يعزز ذلك أن دور المهندس في ذلك الوقت لم يكن قاصرا على تصميم أو رسم وتنفيذ ما يستجد من المباني والمنشآت الحكومية وغيرها ، بل انه كان يقوم بمعاينة القديم منها وتقدير مدى صلاحية المبنى للسكنى من عدمه ، ولعل ما قام به المهندس على بن البواش خير دليل على ذلك ، فقد عهد اليه الاخشيد سنة ٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م بمعاينة وفحص كنيسة أبي شنودة في مدينة الفسطاط ، ووضع تقرير عنها بذلك ، وبعد أن تمت المعاينة أشار في تقريره الى أنها تبقى خمسة عشر عاما ، ثم يسقط موضع منها ، وتسقط بعد ذلك جميعها عند تمام الأربعين سنه وكان من أمرها ما قرره المهندس المذكور •

ومن أسماء المهندسين الذين أسندت لهم مهمة الاشراف على تنفيذ المشروعات العمرانية ، ومنها بناء القصر الذى عرف بالمختار كل من المهندس زقاق والمهندس ابن أبى الرداد ، ويبدو انهما كانا فى غاية الدقة باحكام صناعة البناء ، حتى قيل أن الاخشيد كان يفاخر أهل العراق بما تم انجازه على أيديهما فى بناء القصر أو البستان •

ويبدو أن الاخشيد كان شديد العناية بتجميل حاضرته ، كما كان يفعل ابن طولون ، فقد أشارت المصادر الى أنه أمر بانشاء بستان آخر فى شمال الفسطاط والذى عرف بعد ذلك بالبستان الكافورى • وقام الصناع والحدادون بصناعة الأبواب الحديدية له ، وكان ينزل به ويقيم أياما كاملة •

كما اهتم الاخشيد بعمارة المساجد واطلاق النفقات لها ، يذكر ابن سعيد انه كان اذا دخل شهر رمضان أطلق النفقات للمسجد الجامع ، وأمر بعمارة المساجد بالجص والبياض والخلوق والمصابيح والأئمة • مما يدل على شيوع استخدام الجص فى أعمال الزخرفة والبياض فى عهد الاخشيديين• ومن العمائر الاخشيدية التى تنسب الى الاخشيد البيمارستان وكان يعرف باسم البيمارستان الأسفل تمييزا له عن البيمارستان الطولونى •

ومن المنشآت الرئيسية التى شيدت فى العصر الاخشيدى « السبع

سقايات ، أنشأها أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر الفرات المعروف بابن حنزابه لينقل بها الماء لسكان الفسطاط حين أصبحوا يحتاجون فى موسم الجفاف الى جلب الماء ، وقد تم حفر بئر لينقل منها الماء الى السبع سقايات وحبسها لجميع المسلمين (٢٤) • وقد حفظ لنا المقريزى نص الكتابة التاريخية التى تفيد وقفية هذا العمل الانشائي الخيرى ، كما تدل على دقة المؤرخ فيما يسجله عن الآثار (٢٥) •

ونذكر من هؤلاء الصناع والمعماريين الذين جادت المصادر التاريخية بذكر نفر قليل منهم ، أبا بكر محمد بن الحسن النقاش ، فقد ذكر ابن خلكان أنه كان يعانى صناعة النقش فضلا عن اشتغاله بعلوم القرآن والتفسير ، وكانت وفاته فى سنة ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م • وكانت حرفة النقش شائعة ، فكانت الدور والقصور للأمراء والأعيان ومن دونهم من طبقات الناس تنقش على جدرانها وسقوفها وأبوابها وشبابيكها من أنواع التصاوير والزخارف الجميلة ، حيث كانت أبنيتهم ومصانعهم كما يقولون كالأقمشة المنسوجة بخيوط الذهب ، تفنن حائكها فى رقشها ونقشها •

كما برع الصناع فى صناعة الجص وعمل الزخارف الجصية ، وقد شاع استخدامها فى عصر الاخشيديين ، فأصبح الصانع يجمع بين حرفة البناء والجصاصة ، كما كان الجصاص يختص بقطع الأحجار وعمل الجص منها • وقد جرت العادة أن تكون أفانين الجصاصين خارج المدن • ومن هؤلاء الذين اشتهروا بصناعة الجص فى العصر الاخشيدى ، عثمان المكنى بأبى عمرو بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله الجوهرى المعروف بابن الجصاص • وقد توفى سنة ٣٥٥ هـ/ ابريل ٩٦٦ م (٢٦) •

---

(٢٤) أطلق المقريزى على عقدة البئر اسم بئر الوطاويط ، ولم تكن تعرف عند انشائها بهذا الاسم ، وقد ذكر أن السقايات التى بناها ابن حنزابة خربت بمرور الزمن وبنى فوق البئر وتولد فيها كثير من الوطاويط ، فعرفت بذلك • الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٣٣ •

(٢٥) يرجع تاريخ هذه الوقفية سنة ٣٥٥هـ ، وتعد من الوثائق الهامة عظيمة الشأن • نفس المصدر ، والصفحة •

Wiet : (Der Islam), vol.5, p. 172.

(٢٦) ورد اسمه فى كتابة اثرية حفائرية على شاهد من الرخام من مصر محفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة •

Wiet : Repertoire, tome 5, No, 1619, p. 9.

ويظهر من اسمه المكتوب على شاهد القبر أنه حفيد ابن الجصاص التاجر الجوهرى الذى صحب خمارويه وابنته قطر الندى الى بغداد ، وقد توفى ابن الجصاص سنة ٣١٥هـ كما سبقت الاشارة إليه فى ترجمته • أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ، ص ٢١٨ •

ولم تكن صناعة الجص والشبابيك الجصية وغيرها من المهن المتصلة بصناعة البناء قاصرة على الفسطاط وحدها ، بل كانت الاسكندرية وتنيس وغيرهما من المدن المصرية سواء في شمال البلاد أو في جنوبها ، ومما يدل على ذلك ما كان يوجد فى هذه المدن من مطاحن الجبس ومواقيد الجير ، فقد أشار ابن بسام الى كثرة المصانع بمدينة تنيس والحمامات الموجودة بها ، وما كان فيها من مطاحن جبس والمواضع التى يحرق بها الجير . كما وصف أهل تنيس بأنهم كانوا من الصناع المهرة فى فن النقش والتصوير والتلوين بالأصباغ ، كما كان منهم الرسامون والنحاتون وغيرهم من أصحاب الحرف والصناعات .

٣ ـ مظاهر تقدم فن العمارة في العصر الفاطمي

كان للفاطميين نشاط معماري ملحوظ في عاصمتهم المهدية بالمغرب (١) ، حيث شيدوا بها جامعا وقصورا ثم أحاطوها بسور شاهق من الحجر الأبيض المدعم والمزود بأبراج وبوابات عظيمة (٢) . وتدل آثار هذه العمائر على أن الصناع والبنائين الذين أمكن استخدامهم لدى الفاطميين قبل غزوهم لمصر في أنهم كانوا متأثرين بما حولهم من الطراز المغربي والأموي على السواء .

وقد بقيت مدينة المهدية حاضرة للدولة الفاطمية حتى خرج أبو يزيد ابن كيداد على الخليفة الفاطمي القائم ، وولى ابنه المنصور الخلافة سنة ٣٣٤ هـ ، وانتصر على أبي يزيد بالقرب من مدينة القيروان ، فاتخذ مدينة صبرة القريبة منها حاضرة لدولته سنة ٣٣٧ هـ فسميت المنصورية نسبة اليه .

وحين قدم جوهر الصقلي على رأس جيش المعز الى مصر ، كان أول تفكير له بعد استيلائه على الفسطاط عاصمة الاخشيديين في شعبان سنة

(١) المهدية نسبة الى أبي محمد عبيد الله العلوي الملقب بالمهدي ، وقد ابتدأ في بنائها في ذي القعدة سنة ٣٠٣هـ ، وكان يأمر الصناع بما يعملون من المباني والمنشآت فيها ، وقيل انه لما فرغ من بناء المصانع والقصور والدور قال : « اليوم أمنت على الفاطميات » يعني بنائه قد كانت مثار اعجاب الناس بحصونها المنيعة . المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٦ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٠١ .

(٢) فقد ذكر البكري أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات ، وأنه يدخل اليها من الجانب الغربي . وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدي لهذه المدينة بابين من الحديد لا خشب فيهما ، زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله ثلاثون شبرا ، واقيم بها ثلاثة وستون صهريجا عدا ما كان يجري فيها من القنوات . المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٣٠ .

٣٥٨ هـ (٣) ، هو تخطيط حاضرة جديدة تفي بأغراض الدولة الفاطمية ٠ وقد وقع اختياره في بناء القاهرة على الجهة الشمالية من مدينة القطائع الطولونية ، وكان تصميمها على شكل مربع تقريبا (٤) ٠

وتدل رواية المقريزي التي نقلها عن ابن زولاق المؤرخ المعاصر لقيام دولة الفاطميين على أن القائد جوهر سارع في بناء القصر الذي عرف فيما بعد بالقصر الكبير الشرقي ، حتى قيل انه لم يلبث أن اختط موضعه ، وحفر أساسه ، ولم يمض على نزوله بعسكره في هذا الموضع سبعة أيام ٠

ومهما قيل في الروايات التي تناقلها المؤرخون المسلمون والاستعانة بالمنجمين في اختيار الطالع لوضع أساس القاهرة أو سورها (٥) ، فانها لا تعدو تلك الروايات الأخرى التي تكررت من قبل عند الحديث عن بناء

---

(٣) يكاد يشبه موقف جوهر في عدوله عن اتخاذ الفسطاط حاضرة لمصر ، موقف أبي جعفر المنصور حينما فكر في بناء بغداد ، فقد كانت أمامه حواضر اسلامية عدة يستطيع أن يتخذ احداها حاضرة لخلافته مثل المدينة أو الكوفة ودمشق وذلك لأسباب رآها عديدة ٠ ويبدو أن جوهر لم يكن يفعل شيئا بدون مشورة مولاه المعز ، فقد ألمح ابن زولاق الى أن جوهر قاد العسكر بأسره الى المناخ الذي رسم له المعز النزول به ، كذلك نقل المقريزي عن ابن زولاق أن القائد الفاطمي انما عمر القصر بترتيب ألقاه اليه المعز ٠

اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٥٨ — ١٦٠ ٠

(٤) لكن يبدو أن جوهر لم يتخذ رأي مولاه المعز في بناء سور القاهرة ، فقد نقل المقريزي عن ابن الطوير المؤرخ الفاطمي أن المعز حينما جاء الى القاهرة عام ٣٦٢هـ لم يعجبه مكانها ، وكان يرغب في اقامتها عند المقس بالقرب من شاطىء النيل ٠ أو فوق سطح الجرف المعروف بالرصد حتى تكون قلعة لمصر على حد قوله ٠

نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٦١ ٠

(٥) وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذه المدينة بهذا الاسم فقال ابن دقماق : « انها سميت كذلك لأن اساسها شق على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر ، وهو كوكب يقال له « القاهر » ٠

ويقول المقريزي : « ان القائد جوهر لما أراد بناءها ، أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهرة مصر ، لتقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبدا فاختاروا طالعا لوضع الأساس ، وطالعا لوضع السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال : اذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك ، فاتفق أن غرابا وقع على جبل من تلك الجبال التي فيها الأجراس ، فتحركت الحبال كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فالقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة ، وبنوا فصاح المنجمون « القاهر الطالع » فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه ويقال ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة ٠ الانتصار ، جـ ٥ ، ص ٣٥ — ٣٦ ، اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٥٩ ٠

مدينة بغداد عاصمة العباسيين أو فى بناء الاسكندرية قبل ظهور الاسلام بقرون طويلة ٠

ولا شك أن عمارة القصر الكبير الشرقى الذى أشرف على بنائه جوهر قد احتاجت لمئات العمال والصناع المهرة،حيث أقيم على مساحة واسعة بلغت نحو سبعين فدانا ، ليكون سكنا مناسبا للخليفة وأتباعه ومقرا لدواوين الحـــكم ٠

أما سور القاهرة الذى بناه جوهر فكان من اللبن ، وبلغ عرض جداره عدة أذرع ويسع أن يمر به فارسان ٠ وكما عمل المهندسون على جعل القاهرة حارات للواصلين بصحبة الخليفة المعز حينما قدم الى عاصمة ملكه عام ٣٦٢ هـ ٠

ولمـا تم تخطيط القـاهرة أقام جوهر أول مسجد بها عـرف بجامع القاهرة أو الجامع الأزهر (٦) ، وكان بداية بنائه فى جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وفرغ البناء منه فى رمضان سنة ٣٦١ هـ ٠

وفى عهد العزيز بالله أخذت حركة البناء تزداد نشاطا وازدهارا ، فقد تم انشاء القصر الغربى وما أطلق عليه قصر الذهب ، كما بدىء فى بنيان جامع الحاكم وذلك فى عام ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م وأتمه من بعده ابنه الحاكم ٠ وفى عهده أيضا بدىء فى انشاء جامع القرافة عام ٣٦٦ هـ وكانت تنفق عليه السيدة تغريد أم الخليفة العزيز ، وقد تم بناؤه على غرار الجامع الأزهر بالقاهرة وكان من أهم مساجد العصر الفاطمى فهو ثانى الجوامع بعد الأزهر ٠

ويصف القضاعى جامع القرافة وطريقة بنائه وما بلغه من عظم التطور الهندسى والمعمارى فيقول : « أما ايوان القبلة فله عدة أبواب عدتها أربعة عشر بابا يتقدم كل منها سقيفة مقبية تقوم على عمودين من الرخام وهو مكندج ومزوق باللازورد والزنجفر والزنجار وأنواع الأصباغ » ٠

أما سقوف الجامع فقد قام الدهانون بزخرفتها بألوان عديدة ، كذلك زخرفت حناياه وعقوده بالدهانات وأنواع الأصباغ وقد أشرف على بنائه

---

(٦) تم بناء جدران الجامع من الآجر وأيضا تيابه ودعاماته ، وقد جلبت الأعمدة جميعها وتيجانها من آثار قديمة سابقة ، حيث اقتصر عمل الصناع والبنائين على تنسيق هذه الأعمدة القصيرة فوق الأسس التى أعدت لحمل العقود ورفعها الى أقصى علو تستطيع أن تحتمله ، المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ ١ ، ص ٥١ ٠

عبد العزيز الفارسى المحتسب ، كما يرجع الفضل فى زخرفته الى الصناع البصريين وبنى المعلم المزوقين الذين اشتهروا بصناعة النقش والتصوير فى العصر الفاطمى .

وقيل انه كان قبالة الباب السابع من أبواب الجامع قنطرة على شكل قوس مزوقة تنتهى عند حافتها شاذوران من الرخام(٧) مدرجة بدرج ، وكانت هذه من أفخر الصنائع عند المصورين ، وهى من صناعة بنى المعلم المشهورين ، وكان الصناع يأتون اليها . ليعملوا مثلها فما يقدرون .

وقد شجع الفاطميون المهندسين والصناع من أهل الذمة المصريين ، كما عملوا على استدعاء مهندسين وصناع من الخارج كهؤلاء البصريين وغيرهم ، حتى أصبحت القاهرة فى عهد الخليفة العزيز مقرا للمهندسين .

ولا شك أن هؤلاء الصناع والمهندسين كان لهم دور هام فى تطوير أساليب العمارة فى العصر الفاطمى ، فمن ذلك ما أحدثه المهندسون فى بناء الجامع الأزهر من الأقواس المدببة التى ترتكز على قواعد مرتفعة ، وكان جامع الحاكم الذى بدأ البناء فيه فى عهد العزيز وأتمه الحاكم بأمر الله من بعده . ومن الجدير بالذكر أنه كان أول جامع فى القاهرة تم بناؤه من الحجارة (٨) .

ومن المساجد الهامة التى أقيمت فى عهد الحاكم وكان لها أثر كبير فى ازدهار العمارة ، مسجد الحاكم ومسجد المقس (٩) ، ومسجد راشده (١٠) ، وكان يشارك فى بنائها جملة من الصناع من البنائين والنجارين والحجارين والمرخمين والفعلة ، كما يوضح تطور أشكال الزخارف.

---

(٧) الشاذوران : هى الفسقية .

وقد جاء ذكرها فى احدى الكتابات الاثرية ، يبدو انها وقفية لأحد دور مصر أو الفسطاط .

Wiet ; Repertoire, tome 3, No. 235, p. 79.

(٨) يرى Wiet أن استعمال الأحجار فى بناء الجوامع انما هو من مستحدثات الفاطميين ومميزات العمارة فى عصرهم .

(٩) تم تشييد جامع المقس على شاطىء النيل بالقرب من المقس ، وقد أوقف عليه الحاكم بعض الاوقاف للصرف على ما يحتاجه من العمارة ومن ثمن الحصر العبدانية وخلافه .

(١٠) بنى جامع راشدة بظاهر مصر عام ٣٩٣هـ وكان متولى بنائه الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد وقد قام بتصحيح محرابه أبو الحسن على بن يونس عالم الرياضيات والفلك المشهور فى العصر الفاطمى ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

الجديدة ، ولا سيما الزخارف الجصية والحجرية التى قام المزخرفون بعملها فى مسجد الحاكم ·

كذلك نلحظ جمال الصنعة والزخارف هذه فى المساجد الأخرى التى شيدت فى عهد المستنصر وحتى أواخر أيام الفاطميين ، مثل مسجد الجيوشى الذى أقيم على تلال المقطم فى شهر المحرم سنة ٤٧٨ هـ (١١) · وجامع الأقمر الذى كمل البناء فيه أمام قصر الخلافة فى عهد الخليفة الآمر ووزيره المأمون (١٢) · ومن الجدير بالذكر أن هذا المسجد لم يكن جامعا ، فقد سجل المقريزى أنه : « لم تكن فيه خطبة لكنه يعرف بالجامع الأقمر ·

أما جامع الصالح طلائع فقد بناه الوزير الفاطمى خارج باب زويلة ، ومما يذكر أن الصالح طلائع ، لما خيف على مشهد الامام الحسين رضى الله عنه ، اذ كان بعسقلان من هجوم الفرنج وعزم على نقله ، وقد بنى هذا الجامع ليدفنه به ، فلما فرغ منه لم يمكنه الخليفة الفائز من ذلك وقال : « لا يكون الا داخل القصور الزاهرة ، وبنى المشهد الموجود الآن ودفن به » ·

ومما يذكر أن الوزير الفاطمى الصالح طلائع فى عهد الفائز والعاضد، انشأ مسجد آخر بخط جامع القرافة عرف بجامع الأولياء ، وقد بنيت أعلاه عدة مناظر وكانت عمارته متقنة ·

وقد ذاعت شهرة جامع الصالح طلائع فى أواخر أيام الفاطميين وذلك على الرغم من عدم اقامة الخطبة به الا بعد قرن من الزمان ، وذلك فى أيام المعز أيبك التركمانى أول سلاطين المماليك · ولا شك أن هذه الشهرة التى اكتسبها لما اشتمل عليه من المبانى الملحقة به فضلا عن الزخارف الجصية، وتلك النقوش الكتابية التى تتضمن اسم الخليفة الفائز بنصر الله واسم وزيره الصالح طلائع بن رزيك (١٣) ·

---

(١١) قصد المعماريون ان يكون ذلك الجامع مشهدا ، فهو أول مسجد معروف فى القاهرة كان يضم ضريحا ، كما قام البناؤون بتشييده من الحجارة والآجر خاصة العقود والسقف والعتبة والمئذنة · وقام المزخرفون بدهان محرابه وزخرفته بالزخارف المنقوشة على الجص · ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٥٩ ، تراث الاسلام ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ ــ ١٤٥ ·

(١٢) كمل البناء فيه سنة ٥١٩هـ ، وقد سجلت الكتابات الكوفية المنقوشة على واجهته اسم الامام الآمر بأحكام الله والسيد الأجل المامون أمير الجيوش وكافل قضاة المسلمين · للمقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ ، تراث الاسلام ، جـ ٢ ، ص ١٤٦ ·

(١٣) يحتفظ الفن الاسلامى بواحد من النوافذ أو الشبابيك الجصية المنقولة من جامع الصالح طلائع وتبدو فيه الكتابات الكوفية والزخرفة بالفروع النباتية ·

وقد ذكر المقريزى أنه بنى فيه صهريج عظيم تملؤه ساقية أقيمت على الخليج الذى يطلق عليه خليج أمير المؤمنين ، كذلك الحقت به المجارى • ومجموعة من الأبنية شيدت أسفله وكانت تستخدم مخازن وحوانيت ترصد ايراداتها لاصلاح المسجد والانفاق عليه ، وقيل انه كان مسجدا « معلقا » وذلك لعلو مبانيه عن مجموعة الحوانيت التى كانت تمتد تحت مؤخرة المسجد وجهته الشرقية •

وكان يقع باب المسجد الرئيسى بواجهته الغربية وأمام هذا الباب رواق قائم على أربعة أعمدة من الرخام ، ويحمل عقودا حافاتها محلاة بالزخارف • ولهذا الجامع صحن كبير حوله أربعة ايوانات وعقود محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتابات كوفية على شكل أزهار وفروع نباتية جميلة • مما يدل على ما بذله الصناع والمرخمون وغيرهم من الجصاصين فى بناء وتعمير هذا الجامع فى أواخر أيام الفاطميين •

ولا شك أن عمارة المساجد والعناية بها لم تكن قاصرة على الخلفاء والوزراء الفاطميين ، بل ان هناك العديد من المساجد التى أقامها التجار وأصحاب الحرف فضلا عن الموسرين وغيرهم من عامة الشعب • ونذكر منها على سبيل المثال المسجد الذى بناه ابن النجار الزيات وعرف بمسجد غربى الخندق ، ومسجد الفراش ، ومسجد ابن الرداد ، ومسجد الفاخورى وكان يعرف بمسجد البطحاء ، وما أقامه أحد الطباخين بالقرب من الرصد •

ومهما قيل عن مبالغة المقريزى وما كانت القرافة الكبرى بظاهر الفسطاط أو القاهرة تضمه من آلاف المساجد (١٤) ، فانه لا شك يعطينا دليلا قويا على النهضة المعمارية الكبرى التى تجلت فى تعمير المساجد والأضرحة أو المشاهد فى هذه المنطقة التى أفاض المؤرخون فى ذكر أسماء من عمروها وفى سرد مناقبهم وآثارهم الخالدة • كما تجلت فى زخرفة هذه المساجد من الخارج ، وفيما قام به البناءون من فتح الكوات فى الحوائط لتخفيف مسطحاتها ، واحاطتها بالزخارف الجصية الهندسية وعناصر الزينة حول الواجهات والنوافذ بها •

ومن الجدير بالذكر أن تعمير المساجد لم يكن قاصرا على الفسطاط أو القاهرة زمن الفاطميين ، وانما كانت عمارة المساجد فى سائر المدن المصرية بطول البلاد وعرضها حتى فى القرى • يشير المقدسى الى هذه الحقيقة فيقول : « ولا مدينة فى مقياس علمنا هذا الا بمنبر » •

---

(١٤) قيل انه كان بالقرافة الكبرى اثنا عشر ألف مسجد • نفس المصدر ، ص ٤٦٠ •

كمـا يصف ابن جبير ما كانت تحفل به الاسكندرية من المسـاجد والجوامع ويقول عنها : « أنها أكثر بلاد الله مساجد حتى أن منهم من يقول أن مساجدها اثنا عشر ألفا » • مما يدل على كثرة المنشآت الدينية بها ، ولا شك أن الكثير من هذه المساجد تم بناؤها أيام الفاطميين •

ولم تكن منطقة الصعيد الأعلى أو صعيد مصر عموما بأقل من جهـة الاسكندرية وتنيس ودمياط وغيرهم فى شمال البلاد ، فقد تم بناء العديد من المسـاجد فى كل من أسـوان وقفط وقوص واسنا وغيرها من المدن المصرية ، ولا شك أنها بقدر ما أسهمت هذه الجوامع فى نشاط الحركة العلميـة فى العصر الفـاطمى ، فانها شغلت الكثير من أصحاب الحرف والصناعات من البنائين والنقـاشين والمرخمين وغـيرهم من الدهانين فى تعميرها •

ومن أسماء البنائين الذين وردت توقيعاتهم على المنارات أو المآذن ، حاتم البناء وولده ، كما أوضحت الكتابة الأثرية التى عثر عليها فوق منارة بلال ، وهى تؤلف شريطا دائريا بأعلى هذه المنارة لاحدى المساجد التى أقيمت فى مدينة أسوان عام ٤٧٥ هـ •

كما تشير هذه الكتابات الأثرية المحفورة فى لوحات الرخام أو شواهد القبور الى أن الصناع المصريين وهؤلاء المزخرفين لم يكن دورهم قاصرا على بناء المساجد المصرية داخل البلاد وانما كانت الدولة الفاطمية ترسل بهم الى بلاد الشام وغيرها للمشاركة فى تعمير المساجد خاصة تلك المساجد والجوامع ذات الشهرة مثل مسجد قبة الصخرة بالقدس ، ومن المعروف أن هذه البلاد كانت تابعة للخلافة الفاطمية (١٥) •

عمارة القاهرة وصناعة الآجر والرخام :

أما عن عمارة القاهرة وتشييد الدور والقصور بها فقد أخذت تزداد اذ أصبحت مقر سكنى الخليفة ورجال القصر ودواوين الدولة وخزائنها العديدة مثل خزائن السلاح والخيم والفرش والأمتعة ، وخزانة البنود التى كانت تضم ثلاثة آلاف صانع من أمهر الصناع فى سائر الصناعات التى يحتاج اليها البلاط الفاطمى •

---

(١٥) من هذه الكتابات الأثرية ، كتابة جاء نصها : « بسملة أمر بعمارة هذه القبة الامام أبو الحسن على الظاهر لاعزاز دين الله الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، وجرى ذلك على يد عبده الأمر ثقة سيد الدولة على ابن أحمد أثابه الله فى سنة ثلث عشرة وأربعمائة » •

Wiet : Repertoire : tome 6, No. 2328, p. 76.

وقد اهتم الخلفاء الفاطميون بالزيادة فى تلك القصور والمناظر التى تم تشييدها منذ مجيئهم الى القاهرة (١٦) ، نقل المقريزى عن ابن سعيد قوله : « وقد عاينت فيها ايوانا يقولون انه بنى على قدر ايوان كسرى الذى بالمدائن وكان يجلس فيه خلفاؤهم ، ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار » كما أوضح ابن سعيد اهتمام الفاطميين بزخرفة القصور ودهانها حيث قال : « وأبصرت فى قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس ذكر لى أنهم كانوا يجددون تبييضها فى كل سنة » .

وكان التخطيط يسبق البنـــاء أيام الفـاطميين ، حيث كان يحضر المهندسون المفوضون بالعمل فيعمدون الى ذلك الفضاء أو العرصة كما يذكر عبد اللطيف البغدادى فيقسمها المهنـدس فى ذهنه ويرتبها بحيث يمكن الاستفادة بالأجزاء أو المساحات الأخرى ، فيتم تعميرها أو اقامة المبـانى عليها ، ثم يعهد الى جزء آخر ، ولا تزال أعمال التخطيط الهندسى كذلك حتى يكتمل العمران بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك .

كما أوضح الرحالة البغدادى طريقة حفر الأساس لمبانيهم بدوجات أعمق حتى تظهر النداوة وثرير الماء ، وكان كلما نقع الماء نزحوه من الطين والرمل ويضعون فيها من كتل خشب الجميز أو نحوه ، ويستمرون فى الحفر تحت كتل الخشب ، فكلما تخلخل ما تحته وثقل بما عليه من أحمال البنـاء نزل ويتكرر ذلك .» (١٧) ، وهى تشـبه طريقة حفر الآبار التى تبنى حديثا حيث يتم تعميقها حتى يصل الغواصون والبناءون الى المياه الجوفية .

وقد بلغ من أحكام صناعة البناء وقدرة المعماريين أنهم بنوا السراديب والممرات التى تصل بين القصر الشرقى والقصر الغربى تحت الأرض فى الميدان ، أو ما عرف بميدان بين القصرين ، حيث كان بامكان الخليفة ان يسير

---

(١٦) أحصى المقريزى من القصور التى قام الفاطميون ببنائها والمناظر بخلاف القصر الكبير الشرقى الذى بناه القائد جوهر الصقلى لمولاه المعز لدين الله فكان منها قصر الذهب وقصر الشجرة ، وقصر الشوك ، وقصر الزمرد وقصر النسيم ، وقصر الحريم ، وقصر البحر ، وهو يصفها بقوله : « وهذه كلها قاعات ومناظر داخل سور القصور الزاهرة » . الخطط ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

(١٧) وقد شاع تعميق الأساسيات للقصور والمبانى فى ذلك العصر ، فمما يذكر أن معز الدولة بن بويه أمر بأن تحفر الأساسات للقصور التى رغب فى تشييدها فى بغداد الى عمق ست وثلاثين ذراعا ، وقيل ان تكاليف عمل هذه الأساسات العميقة بلغ نحو ثلاثة عشر مليون درهم . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ .

بها راكبا بغلته (١٨) • كما تدل رواية ناصر خسرو على شيوع استخدام الآجر والجص والأحجار في تشييد تلك المباني والقصور فهو يقول عنها : « وكانت بيوتهم من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة ، وهي بعيدة عن بعضها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر » •

وكان الفاطميون يعملون على تنافس المصورين أو المزوقين في زخرفة جدران المباني والقصور والجوامع ، فقد ذكر القضاعي أنه كثيرا ما كان الوزير اليازوري يعمل على اجراء المنافسة بين هؤلاء المصورين المشهورين ، ويغري بعضهم على بعض ، فمن ذلك ما جرى بين القصير وابن عزيز في مجلسه وذلك لشدة غرامه ، وما كان يهواه من النظر الى الكتب المصورة أو الصور التي كان يقوم المزخرفون برسمها على الجدران •

ونقل المقريزي عن القضاعي وصفه لأحد هذه المجالس في عهد الخليفة المستنصر ، حيث قال : « وقد حضر بمجلسه المصوران القصير وابن عزيز ، فقال ابن عزيز أنا أصور صورة اذا رآها النـــاظر ظن أنها خارجة من الحائط فقال القصير : لكن أنا أصور صورة اذا رآها الناظر ظن أنها داخلة في الحائط ، فقالوا : هذا أعجب فأمرهما أن يصنعا ما وعدا به فصورا صورة راقصتين في تجويف حنيتين مدهونتين متقابلتين هذه ترى ، كأنهـا داخلة في الحـائط ، وتلك ترى كأنها داخلة في تجويف الحنية ، وصور ابن عزيز راقصة بثياب حمر في صورة صفراء كأنها بارزة من الحنية ، فاستحسن الوزير اليازوري ذلك ، وخلع عليهما ، ووهبهما كثيرا من الذهب •

كما ذكر أنه كان بدار النعمان بالقرافة من عمـل الكتامي صـورة يوسف عليه السلام في الجب وهو عريان والجب كله أسود ، اذا نظره الانسان ظن أن جسمه باد من دهان لون الجب ، وذلك مما يدل على ما بلغه هؤلاء النقاشون والمصورون من تقدم في فن الزخرفة والتصـوير أيام الفاطميين •

ومن الذين اشتهروا في أعمـال الدهان والزخرفة في ذلك الوقت عبد الله بن الحسن المزوق ، وقد ورد اسمه على لوحة تذكارية لعمـارة أجريت بالمسجد الأقصى سنة ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م ، كما ذاع صيت بني المعلم في تزويق وزخرفة القصور والجوامع بالقرافة وغيرها • وقد ذكر المقريزي أن القصير المصور كان يغالي في أجرته نظير أعماله في الزخرفة والتصوير ،

---

(١٨) يصف ناصر خسرو ذلك السرادب وسقفه المحكم وجدران القصر التي بنيت من الحجر المنحوت بدقة فيقول : « كأنها قدت من صخر واحد » سفر نامه ، ص ٤٩ •

مما استدعى اليازورى وزير المستنصر أن يعمل على احضار بعض المصورين مثل ابن عزيز وغيره من العراق لمحاربة القصير فى مغالاته فى تقدير الأجر واحتكاره لفن التصوير حينذاك ٠

وكان ممن اشتهر من الدهانين أو الرسامين أيضا كل من المزخرف الكتامى والنازوك ، حيث كانت لهم أعمالهم الفنية فى ذلك العصر ، ومن أهم الصور التى رسمها المزخرفون ما عثر عليه من بقايا أو أجزاء من الحمام الفاطمى ، وقد رسم بألوان مائية على الجص حمامتين متقابلتين بينهما زخرفة نباتية مورقة ، ورسم طائر يحمل فرعا نباتيا فى منقاره (١٩) ٠

وتشير المصادر الى تلك الزيادات التى أحدثها أمير الجيوش فى بناء سور القاهرة فيما بين باب زويلة وباب الفتوح ، حيث تم بناء باب زويلة ، ونقل باب النصر الذى بناه جوهر الى المكان الذى به الآن وقد ذكر المقريزى أن بدر الجمالى استدعى لبناء تلك الأبواب ، بعض المهندسين الأجانب ، فقدم ثلاثة اخوة من مدينة الرها . حيث قام كل واحد منهم ببناء أحد الأبواب الثلاثة ٠

كما ذكر ابن ميسر أنه تم تشييد باب زويلة عام ٤٨٥ هـ ولم تعمل له باشورة ، كما هى عادة أبواب الحصون لكونه عمل فى بابه زلاقة كبيرة قام الحجارون بعملها من حجارة الصوان ، بحيث اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على هذه الحجارة الصوان ٠

ويؤكد فان برشم أن الأبواب الثلاثة الجديدة ، انما تعكس ذلك الطراز الذى أدخل على عمارة القاهرة الحربية لأول مرة ، بمعرفة هؤلاء المهندسين الأجانب (٢٠) ويستدل على ذلك بما عثر عليه من أطلال وبقايا آثار تلك العمارة الحربية فى مدينة القسنطينية ونيقية والمدن البيزنطية الأخرى ٠

وكان أهم ما زين به المعماريون باب النصر ـ أحد تلك الأبواب الثلاثة ـ تلك الفتحات المربعة على خلاف ما كان متبعا فى بناء الأروقة

---

(١٩) تم اكتشاف أجزاء من هذا الحمام الفاطمى أثناء تلك الحفائر التى أجراها أعضاء متحف الفن الاسلامى عام ١٩٣٢م ٠ رقم السجل : ١٢٨٨٢ ٠

(٢٠) قيل ان الذى وضع تصميم الأسوار والأبواب للقاهرة هو أحد المهندسين الأقباط ، فقد ذكر أبو صالح الأرمنى أنه كان يوجد بالقرب من كنيسة يوحنا المعمدان قبر يوحنا الراهب الذى هندس سور القاهرة وأبوابها فى الخلافة المستنصرية ووزارة أمير الجيوش بدر الجمالى ، كما ذكر أنه كان يوجد لوح من الرخام على هذا القبر يحمل اسمه ٠ تاريخ أبى صالح الأرمنى ، ص ٦٥ ٠

بالمساجد الفاطمية ، والدرجات الحلزونية والأفاريز الرائعة ، والدروع المبنية ، وتلك الكتابات الكوفية المنقوشة الجميلة (٢١) ٠

ولا شك أن هذه الأبواب الثلاثة التى تم بناؤها حول القاهرة كانت احدى مظاهر تقدم فن المعمار فى العصر الفاطمى ، ومما يذكر أن بدر الجمالى حينما ولى الوزارة فى أيام المستنصر عمل على زيادة المبانى وعمارة القاهرة ، وأباح للناس من الطوائف المختلفة ، أن تعمر ما شاء لها مما خلا من الفسطاط فأخذ الناس ما كان من أنقاض الدور وغيرها وعمروا بها المنازل فى القاهرة ٠

وقد شجع على ذلك انتشار حرفة الطوابين وصناعة الطوب الأحمر أو الآجر ، وكان هؤلاء الطوابون يعملون على اقامة أقمنة الطوب وحرقها ، ويشير الى ذلك المقريزى عند حديثه عن بركة الرطلى (٢٢) ، التى عرفت ببركة الطوابين لكثرة ما كان يعمل فيها من الطوب ، كما يذكر المقريزى أنه لما كثرت المبانى والعمائر فى حارة البيازرة ، أمر الوزير المأمون بعمل الأقمنة لحريق الطوب على شاطىء الخليج ، وكانت غالبية الدور والقصور الفاطمية وغيرها من المنشآت العمرانية تبنى من الآجر أو القرميد (٢٣) ، ومن الحجارة فى العصر الفاطمى ٠

ويصف عبد اللطيف البغدادى المبانى والمنشآت التى أقيمت أيام الفاطميين وما كان يستخدم فيها من الآجر والأحجار فيقول : « وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب فى الغاية ، ويجعلون منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ، ويبنون

(٢١) تعبر هذه الكتابات الأثرية المنقوشة على باب النصر عن عقيدة الفاطميين ومذهبهم وقد أورد المقريزى نص الكتابات جاء فى أعلاها « لا اله الا الله محمد رسول الله ، وعلى ولى الله ، صلوات الله عليهما » ٠ الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٦٩ ،

Lane-poole : A History of Egypt, pp. 153, 155.

(٢٢) كانت من جملة ارض الطبالة التى منحها المستنصر لاحدى النساء وكانت تسير أيام المواكب وحولها طائفتها تضرب بالطبول وتنشد الأشعار ، وكانت هذه الأرض تقع على جانب الخليج الغربى بجوار المقس ، نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٥١٤ ، ٥٨١ ٠

(٢٣) القرميد بالكسر يطلق على الآجر وعلى ما يطلى به كالجص والزعفران ٠ المصباح المنير ٠

(٢٤) ذكر المقريزى أنه كان يطلق لكل مشهد من مشاهد القرافة خمسون درهما فى الشهر برسم الماء ، حيث لا تخلو المصانع ولا الأحواض من الماء أبدا ولا يعترض أحد من الانتفاع به ٠ الخطط ، جـ ٣ ، ص ١٩٥ ٠

بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر فى شكل طوبهم على نصف طوب العراق ، ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمــة » •

ومما لا شك فيه أن الاقبال على شراء الطوب واستخدامه فى المبانى التى أقيمت فى القــاهرة وفى الفسطاط وغيرها من المــدن المصرية ، قد ازداد بكثرة العمران فى هذه المدن ، وكما يذكر ابن خلدون فان الحاجة تزداد الى كثرة المواد والآلات حينما يعظم عمران المدن ويكثر ساكنيها ، فاذا تراجع العمران ، وقل عدد السكان فانه تقل الصنائع لأجل ذلك » •

ولا شك أن بنــاء الكثير من المصانع التى ألحقت بخدمة القصــور الفاطمية وغيرها من المناظر والجوامع والمساجد ، خاصة ما تم بناؤه منها بالقرافة والصهاريج العظيمة لحفظ الماء بها (٢٤) ، انما كانت من الآجر والرخام ، وكما تشــير المصـــادر الى بناء العــديد من هذه المصـــانع بمدينة تنيس (٢٥) •

كما يصف ابن جبير مبانى الاسكندرية وما بلغته من الدقة والتخطيط وما أثار اعجابه من هذه المصانع فهو يقول : « ومن العجب أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها ، فهو أعتق وأمتن لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض » •

ومن المنشآت الهامة التى شاع استخدام بنائها من الآجر والرخام وغيره من الجص تلك الحمامات (٢٦) ، ويعطينا عبد اللطيف البغدادى صورة معبرة عن تلك الطريقة التى كان البناءون يشيدون بها الحمامات زمن الفاطميين ، وأعمال الزخرفة لجدرانها وسقوفها فضلا عن الأرضيات الرخامية المجزعة ، وتلك الجامات ذات الألوان المختلفة بأصباغها الصافية ، بحيث اذا دخلها الانسان لم يؤثر الخروج منها على حد قوله •

ولا شك أن وفرة أحجار الرخام وغيرها فى أنحاء متفرقة من البلاد ، وخاصة تلك التى كان يتم قطعها من محاجر أسوان وتحمل عبر النيل كما

---

(٢٥) يصف ناصر خسرو تلك المصانع واحكام بنائها وتشييدها تحت الأرض فيقول : « وهى قوية البنيان وتسمى المصانع فحين يزيد ماء النيل ويطرد الماء المالح من هناك تملأ هذه المصانع بماء النيل الذى يجرى اليها » سفر نامه ، ص ٣٩ •

(٢٦) ذكر المسبحى أن العزيز بالله الفاطمى كان أول من انشا الحمامات بالقــاهرة ، وكان العديد من أصحاب الحرف يعملون بها ، مثل الحمامى والقيم والزبال والوقاد والسقاء وغيرهم • الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ ، آدم متز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ •

أشرنا من قبل حيث يتم استخدامها ، كانت احدى الأسباب الهامة فى بناء تلك الحمامات وكثرتها على هذا النحو فى مصر الفاطمية (٢٧) ٠

ومما يدل على شهرة مصر بصناعة الرخام وشغف الفاطميين باستعماله فى قصورهم وحماماتهم ، أنهم كانوا ينحتون منه الشيء الكثير ويعملون على اختزانه ، فقد ذكر المقريزى أنه لما أراد أحد المماليك بناء خانقاه عثر على مغارة كبيرة تحت الأرض وعندما فتحوها لم يجدوا بها سوى رخام كثير ، كان من جملة الذخائر والتحف الفاطمية ٠

وقيل ان القاضى مكين الدولة الحسن بن حديد بالاسكندرية كان له بستان يتنزه فيه ، به جرن من رخام قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته ، وكان يباهى به أهل عصره ، فوشى به للبدوية محبوبة الخليفة الآمر بأحكام الله ، فطلبته من الخليفة ، فانفذ فى الحال باحضاره ، وصار الى البناء المعروف بالهودج (٢٨) بعد أن تم خلعه من مكانه واحضاره من الاسكندرية ٠

وبلغ من شهرة الصناع والفنانين من أهل الاسكندرية فى العصر الفاطمى أن أحد أثرياء مدينة أمالفى ويدعى موريس Maurus قد استعان الصناع من المرخمين والرســامين منهم لتزيين بعض قصوره بالفسيفساء وغيرها من أنواع الرخام ٠

ولا غرو فقد كان المصريون يفضلون فى ذلك الوقت تغطية الجدران وتزيينها بالرخام ولم يقبلوا على استعمال القاشانى ، وقد خلف لنا الصناع من اللوحات الرخامية (٢٩) والمحاريب والأرضيات الرخامية بعضها مؤلف من قطعة من الرخام الملون والمطعم بالصدف (٣٠) ٠

---

(٢٧) أمدنا ابن دقماق بأسماء العديد من الحمامات القديمة العامة منها والخاصة بمدينة الفسطاط ، كما ذكر المقريزى منها حمام الكويك وحمام القاضى ، وحمام درى ، وحمام الذهب ، وحمام الخشبية وغيرها من التى أنشأها الفاطميون من وزراء الدولة ورجالها البارزين ٠ الانتصار ، ج ٤ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٧ ٠ الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٨ ، آدم متز : الحضارة الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ٠

(٢٨) نقل المقريزى عن ابن سعيد أن هذا المكان عرف بذلك حينما قام الآمر باحكام الله ببنائه فى جزيرة الفسطاط وعمره خصيصا لمحبوبته البدوية التى أكثر الناس فى حديثها فى ذلك الزمان ٠ المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦١٦ ٠

(٢٩) ذكر ابن ميسر أنه لما تولى الوزير المامون أمر بتجديد عمارة المساجد السبعة التى بالقرافة ، وأن يجعل على كل مشهد لوحا من الرخام عليه اسمه وتاريخ التجديد عند الفراغ من تحديد عمارته ٠ أخبار مصر ، جـ ٢ ، ص ٦٢ ٠

(٣٠) يضم متحف الفن الاسلامى لوحات من الرخام مزخرفة بالنحت البارز أصــلها من دار الوزارة الفاطمية ٠ أرقام السجل : ٦٩٥٠ ، ٢٩٥١ ، ٢٩٥٤ ٠

ولا ريب أن شيوع استخدام الرخام انما يدل على شهرة مصر بمبانيها المحكمة التى أثارت اعجاب الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، وعلى ما بلغه المهندسون والصناع من مكانة سامية فى نفوس أقرانهم من خارج البلاد ، حتى أن بعض المهندسين الأجانب كانوا يعملون على الترحال والتزود بالخبرات منهم من بلاد العالم الاسلامى • فقد ورد فى ترجمة أحمد بن عبد الله المعروف بابن الباجى أنه رحل الى مصر عام ٣٨١ هـ ، واجتمع بالمهندس أبى بكر بن اسماعيل البناء ، وسمع منه وأجاز له ، ثم واصل رحلته الى الحج • وكان أبو بكر بن اسماعيل من أشهر المعماريين فى أوائل العصر الفاطمى (٣١) •

ولا غرو فقد أظهرت مصر نشاطا فائقا فى حركة المعمار بعد مجىء الفاطميين واتخاذهم القاهرة مقرا لخلافتهم . والعمل على منافسة العباسيين فى بغداد ، كما تجلى فى عمارة القصور والمساجد ، وما استحدث من الزيادات فى الايوانات أو الأروقة التى تحيط بها الأقواس والاطارات المرفوعة من الأعمدة الرخامية بالأشكال الهندسية البديعة •

ومن جملة المهندسين الذين بلغوا المكانة المرموقة فى صناعة البناء وفى اقامة المراصد الفلكية ، ابن أبى يعيش الطرابلسى المهندس ، والشيخ أبو جعفر بن حسنداى والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الاسكندرانى المهندس ، وأبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس • فقد ذكر ابن دقماق أن هؤلاء المهندسين كانوا يعملون تحت امرة الوزير الأفضل ومعهم جماعة من الصناع فى اقامة المرصد الفلكى فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله •

ويبدو أن بناء المرصد بالقرب من بركة الحبش لم يكتمل أيام الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش ، وكما ذكر المقريزى فان جملة الصناع والمهندسين قد أمكنهم عمل الحلقة المطلوبة فقط فى الموضع المهندم بالطوب الأحمر تحت المسجد الجيوشى ، وبلغ قطرها أقل من سبعة أذرع ودورها نحو أحد وعشرين ذراعا • يقول المقريزى : « فلما كملت قتل الأفضل ، ولم ينفق من مال السلطان فى الأجرة والمؤن وما لابد منه سوى نحو مائة وستين دينار » •

وحين تولى الوزارة المأمون بن البطائحى خلفا للأفضل فى سنة

---

(٣١) كانت وفاته سنة ٤٠٠هـ فى عهد الخليفة الحاكم • أحمد تيمور : أعلام المهندسين ، ص ٤٣ ـ ٤٥ •

٥١٥ (٣٢) رغب في استكمال الرصد المأموني كما اشتهر بذلك ، فأخرج الأمر بنقل الرصد الى باب النصر بالقاهرة ، فنقل على الطريقة الأولى بالعتالية والأسطولية وطوائف الرجال ، ويقول المقريزى : « وكان يدفع لهم في كل يوم برسم الغداء جملة دراهم » •

وقد أفاض المقريزى في ذكر المواد المستخدمة في بناء المرصد الفلكي من نحاس ورصاص وخشب ومواد للبناء كالطوب الأحمر وأعمدة الرخام وما يستلزمه مثل هذا العمل الهندسي والفلكي معا ، كما ذكر أسماء العديد من هؤلاء الصناع وجملة المهندسين الذين شاركوا في بناء وتجهيز هذا المرصد حتى أصبح صالحا للعمل وزيادة على ما كان عليه في عهد الحاكم بأمر الله • ولا شك أن رواية المقريزى تدل على مبلغ علم المهندسين وتقدمهم في علوم الهندسة والفلك •

ومن الذين اشتهروا في أواخر العصر الفاطمي من هؤلاء المهندسين أبو على المهندس المصرى ، وقد ذكر ابن القفطي أنه كان موجودا بمصر في سنة ٥٣٠ هـ ولا شك أنه كان يجمع بين تفوقه في علم الهندسة وما يقوم به من عمل الرسومات الهندسية ، والاشراف على تنفيذها ، فضلا عن تخريج المهندسين على يديه ، لاسيما وقد بلغ في ابتكاراته المعمارية في مجال العمارة والتخطيط ما لم يسبقه اليه غيره من هؤلاء المعماريين والمهندسين في عصره •

كما ذاع صيت عالم آخر هو أحمد بن على بن ابراهيم بن الزبير الغسانى ، وكان ممن اشتهر بتفوقه في ميدان الهندسة والرياضيات(٣٣)، ولا شك أن نبوغ هؤلاء وتقدمهم في علوم الهندسة حتى أواخر أيام الفاطميين ، كان له عظيم الأثر في تشييد المبانى والقصور البديعة وغيرها من المنشآت الدينية والمناظر والحمامات خلال العصر الفاطمي •

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية لدى الخلفاء وما بلغه الصناع والمهندسون من تقدم في فن المعمار في العصر الفاطمي ، من هذا الوصف الذى كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولى أملريك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمي سنة ٥٦٢ هـ ليعقدا مع الخليفة العاضد تحالفا ، ومما جاء فيه « •• وسار السفراء يقودهم الوزير شاور

---

(٣٢) المح المقريزى الى أنه في بداية حياته اتصل بأحد البنائين أو المعلمين ليعلمه صناعة البناء في الفسطاط ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ، ص ١١١ •

(٣٣) توفى أواخر أيام الفاطميين في مصر وذلك في سنة ٥٦٣هـ • ياقوت : معجم الأدباء ، جـ ٤ ، ص ٥٦ ، الأدفوى : الطالع السعيد ، ص ٩٨ ، ص ١٠٢ •

بنفســه الى قصر له رونق وبهجــة ، وفيــه زخارف أنيقة ، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثر ، فوجدوا فى هذا القصر حراسا عديدين ، وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة ، وقادوا السفراء فى ممرات طويلة ٠٠ ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف ، تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصـــوفة بأنواع من الرخام متعـددة الألوان ٠٠٠ وفى هذا المكان حل محل الحراس المرافقين للسفراء بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة فساروا بصحبة المبعوثين من قبيل الملك أملريك فى أفنية جديدة أشد جمالا وابداعا ٠ وبعد أن عبر السفيران أبوابا عديدة وصلا الى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة ، وقد فاق هـذا القصر كل ما رأوه قبـل ذلك ، وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم وأدخل المبعوثان فى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان ٠٠ ولم يكن فى هذه القاعة أحد ٠٠ لكن شاور خر راكعا فور وصوله ٠٠٠ » ثم ارتفعت الحبال فجأة ، وانكشفت الســتارة الحريرية الذهبيــة بسرعة البرق ٠ وظهر السلطان العاضد لأعين السفراء ٠٠ وكان على وجهه نقابا يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة ٠٠٠ » ٠

ولا شك أن ما جاء فى هذا الوصف الرائع للقصر الفاطمى (٣٤) انما يعكس مدى قدرة البنائين والمعماريين المصريين وأحكامهم لصناعة البنــاء وما بلغه صناع الجص والرخام وغيرهم من النقاشين والمصورين فى زخرفة القصور وسائر المنشآت حتى غدت تلك المنشآت المعمارية احدى آيات الفن والجمال وخير شاهد على ما خلفته العمارة الاسلامية فى عصــورها الزاهرة ٠

---

(٣٤) اشرف على بناء هذا القصر الحسن بن عبد العزيز الفارسى المحتسب ، كما تم بناء حمام فى غربيه وبئر وبستان عرف بالتاج ٠ وقد جدده الآمر بأحكام الله ، وبيضه فى سنة ٥٢٠هـ ، وعمل شرقى بابه مصطبة للصوفية ٠ الخطط ، ج ٣ ، ص ٤٦٧ ٠

الفصل السابع

صناعة المواد الغذائية

١ ـ حرفة الحبوبيين وطحن الغلال •

٢ ـ صناعة الخبز والحلوى •

٣ ـ صناعة استخراج الزيوت •

٤ ـ صناعة الصابون والطيب •

٥ ـ صناعة واستخدام الشمع •

٦ ـ حرفة النحالة •

٧ ـ صناعة التفريخ •

٨ ـ صناعة السكر والعسل •

شغلت الحرف والصناعات المتصلة بكل ما كان يؤكل أو يشرب عددا كبيرا من هؤلاء الحرفيين والصناع فى مصر الاسلامية ، ولا غرابة فى ذلك فالمأكول والمشروب من الضرورات التى يحتاج اليها الانسان دائما فى غذائه أو شرابه ، أو حتى وان بلغت حد الكماليات كالمسكرات وغيرها ·

١ ـ حرفة الحبوبين وطحن الغلال

كان القمح من أهم محاصيل الحبوب التى تنتجها مصر منذ العصور القديمة ، وليس أدل على ذلك مما فرض على المصريين من ضريبة القمح خلال العصر الرومانى والبيزنطى ، حيث بلغت الكميـــات المرسـلة منـــه الى القسطنطينية والتى كانت تحملها السفن من ميناء الاسكندرية نحو تسعة ملايين أردب قبل الفتح العربى من الديار المصرية ·

ولم يختلف العرب عن غيرهم من الفاتحين الذين تتابعوا على البلاد المصرية ، فقد جاءوا لفتحها وهم يعلمون بثروتها وخيراتها ، وهكذا كانت مصر تقـدم للفاتحين المال والطعام فلا عجب اذا قال عمرو بن العاص : « ولاية مصر جامعة ، تعدل الخلافة » ·

وكان القمح أهم ما ترسله مصر الى الخلافة بعد الفتح ، فبعد أن كانت ترسل القمح سنويا الى روما ثم بيزنطة (١) ، أصبحت بعد الفتح العربى ترسل القمح الى الحجاز · وقد استمرت عادة ارسال القمح الى

---

(١) وفى المرسوم الذى أصدره جستنيان والذى يحدد أنواع الضرائب كانت ضريبة القمح مقدارها ٨ مليون اردب ·

الحجـاز حتى بعد أن انتقل مركز الخـلافة من الحجاز الى الشام ثم الى العراق . يذكر المقريزى أن من فضائل مصر أنها تمير الحرمين الشريفين وتوسع على أهلهما .

وكان من أسباب حفر خليج أمير المؤمنين وبط الفسطاط بالقلزم على ساحل البحر الأحمر ، وانطلاق السفن منها تحمل الغلال والطعام الى أهل الحجاز ، وذلك منذ بداية الفتح ، يقول ابن عبد الحكم : « فلما قدمت السفن الى الحجاز خرج عمر حاجا أو معتمرا ، فقال : سيروا ننظر الى السفن التى سيرها الله الينا من أرض فرعون حتى أتتنا » .

كان القمح يزرع فى سائر أنحاء البلاد ويزرع فى الصعيد على أثر الشعير ويذكر ابن الكندى أن مصر كانت تشتهر بالقمح اليوسفى الذى لا نظير له فى خارج مصر . وقد عرف المصريون طريقة استخلاص الحبوب، فكانوا يستعملون النورج منذ العصرين اليونانى والرومانى لدرس القمح والشعير والفول والعدس والحمص والحلبة ، فتفصل الحبوب من سنابلها ، وظل النورج وصناعته من الخشب مستعملا حتى وقتنا الحاضر فى سائر أنحاء البلاد . وبعد أن يدرس بالنورج يذرى بالمذراة لفصله عن عيدانه وعن سنابله وعن القشور التى تكسو حباته ، وذلك تمهيدا لتنقيته وطحنه وتحويله الى دقيق .

وتشير أوراق البردى الى حركة التجار التى كانت نشيطة للغـاية فى مصر فى عصر الولاه ، حيث كان تجـــار الحبوب أو ما يطلق عليهم الحبوبيين يعملون على شراء القمح وأنواع الغلال الأخرى ونقلها الى العاصمة الفسطاط ، ففى احدى أوراق البردى التى ترجع الى القرن الثانى الهجرى يتضح أن شخصا يدعى ابراهيم النوتى صاحب احدى المراكب النيلية دفع له أحد الأشخاص مبلغا قدره سبعة عشر دينارا ، لحمل مائة وخمسين أردبا من القمح ونقلها الى الفسطاط ، وتشـــير بردية أخرى الى شـــهرة مدينة الأشمونين ونواحيها بانتاج القمح ، وطلب التوجه الى المدينة لحمل القمح ونقله الى العاصمة ، كما تكشف لنا بردية ثالثة تشمل خطابا موجها بشأن التموين وحمل الحبوب من مدينة ادفو بصعيد مصر الأعلى بالمراكب . وهناك بردية ورد فيها مقدار الغلال والحسابات الخاصة بذلك بلغت نحو ثلاثمائة وثلاثين أردبا من القمح .

وهكذا يظهر لنا أن الحبوبيين وتجار الغلال كانوا منتشرين فى سائر

الأنحاء من أجل شراء القمح وحمله بواسطة المراكب على صفحة النهر الخالد الى الفسطاط (٢) •

أما عملية الطحن للقمح وتحويله الى دقيق ، فقد كانت تقوم بها فى ذلك الوقت مجموعة من المطاحن العامة فى الفسطاط وفى غيرها من المدن المصرية ، ومجموعات من المطاحن الخاصة التى كان يمتلكها الموسرون من الناس فى بيوتهم لطحن غلالهم ، وكانت عبارة عن طواحين صغيرة يديرها عبيدهم وجواريهم •

وكان أهل القرى عادة يشتركون فيما بينهم فى تكاليف اقامة طاحون خاص للقرية كلها فى دار واحد منهم أو فى وسط القرية ، فيصبح كل منهم الحق فى الانتفاع بهذا الطاحون لطحن غلاله ، وكانت هذه الطواحين تدار بالثيران ، فان كان عند الرجل منهم طحين يأخذ ثوره ، ويعلق ويطحن عليه • أما المطاحن العامة فهى تلك التى كان يمتلكها طحانون ليطحنوا بها القمح وغيره من الحنطة فيمن يرغب من الناس بالأجر ، وغالبا ما توجد مثل هذا النوع من المطاحن فى المدن وبخاصة مدن الدلتا (٣) •

ويذكر ابن عبد الحكم فى وقت مبكر أن مسلمة بن مخلد كان يشرف على الطواحين بالفسطاط ، ومن المعروف أنه تولى شئون البلاد كأمير عليها فى عهد معاوية بن أبى سفيان وذلك فى سنة ٤٤ هـ •

وكان المصريون يقطعون حجارة الطواحين من جبل رخام بالقرب من أسوان (٤) ، ومن جهة جبل المقطم ، وقد اشتهرت مصر بهذه المحاجر ، وكان المصريون يستغلونها قبل الفتح العربى بزمن طويل ، فكان هناك

---

(٢) تشير احدى البرديات الى المبالغ التى تسلمها عدد من القماحين ، وكان الدينار ثمنا لـ ١٥ ــ ٢٠ ويبة من القمح اليوسفى •

أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ١٤٣ ــ ١٤٥ •

ــ يمدنا السيوطى بأنواع المكاييل السائدة فى مصر ، ويذكر أن الكيل مختلف فى مصر وكان الأردب عبارة عن ست ويبات ، والويبة أربعة أقداح ، والقدح مائتان واثنان وثلاثون درهما

حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ •

(٣) يذكر الشربينى أن أهل بلاد الساحل وهى المدن التى تقع على شاطىء البحر المتوسط يطحنون بالأجرة ، وطواحيتهم كلها كانت تدار بالخيل مثل سائر المدن الأخرى • هز القحوف ، ص ١٩٣ •

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧١ . ويبدو أن المقصود به حجر الجرانيت ،

صناع لأحجار الطواحين فى كل من أرسينوى (الفيوم) والبهنسا وافروديتوبوليس (كوم اشقاو) .

ويشير ابن اياس الى فضائل مصر ويقول : « وبها حجر الصوان المانع الذى يعمل منه الأعمدة وحجر الطواحين والمعاصر ، ولا يوجد هذا فى بلد غير مصر » .

وقد أقيمت من المطاحن العامة بمدينة الفسطاط يتناسب مع نمو المدينة واتساعها ، وتطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى حاضرة مصر الاسلامية ، ويذكر المقريزى أنه كان بها خط الطواحين ويقع فى جنوب الفسطاط ، وهو على هيئة صفين كاملين من طواحين متلاصقة بجوار بعضها البعض حتى أن المار بين هذين الصفين كان لا يسمع حديث رفيقه اذا حدثه، وذلك لشدة دوى الطواحين أثناء دورانها . وكان من جملتها طاحون واحد يشتمل على سبعة أحجار . وبطبيعة الحال لم يكن خط الطواحين ليقام بين يوم وليلة ، ولكن الأرجح أنه تم ذلك حتى العصر الفاطمى .

ولم يقتصر وجود المطاحن والمعاصر على الفسطاط أو غيرها من المدن والكور المصرية ، بل كانت تستخدم أيضا لطحن القمح وعصر الزيوت والنبيذ فى الأديرة التى كانت فى وادى النطرون ، وفى مناطق البحر الأحمر (٥) ، وفى دير طور سينا ، ودير أسيوط ، حيث كان يوجد فيها عدة طواحين وأفران لصناعة الخبز بها .

وقد نشطت حركة طحن الغلال أيام الطولونيين خاصة بعد أن تم تشييد القطائع ، واقامة المساجد والطواحين والأفران والأسواق بها ، وذلك تلبية لاحتياجات الجند والعساكر ، فقد بلغ عدد الجيش الطولونى سبعون الف آنذاك .

وتشير المصادر الى أن القمح فى عصر ابن طولون كان يشترى عشرة أرادب بدينار ، وفى عصر خمارويه ثلاثة أرادب بدينار ، وكان هذا السعر الأخير يعتبر من أرخص الأسعار فى العصور الوسطى ، ولا غرابة فى ذلك فقد توفر وجود القمح ، ويحدثنا المقريزى أنه استغل فى الزراعة نحو مليون فدان فى العصر الطولونى . وقد خلا من الأزمات الاقتصادية وامتاز

---

(٥) وجدت مطاحن وعصارات فى الأديرة ، بقى منها الطاحونة الموجودة فى دير أنبا بولا بالبحر الأحمر ، كما توجد طاحونة أمام مدخل كنيسة السيدة مريم العذراء فى دير السريان .

بالرخاء وزيادة الانتاج . ومما لا شك فيه أن كثرة توافر الحبوب والغلال ورخص أسعارها يزيد من نشاط حركة الطواحين في كل وقت وحين .

وقد ورد في سيرة الماذرائيين ، أنه لما قدم مؤنس الخادم من بغداد الى مصر ، بعد أن خلع عليه الخليفة المقتدر في شهر ربيع الأول من سنة ٣٠٢ هـ ، استدعى أبو علي الحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور الدقاق ، وكان له بمشتول مقدار ستون ألف أردب من القمح ، فكان يقوم له ما بما يحتاج اليه من دقيق نحو شهر تقريبا .

وكان للماذرائي هذا من سعة الحال حتى أنه يملك له في كل قرية واحدة كمشتول هذه المقادير من القمح (٦) ، يذكر ابن زولاق أنه منح الطحان الذى كان يعمل في طحن هذه الغلال أربعمائة دينار كانت باقية لديه .

وتمدنا المصـادر التاريخية والأثرية بأسماء عـدد من الطحانين أو الدقاقين كما كان يطلق عليهم في ذلك الوقت ، فالدقاق هو الذى كان يقوم بطحن الغلال . وفي بردية ترجع الى عهد ابن طولون ، ورد في عقد زواج مؤرخ في شوال سنة ٢٦٤ هـ اسم سرى بن عبد الله الطحان وقد شهد على ما جاء في ذلك العقـد . كما وردت أسـماء مجموعة من الدقاقين أو الطحانين على عدد من شواهد القبور باسم ابراهيم بن يحيى الطحان ، وشاهد آخر باسم أحمد بن يحى الطحان المتوفى سنة ٢٩١ هـ . كما ورد اسم كل من موسى بن كامل الطحان ، ومحمد بن عيسى بن سليمان الطحان، ويظهر أن أفراد أسرة يحيى بن الطحان ، قد توارثت تلك الحرفة في عهد الطولونيين والاخشيديين ، فقد ورد شاهد آخر بتاريخ ٣٥٦ هـ/ ١١ يونية ٩٦٧ م باسم أحمد بن عبد الله بن يحي الطحان ، كما أن من أفرادها

---

(٦) وردت في قوانين الدواوين ، والتحفة السنية اسم مشتول الطواحين وهي جهة من أعمال الشرقية ، وواضح من الاسم أنها كانت تضم عددا كبيرا من الطواحين التي كانت ضمن اقطاع أبي علي الحسين بن احمد الماذرائي . وبلغت مساحتها في العصر المملوكي نحو ١١١٤ فدان .

ابن مماتي : ص ١٧٦ ، ابن الجيعان ، ص ٤٠ .

من جمع بين احترافه لطحن الغلال ، والاشتغال بالعلم ، فقد ذاعت شهرة أبى بكر الطحان فى ذلك الوقت حتى أنه أصبح من كبار العلماء والحفاظ والمحدثين المشهورين فى عصره ٠

وفى عهد الاخشيديين نشطت حركة تجـار الغلال ، وكانت هناك سماسرة فى الأشمونين وغيرها من المدن المصرية يعملون على شراء وارسال الحبوب الى الفسطاط فى المراكب النيلية ، وتشير احدى أوراق البردى التى ترجع الى أوائل القرن الرابع الهجرى الى قوائم بحساب تاجر غلال من الأشمونين يبدو أنه كان من هؤلاء السماسرة ٠

وكان من مظاهر البذخ والثروة فى ذلك العهد توزيع مقادير وفيرة من جرايات الدقيق على رجال الحاشية وأهـل الستر ، يدلنا على ذلك ما ذكره المقريزى أنه حينمـا حج المـاذرائى الكاتب لدى الاخشيديين فى احدى السنين أمر بطحن مقادير كبيرة من القمح وتوزيعها على رجال البلاط الاخشيدى ٠

كما اشتهرت بلبيس بكثرة القرى والمزارع وطواحين الغلال فى عصر الاخشيديين وأوائل العصر الفاطمى ، وكانت تمير أهل الحجاز بالدقيق والكعك ، وقد أحصى المقدسى ما حمل منها فى أسبوع واحد فبلغ ثلاثة آلاف جمل من الحبوب والدقيق ، مما يدل على كثرة المطاحن الموجودة بها آنذاك ، ومن الجدير بالذكر أن بلبيس وفاقوس بالقرب منهما كانت فى ذلك الوقت فى ضمان الحسين بن طاهر ، يذكر ابن سعيد أنه أرسل الى أخيه الحسين بن طاهر أحد كتاب الاخشيد يسأله الاعفاء من هذا الضمان وكتب الحسين الى أخيه الحسن : « قد أعفاك من ضمان فاقوس وبلبيس وضمنهما من يقدر عليهما » ٠

وكانت تنيس من المدن الهامة فى العصر الاسلامى ، ومما يذكر أنها كانت تحتاج من الأقوات والطعام فى كل سنة من الحنطة والشعير والقطانى مائتا ألف أردب ، وكان بها من الطواحين مائة وستون ، فيها ما يشتمل على مدار ، ومنها على مدارين ، ومنها ما يشتمل على خمسة أحجار كما أنه كان يوجد من المطاحن العامة فى الفسطاط ٠

وفى أواخر عهد الاخشيديين وقعت الأزمات والأوبئة ، نتيجة الغلاء فى الأسعار وعدم وجود القمح ، فمن ذلك ما وقع سنة ٣٤٣ هـ ٠ فقد عظم الغلاء حتى بيع القمح كل ويبتين ونصف بدينار (٧) ، ثم طلب فلم يوجد ، واستمر ذلك الغلاء تسع سنوات متتابعة مرة أخرى حين بدأ فى سـنة

---

(٧) الأردب ست ويبات ـ حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ ٠

٣٥٢ هـ ، ولا شك أن ذلك كان يعمل على تعطيل حركة الطواحين وأرزاق هؤلاء الطحانين .

ومن الجدير بالذكر أن نقصان مياه النيل كان له أثر كبير فى وقوع مثل هذا الغلاء وأمثاله على امتداد العصور الوسطى ، وكان يعقب الغلاء انتقاص الأعمال وكثرة الفتن ونهب الضياع والغلال وأسواق البلاد ، وهكذا كان يتعذر وجود الأقوات حتى يبلغ بيع القمح كل ويبة بدينار .

ولما قدم جوهر الى مصر ، كان مما نظر فيه أمر الأسعار ، وضرب جماعة من الطحانين وطيف بهم ، وعمل على انهاء أزمة الغلال ، فجعل الحبوبيين والسماسرة بمكان واحد ، وأقرهم بعدم بيع الغلال الا فى موضع بعينه حدده لهم بالفسطاط ، ولم يجعل لهذا السوق غير طريق واحدة تسلكه الناس للشراء ، فكان لا يخرج قدح قمح الا ويقف عليه سليمان ابن عزه المحتسب .

على أن هذه الوسائل لم تؤد الى انفراج الأزمة نهائيا (٨) ، واستمر الغلاء الى سنة ٣٦٠ هـ ، حتى كثر الموت وعجز الناس عن تكفين الأموات ودفنهم ، ولم تهدأ حدة الغلاء الا بحلول عام ٣٦١ هـ حينما أوفى النيل ، وأخصبت الأرض وانحل السعر وحصل الرخاء .

وقد عمل الفاطميون بعد ذلك على انشاء الاهراء السلطانية (٩) ، فكانت تزود بالغلال من أنحاء البلاد ، وخاصة من جهة منفلوط بالقرب من أسيوط ، أما الأعمال فى الوجه البحرى فكان يحمل ما فيها من الغلال الى الاسكندرية . وكان ما ينفق من هذه الأهراء أو المخازن فى الطواحين برسم خاص الخليفة (١٠) . وما كان يصرف منها جرايات وما يعمل برسم الكعك

---

(٨) وكان من حسن الحظ أن المعز لدين الله لما علم بفتح البلاد ، بعث الى قائده جوهر فى مصر بعدد من السفن المحملة بالحبوب ، مما خفف على أهل مصر كربهم ردحا من الزمن . حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٥٧٩ . كذلك أنشأ جوهر فى الوقت نفسه مخزنا عاما للحبوب عهد برقابته الى المحتسب ، وكانت مهمته منع احتكار الحبوب والانفراد بتقدير أثمانها .

(٩) يذكر المقريزى أن موضع خزن الغلال فى القاهرة كان وراء القصر الفاطمى فيما يلى دار الوزارة والحجر التى أنشأها المعز لدين الله ، وكان يسمى بالمناخ السعيد ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(١٠) كان للفاطميين عدة مخازن لخزن الحبوب فى عدة أماكن بالقاهرة والفسطاط والمقسم ، ومنها كانت توزع الغلال والحبوب على أرباب الرواتب والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية وغيرها . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٩ .

لتزويد رجال الأسطول الفاطمى ، وما يستدعى بدار الضيافة الملحقة بالعصور الفاطمية .

ومن الجدير بالذكر أن الأهراء السلطانية أو مخازن الغلال كانت بها مجموعة من الطواحين لطحن الغلال برسم جرايات القصور الفاطمية ، ولهؤلاء الحرفيين الفرنج ، وكانت أعدادهم كبيرة ، ومنهم النجارين والجزارين والدهانين والخبازين والخياطين ، والطحانين والعجانين فى تلك الطواحين والفرانين فى أفران الجرايات .

وذكر ابن الطوير أن الوزير المأمون بن البطائحى فى عهد الخليفة الآمر انشأ طواحين جديدة خاصة لأصحاب الرتب من القواد والأمراء والمشارفين العدول وغيرهم من رجال البلاط الفاطمى .

ويصف لنا القلقشندى تركيب وادارة الطواحين قائلا : وأما الطواحين فانها كانت معلقة وطواحينها فوق كما فى السواقى وطواحين مدارها أسفل، حتى لا يقارب الدقيق زبل الدواب » .

ومن الواضح أن مصر لم تعرف سوى الدواب كوسيلة لادارة الطواحين ، فلم تكن تدار بالهواء كما هو فى المدن الاسلامية الأخرى (١١)، وذلك على الرغم من وجود نهر النيل ، وذلك بخلاف ما يذكر آدم متز فى القرن الرابع الهجرى فهو يقول : « انه لم يكن الناس يستعملون الدواب فى ادارة الطواحين الا فى الجهات التى ليس فيها أنهار » وقد شاع فى الأنحاء الأخرى استخدام الأرجاء الهوائية التى تسير بالهواء ، وكان لها ثمانية أجنحة وتكون من عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم ، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودى أيضا طرف الأسفل يحرك حجرا ، فيدور هذا الحجر على حجر آخر ، وكان من الممكن تنظيم سرعتها ، بواسطة منافس تعلق وتفتح حسب الحاجة .

وقد استمرت المطاحن فى مصر فى العصر الفاطمى وحتى نهاية عصر

---

(١١) كانت مطاحن الموصل بالعراق تسمى الواحدة منها عربة ، وهى مصنوعة من الخشب والحديد لا يمازجه شىء من الحجر او الحصى ، وهى تقوم فى وسط الماء بسلاسل حديد . كل عربة فيها حجران يطحن كل حجر منها خمسين وقرا كل يوم : ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٤٧ ، آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .

الأيوبيين ، تعمل بالدواب من الثيران والخيل ونحوها (١٢) وكان عند وصول القمح الى الطاحون يقوم صاحب الطاحون بوزنه للتأكد من صحة وزن القمح ، ثم يقـوم هو ومن معه من عمـال بغربلة القمح من التراب وتنقيته من الطين وتنظيفه من الغبار قبل طحنه بالماء ·

أما الطاحون فهو عبارة عن رحاء يتكون من قرصين وهما حجران يعتلى أحدهم الآخر فى وضع أفقى ـ العلوى منهما أصغر من السفلى ويتحرك فى حركة دائرية بينما السفلى منهما ثابت لا يتحرك ، ويستمد القرص العلوى حركته من حركة ترس سفلى صغير يضع أسفل الرحاء وهذا الترس يستمد حركته من حركة ترس خشبى كبير يديره حصان فى مدار دائرى أعلى من هذا الترس الكبير (١٣) ·

وكان يراعى عند تثبيت الحجرين فوق بعضهما أن يكونا فى وضع أفقى مائل قليلا وذلك لكى ينحدر الدقيق المطحون فى اتجاه هذا الميل ، ويخرج من فتحة موجودة بالترس السفلى ، فيسقط فى قفة تكون معدة أسفل هذه الفتحة لتلقى هذا الدقيق كما كان يراعى نقر الحجرين بآلة حادة قبل استخدامها للطحن لاحداث خشونة بسطحيهما تساعد على زيادة سحقهما للقمح المحصور بينهما ، وينبغى على الطحانين عدم قيامهم بالطحن مباشرة بعد نقر الحجر ، لأن ذرات الحجر وغيرها التى تكون لا تزال عالقة بالحجر وقتئذ تختلط بالدقيق المطحون مما يسبب الضرر للناس ، وهكذا يجب تنظيف الأحجار من هذه الذرات والتراب قبل ادارة الطاحون ·

وكانت المطاحن العـامة تضـم عددا من الصبيان والطحانين وكانت مهمة هؤلاء الصبيان استلام القمح من البيوت التى تريد طحنه · فكانوا يأخذونه منهم بالوزن ، ثم بعد طحنه يعيدونه اليهم فى بيوتهم ، مطحونا دقيقا ، وكان على الصبى منهم أن يكون أمينا عفيفا عن المفاسد لأنه يدخل بيوت الناس ويخاطب أولادهم وجواريهم ، وكان عليه عند تسليمه الدقيق أن يضع الدقيق على الباب ، ويعلم من فى البيت بذلك ويتوارى قليلا حتى يعلم أنهم أخذوه فيذهب لسبيله ، وكذلك يفعل حين يأخذ القمح ·

---

(١٢) ظلت المطاحن تدار كذلك حتى عام ٧٨٤هـ حينما توصل الأمير جركس الخليلى الى طريقة جديدة لادارة الطواحين بقوة اندفاع الماء ، فقد أقام طاحونا فى مركب وأوقفهـا عند مقياس النيل ، وقد استمد ذلك الطاحون قوته المحركة من قوة اندفاع مياه النيل ، فكانت تطحن الدقيق من غير تعب ولا كلفة ·

المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٥٨ ·

(١٣) وقد استعمل المصريون فى مطاحنهم فى العصر الفاطمى نوعا من الأحجار الناعمة غير الثقيل لطحن الغلال ، والتى ظلت سائدة فى بلادنا حتى اليوم ·

وليم نظير : الزراعة فى مصر الاسلامية ، ص ١٢٤ ·

كانت الحكومة الفاطمية تراقب نشاط الحبوبيين والدقاقين وخاصة عند قصور النيل ، وفى عهد الحاكم وقع الغلاء بسبب ذلك ، واشتد خوف الناس ، وتعطلت الطواحين العامة والخاصة . وأمدنا المقريزى ببيان مواضع جمع وبيع الغلال فى العصر الفاطمى ، ومنها ميدان القمح وكان بالقرب من المقس على ساحل النيل وبعضهم كان يسميه ميدان الغلة (١٤) . وكما كان يوجد سوق القماحين بالقرب من الجامع الأقمر .

ويذكر المسبحى أنه فى عهد الخليفة الظاهر شبت النار فى الطواحين، فاحترقت منها أربعة طواحين ، واحترق جميع ما فى الطواحين من دقيق وقمح ، وعلف وآلة الطواحين ، وقع ذلك سنة ٤١٥ هـ .

وفى نفس العام توفى أبو محمد بن يحى الدقاق ، وصلى عليه قاضى القضاة ، وكان كما يبدو شيخ الطحانين فى وقته ، كما كان من شيوخ الحديث ومؤرخى أخبار مصر . ومن هؤلاء الذين ترجم لهم المسبحى من الطحانين ابن حديد القلزمى الطحان ، وكانت وفاته فى ذلك العام أيضا ـ وكان رجلا من أهل السير والقرآن يتبع المذهب الشيعى ويتضح لنا من ترجمته أنه كان أيضا من شيوخ الدقاقين ، كما كان ابن سعدان القماح شيخا من وجوه السماسرة فى القمح بالساحل (١٥) .

وفى عهد الخليفة المستنصر ، حينما غاض ماء النيل ولم يوف بالزيادة سنة ٤٤٤ هـ وأصبحت مخازن الغلال لا يوجد بها شىء ، واشتدت المجاعة بالفسطاط ، أمر الوزير اليازورى بانشاء متجر للغلال تشرف عليه الدولة ، فكان يشترى كل سنة من القمح والغلال بمائة ألف درهم .

وفى عام ٤٤٦ هـ بسبب وقوع الغلاء ، استعان الخليفة المستنصر بصاحب القسطنطينية ليحمل اليه الغلال فأطلق له ٤٠٠ ألف أدرب ولكنه مات قبل ورودها ، وخلفته الامبراطورة تيودورا التى اشترطت على مصر اشتراكها فى معاهدة دفاعية هجومية مع بيزنطة ، فأبى الوزير بأن يرتبط بعهد كهذا يعرض البلاد للأخطار الخارجية .

---

(١٤) كان المقس ساحل القاهرة ، حيث تقف المراكب الى منية السيرج ، وكانت فى أيام النيل تغطى الساحل كله . ومن الجدير بالذكر أن الساحل المصرى كان يتغير بتغير السلطة الحاكمة فى مصر ، فمنذ الفتح العربى الى عهد الأخشيديين كان الساحل بجزيرة الروضة يقع فى جنوبها الشرقى وأصبح فى عصر الأخشيديين فى الجانب الشرقى شرقى فم الخليج ، ثم صار أيام الفاطميين بالقرب من المقس .
المقريزى : الخطط جـ ٢ ، ص ٣٤١ .

(١٥) وفى سنة ٤١٥هـ دفن فى بسفح المقطم ، أخبار مصر ، ص ٢١٦ .

وفى سنوات الشدة العظمى ، حينما بدأت المجاعة بانخفاض النيل سنة ٤٥٧ هـ واستمرت سبع سنين ، قلت الأقوات بالقاهرة ومصر وتعطلت حركة الطواحين ، وبلغ ثمن الرغيف من الخبز أربعة عشر درهما وأردب القمح ثمانين دينارا ٠ وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل ما عانى منها الفقراء تماما ، واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان الى مغادرة مصر والرحيل الى بلاد الشام والعراق ٠

وفى هذه الأثناء استدعى المستنصر الوالى وتوعده ان لم يظهر الخبز فى الأسواق بضرب عنقه ، فعمل الوالى على جمع تجار الغلة والطحانين والخبازين وعقد لهم مجلسا وهددهم بالقتل اذا لم يعملوا على انهاء احتكار الغلال والعمل على بيعها فى الأسواق ، ويظهر من حديث المقريزى أنهم عملوا بالنصح وأخرجوا الغلال ، ودارت عجلة الطواحين وعمرت الأسواق بالخبز من جديد ٠ وهكذا كانت الدولة الفاطمية تعمل على توفير المؤن والغلال فى سنوات الشدة كى تدور عجلة الطواحين فلا تتوقف ولا يحتكر السماسرة والحبوبيون أقوات الشعب وقت الأزمات الطاحنة ٠

وتتابع وقوع الغلاء حتى أواخر أيام الفاطميين فقد وقع أيام الآمر بأحكام الله ووزيره الأفضل ، الذى كان مصيره القتل على باب دكان أحد الدقاقين ، وكان أربعة نفر قد وثبوا عليه من هذا الدكان بالملاحين وأجهزوا بسكاكينهم عليه فقتلوه وذلك فى سنة ٥١٥ هـ ٠

وكانت سياسة الوزير المأمون البطائحى بعد أن تولى الوزارة بعد مقتل الأفضل أن يسعر للتجار أو السماسرة ثمن بيع القمح ، وأمر ببيع جزء من غلات الديوان للطحانين بالسعر الذى حدده للسوق ، كما أمر وكيله أبا البركات محمد بن عثمان أن يجدد جامع القرافة بالمقطم وأن يقيم بجانبه طاحونا للسبيل ويشترى له الدواب والآلات اللازمة ، ويتخير من الصالحين الساكنين بالقرافة من يجعله أمينا عليه ويطلق له ما يكفيه من علف الدواب وغير ذلك مما يحتاج اليه ذلك الطاحون (١٦) ٠

وفى عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، وقع القحط الذريع ، الا أنه لم يستمر ، ثم وقع فى أيام الفائز ٠ ووزارة الصالح طلائع بن رزيك

---

(١٦) وكانت العادة جارية بالحاق الطواحين بالمزارات والمساجد الكبرى كمسجد القرافة بالمقطم كما جاء فى وصف قبر الخليل عليه السلام ببيت المقدس ٠ اذ ذكر ناصر خسرو أنه كان يعطى الضيوف المسافرين والزائرين الخبز والزيتون عنده ، ويقول : وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق ، وبالضيفة خادمات يخبزن طول اليوم » ، سفر نامه ، ص ٣٤ ، سعاد ماهر : حفائر كلية الآثار بظاهر مدينة الفسطاط ، ص ٩ ٠

(٤٤٩ ـ ٥٥٥ هـ) (١٧) ، وكان بالأهراء من الغلات ما لا يحصى فأخرج جملة كثيرة من الغلال وفرقها على الطحانين ، وأرخص سعرها ومنع من احتكارها ، وأمر الناس ببيع الموجود منها .

وهكذا ارتبط نشاط السماسرة وتجار الحبوب ، والطحانين في مصر ارتباطا وثيقا بما كان يقع من الأزمات أو المجاعات بسبب نقصان النيل والفتن والثورات ، وبما تقوم به السلطة الحاكمة تجاه احتكار الحبوبيين للقمح والغلات الأخرى ، والعمل على توفير الأقوات وتوزيع الغلال على المطاحن العامة بالأسعار المحددة أثناء وقوع مثل هذه الموجات المتلاحقة من الغلاء حتى نهاية العصر الفاطمي .

---

(١٧) بلغ سعر الأردب فيه خمسة دنانير لقصور ماء النيل ، المقريزي : إغاثة الأمة ـ ص ٢٧ .

٢ ـ صناعة الخبز والحلوى

يتصل بحرفة طحن الغلال وما يتعلق بها بشكل مباشر القيام بعمل أنواع الخبز لسائر أفراد الشعب وما يتم انفاقه في دار الامارة أو داخل القصور التى تضم الحاكم ورجال حاشيته وبلاطه ٠

وكانت طائفة الخبــازين من أصحاب الحرف اليـدوية كالطحانين والحدادين والنجارين وغيرهم ، وكانت حرفتهم من أهم الحرف التى يحتاج اليها الجميع ، لاسيما فى المدن المصرية المختلفة ٠

وتشير المصادر الى أن صناعة الخبز كانت موجودة فى مصر قبل الفتح العربى ، ويتضح ذلك من قائمة أحد الخبازين بمدينة البهنسا وكانت من المدن الهامة فى الصعيد الأوسط ، فقد أوضحت لنا نوع الانتاج من الخبز المعمول والفطائر والمقادير بشكل يكفى حاجة السكان بالمدينة ٠ كما بينت تلك الأنواع العديدة من الحلوي التى أجاد الصناع عملها ، وكان اقبال سكان المدينة والمدن الأخرى المصرية عليها اقبالا شديدا ٠

كانت الأفران تفرق على أطراف المدن ، فكانت كل خطة كمــا فى الفسطاط فى عصر الولاه ، يخصص لها من هذه الأفران ، وهى بطبيعة الحال تزداد أعـدادها بتوسع المـدن وتبحرها فى العمران ٠ وكان على الفرانين أن يرفعوا سقائف أفرانهم ، ويجعل فى سقوفها منافس واسعة للدخــان ٠

ولا شك أن الأفران كانت تستخدم دقيق الحنطة أو القمح لصناعة الخبز فى العصر الاسلامى ، ويظهر من قول المقريزى أن الناس وسكان المدن على وجه الخصوص كانوا يفضلون أكل الخبز بعـد أن يتم خبزه بالأفران مباشرة مما يتطلب معه دوام الحركة ونشاط الخبازين فى كل

وقت أثناء الليل وأطراف النهار ، وذلك لأن الخبز المعمول من الحنطة بمصر كان متى لبث يوما واحدا بليلة يتعذر أكله .

كما يذكر المقريزى أنه كان فى دار عبد العزيز بن مروان الوالى المصرى (٦٥ ـ ٨٥ هـ) حمامان وعدة أفران يخبز بها عجين أهلها .

ولم يقتصر وجود الأفران لعمل الخبز على الفسطاط أو حلوان التى انشأ بها عبد العزيز بن مروان الأسواق والأفران والحمامات ، وانما كانت منتشرة فى سائر المدن المصرية على كثرتها فى عصر الولاه من الاسكندرية وحتى أسوان جنوبا . يتضح لنا ذلك فى مجموعة أسماء الخبازين التى ذكرت على شواهد القبور ، ومنها شاهد رخام يرجع الى سنة ٢٤٢ هـ باسم أحمد بن حنيذ الخباز ، وشاهد رخام من مدينة الفسطاط أيضا مؤرخ بتاريخ ١٩ المحرم سنة ٢٤٤ هـ باسم الحسين بن اسحق الصدفى الخباز . كما ورد اسم أحمد بن نادى الخباز على شاهد من الحجر الرملى من جبانة أسوان بتاريخ ١٣ رمضان سنة ٢٢٤ هـ/٢٣ ديسمبر سنة ٨٢٨ م ، وشاهد آخر باسم زكريا بن يحيى الخباز ، وشاهد ثالث باسم أحمد بن محمد بن على بن الخباز الحلبى الغريب ، كذلك يحتفظ متحف الفن الاسلامى بمجموعة من الشواهد وردت من منطقة الفيوم والأشمونين بالصعيد .

وفى عهد الطولونيين بنيت القطائع ، فكانت للنوبة قطيعة ، وللروم قطيعة ، وللفرانين ولغيرهم من كل صنف من الغلمان ، وبنى القواد مواضع متعددة ، واختط الناس وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ، كما بنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران ، ولا شك أن التوسع فى العمران وزيادة عدد السكان يحتاج الى العديد من اقامة الأفران ، وازدياد عمل الفرانين والخبازين فى القطائع وغيرها من المدن المصرية .

وقد وردت خلال العصر الطولونى الاخشيدى مجموعة من أسماء من هؤلاء الخبازين ، منها شاهد من الفسطاط باسم عبد الله بن محمد بن اسماعيل الخباز فى ١٢ رمضان سنة ٢٦٢ هـ . وشاهد رملى من الفسطاط أيضا باسم ريحان فتى أبى نصر فتح الخباز ، وشاهد من الفيوم باسم محمد وأسماء ابنى محسن بن أبى الخباز ، وشاهد حجر رملى من الصعيد بتاريخ ١٣ المحرم سنة ٢٨٦ هـ/٢٩ يناير ٨٩٩ م باسم أحمد بن يعقوب الخباز .

ومن أسماء الخبازين التى وردت من جبانة أسوان فتح بن نصر الخباز ، وشاهد رخام بتاريخ سنة ٥٣٨ هـ باسم الشيخ أبى عبيد الله محمد بن المأمون الخباز بن أحمد بن عبد الله بن عبد اللطيف . كما ورد

في طراز من أوراق البردى المصرية اسم نجاح التجريد الخباز من مدينة الأشمونين يرجع الى القرن الرابع الهجري . مما يدل على انتشار حرفة الفرانين والخبازين فى سائر المدن المصريه .

كان الخبازون فى القسطاط وغيرها من المدن المصرية تقيد أسماؤهم وتعرف أماكن حوانيتهم ، فان الحاجة كانت تدعـو أعـوان المحتسب الى معرفتهم للاشراف عليهم ، ومراعاة ما يتعين عليهم القيام به من نظـافة أوعية الماء وغسل المعاجن ونظافتها وما يغطى به الخبز وما يحصل عليه ، كما كان يتعين على الخباز أن يحترز على الخبز خشية أن يحترق أو أن يخرجه من الأفران قبل نضجه وغير ذلك مما يترتب عليه ضرر الناس أو مرضهم .

وكان أجود أنواع الخبز فى عهد الطولونيين والاخشيديين ما يسمى بالخبز الحوارى ، وكان يصنع من الدقيق الحوارى أى الدقيق المحكم النخل الشديد البياض ، كذلك كان يصنع فى العصر الفاطمى .

ومن أنواع الخبز الجيد أيضا خبز كان يسمى بخبز العلامة (١) ، أما أردأ أنواع الخبز المعمول من دقيق الحنطة فكان يسمى الخشكار (٢) ، وهو خبز كان يصنع من الدقيق غير المنخول والذى لم تغسل حنطته قبل طحنها (٣) . ولتحسين وجه الخبز فانه يرش على وجه قرص العجين قبل خبزها الكمون الأبيض والأسود والشونيز (٤) ، والقرطم المصطلى ، وعرق الكافور والسمسم واليانسون ونحو ذلك من أنواع الأباريز (٥) .

وفى مدينة تنيس كانوا يحرصون على عمل أنواع من الخبز الجريش المجفف فى الشمس ويدخرونه للشتاء وقصر النهار ، وكان عدد سكان المدينة يصل الى خمسين ألفا ، غالبيتهم من الحاكة والنساجين الذين يعيشون على هذا النوع من الخبز .

أما الخبز الشائع استعماله فكان ما يسمى بالخبز السميذ ، وكان

---

(١) كان من أجود أنواع الدقيق فقد كانت توضع عليه علامة عند طحنه ونخله ، ويقال أعلم القصار الثوب فهو يعلم ، والثوب معلم « مختار الصحاح » .

(٢) الخشكار : الدقيق الذى لم تنزع نخالته .

(٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٢٣ .

(٤) الشونيز : نبات زهره أصفر ارتفاعه نحو شبرين وحبوبه المعروفة بحبة البركة .

(٥) الأباريز : جمع الجمع بيزر وأبزار وهى التوابل .

يعمل بالمخابز والمطابخ الخلافية ، يذكر ابن الطوير أنه كان اذا أوفى النيل وطالع ابن الرداد ذلك فانه يؤمر بأن يحمل الى المقياس من المطابخ عشرة قناطير من الخبز السميذ وغير ذلك من أنواع اللحوم والمأكولات برسم قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم فيستعملون ذلك ٠

وفي سنة ٣٩٨ هـ ضرب جماعة من الخبازين ، وشهر بهم فى العاصمة ، وذلك لتعذر وجود الخبز ، واشتداد الأمر ، وعدم مراعاتهم للشروط التى يجب أن تكون صناعة الخبز مستوفية لها ٠

وفي عهد الخليفة الظاهر ، وفى سنة ٤١٥ هـ على وجه التحديد ضرب عدد من الخبازين على خلطهم الطفل المسحوق بالأخباز ، وقد تزايد أمر الغلاء ، وطلب المحتسب الى القصر وطولب بعمارة البلد بالأخباز والقمح الى حين ادراك الغلة ، فأطلق القمح من المخازن للطحانين ، وأمر ببيع الخبز رطلين ونصفا بدرهم ، وقرىء سجل بأسعار بيع الخبز على أساس الخبز السميذ رطلان بدرهم وربع ، والخبز الحوارى رطلان بدرهم ٠

ولم يقتصر عمل المخابز والأفران فى العصر الفاطمى على أنواع الخبز لبيعه فى حوانيت الخبازين فى الأسواق ، بل كانت تخبز لمن يرغب من الناس ، وما كان يعرف بخبز البيت أو الخبز البيوتى ، وكان يتعين على المخابز أن تستخدم بعض النساء أو الغلمان لاحضار العجين من بيوت أصحابه وارجاعه لهم مخبوزا لما تفرضه طبيعة عملهم من غشيانهم البيوت والاختلاط بالنساء ٠ وقد ذكر ابن الحاج أنه فى حالة مخالفة القواعد التى ينبغى على الخبازين اتباعها فى عمل الخبز ، فيجب أن يرد الى الفرن لانه لا يعطى الأجرة للصانع الا أن يحكم صنعته ٠

ومن الواضح أن الخبازين كانوا يقومون بخبز الدقيق لأصحابه فى مقابل أجر معين لهم ، وكان على صاحب الخبز اذا وقع له فى خبزه شىء من الضرر — وكان ذلك نادرا — أن يسامح الصانع أو الخباز فى ذلك فلا يغرمه له ، الا اذا بلغ الخبز درجة من السوء بشكل يصعب تناوله ، فله اتساع فى هذه الحالة فى تغريمه أو تركه ان شاء ٠

وقد شاعت صناعة الكعك فى العصر الفاطمى ، وكانت نوعا من الخبز الجاف ، يصنع من جريش الحنطة « ويجفف وكان يسمى كعكا » ، وكما يقول المقريزى : « وكان أكثر أكلهم على طوال العام من هذا الخبز » ٠

وكان يصنع من ذلك الكعك زاد رجال الأسطول ، كما كان هذا

النوع من الخبز شائع الاستعمال على موائد الفاطميين ، حيث يخبز منه فى الأفران التابعة للقصر ، ويخرج منه فى ليالى الوقود برسم الجوامع على شكل أسمطة من الكعك والخشكنانج (٦) والحلوى وما الى ذلك ٠

ومما لا شك فيه أن سخاء الفاطميين فى الأعياد والمواسم كان يفوق الوصف ، وأن ذلك كان يتطلب من الفرانين والخبازين وصناع الحلوى التابعين للقصور الفاطمية النشاط المستمر فى عملهم ، يصف لنا المقريزى كثرة ما كان يعمل فى القصور برسم الاحتفال بيوم فتح الخليج من أنواع الخبز وأصناف المأكولات والحلوى ٠

كما يصف تلك الظروف والأحوال السيئة وتعطل حركة الخبازين فى أوقات الشدة والمجاعات ، فضلا عن احتكارهم وتزايدهم فى الأسعار ، فقد ذكر النويرى أن رغيف الخبز بيع بأربعة عشر دينارا أو درهما وبيع أردب القمح بمائتى دينار أيام الشدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر ، وقال ابن الزيات ان ثمن الأردب بلغ احدى وسبعين دينارا ٠

ولا شك أن الأمور كانت لا تلبث أن تعود الى طبيعتها ، لاسيما بعد ارتفاع النيل وانحلال الأسعار ، حتى يستأنف أصحاب الأفران فى عمل الأخباز المطلوبة ٠ كما كان الأهالى يعملون على ارسال الدقيق الى المخابز لعمل أصناف ما يرغبون فيه من أنواع الخبز ، وبطبيعة الحال كان يتعذر عليهم فعل ذلك فى أوقات الشدة ووقوع الغلاء ٠

أما الخبازون والفرانون فى أفران الجرايات من هؤلاء الفرنج الذين كانوا يعملون برسم القصور الفاطمية ، فانهم كانوا يستأنفون نشاطهم فى تجهيز أنواع الخبز وأصناف المأكولات والحلوى ، بعد انكشاف الغمة وزوال الشدة ٠ وقد استمر الحال على ذلك حتى أواخر أيام الفاطميين ، وقد ذكر المقريزى ما كان يعمل يوم فتح الخليج ، فكان من بين ما أخرج فى عهد الآمر ووزيره المأمون سنة ٥١٨ هـ ، وما يخص فقط المبيت فى المقياس بجميع الشهود والمتصدرين من الخبز عشرة قناطير وعشرة خراف وعشر جامات حلوى وعشر شمعات ٠

وخلاصـــة القول أن الفرانين والخبـــازين وغيرهم من الدقاقين أو الطحانين كانوا من أصحاب الحرف الهامة فى مصر والقاهرة والمدن المصرية

---

(٦) الخشكنانج : لفظ فارسى وهو يطلق على الحلوى التى تصنع من دقيق السميذ الذى يعجن ويبسط ويضاف اليه السكر واللوز المقشر والكافور وقليل من ماء الورد ٠ الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٤١ حاشية ٠

الأخرى ، ولا غرو فقد كانت الحاجة ماسة الى اعمال أيديهم فى كل وقت سواء فى طحن الحبوب والغلال أم فى عمل أصناف المأكولات من الخبز والحلوى تلبية لاحتياجات سكان هذه المدن ، فضلا عن مطالب القصور الطولونية والاخشيدية وسائر المناسبات والاحتفالات التى كانت تجرى فى قصور الفاطميين وخارجها .

٣ ـ صناعة استخراج الزيوت

تشير المصادر الى أن استخراج الزيت فى مصر منذ العصر البطلمى كان قاصرا على هؤلاء الملتزمين الذين اشتروا من الحكومة حق الترخيص بمزاولة تلك الصناعة (١) • وكان على الحكومة فى العصرين البطلمى والرومانى أن توفر لهم من المواد الخام والأيدى العاملة ، كما فرضت أقصى العقوبات على كل من يحاول استخراج الزيت خفية بعيدا عن أنظارها والا قدم للمحاكمة • كما تشير الأدلة التاريخية الى أن صناعة الزيت لم تعد الحكومة تحتكرها احتكارا كاملا فى العصر الرومانى على نحو ما كانت تفعل فى عصر البطالمة (٢) •

والواقع أن زراعة المحاصيل الزيتية فى مصر مثل السمسم والزيتون والكتان والقرطم ظلت كما هى منذ العصور القديمة وان طرأ عليها بعض

---

(١) نشر عالم البرديات بل أوراق البردى اليونانية ، وأوضح أن الزيت كان هو الاحتكار الوحيد لدى الحكومة وقد تضمنت عنه أوراق البردى معلومات وافية - الهلينينية فى مصر ، ص ٧١ •

(٢) أمين الخولى وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية ، جـ ٢ ، ص ١٥٩ ، ويذكر ؛ أن الوثائق البردية التى نشرها جرنفل باسم « قوانين الدخل لبطليموس فيلادلفوس قد اشتملت على معلومات وفيرة عن هذا الاحتكار • مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٦٦ نقله الى العربية د• عبد اللطيف أحمد على •

وكان الزيت يستخرج من مصانع خاضعة للرقابة الحكومية ، يعمل بها عمال لا يسمح لهم بمغادرة أماكن اقامتهم طوال موسم العمل بزعم انهم كانوا أحرارا لا عبيدا ، المرجع السابق ، ص ٦٦ •

التقدم فى العصرين الرومانى والبيزنطى (٣) ، الا أنها استمرت دون تغيير يذكر حتى القرن التاسع عشر •

كان المصريون يستخرجون زيت الزيتون من مناطق زراعته بنواحى الفيوم والاسكندرية قبل الفتح العربى ، ويذكر استرابو فى القرن الأول بعد الميلاد أن اقليم الفيوم (أرسينوى) كان هو الاقليم الوحيد المنزرع بأشجار الزيتون الكبيرة الكاملة النمو ، وأنه اذا ما جمع المحصول بعناية يمكن الحصول منه على كميات وافرة فى ذلك الوقت • وقد استمر استخراج زيت الزيتون من تلك الجهات فى العصر الاسلامى ، وقد رآه المقدسى فى نواحى الاسكندرية •

وكان الكتان من المحاصيل الزيتية أيضا (٤) ، فهو يغل من البذور من ثلاثة أرادب الى ستة أرادب ، ومن أشهر مراكز زراعته مصر الوسطى والفيوم ومناطق الدلتا • ويشير المقدسى الى المحلة الكبرى انها كانت مركزا هاما لزراعة وعصر الزيت ، وبلغ من شهرتها أن شبهها بمدينة واسط ببلاد العراق •

كما كان السمسم من أهم المحاصيل التى تزرع فى مصر وينتج منها الزيت ، وكان الفدان ينتج من أردب واحد الى ستة أرادب ، وأشارت أوراق البردى الى عصير السمسم واستخراج الزيت منه فى عصر الولاه ، كما ذكرت أسماء أصحاب معاصر للزيت ، منها عقد بيع معصرة زيت عثر عليه بجهة ادفو سنة ٢٣٨ هـ ، وكان اسم صاحبها يدعى النضر الزيات • كما ورد اسم اصطفن صاحب معصرة للزيت فى ذلك العصر أيضا • ومن شواهد القبور التى عثر عليها أمكن معرفة اسم يحى بن يونس الزيات ، وقد ورد اسمه على شاهد رخام يحمل اسم ابنته عمره ويرجع تاريخ وفاتها الى سنة ١٨٧ هـ •

ومن الجدير بالذكر أنه فى أعقاب الفتح ، كما يذكر ابن عبد الحكم كان من أرزاق المسلمين على أهل الذمة من الحنطة والزيت مديان من حنطة

---

(٣) مما يدل على استخراج الزيت بشكل منتظم فى ذلك العصر ما فرضته الحكومة الرومانية على تجار الزيت من ضرائب ، ففى أرسينوى احدى جهات الفيوم كان التجار يدفعون ثمانى دراخمات شهريا •

(٤) ترجع اقدم اشارة الى اســـتخراج زيت بذر الكتان الى العصر البطلمى ، حيث استعمله المصريون فى طهو الطعام وكوقود لاضاءة المصابيح •

الفريد لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٥٤٦ •

(١) كانت ادفو كورة قائمة بذاتها فى القرن الثالث الهجرى بالصعيد •

وثلاثة أقساط من الزيت (٥) ، تقدم لهم فى كل شهر ، وليس لدينا من الأدلة مايمكن التوفيق بين رواية كل من البلاذرى ، وما ذكره ابن عبد الحكم فيما فرض من الجزية ونوعها ومقدارها على وجه التحديد ، فالبلاذرى يوضح لنا أن المصريين صولحوا على أربعة دنانير بدلا من الحنطة والزيت والعسل النحل ، ويتفق قدامه بن جعفر مع ابن عبد الحكم في رأيه وخاصة فيما تقرر من أرزاق المسلمين أو الجند ، فهو يقول : وعلى أهل مصر أردب وشىء من العسل وضيافة المسلمين ثلاثة أيام » ويستطرد بعد ذلك قائلا : « وانما كان ذلك فى أول الأمر ثم رفع وأراه صارفى الخراج الواجب على من يجب عليه منهم » وعلى ذلك فانه يمكن القول بأن المقادير التى قررها الحكام العرب من الحنطة والزيت ، انما كانت من أقسام الخراج العينية ، وليست من أموال الجزية التى فرضت على أهل الذمة (٦) .

ومهما يكن فان ما قرره الولاه أو الحكام من مقادير الزيت كجزء من أموال الخراج تؤدى عينا ، انما يدل على انتشار زراعة النباتات الزيتية ، وانتشار معاصر استخراج الزيوت فى جهات ونواحى مصرية عديدة ، وكان الصناع يستخرجون فى العصر الاسلامى أنواعا عديدة من الزيت بعضها يستخدم فى الطعام ، والبعض الآخر فى الاضاءة (٧) ، فكانوا يستخرجون زيت المصابيح من بذور الفجل (٨) واللفت (٩) ويسمونه الزيت الحار .

---

(٥) المدى مكيال لأهل الشام يسع ١٥ مكوكا ، والمكوك قدره صاع ونصف والقسط نصف صاع .

(٦) يذكر قدامة فى هذا الصدد نوع الجزية والخراج المفروض ويوضح ذلك قائلا : « والزم كل ذى أرض مع الديناريين ثلاثه ارادب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقا للمسلمين ، يجمع فى دار الرزق ويقسم بينهم . نفس المصدر ، ص ٣٣٧ .

(٧) اخذت الحاجة الى زيوت الاضاءة فى المساجد والجوامع تزداد فى عصر الولاة وخاصة فى عهد الخليفة المأمون حينما أصدر السجلات الى الولاة لحثهم على زيادة قناديل المساجد والجامع فى سائر الأمصار . قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٣٨ .

(٨) كان يزرع الفجل فى جميع شهور السنة ، ويغل ما قيمته من أربعة دنانير الى ستة ويبلغ خراج الفدان منه دينارا واحدا . ولعل متز قد خلط بين الفجل والبنجر أو اللفت لتشابههما فى الشكل وذلك حينما ذكر أنهم يستخرجون زيت المصابيح من بذور البنجر واللفت .

ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٦٩ ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٩) يزرع اللفت فى شهور أبيب ومسرى وتوت وبابه من الشهور القبطية ، ويجمع بعد اربعين يوما من زراعته ، ويغل ما تتراوح قيمته من أربعة دنانير الى ست دنانير . ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٦٩ .

وكانت أهم معـاصر الزيت فى صندفا بكورة البهنسـا بمنطقة الصعيد الوسطى (١٠) ، وفى الفيوم والفسطاط •

وكان الصناع يستخرجون الزيت كذلك من الخس والقرطم والحنظل، حيث كان يزرع الخس فى الوجه القبلى بصفة خاصة ، ويستخرج منه الزيت بعد عصره لاستخدامه فى الطعام • أما القرطم فكان يستخرج منه زيت رقيق جيد ، الا أن زراعته فى مصر كانت قليلة نسبيا ، ولم يذكر شيئا عنه أو الحنظل ابن مماتى ، ويبدو أن انتاج الزيوت منهما كان قاصرا فى استخدامه على النواحى الطبية بصفة خاصة ، وذلك على الرغم من أن بلينى يشير الى القرطم على أنه كان يستخدم بكثرة فى أنواع الطعام فى مصر البيزنطية ••

كما أن المصادر لا تشير الى استخراج الزيوت من نبات الخروع فى العصر الاسلامى (١٢) ، والتى لم تكن تقل صلاحية عن زيت الزيتون فى استخدامه للاضاءة ، وكان أهم أنواع الزيوت ما اتخذ من الزيتون وكان ثمنه رخيصا ، لكن استخراج زيت السمسم فى مصر كان يتم على نطاق أكبر من استخراج زيت الزيتون ، حيث أن زراعة السمسم كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد •

ومن الواضح أن معاصر الزيوت فى مصر قد زادت من انتاجها فى عهد الطولونيين والاخشيديين ، لاسيما بعد أن بذل ابن طولون اهتماما كبـيرا بعمـــارة الأرض وزيادة المساحات المزروعة بالمحاصيل الزيتيـة وغيرها ، ولتلبية احتياجات الجيش الطولونى من مواد الطعام • ولا شك أن الزيت كان غـذاء الطبقات الفقيرة من الفلاحين وأصحاب المعايش من الأجراء والمهنيين وغيرهم •

ويحتفظ المتحف الاسلامى بمجموعة شواهد قبور تحمل أسماء بعض أصحاب المعاصر التى ترجع الى ذلك العهد (١٢) ، كما أشـارت أوراق

---

(١٠) صندفا : احدى الجهات التى تقع بمركز بنى مزار محافظة المنيا •

(١١) يذكر هيردوت أن المصريين كانوا يبذرون الخروع على شاطىء النيل وحافات البحيرات ، وكان يحمل ثمارا كثيرة يستخرج منها الزيوت • وكانت بذوره تهرس ثم تعصر أو تحمص ثم تغلى وذلك لاستخراج الزيت منها وكان لهذا الزيت رائحة حادة • • •

هيردوت يتحدث عن مصر ، ص ٣٠٦ – ٣٠٧ ، ترجمة محمد صقر خفاجة ، لوكاس : المواد والصناعات ، ص ٥٤٥ •

(١٢) من بين الأسماء التى وردت اسم يحيى بن يونس الزيات وابنه هرون المتوفى سنة ٣١٢هـ ، مما يفيد توارث هذه الحرفة عن الآباء •

Wiet : Steles Funeraires, tome 4, p. 88., p. 175.

البردى الى بعض هؤلاء الزياتين أو المعصراتيين كما كان يطلق عليهم فى العصور الوسطى . ويمدنا أبو صالح الارمنى بمعلومات عن وجود معاصر للزيت الحار فى بعض الأديرة المصرية فى ذلك الوقت مثل دير أسيوط ، كذلك كان يوجد بدير طور سينا عدة مطابخ وأفران ومعصرة زيتون ومعمل للخمر من البلح والعنب .

أما عن كيفيــة اســتخراج الزيت من السمسم أو ما كان يسمى بالشيرج ، فكان ينقل مسحوق السمسم بعد البذوز ليوضع فى معاجن خاصة على هيئة أحواض حرارتها مرتفعة بدرجة تساعد على تسهيل خروج الزيت من هذا المسحوق ، وفى كل حوض يقف رجل عارى القدمين مهمته إســتخراج الشــيرج وذلك بالضغط عليه بأقدامه (١٣) ، والزيت الذى كان ينزل من عجينة السمسم كان يعبأ فى أوان مسامية فيرشح من مسامها تاركا الشوائب العالقة به بداخل الاناء .

وكانت طريقة اســتخراج زيت بذر الكتان تتم على مرحلتين الأولى يسحق بذر الكتان فيها ويحول الى عجينة بواسطة طاحونة حجرية تشبه تلك التى تستخدم لعصر العنب ، وفى المرحلة الثانية كانت توضع هذه العجينة داخل حصائر أو قفف وتوضع تحت معصرة كابسة (١٤) ، حتى تتم عملية العصر ويسيل الزيت أو ينحدر الى أوان تكون معدة لهذا الغرض من أسفل مكان العصر .

ويصف لنا الدمشقى الظروف التى يحفظ فيها الزيت الخــام بعد عصره واستخلاصه من مسحوق السمسم أو الكتان فيقول : انه متى كان المكان دفئا ساخنا كانت الخـوابى فيــه مسخنة فيرق الزيت وينصقل ويكتسب لمعانا وحسنا . وهذه صفات الزيت الجيد الصنع ، وينبغى على الصناع أن يعملوا على وضع تلك الخوابى على أرضية محــكمة التبليط وحيطـــانه موزرة بالجبس والجير حتى اذا أهرق على الأرض من الزيت شىء ، سهل عليهم جمعه ولا يتلف منه الا اليسير .

---

(١٣) كان يشترط على الرجال الذين يقومون بهذه المهمة ان يغسل الواحد منهم أرجله ويحكها بالمحكة قبل نزوله داخل المعجن ، وأن تكون ثيابه ضيقة الأكمام لاحتمال أن يعرق فيقطر من عرقه شىء ، وان يكون ملثما لاحتمال ان يتكلم فيقع من بصاقه شىء فى عجين الشيرج . ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٣٣٢ .

(١٤) كانت هذه المعصرة مكونة من ذراع خشبى ثقيل يتكون من ألواح خشبية فوق بعضها البعض ، وتقويها كتل خشبية أخرى لتزيد من ثقل الذراع وصلابته .

ومن أهم مراكز استخراج الزيت فى العصر الفاطمى المعيصرة حيث كانت تضم معاصر كبيرة ، وذكر ابن حوقل أن سخا كان يستخرج بهـا زيت الفجل ، ويذكر ابن بسام أنه كان يوجد بمدينة تنيس مائة معصرة أعداد رجالها مختلفة وأقلهم اثنان وأكثرهم عشرون . كما يذكر ابن دقماق من الجهات شبرا الخيمة بالقرب من القاهرة ، وكانت تضم معاصر للزيت الحار والشيرج وغير ذلك . وقد اشتهرت منية الأمرا وهى منية الشيرج في العصر الفاطمي ، وكان بها معاصر لاستخراج زيت السمسم ، كمـا كانت بلدة كبيرة بها من الأسواق والحمامات والبساتين . وكانت مدينة الفسطاط بها درب معروف بدرب المعاصر ، وقد عرف بذلك كما يقول ابن دقماق : « لأن به مقابلة الداخل فيه معصرة زيت لم يكن بمصر مثلها لجودة عمارتها وكثرة أعوادها وعدة أحجارها وسكن به أكبر أعيـــان المصريين » .

وقد امتازت الحيـاة الاجتمـاعية فى العصر الفاطمي بكثرة الأعياد والمواسم وليالى الوقود وليلة الغطاس ، والسهر فى البيوت وفى خارجها الى ساعات متأخرة من الليل ، مما تطلب العمل على وفرة انتـاج الزيت المستخدم في الاضاءة . وذلك بالاضافة الى ما كانت تحتاج اليه القناديل التى كانت تكتظ بها المساجد والجوامع فى الفسطاط والقاهرة وفى غيرها من المدن والقرى فى طول البلاد وعرضها . وكما يذكر ناصر خسرو فان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السيرج والحصير ، وسجاجيد الصلاة ونحو ذلك ، وقد أحصى المقريزى عدد المساجد التي كانت بالفسطاط ، فبلغت ثمانمائة وثلاثين مسجدا ، وكانت تحتاج الى نفقات شهرية تقدر بنحو ٩٢٢٠ درهما .

ومما لا شك فيه أن سياسة الحاكم بأمر الله كان لها أثر ملموس فى زيادة الطلب على الزيوت الخاصة بالاضاءة ، ففى ذى الحجة من عام ٣٩٠ هـ أمر الناس بتعليق القناديل على سائر الحوانيت وأبواب الدور كلها ، وفى جميع المحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ، وفى المحرم من سنة ٣٩١ هـ يذكر المقريزى أن الحاكم واصل الركوب فى الليل فى كل ليلة ، وكان يطوف بسائر أنحاء المدينة فلا يترك موضعا أو زقاقا بها ، وأمر الناس بالوقيد فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة ، وهكذا كانت سياسة الحاكم فى فترة من فترات حكمه أن يعمل أصحاب الحرف وغيرهم من أهل الأسواق فى الليل بدلا من النهار ، حيث بالغ النـاس فى الوقود والزينة وأنفقوا الأموال الكثيرة فى المآكل والمشارب ، من خير الأدلة على زيادة الاستهلاك المحلي للزيوت وغيرها من المواد الغذائية .

وهكذا لم يقتصر استهلاك زيت المصابيح على متطلبات الدولة ونفقاتها ، بل كان المصريون يشترون من زيوت الاضاءة ما يكفى حاجاتهم فى الحوانيت والبيوت ، حيث كان يباع فى الأسواق من الشيرج والقطن برسم تعمير القناديل الشىء الكثير •

وكان ترتيب الفطرة فى القصر الفاطمى فى عيد شوال تشتمل على ثلاثين قنطارا من الزيت الطيب للوقود ، وقد بلغت فى عهد الأفضل بن بدر الجمالى جملة ما تحتاج اليه الفطرة من الأصناف مائتى قنطار من الشيرج (١٥) ، وهو بلا شك مقدار كبير اذا ما قورن بما كان عليه فى أوائل أيام الفاطميين •

وفى عهد الوزير المأمون بن فاتك البطائحى الذى تولى الوزارة فى ذى القعدة سنة ٥١٥ هـ ، يبدو ان انتاج معاصر الزيوت أصبح قاصراً على كفاية الاستهلاك المحلى • فقد ذكر المقريزى فى حوادث السنة التالية من حكمه أنه فيها غلا الزيت الطيب والسيرج ، فكتب المستخدمون فى الخزائن ومشارفة الجوامع بأن يكون المطلق برسم الوقود فى المشاهد عوضا عن الزيت الطيب الزيت الحار • فخرج الجواب كما يقول المقريزى : « بالتحذير من ذلك وبألا يطلق الا الزيت الطيب ، ولا يلتفت الى غلو السعر فى الخدم التى هى من حق الله تعالى فلا يجب الرخصة فيه ولا ينقص من المطلق شىء •

ولا شك أن فى حرص الفاطميين على اطلاق النفقات برسم الوقود وغيرها فى فى أغراض اضاءة الجوامع ، وفى حاجة ترتيب الفطرة وغيرها من المناسبات التى أحدثوها فى عهدهم ، ما يوضح لنا أن المعاصر المصرية كانت تنتج من الزيوت ما تكفى لحاجة الاستهلاك المحلى •

---

(١٥) كانت الفطرة قبل أن ينتقل الأفضل الى مصر تعمل بالايوان وتفرق منه ، وعندما تحول الى الفسطاط نقل الدواوين من القصر اليها واستجد لها مكانا قبالة دار المالك بديوان المكاتبات والانشاء • المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ •

٤ ـ صناعة الصابون والطيب والعطور

أ ـ صناعة الصابون :

اعتمد الانسان على الدهون والعطور فى النظافة والتزين كوسيلة لجذب الأنظار منذ العصور القديمة ، ذلك أنه لم يكن اكتشاف الصابون قد عرف بعد حتى العصر البطلمى ، ففى عهد كليوباتره كانت الأجسام الجميلة تدهن بالدهون ٠

ويمكن القول بأن المصريين كانوا أسبق الأمم الى اكتشاف المواد التى يصنع منها الصابون (١) ، ولا غرابة فى ذلك فقد عرفوا منذ التاريخ القديم وسائل التبخير والتقطير والعقاقير وصباغة الملابس ، كما ذاع صيت مدرسة الاسكندرية القديمة وتفوق علمائها فى مجال الطب والكيمياء والهندسة والرياضيات وغيرها من العلوم التطبيقية ٠

ولا شك أن وفرة الأعشاب والنباتات الطبية ، والزيتون المستخرج من أشجار الزيتون بمنطقتى الفيوم والاسكندرية كانت من العوامل المشجعة على انتاج الصابون فى مصر قبل الاسلام ٠

ويجب أن نقدر أهمية صناعة الصابون على ضوء الأهمية التى كانت للحمامات فى الحياة الاجتماعية ، ولا ريب أن عدد الحمامات التى بلغ عددها

---

(١) كان اكتشاف الصابون وليد الصدفة وحدها ، فربما حدث مرة أن دهن شخص جسده بالدهون جيدا ، ولكنه قام بذر الرماد على جسده فى ساعة من ساعات الندم ، ثم ذهب ليبرد جسمه بالماء ، وكم كانت دهشة الحاضرين عندما رأوه يدلك جسده ليزيل الرماد والدهن ، فاذا برغاوى الصابون تظهر على جسده ، وعندما نزل الى النيل ليستحم خرج من الماء كانظف رجل عرف حتى ذلك التاريخ وهكذا تصور هولمز عالم الكيمياء هذه الصدفة وجدها التى كانت السبيل الى اكتشاف مادة الصابون ،

نفس المرجع السابق والصفحة ٠

نحو أربعة آلاف حمام بمدينة الاسكندرية وحدها • كما ذكر ابن عبد الحكم حين اتمام الفتح العربي للمدينة ، يدلنا على مدى حاجة أهالى الاسكندرية وتلك المقادير الهائلة من مواد النظافة والصابون (٢) •

ويمدنا ابن عبد الحكم وابن دقماق وغيرهما باسماء الحمامات التى أنشأها العرب بالفسطاط بعد أن تم تخطيطها وأخذت تنمو وتتوسع فى العمران • يذكر ابن عبد الحكم منها حمام بسر التى كانت تقع مما يلى أصحاب الزيت (٣) •

وكما ذاع صيت الحمام الذى كان يعرف بحمام أبى مره وقد بنى فى عهد الوالى عبد العزيز بن مروان ، وحمام السوق الكبير وهى من خطة خولان وتم تشييده في عهد الوليد بن عبد الملك ، وحمام بن نصر السراج وغيرها من الحمامات •

وقد صنع العرب الصابون بمزج الصودا مع شحم الأغنام أو الزيت ، وأنشأوا صناعة من أفخر الصناعات في بغداد ، وقدر لها أن تنتشر بسرعة فى كل من مصر وسوريا وبلاد المغرب والأندلس •

ومن الملاحظ أن المصريين لم يكتفوا بصناعة الصابون من زيت الزيتون ، بل كان الصناع يعملون الصابون أيضا من زيت الفجل والسلجم، وهكذا يمكن القول بأن مراكز صناعة الزيوت فى مصر فى عصر الولاه التى أشرنا اليها من قبل ، كانت أيضا من المراكز الهامة لصناعة الصابون (٤) •

وهناك اشارة واضحة الى بيع الصابون لسائر أفراد الشعب المصرى، وردت فى احدى أوراق البردى ، وقد تضمنت حساب خاص لأحد الأشخاص ويكشف عن شراء صابون بنصف درهم •

---

(٢) يصف ابن دقماق حمامات الروم بانها كانت واسعة مكونة من ثلاث طبقات يدخل من الأولى الى الثانية ثم الى الثالثة •

الانتصار ، جـ ٤ ، ص ١٠٥ •

(٣) كان أول حمام بنى بالفسطاط هو الحمام الذى أقامة عمرو بن العاص فى اعقاب الفتح وعرف بحمام الفار • ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ١٠٥ •

(٤) من بين المراكز الهامة لاستخراج الزيوت التى وردت فى المصادر وسبقت الاشارة اليها : جهة الاسكندرية وتنيس والمحلة الكبرى ، وسخا وادفو وغيرها •

وقد أوضح التيفاشى أن زيت الزيتون كان يعمل منه الصابون • ازهار الأفكار ص ١٧٧ •

وليس بين أيدينا من الأدلة ما يكشف لنا عن حجم الاحتياجات التى كان يستهلكها أهالى الفسطاط أو غيرها من المدن المصرية فى ذلك العصر ، وذلك بالمقارنة لما أوضحه الخطيب البغدادى ، فقد ذكر أن أهالى بغداد كانوا يحتاجون الى مليون ونصف مليون رطل من الصابون ليلة عيد الفطر ، لأن الفرد الواحـــد يحتاج فى تلك الليلة ـ فى رأيه ـ الى رطل واحـــد من الصـــابون ٠

ومهما يكن من أمر فان تقدير ذلك بالنسبة لأهالى الفسطاط لابد أن ينظر اليه فى ضوء انتشار صناعة الصابون ووفرة الانتاج منه ، وما كانت تستلزمه الأعداد الكبيرة من الحمامات المنتشرة فى الاسكندرية وفى العاصمة الفسطاط وغيرهما من المدن المصرية آنذاك ٠

كان الصابون يصنع بهيئة قطع جامدة ، وتستعمل النورة أحيانا فى تحضيره ، ويصف لنا الدمشقى طريقة صنعه وتخزينه فيقول : « كان يخزن على هيئة زيوت مجمدة بعد طبخه وتصفيته ، فان كان جيدا انتقلت خزنه واحرازه ، وان كان فى أوعية كسر أو شق وحول الى وعاء صحيح ، ثم يتخير له من المخازن ما كان باردا هوائيا فيودع فيه » ٠

وكان من أنواع الصابون الرطب الأحمر والأصفر والأخضر وبه شبهت الصابونية التى كانت من أنواع الحلوى ٠

وليس هناك شــك فى تقدم صـــناعة الصابون فى عهد الطولونيين والاخشــيديين ، ويســتدل على ذلك من تلك الاحتياجات المتزايدة لتفى بالحمامات التى أنشأها الطولونيين فى القطائع ، ومتطلبات الحياة الاجتماعية المترفة التى عاشها أبو الجيش خمارويه ورجال حاشيته ، فضلا عن كفاية حاجة الشعب المصرى من انتاج الصابون ٠

وقد حذا مؤسس الدولة الاخشيدية حذو ابن طولون ، وكان له عدد كبير من المماليك والغلمان والأتباع ، كما كان قصر الاخشيد غنيا بالجوارى ٠

وفى عهده نسمع عن شيخ يعرف بمسعود الصابونى (٥) ، لعله كان أحد شيوخ طائفة الصابونية أو صانعى الصابون فى ذلك الوقت ، ومن

---

(٥) ذكر المقريزى أنه شكا يوما الى محمد بن طغج الاخشيد أثناء تنزهه فى بستانه ويبدو أن الأمير لم تعجبه طريقته فى عرض شكواه فأمر بضربه بالسياط ٠ الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ ٠

المعروف أن أبناء الطائفة أو الحرفة كانوا يتوارثون عن آبائهم حرفتهم فى العصور الوسطى (٦) •

أما فى العصر الفاطمى فقد ازدهرت صناعة الصابون ، كما ازدهرت سائر الصناعات الأخرى ، وقد أشار ابن سعيد الى مطابخ السكر والصابون التى كانت موجودة بالفسطاط كما خصها بالذكر دون المطابخ والمسابك الأخرى كمسابك الزجاج ومسابك الفولاذ والنحاس ، والتى أشار اليها ابن دقماق حين نقل عنه ، وكانت مطابخ الصابون بالفسطاط تعتمد على ما يرد اليها من زيت الزيتون من منطقة الفيوم •

وأشار ابن دقماق الى قيسارية الصبانة التى كانت موجودة بالفسطاط، وكانت تضم العديد من الحوانيت لبيع الصابون فى ذلك العصر •

كما تجدر الاشارة هنا الى قيام الفاطميين بانشاء العديد من الحمامات التى كانت من مستلزمات الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ، وقد وصفها عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر بعد الفاطميين بقليل فقال : « انها كانت متقنة الوضع يسع الحوض الواحد ما بين راويتين أو أكثر ، وفى داخل الحمام مقاصير بأبواب ، وفى المسلخ أيضا مناصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا شك أن ما تطلبته تلك الحمامات من أنواع الصابون والطيب كان يقتضى وفرة فى الانتاج وزيادة فى الطلب على الصابون •

وقد ظلت الاسكندرية احدى المراكز الهامة لصناعة الصابون فى العصر الفاطمى نظرا لاستمرار زراعة أشجار الزيتون فى نواحيها الغربية • وقد أشار ابن جبير الى موضع الصبانة وقال انه نزل بعد بلوغه الاسكندرية بفندق الصفار على مقربة من الصبانة ، ولا شك أن هذا الموضع كما هو واضح من اسمه كان يضم مطابخ الصابون بالاسكندرية خلال العصر الفاطمى •

ومما يدل على انتشار صناعة الصابون ورواج بيعه فى ذلك العصر ، ما يشير اليه المقريزى ، ففى عهد الحاكم بأمر الله كان من بين المكوس التى أمر بالغائها سنة ٤٠٤ هـ مكس دار الصابون ، وقد بلغت ستة عشر ألف دينار • ، كما شجع على وفرة انتاجه وجودته توفر أصحاب الصنعة من الصناع الفنيين

---

(٦) ولعل جزيرة الصابونى التى كانت من بين تلك الجزر الواقعة فى النيل أمام ساحل مصر قد أطلق اسمها كذلك على احد هؤلاء أصحاب المطابخ للصابون بالفسطاط • وقد ذكر المقريزى أن هذه الجزيرة أوقفها نجم الدين أيوب وقطعة من بركة الحبش ، وجعل نصف ايرادها للشيخ الصابونى وأولاده « الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٢٣ » •

أو الكيميائيين المصريين (٧) ، الذين توفرت لهم معرفة خصائص المواد والتي يمكن بموجبها اتحاد البوتاسيوم ـ بالمعنى الحديث ـ الموجود في رماد الخشب مع الدهون والزيوت ، التي توفرت في معظم أنحاء البلاد في العصر الفاطمي .

وهكذا يمكن القول بأن صناعة الصابون كانت ملازمة لصناعة استخراج الزيوت كما هو الحال في وقتنا الحاضر . وكما هي العادة في توارث الحرف والصناعات في تلك العصور ، فان الصناع المصريين قد لعبوا دورا هاما في انتاج ما يكفي حاجة البلاد من تلك المادة ، ولم نسمع عن مصر الاسلامية أنها كانت تستورد من الشرق أو الغرب الصابون بأنواعه المختلفة حتى سقوط الدولة الفاطمية .

ب ـ صناعة الطيب والعطور :

نبغ المصريون منذ العصور المبكرة في صناعة أنواع من الدهون والعطور ، وقد احتفظت الاسكندرية منذ القرن الرابع الميلادي بشهرة واسعة في صناعة الأدوية والعطور . وأظهر الصناع المصريون تفوقهم في تعبئة وتسويق هذه السلع حيث ارتفعت أسعارها ، وجنى الاسكندرانيون منها الأرباح الوفيرة . وتشير المصادر الى أن الأدوية والعطور المصرية كانت تصدر الى بلاد الدنيا في العصر البيزنطي (٨) .

وقد شجع على ذلك نمو بعض النباتات الطبية والزهور العطرية في أنحاء متفرقة من البلاد ، فكانت تنمو شجرة البلاتوس في جهات عديدة من الوجه القبلي وفي الواحات الخارجة وفي الدلتا المصرية قبل الفتح الاسلامي ، وكان يستخرج من ثمار هذه الشجرة زيت الاهليلج (٩) الذي شاع ذكره

---

(٧) أشار ابن النديم الى كثرة الكتب المؤلفة في صنعة الكيمياء ، وانها أكثر واعظم من أن تحصى . مما يدل على اشتغال كثير من أصحاب الصنعة في مجالات مختلفة لصناعة الزجاج وسبك النقود وصناعة الصابون طالما توفر مثل هؤلاء العلماء الذين كانوا يجمعون بين العلم والعمل في تلك العصور . ابن النديم : الفهرست : ص ٥٢١ .

(٨) وقد ورد في احدى أوراق البردي ذكر مائة واثنين وتسعين نوعا من النباتات والأعشاب ، ومن المواد الخام الأخرى الحيوانية والمعدنية التي أمكن استخدامها في صناعة الدهون والعطور .

(٩) ثمرة الاهليلج زيتونية أي مؤلفة من شحم ونواة ، وقد أدخله العرب في أدويتهم المسهلة ووصل الى أوربا عن طريق عدن والاسكندرية .

فى المصادر العربية ، وكان من افضل الأصناف فى صناعة العطور الممتازة (١٠) .

وتكشف لنا أوراق البردى فى عصر الولاه عن زراعة الياسمين الأبيض المعروف ، وان كان يصنع منه فى مدينة دمياط زيت الياسمين وهو نوع من الروائح العطرية الذى كانت النساء تستعمله وتفضلنه على غيره من العطور كما تكشف احدى أوراق البردى عن أعداد الروائح العطرية من زيت الورد بالفيوم ، فقد تضمنت القائمة التى وردت بها ذكر قارورة ماء ورد جيد وزوج طومار وزيت الماء المعدلى والشيرج الطرى ، وكلها مواد تشير الى شهرة الفيوم فى ذلك العصر الاسلامى المبكر واعداد الصناع بها لآنواع مختلفة من الدهون والعطور .

وقد أفاض السيوطى فى ذكر الرياحين والأزهار التى كانت تنمو فى سائر البلاد ، وما ورد فيها من الفوائد والأحاديث على لسان العرب ، وذكر منها أنواع الورد الأحمر والأبيض والأصفر ، وما كان بثغر الاسكندرية من نوع الورد الأصفر . ونقل عن ابن وحشيه عالم النبات أن البنفسج نوعان جبلى وبستان ، والجبلى رقيق الورق أزرق اللون والبستان عريض الورق حائل اللون ، وهو على لون الشمع ولا يوجد الا بمصر .

وهكذا كان توفر أنواع البنفسج والورد والنيلوفر المنثور وأزهار البرتقال والمسك والزهور من أهم العوامل التى شجعت على انتشار هذه الصناعة انتشارا واسعا فى مصر ، كما انتشرت فى بيئة شيراز من فارس . وبلغ من انتشارها أن فرضت الحكومة عليها الضرائب ، خاصة بالأماكن التى كان يصنع فيها ماء الورد .

وقد تقدمت صناعة الأدوية والعطور فى عصر الطولونيين والاخشيديين، وتطلب اعداد هذه الروائح العطرية أدوات أشبه بما تستعمل فى الكيمياء ، وتشير أوراق البردى العربية الى ازدهار هذه الصناعة ، يتضح ذلك ماتضمنه أحد الخطابات المرسلة الى أحد تجار العطور وفيه طلب قائمة بأنواع من العقاقير والعطور (١١) .

---

(١٠) ويذكر بلينى أن زيت البلاتوس او الاهليلج كان احد المكونات الهامة لاعداد الدهان المقدس فى العصر الرومانى والبيزنطى .

لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٥٤٤ .

(١١) لم يكشف الخطاب أو الطراز عن اسم المكان الذى كشف فيه ، ومن المرجح أن يكون من البهنسا أو الأشمونين بالصعيد الأوسط ، جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٧٣ .

كما أفاضت المصادر التاريخية في وصف البستان الذى أنشأه أبو الجيش خمارويه ، وما جلب له من الأشجار المثمرة ، وما زرع من أنواع الرياحين والورود والأزهار ولا شك أن الصناع كانوا يستغلون هذه الرياحين والنباتات في استخلاص وتقطير العطور منها .

وحين تولى محمد بن طغج الاخشيد حكم البلاد في سنة ٣٢٥ هـ أقام بستانه المعروف بالمختار بجزيرة الروضة وكان لا يقل روعة عن بستان خمارويه ، ثم أنشأ شمال الفسطاط بستانا آخر عرف بعد ذلك باسم البستان الكافورى ، وقد ضم أنواع الأشجار والرياحين والزهور • وليس هناك شك فى أن هذه البساتين لم تكن من أجل الزينة أو التنزه فقط ، بل كانت من المصادر الرئيسية في الحصول على أنواع الورود والنيلوفر والزعفران وغيرها لانتاج الروائح العطرية •

وتشير المصادر التاريخية الى تقدم صناعة العطور فى عصر الاخشيديين، وشيوع استعمالها خاصة لدى الأعيان ووجوه القوم ، روى ابن زولاق أن الحسين بن أبى زرعه قاضى مصر كان يبالغ فى التطيب ، ويذكر أن طغج والد الاخشيد كان له فى دمشق قبة مشبكة يتطيب فيها فاذا تطيب لم يخف على أكثر أهل دمشق بخوره • وكان الاخشيد يحب العنبر ويجمع منه مقادير كبيرة ، وقد قيل أن ما خلفه من العنبر حين وفاته بلغ ثمانمائة رطل غير أصناف الدهون والروائح العطرية الأخرى • وكان طبيبه الخاص أبو الفرج البالسى من علماء النبات ، متميزا فى صناعة الأدوية المفردة وأفعالها وفى تركيب الأعشاب العطرية الأخرى •

وفى العصر الفاطمى راجت صناعة العطور فى مصر ، كما راجت فى غيرها من البلدان الاسلامية لاقبال المسلمين على استخدام العطور بأنواعها المختلفة فى حياتهم الخاصة وفى تجهيز الموتى •

وقد عمل الفاطميون على انشاء حمله من المناظر التى كان من أهمها منظرة الجامع الأزهر واللؤلؤة على الخليج والسكرة والمقس والروضة والهودج (١٢) وكانت جميعها فى ضواحى القاهرة ، كما أقاموا قصرا

---

(١٢) أقام الخلفاء الفاطميون كثيرا من البساتين ذات الأشجار المثمرة والنباتات العطرية وافيم داخل كل بستان مكان مرتفع للاستراحة سمى « المنظرة » وكان الخليفة يركب اليه للتنزه والرياضة •

ومن اشهر المناظر هذه كانت منظرة السكرة وتقع فى بر الخليج الغربى ،. وكان يتوجه اليها الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج ولها بستان عظيم بناها العزيز بالله ، وكانت السكرة من جنات الدنيا الوارفة •

المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٨٣ ، ص ٢٥٤ •

أحاطوه بحديقة من الورد بالقرب من قليوب ، ولا تزال هذه الجهة مشهورة بزراعة الورد البلدى الذى يستعمل فى التقطير (١٣) ومما لا شك فيه أن هذه المناظر كانت خير مصدر للنباتات العطرية ، حيث كانت حافلة بزراعة الرياحين والزهور وأنواع الورد التى يمكن صناعة العطور منها ·

ومن انواع الاشجار والنباتات العطريه التى تم غرسها فى العصر الفاطمي كانت أشجار الاهليلج ، ويذكر المقريزى أنه كان يزرع بعض هذه الأشجار فى منطقة عرفت بصحراء الاهليلج الهندى فعرفت بذلك ، وكما أشرنا من قبل عن ثمار هذه الشجرة حيث كان زيتهـا من أفضـل المواد العطرية ·

أما الدهون المستخرجة من شجر البلسان التى انفردت بها مصر دون سائر البقاع ، فقد كانت موضع تقدير واعجاب الخلفاء فى العصور الاسلامية، وقد زعم ناصر خسرو أن الفاطميين كانوا هم أول من استحدث غرسها فى مصر بحديقة عين شمس بالقرب من القاهرة · وتشير المصادر التاريخية الى شهرة مصر بزراعة البلسان ، واستخراج الدهون وتراكيب المعاجين والأدوية منذ العصر البيزنطى وفى فجر الاسلام (١٤) ·

وقد تحدث عن البلسان ووجوده فى مصر قبل مجىء الفاطميين كل من الجاحظ وابن الكندى وغيرهما من أمثال الاصطخرى الذى قال عنه : « وحوالى الفسطاط زرع ينبت مثل القضبان يسمى البلسان ، يتخذ منه دهن البلسان، لا يعرف بمكان فى الدلتا الا هناك » ·

ويصف لنا الرحالة عبد اللطيف البغدادى طريقة استخراج دهن البلسان (١٥) ، فكان اذا شرخ شجره يسيل منه هذا الدهن ، فيجمع فى قنانى زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهى جناه وينقطع لثاه ، وكلما كثر الندى فى الجو كان لثاه أكثر واغزر · وكان يرفع مقدار الدهن الخالص منه

---

(١٣) ذكر المقريزى قصر الورد بالخاقانية وقال عنه : كان من أيام متنزهات الخلفاء يرم قصر الورد بناحية الخاقانية · وكان من أحسن المتنزهات المصرية وكان به عدة دويرات يزرع فيها الورد · الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ·

(١٤) يصف الجاحظ إنه كان يشرط فى أيام الربيع شجر البلسان ، فيخرج منه الدهن فيؤخذ منه وهو مفقود فى الأرض كلها ما خلا مصر · التبصر بالتجارة ، ص ٣٢ ، كما يذكر ابن الكندى من فضائل مصر وخيراتها زيت الفجل ودهن البلسان والأفيون. فضائل مصر ، ص ٦٩ ·

(١٥) ذكر البغدادى أن تعداد ما اخرج منه فى سنة ٥٩٦هـ وكانت عام جدب نيف وعشرون رطلا ، الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة فى أرض مصر ، ص ٢٢ ، نشر ، سلامة موسى ·

بعد ترويقه الى خزانة القصر الفاطمي • وكانت الحكومة الفاطمية تحتكر انتاجه لندرته حيث كان يتخذ منه بعض الأدوية لعلاج بعض الأمراض وفي تركيب بعض الدهون الخاصة ، وظل الأمر كذلك أيام الأيوبيين ، كما حذا سلاطين المماليك حذوهم من بعدهم (١٦) •

ومما يدل على اهتمام الفاطميين باقتناء الطيب والعطور على اختلاف أنواعها ، ما أوضحه المقريزى عند حديثه عن خزائن الطيب والطرائف التي كانت من جملة الخزائن الفاطمية الشهيرة في أيامهم ، فقد ذكر أن السيدة رشيدة ابنة المعز لدين الله خلفت عند وفاتها سنة ٤٤٢ هـ من بين ما خلفته مائة قطرميز كافورا •

وقد بذل أمير الجيوش بدر الجمالى في عهد الخليفة المستنصر الكثير من الأموال لانشاء الحديقة التى عرفت باسم حديقة الجيوشية نسبة اليه ، وعمل على احاطتها بسور يشبه سور القاهرة ، وقد بلغ انتاج وبيع الزهور والفواكه من هذه الحديقة ما يقدر سنويا بثلاثين ألف دينار وهكذا استمر الحكام الفاطميون من الخلفاء والوزراء يغرسون الحدائق والبساتين ، ويقيمون بها المناظر حتى أواخر عهدهم ، ويعملون على توفير النباتات وسائر الرياحين وأنواع الياسمين والزعفران فضلا عما كان ينمو فى سائر أنحاء البلاد ، مما أدى الى تقدم وازدهار صناعة العطور فى مصر على مر العصور •

ولم يقتصر الأمر على النباتات العطرية التى عمل الفاطميون على غرسها فى المناظر العديدة والبساتين التى أقاموها فى نواحى القاهرة والفسطاط وجزيرة الروضة وبالقرب من قليوب وغيرها من الضواحى ، بل كانت هناك أنواع مختلفة من هذه النباتات ترد الى مصر من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو ، فهناك العود وخير أنواعه ما جاء من بلاد الهند • أما المسك فأعظم مواطنه بلاد التبت وهو يفوق غيره من المسوك جودة وثمنا • وقد اشتملت ثروة الوزير المأمون البطائحى على مائدة من العمود القمارى ، كما وجد هذا النوع فى خزائن القصر عند نهبه أيام الشدة العظمى •

كما عمل المصريون على استيراد الكافور ، وهو صمغ شجرة خشبها أبيض يميل الى السواد ، ويعطينا الدمشقى وصفا دقيقا للجيد منه فيقول : « وأجوده ما حلا ذوقه وخف وعذب ريحه ، فلم تظهر فيه نقطيه ، وكان يوضع فى اناء زجاج أو صينى داخله أملس » • ويخلط معه الشمشم ،

(١٦) ذكر السيوطى ان البلسان كان يزرع بمصر فى عصره ودهنه يستعمل اكثر فى العلاج • حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩ •

Wiet. : Les Mosquees du Caire, tome, I, p. 96.

ويغطى بأوراق قصدير ويحكم سده . ويوقى من الحر ووهج النار ومباشرة الأجسام الحارة .

ويذكر المقريزى أنه أخرج من خزائن الطيب فى سنوات الشدة العظمى من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة ، أقل تمثال منها وزنه اثنا عشر منا ، ومن جملة ما نهب من تلك الخزائن أيضا من تماثيل الخليفة ما لا يوجد نظيره ، منها ثمانمائة بطيخة كافور (١٧) .

ولا شك أن روح الترف فى العصر الفاطمى وانتشار الثراء بين الناس فضلا عن هؤلاء الحكام الفاطميين ووزرائهم ، قد شجع على اقتناء المقادير الكبيرة من العطور ، فقد وجد فى خزائن الوزير الأفضل خزانة للطيب مملوءة بأسفاط العود وغيره أما أوانى المسك والعنبر فكانت من الكثرة بحيث يصعب عدها . كما ذكر ابن اياس أن الوزير المأمون البطائحى خلف مائة جرة مملوءة من الكافور القنصورى النادر الوجود .

---

(١٧) من الطريف ما ذكره ابن ميسر عن دار الوزير الأفضل ، فقد أوضح انه كان بها تمثال من العنبر بحجمه الطبيعى لتقاس عليه ثيابه عند عملها ، وكذلك كان يدخل مجلسه تماثيل لجوار متقابلات منهن أربع بيض مصنوعة من الكافور ، وأربع سود مصنوعة من العنبر كلهن مرتديات الفخر الثياب . أخبار مصر ، ص ٥٨ .

٥ ـ صناعة واستخدام الشمع

ارتبطت صناعة الشمع بتربية النحل فى مصر منذ قرون طويلة قبل الفتح العربى (١) ، فالشمع هو جدران بيوت النحل التى يبيض فيه وتفرخ فيها ويكون خزانة للعسل ، ومما يدل على كثرة استخدام المصريين للشمع ما تردد على لسان العرب عند فتحهم للبلاد من ذكرهم للمكان الشهير بقصر الشمع (٢) ، فقد ذكر المؤرخون أنه يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر عملا باتباع نظام الفلك الذى كان سائدا فى العصر الرومانى والبيزنطى ٠

وهكذا فلا غرو ان اشتهرت مصر ابان الفتح العربى وفى عصر الولاة بانتاج الشمع الوفير من خلايا النحل ، وفضله العرب على غيره من الشمع٠

وكان صالح بن على والى مصر فى سنة ١٣٣ هـ أول من اتخذ الشموع

---

(١) تشير أوراق البردى اليونانية الى أن عملية تربية النحل قد نظمت تنظيما جديدا فى فيلادلفيا Philadelphia بنواحى الفيوم خلال العصر البطلمى ٠

محمد عواد حسين : نصوص مختارة من مصر فى العصر البطلمى ، ص ٢٣ مترجمة ٠

(٢) أطلق على قصر الشمع الذى بناه الفرس أثناء احتلالهم للبلاد الحصن أيضا ويقال له بابليون ، وهو الحصن الذى بالفسطاط ، فلمـــا انهزم الفرس أمام الرومان بقيادة هرقل سنة ٦٢٩م ، عمل البيزنطيون على اتمام بناء ذلك الحصن ٠ وقد أشار ياقوت الى ذلك المكان عند ذكره قبة الدخان ، ولعل منشأ ذلك أن الصروح العالية كانت تتخذ فى وقت الحروب مراقب ٠ تبعث منها الاشارات ، فنشبـــأ من ذلك اسم قصر الشـــمع ٠

ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٩٠ ــ ٩١ ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٥٥١ ، بتلر : فتح العرب لمصر ، ص ٢١٦ ترجمة فريد أبو حديد

الكبيرة الطول ، شأن الخلفاء الأمويين فى صدر الاسلام حيث كانوا يستصبحون بالزيت فى القناديل ويمشى بين أيديهم بالشمع الطوال (٣) ٠

وكان للمصريين مهارة كبيرة فى عمل الشمع (٤) ، فهم يصنعون منه أنواعا مختلفة ٠ وقد شاع استخدامه فى ذلك العصر ، وكثر الحديث عنه فى مجالس الخلفاء الأمويين والعباسيين ، حتى قيل ان بوران بنت سهل لما زفت على الخليفة المأمون أوقد على المأمون فى تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون منا ، وبلغ ثمن الشمع المستخدم فى أيام الخليفة العباسى المتوكل فى كل سنة ، ألف ومائتى ألف درهم ٠

وفى عهد الطولونيين ، لما زفت قطر الندى بنت الأمير أبى الجيش خمارويه على الخليفة المعتضد بالله ، قال المعتضد أكرموها بشمع العنبر ، ومما يدل على كثرة انتاج الشمع فى مصر فى ذلك العهد أن المصريين كانوا يستهلكون منه كميات كبيرة ، كما كان من التقاليد وقتئذ أنه اذا ركب صاحب شرطة الفسطاط أن توقد بين يديه الشموع والمشاعل فيطوف الشوارع وينادى فى الناس ألا يختلط المسلمون بالنصارى أثناء الاحتفال بليلة الغطاس ، وألا يكدروا عليهم عيدهم ٠

ويذكر ابن زولاق أن الأمير محمد بن طغج الاخشيد كان أول من اتخذ المواكب بالليل ، حيث كان يركب الى الجامع العتيق فيحضر الختم والدعاء وتحمل فى موكبه الشموع على البغال ٠ ويصف لنا المسعودى ليلة الغطاس واحتفال المصريين بها فيقول : « ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها ٠ وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشموع » ٠

وقد كثرت صناعة الشمع واستخداماته فى العصر الفاطمى وكانت من أهم مراكز صناعته الاسكندرية ودمياط وتنيس فضلا عن الفسطاط (٥) ،

---

(٣) ذكر المقريزى أن أول من اتخذ الشمع الغلاظ التى فيها الأمناء (جمع من وقدره حوالى رطلين) الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ٠ وكان طول الواحد من الشمع ثلاثة أشبار ٠ نفس المصدر ، ص ٧٨ ٠

(٤) كان المصريون يستخلصون الشمع من خلايا النحل ، فالنحل تعمل الشمع أولا ثم تلقى فيه البزر ، فالشمع لها بمثابة العش للطير ٠

(٥) كان الشمع من السلع التى اشتهرت بها مصر ، ومنها يحمل الى سائر الدنيا وذكره ابن الكندى من الأشياء التى كانت من فضائل مصر فى القرن الرابع الهجرى فضائل مصر ، ص ٦٩ ٠

وكانوا يصنعون الشموع على اختلاف أحجامها ما بين صغير يحمله الطفل، وكبير تزن الواحدة بضعة أرطال • وكان صناع الشمع فى أحيان كثيرة يلجأون الى غشه بالزيت الغليظ أو خلطه وقت سبكه بدقيق الباقلاء والحمص المسلوق ونحو ذلك •

وكان على عرفاء الأسواق أن يطوفوا بالحوانيت التى تصنع الشموع ومراقبة هؤلاء الصناع ومنعهم من أساليب الغش ، التى يمكن معرفتها اذا وضع الشمس فى الماء ، فان طفا فهو خالص من الغش بالمواد الأخرى ، وان رسب فهو مغشوش •

وقد خصص الفاطميون للشمع وصناعة الشموع خزائن عرفت بخزائن دار أفتكين (٦) وكانت تحتوى على أصناف عديدة من الشمع المحمول من الاسكندرية وغيرها ، مما يدل على أن الاسكندرية كانت من أهم مراكز عمل الشمع فى العصر الفاطمى ، حيث كان لرطوبة الجو أثر كبير فى تماسك المواد المصنوع منها الشمع ، كما هو الحال فى دمياط وتنيس وغيرها من المدن الساحلية التى كانت قائمة بهذه الصناعة من قبل •

وقد نقل المقريزى عن ابن الطوير أنه كان اذا مضى النصف من شهر جمادى الآخرة فان الأوامر تصدر بأن يسبك فى خزائن دار أفتكين هذه ستون شمعة وزن كل شمعة منها سدس قنطار بالمصرى وذلك استعدادا للاحتفال بليالى الوقود ، وكانت من أبهج الليالى وأحسنها يحشر الناس لمشاهدتها من كل صوب وتصل الى الناس فيها أنواع من البر وتعظم فيها ميزة أهل الجوامع والمشاهد •

وذكر المسبحى فى حوادث سنة ٣٨٠ هـ أن الناس خرجوا الى جامع القاهرة وزيد فى الوقيد على حافات الجوامع ، وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع ، وأطلقت الهدايا من الأطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة وطيف بها ، وحضر القاضى محمد بن النعمان فى ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد وجلس بين يديه القراء والمنشدون والعامة وأقام الى نصف الليل ثم انصرف الى داره • وهكذا كان الاحتفال بليلة من ليالى الوقود الأربع التى استحدثها الفاطميون ، وكان ينفق فيها من مقادير الشمع الشىء الكثير •

---

(٦) وهو الأمير نصر الدين افتكين ، أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى ، الذى رافق نزار بن المستنصر بالاسكندرية • قال ابن الطوير : وكانت لهم دار كبرى يسكنها نصر الدولة افتكين ، فعرفت باسمه فى أواخر أيام الفاطميين • المقريزى : الخطط ، ج ٢ ؛ ص ١٥٣ — ١٥٤ •

ومما يذكر أن الحاكم بأمر الله قد أمر بإبطال تلك الليالى والاحتفال بها ، الى أن جاء الخليفة الظاهر ، فأمر بالعودة وأن توضع الشموع الطوال على حافات الجوامع كما كانت عليه أيام العزيز بالله ·

وكان هنـاك سوق للشماعين أيام الفاطميين ، تباع فيها الشموع الموكبية والفانوسية والطوافات ، وكانت تفتح الحوانيت بها حتى منتصف الليل ، ويقول المقريزى : « وقد أدركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع ، وكان يباع فى هذا السوق كل ليلة من الشمع بمال جزيل · وكان به فى شهر رمضان موسم عظيم . لكثرة ما يشترى ويكترى من الشموع الموكبية التى تزن الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها ، ومن المزهرات العجيبة بالأصباغ الحسنة » ·

وكانت أسعار الشمع هى دينار ونصف لكل عشرة أرطال ، كمـا بلغ سعر قنطار الشمع عشرين دينارا · وكان الناس فى العصور الوسطى يتنافسون فى اقتناء الشموع كبيرة الحجم حتى أن المقريزى يقول انه ، « شاهد شمعة عملت فبلغت مصروفاتها نحو ألف وخمسمائة درهم فضة » · هذا ولم يقتصر استخدام الشمع فى العصر الفاطمى على أغراض الاضاءة والزينة ، بل كان يستخدم أيضا فى الأختام ونحو ذلك ، ويذكر المقريزى: « أنه لما ماتت عبـدة ورشـيدة ابنتـا المعز لدين الله ، ختم على مقاصير كل منهما ، وعـلى صناديقهما ، فقدر ما اسـتخدم من الشمع بأربعين رطلا مصريا » (٧) ·

وقد استمر استخدام الشمع وشيوع ذكره بين الناس خاصـة فى مواكب الفاطميين واحتفالاتهم حتى أصبح حديث الشعراء ونظمهم فمن ذلك ما نظمه أحد الشعراء الى الوزير الأفضل عندما أسرج الشموع على حافتى النيل (٨) · كما نظم ابن الخلال الشاعر متولى ديوان الانشاء فى أواخر أيامهم فى وصف الشموع ومحاسنها ·

ويبدو أن الرسوم التى كانت مفروضـة على صناعة الشمع كانت

---

(٧) وهى تقدر بنحو اربعة عشر كيلوجراما من الشمع · زكى محمد حسن : الكنوز الفاطمية ، ص ١٣٩ ·

(٨) يقول الشاعر :

أبدعت للناس منظرا عجيبا	لازالت تجبى السرور والطربا
ألفت بين ضدين مقتدرا	فمن رأى الماء خالط اللهبـا
كأنمـا الليـل والشموع بـه	أفق سـماء تألقت شـهبا

تتحصل عينا ، فقد ضم سجل المسامحة التي صدرت في عام ٥١٥ هـ من البواقي ، ما قيمته أربعمائة وأربعون رطلا من خلايا الشمع .

وهكذا تعاظم انتاج الشمع بشيوع استخدامه خلال العصر الفاطمي مما أدى الى ازدهار صناعته ورواج تجارته في الفسطاط وغيرها من المدن المصرية .

٦ ـ حرفة النحالة

قام المصريون باستخراج عسل النحل من خلاياه منذ العصور الفرعونية (١) ، وكان عسل نحل مصر له شهرة على كثير من أعسال الأقطار الأخرى ، وقد أعجب الرسول صلى الله عليه وسلم بعسل النحل المصرى وبارك فيه ، حينما أهدى اليه المقوقس حاكم مصر قدحا من زجاج وعسلا من جهة بنها العسل ٠

وبعد الفتح قبل الأقباط المصريون دفع الجزية نقدا ومقدارها أربعة دنانير عن كل رجل بدلا من الحنطة والزيت والعسل والخل ، والتى كانوا يقدموها عينا للبيزنطيين ، مما يدل على أن العسل كان انتاجه متوفرا فى مصر خلال العصر البيزنطى ٠

وقد زاول الحرفيون حرفة النحالة فى عصر الولاه والعصور الاسلامية اللاحقة ، واشتهرت بنها من بين النواحى والجهات حتى أن العرب أطلقوا عليها بنها العسل ٠ ومما لا شك فيه أن المسلمين العرب كانوا يقدرون قيمة عسل النحل وما فيه من الشفاء ، كما ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » وهو العسل ٠

وقد أمدنا المقريزى بمعلومات هامة عن حرفة النحالة فى العصور الوسطى ، حيث لا تقف خبرة العامل أو النحال فيها عند جمع العسل من الخلايا بل تمتد خبرته الى معرفة خصائص وطبيعة حياة النحل ونظام

---

(١) تعد مصر الوطن الأصلى للنحل منذ عصر ما قبل الأسرات ، ومنها إنتشر الى باقى أنحاء العالم القديم ٠

معيشته ، لأن وجود العسل فى الخلايا يرتبط ارتباطا وثيقا بهذه النواحى ·

فمن أنواع خلايا النحل الخلية الطبيعية ، فقد يتخذها النحل فى الجبال ، وفى الحيطان أو فى العراء فى موضع منعزل ، وفى هذه الحالة يقوم النحل ببناء خليته طبقات على هيئة صفوف بعضها فوق بعض · أما الخلية الأهلية فهى التى يصنعها النحال من جذع شجرة تعرف بالنحايت (٢) أو قد يصنعها من الطين والاخثاء (٣) ، وكانت تعرف بالخلايا أو الكوائر · وفى معظم القرى المصرية خاصة فى الوجه البحرى كان النحالون يتخذون القواديس كخلايا يأوى اليها النحل ويضع فيها شهده ·

وجرت العادة أن يقوم النحل بجمع رحيق العسل ابتداء من شهر برمودة أي شهر ابريل ، وأجود مراعيه القرط والجلبان ، ثم يقوم بصب هذا الرحيق في ثقوب الأقراص ، فاذا امتلأت غطاها بغطاء رقيق من الشمع فيصبح الشمع محيطا بالعسل من جميع جوانبه ويحفظه من الفساد ·

وكان عسل النحل يشار أى يجنى مرتين فى العام ، مرة فى الربيع وأخرى فى الخريف ، غير أن أجوده ما كان يشار فى الربيع ، والعامة من الناس كانت تسمى شيار العسل جزاز الشهد ، كما كان يعرف بالعاسل أو العسال ·

ومن طرق استخلاص العسل من الشمع ، أنه كان يضغط على الأقراص بالأيدى لعصرها ، وذلك اذا كانت الكمية المراد عصرها قليلة أما اذا كانت كبيرة ففي هذه الحالة تعصر بالضغط عليها بالأرجل ·

أما طريقة استخلاص العسل بالنار ففيها كانت الأقراص تلقى فى قدور وتطبخ بالنار ، فيذوب الشمع مختلطا بالعسل ، ثم يترك الخليط حتى يبرد فيتجمد معتليا سطح العسل فينزع وحده ويبقى العسل خالصا صافيا ، ثم ينقى العسل بعدها مما علق به فيصبح على درجة كبيرة من النقاء والصفاء ·

وهناك طريقة ثالثة لاستخلاص الأنواع الممتازة من العسل بدون نار ، فكان النحالون يلقون بأقراص العسل فى أحواض تسمى الواحدة منها مجيرة ، فاذا ألقى فيها الشهد تكسر وبرز منها العسل ويسيل منسابا الى

---

(٢) النحايت : سميت كذلك لأنها كانت تنحت بالفئوس من نوع الأشجار ·

(٣) الاخثاء : هو ما يرميه البقر من ذى بطنه ·

احواض أخرى يجمع فيها صافيا . فان بقى فى الشمع من العسل شيء اعتصر بالأيدى وكان يعرف هـذا النـوع المستخلص بهـذه الطريقـة بالذوب (٤) . ويقول المقريزى : « وأجود العسل عند العلماء ما طاب ريحه وعذب طعمه وصدقت حلاوته » .

وكان عسل النحل يبقى مدة كبيرة لا يتغير ولا يفسد اذا ما تمت المحافظة عليه ، أما عسل القصب والزيوت بأجمعها اذا لم يحسن صنعها فانها تفسد وتحمض بعد مدة وجيزة . وقد كتب ابن اياس أن الخلفاء الأمويين والعباسيين كانوا يشترطون على عمالهم فى مصر فى ضيافة المسلمين وأن يقدموا لهم عسل النحل خاصة عسل بنها . وكان العسل يحتاج اليه فى أمور كثيرة بالاضافة الى الأطعمة والأدوية التى يدخل فى تركيبها . فانه كان في ذلك الوقت يستخدم في حفظ الفواكه اليابسة فى الأسفار ، لأنها اذا جعلت في عسل النحل حفظت من التلف وبقيت على حلاوتها .

وفى عصر الولاة كان يحمل عسل النحل المصرى الى العراق وغيرها من البلدان ، وكان هذا العسل مما يفتخر به على أعسال الدنيا . وقد أمدتنا شواهد القبور التى عثر عليها بمجموعة من أسماء النحـالين أو العسالين نذكر منهم شاهدا يرجع الى ما بين سنتى ٢٢١ هـ ، ٢٢٩ هـ باسم مسرور بن سعيد العسال مولى بنى صاعد . وشاهدا آخر بتاريخ شوال سنة ٢٢٦ هـ باسم ماصل بنت هرون العسال وشاهدا ثالثا يرجع تاريخه الى ذى القعدة سنة ٢٤٨ هـ ويحمل اسم مى بنت يونس العسال ، كما يذكر ابن عبد الحكم قيسارية العسل بالفسطاط بالقرب من جامع عمرو بن العاص فحين هدم قره بن شريك الجامع كان الناس يصلون فيها الصلوات حتى فرغ من بنائه (٥) .

ونعتقد أن حرفة النحالة فى مصر قد بلغت أوج نشاطها فى ذلك العصر وفى عصر الطولونيين والاخشيديين ، نظرا لأن الأعسال أو السكر المستخرج من عصير القصب لم تكن مطابخها قد انتشرت فى أنحاء البلاد وشاع أمرها كما حدث فى العصر الفاطمى .

ومن الشواهد التى ترجع الى عصر الطولونيين والاخشيديين ، شاهد

(٤) الذوب : العسل أو ما فى ابيات النحل أو ما خلص من شمعه (القاموس) .

(٥) ونعتقد أن هذه القيسارية كانت تضم مجموعة من الحوانيت لبيع عسل النحل ، وليس عسل القصب ، حيث كانت أول اشارة وردت بزراعة القصب كما يذكر الكندى أنه لما قدم ابن شريك فى سنة ٩٣هـ اختار موضعا بظاهر الفسطاط عند بركة الحبش وغرسه قصبا . .

يحمل اسم عبد الرحمن بن اسحق العسال ، وشاهد يرجع الى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ويحمل اسم سليم بن يونس بن عبد الله ابن حكيم العسال . وشاهد ثالث يحمل اسم ابن رزق العسال مولى ابن محمد العطار ويرجع تاريخه الى ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين ومائتين .

وقد تأثرت حرفة النحالة فى العصر الفاطمى نتيجة انتشار زراعة قصب السكر ، وكثرة وجود المعاصر والمطابخ فى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية خاصة فى مناطق الصعيد . لكن أصحاب هذه الحرفة ظلوا يمارسون حرفتهم التى كانت تدر عليهم دخلا كبيرا ، وخير شاهد على ذلك ما ذكره المقريزى فى حوادث سنة ٥١٥ هـ حينما صدرت السجلات من الديوان الفاطمى بالاعفاء من بواقى الخراج وغيرها من الرسومات وكان من بين هذه الرسوم مقدار ٥٤١ قنطار وسدس من عسل النحل ، مما يشير الى أنها كانت تجبى عينا حتى أواخر أيام الفاطميين .

وهكذا استمر انتاج عسل النحل ، وشارك النحالون أو العسالون فى سائر أنحاء القرى المصرية غيرهم من الحرفيين والصناع فى توفير المواد الغذائية وفى صناعة أنواع الحلوى (٦) وتركيب الأدوية وغيرها مما تدخل فيه أعسال النحل التى اشتهرت بها مصر فى العصور الوسطى .

---

(٦) ذكر الشيزرى فى الحسبة على الحلوانيين انهم كثيرا ما كانوا يمزجون العسل النحل بربة الكرم أو عصير العنب ، وكانت علامة غشه أنه اذا حمل على النار ظهرت رائحة الرب . يعنى عصارة الثمرة بعد طبخها حتى تصبح غليظة . نهاية الرتبة ، ص ٤٠ .

٧ – حضانة الفراريج فى مصر الاسلامية

انتشرت الحرف والصناعات الشعبية فى سائر القرى والمدن المصرية منذ العصور المبكرة ، واستمرت كذلك بعد الفتح العربى للبلاد ، ومن هذه الحرف صناعة الشباك من الكتان ، والغرابيل والمكانس والأطباق التى كانت تصنع من سعف النخيل أو الحلفاء ، ولا زالت هذه الصناعات الصغيرة رائجة فى بلادنا حتى اليوم . أما الأقفاص والأسرة والكراسى فكانوا يصنعونها من الجريد ، كما استخدموا جذوع النخل وجريده بدلا من العروق الخشبية فى المبانى ولاقامة الجسور والكبارى فى القرى وما اليها .

وكانت صناعة حضانة الفراريج احدى هذه الصناعات الشعبية الهامة التى مارسها المصريون منذ العصور القديمة ، فقد ذكر بترى أن التفريخ الصناعى للبيض من مبتدعات المصريين ، وكان غير معروف فى الأقطار الأخرى .

وهكذا انفرد المصريون فى قيامهم بعملية التفريخ بطريقة الترقيد الصناعى التى برعوا فيها منذ فجر الاسلام ، ويظهر أن هذه الطريقة لم تنتقل من مصر الى غيرها من بلاد العالم الخارجى ، حتى العصر الأيوبى ، يؤيد ذلك ما أوضحه البغدادى فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى بأنها احدى الصناعات التى اختصت بها مصر وحدها .

ولا غرو فقد مهر المصريون فى صناعة البناء وصناعة الفخار وهما من الصناعات اللازمة لعملية التفريخ الصناعى ، حيث كان العمال يعدون للفراخ حظائر مصنوعة من الفخار ذات أبواب لوقايتها من الثعالب ليلا وغير ذلك . وكانت طريقة بناء الحظائر أو ما أطلق عليها المقريزى المعامل ، تتم بصناعة معينة ، وتوقد بالتنانير التى يعمل بها البيض بشكل يحاكى

الطبيعة فى حضانة الدجاجة لبيضها ، ويخرج من تلك المعامل الفراريج • ويذكر المقريزى أن معظم انتاج المصريين من الدجاج كان يتم بهذه الطريقة ولا يتم عمل هذا بغير مصر •

ويمدنا عبد اللطيف البغدادى بتفاصيل دقيقة عن هذه الحرفة التى كانت شائعة في أنحاء البلاد ، وكان المصريون يتكسبون منها ويتجرون فيها فمن ذلك أنهم كانوا يقومون ببناء المعمل على مساحة كبيرة يتخذ منها من البيوت المعمولة من الفخار ما بين عشرة أبيات الى عشرين بيتا ، وكان كل بيت يتسع لألف بيضة ويسمى بيت الترقيد (١) • وما زالت هذه الطريقة التى انفرد الرحالة البغدادى بذكرها تتبع فى أطراف القرى المصرية حيث تقام مثل هذه المعامل حتى وقتنا الحاضر •

وكان أفضل الأوقات لعملية الترقيد الصناعى شهور أمشير وبرمهات وبرموده من ألسنة القبطية ، فهى أنسب الظروف التى كان يكثر فيها البيض أيضا ، ويظهر أن الفيوم كانت من المناطق المشهورة بهذه الحرفة فى مصر الاسلامية ، ويشير النابلسى الى تربية الفروج بها ويقول : « والمربى بها من الفروج ثمانمائة وخمسون فروجا وللمقطعين ستمائة فروج وللديوان المعمور ، وكان ذلك فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ هـ ــ ١٢٣٩ م) ، ولا شك أن هذا يدل على استمرار مزاولة المصريين لهذه الحرفة حتى العصر المملوكى •

كما اشتهرت منطقة دندرة بالصعيد الأعلى بهذه الحرفة ، نظرا لتوفر نوع من الدجاج كان أكبر حجما من الدجاج المعتاد • وكان الدجاج يسمن باستخدام الشعير المطحون المعجون أو الأرز والنخالة من الدقيق •

ويعتبر الدجاج من أشهر الطيور المنزلية ، ومن أكثرها نفعا فى غذاء الانسان ، كما كانت تصنع من ريشه المراوح وتحشى به الوسائد •

---

(١) كانت هذه البيوت تتخذ شكلا مربعا طوله ثمانية أشبار وعرضه ستة فى ارتفاع اربعة ، ويجعل له باب فى عرضه سعته شبران ، وعقد فى مثله ، وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب الخ • وكان العمال الذين يقومون بالاشراف على عملية الترقيد لهم خبرة واسعة فى وضع الزبل فى هذه البيوت ، وفى تقليب البيض وفى كيفية الدخول والخروج من المعامل • وفى مزاولة الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام • يعقب ذلك أن العامل كان يدخل بالسراج ويفرز البيض ويقوم بأعمال التهوية حتى اليوم الرابع عشر ، ويستمر فى أعمال التهوية وتهيئة الطقس المناسب حتى التفريخ فى اليوم العشرين من ترقيد البيض فى البيوت ، عبد اللطيف البغدادى فى مصر ، ص ٣٠ ــ ٣١ •

وقد شجع الفاطميون على قيام هذه الصناعة الشعبية ، والعمل على تزويد القصور والمطابخ بأنواع الدجاج والفراريج بكميات كبيرة ، خاصة وأنها كانت تقدم فى الأعياد والمناسبات العديدة ، فمما يذكر فى عمل سماط عيـد الفطر أنه كان يعمر هذا السماط على طوله بواحد وعشرين طبقا ، وفى كل منها بالاضافة الى لحوم الضأن لحم الدجاج والفراريج وفراخ الحمام ، ويقول المقريزى : « ثم يسد خلل تلك الأطباق بالصحون الخزفية التى فى كل واحد منها سبع دجاجات وهى مترعة بالألوان الفائقة من من الحلواء » ٠

ومما يدل على شيوع المعامل أو التنانير كما أطلق عليهـــا المقريزى وانتشارها فى سائر القرى المصرية ، أن الفاطميين فرضوا عليها من الرسوم والضرائب كسائر الحرف والصناعات الأخرى ، يتضح لنا ذلك من بيان قائمة المكوس التى ألغاها صلاح الدين الأيوبى حين توليه السلطة فى البلاد عام ٥٦٧ هـ/١١٧٧ م ٠

ويبدو أن المعامل الخاصة بالترقيد الصناعى هذه كانت خاضعة لمدة ضمان (جمع ضامن) فى سائر النواحى ، هذا ولم تسمح عن سوء معاملة مقررى طرح الفراريج خلال حكم الفاطميين ٠ وكان الفقراء من الناس والأرامل يعانون من العسف والظلم شيئا كثيرا فى عصر المماليك ٠ وقد كان الناس فى جميع الأقاليم لا يمكن لأحد منهم أن يشترى فروجا فما فوق الا من الضامن ، ومن عثر عليه أنه اشترى أو باع فروجا بعيدا عن الضامن جاءه الموت من كل مكان على حد قول المقريزى ٠

٨ ـ صناعة السكر والعسل

لم يعرف المصريون زراعة قصب السكر قبل الفتح العربي ، اذ أدخلت زراعته في عصر الخليفة عمر بن الخطاب ، وسرعان ما تقدمت زراعته في مصر . وتشير أوراق البردى التي ترجع الى القرن الثاني الهجري الى زراعة قصب السكر . وقد نسب الى الامام الشافعي الذي عاش بمصر في أواخر القرن الثاني الهجري أنه قال : « لولا قصب السكر ما أقمت بمصر » .

ويبدو أن الولاه في مصر بدأوا يعملون على زراعة القصب فقد ذكر الكندي أنه لما قدم قره بن شريك في سنة ٩٣ هـ من قبل الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الى مصر ، اختار موضعا بظاهر الفسطاط عند بركة الحبش وغرسه قصبا (١) . كما يظهر أن الطولونيين في أواخر القرن الثالث الهجري كان لهم فضل كبير في نشر زراعة قصب السكر ، والاهتمام بانشاء مصانع صغيرة لاستخراج السكر منه . وتشير أوراق البردى الى انه أصبح من بين المحاصيل الزراعية ، ولا غرو فقد اهتم الطولونيون بعمارة الأرض وزراعتها في أنحاء البلاد .

كما تشير أوراق البردى التي ترجع الى القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الى شهرة مدن الصعيد بتجارة السكر والعسل ، ولا غرابة في ذلك فقد كانت تضم الأعداد الكبيرة من المعاصر والمطابخ ، ولدينا طراز من القرن الثالث من ادفو بالصعيد الأعلى يأمر فيه صاحب الخطاب بالتوجه الى ابراهيم النوتي القوصي صاحب احدى المراكب من أجل حمل مائة وسبع

---

(١) كان يطلق على ذلك الموضع اصطبل قره ، واصطبل القاسى ويعنون القصب وقد كان المكان يسمى بركة الحبش وتم زراعته بالقصب في سنة ٩٤هـ . الولاة والقضاة ، ص ٦٥ ، سعاد ماهر : حفائر كلية الآثار بظاهر الفسطاط ، ص ٩٥ ـ بحث نشر مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ، العدد الأول .

عشرة جرة من العسل • وفى مدينة الأشمونين عثر على احدى أوراق البردى وهى تشمل حساب أسبوعى بانتاج الأباليج وهى أقماع السكر ، ويرجع تاريخها الى عهد الطولونيين ، وفى بردية أخرى أوردت مقادير القصب التى وصلت الى أحمد بن ذبال صاحب معصرة ، وهى مكونة من مئات الحزم من القصب وأثمانها •

وتمدنا أيضا احدى البرديات التى ترجع الى القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري بقيمة الأموال التى دفعها أحد الأشخاص وهى ثلاثة دنانير ونصف وقيراطان من ثمن العسل المحمول الذى باعه أحد التجار فى ذلك الوقت •

وهكذا تشير أوراق البردى الى انتشار زراعة قصب السكر وتصنيع السكر والعسل منه في عهد الطولونيين والاخشيديين ، ومن الملاحظ أن مراكز صناعة السكر والعسل فى مصر ، كانت تقع في نفس مناطق زراعته، كما هو الحال فى صناعة استخراج الزيوت التى أشرنا اليها • ولقد جادت زراعته بأرض الصعيد خاصة حيث أمكن زراعة الآلاف من الأفدنة (٢) •

وتمدنا المصـــادر التاريخية والجغرافية بأسماء العديد من الجهات التى انتشرت زراعة القصب بها فى القرن الثالث الهجرى ، فابن حوقل يصف الصافية وهى من أعمـــال الغربية بأنها ضيعة كبيرة كثيرة قصب السكر وبها معصرة للسكر ومصنع ويذكر ابن حوقل أيضا بالقرب منها ناحية ديحمول (٣) وهى ضيعة كبيرة كثيرة قصب السكر والمعاصر ويصنع السكر بها والقند (٤) • وهكذا يوضح لنا الرحالة ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى ما اشتهرت به بعض الجهات فى الوجه البحرى من زراعة لقصب السكر ووفرة المعـــاصر بها والمطابخ الخاصـــة بصناعة الســـكر والعسل (٥) •

---

(٢) كان يزرع القصب فى نصف برمهات بعد تجهيز الأرض وكان يقطع القصب ويدفن فى الأرض زوجا زوجا ، ومازالت هذه الطريقة متبعة حتى الآن • ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٦٦ •

(٣) وردت باسم « دميجهون » وهى تقع بالقرب من سنديون من أعمـــال البحيرة • ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ٧٨ •

(٤) القند لفظ فارسى معرب وهو عسل قصب السكر • الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٤١ ، المسالك والممالك ، ص ٣ •

(٥) وقد طاف ابن حوقل فى العالم الاسلامى من شرقه الى غربه وكتب عن مصر حين زارها بعد سقوط الدولة الأخشيدية بتسع سنوات ، ولا شك أن وصفه لتلك الجهات الواقعة فى الدلتا وشهرتها بزراعة قصب السكر ووجود المعاصر بها ، يخالف ما ذكره آدم متز حين قال : « ولم يتكلم أحد من الجغرافيين فى القرن الرابع الهجرى عن زراعته فى مصر » ويعنى زراعة قصب السكر •

ومن مراكز هذه الصناعة فى الوجه البحرى أو الدلتا كذلك جهة ترنوط (٦) يذكر ياقوت ان آكثر فواكه الاسكندرية كانت تحمل منها وبها معاصر للسكر وكانت منية العلوق من تلك الجهات التى بها معاصر للقصب (٧) .

وذكر ابن بسام أن مدينة تنيس كان بها مائة معصرة ، لكنه لم يوضح لنا نوعية تلك المعاصر ، أكانت قاصرة على صناعة استخراج الزيوت أم انها كانت تضم معاصر لقصب السكر كذلك ومن المرجح أنها كانت للاثنين معا ، خاصة وان تنيس كانت ترد اليها المراكب محملة بكافة المحاصيل والخيرات من مصر والاسكندرية ومن أقاصى الصعيد .

كما اشتهرت مناطق كثيرة من الصعيد بزراعة قصب السكر وبوجود المعاصر والمطابخ للسكر بها ، نذكر منها مدينة الفيوم حيث كان بها معاصر للقصب ومسابك للسكر ، كما كانت توجد معاصر للقصب بجهة سنورس بالقرب منها . ويذكر المقريزى أن مدينة ملوى كانت أرضها معروفة بزراعة قصب السكر وأنها تضم عدة أحجار لاعتصار القصب بها . كما ذكر ياقوت من البلاد التى عرفت بصناعة السكر والعسل سمسطا التى كانت تقع بالقرب من البهنسا والأشمونين . أما أسيوط فيتحدث المقريزى عن شهرتها بصناعة السكر فيقول : « وبها سائر أنواع السكر ومنها يحمل الى سائر الدنيا » ، ويبدو أن القزوينى قد نقل عن ياقوت وصفه لمدينة اسيوط حيث جاء النص مطابقا لما أوضحه تقريبا (٨) .

وفى منطقة الصعيد الأعلى يذكر الادفوى مدينة البلينا بأنها أول الاقليم للصعيد الأعلى من جهة الشمال ، وبها عدة مسابك للسكر ، قيل انه لما توجه الخطيب والى قوص اليها ، أخرج له الأهالى نحو ستين منسفا من الحلوى ، ومثلها من الشواء .

---

(٦) ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص لما توجه نحو الاسكندرية لم يلق أى مقاومة من احد حتى ترنوط ، فلقى بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالا شديدا فهزمهم الله . فتوح مصر والمغرب ، ص ١٠٧ ، وترنوط قرية على النيل بمركز كوم حمادة من أعمال البحيرة .

(٧) يرجح محمد رمزى أنها هى التى تعرف اليوم باسم ميت الخولى عبد الله بمركز فارسكور من أعمال الدقهلية . القاموس الجغرافى ، جـ ١ ، ص ٤٣٤ .

(٨) يصف ياقوت شهرة أسيوط بأنواع السكر وما كان يصدر منها الى سائر الأنحاء فيقول : « وبها سائر أنواع السكر لا يخلو منه بلد اسلامى ولا جاهلى » . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٢٥١ .

واشتهرت فى صعيد مصر أيضا كل من سمهود وقفط ، فقد كانت سمهود تشتهر بالمعاصر الكثيرة لقصب السكر ، وكان بها سبعة عشر حجرا ، ويقال أن الفأر لا يأكل قصبها وذلك مشهور بين أهلها . كما اشتغل أهالى قفط بزراعة القصب ، وكان بالمدينة أربعون مسبكا للسكر وست معاصر للقصب .

ومن الجدير بالذكر أن معاصر قصب السكر وتلك المطابخ أو المسابك لم تكن ملكا للدولة ، وانما كانت لأصحابها من السماسرة والتجار الذين يديرونها لحسابهم ، وكانت الدولة تفرض عليهم من الرسوم والضرائب ما تفرضه على سائر الصناعات الأخرى .

وقد أمدنا النويرى بوصف مفصل لخطوات صناعة السكر والعسل ، حيث كان القصب يحمل الى المعاصر اذا حل شهر هاتور بعد كسره (٩) . وكانت عملية العصر تتم بعد تنظيم عيدانه بواسطة سكاكين كبار ، يقطعون بها الأجزاء العليا منه ، كما ينظفون أسفل العود مما به من عروق وطين ، وكان الصناع يجرون هذه العملية على منصات تعرف بالوترات (١٠) .

وباتمام عملية تنظيف العيدان ، كان القصب ينقل الى قسم آخر يسمى ببيت النوب ، فيقوم عمال آخرون وبأيديهم سكاكين كالسابق وصفها وأمامهم الوترات ، يجمع الواحد منهم عدة عيدان ويضعها على الوترة ويقطعها قطعا صغارا فتسقط فى بيت النوب حيث تعبأ فى أفراد (أوعية من الخوص) تسمى العيارات متساوية السعة ، وتنقل حيث تعصر .

وكانت عملية العصر تتم بواسطة معصرتين الأولى من حجر يدور بالأبقار ، فيوضع ذلك القصب المقطع تحت حجرها فيعصر وتنساب العصارة التى تسيل منه خلال ثقوب موجودة فى القاعدة التى تحت حجر المعصرة الى حوض حيث تتجمع فيه . وتجمع بعد ذلك قطع القصب المعصورة وتنقل لتوضع تحت المعصرة الثانية وتعرف بدولاب التخت فتقوم هذه المعصرة بعصر ما بقى من سائلها فى أعواد القصب .

وكانت العصارة التى تحصلت من المعصرتين تجمع فى مكان واحد لتتم تصفيتها على مرحلتين ثم يوقد تحت الخابية بالنار الى أن يغلى العصير

---

(٩) يذكر المقريزى أنه كان يحصل على الفدان ما بين أربعين أبلوجة الى ثمانين أبلوجة وكانت الأبلوجة تقدر بنحو تسعة قناطير تقريبا . الخطط ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

(١٠) الوترات كانت على هيئة منصات يتم تنظيف القصب على حرفها العلوى .

غليانا كثيرا ، فعندئذ تطفأ النيران ويترك العصير بداخل الخابية الى أن يسكن غليانه ثم يعبأ فى أوان كبار تسمى الواحدة منها قرعة تنفذ فى كل منها خشبة طويلة تبرز من جانبيها كالساعدين يمسك بهما القرعة ٠

وبعد عملية غلى ثانية يتحول العصير الى ما يسمى بالمحلب ثم ينقل من قسم الى آخر من أقسام المطبخ يعرف ببيت الصب به مصاطب مبنية مستطيلة تشبه المزاود ، مرصوصة فوقها أباليج أى أقماع من الفخار ضيقة الأسافل متسعة الأعالى بأسفل كل أبلوجة منها ثلاثة ثقوب مسدودة بقش القصب وتحت كل أبلوجة قادوس ٠

وبعد أن تملأ الأباليج بالمحلب بمغارف تعرف بالكرانيب ، تقطر من مسامها العصارة الرقيقة التى تفصل من ذلك المحلب وهى التى تعرف بالعسل المقطر ، ويتجمع فى القواديس بأسفلها وتنقل الأباليج بعد ذلك ويكون ما بها من عصير قد بدأ فى الجفاف متحولا الى قند ، وهو عصارة قصب السكر اذا جمد ثم يتخذ منه السكر ٠

وصناعة السكر كانت تبدأ من حيث انتهاء عملية عصير القصب وتحويله الى قند ، ولذلك فمصانع السكر كانت فى أحيان كثيرة تقام مكملة لمصانع عسل القصب يضمها بناء واحد وأحيانا أخرى كانت تستقل بذاتها ٠ وفى هذه الحالة ترسل أباليج القند الى مصانع السكر لتكريرها واستخراج السكر منها ٠

ويشير ابن دقماق الى دار القند بمدينة الفسطاط ، حيث كان يتجمع فيها القند القادم لها من شتى أنحاء البلاد والمعاصر ، وذلك بسبب كثرة مطابخ أو مسابك السكر بها ، كما كان يوجد فى العصر الفاطمى مطابخ السكر السلطانية وكانت سبعة مطابخ بجوار بعضها على صف واحد ، كما ذكر ابن دقماق أسماء العديد من أصحاب المطابخ الخاصة فى العصرين الأيوبى والمملوكى ٠ وهكذا كانت شهرة مدينة الفسطاط فى العصور الوسطى ، فقد ذكر ابن سعيد أنه كان يوجد بالفسطاط مطابخ للسكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى ، لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند ، وقد بلغت الرسوم المفروضة على دار القند ٣١٠٨ دينارات ، ٣٢ دينارا على مربعة العسل و١٣٥ دينارا على مطابخ السكر الموجودة بالفسطاط ٠

كان أجود أنواع العسل المعمول من قصب السكر هو العسل المقطر ، وهو ما يحصل عليه مما يقطر من أباليج القند كما أشرنا من قبل ، وبعض الأقصاب كان لا يجمد عصيرها فى الأباليج ليظل سائلا فيتخذ منه عسلا يعرف بالمرسيل ، وهناك نوع من العصير المتخذ من أطراف الأقصاب كان

يصنع منه عسل الحر . أما العصير المتخذ من القطع التى كانت تفصل من القصب عند تنظيفه بدار القصب ، فكان يصنع منها عسل كان يعرف بعسل الخابية وهو أردأ أنواع العسل .

وكانت هذه المعاصر التى تنتج العسل مزودة بعدة دواليب وآلات بسيطة تدار بواسطة الأبقار ، وقد شاع استخدام الدواليب أو العجلات فى أعمال الرى والزراعة كما هو الحال فى المعاصر وغيرها . وقد توسع المصريون فى زراعة قصب السكر فى العصر الفاطمى ، وليس أدل على ذلك من قول ناصر خسرو الذى زار مصر فى سنة ٤٤٠ هـ « وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا » .

وقد أنتجت مصر خلال العصر الفاطمى أنواعا عدة من السكر ، أقلها جودة السكر الأحمر وهو عبارة عن القند المتجمد فى الأباليج ، ثم يكرر باعادة طبخه على النار عدة مرات فى المطابخ ، وبعد كل مرة يوضع فى أقماع يجمد فيها بينما تسيل الشوائب العالقة به من الثقوب التى بأسفل هذه الأقماع ، فيحصل فى كل مرة على سكر أنقى درجة من سابقه وهكذا تعددت أنواع السكر تبعا لدرجة التكرير فى كل مرة ، فكان منها المكرر ، والتبع والوسط والنبات . وكان يصدر منه الى سائر بلاد العالم وكانت له شهرة تفوق سكر الأهواز فى المشرق الاسلامى .

ومن أجود أنواع السكر المكرر الذى عرف فى ذلك الوقت ، نوع كان شديد البياض صلبا اسمه الطبرزد (١١) ، وطريقة صناعته أن يطبخ السكر المكرر ، ويضاف اليه مقدار عشرة أكواب لبن حليب ومن الماء ما يغمره ، ثم يغلى ويترك يوما وليلة . ثم يغلى مرة ثانية حتى يغلظ قوامه ثم يترك ليجف بينما يصفى من عسله الذى يرشح منه .

ولا شك فى أن بداية النشاط الكبير فى صناعة السكر والعسل . انما يرجع الى تلك المظاهرة الاجتماعية والتقاليد التى أدخلها الفاطميون فى هذه البلاد . فمن ذلك ما قام به الخليفة العزيز بالله من انشاء دور الفطرة (١٢) .

---

(١١) كلمة فارسية معربة معناها سكر أو نبات غليظ صلب ، وتبر معناها بالفارسية الفاس ، زد معناها الضرب ، فكانما قصدوا أن هذا السكر قد نحت بالفاس وذلك لشدة صلابته ، شعبان ربيع : جلال الدين السيوطى والمعرب عن اللغة الفارسية فى كتابه المزهر ، ص ٧٥ .

(١٢) ذكر ابن الطوير المؤرخ الفاطمى أن دار الفطرة خارج القصر بناها العزيز بالله ، وقرر فيها ما يعمل مما يحمل اليه الناس فى العيد وتقع قبالة باب الديلم من القصر الذى يدخل منه الى المشهد الحسينى . الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

وكانت خاصة بعمل أنواع الحلوى والأسمطة لتوزيعها فى المواسم والأعياد على جميع الناس من الخاصة والعامة ٠

وكان يحمل اليها من أنواع الدقيق والسكر والفستق والزبيب الشيء الكثير ، يذكر القلقشندى أنه كان يحمل اليها أربعمائة قنطار من السكر من بين هذه المواد الغذائية ٠ وذكر المسبحى أنه فى آخر رمضان سنة ٣٨٠ هـ حمل يانس الصقلبى صاحب الشرطة السفلى ، وعلى بن سعد المحتسب السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباخا فيها تماثيل حلوى ٠ وقد عمل بدار الفطرة قصران من حلوى فى كل واحد سبعة عشر قنطارا وحملا فى شوارع القاهرة فى مركب الخليفة فى الاحتفال بعيد الفطر ، وقام الصناع بعملهما فى أحسن الأشكال فزينوهما بأوراق الذهب وفيهما الشخوص البارزة كأنها مسبوكة فى قوالب لوحا لوحا ، وهكذا كانت تستخدم نماذج الحلوى فى أغراض الزينة وغيرها ٠

وكان يعمل بدار الفطرة هذه مائة صانع من الحلوانيين ومائة فراش برسم تفرقة الحلوى على أصحاب الرسوم خارجا عما هو مرتب فيها ، وذكر أنه بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف كان يعمل بها عشرون قنطارا من السكر الفائق والحلوى من طرائف الأصناف ٠

وكان من رسوم الدولة الفاطمية فى أعياد الميلاد توزيع الجامات المملوءة من أصناف الحلوى المعمولة من السكر وغيرها من أنواع المأكل والمشرب ، وكان يشمل ذلك أرباب الدولة من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم من رجال الحاشية والبلاط الفاطمى ٠ وذكر الرحالة ناصر خسرو أنه كانت تنصب الأسمطة فى شهر رمضان وفى الأعياد والمواسم المختلفة، ويدعى اليها عدد كبير من الناس وتقدم لهم أنواع الحلوى وقيل ان ما ينفق على مائدة الخليفة خمسون ألف من (١٣) ٠

وقد شاهد ناصر خسرو شجرة أعدت للزينة ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضا ٠

وبالاضافة الى ما كانت تحتاجه الأسمطة التى يقيمها الفاطميون فى قصورهم من قناطير السكر وقصور الحلوى وما عبر عنه المقريزى من أصناف الحلوى المتعددة التى توضع كأنها الجبال ، فقد أنشأ الفاطميون خزانة الطعام وكانت من الخزائن الشهيرة ، وكان يحمل اليها من جميع

---

(١٣) المن : وزن قدره رطلان ، الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١١ ٠

الأصناف والمأكولات وغيرها من السكر والعسل والقند المقادير الهائلة ٠ كذلك خصص البلاط الفاطمى خزانة للشراب وكانت تحتاج من أنواع السكر والمواد الأخرى ما يحتاج لمؤلف مستقل أو وضع كتاب مفرد ٠

وفوق ذلك كان فى ركوب يوم فتح الخليج تنصب موائد وتوضع عليها تماثيل مختلفة فى أعداد وافرة على شكل الحيوانات كالغزلان والسباع والفيلة والزرافات ، وكلها مصنوعة من أنواع السكر والحلوى ٠

وقد استمرت دار الفطرة وخزائن الطعام والشراب حتى أواخر أيام الفاطميين ، وظلت احتياجاتها من أنواع السكر قائمة ، ففى عهد الخليفة الآمر وفى سنة ٥١٦ هـ تم عمل أربعين صينية خشكانج وحلوى وكعك وذلك بمناسبة الاحتفال بالمولد الآمرى حيث صدر الأمر بعمل خمسمائة رطل حلوى وتفرق على المتصدرين والقراء والفقراء ، وفى عام ٥١٧ هـ وزع على المساكين بالجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وبالقرافة خمسة قناطير حلوى وألف رطل دقيق ٠ كما حمل من دار الفطرة الى الأعيان والمستخدمين مقادير كبيرة من الحلوى ٠ وكان مصروف الفطرة السنوى نحو سبعمائة قنطار من السكر وخمسة قناطير من العسل ٠

ومن المحقق أن تقدم صناعة السكر والعسل فى العصر الفاطمى لم يكن بسبب احتياجات الدولة وتوفير أنواع السكر التى تتطلبه لاقامة الأسمطة وما يفرق على الخاصة والعامة ، وانما لتلبية حاجات الشعب الذى آخذت العادات والتقاليد الفاطمية تسرى فى صفوفه والمشاركة فى الاحتفالات بهذه الأعياد والمواسم ٠

وكان سوق الحلوانيين فى الفسطاط من أبهج الأسواق لما يشاهد فى حوانيتها من الأوانى وآلات النحاس الثقيلة الوزن وفيها من أنواع الحلوى المصنوعة من السكر والعسل عدة ألوان وأشكال ٠ وكان مما يصنع من الحلوى فى هذا السوق تماثيل الأطفال بأشكال مختلفة فى الأعياد والمواسم ، كما كان يبدو فى شهر رجب من أحسن الأشياء منظرا فانه كان يصنع فيه أمثال خيول وسباع وقطط وغيرها تسمى العلاليق ، ترفع على الحوانيت ، فمنها ما يزيد عن عشرة أرطال الى ربع رطل تشترى للأطفال ، فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ، وتمتلىء أسواق الفسطاط والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف ٠

كما استخدم الناس فى حياتهم اليومية ما يكفيهم من أنواع السكر ، فكان منه النوع الأبيض والسكر الأحمر ، وكانوا يحفظونه بعيدا عن النداوة

والرطوبة ، حيث يحفظ صلابته وصفاء لونه وكانوا لا يحبون الردىء منه . وهو ما مال لونه الى السواد وطعمه الى الملوحة .

وكان هناك من يبيع السكر الأحمر فى أسواق الفسطاط وغيرها على أنه من السكر الأبيض ، فانه إذا كان ظاهر أسفل القمع أحمر يأخذ بعضهم شيئا من السكر الأبيض فيحك ظاهر السكر الأحمر بصنعة لهم فيرجع كأنه أبيض ، فيظن المشترى أن باطنه مثل ظاهره .

كما يتضح لنـــا فى الحسبة على الحلوانيين الذين كانوا يصنعون الحلوى بأنواع كثيرة وأجناس مختلفة أنهم كانوا يغشون بعضها مثل من يمزج عسل القصب بالدبس (١٤) ، ومنهم من يغش الزلابية المشبكة بالقند المحلول عوضا عن العسل . وقد يغشون الخبائص (١٥) الناعمة والرطبة والصابونية بالنشا الخارج عن الحد فيعتبر عليهم المحتسب جميع ذلك .

وهكذا كانت المعاصر والمطابخ لقصب السكر تنتج الكميات الكبيرة من أنواع العسل والسكر لمتطلبات القصور الفاطمية ولسد احتياجات طبقات الشعب المصرى ، وما كان يصدر الى خارج البلاد منها .

. . . .

ولا شـك أن المصريين كانوا يعملون على انتـاج بعض المواد الغذائية والمشروبات الأخرى مثـــل سـائل الخل الذى يستخدم فى الطعـــام وفى أغراض أخرى . وتشير أوراق البردى الى أن صناعته كانت رائجة فى البلاد . كما ذكر عبد اللطيف البغدادى أن الخل كان يستخرج من ثمار متعددة غير العنب مثل الجميز والبلح .

كما عرف المصريون شراب الكشكاب الذى شاع عمله فى بعض المدن فى شمال البلاد مثل مدينة تنيس (١٦) . وقد شاع عمل شراب النبيذ

---

(١٤) الدبس عسل التمر او عصارته من غير طبخ . الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٤٠ .

(١٥) الخبائص جمع خبيصة وهى الحلوى التى تصـــنع من دقيق الحنطة مع دهن اللـــوز .

(١٦) الكشكاب نوع من الشراب المتخذ من اللبن الزبادى المضروب بالماء وهو صنف منعش غير مسكر يشبه ما يسمى فى تركيا آيران ، وكان يشرب فى فارس أيضـــا . ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٣٨ .

أو المزر أيضا المتخذ من عصير القمح ، حيث كانت العامة تشربه في سائر القرى والمدن ، حتى أنه كانت ترتفع أسعار القمح بسبب ذلك .

ويذكر ابن سعيد أنه كانت لا تصنع النيده ، وهي حلاوة القمح الا بمصر والقاهرة . كما يشير ابن الاخوة الى الشروط الواجب اتباعها في انتاج هذا النوع من الشراب ، حيث كان على صناع النيده ألا يستعملوا الا الدقيق العلامة الطيب ، وأن يكثروا من نشاونها حتى تكثر حلاوتها .

وقد استمر عمل النيده أو شراب المزر وغيره من أنواع المشروبات غير المسكرة حتى نهاية العصر الفاطمي ، حيث يصف لنا عبد اللطيف البغدادي طريقة عمله ، فهو يشير الى أن المصريين كانوا يتخذون القمح بعد نقعه في الماء حتى يخرج منه النشا ، ثم يصفى ويطبخ حتى يغلظ ثم يذر عليه الدقيق بعد ذلك ، ويعقد ويرفع ليباع بسعر الخبز في الأسواق .

أما عن الفقاع والنبيذ أو الخمور ، فقد اقتصر انتاجها على أهل الذمة من الأقباط المصريين ، حيث يذكر المقريزى أن شهر مسرى كان موعدا لجمع العنب واعتصاره فهو يقول : « وفيه يعصر قبط مصر الخمر ويعمل الخل من العنب » ولاشك أن الولاه في أعقاب الفتح العربي قد وقفوا موقفا متشددا من انتاج أو عمل هذه المشروبات المحرمة ، كما تشير المصادر التاريخية الى أن محمد بن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية كان يتعقب المواخير التي كانت ملاذ اللهو أو الشراب ويعاقب أصحابها .

ومما يذكر أنه في عهد الفاطميين كان بعض المصريين من أهل الذمة يصنعون من العسل نوعا من الشراب المسكر ، ويتضح لنا من رواية أبي المحاسن أن الحاكم بأمر الله وقف من ذلك موقفا حاسما اذ أمر بالقاء خمسة آلاف جرة من العسل في النيل خوفا من أن تستخدم في عمل النبيذ . كما يذكر النويرى أنه في سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم بأمر الله بمنع وتحريم كل ما يعمل منه النبيذ كالزبيب والعسل وخلافه .

ومهما قيل عن تعاطي هذه المشروبات في عهدي الظاهر أو المستنصر ، فانه لا يعني ذلك الترخيص من جانب الدولة بصناعتها . فقد تضمنت سائر المنشورات أو المراسيم الصادرة بأنه من تعرض لبيع شيء من أنواع النبيذ والمسكرات أو شرائها سرا أو جهرا ، فقد عرض نفسه لاتلافها وبرئت الذمة من هلاكها . ولم نسمع عن جباة الأموال في مصر الفاطمية أنهم عملوا على تحصيل أو جباية الرسوم والمكوس من منتجي هذه المشروبات

كما هو الحال فى الرسوم التى كانت مقررة على بيع أنواع المزر أو الشراب المرخص بعمله وبشربه لدى المصريين (١٧) ·

وخلاصة القول أن الحكام الفاطميين لم يسمحوا بانتاج هذه الأنواع من المشروبات أو الترخيص بذلك ، كما كان شأن الولاه فى صدر الاسلام أو من حكم بعدهم من الأمراء الطولونيين والاخشيديين ·

وهكذا لم تشغل صناعة النبيذ التى لم يسمح بقيامها أو انتشارها ما شغلته سائر الحرف والصناعات للمواد الغذائية مثل صناعة العسل والسكر واستخراج الزيوت وغيرها فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى وحتى سقوط الدولة الفاطمية ·

---

(١٧) من مراجعة قائمة المكوس التى الغاها صلاح الدين الأيوبى لم نستدل الا على مبلغ وقدره أربعة وثمانون دينارا كانت من بواقى الرسوم المفروضة على معامل المزر ، بينما بلغت المكوس المتبقية على دكان الرهن ومعصرة الشيرج والخل بالقاهرة خمسمائة دينار · المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ط · دار التحرير ·

الفصل الثامن

حرفة الدباغة وصناعة الجلود

١ ـ حرفة الدباغة .

٢ ـ صناعة الجلود والأنماط .

٣ ـ صناعة الحصير فى مصر الاسلامية .

١ ـ حرفة الدباغة

ورث الدباغون الأقباط في مصر حرفتهم عن المصريين القدماء (١) ، وكان من أهم أنواع الجلود التي استخدموها في الدباغة جلود الماعز والعجول التي بلغت درجة من التقدم والرقي قبل الفتح العربي لمصر ·

وتحفل أوراق البردي العربية بالعديد من الاشـارات والرسـائل المتعلقة بتربية العجول وأنواع الماشية والأغنام منذ فجر الاسلام ، وكان العرب فيما يبدو يعملون على تأجير العديد من الرعاة المصريين المنتشرين حول القرى المصرية لرعي أغنامهم ومواشيهم والعمل على حراستها والاهتمام بها · كما تشير أوراق البردي أيضا الى ما كان يجري بين تجار الماشية والأغنام بالفسطاط وبين الأشمونين وغيرها من المدن والجهات المصرية بشأن الحسابات وأثمان العجول والأغنام المرسلة الى العاصمة الفسطاط من أجل بيعها والانتفاع بلحومها وجلودها ·

ويصف ابن الكندي لنا فضائل مصر ما كانت تختص به من أنواع البقر الحبشية وغيرها من الخيول وسائر أنواع الماعز والأغنام ولا شك أنها كانت من خير المصادر للحصول على الجلود للعمل على دباغتها واستغلالها في الأغراض المتعددة كصناعة النعال وفي عمل الروايا والسروج ، وتلك الأرضيات التي كانت شائعة منذ فجر الاسلام للكتابة عليها ·

---

(١) تعني الدباغة معالجة الجلود باصلاحها وتليينها وازالة ما يفسدها من العفـونة والرطوبة باستخدام مواد قابضة كالقرظ من شجر السنط والشب والخوص والسماق والملح وقشور البلوط وغيرها ، وقد عثر على صورة تظهر المصريين وهم يعملون في دباغة الجلد ، وقد امسك أحدهم بالجلد ليلينه في وعاء ، وذلك على احدى جدران مقابر الأسرة الثامنة عشرة ·

وقد شاعت حرفة دباغة الجلود فى كثير من المدن المصرية وفى جهات متفرقة من البلاد ، ومن أوراق البردى يمكن الاستدلال على أسماء بعض الدباغين في مدينة ادفو بالصعيد الأعلى ، فمن هؤلاء كان يزيد الدباغ ، حيث ورد اسمه فى عقد زواج مؤرخ فى صفر سنة ٢٣٣ هـ ، كما ورد ذكر صاحب منزل يدعى سواد بن بقونس الدباغ فى عقد بيع مؤرخ فى ذى القعدة سنة ٢٣٩ هـ ، وهو على جلد أحمر .

كما اشتهرت من الصعيد مدينة اخميم (٢) ، حيث كان أهلها يعملون فى حرف كثيرة ومنها عمل الفرش القطوع والجلود ، كما يبدو أن الرهبان كانوا يعملون بدير الأنبا شنودة بالقرب من اخميم الى جهة الغرب منها بصناعة الجلود .

ويستدل من أوراق البردى على نشاط أصحاب حرفة الدباغة بمدينة الفسطاط ، حيث كانت الأبقار والأغنام وغيرها ترد اليها ولا تلبث بعد ذبحها على أيدى العديد من الجزارين ، أن يسعى الدباغون للحصول على جلودها . ومن أسماء الدباغين التى احتفظت بها شواهد القبور ، اسم على بن سالم بن أحمد الدباغ (٣) . ومن المعروف أن أعمال الدباغة من الحرف والصناعات المقلقة حيث كان يفرد لها من أطراف المدينة مثل مسابك الزجاج ومطابخ الصابون وغيرها .

وقد اشتهرت الاسكندرية حيث كانت احدى المراكز الهامة لأعمال الدباغة وصناعة الجلود في عصر الولاة وحتى العصر الفاطمى ، ومن هؤلاء الذين مارسوا حرفة الدباغة ، وكان من المحدثين منصور بن سندى الدباغ، وقد اشتهر بحرفة دبغ الجلود فى ذلك العصر .

وقد عرف الدباغون منذ فجر الاسلام طريقة صبغ الجلود بالألوان التى يرغبون فيها ، فمنها كان اللون الزيتي ، والبنفسجى والأصفر والأسود ، حيث كان هؤلاء يقومون بغسل الجلود بالماء وعصرها جيدا ثم شدها بعد اضافة شيء من الزاج فى الماء أو البقم ، أو بماء الاهليلج الأصفر وغير ذلك من المواد ، بحسب لون الجلد المراد عمله ، فكانت تطلى بها الجلود ثم تغسل بعد ذلك لتصبح صالحة للاستعمال .

---

(٢) كشفت المقابر التي أجريت في بانوبليس (اخميم) عن وجود نماذج وأنواع من الأحذية أو النعال ترجع صناعتها الى العصر البيزنطى وكانت تستخدم محليا .
Johnson : Byzantine Egypt, pp. 119-120.

(٣) ورد اسم احد الجزارين على شاهد من الحجر الرملى باسم ميمون بن أحمد الجزار .
Wiet : Stetes Funeraires, tome, 5, No. 182 .

وتشير كتب الحسبة الى الطرق السليمة التى كان على الدباغين اتباعها فى مزاولة حرفتهم ، وعدم استخدامهم لتلك المواد التى من شأنها الاضرار بالدباغة الصحيحة للجلود مثل دقيق الحنطة أو النخالة واستعمال القرظ اليمانى فى دباغة جلود الماعز ، فلا يصح بيع الجلد الا أن يكون يابسا مطويا فى غير تكسير ، كما لا يصح غش الجلود فلا يباع جلد المعز على أنه جلد الضأن ٠

٢ ـ صناعة الجلود والانماط

ويبدو أن المصريين في أوائل القرن الرابع الهجرى عملوا على اكتساب او معرفة صناعة بعض أنواع الجلود من الزنوج ، كما عملوا على أن يستوردوا من الحبشة الرقيق من جلود الجاموس ٠ وكان التجار الذين يعملون في عيذاب يجلبون الى مصر الأدم والدرق ، وكذلك جلود النمور وغير ذلك من الخامات اللازمة للصناعات الجلدية المختلفة ٠

وكان أهم ما يصنع من الجلود في مصر الفسطاط النعال أو الأحذية، كما يشير ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين الى ذلك ، فهو يذكر أنه كان بالقرب من مسجد الزنج دار ملاصقة لها تعمل على بابها النعال السندية ، كما يذكر لنا شيئا عن حرفة الحذائين أو صناع الأحذية فيقول : « وبالفسطاط غير دار يقال لها دار السلسلة ، منها دار السهمى التى فى الحذائين » ٠

وتشير أوراق البردى الى صناعة واصلاح النعال الخفتان بمدينة الفسطاط وغيرها من مراكز الصناعة ، فقد ورد في احدى الأوراق ما يفيد قيمة نعل فى حزام بما يساوى درهم ، وفى بردية أخرى أشارت الى ثمن خفتان بمبلغ وقدره ديناران ونصف ، وفى اشارة أخرى ثمن زوجي خفاف بلغ دينارا وقيراطا ونصف القيراط (١) ، وهكذا كانت الأثمان تختلف بحسب صفة تلك الأخفاف (٢) ٠

---

(١) ورد ذلك في قائمة بثياب مختلفة وأشياء أخرى مثل الأخفاف وهى ترجع الى القرن الثالث الهجرى ٠

جروهمان : أوراق البردى العربية جـ ٦ ، ص ٩٠ ، ص ٩٩ ٠

(٢) وتشير احدى البرديات المحفوظة بمكتبة جامعة هايدلبرج الى ثمن أربعة أزواج خفاف ، وهى الأحذية القصيرة الخفية ، وثمنها بلغ أربعة دنانير ٠ جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٦ ، ص ١١٣ ٠

ومن أسماء هؤلاء المشتغلين بصناعة النعال أو الأحذية بالفسطاط ، والتي وردت وفقا لمجموعة من الكتابات الأثرية والشواهد ، منها شاهد من الفسطاط يرجع تاريخ وفاة صاحبه الى ذى القعدة سنة ٢٣٢ هـ باسم « هرون بن محمد بن هرون بن نافع الحذاء ، وكتابة على جزء من شاهد رخام ورد من الصعيد يرجع تاريخه الى سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م يقرأ عليه لفظ « الحذاء » (٣) • كما يحتفظ متحف الفن الاسلامى بلوح من الخشب عليه كتابة محفورة ترجع الى حوالى سـنة ٣٠٠ هـ باسـم « معاذ ويكنا أبا طالب عتيق بن عبد الله الحذاء » •

ولا غرو ان راجت صـناعة الصنادل أو النعال والأخفاف بمدينة الفسطاط (٤) ، فقد أقبل الناس عليها وازداد بها العمران لاسيما بعد أن تم بناء القطائع التي كانت أعمر من أى مدينة كبيرة من مدن الشام كما يقول البلوى ، واتصلت مبانيها بعاصمة مصر الاسلامية •

كما راجت صناعة الروايا من جلود الماعز وغيرها من الأغنام ، وكانت حرفة السقائين من الحرف الشائعة في الفسطاط وفى غيرها من المدن المصرية منذ الفتح العربى ، وكان هؤلاء الحمالون أو السقاءون يحملون الماء فى هذه الروايا أو القرب من النيل الى المنازل ، ويصعدون الدور كل طبقة بنصف دانق ، ومما يذكر أن دار عبد العزيز بن مروان الوالى على مصر كان يحمل اليهـا نحـو أربعمائة راوية ماء فى كل يوم ، وظلت حرفة السقائين شائعة فى مصر حتى العصر الفاطمى •

ويشير المقريزى الى اهتمـام الفاطميين بهـؤلاء السقائين ، فقد ورد ذكرهم فى وقفية الحاكم بأمر الله التى أوقفها على الجامع الأزهر ، كمـا يذكر ناصر خسرو أن ماء المدينة يعنى الفسطاط كان ينقله السقاءون من

(٣) Wiet : Stetes Funeraires, tome 6, No. 1337.

حذا النعل حذورا ، وحذا وقدرها والحذاء بفتح الذال النعل ، والحذاء بالشد مع الفتح هو صانع النعال ، وهو يختلف عن صانع الزرابيل التى كان يستخدمها أهل الريف ، والزربون على وزن ممعون وهو المركوب الذى يمشى به الفلاح •

الشربينى : هز القحوف ، ص ٢٣٧ •

(٤) وقد عرفت مصر صناعة الصنادل من الجلود منذ العصور القديمة ، فهناك رسوم على احدى جدران المقابر الفرعونية وقد جلس صانع النعال على مقعده بجواره أدواته كالمخرز والمثقاب ، وقرن حيوان ومدقة وسكين وآلة ذات ست أسنان ، ويمسك الصانع بقطعة الجلد التى أعدها على شكل نعل ، ويرى وهو يقوم بثقبها بالمخرز وادخال السيور فيها ويشدها باسنانه وهكذا •

النيل ، فمنهم من يحمل الروايا على كتفه ، ومنهم من يحملها على الابل (٥) وقد أسند السقاءون في العصر الفاطمي دورا هاما في اخماد الحرائق ، اذ كانت تؤخذ عليهم التعهدات باستعدادهم للحضور كلما دعت الحاجة اليهم ليلا ونهارا • ولا شك أن تلك الروايا كانت تتطلب مقادير كبيرة من الجلود بعد قيام الدباغين باصلاحها ، وبلغ الأمر في العصر الفاطمي أنه كان يعرف عليهم رجلا أمينا يمنعهم أن يستعملوا شيئا من الآلات الحافظة للمياه الا من الجلود المدبوغة ، وألا تعمل من جلود النعال أو ما يشبه الدرن ونحو ذلك لعدم صلاحيتها كجلود الروايا المستعملة •

ولم تقتصر الحاجة الى الجلود في عمل الروايا على مصر أو القاهرة في العصر الفاطمي ، اذ كان السقاءون ينقلون المياه من نهر النيل والقنوات والآبار والخزانات الى أماكن استعمالها من بيوت ومساجد وحمامات بل كانت المدن المصرية الأخرى تزود بمياه الشرب من النيل • وقد ورد اسم أحد السقائين في عقد بيع على احدى أوراق البردي مؤرخ في رمضان سنة ٤٤١ هـ في عهد الخليفة المستنصر ، وكان اسم الشاري المكنى بأبي العلاء القزاز بن مينا السقا الساكن مدينة الأشمونين •

كما يظهر أن جلود الماعز والأغنام كانت قاصرة على صنع تلك الروايا ، ولم تعد جلود الأبقار وغيرها من الماشية التي أشار اليها ابن مماتي (٦) مثل أنواع الجاموس وأبقار الخيس كافية لسد الاحتياجات المتنوعة لصناعة الكثير من الأدوات والسلع الجلدية ، فكانوا يستوردون في العصر الفاطمي جلود البقر من الحبشة بما يشبه جلد النمر ويعملون منه النعال الجيدة •

ويشير المقريزي الى كل من سوق الأساكفة وسوق الأخفافيين ، وأغلب الظن أن الخفاف كانت خاصة للنساء في ذلك العصر ، وكانت هذه من الأسواق الرائجة بظاهر الفسطاط ، وربما كان عمل هؤلاء الأخفافيين يتأثر في بعض الأحيان بمثل تلك المراسيم أو القرارات التي كان يصدرها الحاكم بأمر الله ، فقد ذكر المقريزي أن الحاكم منع النساء من المشي في الطرقات ، ومنع الأساكفة من عمل خفافهن ، وتعطلت حوانيتهن بسبب ذلك • ولا شك

---

(٥) قيل أنه كان يخدم سكان مصر والقاهرة نحو اثنين وخمسين ألف جمل كان يحمل عليها السقاءون الروايا المصنوعة من الجلد • وسفرنامه ، ص ٤٩ ، ص ٦١ •

(٦) وكان من أنواع الماشية الأخرى الأغنام البياض و الشعارى التي كانت تفرض عليها ضرائب تتراوح بين ثلاثة وأربعة دنانير الى دينار واحد للكبش أو النعجة ، ومن الشعارى الماعز كل مائة رأس عشرين دينارا • قوانين الدواوين ، ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢ •

أن مثل هذه القرارات سرعان ما كان يزول أثرها بقرارات أخرى حتى وفاة الحاكم بأمر الله فى عام ٤١١ هـ •

وقد اشتهرت الفسطاط بصناعة الكثير من الأدوات مثل عمل الحقائب والسيور والقسي ، وبعمل الانطاع أيضا من الجلود التى كانت تصدر منها الى بلاد الشام • ومن الذين كانوا يعملون بصناعة الأنماط كما ذكر أبو الحسن القفطى فى ترجمته صالح بن عادي العذرى الأنماطى ، وقد كان نزيل قفط بصعيد مصر ، واشتهر بهذه الحرفة فضلا عن كثرة مطالعته لكتب النحو وغيرها من علوم العربية فى عصره • وكانت حرفة الأنماطيين من الحرف الشائعة فى ذلك العصر حيث كانت كل ربة بيت تحتفظ فى بيتها على الأقل بجلد حيوان مزخرف بزخارف جميلة يفرش على المائدة لتناول الطعام عليها ، وكان اعداد مثل هذه الجلود لهذه الغاية يشكل احدى الصناعات الجلدية فى أسواق الفسطاط وغيرها •

ولا ريب أنه منذ بداية الفتح الاسلامي ، كانوا يستخدمون بعض أنواع الجلود كالماعز بعد تجهيزها فى كتابة العقود وغيرها من أغراض الكتابة ، حيث كان الجلد أو الأديم أو الرق من المواد التى سطرت عليها الكتابة المصرية فى العصور القديمة (٧) • وبمراجعة النصوص التى وردت على أوراق البردى العربية ، كان منها نصان كتبا على جلد ، فقد أورد جروهمان عقد بيع مؤرخ سنة ٢٣٩ هـ على جلد أحمر يرجع الى مدينة ادفو بالصعيد ، وهو عبارة عن عقد بيع لمعصرة زيت لأحد الأشخاص ورد على قطعتين من الجلد عليهما بالمدينة المذكورة فى أقصى الصعيد • وحينما كثرت صناعة الورق فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وتقدمت صناعة الكتابة ، أخذت الجلود تستخدم فقط فى أعمال تجليد الكتب والمخطوطات •

ومما لا شك فيه أن رواج صناعة الورق ونشاط الحركة العلمية فى مصر فى العصر الفاطمى ، كان له أثره الملحوظ فى تقدم فن التجليد الذى أبدع فيه الصناع ، حيث استخدموا جلود العجول وغيرها فى تجليد المخطوطات ، والمصاحف بصفة خاصة • وقد فاقت زخرفة الجلود فى ذلك العصر تلك الزخارف الهندسية التى كانت من قبل (٨) ، فقد تم حفظ المخطوطات فى جلود جميلة النقوش بديعة الصناعة نسج المماليك على منوالها فى صناعة التجليد •

---

(٧) ويذكر ديماند أن أقدم جلود الكتب المعروفة فى العصر الاسلامى صنعت فى مصر • الفنون الاسلامية ، ص ٨٦ •

(٨) ذكر ديماند أن تلك الزخارف الهندسية فى جلود بعض الكتب القفطية يرجع تاريخها الى ما بين القرنين الثامن والتاسع الميلاديين • الفنون الاسلامية ، ص ٨٦ •

كما اشتهرت مصر بصناعة كثير من الأدوات المستخدمة في صناعة العربات الحربية والدروع ، وفي أغراض أخرى عديدة منذ التاريخ القديم (٩) ، ويظهر أن حرفة عمل السروج كانت مشهورة ابان الفتح العربى ، فابن عبدالحكم حينما يتكلم عن تخطيط الفسطاط يشير الى موضع السراجين وأصحاب حرفة السراجة ، فيقول : واختط ابن عبده داره التي في السراجين ، وفي موضع آخر يقول أيضا : ودار سهل التي فيها السراجين وحمام سهل كان ذلك لعبد الله بن عمرو بن العاص » •

وتعزز أوراق البردى ما أوضحه ابن عبد الحكم ، فهى تشير الى رواج صناعة السروج والأدوات الجلدية الأخرى اللازمة لوسائل الانتقال من الخيل والحمير والبغال وغيرها ، ففى احدى الأوراق ورد ما يوضح لنا طلب استعجال ارسال السروج بعد أن طال انتظار صاحبها ، مما يدل على ازدحام السروجيين فى أسواق الفسطاط وعدم قدرتهم على ملاحقة الطلبات المتزايدة عليها من عامة الشعب •

وقد اشتهرت مصر بتربية الخيول العربية والبغال السندية وبعمل أجلال الخيل ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بالعديد من شواهد القبور التي تحمل أسماء بعض السروجيين فى عصر الولاة وفى عهد الطولونيين والاخشيديين •

كما تشير المصادر الى رواج صناعة السروج فى العصر الفاطمى ، وكانت خزائن القصور الفاطمية مليئة بأنواع السروج المصنوعة من الجلد مع أنواع النسيج الفاخر ونقل المقريزى عن صاحب كتاب الذخائر والتحف ما أخرج أيام المستنصر من هذه السروج بلغ عددها خمسة آلاف سرج ، كما ذكر المقريزى أيضا أنه تم صنع نوع جديد منها فى عهد الآمر بأحكام الله ، وكانت خزانة الدرق يصنع بها من الخوذ الجلدية وغيرها من الأدوات الخاصة بآلات الحرب •

وكانت سوق اللجميين من جملة الأسواق التي ازدهرت فى العصر الفاطمي حيث كانت تضم العديد من محال الطلائين وصناع الكفت برسم اللجم والركب وغيرهم من أصحاب حرفة السراجة ، مما يدل على تقدم صناعة الجلود وغيرها في مصر آنذاك •

---

(٩) كان قدماء المصريين يصنعون من الجلود فضلا عن النعال الخفيفة وأغطية المقاعد تلك الجلود التى التى تشبه الشباك ، وكان بعضها ذا أشكال منتظمة جميلة ، وكانت تستخدم في تغطية المقاعد والأرائك ، كما كانوا يستخدمون الجلود المخرمة فوق الملابس التيلية لوقايتها ، بترى : الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة ، ص ٢٥٧ •

٣ ـ صناعة الحصير فى مصر الاسلامية

كانت صناعة الحصير ـ وما زالت ـ من أهم الحرف والصناعات الصغيرة • وقد عرفت مصر صناعة الحصر والسلال منذ العصور القديمة(١). وكان المصريون يستخدمون في طريقة لحمة الحصير أنواع لينة من القش ، كما كانوا يستخدمون سيقان الحلفاء الصلبة ، غير أنه يوجد حتى الوقت الحاضر نوع من الحصير يصنع من السمار ، وهذا النوع يزيه فى ثمنه عن النوع العادى المصنوع من الحلفاء المنتشرة فى سائر أنحاء البلاد (٢) •

وقد لقيت هذه الصناعة رواجا كبيرا في فجر الاسلام لاستعمالها فى المنازل لتغطية الأرضيات وبعض الأرائك والمقاعد ونحو ذلك ، وتشير أوراق البردى الى صناعة أنواع الحصر ذات الألوان المختلفة من السمار فى فى قري الوجه البحرى ، كما اشتهرت منوف والفيوم بصناعة الحصر السمارية •ففى احدى أوراق البردى التى ترجع الى القرن الثالث الهجرى ما يتضمن من بين قائمة الثياب والأدوات المختلفة التى كان أحد التجار يبيعها أثمان حصر تستخدم للصلاة منها ما بيع بمبلغ ثمانية عشر قيراطا ولأحد الأشخاص الآخرين بتسعة عشر قيراطا ودانق •

وتشير المصادر الى كميات كبيرة من الحصر كان يتم صنعها فى الفيوم، وأن مصانع منوف والفيوم ظلت تمارس هذه الصناعة حتى مطلع القرن

---

(١) عرف المصرى القديم صناعة الحصير منذ فجر التاريخ ، وقد وجدت مصورة طريقة عملها على جدران مقابر بنى حسن ، ويرجع تاريخها الى الأسرة الثانية عشرة الفرعونية •

الفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ص ٢٣٩ •

(٢) كان نبات الحلفاء ولا يزال ينمو حول الجسور والترع والقنوات فى جميع أنحاء البلاد ، وأشار اليه المقريزى عند ذكر المكوس والضرائب حيث كانت توجد الحلفاء الواردة من الوجه القبلى ، والواردة على الجسر رمعدية المقياس بسواحل الفسطاط • الخطط ، جـ ١ ، ص ١٩٢ •

التاسع عشر · كما يذكر المقريزى أن الحصر كانت تصنع من سيقان نبات البردى الذى كان ينمو فى وادى النطرون · وقد ظلت الحصر تصنع فى دمياط كذلك من سيقان البردى حتى سنة ١٧٩٩ م · ويبدو أن هذه الصناعة كانت مرتفعة التكاليف فى العصور الوسطى ·

كانت صناعة الحصر من الحرف الشعبية السائدة ، وفى عهد الطولونيين والاخشيديين تقدمت الصناعة هذه ، وأصبح المصريون يقلدون فيها الحصر الشهيرة التى كانت تصنع فى عبدان وكانت عبدان هى أشهر مراكز صناعة الحصر فى بلاد العالم الاسلامى · ويشير المقدسى الرحالة والجغرافى الى شهرة مصر فى ذلك العهد وتفوق صناعها فى العديد من الحرف والصناعات ومنها حرفة عمل الحصر العباداني الفاخر ·

ومن الواضح أن الفسطاط كانت من أهم مراكز عمل الحصير والفرش والمطارح وغيرها من الستور التى شاع استخدامها لدى الخاصة والعامة من الشعب المصرى وكانت أسواقها بالفسطاط عامرة ، كما يذكر ابن زولاق هذا النوع من الحصير العبدانى ، الذى حظى بشهرة فائقة فى مصر الاسلامية ، وربما حتى وقتنا الحاضر ·

ومما لا شك فيه أن منطقة الصعيد الأعلى كانت من الجهات التى انتشرت فيها صناعة الحصر والسلال والأطباق والمراوح وغيرها من الخوص ، وتكشف أوراق البردى عن أهمية ادفو وأنشطة أهلها فى مجالات اقتصادية متعددة ، ومن المرجح أنها كانت احدى المراكز الهامة لصناعة هذه الأدوات المنزلية ، كما ورد ذكر أرمنت وشهرتها منذ العصر البيزنطى بالعديد من الحرف والصناعات ، وقد أوضح الادفوى أن ابن المنير والى الحكم بأرمنت وادفو كان يصنع المراوح حتى عرف حينذاك بالمراوحى ·

ومهما قيل عن تقدم صناعة البسط والنمارق وسجاجيد الصلاة ، وتلك الأنماط التى كانت تفرش على الأرضيات (٣) وشهرة كل من أسيوط واخميم ، أو البهنسا والأشمونين فى منطقة مصر الوسطى فى ذلك العصر ، فانه لم تكن بدرجة الاستعمال والانتشار التى حظى بها الحصير ، أو شيوع الاستخدام لدى عامة الشعب ·

ولا شك أن التوسع فى بناء واقامة المساجد والجوامع فى القرى والمدن المصرية على السواء ، كان يتطلب المزيد من صناعة الحصر العبدانى وغيرها من الحلفاء ، وقد ظهر أثر ذلك جليا فى العصر الفاطمى حينما

---

(٣) يشير ابن دقماق الى قيسارية الأنماط القديمة بالفسطاط فيقول : وسكنها أصحاب الأنماط فى سنة ٣٤٧هـ · الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٨ ·

تطلبت عمارة المساجد زيادة الاهتمام بها وفرشها بالحصير • ذكر المسبحى أنه جرت الأمور فى الشهور المباركة التي يحتفل بهـا أن تعمر المساجد والجوامع بالحصر والقناديل والزيت وكثرة الاضاءة • كما ورد في وقفية الحاكم بأمر الله إلتى أوقفها على جامع الأزهر وغيره من الجوامع الفاطمية ودار الحكمة ، ما يتضمن نفقات عمل الحصير اللازم لها وأجرة الصنناع ونحو ذلك بمبلغ خمسة دنانير •

وقد ذكر ناصر خسرو أن جامع عمرو بن العاص فى عهـد الخليفة المستنصر كان يفرش بعشر طبقات من الحصير الملون ، بعضها فوق بعض ، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل • هذا ولم تقتصر مراكز صناعة الحصير فى الفسطاط وغيرها على تزويد المساجد والجوامع بمصر بحاجتها من أنواع الحصر ، انما كانت تمد مشهد الخليل بالقدس وغيره من المشاهد والمساجد بالشام بحصر الصـــلاة ، ويبدو أن الحصر المصرية كانت من الجودة والشهرة حتي قيل ان الواحدة منها بلغ ثمنها ثلاثون دينارا ، يقول ناصر خسرو فى وصف حصير صلاة رآها أثناء زيارته لقبر الخليل عليه السلام ، وكان قد أرسلها أمير الجيوش بدر الجمالى أنه لم ير مثلها فى مكان قط •

كما يظهر أن استعمال الحصير لم يكن قاصرا على المساجد (٤) ، أو لدى عامة الشعب ، بل كانت قصور الخلافة يوجد بها أنواع الحصير ، وخاصة من الملون ما يشبه البسط التى كانت تعلق فوق الجدران وسميت بالحائطية نسبة الى ذلك • ومن الطريف أن نذكر أنه فى سنوات الشدة العظمى ، وحينما اشتدت المجاعة ولم يجـد الناس ما يقتاتون به ، فان الخليفة المســتنصر كان يجلس على حصير فى قاعة القصر بعـد أن نهبت خزائنه ، ولا يحسد على حاله (٥) ، ويذكر المقريزى أنه أخرج من الحصر والأنخاخ السامانى المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة والطيور والفيلة المصورة بسائر أنواع الصور الشيء الكثير ، وهكذا كانت القصور الفاطمية حافلة بأنواع الحصر السامانى وما يفوق العبدانى وغيرها مما كان

---

(٤) كانت المصاطب والدهاليز التى يشقها الخليفة وبرفقته الوزير الفـــاطمى تفرش بالحصر العبدانى وذلك فى طريقه للمشاركة فى الاحتفالات بوفاء النيل •

المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥٠ •

(٥) لم يبق سوى ثلاثة من العبيد يحرسونه • وكانت ابنة عالم اللغة والنحو ابن بابشاد ترسل اليه بالقليل من الخبز •

Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 150.

الصناع يعملونه فى خزانة الفرش التى كان يحضر اليها الخليفة ويطوف بها ويستخبر عن أحوالها ، ويأمر بادامة الاستعمال ٠

ومما يدل على رواج صناعة الحصير فى عصر الفاطميين وكثرة المناسج فى الفسطاط ما ذكره عبد اللطيف البغدادى من أنه كان بمصر تسعمائة منسج بها ، لم يبق منها الا خمسة عشر منسجا ، وذلك بسبب وقوع المجاعة سنة ٥٩٨ هـ ٠

ويمكن معرفة أثر تلك المجاعات والأوبئة فى العصور الوسطى على أصحاب الحرف والصناعات من أمثال الخبازين والعطارين والأساكفة والخياطين والحصريين مما علق عليه البغدادى وما سببته تلك المجاعة حين قال : فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقى من الحصريين أو أقل من ذلك ٠

ومهما يكن من أمر ، فان المصادر التاريخية تجمع على رواج صناعة الحصير فى العصر الفاطمى ، وقد بلغ من أمر الحصريين وانتشار مناسجهم أو مصانعهم أنه كان يعرف عليهم رجلا ثقة خبيرا بصناعتهم كسائر الصناعات الأخرى ، حيث يؤخذ عليهم عدم صناعة الحصر الا من أنواع السمار الجيد وغيرها من المواد المناسبة لصياغتها ٠

الفصل التاسع

الطوائف الحرفية ودورها فى الحياة العامة

١ ـ نظم وتقاليد طوائف الحرفيين .

٢ ـ حياة الحرفيين الاقتصادية .

٣ ـ طرق الاشراف والرقابة على أرباب الحرف والمهن المختلفة .

٤ ـ مكانة أصحاب الحرف الاجتماعية .

١ ـ نظم وتقاليد الطوائف الحرفية فى مصر الاسلامية :

تشير المصادر الى انتظام سائر الحرف والصناعات فى شكل نقابات منذ العصر الرومانى والبيزنطى ، وقد استخدم ذلك النظام فى جمع الضرائب العديدة وتقرير الالتزامات الأخرى على المصريين · وكانت عضوية النقابة تنتقل بالوراثة من الأب الى الابن ، كما كان يتولى رئيس النقابة Epistate تأدية ما على أفراد نقابته من ضرائب ·

ويرجع الاهتمام بتلك النقابات من جانب الدولة الحاكمة سواء أكانت الرومانية أم البيزنطية قبل الفتح العربى للبلاد ، الى ارتباطها بضريبة القمح Annona لضمان وصولها فى مواعيدها الى العاصمة البيزنطية · وقد تطلب النقل للقمح بالنيل نظاما محكما قويا ، يقضى بجمع السفن فى أماكن معينة وانتظام أصحابها فى نقابة ليتضامنوا فى تحمل المسئولية ، وذلك كبقية المشتغلين فى جمع هذه الضريبة وانخراطهم فى نقابات أخرى ·

وهكذا كان كل الذين يزاولون حرفة أو صناعة يؤلفون نقابة سواء من الرجال أو من النساء · وكان لابد للحرفى أو الصانع من الحصول على شهادة من النقابة المختصة بحرفته ليصرح له بمزاولتها ، وقد دعمت الدولة الوضع القانونى لهذه النقابات ، لتتمكن من احكام سيطرتها على أعضائها وضمانا للوفاء بالتزامهم نحوها (١) · واستمرت النقابات تؤدى دورها فى جمع الضرائب بمصر حتى الفتح العربى ودخول الحكام العرب الذين ابقوا

(١) ومن الوثائق التى تشير الى دور النقابات فى الاحتجاج على الضرائب واعتساف القسوة فى جمعها ، وثيقة ترجع الى القرن السادس الميلادى ، ففى أفروديتو (كوم اشقاو) تعاونت النقابات مع موظفى الكنائس فى الاحتجاج على معاملة باجرك مدينة انتينوبولس لما اشتهر به من الشدة فى جمع الضرائب ·

على هـذا النظـام معمولا به كسائر النظم والتقاليد الموروثة عن العهـد البيزنطى .

وفى بردية من أكسيرنخوس (البهنسا) نرى تعظيم الصناع فى شكل نقابة تخضع للدولة ، وقد فرضت على أعضائها ضريبة الرأس ، وكان يدفعها الأسطى ، وأحيـانا أخرى المسئول عن العـامل ، وكانت النقابة مسئولة فيما يبدو عن عمل أعضائها ، ففى بردية أخرى من القرن السابع الميلادى يشكو مراقب عمال أن اثنين من عمال الطوب تركا عملهما الذى تعاقدا عليه قبل أن يتماه ، وطالب المراقب باحضارهما ، وأخـذ الضمان الكافى باتمامهم للعمل .

وكان من أهم النقابات فى ذلك الوقت نقابة النساجين التى لعبت دورا هاما فى الاحتجاج على قسوة الضرائب المفروضة ، وتلك الاضطرابات التى وقعت قبيل الفتح العربى ، وكان هؤلاء النساجون مرتبطين بنقابات تعتمد الحكومة عليها من أجل تزويد الجيش ورجال الأمن وغيرهم من موظفى الدولة بكميات كبيرة من الثياب والأقمشة .

ويبـدو أن ازدياد احسـاس المصريين الأقبـاط بذاتيتهم بعد كل ما تعرضوا له من ألوان الشدة والقسوة والظلم والاستبداد ، قد شجع هؤلاء على تزايد انخراطهم فى تنظيمات وهيئات اجتماعية كالنقابات ، لكن الادارة البيزنطية سرعان ما كانت تعمل على بسط نفوذها واحكام سيطرتها عليها من أجل خدمة مصالحها ، لا خدمة أفراد النقابة المتضمين اليها .

وهـكذا ورث العرب نظـام النقابات من بين تلك النظم والتقـاليد البيزنطية التى أبقوا عليها ولم يحاولوا القضاء عليها ، ولم يطرأ أى تغيير يذكر سوى شيوع استخدام الطوائف والأصناف واختفاء لفظ النقابات فى عصر الولاة والعصور اللاحقة (٢) .

---

(٢) كان ذكر النقابات شائعا فى مصر ابان الفتح العربى ، فورد مثلا فى برديات اكسيرنخوس (البهنسا) ذكر نقابة الصياغ ، وقائمة بانواع الحلى مرفوعة الى مسـئول السوق .

The Oxyrhnus papyri, part 41, No. 1655, pp. 151-155.

بينما أصبح أهل الحرف فى المدن الاسلامية يشار اليهم بالأصناف وأصحاب المهن وأهل الصنايع وبالطوائف ، حيث قويت الرابطة بينهم وصار كل يشعر بالارتباط الوثيق بزملائه من أهل حرفته . وصار من أقوالهم المأثورة فى مصر وفى غيرها من الأمصار الاسلامية « الصناعة نسب » .

اليعقوبى : البلدان ، ص ٢٣٨ ، ص ٤٢٦ ، عبد العزيز الدورى : نشوء الأصـناف والحرف فى الاسلام ، ص ١٤١ .

ويعزى المؤرخون المسلمون نشأة الطوائف الى اتساع المدينة الاسلامية وازدهارها وكثرة سـكانها ومرافقهـا ، وتوافر الأعداد الكبيرة من هؤلاء الحرفيين والصناع للنهوض بمتطلبات ذلك المجتمع ، وقد ربط ابن خلدون بين قيام المدن واستبحار العمران بهـا وبين الطلب المتزايد على أرباب الحرف وتقدم وازدهار الصنائع والفنون المختلفة .

واذا كان قول ابن خلدون ينطبق على مدينة الفسطاط التى اختطها عمرو بن العاص عام ٢١ هـ ، والتى سرعان ما تزايد عدد سكانها وتبحرت فى العمـران . فان الأمـر لا ينطبق بحال على المـدن المصرية الأخرى كالاسكندرية التى كانت لن أهم مراكز الحرف والصناعات فى زمن الفتح ، واستمرت كذلك فى صدر الاسلام ، وكذلك الأمر بالنسبة لمدن البهنسا والأشمونين وأسيوط واخميم وغيرها من المدن التى كانت تضم طوائف الصناع والنقابات التى أشرنا اليها ، وظلت كذلك بعد الفتح العربى فى منتصف القرن السابع الميلادى (٣) .

والواقع أنه لا مجال للتوقف طويلا حول نشأة الطوائف المختلفة فى مصر ، أو لهذا الجدل الذى ثار بين الباحثين الغربيين ، فقد أكدت المصادر والأدلة على استمرار أرباب الحرف والصناعات فى القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، فى مزاولة مهنهم المختلفة ، وكانوا من المصريين الوطنيين سواء فى ذلك من اعتنق منهم الاسلام ومن ثبت على المسيحية .

ومن الطبيعي أنه كان يحدث عندما يتجمع أصحاب الحرف في موضع واحد ، أن يصبح لكل حرفة سوق أو مجموعة من الحوانيت ضمن اطار السوق الكبير ، وقد ساعد نظام التخصص فى انتاج السلع المختلفة فى عصر الولاة على زيادة تماسـك وتكتل الصناع ، كما كان تطور الحيـاة

---

(٣) اختلف الباحثون فى نشأة الطوائف أو الأصناف الاسلامية وتطورها فى العالم الاسلامى ، فبينما يرى روبرت لوبيز أن هذه الطوائف كانت قريبة الشبه بطوائف الحرف التى كانت سائدة فى العصر البيزنطى ، يذهب برنارد لويس فى بحثه عن النقابات الاسلامية الى القول بانه لا توجد أدنى صلة او اشارة الى وجود نقابات اسلامية قبل القرن العاشر الميلادى ، وفى أنها كانت من نوع يختلف تماما عن النقابات التى كانت موجودة فى مصر ابان الفتح الاسلامى للبلاد . ويؤيده جواتياين زميله الباحث اليهودى فيما ذهب اليه ، فهو لم يعثر على كلمة نقابة ولم يرد ذكرها فى أوراق الجنيزة التى عثر عليها بالفسطاط القديمة وقام بفحصها ويعلق على ذلك قائلا : « لأنه لم يكن هنالك مثل هذا النظام » .

الاقتصادية من العوامل الهامة فى تقوية الروابط فيما بينهم (٤) خاصة اذا تذكرنا أن غالبية الصناع ومعظم الحرفيين كانوا من أهل الذمة ٠

وفى عصر الولاة برز دور العريف فى المدن والقرى المصرية على السواء ، وقد كان بمثابة شيخ الطائفة والمشرف على مصالحها ، فهو ينظر فى أمورهم ، ويمنع من يدخل منهم من غير أهل الحرفة ، كما كان عليه ألا يقطع أمرا من الأمور المتعلقة بهم الا بموافقة العرفاء الآخرين ، ويذكر ابن عبد الحكم أن عمرو استعان بالعرفاء فى تقدير الجزية والخراج وجبايتها ، كما استعان بهم فى اصلاح الطرق واقامة الجسور والأسواق ٠

ويمدنا ابن عبد الحكم كذلك بأسماء بعض العرفاء من العرب وذلك عند حديثه عن خطط القبائل العربية بالفسطاط ، فقد ذكر منهم عمران ابن ربيعة وكان عريفا على الصدف ، حيث أقام عليهم عريفا عددا من السنين ثم عرف ابنه من بعده ٠ وكان الملامس بن جذيمة عريف حضرموت، يشرف على مصالحهم ويرعى حقوقهم٠ومما يذكر أنه وقع بين مسلمة بن مخلد والى مصر من قبل معاوية وبين الملامس خلاف ، فاستأذن الملامس معاوية فى التوجه الى فلسطين بعشيرته ، فأذن له ، فكره الوالى مسلمة منه ذلك ، وعمل على منعه من الخروج ٠

والواقع أنه ليس لدينا من المعلومات ما يكشف النقاب عن دور العرفاء والطوائف المختلفة فى مواجهة الدولة أو مشاركتهم فى تلك الثورات الشعبية التى نشبت فى الفترة من سنة ١٠٧ هـ حتى مقدم الخليفة العباسى المأمون عام ٢١٧ هـ من أجل اخماد تلك الثورات ٠ فقد ثار الأقباط سنة ١٠٧ هـ فى الوجه البحرى فبعث اليهم الوالى المصرى الحر بن يوسف جيشا لمحاربتهم ، فقتل منهم نفر كثير ٠ كما تتابعت ثورات القبط من أجل كثرة الأعباء والضرائب ، فثار أقباط الصعيد ، وحاربوا عمال الحكومة فى سنة ١٢١ هـ ، فبعث اليهم حنظلة بن صفوان والى مصر (١١٩ ــ ١٢٤ هـ) جيشا لمحاربتهم فانتصر عليهم وقتل عدد كبير منهم ٠ ولا نظن أن أصحاب الحرف وغيرهم من العامة كانوا بعيدين عن تلك المنازعات والانتفاضات الشعبية فى وجه الولاة ٠

---

(٤) فى عصر الولاة برزت بعض الطوائف مثل صناع النسيج فى دور الطراز العامة والخاصة فى المدن الصناعية المصرية ، كما شجع احتكار الدولة لانتاج ورق البردى ، وفى بناء السفن بالثغور المصرية ، وعمال سك النقود فى الاسكندرية والفسطاط وقد شجع ذلك على وضوح دور الحرفيين والطوائف التى كانوا ينتمون اليها ٠٠ روبرت لوبتز : محمد وشرلمان ، اعادة نظر ٠٠ ص ١١٣ ٠

ويبدو أنه كان لطوائف الحرفيين في الاسكندرية دور ملموس في مواجهة هؤلاء الأندلسيين الذين نزلوا المدينة على إثر وقعة الربض بقرطبة في رمضان سنة ١٩٨ هـ • يتضح لنا ذلك فيما ذكره المقريزي من أن قصابا اعتدى على أحد الأندلسيين ، فكان ذلك سببا في ثورتهم ، وكان أن امتنع أهل السوق عن بيع ما كان يلزمهم ، وقد ظهر من تماسك أصحاب الحرف مع العامة بالثغر ، وعملوا على اخراجهم من الاسكندرية بعد أن قتلوا منهم عددا وانهزم الباقون الى مراكبهم •

أما عن ظهور طائفة الصوفية بقيادة أبي عبد الرحمن الصوفي ، فيبدو أنه لم تكن هناك صلة بينها وبين طوائف الحرفيين في مدينة الاسكندرية ، ونعرف ذلك من وقوف هذه الطائفة بجانب الأندلسيين في مواجهة الطوائف الحرفية ومحاولة التغلب عليها • هذا وليس لدينا من الأدلة التاريخية ما يشير الى وجود علاقة بين طائفة الصوفية التي ظهرت في نهاية القرن الثاني الهجري وحركة الفتوة أو ما أطلق عليها بفتوة العارفين أو الصوفية التي ظهرت في بغداد وكان شعارها المرقعة (٥) • ولعل السبب يرجع الى أن الطوائف الحرفية المصرية لم تكن تشجع على ذلك ، لاسيما وأن أرباب الحرف كانوا في أكثرهم من أهل الذمة حتى سقوط الدولة الفاطمية •

أما القول بأن الطوائف الحرفية كان لابد من انتساب كل طائفة منها الى احدى الطرق الصوفية ، فليس من الميسور اثبات ذلك في ذلك العصر، وربما حدث مثل ذلك في العصرين الأيوبي والمملوكي أو في أواخر العصور الوسطى (٦) •

وهناك من يربط بين نشاط طوائف الحرفيين في ذلك الوقت ونشاط العامة من أهل المدن الاسلامية كالفسطاط وبغداد وغيرهما ، وأن بوادر الحيوية والتنظيم المستقل تقع في تلك الفترة التي بدأت فيها حركة العامة في بغداد منذ القرن الثالث الهجري •

وعلى كل حال فليس لدينا من المصادر ما يميط اللثام عن دور التنظيمات الحرفية في عصر الطولونيين • وان كانت الأمور قد ظلت كما

---

(٥) توسعت حركة الفتوة في بغداد ، وكثرت فئاتها وأحزابها ، وأشارت المصادر الى تلك الفتنة التي نشبت في العاصمة بسبب استنفار العامة للغزو وذلك في حوادث سنة ٣٦١هـ • الكامل في التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٢٠ ، عبد العزيز الدوري : نشوء الأصناف والحرف في الاسلام ، ص ١٦٢ •

(٦) يذكر حسين مؤنس أنه كان لابد من الانتساب الى احدى الطرق الصوفية حيث تكون الطائفة الحرفية اما شاذلية أو تيجانية أو رفاعية أو غيرها من الطرق الصوفية • عالم الاسلام ، ص ٢٤٢ •

حتى فى فجر الاسلام ، فكان لكل طائفة من الصناع ما يشبه النقابة أو الطائفة يرأسها شيخ من شيوخ الصنعة أو الحرفة ، خاصة بعد أن تم تعمير القطائع وتزايدت بها حركة العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وصار الكل بلدا واحدا ولكل حرفة سوق أو قطيعة خاصة بها ٠

ويصف لنا البلوى نشاط حركة البناء والعمران وطوائف الحرفيين بالقطائع فيقول : « وبنيت بها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران ، وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين ، وسوق الطباخين ، وكان يجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين وغير هؤلاء من الحرفيين ، وكان لكل منهم سوق حسن عامر حين أصبحت القطائع مدينة كبيرة ٠

ويبدو أن سياسة التسامح الدينى التى اتبعها أحمد بن طولون وأبناؤه من بعده مع أهل الذمة ، كان لها أثرها الواضح فى نشاط الحركة الصناعية ، ولم نسمع عن مضايقات تعرضوا لها أو منازعات وقعت فيما بين طوائف الحرفيين منهم ٠ ويشير البلوى الى السياسة الحكيمة التى اتبعها ابن طولون مع الأقباط المصريين وكيف كان يحسن اليهم (٧) ٠

وبعد سقوط الدولة الطولونية بقليل ، شارك الحرفيون بالفسطاط وهم يشكلون الجزء الأكبر من سكانها فى الدفاع عن العاصمة ضد الغزو الفاطمى ، ففى سنة ٣٠٢ هـ خرج حباسة بن يوسف على رأس جيش من قبل الفاطميين بالمغرب يريد غزو البلاد ، ويصف المقريزى نشاط أهل الفسطاط فيقول : « ونودى بالنفير فى الفسطاط ، فلم يتخلف أحد من الخاصة والعامة عن الخروج الى الجيزة لمواجهة جيوش الغزو الا من عجز عن الحركة لمرض أو عذر ٠

وتظهر مشاركة الحرفيين وأهل السوق فى عصر الاخشيديين ، فمن ذلك أنه لما عاد الاخشيد الى مصر بعد خروجه لمواجهة ابن رائق القائد العباسى ، قام أصحاب الحرف والتجار بتزيين الشوارع والأسواق والمشاركة فى الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة عودته ٠ وكذلك الأمر حينما ورد كتاب الخليفة العباسى المتقى فى سنة ٣٢٩ هـ باقرار الاخشيد فى امارته على البلاد قام أهل السوق بتزيين حوانيتهم بما يتناسب وصناعة كل منهم » ٠

---

(٧) فمن ذلك ما ذكره البلوى من أنه حينما سمع ابن طولون بأن أحد قواده قد اغتصب مبلغا من المال من أحد الرهبان ، عمل على رده والاحسان اليه وتغريم القائد عقابا له على سوء فعله ٠ سيرة أحمد بن طولون ص ٢٠٧ ــ ٢٠٩ ٠

ويتجلى فى ذلك العصر الشعور بالكيان الاجتماعى لدى طوائف الحرفيين والتماسك الحرفى ، ومن أمثلة ذلك ما تشير اليه أوراق البردى والمصادر التاريخية الأخرى ، وتتردد أسماء الأعلام من هؤلاء الحرفيين والصناع من أمثال الزيات (٨) والزجاج والطحان والوراق والضراب ، وغيرهم ، حيث أصبحت النسبة للحرفة أو الصنعة فى القرنين الثالث والرابع شائعة ومنتشرة فى الأوساط العامة فى مصر وغيرها من بلدان العالم الاسلامى ٠

— تقاليد الطوائف الحرفية فى مسائل التدريب والترقى :

انخرط أصحاب حرفة النسيج وما يتصل بها من أعمال الصناعة والتطريز والزخرفة فى نقابات منذ العصر البيزنطى (٩) ، كما انضم غيرهم من الأحرار من صانعى الأدوات الجلدية وعمال البناء والسباكين ونحو ذلك فى نقابات أخرى ٠ وتشير أوراق البردى الى قيام تلك النقابات بمساعدة هؤلاء الحرفيين وتدريبهم على يد أسطوات لهم فى المهنة أو الصنعة ، وقد وجدت عقود تدريب ترجع الى ذلك العصر ، وتتضمن مدة التدريب والأجر ٠ وكان ولى أمر الحرفى أو سيده أحيانا يتكفل بأمر اطعامه وكسائه خلال فترة التدريب ، وفى أحيان أخرى كان المدرب نفسه يتكفل بهذا الأمر ٠

وفى بردية عثر عليها بجهة أكسيرنخوس (البهنسا) أوضحت أن احدى السيدات أرسلت جاريتها الصغيرة لتتعلم حرفة النسيج لمدة أربع سنوات ، وفى حالة مرضها كما تذكر البردية ، عليها أن تبقى أياما مساوية لما تغيبته ٠ وهكذا لم يقتصر الأمر على تدريب الصبيان على مزاولة المهن واكتساب الخبرات ، وانما تعداه الى الفتيات وذلك قبيل الفتح العربى للبلاد ٠

كما تشير المصادر الى أن الآباء كانوا يحاولون معرفة ميول الأبناء قبل تسليمهم الى مدربيهم لكى يمارسوا أية حرفة أو صناعة من الصنائع ،

---

(٨) وردت كلمة الزيات فى أكثر من موضع على شواهد القبور ٠
Wiet : Steles Funeraires, tome 4, p. 88.

(٩) من الحالات التى وردت فى قانون الدولة الاقتصادى وذكرها Johnson تلك الحالة التى أوضحها أحد العقود ويرجع الى سنة ٦١٥م ويتضمن احد الصباغين من الذين قبلوا العمل والتدريب لمدة عامين فى مدينة بانوبوليس فى مقابل أجر اجمالى من القمح ٠ وكان يقطن بالقرب من أبيدوس بصعيد مصر ٠ Economic Studies, p. 123.

وقد جرت العادة بأن يتخذ الأبناء حرفة آبائهم (١٠) ، غير إنه لم يكن هناك ثمة ما يقتضى اتباع هذه القاعدة على الدوام ، فالأبناء عليهم أن يتخذوا من الحرف ما يشاءون عن طريق التلمذة الصناعية (١١) •

ومن الملاحظ أن نمو المدن الصناعية مثل الاسكندرية قبـل الفتح العربى وازدهارها بالعديد من الحرف والصناعات ، وقد ساعد على اجتذاب أعـداد كبيرة من سـكان القرى المصرية وانضمامهم الى طوائف الحرفيين واكتسابهم المهارات الفنية عن طريق تدريبهم ومزاولتهم للمهن المختلفة • وتشير بعض سجلات الضرائب الى أن بعض أهالى فيلادلفيا من نواحى الفيوم ، نزحوا الى الاسكندرية وعملوا فى الصناعات والمهن التى تدربوا عليهـا •

ومن الملاحظ أن تقاليد الطوائف الحرفية فى مصر بالنسبة للتدريب وغير ذلك من النظم قد استمرت على حالها بعد الفتح العربى • وكان لابد للصبى قبل أن يصبح صانعا ماهرا أن يسلك عدة خطوات ، ثم يحصل بعدها على شهادة من شيخ الطائفة بأنه حذق الصنعة ، فينادى الشيخ به معلما (١٢) ، ويصبح عضوا فى طائفة من الطوائف • ومما يؤيد ذلك ما ورد فى كتابة أثرية ترجع الى عصر الولاة فى مصر باسم « سلامة الأسطة المؤرخة فى شهر المحرم سنة ٢٠٧ هـ/مايو – يولية ٨٢٣ م •

---

(١٠) جاء فى رسائل اخوان الصفا فى القرن الرابع الهجرى أن اليونانيين كانوا يحاولون معرفة ميول الأبناء نحو المهن التى يرغبون فى إختيارها منذ الصغر • رسائل اخوان الصفا ، جـ ١ ، ص ٢٢٢ •

(١١) كلمة تلميذ معربة عن السريانية ، وهى تطلق على المتعلم على يد أستاذ ، وربما اطلقت على الموظف الذى لا يزال تحت التدريب أيضا ، كما شاع استخدام الكلمة على الصانع الذى ينتسب لأستاذ فى صنعته ، وذلك كما ورد فى بعض الكتابات على التحف الفنية العربية •

حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ ١ ، ص ٣٣٨ •

(١٢) استخدم لفظ معلم كلقب للصانع الماهر الذى يتمتع بشىء من الأشراف على غيره من الصناع ، وكان له فضل تعليم غيره من أبناء حرفته ، وقد وردت بهذه الدلالة على كثير من التحف والآثار العربية ملحقة بأسماء صناعها من بنائين ونجارين وصـــناع الأدوات المعدنيـــة •

ومن الجدير بالذكر أن كلمة أسطى ما هى الا لفظة الأستاذ (١٣) ، وقد شاع استخدامها فى ذلك العصر والعصور اللاحقة ، وأطلقت بصفة خاصة على المهرة من الصناع مثل البنائين والدهانين والرسامين ونحوهم . ومما ساعد على تعلم المهن اكتسابها عن طريق التجارب والخبرة ، ولم تكن أسرار الصناعات تدون ، بل كانت تنقل شفاهيا وعمليا من أرباب الصنعة وشيوخها وأساتذتها الى أبنائهم داخل الحوانيت والمصانع .

وكما ذكر ابن خلدون فانه لابد للصانع من معلم ، وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم تكون المهارة وحصول الملكة ، وكان من تقاليد الطائفة الحرفية أن يحتفظ أفرادها بالأسرار الفنية الدقيقة للصنعة التى اكتسبوها بطول المران والممارسة والخبرة . كما كان من تقاليد الطوائف ألا يدخلها أى فرد جديد ، اذ من شأنه أن ينافس أصحابها الأصليين ، فانهم كانوا لا يمرنون أحدا على طرق صناعتهم ، الا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم وفى هذه الحالة يقبل بشروط خاصة

وتجدر الاشارة هنا الى أنه كان من النادر قيام بعض شيوخ الحرف أو المعلمين فى عصر الولاة بوضع مؤلفات ، يمكن الاستفادة منها فى أعمال التدريب ، وان كنا تلمح شيئا منها يخص صنعة الكيمياء (١٤) ، أو فى صناعة الزجاج والكبريت والعقاقير الطبية وغيرها (١٥) .

ومن الواضح أن الكتب التى تم تصنيفها فى عهدى الطولونيين والاخشيديين ، كانت من وضع العلماء المختصين فى مجال العلوم

---

(١٣) شاع استخدام لفظ « الأستاذ » فى الدول الاسلامية بدلالات وظيفية مختلفة ، فمثلا جرت العادة فى بعض العصور أن تطلق على كل من أتقن حرفته وبلغ درجة رفيعة فيها سواء أكان من رجال الدين أو العلم أو رجال الدولة أو ذوى الحرف والصناعات المختلفة . ومن أشهر الألقاب التى سادت فى العصر الفاطمى لقب « أستاذ محنك » ويعنى أنه من ذوى المناصب الهامة فى البلاط . عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ، ج ٢ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(١٤) شارك الأمير العربى خالد بن يزيد بن معاوية فى ترجمة مجموعة من المؤلفات القديمة فى مجال صنعة الكيمياء مع علماء الاسكندرية ونقلها الى اللسان العربى . ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ١٠٣ . ومن أهم المؤلفات التى صنفها ذو النون المصرى كتاب الركن الأكبر وكتاب الثقة فى الصنعة وغيرهما فى مجال صنعة الكيمياء ، وقد توفى العالم والصوفى المصرى عام ٢٤٦هـ . ابن النديم : الفهرست ، ص ٥١٧ ، ابن صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ص ٩٥ .

(١٥) ومن أقدم المؤلفات التى ورد ذكرها فى المصادر كتاب الأخطار والمراتب والصناعات وكتاب آخر بعنوان : غش الصناعات وهما من مؤلفات الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ . ابن النديم : الفهرست ، ص ٥١١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

العقلية (١٦) ، وليس بين أيدينا من الأدلة التاريخية ما يشير الى أن شيئا منها كان من تأليف شيوخ الطوائف أو المعلمين من أصحاب الصنائع فى ذلك الوقت • كذلك فانه ليس هناك ما يدل على أن هؤلاء المعلمين كانوا يستعينون فى تدريب صبيانهم وتلقينهم أسرار الصنعة ، بمؤلفات أو تصانيف يقرأونها عليهم خلال فترات التدريب •

ويبدو أن الأمر قد اختلف فى العصر الفاطمى ، فقد شهدت البلاد تطورا كبيرا فى مجال الفنون والصناعات المختلفة ، ونشاطا ملحوظا فى الحركة العلمية وازدهار العلوم والآداب ، اذ نرى العديد من المؤلفات التى وضعت فى مجال صناعة الزجاج وسك النقود والصناعات المعدنية الدقيقة (١٧) ، وفى صناعة التشييد والبناء (١٨) ، وكان أكثر المؤلفات فى صنعة الكيمياء وتطبيقاتها العملية ، وكانت أكثر من أن تحصى كما ذكر ابن النديم • ولا شك أنه أمكن الاستفادة منها فى مجال التدريب والتعليم ، وهذا يدل على أن الصانع فى ذلك العصر أصبح رجلا متعلما يمارس صنعته على أصول مقررة مسطورة فى كتب وضعها رجال الصنعة الممارسين لها ، ومن العلماء البارزين فى نفس الوقت ، فهم يستخدمون المصطلح الدارج بينهم والعبارات التى لا يفهمها الا الصناع أنفسهم •

ومما لا شك فيه أن نظام الطوائف الحرفية ، واتباع تقاليدها ، كان من العوامل الهامة للمحافظة على مستوى الحرف واتقان الصنعة ، فقد كانت تلك الطوائف من داخلها بمثابة مدارس فنية تشرف على اعداد الصبية

---

(١٦) اشتهر من هؤلاء العلماء فى صنعة الكيمياء أحمد بن محمد بن سليمان ، وكان يعد من تلاميذ جابر بن حيان ، وله مؤلفات كثيرة وصلت الى بغداد مثل كتاب الافصاح والايضاح وكتاب المسجونات ، وكتاب التخمير ، وقيل ان كتاب الافصاح والايضاح لابن عياض المصرى • ومن هؤلاء الذين ذاع صيتهم فى علم الصنعة عثمان بن سويد الاخميمى ، وقد أسندت اليه رئاسة الصنعة فى الكيمياء قبيل الغزو الفاطمى لمصر ، وله مؤلفات عديدة منها كتاب الكبريت الأحمر والابانة ، وكتاب التصحيحات ، وكتاب التصعيد والتقطير •

ابن النديم : الفهرست ، ص ٥١٩ ، ص ٥٢٠ •

(١٧) توصل ابن يونس المصرى الفلكى فى عهد الحاكم بأمر الله لأول مرة الى اختراع الرقاص بندول الساعة التى عرفت بالساعة الدقاقة ، وبذلك ظهرت أول أنواع المزاول أو الساعات فى العصر الفاطمى • سيديو : تاريخ العرب العام ، ص ٣٤٧ • كما ذكر القفطى أن ابن السنبدى عالم الفلك الذى كان يقيم بالقاهرة فى العصر الفاطمى الأول ، كان خبيرا بصناعة الآلات الفلكية • أخبار العلماء ، ص ٢٨٦ •

(١٨) وقد أشاد Cajori بالمؤلفات التى وضعها الحسن بن الهيثم فى مسائل الهندسة والرياضيات والتى تضمنت جملة من الاصطلاحات الهندسية •
A History of Mathematics, p. 109.

ليكونوا بدورهم صناعا ، وقد لاحظ فيت على الكتابات التى نقشت على مبانى العصر الفاطمى أنه بجانب الكلمات العربية بناء ومهندس ، ورد اسم الذى أشرف على البناء مسبوقا بكلمة معلم • واستخدم أبو صالح الأرمنى العبارة نفسها فى قوله : « لا يزال قبر المعلم سرور الجلال قائما فى هذه الكنيسة حتى اليوم » • وهكذا يمكن القول بأن كلمة معلم المنقوشة على المبانى الفاطمية كان يقصد بها الصانع المستقل الذى حذق أسرار المهنة واستطاع أن يشرف على تلقينها للصبيان الراغبين فى التدريب وفى مزاولة هذه الحرفة أو تلك فى المستقبل •

ومن مظاهر حرص الفاطميين على تدريب الصبيان وغيرهم من النساء ، ما ذكره المقريزى أن النساء والصبيان من الأسرى لديهم ، كانوا عند دخولهم الى القصر يستخدموهن ويعلموهن الصنائع المختلفة • كما أوضح أيضا أن الخليفة الظاهر اتخذ حجرا لمماليكه وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب • ولا شك أن اهتمام الفاطميين بمسائل التدريب والتعليم كان له أثره فى تشجيع الطوائف الحرفية على مسايرة حكامهم والعمل على تلبية احتياجاتهم من الخبرات والكفاءات المطلوبة •

وكما نلحظ العلماء وغيرهم من الأطباء وذوى المناصب فى الدولة الفاطمية يحرصون على تعليم صبيانهم ، يذكر المسبحى أنه كان لأبى الفرج الطبيب صبى قد برع فى التعليم ، وأن عمره لم يكن قد بلغ الرابعة عشرة من عمره حين وفاته سنة ٤٢٥ هـ •

وتدل أوراق الجنيزة على مدى حرص الآباء وشغفهم بتعليم أبنائهم صنعتهم فى ذلك الوقت ، كما تشير الى انضمام أعضاء جدد الى الطوائف الحرفية خلال العصر الفاطمى (١٩) •

ومن تقاليد الطوائف الحرفية فى ذلك العصر اختيار شيخ الطائفة (٢٠) ، وقد جرت العادة ألا يصل الى هذه الرئاسة الا برضاء كبار

---

(١٩) وجاء فى احدى الأوراق أن ابنة ارسلت لأمها بالفسطاط تستفسر عن أخيها الأصغر وتقول فى خطابها : كيف تدعين الولد يغادر العاصمة قبل أن يتعلم صنعة » وفى وثيقة طلاق يتعهد الزوج باطعام وكساء ابنه وبتعليمه صنعة يتكسب منها وترجع تلك الوثيقة الى سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م •

جوايتاين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ١٧٦ ، ترجمة : عطية القوصى •

(٢٠) شاع لقب شيخ فى العصر الفاطمى ، ذكر المسبحى فى حوادث سنة ٤١٥هـ وفاة ابن سعدان القماح ، وكان شيخا من وجوه السماسرة بساحل الصعيد بمصر • أخبار مصر ، ص ٢٠٦ •

أصحاب الحرفة ورغبتهم فى شغله لهذا المنصب • وكان يعتبر مسئولا أمام الجهات الحكومية عن أى اضطراب يصدر عن أعضاء طائفته ، كما كان للمشايخ حق تقدير المستوى الذى يجب أن يكون عليه الصبيان الذين هم تحت التمرين ، وكذلك المستوى الفنى الذى يحتاج اليه الصبى ليرقى فيصبح صانعا ، وأيضا ترقية الصانع الى مرتبة المعلم •

وكان الشيخ يبقى فى منصبه مدى الحياة ، غير أنه اذا حدثت منه تصرفات ، لا يرضى عنها كبار أهل الصنعة ، فعندئذ كان عليه أن يتخلى عن رئاسة الطائفة ليحل محله من يحظى برضاء أفراد الطائفة ومعلميها • ولشيخ الطائفة مساعد كان يعرف بالنقيب ومهمته كانت تنفيذ أوامر الشيخ وتنظيم الحفلات والاجتماعات التى تلزم للطائفة •

وكان يربط أعضاء الطائفة بعضهم ببعض تقاليد وقواعد وسلوك يلتزمون بالسير عليها ، فالمعلم له من الحقوق على الصناع والصبيان ما لا يمكن تجاهلها وذلك من احترامه وحسن خدمته والأمانة فى معاملته ، ولهم كذلك عليه حقوق فيما يتصل بالأجور وساعات العمل ونحو ذلك ، وكما كان التدرج موجودا بين أفراد الطائفة ، وكان هناك رئيس ومرؤوس ، فلابد أنه كانت لهم تقاليد تحكمهم وتنظم العلاقات فيما بينهم •

وعلى الرغم من عدم وجود وصف كامل يرجع الى العصر الفاطمى أو العصور التى سبقته ، مما يلقى الضوء على هذه التفاصيل ، الا أنه يمكن معرفة شىء منها وخاصة فيما يتعلق بتقاليد ترقية الصبى الى مرتبة الصانع فى الطائفة الحرفية ، فإن الصبى كان اذا تم تدريبه فإن معلمه كان عليه أن يخبر شيخ الطائفة بذلك ، فيكلف الشيخ النقيب بدعوة أرباب الحرفة للمشاركة فى حفل ترقيته • والواقع أنه ليس لدينا وصف شامل لمثل هذه الحفلات ، الا أن مصادر العصر العثمانى تشير الى ذلك فى وضوح ، ففى هذا الاحتفال المذكور كان المعلم يستصحب صبيه الى مكان الاجتماع ، حيث يكون شيخ الطائفة والنقباء وكبار رجال الحرفة وتبدأ المراسم بأن يتقدم الصبى وبجانبه معلمه الى الشيخ ويحييه ، ثم يقرأ الفاتحة فيتلو الشيخ وجميع الحاضرين الفاتحة أيضا • وبعدها يسأل الشيخ المعلم والصبى سؤالا تقليديا فى مثل هذه المناسبة مستفهما عن سبب مجيئهما ، فيجيب المعلم بأن الصبى الذى جاء بصحبته قد أتم الصنعة بما فيه الكفاية ، ويريد أن يفتتح لنفسه دكانا يمارس فيه المهنة التى تعلمها ، فعندئذ يقوم الشيخ باختباره فان اطمأن الى اجادته الصنعة ، فانه يقترب من الشاب ويشد حول وسطه بحزام أو بشال مع عقده عدة عقد أقلها ثلاث وغايتها سبع فى العادة بعدد المعلمين الموجودين فى المجلس ، ويبدأ هؤلاء فى حل

هذه العقد ، وينتهي الاحتفال بتعريف المحتفل به بواجباته الجديدة ، ويؤخذ عليه العهد والميثاق بأن يتبعها ولا يخرج عليها وأن يكون مخلصا لها ، ثم يأخذ مكانه بين زملائه على بساط التكريم لتناول غذاء كان يعرف بالتمليح أو الوليمة .

— الطوائف الحرفية في مصر الفاطمية :

من الطريف أن تذكر المصادر لفظ النقابة صراحة بالنسبة للوظائف الدينية والعسكرية ، ولا تشير الى مثل ذلك بالنسبة لطوائف الصناع وأرباب الحرف في العصر الفاطمي ، فقد ذكر القلقشندي شيئا عن نقابة الطالبيين (٢١) . كما نجد المقريزي يتكلم عن جريدة قواد الأسطول الفاطمي فيقول : ان أفراد الأسطول كانوا معروفين عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء فاذا تهيأ الانفاق أدخل الغزاة مائة مائة ، فيقفون في أخريات من هو واقف في الخدمة من جانب واحد نقابة نقابة .. وكانت تصرف لكل واحد خمسة دنانير يسلمها لهم النقيب » . وهكذا كان يعرف العريف بالنقيب في ذلك العصر .

كما نجد المقريزي يشير الى عرفاء الأسواق وأهميتهم فيقول : « كان في كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم » ، ولا شك أن ذلك يدل صراحة على وجود طوائف الصناع على اختلاف أعمالهم في العصر الفاطمي .

وكانت الفسطاط والقاهرة عامرة آهلة بالأسواق ، وقد أطلقت أو سميت هذه الأسواق بأسماء طوائف الحرفيين ، فكان منها سوق القشاشين ، والغرابليين ، والزياتين ، وزقاق العسل ، ودرب الديباج ، كما يذكر ابن دقماق منها أيضا سويقة دار النحاس ، وقيسارية الحلي ، وقيسارية الصبانة ، وكان بوسطها مساطب برسم الخياطين . وهكذا كان لكل طائفة حي خاص بها تنظم فيه حوانيت حرفهم وصنعتهم وأماكن سكنهم واقامتهم .

---

(٢١) يقول القلقشندي : « وهي بمثابة نقابة الاشراف الآن ، ولا يكون الا من شيوخ هذه الطائفة واجلهم قدرا (يعني النقيب) وله النظر في أمورهم ، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء واذا ارتاب بأحد أخذه باثبات نسبه ، وعليه أن يعود مرضاهم ، ويمشي في جنائزهم ويسعى في حوائجهم ، ويأخذ على يد المعتدي منهم ، ويمنعه من الاعتداء ، ولا يقطع أمرا من الأمور المتعلقة بهم الا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك » - صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .

كان العريف أو النقيب هو الواسطة بين أرباب الحرفة والحكومة الفاطمية ، فهو الذى ينقل اليهم أوامر الحكومة وتعليماتها ، والحقيقة أن وظيفة العريف ومراقبته لأهل طائفته واشرافه على أحوالهم ، كان لها أثرها الواضح فى تلك التنظيمات أو الطوائف الحرفية ، فقد بلغت كما يقول برنارد لويس الى حد التأثير وقتل أية محاولة للعمل المستقل من جانب أفراد الطائفة وأصحاب الحرف المختلفة فى العصر الفاطمى ٠

لكن الأمر قد يختلف بالنسبة للحركة الاسماعيلية وأثرها فى تنظيمات الحرفيين وطوائفهم فى ذلك العصر ، فلا يبدو واضحا (٢٢) ، كذلك الأمر بالنسبة للدعوة السرية التى قامت بها جماعة اخوان الصفا ، والتى اهتمت بالحديث عن أرباب الحرف والصنائع وما يعانونه كما ورد فى رسائلها فى بداية العصر الفاطمى ٠ ويظهر أن الدعوة للمذهب الفاطمى حاولت الاستفادة من جماهير الفلاحين والصناع فى حركتها ، ولكن أثرها فى تنظيمات الطوائف الحرفية غير واضح فى مصر وغيرها من بلاد العالم الاسلامى ٠

واذا كانت الدعوة الاسماعيلية قد عملت على استغلال الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة للطبقات الدنيا من المجتمع الاسلامى ، ونادت بالعمل على تحسين أوضاع الحرفيين والصناع والفلاحين ، الا أن الفاطميين فى السلطة غيرهم فى الدعوة ، ولا نحس بثورة اجتماعية خاصة بهؤلاء الحرفيين فى مصر فى عهدهم ٠

ولا شك أن سياسة التسامح الدينى التى اتخذوها شعارا لهم كان لها أثرها الواضح فى عدم وجود مضايقات أو وقوع مصادمات مع أهل الذمة من أصحاب الحرف والصناعات (٢٣) ٠ وكان من الطبيعى أن نجد

---

(٢٢) يرى برنارد لويس أن الحركة الاسماعيلية كان لها أثرها الواضح فى طوائف الحرفيين فى مصر وغيرها ، لكننا لا نملك من الأدلة التاريخية ما يثبت وجهة نظره ٠ النقابات الاسلامية ، ص ٣٧٥ ٠

(٢٣) وقد بلغ من تسامح العزيز بالله أن قلد الأمور وجمع المال لكل من عيسى ابن نسطورس ومنشا اليهودى ، واستخدم النصارى فى الدواوين وصرف الكتاب المسلمين ٠ ويقول ابن الجوزى ، فكتب رجل من المسلمين رقعة ودفعها الى امرأة وبذل لها مالا على أن تقف للعزيز فى طريقه وفيها : « بالذى أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشا وأذل بك المسلمين الا نظرت فى أمرى » فقبض العزيز عليها وأخذ من ابن نسطورس نحو ثلاثمائة ألف دينار ٠ مرآة الزمان ، جـ ١١ ، ورقة ١٥٣ مخطوط مصور ،
Lane-poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 120.

الطوائف الحرفية مفتوحة أمام المسيحيين واليهود كسائر الحرفيين من المسلمين على حد سواء •

وليس لدينا من المعلومات الكافية للدلالة على تأثير حركة العيارين والفتيان التى نشأت فى العراق فى طوائف الحرفيين والصناع بمصر الفاطمية ، وذلك على الرغم من كونها حركة شعبية ضمت بين صفوفها الكثير من أهل الصنائع فى بغداد (٢٤) • وكان من المنتظر أن تتبادل التأثير مع تنظيمات الأصناف المصرية فى وقت ظهورها خاصة وأنه وردت اشارة صريحة بعد ذلك تعود الى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، فقد ذكر ابن الجوزى فى حوادث سنة ٤٧٣ هـ صلة بعض الفتيان بالفاطميين ودعوتهم لهم ، وكان على رأسهم ببغداد ابن الرسولى الخباز الذى صنف فى معنى الفتوة وقضاياها وقانونها (٢٥) •

والواقع أن طوائف الحرفيين فى العصر الفاطمى لم يكن لها نشاط ملحوظ من الناحية السياسية ، أو أنها غدت على جانب كبير من النفوذ لدى السلطة الحاكمة ، وذلك بالمقارنة لما أصبحت عليه النقابات الأوروبية، فقد نجحت تلك النقابات فى السيطرة على الأداة الحكومية بعد سلسلة من المصادمات والثورات ، والتى امتاز بها تاريخ المدن الأوروبية فى العصر الوسيط •

كما أنه من الملاحظ أن طوائف الصناع فى مصر فى ذلك الوقت كانت خالية من مظاهر التفرقة الاجتماعية بين أعضائها ، على النقيض مما اتسمت به تلك النقابات الأوروبية ، وكانت المساواة بين أفرادها من أهم ما يميزها على غيرها فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الميلاد •

أما من الناحية الاقتصادية فتشير أوراق الجنيزة الى قيام أصحاب النفوذ فى العصر الفاطمى من رؤساء اليهود وغيرهم بالعمل على حماية

(٢٤) ظهرت حركة العيارين والفتيان لأول مرة فى حصار بغداد الأول سنة ١٩٦ ــ ١٩٧هـ كقوة تدافع عن المدينة ، ثم صاروا بعد ذلك يمثلون حركة اجتماعية ثورية ناجمة عن ظروف العامة فى العاصمة العباسية • وكانت حركتهم موجهة ضد الحكام والشرطة والأعيان ، وقد انقسمت بعد ذلك الى تيارين : أحدهما يمثل فتوة العيارين والشطار ، والآخر سمى فتوة العارفين أو الصوفية - الطبرى : تاريخ الطبرى ، حوادث سنة ١٩٧هـ ، عبد العزيز الدورى : نشوء الأصناف والحرف فى الاسلام ، ص ١٦٠ ــ ١٦٤ •

(٢٥) وقد شكا البعض وضعهم الى السلطة فى بغداد وقالوا : ان هؤلاء القوم يدعون لصاحب مصر ويجعلون الفتوة شعارا وعنوانا لجمع الكلمة على هذا الباطل مما أدى الى ضربهم • ابن الجوزى : جـ ١ ، ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧ •

الصناعات المحلية من المنافسة الخارجية ، هذا فى الوقت الذى لم يتضح فيه أى دور ملموس لتلك الطوائف أو النقابات فى ذلك الأمر .

كذلك تشير المصادر الى أن أصحاب الحرف من الغرباء الوافدين على مصر ، كانوا يلاقون مصاعب جمة فى الحصول على عمل لهم ، كما وجدت عدة شكاوى لمجموعة من الحرفيين بسبب قرارات السلطة الحاكمة بحرمانهم من مزاولة مهنهم أو من أجل صعوبة الحصول على تراخيص خاصة لممارسة أعمالهم الصناعية .

وهكذا يبدو أن طوائف الحرفيين لم يكن لها دور واضح الا فى مسألة جمع الضرائب ، حيث منحت السلطة الواسعة للنقباء والمشايخ فى توزيع وفرض الضرائب على الصناع والحرفيين والعمل على جمعها منهم ، تماما كما كانت عليه الحال فى العصور السابقة . كما كان لهؤلاء حق التدخل فى فض المنازعات والمشاكل المتصلة بالعمل .

— مظاهر تماسك الحرفيين فى العصر الفاطمى :

أما من الناحية الاجتماعية فتبدو مشاركة طوائف الحرفيين أكثر وضوحا فى الاحتفالات والأعياد وسائر المناسبات الفاطمية ، حيث كان أصحاب الحرف يقومون بتزيين أسواقهم وحوانيتهم بعلامات الزينة وصناعة اللعب والتماثيل وأدوات التسلية ويعلقونها على أبواب الحوانيت وفى الشوارع الرئيسية بالعاصمة . يذكر المقريزى أنه فى سنة ٣٦٤ هـ فى موسم عيد النيروز طاف أهل الأسواق ، وعملوا الفيلة وخرجوا الى القاهرة بلعبهم ، وأظهروا السماجات فى الأسواق .

وقد حدث فى عهد المعز لدين الله أيضا أن كان الاحتفال بذكرى عاشوراء حين انصرف عدد كبير من أصحاب المذهب الشيعى ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالاتهم ، وكانوا فى حالة من الحزن والبكاء ، فكسروا أوانى السقائين فى الأسواق ، وشققوا الروايا — فخرج ابن عمار ومنع الفريقين وجمع الجميع ، فاستحسن ذلك منه الخليفة المعز ، يقول ابن زولاق : « ولولا ذلك لعظمت الفتنة ، لأن الناس قد غلقوا الدكاكين وأبواب الدور وعطلوا الأسواق » .

وذكر المسبحى أنه فى عهد العزيز بالله وقعت نار فى الأسطول ، فأتت على جميع ما فيه ، وحمل البحارة السلاح ، ومعهم جموع من العامة ، فقتلوا من الروم أعدادا كبيرة ، ونهبوا أمتعتهم لاتهامهم بحرق سفن الأسطول ، ويظهر أن أهل السوق وطوائف الصناع نالوا من متاعهم الشىء

الكثير قدرت فى حينه بنحو تسعين ألف دينار ، فطاف أصحاب الشرطة فى الأسواق بسجل فيه الأمر برد ما نهب من دار ماتك وغيرها من دور الروم (٢٦) .

وهكذا كان أرباب الحرف والصنائع يشاركون فى الحياة العامة فى ذلك العصر وقد ذكر المقريزى أنه فى سنة ٣٩٥ هـ خرج أهل الأسواق على طبقاتهم ، كل يلتمس كتب أمان يكون لهم ، فكتب فوق المائة سجل بأمان لهم . وكان قد شاع بين طائفة من الكتاب وغيرهم من أصحاب الحرف فى العاصمة أن الحاكم بأمر الله قد جمع من الأحطاب وخشب السنط الشيء الكثير ، فخامر قلوب الناس من ذلك فزع شديد وخافوا على أنفسهم من بطش الحاكم وجبروته وأن يأمر باحراقهم .

وكانت طوائف الصناع والحرفيين تسكن فى حارات كبيرة فى الفسطاط وفى القاهرة ، يقول المقريزى : « كانت كل حارة من هذه بلدة كبيرة بالبزازين والعطارين والجزارين وغيرهم » ، ولا شك أن الاسكندرية وتنيس ودمياط وغيرها من المدن فى الوجه البحرى وفى صعيد مصر كانت مكتظة بأسواقها وبأهل الحرف الذين كانوا يشاركون العامة فى كل شئونهم .

ويصف المقريزى ما قام به الحاكم بأمر الله حين أحس بما صارت اليه طائفة الكتاب وغيرهم من أهل الذمة ، حين اتسعت أحوالهم وكثرت أموالهم ، فهو يذكر أنه قبض على عيسى بن نسطورس ، وكان قد بلغ منزلة الوزراء ، وضرب عنقه ، كما تشدد على المسيحيين وألزمهم بلبس الغيار وشد الزنار فى أوساطهم .

ولم تذكر المصادر شيئا عن موقف طوائف الحرفيين تجاه سياسة الحاكم المتشدد نحو أهل الذمة ، وليس هناك ما يفيد عن أحوال أهل تنيس حينما أمر الحاكم بهدم كنائسهم فى سنة ٤٠٣ هـ (٢٧) ومن المعروف أن تنيس كانت من أهم المدن الصناعية ، كما كان غالبية ساكنيها من الأقباط ، وكما أن المسبحى لم يوضح لنا شيئا عن رد فعل أهل تنيس حين توجه الجند السودان فى عهد الخليفة الظاهر الى المدينة ،

---

(٢٦) كانت دار ماتك بجوار دار الصناعة بالمقس وكان يقيم بها نفر من الروم .

(٢٧) يذكر ابن بسام التنيسى أنه كان يوجد بمدينة تنيس اثنان وسبعون كنيسة قام بهدمها الحاكم وجعل عوضها مساجد . انيس الجليس فى اخبار تنيس ، ص ١٨٤ تحقيق جمال الدين الشيال .

وعاثوا فيها وافسدوا ونهبوا كل ما وصلت اليه أيديهم ، وذلك بعد أن تمكن الشريف ابن حمزة عامل تنيس من الهرب الى دمياط .

ويظهر أن موقف أهل السوق كان سلبيا ، فالمسبحى يمدنا بصورة واضحة حين كانوا يتعرضون لأعمال الشغب والنهب من جانب العبيد السودان ، فهو يذكر أنه حينما خاف أصحاب الحرف على أموالهم أثناء الاحتفالات بيوم عيد النحر سنة ٤١٥ هـ ، فانهم نقلوها من القيساسر والحوانيت بمصر الى منازلهم وأدخلوا دكاكينهم من الأمتعة .

كذلك فان المسبحى لم يوضح لنا شيئا عن موقف هؤلاء البنائين والفعلة الذين قاموا ببناء السور الدائر على مقياس النيل ، ولم يقدم لهم أبو طالب العجمى من أجورهم شيئا . فقد ذكر المؤرخ المسبحى أنه حينما تم فعل ذلك وأتموا البناء في سنة ٤١٥ هـ ، حدث أن اعتدى أبو طالب العجمي مدير دار الصناعة بالضرب على ابن أبي الرداد المشرف على المقياس، وذلك بسبب مطالبته بدفع الأجور المستحقة لهم . هـذا ولم نسمع عن مقاومتهم شيئا ، وان كانت الشائعة التى ترددت في المدينة حينذاك عن مقتل كل من الوزير الجرجرائي ومتولي دار الصناعة تعني أن الرأى العام بات فى سخط عليهم .

لكنه يبدو أن هذا الموقف لم يكن ثابتا من جانب أهل السوق ، خاصة عند الظروف الصعبة التى كانوا يتعرضون لها كما كان يحدث في أوقات الشدة ووقوع الأزمات . فحين وقع الغلاء في عام ٤١٥ هـ وتجمع العبيد السودان ، ومن انضم اليهم من الزعاع والنهابة ، وقصدوا الساحل وكان بها دكاكين الحبوبيين فنهبوها ، حدث أن وقع صدام بينهم وبين العامة من المصريين بالسلاح وحاربوهم وخرج اليهم العتالون والنفاطون فهزموهم .

ولم تلبث الأمور أن عادت الى الهدوء بعد أن خفت حدة الغلاء . وكان خروج الظاهر لاعزاز دين الله وحرمه الى سجن يوسف بالجيزة ، أقام أهل الأسواق نحو الأسبوعين يطوفون بالشوارع بالخيال والألعاب بالتماثيل التى صنعوها خصيصا لذلك ، وتعطل أصحاب الحرف عن أشغالهم ومعايشتهم ، واجتمع خلق كثير للفرجة والنظر اليهم ، وكما يذكر المقريزى: « وأطلق لهم ثمانية آلاف درهم كانوا فى اثنى عشر سبوقا » .

وكان لكل حرفة مشايخها وأعلامها وطبولها التي تشارك في مثل هذه الاحتفالات والمناسبات العديدة التى استحدثها الفاطميون منذ بداية عهدهم ، وقد ظلت هذه العادة جارية من جانب طوائف الحرفيين . يذكر ناصر خسرو أنه حينما ولد للخليفة ولد وذلك فى سنة ٤٣٩ هـ عمل أهل

السوق وأرباب الحرف على تزيين المدينتين : القاهرة والفسطاط وكافة الأسواق ، يقول ناصر خسرو : « ولو وصفتها لما اعتقد بعض الناس صحة ما أقول ولما صدقوني فقد كانت دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجوهر والنقد والأمتعة المختلفة ، والملابس المذهبة والمقصبة بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس » .

كما ذكر المقريزي أنه في عام ٥١٧ هـ ركب الخليفة الآمر في موسم أول العام ورتب الموكب ومصفات العساكر عن يمينه وشماله وجميع تجار البلدين القاهرة والفسطاط ، من الجوهريين والصيارف والصاغة والبزازين ونحوهم قد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة .

وهكذا كانوا يشاركون في الاحتفالات العامة بعرض صناعاتهم وما ينتجونه من السلع والأدوات المختلفة في مواكب الخلفاء الفاطميين .

كما يظهر تماسك الحرفيين وميولهم نحو الفاطميين حتى بعد زوال حكمهم عن البلاد ، يتجلى ذلك من الرواية التي أوردها أبو شامة في حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، فقد ذكر أن أحد دعاة الفاطميين ويسمى قديد القفاص أخذ يدعو لهم بالاسكندرية ، حتى بلغت أخبار دعوته بلاد الشام ، ويقول أبو شامة : « وطبقت عقول أهل مصر فتنته وأن أرباب المعايش كانوا يحملون اليه جزءا من كسبهم ، وكذلك النساء كن يبعثن اليه شطرا وافيا من أموالهن » . لكنه لم يلبث أن تم القبض عليه وتلاشت أخبار أيام الأيوبيين .

ـــ المنازعات بين ارباب الحرف في العصر الفاطمي :

يؤكد المقدسي على وجود ظاهرة التكتل القومي والمذهبي في القرن الرابع الهجري ، ويشير الى ما وقع من صدام ونزاع بين أهل البجة والقبائل العربية في صعيد مصر الذين كانوا يعملون في استخراج الذهب في منطقة العلاقي وغيرها . كما يوضح المقدسي ما كان واقعا بين طائفة الجزازين والأعراب باليمامة في ذلك الوقت قائلا : « وقد بلغ من أمرهم أن اقتسموا الجامع ويقولون للغريب : « كن من أينا شئت والا فاخرج » .

ويظهر في بيئة الاسكندرية التي كانت حافلة بالأنشطة الصناعية والتجارية في العصر الفاطمي ، أنه لم يكن يخلو الأمر من وقوع بعض الخلافات مع بعض الطوائف ، خاصة بين هؤلاء الصبيان أو صغار الصناع وبين أصحاب المصانع ، فقد كشفت أوراق الجنيزة عن بعض الخطابات التي أرسلها بعض الصباغين والأساكفة وغيرهم من الحرفيين الى نظرائهم

فى العاصمة . يشكون فيها من سوء أحوالهم ومن التوترات والمنازعات الواقعة بينهم ، وتحدى الصناع والصبيان لأصحاب هذه المصانع من ذوى المكانة الاجتماعية العالية .

ويبدو أن الحكومة الفاطمية لم تحاول الحد من ظاهرة التمايز الطبقى ، ومن سوء الأحوال المادية التى كان يعانى منها هؤلاء الأجراء وصغار الحرفيين والصناع فى القرنين : الحادى عشر والثانى عشر .

وعلى أية حال فاننا لا نلمس تلك المنازعات أو الصراعات بين الطوائف المختلفة ، كما كانت المنازعات بين أهل أسواق بغداد فى أوائل القرن الرابع الهجرى (٢٨) . ولكنه يمكن القول بأن العصر الفاطمى شهد بعض التكتلات الطائفية التى يغلب عليها الطابع الدينى ، فمثلا كان لطائفة اليهود فى الاسكندرية وفى الفسطاط روابط مشتركة ، وتعاطف فيما بينهم ، وربما كان ذلك أمرا طبيعيا من أجل أن يتمكنوا من أداء فرائضهم الدينية وتوجههم الى المناطق المقدسة والالتزام بأحكامهم الدينية ، وهكذا كانت تلك الروابط ليس الغرض منها العدوان أو مواجهة الطوائف الحرفية القائمة .

والواقع أننا لا نكاد نلم شيئا عن التنابذ الشديد أو المنازعات بين طوائف أهل الحرف فى مصر العاصمة ، بل على النقيض من ذلك هناك ما يكشف لنا عن روح التعاون والعلاقات الطيبة بين أهل المهن والحرف ، وقد أوضحت خطابات الجنيزة بعض مظاهر المشاركة فى أعمال التجارة والصناعة بين المسلمين وأهل الذمة من المسيحيين واليهود فى العصر الفاطمى .

وهكذا غلبت روح التعاون بين الطوائف المختلفة ، كما كان تماسك الحرفيين وميولهم نحو الفاطميين أكثر وضوحا ، ولم نسمع عن وقوع منازعات أو مصادمات فيما بينهم كالتى وقعت فى بغداد بسبب الانقسامات العنصرية والتكتلات القومية أو الدوافع الاقتصادية . وذلك على الرغم من نشاط حركة الحرفيين وهجرة الكثير من الصباغين والصاغة والخياطين والنساجين الذين جاءوا من بلاد الروم وبيزنطة ، ومن بلاد الشام الى مصر من هؤلاء صانعى الزجاج وغزالى الحرير ونحوهم من الحرفيين أيام حكم الفاطميين .

---

(٢٨) شهد المجتمع البغدادى تكتلات اجتماعية قائمة على أساس قومى منذ العقد الأخير من القرن الثانى الهجرى ، كما تتمثل أيضا فى انقسام عنصرى ومنافسات بين العرب والأعاجم ، وكانت المنازعات بين أهل أسواق بغداد من ورائها دوافع متباينة قومية وطائفية واقتصادية وغيرها . المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٢٦ ، الكبيسى : أسواق بغداد ، ص ٣٧٤ — ٣٧٧ .

٢ ـ حياة الحرفيين الاقتصادية

ـ دخل الحرفيين والصناع فى مصر الاسلامية :

من المعروف أن أجور الحرفيين كانت تختلف من مهنة الى أخرى ومن مكان لآخر ، وكان بعض هذه الأجور أحيانا يدفع نقدا ، والبعض الآخر يدفعه أصحاب العمل عينا لهؤلاء الحرفيين وذلك منذ العصر البيزنطى . فقد ورد فى احدى أوراق البردى اليونانية أن عمال صناعة الطوب فى أكسيرنخوس (البهنسا) استلموا أجرهم وقدره اثنتا عشرة كيلة قمحا .

كما ورد فى عقـد يرجع تاريخه الى سنة ٦١٥ م قيمة أجر أحـد الصباغين لمدة عامين ، وكان عينا ومقداره تسع عشرة كيلة من القمح ، ووافق ذلك الصباغ على العمل بأحد مصانع اخميم نظير ذلك الأجر . وفى موضع آخر نرى ذكر عقد بين رجل وولديه من الصباغين مع رجل آخر صاحب مصنع من مدينة الأشمونين ، ولقد اتفقوا على احضـار أدواتهم وآلاتهم والاقامة فى مصنعه على أن يدفع لهم أجرا أسبوعيا ومقدما مقداره خمسة صولدات الا ثلاثين قيراطا ، وأن عليهم اذا فشلوا فى انجاز المطلوب اعادة المقدم مع فوائده وهكذا كانت أجور الحرفيين وظروف عملهم فى مصر قبل الفتح الاسلامى .

وقد انقسم أصحاب الصنعة الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم الى نوعين فهناك من كان يشتغل بأجرته مثل هؤلاء الصناع الذين يعملون فى مصانع غيرهم لقاء أجور محدودة يحصلون عليها ، وينطبق ذلك على العاملين فى دار الطراز وفى دار الضرب ودار الصناعة التى كانت تابعة للدولة بعد فتح العرب للديار المصرية ، وكذلك الذين كانوا يعملون فى داخل الحوانيت أو المصانع الأهلية التى تدار لحساب التجار أو أصحاب رءوس الأموال فى ذلك الوقت . ولا شك أن هؤلاء الصناع كانوا يتقاضون أجورا زهيدة ، لكنهم كانوا مدفوعين الى العمل نظير تلك الأجور بسبب نقص رأس المال

فى أيديهم أو بسبب طبيعة حرفهم كالبنائين والنجارين والحدادين وغيرهم من العاملين فى مجال الصناعة والبناء .

أما النوع الثانى من أرباب الحرف والصناعات المستقلون الذين يمارسون عملهم داخل حوانيتهم لحسابهم الخاص ، وكانوا فى الغالب من ذوى الحرف التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم . وكانوا أحسن حالا من الصنف الأول المأجور بطبيعة الحال ، فهم يمتلكون وسائل الانتاج والأدوات البسيطة اللازمة للصناعة ، ورأس المال ، وكانت لهم حرية التصرف فى عملهم كما يشاءون بعيدا عن السيطرة والتسلط والاستغلال .

وكان بمقدور الصناع الأحرار أن ينعموا بثمار أتعابهم ويزيدوا من دخلهم وفقا لحماسهم للعمل ولمهارتهم وجودة انتاجهم . فقد بلغ الدخل الشهرى لأحد هؤلاء الصناع المستقلين ما يزيد عن دينارين فى المتوسط ، وندرك قيمة هذا المبلغ اذا علمنا أنه كان يكفى لحاجة أسرة بكامل أفرادها من الطبقة الفقيرة شهرا من ذلك الزمان .

والواقع أنه ليس لدينا الا أمثلة قليلة عن الأجور فى فجر الاسلام ، ففى القرن الأول الهجرى نجد أجرة النجار دينارا ونصف دينار شهريا ، وأجرة الصانع العـادى ثلثى دينار شهريا ، وأجرة بناء السفن دينارين شـهريا .

وكان يتفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى فى عصر الولاة ، وقد يحدث أن الوالى هو الذى يحدد أجور هؤلاء العمال ، ولا يترك ذلك لصاحب الكورة ، كما أظهرت أوراق البردى ذلك حين طلب الوالى قره بن شريك من صاحب كوم اشقاو أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى اعداد الأسطول المصرى الحربى .

وفى القرن الثانى الهجرى نرى دخل أصحاب حرفة النسيج لا يكاد يكفى حاجة المرء من الضروريات (١) ، وقد عبر ابن الزيات عن حالة بعض النساء اللائى كن يقمن بغزل الكتان ، وكيف أن مثل هذا العمل لا يكاد يكفى قوتهن ، روى ابن الزيات أن امرأة وبناتها الأربع كن يعملن بغزل الكتان وبيعه فى سوق الفسطاط فكانت الأم تذهب كل يوم جمعة لتبيع الغزل بنحو عشرين درهما ، فتشترى بنصف القيمة من الكتان والنصف

---

(١) توجد اشارة طريفة عن حالة الصناع ودخلهم فيما يذكر عن أحد الصناع فى خلافة الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ) أنه كان يرى أن ثلاثمائة درهم فى الشـهر قد تكفيه وزوجته . عبد العزيز الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٦٠ .

الباقي كانت تشتري مما يقتاتون به ، وواضح من الرواية أن خمسا من الأفراد يعملن بالغزل على مدار الأسبوع في مقابل عشرة دراهم .

وقد بلغت أجرة العامل في حرفة النسيج في مدينة تنيس حوالى عام ٢٠٠ هـ/٨١٥ م نصف درهم في اليوم ، وكان ذلك لا يكفي ثمن الخبز الذي يأكله . ونقل آدم متز لنا صورة مما ورد في تقرير البطريرك ديونيسيوس (٢) أثناء زيارته لمصر ، ومروره بهذه المدينة وتعرفه على أحوال أهلها ، وقد جاء في هذا التقرير : « ومع أن مدينة تنيس عامرة بالسكان كثيرة الكنائس فاني لم أر من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها ، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني : ان مدينتنا محاطة بالماء فلا نستطيع زرعا ولا تربية ماشية ، والماء الذي نشربه يجلب الينا من بعيد ، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم ، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان فنساؤنا تغزله ونحن ننسجه ونعطى على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة » ، وهكذا عبر عمال النسيج في شكواهم من جراء تلك الأجور الزهيدة التي لا تكفي القوت أو تقيم الأود .

وتمدنا أوراق البردي ببعض المعلومات عن أجور العاملين في مجال صناعة البناء من البنائين وغيرهم من الحرفيين ، وقد بلغت أجرة البناء حوالى درهم ونصف درهم في اليوم مع طعام الغداء وتقدر بنصف درهم . وأجرة العامل في البناء مع غدائه كانت حوالى ثلاثة أرباع درهم في اليوم ، ورد ذلك ضمن كشوف نفقات اعادة بناء بيت في القرن الثالث الهجري .

ويلاحظ من سياق النص أن البناء وحده هو الذي كان يتناول أجرا ومعه الغداء ، أما الرقاصون فيعطى لهم الأكل فقط الذي قد يشاركهم فيه الصبي (٣) . ويظهر أن أجر البناء أو الصانع كان أعلى بكثير من أجر

---

(٢) هو بطريرك أنطاكية ، وقد صحبه الخليفة المأمون معه الى مصر أثناء قدومه اليها في المحرم سنة ٢١٧هـ من أجل اخماد ثورة البشموريين . والبشمور كورة بمصر بها قرى وريف وغياض وكانت مشهورة بتربية الأغنام في ذلك الوقت .

الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٩٢ ، القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٥٥ .

(٣) الرقاص هو الذي يساعد البناء في عمله ، وهي كلمة تبدو عامية كان يستعملها الشعب في ذلك الوقت ، أما عبارة نصف رقاص التي وردت في أوراق البردي فربما كانت تعني الصبي أو الولد وكان يطلب لخدمة خاصة .

العامل اليومي العادى الذى كان يدفع فى ذلك الوقت فقد تراوح ما بين قيراط حتى وصل الى سدس دانق (٤) .

كان الأجراء من أرباب الحرف يؤلفون الطبقة الدنيا فى مصر وفى غيرها من البلدان (٥) ، وليس أدنى منهم الا أهل الخصاصة والمسكنة على حد قول المقريزى فى تصنيفه لفئات المجتمع المصرى . وخير تعبير أو وصف لحالتهم المعيشية ما عبر عنه الدمشقي حيث قال : « وأما الصنائع العملية وهى المهن فقد قيل قديما الصناعة فى الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى، وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن اقامة ما لابد منه ، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة أو عقد نعمة ، وأيضا فانه مع ذلك اذا ميز الناس دخله فهو فى أدون طبقاتهم » .

ويبدو أن أحوال الوراقين لم تكن أسعد حظا من هؤلاء الأجراء فى الغالب ، ويظهر أنهم كانوا لا يحصلون من الأجر ما يكفى لسد رمقهم فى ذلك الوقت ، يتضح لنا ذلك من وصف أحد الوراقين لحاله جاء فيه : سألت وراقا عن حالته فقال عيشى أضيق من محبرة وأدق من مسطرة ، وجاهى أوهى من الزجاج ، وحظى أشد سوادا من العفص اذا خلط بالزاج، وطعامى أمر من الصبر » . ويمكن القول بأن هذه الحال كان يعيشها الوراقون الذين يعملون فى أسواق الفسطاط وغيرها .

والظاهر أن أحوال الأجراء والصناع قد تحسنت أيام الفاطميين حيث تمتعت البلاد بالأمن والاستقرار ، فكان العمال والصناع فى عهدهم يمنحون أجورا مرضية ، ويقبلون على عملهم فى غبطة وسرور .

ويمكن معرفة بعض التفاصيل الهامة عن الأجور التى دفعت لأصحاب الحرف من البنائين والنجارين وغيرهم فى العصر الفاطمى (٦) ، فمن خلال

(٤) الدانق من الفارسية (دانه) أى حبه واستعمله العرب فى الجاهلية للدلالة على وزن معين وفى النقد أيضا ، ثم استعمل فى العصر الاسلامى كوزن ثقله عشر حبات من الشعير ، وهو أيضا سدس الدرهم . الشيزرى : نهاية الرتبة ـ حاشية ، ص ١٦ .

(٥) قسم علماء المسلمون مسالة الأجور الى قسمين الأول منها هو الأجر العام مثل أجر النجار والحداد والنقاش ومن اليهم فهو يستحق أجره بنظير عمله . أما القسم الثانى فهو الأجير الخاص الذى يحدد أجره ليس بحجم العمل الذى يؤديه ، وانما طبقا للزمن الذى يقضيه فى العمل سواء أكان شهرا أو اسبوعا أو أقل من ذلك أو أكثر فهو يتقاضى أجره على الزمن الذى يقضيه فى العمل وكما ورد لفظ الأجير من الاجارة وهو جزاء عمل الانسان لصاحبه . زيدان عبد الباقى : العمل والعمال والمهن فى الاسلام ، ص ١٠٣ .

(٦) ورد لفظ أجير فى عقد بيع مؤرخ فى رجب سنة ٤٠٦هـ ، وكان اسم الشارى هو « متوسى بن ثيدر الأخير وزوجنة سرته » .
جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ١ ، ص ١٩٦

ما ورد في أوراق الجنيزة نعرف أجور طائفة من الصناع منذ عهد الخليفة المستنصر وحتى عام ٥٩٦ هـ وهي الفترة من سنة ١٠٤٠ إلى سنة ١١٩٩ م ، فنجد في رواية أن عامل البناء يتسلم خمسة دراهم ووجبة غذائية قيمتها نحو درهم وربع ، وكان نفس الأجر يحصل عليه صانع الزجاج ، كما ورد في عقد يرجع تاريخه الى سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ م . وبلغ أجر صانع الأطواق درهمين في اليوم ونحو ذلك .

وقد احتفظت وثائق الجنيزة أيضا بقطع من مسودة وقطع من عقد نهائي من العقود التي كتبت بمدينة الفسطاط في عهد المستنصر وعلى وجه التحديد في عام ٤٤٩ هـ ، وفي هذا العقد استأجر صانعا زجاج شريكان في دكان صانع زجاج ثالث ، وصف بأنه عامل يعمل في فرن الصهر بمصنع للزجاج لمدة عام واحد ، على أن يتسلم خمسة دراهم ويأكل وجبة غذائية تساوي درهما على كل يوم يعمله :

كما يظهر أن الحكومة الفاطمية كانت تعطي أجورا سخية ، ويتضح لنا ذلك من قيمة الأموال الباهظة التي كانوا ينفقونها على مظاهر الترف والنعيم ، فمن ذلك أنه تم انفاق مبلغ مائة ألف وعشرون ألف درهم في بناء العشاري الفضي الخاص بأم المستنصر ، كما بلغت أجرة الصناع في طلائه وزخرفته نحو ألفين وأربعمائة دينار .

ويمكن القول بأن أجور الصناع في العصر الفاطمي كانت عالية ، اذا ما قورنت بما كانت عليه الأجور من قبل ، أو اذا قيست بما كانت عليه أجور العمال في بغداد ، إذ كان المرء لا يستطيع أن يحصل على الضروري من الحاجيات . وربما كانت مشاركة أصحاب رؤوس الأموال أو التجار مع الصناع في اقامة المصانع الأهلية من الأسباب التي أدت الى زيادة دخلهم أو ارتفاع أجورهم .

وقد أشارت وثائق الجنيزة الى أنواع الصناعات التي تمت فيها المشاركة بين أصحاب رؤوس الأموال وهؤلاء الصناع في العصر الفاطمي ، فمن هذه الصناعات التي ورد ذكرها كانت صناعة الزجاج والصناعات المعدنية ومنها صناعة الحلي وسك النقود ، كذلك في صناعة الحرير والحياكة والصباغة ، وفي الصناعات المعدنية مثل صناعة الخبز والسكر والصيدلة . وكانت تتراوح مدة عقود المشاركة ما بين ستة أشهر وحتى مدى الحياة ، وربما تقاسم المشتركون في تأسيس المصانع أو الشركات في رأس المال وفي العمل وأدواته بالتساوي ، وبذلك كانوا يتقاسمون الكسب أو الخسارة بحسب اتفاقهم . ومن الطريف أنهم كانوا يستخرجون من صندوق الشركة أو المصنع مبالغ محددة للصرف منها على غذائهم أو عشائهم .

وقد شجع على قيام العديد من هذه الشركات أو المصانع الخاصة فى العصر الفاطمى تلك الشروط السخية التى كان يطرحها التاجر أو صاحب رأس المـال على صاحب الحرفة أو الصـانع ، فقد جاءت خالية من تلك الاجراءات والشروط الصـارمة ، مما ساعد على توفر الظروف المناسبة ووجود المنافسة الفردية فى ذلك الوقت ٠

ولا شك أن أفراد الصنعة الواحدة كانوا يتفاهمون على الأسعار التى يبيعون بها سلعهم ومنتجاتهم ، وذلك حماية لأنفسهم من المنافسة ، كما كانت الحكومة الفاطمية لا تتدخل فى الأسعار الا فيما يخص أسعار المواد الغذائية من حنطة ودقيق وخلافه ، فكانت تعمل على تحديد أسعارها عند وقوع الغلاء أو المجاعات فقط ٠

وكان الصانع أو صاحب الحرفة يقدر أتعابه بنفسه حسب مهارته أو قدرته ، يذكر ابن الزيات أن ابن الكيزانى الشاعر كان يملك معملا للقزازة والنسيج بالفسطاط ، ومعه بعض العمال الذين يشتغلون معه ، وأن قيمة ما كان يدره عليه دولاب عمله فى كل يوم ثلاثة دراهم ونصف ، فكان ينفق على نفسه نصف درهم ، ويعطى أصحابه العمال الباقى وقدره ثلاثة دراهم ٠ هـذا فى الوقت الذى كان العـاملون فى حرفة النسـيج يتقاضون أجورا لمصنوعاتهم تصل الى مئات الدنانير فى الثوب الواحد ٠ كما بلغ وزن الدرهم الواحد من الخيط فى أسواق الفسطاط ثلاثة دنانير مغربية ٠

ومن المعروف أن صاحب الحرفة الماهر هو دائما الذى يحدد أجره بنفسه ، أما الذى يتحكم فيه الناس أو أصحاب رؤوس الأموال من السماسرة والتجار ، فهو العامل غير المتقن لصنعته ، وكانت الوسيلة الوحيدة لحماية الصناع فى كل مكان هى رفع مستواهم الفنى والحرفى ، وهذا وحده يكفى لرفع أجورهم وتحسين مستوى معيشتهم ٠

كما تجدر الاشارة الى أن التاجر فى ذلك العصر كان يربح من السلعة المصنوعة أضعاف ما كان يربحه الصانع نفسه ، لأن الصانع كان يعمل بيده ، وكان تحويله للمادة الخام التى تصل اليه تحويلا بسيطا ، لا يمكنه من أن يبالغ فى تقدير الثمن الذى يبيع به ، فى حين أن التاجر كان يعتمد على حاجة الناس واقبالهم على السلع وصعوبة الحصول عليها فى أحيان كثيرة بسبب سوء الأحوال واضطراب الظروف السياسية ، فكان يستطيع أن يفرض السعر الذى يريده ٠

ويمكن القول بأنه لم يكن هناك فصل دقيق بين الصناعة والتجارة

فى تلك العصور حيث تشير أوراق الجنيزة الى بعض عقود الشركات التى عقدت على أنها تمت لتصنيع وبيع السلع فهى تجمع بين الاثنين فى آن واحد • كذلك أشارت الى قيام بعض الحرفيين والصناع فى الفسطاط ببيع البضائع التى كانوا يصنعونها بأنفسهم •

ومهما يكن فان الصانع كان بامكانه تحسين دخله متى أتقن صنعته ، ولا يدع غيرهمن التجار أو السماسرة من أن يتحكم فى أجره ، كما كانت حرفته تدر عليه أرباحا طائلة فى حالة تعـاقده مع شريك له من هؤلاء السماسرة فى ذلك العصر •

أما عن دور الطوائف الحرفية فى محاولة رعاية مصالح أعضائها ورفع أجورهم ، أو تحديد أسعار السلع بما يتفق وتكاليف الانتاج وكذلك فى الحفاظ على العمال والصناع وتحريم طرد المعلمين أو الأسطوات لهم دون مبرر ، كما كانت تفعل النقابات الأوروبية فى العصور الوسطى ، فاننا لا نكاد نسمع شيئا من ذلك ، وربما يعزى ذلك الى قلة أو ندرة المعلومات من جهة ، والى احتكار الدولة الفاطمية للعديد من مظاهر النشاط الاقتصادى وبسط نفوذها عن طريق المحتسب وأعوانه على أصحاب الحرف والصناعات من جهة أخرى •

(ب) الضرائب والالتزامات الأخرى :

يشكل الدخل الشهرى أو السنوى لصاحب الحرفة أو الصانع معالم الصورة بالنسبة لحياته الاقتصادية ، ولا يتسنى معرفة الدخل الحقيقى الا اذا علمنا ما كان يؤديه الصانع من أنواع الضرائب الشهرية والسنوية ، فهو مكلف بدفع نوع من الضرائب فى سبيل حصوله على حق الترخيص بمزاولة المهنة التى يرغب فيهـا ، وبدفع رسـوم على انتاجه من السلع المصنوعة ، وأيضا ما كان يدفعه من المكوس أو ضريبة الأسواق •

ويمكن للمرء أن يحدد معالم النشاط الاقتصادى فى مصر قبل الفتح العربى وفقا لتلك السياسة التى عملت الحكومة البيزنطية على تطبيقها ، وكانت ترتكز أساسا على ربط وتحصيل أنواع الضرائب سواء من المزارعين أو أصحاب الحرف الأخرى ، ويرسم لنا Bell صورة واضحة لهذه المعالم ، ولما كان عليه المجتمع المصرى ، فقد كان يتألف من طوائف احداها فوق الأخرى ، وكان على الملاح المكلف بنقل القمح والضرائب الأخرى ، أن يخلف أباه فى حـرفته وأن يرث ابن المكارى مهنـة أبيه ، وهكذا فقد كان عامة الشعب من المزارعين وأصـحاب الحرف الأخرى مقيدين

برباط المهنة التى فرضت عليهم منذ نشأتهم وذلك ضمانا لتحصيل الضرائب العينية والنقدية وارسالها الى العاصمة البيزنطية ٠

وكانت الطريقة المتبعة جباية الضرائب هى الالتزام فيما عدا ما كان يدفع من هذه الضر عينا ، فكان حق جباية الضرائب يعرض فى المزاد كل عام ويرسو عل يتقدم على العطاء ، كما كانت الحكومة تفرض على ملتزم الضرائب رقا صارمة فى كل مرحلة من مراحل جبايتها ٠

وقد أمدنا Milne ببيان أنواع وقيمة الضرائب التى كان يدفعها أصحاب الحرف شهريا أو سنويا (٧) ، وظلت كذلك الى نهاية العصر البيزنطى ٠

وعلى الرغم مما قيل بانه فى عهد أنستاسيوس ألغيت بعض الضرائب التى كان يدفعها الحرفيون ، الا أن المصادر تؤكد على أن تلك الضرائب ظلت تحصل فى مدينة بانوبوليس (اخميم) ، فقد كانت تزيد عن تلك الضرائب التى دفعها ملاك الأراضى فى ذلك الوقت ، وهناك اشارة الى أن الامبراطور قسطنطين منح بعض طوائف الحرفيين حق الاعفاء من الليتورجيا أو الالتزامات المفروضة عليهم ، الا أن مثل تلك الواجبات ظلت كما هى تؤدى فى صعيد مصر مثل مدينة بانوبوليس ، وخاصة التى كانت مفروضة من أجل تزويد الجيش بما يحتاج اليه من الملابس والأدوات الأخرى ٠

وقد ورث الحكام العرب ذلك النظام المالى عن الادارة البيزنطية وحافظوا على تطبيقه بعد الفتح ، ولم تكن الجزية التى فرضت على الأقباط المصرية الا بمثابة ضريبة الرأس التى كانت تحصل منهم منذ العصر الرومانى ٠

---

(٧) من أنواع الضرائب التى كانت تدفع شهريا ضريبة تاجر الزيت وكان يدفع ٨ دراخمات ، متاجر العطور ٦ دراخمات ، الخباز ٨ دراخمات ، وبائع النبيذ ١٦ دراخمة ، قصار الأقمشة ١٦ دراخمة ، والصباغ ٢٤ دراخمة ، وأما ما كان يدفع من الضرائب سنويا : صانع الطوب ١٠٠ دراخمة ، ١٩٢ دراخمة لقصار الأقمشة ، ٢٨٨٠ دراخمة للصباغ ، وبائع القصدير ١٦ دراخمة ، وفى أكسيرنخوس (البهنسا) كان يدفع النساج فى السنة ٣٦ دراخمة ٠

ولم تخل أى حرفة من دفع ضريبة عليها فى ذلك العصر ؛ فصياد الطيور فى البر كان عليه أن يدفع ٤٠ دراخمة فى السنة ، أو ٣٢ دراخمة فى مقابل حق الترخيص لمدة خمسة أشهر فقط ، أما صياد الأسماك فكان عليه أن يدفع مائة دراخمة سنويا ٠

ويذكر ابن عبد الحكم أن هـذه الجزية كانت تقدر بمعرفة عرفاء القرى ، ويتضح من النص أنها كانت تفرض فقط على المنتج ، أو ما كان في سن العمل أو الانتـاج بالمعنى الحديث فلم تكن تفرض على الشيخ الفاني ولا على الصغير ولا على النساء •

وكان العرفاء يقدرونها على أساس الدخل السنوى لكل شخص ، ويذكر البلاذرى أنه وضع على كل حالم دينارين جزية الا أن يكون فقيرا • ويجمع الفقهاء على أن الجزية كانت تقدر وفقا لثروة الشخص ، فتؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ، ومن الوسط أربعة وعشرون ، ومن دون المتوسط اثنا عشر درهما • وقد حفظت لنا أوراق البردى كشوفا من عصر الولاة دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكرت مقدار الجزية الواجبة على كل منهم • وقد اختلفت باختـلاف كل شخص وقلما نجـد شخصين يدفعان جزية متساوية فشخص يدفع دينارا وآخر دينارا ونصف ، وثالث ثلثى دينار ورابع دينار وثلث وهكذا •

ويمكن معرفة المستحق من الجزية على هؤلاء الحرفيين والصناع في مصر الاسلامية بقدر احتمالهم كما يذكر ابن عبد الحكم ، وذلك من واقع دخلهم السنوى وتلك الأجور التى كانوا يتقاضونها ، فقد بلغت أجرة التجار دينارا ونصفا شهريا ، وأجرة الصانع العادى ثلثى دينار فى الشهر ، وكانت أجرة بناء السفن دينارين شهريا • وبمراجعة حساب الحاكة ، يمكن القول بأن دخله السنوى كان يزيد على مائتى درهم وذلك من واقع أوراق البردى، وعليه فانه لا يعد فقيرا ويتحمل دفع الجزية •

وكان الفقهاء يرون أن العامل أو الخرفى وغيرهما ممن لا يبلغ دخله فى العام مائتى درهم فما دونه يستحق الصـدقة • وتكشف لنا أوراق البردى كذلك عن أجرة البناء فى اليوم ومقدارها ثلاثة دراهم ، وبحساب مجمل أجره على مدار السنة فانه يستحق عليه أن يدفع الجزية •

وهكذا يمكن القول بأن أرباب الحرف والصناعات كانوا فى معظمهم يدفعون الجزية ، حتى وان كانت أجورهم تمثل الحد الأدنى للطبقة العاملة فى ذلك العصر •

أما الضرائب التى حافظ العـرب على تحصيلها من الحرفيين فهى تختلف عن الجـزية بطبيعة الحال وقد كانت تعـادل ضريبة الخـراج

التى كانت تؤخذ من المزارعين(٨) • وتمدنا أوراق البردى بكشوف خاصة بدافعى الضرائب وهى ترجع الى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، وتلقى الضوء على نظام الادارة المالية تماما فى ذلك الوقت • وفى بردية ترجع الى منتصف القرن الثالث الهجرى ورد اسم اسحق الأزرق الحائك ؛ وكانت قيمة الضريبة لمزاولته حرفته ثلاثة دنانير ، واسم هيو الصباغ • كما وردت أسماء أخرى لمجموعة من النجارين والصباغين وقيمة الضرائب المستحقة على كل منهم • وقد تضمنت أوراق البردى أيضا بعض الكشوف الخاصة بدافعى الضرائب وقيمة ما يدفعه الأفراد دون معرفة نوعية تلك الضرائب •

ومن أنواع الضرائب الأخرى التى جباها العرب فى بداية حكمهم للبلاد كانت المكوس (٩) ، وقد فرضت على أصحاب الحرف عند قيامهم بتصريف منتجاتهم فى الأسواق • وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص دعا خالد بن ثابت الفهرى لجباية المكوس ، فاستعفاه ورغب عن ذلك ، فاختار ربيعة بن شرحبيل بن حسنه على المكس • وتوضح لنا احدى أوراق البردى أنه فى عام ٩١ هـ رفع المكس عن الحبوبيين فى الفسطاط وذلك لتجنب وقوع الغلاء •

وأثر عن زريق بن حيان الذى كان على مكس مصر زمن الخليفة عمر ابن عبد العزيز أنه قال : ان الخليفة كتب اليه أن يراقب من مر عليه من المسلمين فيأخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر له من التجارات من كل أربعين دينارا ، وما نقص بحسابه حتى تبلغ عشرين دينارا ، فاذا نقصت عن ذلك تركها ولا يأخذ منها شيئا واذا مر أهل الذمة أخذ منهم من كل عشرين دينارا دينارا ، وما نقص فبحسبانه ذلك حتى تبلغ تجارتهم عشرة دنانير ، فاذا نقصت عن ذلك لا يأخذ منها شيئا •

---

(٨) كانت تقدر بمعرفة عرفاء القرى وغيرهم فى المدن ، يقول ابن عبد الحكم : « واذا ما فرغوا من توزيع الخراج لكل قرية نظروا الى طوائف العمال والصناع فى كل قرية فقسموا عليهم بقدر احتمالهم » ومن الجدير بالذكر أن عمرو بن العاص أقر أهل الذمة على ما كان يتحصل منهم للروم قبل اتمام الفتح • فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٦ ، حسن ابراهيم ، وعلى ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ٣٧ •

(٩) أصل كلمة مكس فى اللغة الجباية ، يقال مكس يمكس مكسا ، والماكس وهو العشار وهو صاحب المكس • المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٠٧ •

ويذكر جروهمان إن كلمة مكس مشتقة من اللفظ السريانى ماكسو Maxco وكان المكس دراهم تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية •

Grohmann : Arabic papyri, vol. 3, p. 9.

وكان فقهاء المسلمين لا ينظرون الى هذه الضرائب بعين الرضا ، لأنها فى نظرهم ضرائب غير شرعية ، وكانوا يطلقون عليها اسم المال الهلالى ، وقد عرف المقريزى هذه المكوس بأنها ما يدفع مشاهرة «كأجرة الأملاك المسقفة من الدور والحوانيت والحمامات والأفران والطواحين وعداد الغنم » ، وقيل ان عمر بن عبد العزيز نهى عن تحصيلها وكتب فى ذلك أن ضعوا عن الناس هذه المكوس فليس بالمكس ولكنه النجس .

ويذكر المقريزى أن الخليفة المهدى كان أول من فرض الضرائب على الحوانيت فى الاسلام وذلك فى سنة ١٦٧ هـ ، وعندما ولى موسى بن مصعب فى عهده تشدد فى استخراج الخراج ، وجعل خراجا على أهل الأسواق .

وتكشف لنا أوراق البردى أن أنواعا أخرى من الالتزامات بخلاف الضرائب كانت مفروضة فى ظل الحكم العربى على أرباب الحرف من المصريين ، وكما كانت عليه الحال فى العصرين الرومانى والبيزنطى ، فان هذه الالتزامات كانت تأخذ شكل الخدمات (الليتورجيا) وذلك بتكليف أصحاب الحرف والصناع فى الكور المصرية كالنجارين والحدادين وغيرهم بصناعة وتشغيل مستلزمات السفن الحربية والتجارية داخل وخارج دار الصناعة ، كما كان يفرض على الكور المختلفة قدرا من الأدوات والآلات اللازمة لبناء السفن وتنظيفها ، وكذلك يفرض عليهم تموين الملاحين الذين يعملون فى اعداد وتجهيز الأسطول المصرى فى عصر الولاة .

وقد بلغ من شدة وطأة الضرائب بتنيس وكثرة الرسوم أن أهلها من عمال النسيج وغيرهم من الحرفيين شكوا الى البطريرك ديونسيوس أثناء زيارته للمدينة حوالى سنة ٢٢٠ هـ ، وقيل له ان الواحد منهم يلزم بدفع خمسة دنانير فى كل عام ، وهو مبلغ لا يقدرون عليه ، وتستعمل القسوة فى تحصيله منهم . ويذكر آدم ميتز أنه من كان يتخلف عن دفع هذه الضريبة فانه يتعرض للضرب والسجن بالاضافة الى أخذ الأبناء والبنات كرهان ، ويلزمون فيها بالعمل لديهم سنين لأجل كل دينار واحد على حد قوله .

ويشير البلوى الى الشدة التى استعملها أحمد بن مدبر عامل الخراج فى مصر قبيل الحكم الطولونى ، وما أسفرت عنه سياسة التشدد هذه من شكوى الرهبان بعد ذلك لأحمد بن طولون حينما تولى زمام الأمور عام ٢٥٤ هـ ، من صاحب الخراج ابن المدبر ومطالبتهم بدفع الجزية وكانوا معفين منها .

وتشير المصادر التاريخية الى انتظام الأحوال الاقتصادية أيام

الطولونيين ، حين هدأت البلاد وخمدت الثورات . ويرجع ذلك الى ما قام به أحمد بن طولون من اسقاط الضرائب التى كان ابن المدبر قد فرضها على كل شيء حتى المصايد والمراعى والشنب والنطرون (١٠) . ويقول المقريزى : « وأول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد ابن مدبر ، فانه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب ، فابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة من بعده لا تنقض ، فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد أن كان مباحا لجميع الناس . وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى (١١) ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد (١٢) .. الى غير ذلك » .

والواقع أن هذه الضرائب كانت مفروضة على المصريين منذ العصر اليونانى ، وظلت تؤدى فى العصرين : الرومانى والبيزنطى . ويظهر أن الولاة والحكام لم يعملوا على تحصيلها فى فجر الاسلام ، الى أن أعادها أحمد بن مدبر الذى تقلد رئاسة بيت المال فى مصر سنة ٢٤٧ هـ .

ومهما يكن من أمر فاننا لا نسمع شيئا عن شكوى أصحاب الحرف وغيرهم من العامة أيام حكم الطولونيين والاخشيديين ، بسبب وطأة الضرائب واستخدام الشدة فى تحصيلها ، بالاضافة الى أن المصادر لم تحفظ لنا شيئا كثيرا عن عمال الخراج فى مصر الأخشيدية ولا عن أساليبهم فى جباية الضرائب .

أما فى العصر الفاطمى فيذكر المقريزى أنه أعيدت الأموال الهلالية ، وصارت تعرف بالمكوس ، ويبدو من سياق النص أنها زيدت فى العصر الفاطمى الأخير من حيث نوعها ومقدارها وعددها . والذى يهمنا فى الواقع

(١٠) يذكر المقريزى أنها كانت تبلغ بمصر مائة ألف دينار فى كل سنة . الخطط ، جـ ١ ، ص ١٩٢ .

جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٤ ، ص ٧٩ .

(١١) والواقع أن هذه الضرائب وغيرها كانت مقررة منذ العصر الرومانى والبيزنطى ويذكر Johnson & West أن ضريبة المراعى ظلت مفروضة على رعاة الأغنام بجهة أفروديتو (كوم اشقاو) وكانت لهم نقابة The guild of Chepherds خاصة بهم مسئولة عن جمع الضرائب وتحصيلها .

Byzantine Egypt, Economic Studies, p. 153.

(١٢) كما يذكر لنا Milne أن صيادى الطينون فى العصر الرومانى كان عليه أن يدفع ٤٠ دراخمة فى السنة ، أما صيادو الأسماك فى بحيرة موريس فكانت الادارة تؤجر لهم حق الصيد فيها .

A History of Egypt under Roman ruel, p. 157.

ان هذه الضرائب على كثرتها لم تكن بطبيعة الحال فى صالح أرباب الحرف والصناع ، ولا فى صالح المستهلكين من أفراد الشعب ، اذ تؤدى الى ارتفاع تكاليف الانتاج وأسعار السلع تبعا لذلك .

وفى عهد المعز لدين الله وبداية الحكم الفاطمى للبلاد اشتد يعقوب ابن كلس فى طلب الخراج (١٣) ، ويوضح لنا المقريزى قيمة ما تم استخراجه من الضرائب من أصحاب حرفة النسيج فى بعض المدن الصناعية فيقول : « انه حصل فى يوم واحد من مال تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتى وعشرين ألف دينار .. وهذا شىء لم يسمع قط بمثله فى بلد » ومن المعروف أن هذه المدن الثلاث كانت من أهم مراكز صناعة النسيج فى مصر فى ذلك الوقت .

كانت الضرائب التى فرضها الفاطميون على أنواع الصناعات ثقيلة ، فهى تشمل المواد الأولية وأماكن الصناعة والآلات المستعملة ، وقد عبر المقدسى الذى زار مصر فى عهد العزيز بالله عن ذلك حيث قال : « وأما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل . وأما ثياب الشطوية فلا يمكن للقبطى أن ينسج شيئا منها الا بعد أن يختم عليها بخاتم السلطان ، ولا أن تباع الا على يد سماسرة قد عقدت عليهم ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ، ثم تحمل الى من يطويها ثم الى من يشدها بالقش ، ثم الى من يشدها فى السفط والى من يحزمها ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه ثم على باب الفرضة يؤخذ أيضا شىء (١٤) ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، ثم تفتش المراكب عند اقلاعها .. كما كان يؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب .

والواقع أن الحكومة الفاطمية لم تدخر جهدا فى سبيل تحصيل هذه الرسوم أو الضرائب على أصحاب صناعة النسيج أو معاصر الزيت وغير ذلك ، بل انها اتخذت من الاحتكار وسيلة لانتاج بعض السلع وبيعها لزيادة أيراداتها ، مثل العمل على استخراج الشب وبيعه ، فكان يسلم منه للديوان

---

(١٣) قيل ان قيمة المتحصل من الخراج على يد ابن كلس بلغ نيفا وخمسين ألف دينار فى يوم واحد ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩٤ .

(١٤) الفرضة هى ضريبة الجمارك وهى نوع من ضرائب الميناء ، فمثلا كانت السفن التى تحمل البضائع من تنيس الى ساحل مصر عليها أن تدفع ضريبة محددة وهكذا . جروهمان : أوراق البردى العربية . جـ ٥ ، ص ١٠٣ .

وقد ذكر المقدسى أنه كان يجلس بساحل تنيس أحد عمال الضرائب قيل انه كان يحصل فى كل يوم ألف دينار . احسن التقاسيم ، ص ٢١٣ .

ما يبلغ اثني عشر ألف قنطار ، حيث كانت تبيعه لتجار الروم بأسعار تتراوح بين أربعة وستة دنانير للقنطار (١٥) ، ولا تخص السوق المحلية منه الا بمقدار ثمانين قنطارا فقط تباع بسعر أعلى .

ومما لا شك فيه أن سياسة الاحتكار كانت تقلل من قيمة المكاسب التي تعود على أصحاب الحرف أو العمال الذين كانوا يعملون فى استخراج المعدن ، ونقله الى الاسكندرية حيث يتم بيعه هناك ، فلا يستطيع أحد من العربان ولا غيرهم من شراء أى مقدار من الشب ، كما يقول المقريزى : « فان عثر على أحد أنه اشترى منه شيئا أو باعه سوى الديوان نكل به واستهلك ما وجده معه » .

ولم يقتصر الأمر على احتكار استخراج الشب ، بل ان الفاطميين عملوا على انشاء المتجر لشراء بعض السلع والمواد الخام ، وبيعها بعد ذلك من أجل الحصول على الربح الناتج بين ثمني الشراء والبيع ، ويتحدث المقريزى عن هذا المتجر وأنه كان فى الأصل لخزن الغلال ، ولكن الوزير اليازورى فى عهد الخليفة المستنصر أشار الى تحويله كمتجر لخزن الخشب والحديد والصابون والرصاص . واستمر الحال على ذلك حتى نهاية الدولة الفاطمية . ولا جدال فى ان مثل هذه السياسة كانت تقلل كثيرا من عائد أصحاب الحوانيت والحرف ودخلهم العام .

وعلى الرغم من اتخاذ سياسة التسامح الدينى مع أهل الذمة من جانب الفاطميين ، الا أنهم كانوا يحرصون كل الحرص على تحصيل الضرائب منهم ، وقد عبر أهل الاسكندرية من أصحاب الحرف والتجار عن صعوبة تدبير الضرائب الثقيلة المفروضة عليهم . ومن الجدير بالذكر أن الاسكندرية كانت تؤدى ما عليها من الضرائب والأموال الى خزانة السلطان رأسا كما كان عليه الحال منذ العصر البيزنطى .

وكان فقهاء المسلمين يعتبرون كل ما زاد عن الضرائب الشرعية ضرائب غير قانونية كما أشرنا من قبل ، ولهذا السبب نجد الخليفة الحاكم حينما أراد أن يطبق ذلك ، أمر باسقاط جميع الرسوم والمكوس التى جرت العادة بها . لكنه سرعان ما أعيدت فى عهد الخليفة الظاهر الى ما كانت عليه ، وهكذا ظلت الرسوم تجبى من الحرفيين وأصحاب المصانع الأهلية حتى سقوط الدولة الفاطمية .

---

(١٥) كانت الحكومة تنفق نحو ثلاثين درهما على استخراج القنطار أى ما يقرب من دينارين وكان صافى الربح لا يقل عن اربعين الف دينار فى السنة . ـ ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

ويشير ابن جبير الذى زار مصر بعد وفاة العاضد ـ آخر الخلفاء الفاطميين بقليل الى شناعة المكوس التى فرضوها فى عهدهم (١٦) ، ولما قام به صلاح الدين بعد أن استولى على مقاليد الحكم من الغاء تلك الرسوم والمكوس التى قدرت بنحو ١٠٠ ألف دينار (١٧) . كما نقل أبو شامة عن ابن أبى طى قوله : « وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار ، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار . وكما ذكر القلقشندى فانه كانت قد عمت البلوى بهذه المكوس وخرجت فى التزويد عن الحد ، ودخلت الشبهة فى أموال الكثير من الناس بسببها فى أواخر أيام الفاطميين .

ومهما قيل عن شناعة المكوس التى فرضها الفاطميون ، فانها لا شك تعبر فى جلاء عن مدى النشاط الصناعى والتجارى التى حظيت به البلاد فى عهدهم ، وأن العبء الأكبر منها كان يقع على عاتق التجار والتجارة الخارجية .

كما عمل الفاطميون على اقامة الخانات فى القاهرة والفسطاط وكانت تؤجر لهؤلاء الحرفيين مثـل الخياطين والرفائين وغيرهم ، ويصف ناصر خسرو ما كان منها فى مصر (يعنى الفسطاط) فيقول : « ورأيت هناك رباطا يسمى دار الوزير لا يباع فيه سوى القصب . وفى الدور الأسفل منه يجلس الخياطون وفى الأعلى الرفاءون .. وسألت القيم عن أجر هذا الرباط الكبير فقال : كانت كل سنة عشرين ألف دينار مغربى ، ولكن جانبا منه قد تخرب وهو يعمر الآن ، فيحصل منه كل شهر ألف دينار ، يعنى اثنى عشر ألف دينار فى السنة .. وقيل ان فى هذه المدينة مائتى رباط منه أو مثله » ومهما كان الأمر من مبالغة الرحالة الفارسى حين جعل ايجار الواحد منها اثنى عشر ألف دينار فى السنة (١٨) ، الا أن سياق النص يكشف لنا عما كان يتكبده الحرفيون من تلك الايجارات الباهظة التى فرضها الحـكام الفاطميـون ، والتى كانت بطبيعـة الحال تمتص مكاسبهم ، فلا يعود عليهم الا القليل من حرفهم ومعايشهم » .

(١٦) يصف ابن جبير أنواع الضرائب والمكوس المختلفة التى جباها الفاطميـون ، فيقول : « كانت هناك ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل حتى كان يؤدى على شرب الماء من النيل المكث فضلا على سواه » . كتاب الرحلة ، ص ٢٥ .

(١٧) أورد المقريزى قائمة بتلك الرسوم التى تم اسقاطها وهى تشمل كل شىء فى باب الصناعة والتجارة . الخطط ، جـ ١ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(١٨) ولعل الرحالة الفارسى قصد التقدير بالدراهم فدفعه حماسه الى جعله بالدنانير وعلى كل حال فيجب التحفظ الشديد فى هذه الأرقام التى أوردها عن الحوانيت والايجار فهو لم يتحر على ما يبدو الدقة فى التقدير ، ولم يعتمد على بيانات رسمية ، وانما هى أخبار تسقطها من هنا وهناك وسجلها فى كتابه .

٣ ـ طرق الاشراف على أصحاب الحرف والصناعات

عرفت مصر نظام النقابات قبل الفتح العربى بقرون طويلة ، فقد كان لكل حرفة من الحرف نقابة خاصة بها (١) ، كما عرفت نظام العرفاء ، حيث كان فى كل قرية عريف يتولى أمرها وينظر فى شئونها ، هذا وقد استعان عمرو بن العاص بعد إتمام الفتح للبلاد عام ٢١ هـ بالعرفاء فى جباية الجزية والخراج وفى تقدير الضرائب على أصحاب الحرف والصنائع فى ذلك الوقت ، كما استعان بهؤلاء فى اصلاح الطرق واقامة الجسور والأسواق .

كما يذكر ابن عبد الحكم أن عمرو جعل لكل طائفة من الجند المرابطين فى الاسكندرية عريفا يرعى شئونها ، وله قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه ، وليس من المستبعد أنه تم اختيار عرفاء جدد لطوائف الحرفيين فى ظل الحكم العربى الجديد للبلاد ، وذلك للاستعانة بهم فى الرقابة على الأسواق ، كما حدث فى الكوفة بالعراق .

هذا وقد حث الاسلام على العمل وجعله من بين سائر العبادات ، فجعل العمل عبادة لأنه من وراء العمل نفع للناس ، ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله » ، وكذلك قوله : « العمل صدقة وكان من أبلغ الصدقات اتقان العمل كما قال عليه الصلاة والسلام « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

وكما زكى الاسلام العمل وحث على اتقانه ، منع الغش وحارب أساليبه فى كل شىء ، وكان الاشراف على الأسواق فى عهد الرسول صلى

(١) شمل نظام النقابات الذى كان معروفا بمصر حتى أوائل القرن السابع الميلادى كافة الحرف والصناعات فى مصر ، ولم يستثن من ذلك شيئا فكانت توجد نقابات حتى لصيادى الأسماك ورعاة الأغنام مثل ما كان فى أفروديتو (كوم اشقاو) بصعيد مصر .

Johnson: Economic Studies, p. 154.

الله عليه وسلم (٢) : فقد استعمل على سوق مكة سعيد بن العاص ، كما كما استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب على سوق المدينة · وذكر القلقشندى أن أول من قام بأمر الحسبة (٣) ، وصنع الدرة فى الاسلام هو عمر بن الخطاب ·

ولا شك أن عمرو بن العاص وولاة مصر من بعده قد عملوا على استعمال العرفاء بالأسواق بحسب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها » · ويبدو أن دور العريف كان أكثر تحديدا ووضوحا من دور المحتسب فى عصر الولاه ، فلم تذكر لنا المصادر شيئا عن استقلال وظيفة المحتسب ، كما أشارت الى هؤلاء العرفاء وذكرت أسماءهم · فقد ظلت أعمال الحسبة موزعة بين القضاة وعمال الخراج وأصحاب الشرطة (٤) ، حيث تولى بعض القضاة الاشراف على دار الضرب ، كما تولى بعض عمال الخراج الاشراف على دار العيار (٥) ، وجعل فريق منهم خراجا على الحوانيت · وقام آخرون بكسر أوانى الخمور وعطلوا الحمامات ·

أما عن العرفاء فهم المسئولون أمام القاضى وغيره من عمال الخراج ، ذكر الكندى أن القاضى عبد الرحمن بن معاوية بن خديج فى نظره أموال اليتامى قد استعان بعرفاء القبائل وضبطها ، وأشهد فيها وذلك فى سنة ٨٦ هـ ·

ومما لا شك فيه أنه لما توسعت الفسطاط ، وتعددت الأسواق ، ونشط أصحاب الحرف وأهل الصنعة بها ، أصبح من المتعذر أن تدخل الاحاطة بأفعال هؤلاء جميعا تحت وسع من يشرف على أعمال الحسبة فى عصر الولاة ، وعندئذ جاز للقضاة أو عمال الخراج أن يستعينوا بعمال

---

(٢) أخرج الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على صبرة طعام فادخل يده فيها ، فنالت اصابعه بللا ، نال : يا صاحب الطعام ما هذا ؟ قال : اصابته السماء يارسول الله قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى براه النـاس ثم قال : من غشنا فليس منا » عبد الحى الكتانى : التراتيب الادارية ، جـ ١ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ·

(٣) يتصد بالحسبة والاحتساب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد نشأت هذه الوظيفة لتراقب تنفيذ أحكام الشريعة فيما هو حادث فى المجتمع الاسلامى على اختلاف طبقاته وجميع طوائفه ·

(٤) كان يونس بن عطية فى مصر مجموعا له القضاء والشرطة وذلك فى مستهل سنة ٨٦هـ · الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٢٣ ·

(٥) هى الدار أو المكان الذى تعير فيه جميع الموازين والصنج والمكاييل ونحو ذلك · ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٢ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ، ص ٣٢٨ ·

الأسواق فى الاشراف والرقابة على أهل الحرف ، وبهؤلاء العرفاء ، فجعل على كل صنعة عريفا من صالح أهلها خبيرا بصناعتهم بصيرا بغشهم وتدليسهم ، مشهورا بالثقة والأمانة يكون مشرفا على أحوالهم وتعاملهم مع زبائنهم •

ولم تكن مهمة الاشراف والرقابة على أسواق الفسطاط وغيرها من المدن المصرية ، بالأمر الهين أو اليسير ، فهى تعكس جملة قضايا اقتصادية واجتماعية ودينية وفنية فى وقت واحد ، كلها ذات صلة وثيقة بحياة المجتمع وأصحاب الحرف ، وبما جاء به الاسلام وعمل الفقهاء والقضاة والولاه على تطبيقه منذ بداية العصر الاسلامى •

وفى عهد الخليفة المهدى (١٥٨ - ١٦٩ هـ) حينما انتظمت أحوال المدن الاسلامية ، وما ترتب على ذلك من توسع الأسواق ، وأصبح لكل صنف أو حرفة سوق خاص بها ، بدأت تظهر وظيفة الحسبة بشكل واضح ومستقل فى بغداد • ويذكر الماوردى أنه لما تبع ذلك من ازدهار للتجارة وظهور النقود الزائفة فى الأسواق ، عندئذ برز دور المحتسب وصار يتقاضى راتبا معينا من بيت المال • ويبدو أنه على أثر ذلك فقد تم تعيين أحد القضاة أو عمال الخراج فى مصر فى هذه الوظيفة ، يؤيد ذلك وجود صنجة مصرية مؤرخة فى سنة ١٦٩ هـ باسم اسماعيل بن صالح المحتسب فى ولاية الفضل بن صالح على مصر (٦) •

ولكنه - مع الأسف - لم نعثر على أسماء لهؤلاء المحتسبين على وجه التحديد حتى عام ٢٥٣ هـ ، فقد ذكر الكندى أن أرجوز بن أولغ ولى أمر الشرطة عام ٢٥٣ هـ ، وكان شديدا ، فمنع النساء من ارتياد الحمامات والذهاب الى المقابر ومنع النوح فى الجنائز ، وعاقب من خالف ذلك بشدة •

ويبدو كذلك أن وظيفة المحتسب لم تستقل عن صاحب الشرطة أو القاضى فى عهد الدولة الطولونية تماما ، بل كانت من أعمال القاضى الاشراف على دار العيار ودار الضرب والاستعانة بالعرفاء فى الاشراف والرقابة على أهل السوق وما ينتجونه من أنواع السلع الغذائية أو المعدنية لزوم احتياجات الشعب ، هذا ولم تذكر المصادر شيئا عن أسماء المحتسبين ، وذلك كما أمدنا ابن سعيد ببعض الأسماء قبيل الاخشيديين • وكان من هؤلاء أبو مقاتل صالح بن محمد الذى تقلد منصب الحسبة قبيل ولاية محمد بن طغج الاخشيد على مصر بسنوات قلائل ، ثم محمد بن جعفر

(٦) هذه الصنجة محفوظة الآن بالمتحف البريطانى • السيد الباز العرينى : الحسبة والمحتسبون فى مصر ، ص ١٦٠ - ١٦٢ •

القرطي الذى قلده مؤنس الخادم هذا المنصب فى تلك الفترة أيضا ، ثم قلده الخراج .

ويشير ابن سعيد أيضا الى اهتمام مؤسس الدولة الاخشيدية بشئون الحسبة ، فمن ذلك أنه أمر القائمين على أمرها بهدم المواخير ودور المقامرين والعمل على اقتفاء آثارهم والقبض عليهم » .

ومن المحتسبين الذين عرفت باسمه أحد الأزقة بمدينة الفسطاط صدقة بن الحسن الصدفى ، يذكر ابن سعيد أنه كان المشرف على دار الضرب فى عهد محمد بن طغج الاخشيد .

ويمدنا المسبحى باسم أحد مشاهير العرفاء فى عهد الاخشيديين وهو أبو الحسين بن نحرير الأرغلى ، ويقول عنه : « هو أكبر من بقى من عرفاء الاخشيدية » وقد عاش حتى زمن الخليفة الفاطمى الظاهر (٧) ، وكان على العرفاء أن يراقبوا طوائف الدقاقين أو الطحانين ، فانهم ربما خلطوا دقيق الحنطة أو القمح بدقيق الشعير المنخول أو دقيق الباقلا والحمص ونحو ذلك .

والظاهر أن شئون الحسبة قد أهملت فى أواخر أيام الاخشيديين ، فقد روى ابن زولاق أن سيبويه المصرى وكان من الأدباء والمشاهير فى عصره وقد ساءه ولاية محمد بن جعفر بن سلام لشئون الحسبة ، فركب الى أبى الفضل جعفر بن الفضل الوزير وقال له : « أبا الفضل حفظك الله ورعاك وصانك وأبقاك ، وليت علينا محتسبا قليل الوفا كثير الجفا ، طويل القفا ، فاما ان كفيتناه أو أبدلته لنا بسواه » . ويظهر من هذا النص أن الوزير الأخشيدى كان صاحب الرأى الأعلى فى اختيار المحتسب وفى عزله .

ومن مظاهر اهمال شئون الحسبة ما شاع من اظهار للملاهى والمنكرات فى أعياد المصريين القومية مثل عيد الغطاس ، وحصول بعض المحتسبين على البراطيل من الباعة وأصحاب الحرف المختلفة (٨) . وهكذا كان بعض الذين تقلدوا الحسبة بعيدين عن الفضائل ، حيث لا يميل

---

(٧) توفى سنة ٤١٥هـ وحضر جنازته جمع غفير من العرفاء مما يدل على شأنهم فى ذلك العصر . أخبار مصر ، ص ٢١٦ .

(٨) البراطيل : هى الأموال التى كانت تؤخذ من ولاة البلاد وقضاتها وعمالها ومحتسبيها . ومما يعزز وجودها قبيل العصر الفاطمى ، ما يذكره المقريزى ، من أن جوهر فى أعقاب الفتح أمر فى ذى الحجة سنة ٣٥٨هـ برفع البراطيل . المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

ولا يرتشى من الباعة فتسقط هيبته ويستخف به . وحسبنا ما رواه ابن زولاق أن سيبويه المصرى لقى المحتسب والحراس بين يديه فقال : وما هذه الأجراس يا أنجاس ، والله ما ثم حق أقمتموه ولا سعر أصلحتموه، ولا جان أدبتموه ، ولا ذو حسب وقرتموه . وما هى الا أجراس تسمع لباطل يوضع وأقفاء تصفع وبراطيل تدفع ، لا حفظ الله من جعلك محتسبا ولا رحم الله ولا له أما ولا أبا » .. ولا شك أن هذا يفسر لنا ما بلغته الحسبة فى أواخر عهد الاخشيديين ، حين اضطربت الأسعار ، واختفى الخبز من الأسواق ووقعت ثورات الجند ، مما حدا بفريق منهم الى مكاتبة المعز لدين الله الفاطمى للقدوم الى مصر .

وعندما قدم جوهر الصقلى وتم له فتح البلاد واستولى على الفسطاط عام ٣٥٨ هـ وجه اهتمامه الى معالجة أزمة الغلاء الواقعة ، وكان المحتسب الى أول عهد الفاطميين سيئا فأقاله القائد جوهر على اثر الفتح ، وعين مكانه رجلا من المغاربة فى ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ . كما أمر برفع البراطيل ، لكنه سرعان ما تار عليه الصيارفة لأنه أنب جماعة منهم ، فاحتج عليه الباقون ، وقد توفى المحتسب المغربى أبو جعفر الخراسانى بعد قليل ، وتولى من بعده الحسبة سليمان بن عزه وكان عليه كما يقول السبكى النظر فى معالجة أزمة القوت وكشف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم اليه ، فقد أمر بضرب جماعة من الطحانين ، وطيف بهم ، وجمع سماسرة الغلات بمكان واحد فلا تباع الغلات الا به وبحضور المحتسب نفسه .

والواقع أن دور المحتسب وأعوانه من العرفاء ، كان يبرز بشكل واضح أثناء وقوع الأزمات ، واحتكار طائفة الحبوبيين للحنطة والغلال ، واستغلال الطحانين والخبازين تلك الأزمات .

لكن ذلك لم يمنع أن يسند الى المحتسب مهام أخرى يشرف على متابعتها ، ففى بداية عهد العزيز بالله ، ذكر القضاعى أن جامع القرافة الذى أمرت ببنائه السيدة تغريد أم الخليفة على نفقتها سنة ٣٦٦ هـ كان تحت اشراف الحسين بن عبد العزيز الفارسى المحتسب ، فكان يشرف على البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين الذين يعملون فى بناء الجامع ، وذلك على غرار عمارة الجامع الأزهر .

ولم تقتصر وظيفة المحتسب على القضاة أو الفقهاء خلال العصر الفاطمى ، بل ربما اختير صاحبها من بين التجار المياسير وأصحاب الحوانيت والمصانع ، فمن ذلك ما يذكره المقريزى من أن أحد أصحاب الحوانيت حينما ترقت أحواله وأصبح من مياسير التجار ، أمكن له تولى شئون الحسبة .

لكنه كما يقول المقريزي دخل فيما لا يليق به وأساء في معاملة الناس ، وذلك بما يتعارض وهذه الوظيفة الدينية الجليلة ، وكان مصيره أن أمر الحاكم بقتله في سنة ٣٩١ هـ .

وفي بعض الأحيان كان يتولى صاحب الشرطة شئون الحسبة ويجمع بينها وبين ولايته لمدينة الفسطاط كما حدث في عهد الحاكم بأمر الله ، ففي سنة ٣٩٨ هـ ، قرئ سجل بالجامع العتيق وجامع ابن طولون بتولية غالب بن مالك الشرطتين والحسبة والنظر في البلد ، وصرف خود ومسعود عن منصبيهما » .

كما نسمع عن متولي الستر في العصر الفاطمي من أنه كان يقوم بأعمال الحسبة (٩) ، ففي عهد الحاكم بأمر الله صدرت الأوامر الى مسعود الصقلبي متولي الستر بالنظر في أمر الأسعار ، فجمع خزان الغلال والطحانين والخبازين ، وقبض على ما بالساحل من الغلال ، وأمر أن لا تباع الا للطحانين ، وسعر القمح كل تليس بدينار الا قيراطا والشعير عشر ويبات بدينار فسكن الناس بوجود الخبز .

ويصف ابن الطوير وظيفة الحسبة في زمن الفاطميين بأنها خدمة دينية لا تسند الا الى وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، وكان المحتسب له نواب في كل من الفسطاط والقاهرة وجميع أعمال الدولة ، وله الجلوس بجامعي القاهرة ومصر يوما بعد يوم .

وقد بلغت منزلة المحتسب في عهدهم أنه أصبح كالأمير ، كما يقول المقدسي ، وله من النفوذ والسلطان ما للوزراء وكبار الدولة في سائر أنحاء البلاد . ويوضح لنا القلقشندي أهمية هذه الوظيفة الجليلة فيقول : « وموضوعها التحدث في الأمر والنهي ، والتحدث على المعايش والصنائع ، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته » .. كما يتضح لنا من سياق النص أن هذه الوظيفة كانت موزعة بين ثلاثة من المحتسبين ، فأحدهم كان بالقاهرة وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحري ، فهو أعظمهم قدرا وأرفعهم شأنا .

وكانت الاسكندرية لها محتسبها الخاص بها ، مما يدل على أهميتها في عهد الفاطميين ، أما محتسب الفسطاط فهو يختص بالوجه القبلي بالاضافة الى مدينة الفسطاط .

---

(٩) ويظهر أن وظيفة متولي الستر كانت تخص شئون الحريم داخل القصر الفاطمي ، وذلك على غرار ما ذكره ابن الجوزي بمناسبة تعيين محتسب خاص بالحريم في بغداد وذلك سنة ٤٧٢هـ . المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٣٢٣ .

ونقل المقريزى عن ابن الطوير أن نواب المحتسب كانوا يطوفون على أرباب الحرف والصناعات ، وكان يأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحومهم ، وكذلك الطباخون ويتبعون الطرقات ، ويمنعون من المضايقات منها • وكان لهم الاشراف على تنفيذ أصحاب المصانع للشروط الصحية المطلوبة ، مثل مراعاة سعة الأماكن وتهويتها وارتفاع سقفها ، ومراعاة اقامة الصناعات المقلقة للراحة أو الضارة بالصحة كمسابك النحاس وغيرها فى أطراف المدينة • وكان والى المدينة يكلف بمراعاة تنفيذ ذلك بمعرفة ومساعدة عرفاء الأسواق وأمناء الصناعات تحت اشراف المحتسب •

ومما يدل على أهمية وظيفة المحتسب فى العصر الفاطمى أنه تم افراد ديوان لها من بين الدواوين كان يعرف بديوان العرائف ، ذكر المسبحى أن الجنود العبيد السودان ، قاموا بنهب احدى الجهات بالأشمونين والعرب وحضر معهم دواس بن يعقوب المحتسب متولى ديوان العرائف فشكا الى معضاد الخادم من سوء أفعال الجند العبيد ، فكان جوابه : انهم عبيد مولانا يعنى الخليفة الظاهر وكان فى هذا الجواب ما فيه من فساد الأحوال وأطماع الجند فى السلب والنهب والمتاعب التى كان يعانى منها المحتسب فى ذلك الوقت •

والظاهر أن وظيفة المحتسب لم يكن يرغب فيها كثير من القضاة والفقهاء ، وغيرهم نظرا لتلك الظروف السيئة التى كانوا يتعرضون لها أثناء توليهم لها ، يشير المسبحى الى ذلك ، فقد ذكر أن الخليفة لاعزاز دين الله ، عرض على محمد بن أحمد العميدى حسبة الفسطاط وكان يتولى ديوان الترتيب ، فطلب من الخليفة اعفاءه منها وقال : كنت بالأمس جليس أمير المؤمنين وصاحب خريطته ، أصير اليوم محتسبا ، لم أكن لأفعل » ، فاستحضر الخليفة دواس بن يعقوب الكتامى وولاه أمور الحسبة وخلع عليه بثوب مثقل وعمامة ، حدث ذلك فى شهر رجب سنة ٤١٤ هـ •

ومما يذكره المسبحى أيضا أن المحتسب دواس بن يعقوب ، هذا حينما وقع الغلاء وتعذر وجود الأخباز بمصر (يعنى بالفسطاط) فى عهد الظاهر وكثرت الزحمة على الدكاكين ، فانه ألقى القبض على جماعة من الخبازين وشهر بهم بسبب ترافعهم فى السعر ، وقام بفتح مخازن الغلال وأطلق من الساحل غلال كثيرة • كما ألزم الخبازين بالمقررات أو الحصص المفروضة عليهم ، وختم على مخازنهم ، وفتش طواحينهم • ويذكر المسبحى فى موضع آخر أن المحتسب قام بضرب طائفة من الخبازين بسبب غشهم فى الصنج والموازين التى يزنون بها الخبز •

وكان على المحتسب أن يعمل على تسجيل أسماء الخبازين فى الفسطاط والقاهرة وأماكن حوانيتهم وذلك للرجوع اليها عند الحاجة ، وكان يلزم الطحانين من أجل تنظيف الغلال وتنقيتها قبل طحنها ، كما يجب على أعوان المحتسب مراجعة مناخل الدقيق فى كل ثلاثة شهور أو أقل من ذلك حفاظا على جودة الدقيق وبياضه ونحو ذلك .

ويوضح لنا ابن الاخوة أنه كان على المحتسب أن يعرف على الفرانين رجلا ثقة من أهل صناعتهم ، كما يعرف على الغرابليين رجلا ثقة بصيرا بغشهم ، مما يدل على أهمية دور العرفاء واشرافهم على مراحل صناعة الخبز أولا بأول ، وهكذا كانت مهمة المحتسب وأعوانه من العرفاء للأسواق والأمناء فى مراقبة الطوائف الحرفية والاشراف عليهما فى كل مراحل صناعاتها ، من أجل توفير القوت للشعب ، ومنع الاحتكار وغش الحرفيين وتدليسهم فى كل ما يصنعونه داخل حوانيتهم ، وليس العمل على قتل أية محاولة للعمل المستقل كما يقول برنارد لويس ، والعمل فقط على درء أخطار أرباب الحرف وأهل الصنائع وكيفية السيطرة عليهم فى كل وقت .

وخير دليل على ذلك ما حفلت به كتب الحسبة من تلك الشروط التى ينبغى توافرها فى كل من المحتسب وأعوانه من العرفاء ، وما أوضحته من مهامهم ، وضمنها قول الشيزرى وابن الاخوة أنه يجب على المحتسب أن يعرف على أهل الصنعة رجلا ثقة أمينا من أهل صناعتهم بضيرا بصناعتهم عارفا بغشهم وتدليسهم ، بصيرا بأقوالهم .. له دين ، ينهى أخبارهم للمحتسب .

وكان العريف يستمد سلطته من ثقة المحتسب به وتصديقه لكل ما ينقله اليه من أخبار أبناء طائفته ، يعزز ذلك قول المقريزى : « والعادة جارية باستخدام عرفاء فى الأسواق على أرباب الصنائع ، ويقبل قولهم فيما يذكرونه » .

وكانت سلطة العريف تتيح له الحضور أثناء قيام أبناء طائفته بمراحل عملهم ، بل ان بعض الحرف كانت تشترط ألا تتم مراحل معينة منهما الا بحضوره ، ومن هؤلاء الهرائيسيين ــ وهم طباخو اللحوم المهروسة . اذ كان يشترط عليهم ألا ينزلوا اللحم فى القدر الا بحضرة العريف ، ثم يختم بخاتم المحتسب ، فاذا كان وقت السحر حضر العريف ، وكسر الخاتم وهرسوها بحضرة العريف لئلا ينزعوا اللحم منها .

وكان العريف هو الواسطة بين أرباب الحرف والحكومة ، وكثيرا ما كانوا يستغلون وظيفتهم من أجل صالح أنفسهم وخاصة أثناء وقوع

الأزمات ، وكانوا يبيعون بالأسعار المرتفعة اعتمادا على سلطانهم الحكومى . يتضح ذلك فيما رواه المقريزى حينما أمر الوزير اليازورى فى عهد الخليفة المستنصر ، بصرف عريف الخبازين عن وظيفته ومعاقبته ، واغلاق دكانه ، ويرجع ذلك الى أنه كان لعريف الخبازين هذا دكان يبيع الخبز بها ومحاذيها مكان آخر لأحد الناس يبيع الخبز بها أيضا ، ويذكر المقريزى أنه حدث أن باع بسعر أقل مما يبيع به العريف ، فحنق لذلك ووكل به عريفين من الحسبة ، أغرماه عشرة دراهم ، ولجأ صاحب الدكان الى اليازورى ، فأحضر المحتسب فأنكر عليه ما فعل بالرجل ، ودفع اليه ثلاثين رباعيا من الذهب على سبيل التعويض .

ومما يذكر أنه حينما عاد صاحب الدكان ، فانه عمل على تخفيض سعر الخبز أكثر من ذى قبل حتى اضطر الخبازون الآخرون مجاراته والبيع بأقل من السعر الذى كانوا يبيعون به .

★ طرق الاشراف والرقابة على أصحاب الحرف فى العصر الفاطمى :

(أ) الاشراف على دار العيـــار :

كان من أهم واجبات المحتسب الاشراف على دار العيار التى أنشأها الفاطميون (١٠) ، وفيها كانت تعير جميع الصنج والموازين ، وكان ينفق عليها من أموال الديوان فيما يحتاج اليه من المواد الخام اللازمة لصناعة الموازين والصنج والمكاييل ، من النحـاس والحـديد والخشب والزجاج ونحـو ذلك من الآلات وأجـر الصناع والمشارفين وغيرهم من العـاملين بالدار » .

وكان المحتسب يحضر الى هذه الدار أو نائبه ليصير المعمول فيهـا بحضوره ، فان صح ذلك أمضاه ، والا أمر باعادة عمله حتى يصح ، وكان بهذه الدار أمثلة ونماذج يصحح بها العيار ، فلا تبـاع الصنج والموازين والأكيال الا بها . وكان البـــاعة والحرفيون يتوجهون الى شراء حاجتهم منهـا ، وخاصة اذا ما وجدت موازينهم أو صنجاتهم ما يخالف العيار ، فحينئذ يتم استهلاكها ويباع لهم غيرها ، ويجعل من فضل الثمن ما يرد الى الدار . ويظهر من قول المقريزى أنه فى أواخر أيام الفاطميين تمت

---

(١٠) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ .

كان جارى المحتسب فى الشهر ثلاثين دينارا ويقرأ في سجله بمصر والقاهرة على المنبر ، ولا يحال بينه وبين مصلحة اذا رآها .

المسامحة من ذلك ، وصار يلزم من يظهر فى ميزانه أو صنجه خلل باصلاح ما فيها من فساد ، والاكتفاء بسداد أجرة ذلك فقط .

ومن الجـــدير بالذكر أنه كان على المحتسب ونوابه النظـر فى الأسواق ، وعليهم أن يعيروا على أهل السوق صنجاتهم وموازينهم ومكاييلهم كلها ، يقول ابن الاخوة : « وينبغى على المحتسب أن يتفقد عيار المثاقيل والصنج والأرطال والحبات على حين غفلة من أصحابها ، فان فى الصيارف من يأخذ حبات الحنطة فينقعها فى الماء ، ثم يغرس فيها رؤوس ابر الفولاذ، ثم تجفف فتعود الى سيرتها الأولى ، ولا يظهر فيها شىء ... الخ » . وهكذا كان المحتسب يفاجىء هؤلاء الباعة وأهل الحرف فمن وجدوه قد غير ذلك تمت معاقبته واخراجــه من الســوق حتى تظهر منه التوبة والانابة الى الخـــير .

وقد ذكر المسبحى أن المحتسب ضرب رجلا من الحلوانيين بالفسطاط وكان يسكن على باب زقاق القناديل ، وطاف به على جمل بسبب أنه وجد أرطاله ينقص كل رطل منها أوقيتين ، وكل صنجة يزيد بها الدراهم تزيد بقدر درهم . وهكذا كانت المراقبة على الموازين والصنج والعمل على ضرورة اعادتها الى دار العيار من أجل تصحيحها وردها الى أصحابها من الحرفيين .

ومن هؤلاء الذين تم ترشيحهم لتولى الاشراف على دار العيار ودار الضرب ، كان أبو النعمان المنذر بن على ، وقد صدر سجل توليته فى عهد الحاكم وذلك فى سنة ٣٨٨ هـ .

ويتضح من سجل توليته هذا أنه كان مكلفا بالنظر فى دار العيار ودار الضرب معا ، فقد كان بعض السباكين يضربون بعض الدراهم المخلوطة بالنحاس ، فكان عليه أن ينوب عنه عامل السوق أو العريف فى مراقبة ذلك ، وأن يشدد فى ضرب هذه الدراهم ، ويبحث عمن أحدثها ، فاذا ظفر به ان كان واحدا أو جماعة ، فلابد أن ينالهم العريف بأشد العقوبة ، ويأمر أن يطاف بهم فى الأسواق والتشهير بهم ثم يحبسهم على غشهم وسكهم للنقود المزيفة .

وكان من عادة تجار مصر فى العصر الفاطمى أنهم لا يكذبون ويصدقون فيما يبيعونه ، واذا كذب أحدهم على مشتر ، فانه يوضع على جمل ويعطى جرسا بيده ويطوف به فى المدينة وهو يدق الجرس ، وينادى قائلا : قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب .

ومن الجدير بالذكر أن دار العيار ودار الضرب قد استمرت كل منهما باقية الى حين استولى صلاح الدين الأيوبى على السلطة ،حيث أقر

العمل بدار العيار هذه ، وجعلها وقفا على سور القاهرة مع بقية الأوقاف المحبوسة عليه .

(ب) بعض مظاهر الرقابة على أرباب الحرف فى العصر الفاطمى :

حفلت كتب الحسبة بالعديد من الشروط والواجبات التى كان على المحتسب وأعوانه من عرفاء الأسواق وأمناء الصناعات اتباعها فى تأدية عملهم ، والواقع أنها لا تدع مجالا للشك فى دورهم الهام فى الاشراف والرقابة على أرباب الحرف والصناعات . وقد عمل الفاطميون على تعيين عريف لكل طائفة من الطوائف حتى الجند ، فقد ذكر المقريزى أنه فى عهد الخليفة الظاهر تعذر وجود الخبز فى سنة ٤١٥ هـ ، بعث الخليفة فى طلب واحضار عرفاء الجند السودان ، وشدد عليهم فى احضار الجناة منهم والذين كانوا قد عاثوا فى المدينة ونهبوا الحوانيت وما فيها بساحل مصر .

لم تقف مهمة العريف أو الأمين فى الأسواق عند حد المراقبة ، بل كان من سلطته أن يكون حكما بين الصانع والعميل ، فاذا أخذ أحد الحاكة أو صاحب مصنع للقزازة غزلا لانسان لينسجه له ثوبا وادعى صاحب الغزل أن الحائك أبدله غزله ، عرضه المحتسب على العريف بدوره ، فان رجعا الى قوله كان بها ، والا حملهما الى حكم الشرع .

وقد أفاضت مصادر الحسبة فى الحديث عن الكتانيين والحريريين والقطانيين وغيرهم ، وما يجب على هؤلاء الأمناء من مراقبتهم حتى لا يحدث غش أو تدليس منهم . وكان عليهم منع الصباغين أن يصبغوا الأحمر بالبقم، فانه لا يثبت لونه كما أشرنا من قبل ، وأن يمنع الرفائين والطرازين من أن يغيروا فى رسم وطراز ملابس الناس .

كما ينبغى على الخياطين أو الحائكين ألا ينسجوا ما يحرم استعماله من الحرير أو نسج الثياب المصورة ونحو ذلك ، وألا يخيط هؤلاء الحرير ولا يجعلونه بطانة لمن يحرم عليه استعماله كالرجال ، ويجب عليهم أيضا الاحتراز عند قطع القماش وذلك وفق ما يريد صاحب الثوب من تفصيل وخياطة .

كما أشارت كتب الحسبة الى واجبات أمناء الصناعات ومراقبتهم لأصحاب صناعة الجلود ، ومنع الدباغين من بيع الجلود الرديئة التى لم تستوف مراحل دباغتها من حق الصنعة على النحو المطلوب .

وكان على المحتسب وأعوانه أن يطلبوا من صانع الخزف الذى راجت

صناعته خلال العصر الفاطمي أن ينتقى من الطين أحسنه ، ومن الوقود أنظفه وأفضله ، وعليه أن يحرص على جعل الأوانى معتدلة تامة الحرق حتى لا تتفتت اذا ما وضع فيها الطعام ، كما يجب عليه أن تكون كاملة الدهان ، ولا يستعمل الخزاف فى الصباغة الا أحسن المواد وأنقاها ٠

أما عن حرفة الحدادة ، فكان على الأمناء والمفتشين مراقبة الحدادين ، حتى لا يطرقوا المسامير القديمة داخل حوانيتهم ، يبيعونها على أنها جديدة ، ومراجعة أوزانها ، فان الحدادين كانوا يغشون فى أوزانها ، ومراعاتهم طبخ الحديد جيدا لئلا تنكسر عند الطرق عليها أو تتورق عند التطريق ٠

وهكذا تكشف لنا طرق الاشراف والرقابة على أعمال الحرفيين عن دراية وخبرة هؤلاء العرفاء والأمناء ، ومعرفتهم لأسرار الصناعات المختلفة ، فكانت أعمالهم تقتضى الرقابة على سائر الحرف والصناعات ، يتضح لنا ذلك مما أوضحه ابن بسام وغيره من الكتاب ، فهو يشير الى ما ينبغى على صانعى السفن والمراكب من نجارين وقلافطة عمله والأخذ به حيث قال : ينبغى أن يشرف عليهم عريف ثقة ، ثم ان هؤلاء النجارين والقلافطة يأخذوه فى الصناعة المعمورة بالعز الدائم من السلطان ٠

كما يتعين على النواتية والبحارة ألا يحملوا المراكب فوق الطاقة ، مع مراعاة تناسب هبوب الرياح ، وكذلك عدم الجمع بين الرجال والنساء على ظهورها الا بالحجاب ٠

وتكشف لنا كتب الحسبة كذلك عن واجبات المحتسب وأعوانه نحو العاملين فى الصناعات الخشبية فى ذلك العصر ، فكان عليهم أن يأمروا النشارين للخشب الذين يستأجرونهم بالنهار أن يحدوا مناشيرهم قبل وقت الشروع فى العمل ، ومحاسبتهم على أوقات العمل التى يقضونها فى حوانيت الخشابين ٠ كذلك الأمر بالنسبة لصناعة البناء وفن العمارة ، وما يجب على البنائين والرقاصين وغيرهم من الجباسين والجيارين والدهانين مراعاته فى أثناء عملهم ، ومراقبة العرفاء والأمناء لهم تفاديا لمنعهم من الغش أو البعد عن أصول الصناعة المتعارف عليها ٠

وكما كان على المحتسب مراقبة كتاب الرسائل وأصحاب صنعة الكتابة فى الفسطاط وغيرها فالواجب عليهم ألا يجلسوا فى درب ولا فى حانوت ، بل على قارعة الطريق ، ويبعد معظم من يجلس عندهم من النسوة حتى لا تكون هناك ريبة عند تأدية أعمالهم ٠ أما المزخرفون أو

الخطاطون ، فليس من حقهم ألا يذهبوا غير المصاحف الشريفة أثناء نسخها ، فقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز زخرفة غير هذه المصاحف بالذهب ٠

ويظهر أن شئون الحسبة فى مصر لم تكن تسير وفقا لما ورد فى مصادرها وبما يتناسب وأحكام الشرع على طول الخط ، وانما أصابها من الاهمال والجور فى أواخر أيام الفاطميين ، كما حدث بالقرب من نهاية عهد الاخشيديين ، فقد ذكر المقريزى أنه تم استخدام ذخيرة الملك جعفر فى ولاية القاهرة والحسبة فظلم وعسف وبنى مسجدا عرف بمسجد لا بالله (١١) وذلك عام ٥٠٧ هـ ، فى عهد الأفضل ٠

ومهما يكن من أمر فاننا لم نسمع عن تعيين المحتسب فى أيام الفاطميين بطريق البذل أو البرطلة ، كما شاع فى عهد المماليك مما عجل بتدهورها وانهيارها ، اذ لم يعد المحتسب بحاجة الى مجرد تناول رشوة مقنعة أو خفية ، وانما وصل به الحال الى فرض مقررات شهرية على الباعة والتجار وأصحاب الحرف والصنائع ٠

هذا وان كان المقريزى يشير الى أن هذه البراطيل كان أول من عمل بها فى مصر الوزير الفاطمى الصالح بن رزيك ، لكنه يذكر أنها كانت قاصرة على ولاة النواحى فقط ، ويقول : « ثم بطل ذلك » يعنى قبل نهاية أيام الفاطميين ٠

لقد أصبح دور المحتسب وأعوانه من العرفاء والأمناء هاما فى الاشراف والرقابة على أصحاب الحرف والصناعات ، ولم تكن هناك حرفة أو أخرى غير خاضعة من جانب هؤلاء كما أشارت كتب الحسبة منذ عصر الولاة وحتى سقوط الدولة الفاطمية ٠

---

(١١) وسبب تسميته بذلك انه كان يقبض الناس من الطريق ويعسفهم ، فيقولون : لا بالله ، فيقيدهم ويستعملهم فيه بغير أجرة ٠ ولم يعمل فيه صانع الا وهو مكره مقيد. فابتلى الله ذخيرة الملك بأمراض شديدة ٠

٤ ــ مكانة أصحاب الحرف الاجتماعية

★ أجناس الحرفيين والصناع فى مصر الاسلامية :

ترتبط مراكز الحرف والصناعات ارتباطا وثيقا بأجناس العاملين من الصناع وأرباب الحرف فى مصر الاسلامية ، وتبدو أهمية ذلك اذا ما عرضنا للحقائق التاريخية التى ذكرها المؤرخون والجغرافيون والرحالة عن هؤلاء فى العصور الوسطى ٠

فقد ظل العنصر القبطى هو الغالب فى ممارسة أنواع الصناعات وسائر الحرف بعد الفتح العربى للبلاد ، وخير شاهد على ذلك ما كان فى ثغر الاسكندرية وكانت هذه المدينة قد بلغت الذروة فى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد فى سائر الفنون والآداب ، واستمرت كذلك بعد الفتح حيث كانت تضم العديد من الصناعات الهامة ٠

ولم يكن اليهود ، أو طائفة الروم التى ظلت بعد فتح الاسكندرية ولم تخرج من بين ما خرج كما يذكر ابن عبد الحكم (١) ، الا أقلية تشارك فى أعمال الصناعة والتجارة بالمدينة ، يؤيد ذلك ما ورد فى الخطاب الذى أرسله عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بعد تمام فتح الاسكندرية ، وجاء فيه أن بها أربعين ألف يهودى عليهم الجزية ٠

أما عن الرباط الذى أقامه الفاتح عمرو بالاسكندرية ، فلم يكن هؤلاء الجند به ليعملوا غير الجندية والجهاد ، وقد نهى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الجند الفاتحين عن الزرع والاشتغال بأى حرفة أخرى تشغلهم عن مهام الجهاد وتأمين الحدود للبلدان المفتوحة ٠

---

(١) كان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال ، قيل ان المراكب حملت منهم ثلاثين ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع وبقى من بقى من الأسارى ممن بلغ الخراج ــ فتوح العرب والمغرب ، ص ١٢١ ٠

وتشير المصادر الى أنه بعد تخطيط الفسطاط واقامة الأسواق ، نزح اليها كثير من سائر الكور والجهات المصرية ، وأصبح أهل الذمة من الأقباط المصريين وغيرهم من جملة أصحاب الحرف الذين امتلكوا المحال والحوانيت في العاصمة الفسطاط . وكان من أوائل الأجناس الأخرى الذين نزحوا اليها وأخذوا في مزاولة مهنهم المختلفة وسكنى المدينة ، قوم من الفرس ، يذكر ابن عبد الحكم أنهم كانوا من الذين دخلوا مع عمرو ابن العاص وسمح لهم بالاختطاط بالجيزة مع طائفة من الروم يقال لهم الحمراء ، وكان حامل لواء طائفة الفرس ابن ينه الذى نسبت اليه احدى السقائف بالفسطاط . وليس من المستبعد احتراف الفارسيين لمهنة الصياغة منذ وقت مبكر بالفسطاط ، حيث كانت صناعة الحلى قد بلغت على أيديهم شأنا عظيما في الدقة والجمال ، ولا سيما وأنهم وفدوا من صنعاء باليمن ، وقد اشتهر العنصر اليمنى منذ القدم بحضارته الراقية وبفنونه الرائعة ، ويذكر المقدسى أن هؤلاء الفارسيين كانوا يرصعون الزجاج بالجوهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم .

وفي عهد معاوية بن أبى سفيان خرجت جماعة من البصرة فى طريقها الى مصر وذلك في سنة ٥٣ هـ ، وكان عددهم مائتين وثلاثين ونزلوا باحدى خطط الفسطاط (٢) ، كما أشار المقريزى الى أنه كانت لهم سويقة باسمهم أطلق عليها سويقة الواقيين . ومن المرجح أن يكون هؤلاء من أوائل الوفود العربية الذين زاولوا أعمال التجارة والحرف بالفسطاط .

ومن الملاحظ أنه لم يهاجر الى وادى النيل في بداية الفتح العربى عدد كبير من العرب ، واقتصر أمر الهجرة على الفسطاط وجهات الإسكندرية وبلبيس بالشرقية (٣) . وظل الأقباط يعملون فى الوظائف المدنية ، وفى يدهم الصناعات والفنون المختلفة ، وقد عملوا على مسالمة العرب الفاتحين وارضائهم ، فان الصناع منهم ما لبثوا أن بدأوا فى تطوير صناعاتهم ، دفعهم الى ذلك محاولة ارضاء المسلمين العرب والتحبب اليهم ،وانتاج العديد من السلع ما يوافق ميولهم وتعاليم الدين الاسلامى الحنيف .

كما تجدر الاشارة الى أن العرب لم ينزلوا الى معترك الحياة يكافحون

---

(٢) كانوا من الخوارج الذين خرجوا على زياد بن أبيه بالبصرة ، فكتب الى معاوية بشأنهم ، فأمر بتغريبهم عن أوطانهم ، فسيرهم الى مصر فى ولاية مسلمة بن مخلد .

(٣) لبث حال العرب فى مصر على الحال التى بيناها حتى أحضر ابن الحبحاب عامل الخراج فى العصر الاموى مائة بيت من قيس وأقطعهم أرضا فى بلبيس وزودهم بالخيل والابل وجعل مهمتهم حراسة القوافل بين ساحل البحر الأحمر وداخل البلاد . الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٧

فى سبيل الحصــول على ما يقيم أودهم ، ويعملون فى ميدان الصــناعة والتجارة الا بعد أن صدر قرار الخليفة المعتصم في عام ٢١٨ هـ واسقاطهم من ديوان الجند وقطع أعطياتهم • أما القول بأنهم كانوا يستنكفون عن الاشتغال بالمهن والصنائع كما يرى ابن خلدون ، ومن الأنفة فى سبيل انتحالهم العلم ، ففى ذلك مجافاة للحقيقة التى تعوزها الحقائق والنصوص التاريخية (٤) •

فالعرب كانت مهمتهم الأولى فى بداية الفتح وحتى أوائل القرن الثالث الهجرى هى الجهاد وتأمين الفتوحات الاسلامية فهى شغلهم الشاغل ، وفى تلك الأثناء كانوا يشجعون الأقباط وغيرهم على انتــاج أجود المصنوعات وأرقاها •

ولم يلبث العرب أن نزلوا القرى والمدن وخالطوا أهلها وشاركوا معهم فى سائر الأنشطة الاقتصادية القائمة حينذاك • ومن خير الأدلة التاريخية على اشتغال العرب أو القبائل العربية بأعمال الحرف والتجارة ، ما قامت به قبائل ربيعة ومنها بنو الكنز حين نزحوا الى مصر فى أعداد كبيرة وانتشروا فى نواحى الصعيد الأعلى ، حيث بدأوا فى استغلال مناجم العلاقى واستخراج الذهب منها (٥) •

وقد أجمع المؤرخون المسلمون على استمرار وجود معدن الذهب فى بلاد البجة وقت نزول ربيعة بها ، كما أشاروا الى أن البجة لم تكن تعمل فى هذه المعادن بل كان العرب وخاصة بنو ربيعة هم وخدمهم الذين يعملون فيها • وكانت الحرف أو المهن مفتوحة أمام العرب المسلمين وغيرهم من هؤلاء الوافدين على مصر من الخارج ، وليس هناك من الأدلة ما يثبت عكس ذلك ، ويشير المقريزى وغيره من المؤرخين الى استمرار نزوح القبائل العربية واستيطانها فى المدن المصرية على كثرتها واختلاطهم بالمصريين واستقرارهم

---

(٤) وقد أفرد ابن رستة فى كتابه الأعلاق النفيسة وذكر العديد من صناعات الأشراف كعلى بن أبى طالب وأبى بكر الصديق وغيرهما من كبار الصحابة ، ص ٢٢٤ ـ ٢١٥ •

(٥) شاركت قبائل بنو ربيعة فى حملة عبد الله بن الجهم وذلك فى ســنة ٢١٦هـ لتأديب أهالى البجة الذين خرجوا وهاجموا أسوان ـ فقد ذكر اليعقوبى المتوفى ٢٨٤هـ أنهم آثروا البقاء فى العلاقى والعمل فى مناجم الذهب هناك ، ولم يلبث ان لحقت بهم فى سنة ٢٣٨هـ فى عهد الخليفة المتوكل تلك الأعداد الكبيرة من اخوانهم من عرب اليمامة ومنهم جماعات من عرب جهينة • البلدان ؛ ص ٣٣٤ ـ ٢٣٥ •

والمقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠١ •

فى عهد الطولونيين والاخشيديين (٦) • ونذكر من هذه القبائل بنو هلال وبنو قرة ، وبنو زيد الذين استقروا بجهة دلاص التى كانت مشهورة بصناعة الدروع من الكتان وغيرها فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة •

ونذكر من المدن المصرية التى كانت من تخطيط العرب مدينة بنى خصيب أو منية الخصيب (المنيا) (٧) ، ولا شك أن هذه المدينة ما لبثت أن ازدهرت وتبحرت فى العمران بفضل نزوح القبائل العربية اليها وسكناها ، ولم تكن لتبلغ مثل ذلك القدر من الاتساع والازدهار بين يوم وليلة ، وانما كان استقرار العرب ومشاركتهم فى سائر الحرف والصنائع، خير شاهد على أنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى فى تعمير المدينة وبلوغها من نشاط الحركة التجارية والصناعية وسعة العمران ما عبر عنه ابن دقماق حيث قال : « وبهذه المدينة من الأسواق والقياسر والبضائع والأقمشة كثير يجعل من هلاليها (أى الضرائب والمكوس) فى اليوم ألف درهم » •

ولا يعنى اشتغال العرب بالزراعة والحرف والصنائع الأخرى فى القرنين الثالث والرابع من الهجرة أنهم أصبحوا يمثلون الغالبية فى ذلك ، بل انه يمكن القول بأن الأقباط ظلوا يحملون لواء صناعة النسيج على سبيل المثال لمدة طويلة لم يشاركهم فيها أحد ، ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطى ، ولابد أن التسمية كما أشرنا من قبل نسبة الى قبط مصر الذين أظهروا مهارتهم الفنية فى ميدان النسج، كذلك الذى عاش حتى أوائل القرن السابع الهجرى • يذكر ياقوت أن ناسجى الثياب فى دمياط وتنيس من القبط •

وتشير الدراسات فى ذلك الوقت الى هجرة ونزوح أرباب الحرف والصناعات من مكان الى آخر (٨) ، فكما وفد على العراق زمن الخليفة المنصور المئات من البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين

---

(٦) يذكر المقريزى من هذه المدن الكثيرة فى الصعيد مثلا : الفيوم ــ دلاص ــ اهناس ــ البهنسا ــ القيس ــ الأشمونين ــ انصنا ــ أسيوط ــ أخميم ــ البلينا ــ قنا ــ قوص ــ قفط ــ ادفو ــ أسوان •

الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣٨ •

(٧) يذكر المقريزى أن هذه المدينة تنسب الى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر فى عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣هـ) ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٨٥ •

(٨) منذ التاريخ القديم وجد الصناع المصريون طريقهم الى بابل والى بلاد الحيثيين كما عمل الآشوريون على نقل الصناع المهرة من كافة البلاد التى هزموها الى بلادهم ، وكذا حذا البابليون حذوهم • جواتياين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ١٧٦ •

والحفارين وغيرهم من مصر وغيرها من البلدان ، وتكرر حدوث ذلك عند تخطيط سامرا وتعميرها بالأسواق • فانه وفد على مصر من خيرة الصناع من العراق وغيرها في صحبة ابن طولون لتشييد مدينة القطائع والمشاركة في النهضة العمرانية والفنية بمصر •

وفي العصر الفاطمى عمل الخلفاء الفاطميون على تشجيع واجتذاب مهرة الصناع من كل لون وصنف للعمل فى القصور الفاطمية ويذكر المقريزى ، ان المعز لدين الله عمل على جعل كل ماهر فى صنعة صانعا للخاص ، وأفرد لهم مكانا برسمهم ، وكذلك فعل بطائفة الكتاب والأفاضل وشرط على ولاة الأعمال اختيار وايفاد كافة من يتوسمون فيه من الرعية فسيروا اليه أعدادا كبيرة من هؤلاء الشباب فأفرد لهم دورا وسماها الحجر ، ولا شك أن هؤلاء كانوا جميعا من المصريين ومن بلاد الشام •

كما يذكر المسبحى أن دار ماتك التى كانت تقع بالقرب من دار الصناعة بالمقس كانت بها طائفة من الروم يعملون فى بناء السفن • وتشير حركة الحرفيين فى العصر الفاطمى الى نزوح كثير من المغاربة والأندلسيين الى مصر ، وقد أوضحت أوراق الجنيزة من هؤلاء الحرفيين الذين هاجروا مجموعات من الصباغين والصاغة والخياطين والأساكفة والنساجين والغرائين ، جاءوا من بيزنطة وغيرها من المدن والبلاد الأوروبية • كما تشير الوثائق أيضا الى هجرة بعض صناع الزجاج ومن غزالى الحرير والصباغين من بلاد الشام الى مصر مما جعل الصناع المحليون يحسون بوطأتهم ومنافستهم لهم فى مجال حرفهم المختلفة •

وقد شجع على هجرة هؤلاء الحرفيين والصناع الى مصر فى العصر الفاطمى ، حرية الجميع فى اختيارهم للمهن التى يرغبون فى الاشتغال بها ، كما تشير أوراق الجنيزة الى أنه لم توضع أية قيود على أهل الذمة سواء من المسيحيين أو اليهود فيما يتعلق بممارستهم للأنشطة الاقتصادية المختلفة •

وكما شجع الفاطميون ذوى الفضل من العلماء والفلاسفة والأدباء من خارج البلاد واستدعائهم للمشاركة فى المناسبات والأعياد ، وكان لكل منهم أرزاقا وهدايا نفيسة (٩) • فقد حرص الحكام الفاطميون على جعل

(٩) يذكر ناصر خسرو أن رزق الواحد من هؤلاء والأدباء لا يقل عن خمسمائة دينار • سفر نامة ، ص ٥٣ •

القاهرة فى أيامهم تحتل المكانة السامية بين الحواضر الاسلامية من حيث الظهور بمظهر الأبهة والثروة ، ومن ثم كانت سياستهم العمل على اجتذاب الخبرات والكفاءات من كل مكان ، لذلك رأينا أنهم شجعوا على هجرة الحرفيين والصناع الأكفاء واجتذابهم من بلاد الفرنج ، وخاصة عندما أنشأوا المناخ السعيد ويعنى المخزن . يقول المقريزى : « واليه يأوى الفرنج فى بيوت برسمهم ، وكانت عدتهم كثيرة من النجارين والجزارين والدهانين والخبازين والخياطين والفعلة ، ومن العجانين والطحانين فى تلك الطواحين والغرائين فى أفران الجرايات » .

وتكشف لنا بعض خطابات الجنيزة أنه في عهد الخليفة الظاهر كان اليهود يعيشون فى مصر ويحملون ألقابا تنسب الى المدن الفارسية التى نزحوا منها وذلك مثل الكازرونى ، والشنيزى ، والتوزى . كما أشار المقدسي من قبل تلك الفترة الى نزوح جالية كبيرة من الفرس منذ القرن الثالث ، ومساهمتها بنصيب موفور من الحركة التجارية فى البلاد فى عصر بنى طولون ، وكان لها شأنها فى الحياة الاقتصادية .

ومن العائلات اليهودية الفارسية التى استوطنت مصر عائلة التسترى ، نسبة الى تستر احدى مدن فارس (١٠) ، وربما تجمع التستريون زمن الفاطميين فى أسواق الفسطاط (١١) وقاموا بنسج الثياب التسترية التى كانوا مشهورين بها فى موطنهم الأصلى ، وذلك على نحو ما فعلوه فى أسواق الكرخ فى بغداد .

وقد كان بمصر من اليهود فى العصر الفاطمى نحو سبعة آلاف بالقاهرة والفسطاط وبالاسكندرية ثلاثة آلاف ، وبمدن الدلتا نحو ثلاثة

---

(١٠) وقد سميت المحلة التى كانوا يسكنونها فى بغداد بهذا الاسم أيضا ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٩ .

(١١) وتجدر الاشارة هنا الى أن أم المستنصر التى اشتراها الخليفة الظاهر من أحد التجار اليهود كان يدعى أبو سعد سهل بن هارون التسترى ، فهو من العائلة المشار اليها ، ولما أفضت الخلافة الى المستنصر عام ٤٢٧هـ/١٠٣٦م ، أصبح له من النفوذ ، وقد عملت أم المستنصر على بسط سلطانه ويده على شئون الحكم ، حتى صار الوزير الفلاحى (صدقة بن يوسف) الذى تولى عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) الوزارة يأتمر بأمره ، مما أدى فى النهاية الى التآمر عليه وقتله . المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٧٨ ، كما يذكر ابن ميسر فى حوادث سنة ٤٥٦هـ أنه تم اسناد الوزارة الى أحد أفراد عائلة التسترى وهو أبو على الحسن بن ابراهيم بن سهل التسترى .

أخبار مصر ، ج ٢ ، ص ١٥ .

آلاف ، ونحو ستمائة فى المدن التجارية والصناعية بالصعيد (١٢) • وكان أكثر التجار من الجهابذة ومن الحرفيين العاملين فى حرفة الصباغة والدباغة والصيرفة فى بلاد الشام التابعة للحكم الفاطمى من اليهود • ويشير المقريزى الى أن طوائف الكتاب كان جلهم فى الجيش الفاطمى والوظائف المدنية من أهل الذمة ، ويخص منهم اليهود عند قوله : « ان كاتب الجيش كان فى غالب الأمر يهوديا » •

وقد بلغ الأمر أن دواوين الحكومة الفاطمية أصبحت كلها من طوائف الكتاب المسيحيين واليهود فى عهد العزيز بالله ، يقول ابن الجوزى : « وقلد عيسى بن نسطورس وكان نصرانيا من أقباط مصر فيه جلادة ، فضبط الأمور وجمع المال واستخدم النصارى فى الدواوين وصرف الكتاب المسلمين واستناب الشام رجلا يهوديا يعرف بمنشا بن ابراهيم بن القدار فسلك مع اليهود ما سلكه عيسى مع النصارى ، واستخدمهم فى الأعمال » •

وتذكر المصـــادر أنه لمـا قبض العزيز بالله على عيسى بن نسطورس وسائر الكتاب بسبب شكوى المسلمين ، حاول ابن نسطورس استشفاع بنت الخليفة ست الملك ، وكتب اليه بشـأن عودته الى الخـدمة شريطة استخدام المسلمين فى دواوين أعماله وقبل الخليفة العزيز منه ذلك ، حدث ذلك عام ٣٨١ هـ » وقد ظل الفاطميون يستخدمون طوائف الكتاب وغيرهم من الصناع والمهندسين من أهل الذمة حتى نهاية عهدهم • كما عملوا على اجتذاب الخبرات وأصحاب المهارات الفنية من الخارج ، وتشير الدراسات التاريخية والأثرية الى أن البوابات التى أقامها بدر الجمالى أيام توليه زمام الأمور ، ومنها باب زويلة الذى أنشأه عام ٤٨٥ هـ ، أنه تم تشييدها بمعرفة مهندسين أجانب من مدينة الرها ، وذلك على نحو العمارة الحربية التى عرفت فى القسطنطينية وغيرها من المدن الأوروبية فى العصور الوسطى على نحو ما أشرنا من قبل •

★ مكانة أرباب الحرف والصنائع الاجتماعية :

أكدت الدراســات الميدانية فى مجال علم الاجتماع الصناعى وعلم الاجتماع المهنى أن الانسان يعمل أولا من أجل اشباع كل احتياجاته من

---

(١٢) ويذكــر Jacob Mann أن المعلومات عن حياة اليهود فى مصر قليلة جدا وترجع أقدم اشارة اليها الى سنة ٧٥٠م ، وليس هناك من المصادر ما يكشف النقاب عن دور اليهود الهام خلال القرون الثلاثة من الهجرة •

The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, p. 13.

آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ٢ ، ص ٦٢ ـ ٦٣ •

الطعام والشراب والمأوى والأمن ، فاذا ما تحقق ذلك فانه يسعى من جراء عمله للحصول على المكانة الاجتماعية التى يحظى من خلالها بالاحترام والتقدير لدى طبقات المجتمع الأخرى •

وقد عرف الناس منذ العصور القديمة قيمة العمل على هذا النحو ، فقد كان منهم الأثرياء والعلماء والحكام (١٣) ، وأشار الى هذه الحقيقة كل من ابن رستة والثعالبى والبيهقى وغيرهم من المؤرخين والأدباء المسلمين، فقد أشار ابن رستة الى صناعات الأشراف وقال ان آبا طالب كان يعالج العطر والبز ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بزازا ، وكان عمر ابن الخطاب بزازا كذلك •

وهكذا أقبل العرب المسلمون فى مصر على الحرف والصناعات التى حث الاسلام على اتقانها ولا سيما فى أواخر عصر الولاه ، وذلك فضلا عن أهل الذمة من المصريين •

وخلال الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى أصبح أهل الحرف يشتركون فى بلاط الأمير أحمد بن طولون وأبنائه من بعده (١٤) ، ويتقاضون أرزاقا من الدولة ، وأفرد لكل حرفة موضعا لأهلها بالقطائع يمارس فيه الصناع مهنهم المختلفة • كما تكشف سياسة التسامح الدينى التى اتبعها أمراء الدولة الطولونية مع أهل الذمة عن تلك المعاملة الطيبة وما حظى به هؤلاء من الاحترام والتقدير لديهم •

كما نسمع عن طوائف العلماء والفقهاء والمحدثين وأهل الأدب واشتغالهم بالحرف والصناعات فى ذلك الوقت • وقد شجع الطولونيين

---

(١٣) من الأمثلة التى وردت فى قصص الأنبياء أنه كان لكل نبى حرفة يعمل ويعيش منها • فقد عمل داود عليه السلام خواصا ، وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : كان داود يخطب الناس على المنبر وأنه ليعمل الخوص بيده ، وكان ادريس عليه السلام خياطا يتصدق من كسبه بما يتفضل من قوته ، وكان زكريا نجارا ، وكان موسى عليه السلام أجيرا • وكان محمد عليه الصلاة والسلام تاجرا مع عمه أبى طالب ولحساب خديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها •

(١٤) حذا بنو طولون فى مصر حذو البلاط العباسي في بغداد فى اتخاذ طراز سامرا في العمارة ، وغير ذلك من مظاهر الترف والنعيم فى مدينة القطائع وقصر الميدان ، وتشير المصادر الى أنه أصبح أهل الحرف يشتركون فى حشم الخليفة المقتصد بالله ويتقاضون أرزاقا من الدولة ، ومنهم الصاغة والخياطون والإساكفة والحدادون والفراءون والمطرزون والوراقون والنجارون والخراطون وغيرهم •

مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ١٨٤ • البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، ص ٥٣ ـ ٥٤ •

ذلك الاتجاه ، فقد ولى ابن طولون شجاع بن أسلم المصرى دار الصناعة بجزيرة الروضة ، وأشرف على الصناع والنجارين والنفاطين وغيرهم من أصحاب الحرف ممن يعملون فى بناء السفن • وكان شجاع بن أسلم من العلماء البارزين فى مجال الهندسة والرياضيات •

ولم تشكل الحرف أو الصناعات عائقا أمام أصحابها فى تحصيل العلم والأدب ، فقد واكبوا التطور الثقافى الذى شهدته الفسطاط والاسكندرية وغيرهما من المدن المصرية ، وأصبح فى مقدورهم أن يشاركوا فى حوادث عصرهم ، ويعبروا عن وجهة نظرهم فيها • نذكر من هؤلاء الذين ذاع صيتهم فى العهدين الطولوني والاخشيدى أبا اسحق بن ابراهيم الزجاج (١٥) ، وأبا بكر النقاش ، والأنماطي وغيرهم •

ولا شك أنه كان لهؤلاء المنزلة السامية فى نفوس الناس وفى نظر الحكام ، كما يتضح لنا من أسمائهم أنهم كانوا يجمعون بين اشتغالهم بالحرف لصناعة الزجاج وأعمال النقش والدهان والحدادة وغيرها ، فضلا عما كان لهم من نشاط ملحوظ فى البحث والتأليف فى علوم اللغة والأدب •

كما تولى من أهل الحرف بعض الوظائف الدينية من أمثال الحسن ابن موسى الخياط فى عهد الاخشيديين ، ومما يدل على علو منزلة العاملين فى مجال الحرف والصناعات فى ذلك العهد ما ورد فى ترجمة ابن الوزير جعفر بن الفرات (١٦) فقد ذكر المسبحى أنه كان مشهورا بعمل الدنانير والدراهم والصناعة وخرط الزجاج ، وأنه كان مجيدا فى صناعته ، ولم تشكل منزلة أبيه عائقا فى مزاولته للعديد من المهن والصنائع ، واستمراره فيها حتى أوائل عهد الفاطميين •

أما فى العصر الفاطمى ، فقد حفلت المصادر العربية بالعديد من الأسماء والتراجم ممن ذاع صيتهم فى ميدان العلم والعمل معا ، نذكر

---

(١٥) كان من علماء النحو والصرف المشهورين فى عصره ، كما كان يخرط الزجاج توفى سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م • ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ١٦ •

(١٦) من الجدير بالذكر أن الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات عمل على مصاهرة محمد بن طغج الأخشيد ، فقد زوج ابنه الأخشيد مؤسس الدولة الأخشيدية من ابن الوزير جعفر بن الفرات ، وكان سبب هذه المصاهرة أنه كان بنو الفرات يكرهون الماذرائيين ويحسدونهم على ما بلغوه فى مصر ، فلم يكن غريبا أن يعمل الفضل على القضاء على نفوذهم وسلطانهم ، بعد أن عينه الخليفة العباسى وزيرا لكشف الأمور فى مصر ، ومنحه السلطات الواسعة فى ذلك •

ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ١٥٧ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ٤٧ •

منهم أبا بكر الادفوى المصرى المشهور ، فقد اشتهر بنبوغه فى علوم القرآن وأصبح سيد أهل عصره بمصر ، وكان يعمل بتجارة الأخشاب • ومن هؤلاء نذكر أبا القاسم بن الطحان ، ذكر السيوطى أن بلال الأسوانى المالكى روى عن ابن أبى سفيان الوراق ، كما سمع منه أبو القاسم بن الطحان الفقيه والمحدث • كما كان من أشهر الفقهاء المالكية فى عهد العزيز بالله أبو بكر محمد النعال الذى عظم شأنه واليه قصد طلاب العلم من كل مكان•

ومن هـؤلاء الذين ذاعت شهرتهم أيضـا أبو الحسن عبـد الملك ابن عبد الله الزجاج ، نسبة الى احترافه خرط الزجاج ، وكان فى الوقت نفسـه من فقهاء الشافعية وله حلقـة علمية ، واشتهر بحرفة القزازة أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز ، وقد بلغ المكانة العالية فكان مهيبا عند الخلفاء الفاطميين والعلماء وخاصة الناس ، محبوبا عند العامة •

وممن اشتهر كذلك بحرفة القزازة وبلغ المنزلة السامية وجمع بين العلم والحرفة ، كان ابن الكيزانى الشاعر ، وكما أشرنا من قبل فانه كان يملك معملا للقزازة بالفسطاط ، نقل ابن الزيات عن ابن الجوزى أن والى مصر ومعه مندوب السلطان (يعنى الخليفة) توجها اليه للاطمئنان على حاله ، ويظهر من الرواية أن الخليفة الفاطمى أرسل له دينارا مكافأة وتقديرا له فردها عليه وامتنع من أخـذها شـأنه فى ذلك كشأن غيره من مشايخ عصره • ومن هؤلاء الأدباء والشعراء الذين ذاع صيتهم ، نذكر أبا منصور ظافر بن القاسم الحداد الشاعر السكندرى المتوفى سنة ٥٢٩ هـ ، يشير ابن خلكان الى أن والى الاسكندرية الأمير السعيد بن مظفر استدعاه يوما لقطع خاتم ضاق فى اصبعه ، فتوجه اليه وبعد أن تم له قطع هذا الخاتم أنشد فى ذلك أبياتا من شعره ، وكذلك كانت شهرة أبى بكر الحداد صانع المبارد المتوفى سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م ، وكان فى الوقت نفسه من الفقهاء الأصوليين المناظرين فى عصره •

ومن هؤلاء الذين بلغوا المكانة العالية طوائف الكتاب من أهل الذمة ، حيث تشير المصادر الى أنهم أصبحوا فى عهد العزيز بالله يسلكون التصرف فى

كل شيء داخل القصر الفاطمي وخارجه (١٧) . لدرجة أن المسلمين قدموا الشكوى للخليفة نتيجة عدم استخدامهم وحرمانهم من تولى الوظائف .

ويذكر ابن الجوزى أنه حينما قرأ الرقعة التى تحمل الشكوى هذه ورجع الى قصره استدعى قاضى القضاة محمد بن النعمان وسأله عن صحة ذلك ، فأكد له القاضى بما جاء فى الرقعة ، وعندئذ أمر بالقبض على عيسى ابن نسطورس ، وبعث الى الشام فقبض على منشا اليهودى ، وبدأ فى استخدام المسلمين . وهكذا بلغ الكتاب من النصارى واليهود تلك المنزلة فى ظل سياسة التسامح الدينى ، التى اتبعها الأئمة الفاطميون حتى أنهم انفردوا دون سائر الكتاب بالوظائف فى الدواوين وفى حوادث سنة ٥٢٣ هـ ، وفى عهد الخليفة الآمر بلغ أحد الكتاب المسيحيين وكان يدعى بالراهب من السطوة والجبروت ما شكا منه جميع الرؤساء والقضاة والكتاب ، وكان قد قدم الى القاهرة من جهة أشمون واتصل بخدمة ولى الله أبى البركات يحيى بن أبى الليث كاتب المجلس ، فلما قتل الوزير المأمون ، اتصل بالخليفة الآمر ، وبذل له فى مصادرة الكتاب النصارى ، مائة ألف دينار فاطلق يده فيهم . وبلغت منزلته أنه كان يعمل له فى تنيس ودمياط ملابس مخصوصة به من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب فيلبسها ومن فوقها غفارة ديباج ، وكان يركب الحمر الفارهة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة ، ويجلس بقاعة الخطابة من جامع مصر .

ومما لا شك فيه أن الثراء أصبح من المعايير التى يؤخذ بها لتحديد المركز الاجتماعى للفرد فى العصر الفاطمى ، فمن ذلك أنه كان بمصر يهودى وافر الثراء يتجر بالجواهر ، وكان مقربا من السلطان ، ويعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة ، وقد بالغ ناصر خسرو فى وصف دار ذلك الجواهرجى حين قال : « كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة زرع فى كل منها شجرة كأنها حديقة مثمرة » .

كما يوضح لنا الرحالة ناصر خسرو مبلغ الثراء لدى أحد الحبوبيين بمصر ، ومحاولة الوزير الفاطمى اقتراض مقادير من الحنطة أو الغلال لمعالجة

---

(١٧) وقد مدحهم الشعراء بما بلغوه من حظوة ومكانة لدى الفاطميين ، أنشد أبو نصر كاتب الانشاء فى ذلك يقول :

قل لأبى نصر كاتب القصر	والمتأنى لنقص فى الأمر
انقض الملك للوزير تعز	منه بحسن الثناء والذكر
واعط وامنح لا تخف أحدا	فصاحب القصر ليس فى القصر

ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣١٠ .

أزمة الغلاء فى ذلك الوقت ، ويقول ناصر خسرو فى رد هذا التاجر على الوزير : « أسعد الله السلطان والوزير ان لدى من الغلة ما يمكننى من اطعام أهل مصر (يعنى الفسطاط) الخبز ست سنوات » وهكذا بلغت كميات القمح التى يمتلكها وكانت فى حوزته مما يدل على مبلغ الثروة لديه •

ولا غرابة فى ذلك فانه يمكن معرفة ما بلغه أهل الفسطاط من الثروة الوصف لأسواقها خلال العصر الفاطمى حيث يقول ناصر خسرو : « ان الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة والأقمشة الثمينة والذهب وسائر الحلى ، حتى أن المشترى لا يجد فيها محلا يجلس فيه • ولا شك أن هذه الثروة كانت فى حوزة التجار وأرباب الحرف والصنائع ، فالثراء وسعة ذات اليد والسخاء كانت من جملة الشروط التى قد تؤهل صاحبها لأن يتولى الوظائف الهامة ، ويتمتع بالمكانة المرموقة فى ذلك الوقت •

والواقع أن أصحاب الحرف فى مدينة الفسطاط وفى غيرها من المدن المصرية كانوا ينقسمون الى فئتين كما أشار المقريزى وأيدته وثائق الجنيزة ، فكانت هناك فئة مياسير التجار وأصحاب المعايش والباعة من أهل الحرف ، منهم غالبا ما يبيعون منتجاتهم وتدر عليهم الأموال الكثيرة - وكما هو الحال فى أولئك النساجين والحائكين بمدينة الاسكندرية ، اذ كانوا يملكون الحوانيت والمصانع الخاصة التى تدر عليهم أرباحا طائلة •

أما الفئة الثانية فهم طائفة الأجراء الذين يعملون بالأجر لدى غيرهم من أصحاب الحوانيت ، التى كان يملكها التجار أو السماسرة ، كما هو الحال فى حرفة النسيج فى مدينة تنيس وغيرها ، وكان هؤلاء الحرفيون فى المرتبة السفلى من السلم الاجتماعى » •

وسواء كانت الخدمة بالأجر فى مجال الصناعة أو التجارة ، فقد كانت تعد عملا مهنيا فى ذلك العصر ، يتضح ذلك فيما ورد فى رسالة لأحد التجار ، غرقت سفينته ، واضطر للخدمة فى احدى الشركات فهو يقول : « انى أحصل على قوتى بخدمة الآخرين وانى أتجرع فى كل دقيقة كأس الموت بسبب ضياع منزلتى ، وذلك من أجل أطفالى » (١٨) •

وهناك من الأدلة التى وردت فى خطابات الجنيزة ما يميط اللثام عن تلك النظرة الاجتماعية السيئة لهؤلاء الأجراء من أمثال الحجامين وعمال الحمامات وغيرهم • فقد كان أفرادهم يمنعون من الزواج أو المصاهرة من الأسر ذات المكانة الطيبة ، أو حتى بالسماح لهم بالشهادة فى مجالس القضاء •

---

(١٨) جواتياين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ص ١٨٧ •

وبطبيعة الحال فان الأجراء هؤلاء لم يكونوا يتشكلون العصب الحقيقى أو يمثلون الصناع أو أصحاب المصانع الذين كانوا عماد الصناعة فى العصر الفاطمى وسائر العصور الاسلامية الأخرى ٠

وخلاصة القول أن غالبية الحرفيين والصناع بالفسطاط والاسكندرية وغيرها من المدن المصرية ، كانوا يمتلكون المحال والمصانع الخاصة التى كانت تدر عليهم أرزاقا وفيرة ، ولا شك أن هؤلاء كانوا يمثلون مياسير التجار وأصحاب المعايش من أهل الحرف ٠ وقد تمتعوا بالمكانة الاجتماعية السامية لدى الحكام خاصة المعلمين منهم وشيوخ الطوائف الحرفية . وفى نفوس المصريين ٠

كما يمكن القول أن هؤلاء الشيوخ من كبار أهل الصنعة وغيرهم من الأمناء على الصناعات كانوا يتمتعون بنفوذ كبير لدى أرباب الحرف والمهن المختلفة ، وقد كانوا مسئولين أمام المحتسب والجهات الحكومية الأخرى عن أية اضطرابات تصدر عن أعضاء طوائفهم المنتمين اليها فى ذلك العصر ٠

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى ، وما لعبته من دور حضارى هام فى توفير احتياجات المصريين من المواد الغذائية وأنواع الكساء وغيرها من السلع المصنوعة خلال تلك الحقبة من الزمن •

وقد كشفت الدراسة عن كثرة وجود المطاحن الخاصة والعامة بالفسطاط وغيرها من المدن المصرية وأن تلك المطاحن لم تكن تفى بحاجة سكان العاصمة فقط من الدقيق وما يصنع من الأخباز ، بل كان يتم ارسال المقادير الكبيرة منها الى بلاد الحجاز لتمير أهل الحرمين • كما كشفت النصوص عن توافر المعاصر لاستخراج الزيوت فى المدن المصرية ، وعن استغلالها فى صناعة الطيب والصابون وغيرها من أنواع العطور وأشارت الى حرفة النحالة وما كان يصدر من الأعسال الى سائر الأنحاء ، والى انتشار زراعة قصب السكر فى القرن الثانى الهجرى وما أقيم من المعاصر والمطابخ فى عهد الطولونيين والاخشيديين لصناعة السكر والعسل ، والى وفرة الانتاج من مقادير السكر التى كانت تزود بها دار الفطرة وخزانة الشراب وغيرهما بالقصور الفاطمية ، فضلا عما كان يصدر منه الى سائر الدنيا •

أما صناعة النسيج ، فكانت لمصر شهرتها فى انتاج أنواع القباطى منذ الفتح العربى ، والثياب المشهورة من القصب والشروب من طراز دبيق وشطا ودميره وتنيس ودمياط والاسكندرية وغيرها من بلاد الفيوم والبهنسا والأشمونين والقيس وأسيوط واخميم بصعيد مصر • وأشارت النصوص الى مدى اهتمام الطولونيين والاخشيديين بمصانع النسيج التى أطلق عليها دور الطراز واشرافهم الدقيق عليها وما كانت تنتجه من أنواع الخلع الثمينة المطرزة بأسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم فضلا عن كسوة الكعبة الشريفة • كما أوضحت تلك النصوص مظاهر تقدم صناعة النسيج وما بلغه الصناع وسائر الحرفيين بخزائن الكسوة والديباج من مهارة فائقة وغيرها من خزائن والفرش والأمتعة والخيام والبنود فى عاصمة الفاطميين ، وتلك

الشهرة التى حظيت بها المنسوجات المصرية وازدياد الطلب عليها من الخارج ٠

كما أوضحت الدراسة مدى أهمية حرفة الوراقة وصناعة الكتابة وشهرة المصريين فى ذلك الأمر حيث انفردوا بصناعة أوراق البردى على مدى قرون طويلة وما كان يصدر من ميناء الاسكندرية من قراطيس البردى الى كل من دمشق وبغداد وبيزنطة فى صدر الاسلام ٠ وقد لعب كل من الوراقين والكتاب المصريين دورا ملحوظا فى انتاج الورق وما يتصل بصناعة الأدوات الكتابة من الأقلام والمحابر ، وما يتصل بفن الكتابة وتفضيل الأمراء الطولونيين والإخشيديين لهؤلاء الكتاب المصريين ، فضلا عن تفوق الوراقين فى حرفة النسخ وغيرها من فنون التجليد خلال العصر الفاطمى ٠

وقد كشفت الدراسة كذلك عن مدى انتشار صناعة أنواع الفخار والخزف والزجاج ومحافظة الصناع على شهرتهم فى أعقاب الفتح العربى ، ولانتاجهم لأوان من الخزف ذى البريق المعدنى فى عهد الطولونيين وما وجد من مدارس لصناعة الخزف فى العصر الفاطمى مثل مدرسة سعد ومدرسة مسلم بن الدهان ٠ وقد حافظت الإسكندرية على شهرتها فى صناعة الزجاج ، كما كشفت أوراق البردى عن شهرة البهنسا والأشمونين فى انتاج الزجاج والبلور خلال عهد الطولونيين والاخشيديين كما شجع الفاطميون على انتاج الأنواع المختلفة من الأباريق والتحف الزجاجية والبلورية التى كانوا يستخدمونها فى بلاطهم ٠

كما ظهر جليا من دراسة الصناعات الخشبية ان الولاه على مصر قد شجعوا صناعة بناء السفن الحربية والعمل على استيراد الأخشاب اللازمة لذلك وعلى مشاركة الصناع من الأقباط المصريين فى بناء كل من دارى الصناعة بتونس وعكا ، وما كان يستورد من بلاد السودان والهند وبلاد الشام وآسيا الصغرى من أنواع الأبنوس وسن الفيل ومن خشب الساج والصنوبر وغيرها ٠ وقد كشفت الدراسة عن تفوق المصريين فى حرفة النجارة وحفر الخشب وتطعيمه بالعاج وما أنتجه هؤلاء النجارون من أنواع الدكك والمحاريب والأسرة خلال العصر الفاطمى ٠ ومن تعدد دور بناء السفن التجارية والحربية فى كل من جزيرة الروضة وساحل الفسطاط والاسكندرية وغيرها من الثغور المصرية ، وما كان يصنع بها خصيصا من العشاريات لاستخدامها فى التنزه على صفحة النيل ٠

وقد كشفت النصوص التاريخية عن استغلال المصريين للمحاجر فى أسوان وتلال المقطم وغيرها ، والأعمدة الرخامية الموجودة فى بعض الأماكن القديمة فى صناعة البناء وعن انتشار صناعة الطوب وعمل القمائن واستغلالها فى بناء المساجد والقصور وعن محاولة أحمد بن طولون

الاستعانة بالمهندسين من العراق ومشاركة الحرفيين المصريين فى عمارة المساجد الجامعة فى دمشق ومكة والمدينة وبيت المقدس الشهير وغيرها من المنشآت على طراز سامرا بالعراق والى شيوع صناعة الجص والرخام وعمل الرسومات الهندسية والمقايسات والنماذج المجسمة قبل تنفيذ المشروعات العمرانية فى عهد الطولونيين والاخشيديين وفى أيام الفاطميين ، كما تجلت قدرة المهندسين فيما شيده من القصور الزاهرة والمساجد والمناظر والحمامات والمصانع وفيما أبدعه المصورون وغيرهم من أنواع الزخرفة وطلاء الجدران ، خلال العصر الفاطمى ، وكذلك شهرة البصريين وبنى المعلم وغيرهم من المزوقين حيث غدت تلك المنشآت الفاطمية مثار اعجاب الرحالة والأوربيين ٠

ومن خلال الدراسة للصناعات المعدنية ظهر جليا أنها ظلت تسير فى طريقها بعد الفتح العربى ، وأن القبائل العربية التى نزحت الى مصر لم تشارك الا فى استخراج واستغلال مناجم الذهب بمنطقة العلاقى الممتدة على ساحل البحر الأحمر فى جنوب البلاد ، كما أشارت كتب الرحالة وغيرها الى استيراد أنواع الحديد والفضة والنحاس والقصدير وعن قيام مسابك الحديد والفولاذ والنحاس بالعاصمة الفسطاط ، كما أوضحت المصادر مدى ما بلغته صناعة الأدوات النحاسية والأوانى المنزلية وشهرة الصناع المصريين من الصاغة والجواهرجية ورواج صناعاتهم بأسواق الفسطاط وغيرها من أسواق المدن المصرية ، وقد أشارت النصوص الى انشاء دار لسك النقود بالفسطاط ، والى شهرة الدينار الأحمدى التى تم ضربه بها فى عهد ابن طولون ، وأيضا الى ضرب دراهم جديدة من الفضة فى عهد الحاكم بأمر الله واستغلال مناجم الذهب وتأسيس دار للضرب لأول مرة بالقاهرة وأخرى بقوص فى عهد الآمر بأحكام الله ، كما تجلى اهتمام الولاه والأمراء الطولونيين والاخشيديين بصناعة السلاح واستفادتهم من خبرة المصريين فى صناعة المناجيق وغيرها من أنواع الأسلحة ، وأشارت النصوص الى خزائن السلاح الفاطمية وما حفلت به من السيوف والرماح والدروع وغيرها ، وما كانت تجهز به السفن الحربية من أنواع الأسلحة الثقيلة وتجريبها قبل استخدامها فى الجهاد أو الغزوات البحرية ٠

كما اتضح مدى نشاط الطوائف الحرفية من النفاطين والزراقين وغيرهم من الحدادين وما كان يعمل فى سوق السيوفيين وغيره من أسواق السلاح بالفسطاط والمدن المصرية الأخرى ٠

وقد ظهر جليا أن الطوائف الحرفية كانت تنتظم فى نقابات مختلفة منذ العصر البيزنطى وأنها استمرت تحافظ على تقاليدها الموروثة بعد الفتح

العربى خاصة فى مجال التدريب والترقى لهؤلاء الحرفيين والصناع الذين كانوا يتوارثون الحرف عن آبائهم وأجدادهم ، وكشفت النصوص عن اشتغال هؤلاء بتحصيل العلم والأدب فى العصر الاسلامى وأوضحت ان الحرفة أو الصنعة لم تكن تشكل عائقا أمام أصحابها فى سبيل ذلك .

وقد تبين أن أجور الصناع كانت زهيدة خاصة الأجراء منهم أما أصحاب المعايش ممن كانوا يملكون المصانع فانهم كانوا يحصلون على الأرزاق الوفيرة ، وقد كشفت النصوص عن أنواع الضرائب المختلفة التى كانوا يدفعونها منذ الفتح العربى وحتى أيام الفاطميين . كما أوضحت النصوص دور المحتسب وأعوانه من العرفاء والأمناء واشرافهم على سائر الحرفيين ، وخبرة هؤلاء واحاطتهم بأسرار كل حرفة والتصدى لأساليب الغش المختلفة التى كانوا يقترفونها .

وقد لوحظ أن غالبية الحرفيين ظلوا من أهل الذمة المصريين كما يبدو استفحال أمر الكتاب خاصة فى العصر الفاطمى واستغلال أصحاب المطاحن والأفران لتلك الأزمات الطارئة وقيام الدولة بالضرب على أيديهم والتصدى لأخطارهم .

كما لوحظ أيضا تمتع شيوخ الطوائف الحرفية وأصحاب المصانع الخاصة بالمكانة المرموقة لدى الحكام وفى نفوس المصريين لاسيما هؤلاء الذين لم يعملوا على استغلال مناصبهم أو ظروف عملهم ، حيث صاروا يتطلعون الى حياة الترف والنعيم كغيرهم من مياسير التجار وأعيان الدولة البارزين . وقد ساعدهم على ذلك تماسكهم وشعورهم بالانتماء الى طوائفهم ، وعدم حدوث الانقسامات أو المنازعات فيما بينهم كما كان يحدث فى بغداد وغيرها من الحواضر الاسلامية الأخرى .

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

(أ) المخطـوطات .

(ب) المصادر العربية .

(جـ) المراجع الحديثة .

(د) الدوريات والرسائل العلمية .

(هـ) المراجع الأجنبية .

(أ) المخطـــوطات :

الاسحاقى : محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح :

١ - **كتاب لطائف اخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من ارباب الدول** • مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج رقم ٣٧٩ تاريخ •

ابن الجوزى ، أبو المظفر بن فيزوغلى (ت ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م) :

٢ - **مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان** ، الجزء الحادى عشر - دار الكتب المصرية رقم ٥٥١ تاريخ •

ابن زولاق ، أبو محمد الحسن بن ابراهيم (ت ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م) :

٣ - **كتاب فضائل مصر واخبارها وخواصها** ، دار الكتب المصرية رقم ٣٥٩١ تاريخ •

ابن سناء الملك (ت ٦٥٨ هـ/١٢٥٩ م) :

٤ - **دار الطراز - دار الكتب** رقم ٢٠٣٨ أدب •

العينى ، محمد بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م) :

٥ - **عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان** ، الجزء الرابع - دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ •

القضاعى ، أبو عبد الله بن سلامة (ت ٥٥٤ هـ/١٠٦٢ م) :

٦ - **عيون وفنون المعارف وفنون اخبار الخلايف** - دار الكتب المصرية رقم ١٧٧٩ تاريخ •

مؤلف مجهــول :

٧ ـ **عمدة الكتاب وعدة ذوى العقول والآداب والألباب فى عمل الليق وصنعة الأذهان** ـ دار الكتب المصريه .

رقم ١٥٩ علوم صناعيه .

محمد بن مسلم الشافعى :

٨ ـ **النوادر والطرف فى الوظائف والحرف** ـ دار الكتب المصرية

رقم ٥٦٤٩ أدب .

محمود بن سليمان بن خليفة :

٩ ـ **صناعة الورق والليق والحبر** ـ دار الكتب المصرية

رقم ٣٩ علوم صناعية .

النعمان ، أبو حنيفة بن محمد المغربى (ت ٣٦٢ هـ/٩٧٣ـ ٩٧٤ م) :

١٠ ـ **المجالس والمسايرات** ـ مكتبة جامعة القاهرة

رقم ٢٦٠٦٠ .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ/١٣٣٢ م) :

١١ ـ **نهاية الأرب فى فنون الأدب** ، ج ٣٦ ـ دار الكتب المصرية

رقم ٥٤٦ معارف عامة .

(ب) المصادر العربية :

الأبشيهى ، الشيخ شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور (ت ٨٥٠ هـ/١٤٤٦ م) :

١٢ ـ **المستطرف فى كل فن مستظرف** ، الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٢٧٩ هـ .

ابن الأثير ، على بن أحمد أبى الكرم (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م) :

١٣ ـ **الكامل فى التاريخ** ، طبعة القاهرة ١٢٩٠ هـ .

اخـــوان الصـــفا :

١٤ ـ **رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا** ـ الجزء الأول والثـانى تصحيح خير الدين الزركلى ـ تقديم الدكتور طه حسين .
القاهرة ١٣٤٧ هـ/١٩٢٨ م .

ابن الاخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشى (ت ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م) :
١٥ ـ **معالم القرية فى أحكام الحسبة** ، تحقيق الدكتور محمد محمود وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ·
القاهرة ١٩٧٦ م ·

الادريسى ، محمد بن محمد بن عبد الله الشريف (ت ٥٦٠/١١٦٥ م) :
١٦ ـ **صفة المغرب وأراضى السودان ومصر والأندلس مأخاذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق**
ليدن ١٨٦٤ ـ ١٨٦٦ م ·

الادفوى ، كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م) :
١٧ ـ **الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد** ، تحقيق سعد محمد حسن · طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ·
القاهرة ١٩٦٦ م ·

ابن الأزرق ، محمد بن على بن محمد بن قاسم بن مسعود (ت ٨٩٦ هـ/١٤٩٠ م) :
١٨ ـ **بدايع السلك فى طبائع الملك** ، جزءان ، تحقيق وتعليق الدكتور على سامى النشار ·
طبعة بغداد ١٩٧٧ م ·

الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله أحمد :
١٩ ـ **أخبار مكة شرفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار** ، تحقيق ويستفيلد ·
طبعة ليبزج ١٨٥٨ م ·

الاصطخرى ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاسطخرى المعروف بالكرخى (ت ٣٤١ هـ/٩٥٢ م) :
٢٠ ـ **المسالك والممالك** ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال ·
القاهرة ١٣٨١ هـ/١٩٦١ م ·

ابن أمية ، أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى (ت ٥٢٨ هـ/١١٣٣م) :

٢١ ـ **الرسالة المصرية** ، تحقيق عبد السلام هارون ٠

القاهرة ١٣٧٠ هـ/١٩٢١ م ٠

ابن اياس ، محمد بن أحمد المصرى (ت ٩٣٠ هـ/١٥٢٣ م :

٢٢ ـ **تاريخ مصر المسمى بدائع الزهور فى وقائع الدهور** ، الجزء الأول ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

القاهرة ١٤٠٢ هـ/١٨٩٢ م ٠

ابن بسام ، محمد بن أحمد (عاش فى القرن الثامن الهجرى) :

٢٣ ـ **انيس الجليس فى اخبـار تنيس** ، نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، والمجلد الرابع عشر ، ١٩٦٧ م ٠

ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتى الطنجى (ت ٧٧٩ هـ/١٣٧٧ م) :

٢٤ ـ **مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفـة النظـار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** ، جزءان ، المطبعة الأميرية ، بولاق، ١٩٣٤ م ٠

ابن بعره ، منصور الذهبى الكاملى :

٢٥ ـ **كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية** ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن فهمى ، مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر ٠

القاهرة ١٣٨٥ هـ/١٩٦٦ م ٠

البلاذرى ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢ م)

٢٦ ـ **فتوح البلدان** ، تحقيق ومراجعة رضوان بن محمد رضوان ، طبعة بيروت ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م ٠

البلوى ، عبد الله بن محمد المدينى (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) :

٢٧ ـ **سيرة أحمد بن طولون** ، تحقيق محمد كرد على ٠

دمشق ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م ٠

البيهقى ، ابراهيم بن محمد (ت ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م)
٢٨ ـ **المحاسن والمساوىء** ، جـزءان ، عنى بتصحيحه ، محمد بدر الدين الحلبى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٠٦ م .

ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى (ت ٨١٣ هـ/١٤١٠ م) :
٢٩ ـ **النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة** ، ١٢ جزء ، مطبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ١٩٥٦ م .

التيفاشى ، أحمد بن يوسف التيفاشى (ت ٦٥١ هـ/١٢٥٣ م)
٣٠ ـ **أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار** ، تحقيق الدكتور محمد يوسف حسن ، محمـود بسيونى خفاجى ، مطبوعات مركز تحقيق التراث ، الهيئة العامة للكتاب .

القاهرة ١٩٧٧ م .

الثعالبى ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابورى (ت ٤٢٩ هـ/١٠٣٨ م) :
٣١ ـ **لطايف المعارف** ، تحقيق PDe, Jony
٣٢ ـ **فقه اللغة وسر العربية** ، دار الكتب العلمية ، طبعة بيروت .

الجاحظ ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م) :
٣٣ ـ **التبصر بالتجـارة** ، عنى بتصحيحه ونشره حسن حسنى عبد الوهاب .

دمشق ١٩٣٢ م .

٣٤ ـ **ثلاث رسائل** ، نشر يوشع فينكل ، القاهرة ١٣٤٤ م .
٣٥ ـ **رسالة الكندى فيما يطرح على الحديد والسيوف فلا تتلم ولا تكل** ، نشر مجلة المورد ، العدد الرابع ، المجلد ١٢ .
بغداد ١٩٨٣ م .

ابن جبير ، محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى (ت ٦١٤ هـ/١٢١٧ م) :
٣٦ ـ **الرحـلة** ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦ هـ /١٩٠٨ م .

الجهشيارى ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ ٤٩٢ م) :
٣٧ ـ **الوزراء والكتاب** ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ الشلبى ، مطبعة الحلبى ·
القاهرة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م ·

ابن الجيعان ، شرف الدين يحيى بن المعز (ت ٨٨٥ هـ/١٤٨٠ م) :
٣٨ ـ **التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية** ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ·
القاهرة ١٩٧٤ م ·

ابن الحاج ، أبو عبد الله محمد العبدرى (ت ٧٣٧ هـ/١٣٣٧ م) :
٣٩ ـ **المدخل الى تنمية الأعمال بحسن النيات** ، ٤ أجزاء ·

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى (توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى) :
٤٠ ـ **المسالك والممالك** · طبعة ليدن ١٨٧٢ م ·

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م) :
٤١ ـ **المقدمة** ، مطبوعات الحاج عبد السلام محمد ابن شقرون ، القاهرة ·

ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم (ت ٦٨١ هـ/١٢٨١ م) :
٤٢ ـ **وفيات الأعيان** ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٣ هـ ·

الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٤٠٧ هـ/١١٠٣م) :
٤٣ ـ **مفاتيح العلوم** ، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الثانية · ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م ·

ابن الداية ، أبو جعفر أحمد بن يوسف (ت ٣٣٠ هـ/٣٤٠ م) :
٤٤ ـ **المكافأة** ، تصحيح وضبط أحمد أمين ، على الجارم ، المطبعة الأميرية ببولاق · القاهرة ١٩٤١ م ·

ابن دقاق ، ابراهيم بن محمد العلاقى (ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٧ م)
٤٥ ـ **كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار** ، المطبعة الكبرى الأميرية ، الجزءان الرابع والخامس ، مصر ١٣٠٩ م ·

الدمشقي ، أبو الفضل جعفر بن علي (ت ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م) :
٤٦ ـ **الاشارة الى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأغراض وغشوش المدلسين فيها** ، مطبعة المؤيد ، دمشق ١٣١٨ م ٠

الدميري ، كمال الدين محمد بن موسى بن علي (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م) :
٤٧ ـ **حياة الحيوان الكبرى** ، طبعة دار الشعب ، أجزاء ٠

ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٣١٠ هـ/٩٢٣ م) :
٤٨ ـ **الأعلاق النفيسة** ، مطبعة بريل وليدن ١٨٩١ م ٠

ارنبغا الزردكاش :
٤٩ ـ **الأنيق في المناجيق** ، تحقيق الدكتور نبيل محمد عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨١ م ٠

ابن زولاق ، أبو محمد الحسن بن ابراهيم (ت ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م) :
٥٠ ـ **أخبار سيبويه المصري** ، نشره الأساتذة محمد ابراهيم ، وحسين الديب ، الطبعة الأولى ٠ ١٣٥٢ هـ/١٩٣٣ م ٠

ابن الزيات ، شمس الدين أبو عبد الله (ت ٨١٤ هـ/١٤١١ م) :
٥١ ـ **الكواكب السيارة** ، المطبعة الأميرية ، بمصر ١٣٢٥ هـ / ١٩١٧ م ٠

السبكي ، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب (ت ٨٠٣ هـ/١٤٠٠ م) :
٥٢ ـ **معيد النعم ومبيد النقم** ، تصحيح وتقديم داوذ ولهلم موهرمن طبع ليدن ١٩٠٨ م ٠

السقطي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي محمد السقطي الأندلسي :
٥٣ ـ **في آداب الحسبة** ، الطبعة الدولية ، باريز ، ١٩٣١ م ٠

ابن سعيد ، علي بن موسى المغربي (ت ٦٧٣ هـ/١٢٧٥ م) :
٥٤ ـ **المغرب في حلى المغرب** ، الجزء الأول ، نشر زكي محمد حسن، وشوقي ضيف ، وسيدة اسماعيل الكاشف ، طبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ م ٠

ابن سلام ، أبو عبيد الله بن سلام (ت ٢٢٤ هـ/٨٣٨ م) :
٥٥ ـ **كتاب السلاح** ، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن ، نشر مجلة المورد ، المجلد ١٢ ، العدد الرابع .

بغداد ١٩٨٣ م .

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) :
٥٦ ـ **حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة** ، جزءان ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، نشر دار احياء الكتب العربية .

القاهرة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م .

٥٧ ـ **كتاب السماح فى أخبار الرماح** ، تحقيق د. فوزى حمودى القيسي ، نشر مجلة المورد ، المجلد ١٢ ، العدد الرابع .
بغداد ١٩٨٣ .

الشابشتى ، أبو الحسن على بن محمد (ت ٣٨٨ هـ/٩٩٨ م) :
٥٨ ـ **الديارات** ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٩٥١ م .

أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى (ت ٦٦٥ هـ) :
٥٩ ـ **كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين** ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٦٢ م .

الشربينى ، الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر :
٦٠ ـ **هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف** ، مطبعة العامرة الشرقية .

مصر ١٣٢٢ هـ .

الشيزرى ، عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م) :
٦١ ـ **نهاية الرتبة فى طلب الحسبة** ، تحقيق السيد الباز العرينى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٦ هـ .

صاعد الأندلسى ، أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م) :
٦٢ ـ **طبقات الأمم** ، طبعة ، القاهرة .

أبو صالح الأرمنى ، أبو المكارم جرجس بن مسعود (توفى أوائل القرن السابع الهجرى) :

٦٣ ـ **تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى المعروف بكنائس وأديرة مصر** • طبعة ، اكسورد ١٨٩٤ م •

ابن الصيرفى ، أمين الدين أبو القاسم على بن منجب (ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧م) :

٦٤ ـ **الاشارة الى من نال الوزارة** ، طبع بمطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٢٤ م •

٦٥ ـ **قانون ديوان الرسائل** ، القاهرة ١٩٠٥ م •

الطبرى ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م) :

٦٦ ـ **تاريخ الرسل والملوك** ، ١٠ أجزاء ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ م •

ابن ظهيرة ، أبو اسحق برهان الدين ابراهيم بن على (ت ٨٩١ هـ/١٤٨٦م) « على الأرجح » :

٦٧ ـ **الفضائل الباهرة ، فى محاسن مصر والقاهرة** ، تحقيق مصطفى السقا ، كامل المهندس ، مطبعة دار الكتب • ١٩٦٩ م •

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ/٨٧٠ ـ ٨٧١ م) :

٦٨ ـ **فتوح مصر والمغرب** ، تحقيق عبد المنعم عامر ، طبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة •

عبد اللطيف البغدادى ، الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف (ت ٦٢٩ هـ/١٢٣١ م) :

٦٩ ـ **الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر** ، طبعة المجلة الجديدة ، سلامة موسى •

ابن العماد الحنبلى ، عبد الحى بن أحمد بن محمد الصالحى (ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٩ م) :

٧٠ ـ **شذرات الذهب فى أخبار من ذهب** ، ٨ أجزاء • القاهرة ١٣٥٠ هـ •

العمرى ، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت ٧٤٢ هـ/١٣٤١ م) :

٧١ ـ **التعريف بالمصطلح الشريف** ، طبعة القاهرة ١٣١٢ هـ •

٧٢ ـ **مسالك الأبصار فى ممالك الأقطار** ، طبعة دار الكتب • ٣٤٢ هـ/٩٣٤ م •

الغزولى ، علاء الدين على بن عبد الله البهائى (ت ٨١٥ هـ/١٤١٢ م) :
٧٣ ـ **مطالع البدور فى منازل السرور** ، جزءان ، طبعة ، القاهرة ١٢٩٩ هـ .

قدامه بن جعفر ، (ت ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م) :
٧٤ ـ **الخراج وصناعة الكتابة** ، شرح وتعليق الدكتور محمد حسن الزبيدى ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨١ م .

القزوينى ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م) :
٧٥ ـ **آثار البلاد وأخبار العباد** ، دار صادر ، بيروت .

القفطى ، جمال الدين على بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م) :
٧٦ ـ **اخبار العلماء بإخبار الحكماء** ، ليبزج ١٩٠٣ م .

القلقشندى ، أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) :
٧٧ ـ **صبح الأعشى فى صناعة الانشا** ، ١٤ جزءا ، طبعة دار الكتب المصرية .
١٣٢٢ هـ/١٩١٤ م .
٧٨ ـ **ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر** ، تصحيح ونشر مخمود سلامة .
القاهرة ١٣٢٤ هـ/ م .

الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ/٩٦١ م) :
٧٩ ـ **كتاب الولاه وكتاب القضاه** ، طبعة ، بيروت ١٩٠٨ ـ ١٩١٢م .

ابن الكندى ، عمر بن محمد بن يوسف (توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) :
٨٠ ـ **فضائل مصر** ، تحقيق الدكتور ابراهيم أحمد العدوى ، على محمد عمر .
القاهرة ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م .

المأوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م) :
٨١ ـ **الأحكام السلطانية والولايات الدينية** ، الطبعة الثالثة .
القاهرة ١٩٧٣ م .

المسبحي ، محمد عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل بن عبد العزيز
(ت ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م) :
٨٢ ـ **أخبار مصر (في سنتين ٤١٤ ـ ٤١٥ هـ)** ، تحقيق وليم ج .
ميلورد ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .
القاهرة ١٩٨٠ م .

المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٥ هـ/ أو ٣٤٦ هـ/
٩٥٦ ـ أو ٩٥٧ م) :
٨٣ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، ٤ أجزاء ، تحقيق محمد
محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة
الرابعة .
١٣٨٤ هـ/مايو ١٩٦٤ م .

المقدسي ، شمس الدين أبو عبيد الله (ت ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م) :
٨٤ ـ **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، طبعة ليدن ١٨٧٧ م .

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد
(ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م) :
٨٥ ـ **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** ، ٣ أجزاء ، طبعة
دار التحرير عن مطبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .
٨٦ ـ **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** ، تحقيق الدكتور
جمال الدين الشيال ، الجزءان الثاني والثالث ، تحقيق
الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، نشر المجلس الأعلى
للشئون الاسلامية .
١٣٩٠ ـ ١٣٩٢ هـ .
٨٧ ـ **اغاثة الأمة بكشف الغمة** ، تحقيق الدكتور بدر الدين
السباعي .
القاهرة ١٩٥٦ م .

٨٨ ـ **نحل عبر النحل** ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ،
نشر مكتبة الخانجي ٠
القاهرة ١٣٦٥ هـ/١٩٤٦ م ٠

٨٩ ـ **البيان والاعراب عما بارض مصر من الأعراب** ، تحقيق
الدكتور عبد المجيد عابدين ٠
القاهرة ١٩٦١ م ٠

المقرى ، أحمد بن محمد بن على (ت ٧٧٠ هـ/١٣٦٨ م) :
٩٠ ـ **المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير** ، تحقيق الدكتور
عبد العظيم الشناوى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ م ٠

ابن المقفع ، ساويرس أسقف الأشمونين (توفى أواخر القرن الرابع
الهجرى/القرن ١٠ م) :
٩١ ـ **سير الآباء البطاركة** ، مطبوعات جمعية الآثار القبطية ٠
القاهرة ١٩٤٨ م ٠

ابن مماتى ، أبو المكارم أسعد بن مهذب (ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩ م) :
٩٢ ـ **قوانين الدواوين** ، نشر وتعليق الدكتور عزيز سوريال ،
القاهرة ١٩٤٣ م ٠

ابن منكى ، محمد بن محمود منكى المصرى (ت ٧٧٨ هـ/١٢٧٦ م) :
٩٣ ـ **التدبيرات السلطانية فى سياسة الصناعة الحربية** ، تحقيق
صادق محمود الحميلى ، نشر مجلة المورد ، المجلد ١٢ ، العدد
الرابع ٠
بغداد ١٩٨٣ م ٠

ابن ميسر ، محمد بن على بن يوسف بن حلب (ت ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م) :
٩٤ ـ **اخبار مصر** ، الجزء الثانى ، طبع المعهد العلمى الفرنسى ،
وتصحيح هنرى ماسيه ٠
القاهرة ١٩١٩ م ٠

النابلسى ، أبو عثمان النابلسى الصفدى الشافعى :

٩٥ ـ تاريخ الفيوم وبلاده •

القاهرة ١٨٩٨ م •

ناصر خسرو ، (ت ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م) :

٩٦ ـ سفرنامه ، نقلها الى العربية الدكتور يحيى الخشاب •

القاهرة ١٩٤٥ م •

ابن النديم ، محمد بن اسحق (ت ٣٨٣ هـ/٩٩٢ م) :

٩٧ ـ الفهرست • القاهرة

ابن الوطواط ، أبو اسحق برهان الدين ابراهيم بن يحيى بن على (ت ٧١٨ هـ/١٣١٨ م)

٩٨ ـ غرر الخصائص الواضحة وغرر النقائص الفاضحة ، دار الطباعة العامرة ببولاق • القاهرة

ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) :

٩٩ ـ معجم البلدان ، ١٢ جزءا ، القاهرة ١٩٠٦ م •

١٠٠ ـ معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٩٣٦ م •

يحيى بن سعيد الانطاكى :

١٠١ ـ تاريخ يحيى بن سعيد ، طبعة باريس ، ١٩٢٤ م •

يحيى بن عمر ، (ت ٢٨٩ هـ/٩٠١ م) :

١٠٢ ـ احكام السوق ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، طبعة الشركة التونسية للتوزيع •

مارس ١٩٧٥ م •

اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م) :

١٠٣ ـ البلدان ، بريل ، ليدن ١٨٩٢ م •

(ج) المراجع العربية الحديثة :

ابراهيم أحمد العدوى :

١٠٤ ـ **تاريخ العالم الاسلامى** .

القاهرة ١٩٨٣ م .

ابراهيم جمعة :

١٠٥ ـ **دراسة فى تطور الكتابات الكوفية على الأحجار فى مصر فى القرون الخمسة الأولى للهجرة** ، دار الفكر العربى .

القاهرة ١٩٦٩ م .

أبو زيد شلبى :

١٠٦ ـ **تاريخ الحضارة الاسلامية** ، الطبعة الثالثة .

القاهرة ١٩٦٤ م .

أحمـد أميـن :

١٠٧ ـ **ضحى الاسلام** ، ٣ أجزاء ، الطبعة الثالثة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر .

القاهرة ١٣٧١ هـ/١٩٥٢ م .

١٠٨ ـ **ظهر الاسلام** ، ٣ أجزاء ، الطبعة الثالثة .

القاهرة ١٩٥٢ م .

أحمـد تيمور :

١٠٩ ـ **أعلام المهندسين فى الاسلام** ، القاهرة ١٣٧٧ هـ/١٩٥٧ م .

احمـد فكرى :

١١٠ ـ **مساجد القاهرة ومدارسها** ، الجزء الأول ، دار المعارف .

١٩٦٥ م .

أحمـد يوسف :

١١١ ـ **الفنون الجميلة قديما وحديثا** ، القاهرة ١٣٤١ هـ/١٩٢٢ م .

آدم متـز :

١١٢ ـ **الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى** ، جزءان ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ، لجنة التأليف والترجمة ، الطبعة الثالثة .

القاهرة ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م .

السيد الباز العرينى :

١١٣ ـ **مصر البيزنطية ، الجزء العاشر** ، دار النهضة العربية ٠
القاهرة ١٩٦١ م ٠

السيد عبد العزيز سالم :

١١٤ ـ **تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى** ٠
الاسكندرية ١٩٨٢ م ٠

ألفريد ج ٠ بتلر :

١١٥ ـ **فتح العرب لمصر** ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، طبعة دار الكتب المصرية ٠
القاهرة ١٣٥١ هـ/١٩٣٣ م ٠

ألفريد لوكاس :

١١٦ ـ **المواد والصناعات عند قدماء المصريين** ، نقله الى العربية زكى اسكندر ، محمد زكريا غنيم ، الطبعة الثالثة ٠
القاهرة ١٩٤٥ م ٠

١١٧ ـ **تاريخ الحضارة المصرية** ، العصر اليونانى والرومانى والعصر الاسلامى ، ألفه نخبة من العلماء ، المجلد الثانى ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ٠

أمين الخولى وآخرون :

١١٨ ـ **الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة** ، ترجمة وتعليق : حسن محمد جوهر ، عبد المنعم عبد الحليم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠
القاهرة ١٩٧٥ م ٠

١١٩ ـ **تراث الاسلام** ، جزءان ، نقله الى العربية الدكتور زكى محمد حسن ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ٠
القاهرة ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م ٠

بل ، هـ ٠ أ ٠ :

١٢٠ ـ **مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى** ، نقله الى العربية وأضاف اليه الدكتور عبد اللطيف أحمد على ٠
القاهرة ١٩٦٨ م ٠

جاك • س • ويسلر :
١٢١ ـ **الحضارة العربية** ، ترجمة د• غنيم عبدون ومراجعة أحمد فؤاد الأهوانى ، الدار المصرية للتأليف والترجمة •

جرجى زيدان :
١٢٢ ـ **تاريخ التمدن الاسلامى** ، ج ٥ ، مراجعة د• حسين مؤنس ، دار الهلال ، القاهرة •

جروهمان (آدولف) :
١٢٣ ـ **أوراق البردى العربية** ، ٦ أجزاء ، ترجمة كل من حسن ابراهيم ، عبد الحميد حسن ، عبد العزيز الدالى ، نشر دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤ م ، ١٩٦٨ م ، ١٩٧٤ م •

١٢٤ ـ **اربع محاضرات عن الأوراق البردية العربية** ، تعريب الأستاذ توفيق اسكاروس ، القاهرة ١٩٣٠ م •

جمال الدين الشيال :
١٢٥ ـ **مذكرة فى تاريخ مصر الاسلامية** ، القاهرة ١٩٦٤ م •

١٢٦ ـ **مجموعة الوثائق الفاطمية** ، القاهرة ١٩٦٥ •

س • د • جواتياين :
١٢٧ ـ **دراسات فى التاريخ الاسلامى والنظم الاسلامية** ، تعريب وتحقيق الدكتور عطية القوصى ، وكالة المطبوعات •
الكويت ١٩٨٠ م •

حسن ابراهيم حسن :
١٢٨ ـ **تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى** ، ٣ أجزاء ، الطبعة الثامنة ، مكتبة النهضة المصرية •
القاهرة ١٩٧٣ م •

١٢٩ ـ **النظم الاسلامية** ، بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن ، الطبعة الأولى •
١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م •

١٣٠ ـ تاريخ الدولة الفاطمية ٠

القاهرة ١٩٥٨ م ٠

١٣١ ـ المعز لدين الله الفاطمى مؤسس الدولة الفاطمية ، بالاشتراك مع طه شرف ٠

القاهرة ١٩٤٨ م ٠

حسن الباشا :

١٣٢ ـ الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ٣ أجزاء ، دار النهضة العربية ٠

القاهرة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ م ٠

١٣٣ ـ الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، الناشر دار النهضة العربية ٠

القاهرة ١٩٧٨ م ٠

١٣٤ ـ القاهرة ـ تاريخها وفنونها وآثارها ، تأليف ومراجعة الدكتور حسن الباشا وآخرين ٠

القاهرة ١٩٧٠ م ٠

حسن أحمد محمود :

١٣٥ ـ مصر فى عصر الدولة الطولونية ٠

القاهرة ١٩٦٠ م ٠

حسين مؤنس :

١٣٦ ـ عالم الاسلام ، طبعة دار المعارف بمصر ٠

القاهرة ١٩٧٣ م ٠

حمدان عبد المجيد الكبيسى :

١٣٧ ـ اسواق بغداد حتى العصر البويهى ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ٠

بغداد ١٩٧٩ م ٠

درويش النخيلى :

١٣٨ ـ السفن الاسلامية على حروف المعجم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ٠

الاسكندرية ١٩٧٩ م ٠

م . س ديماند :
١٣٩ ـ الفنون الاسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف .
القاهرة ١٩٥٨ م .

راشد البراوى :
١٤٠ ـ حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين .
القاهرة ١٩٤٨ م .

زبيده محمد عطا :
١٤١ ـ اقليم المنيا فى العصر البيزنطى على ضوء أوراق البردى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
القاهرة ١٩٨٢ م .

زكى محمد حسن :
١٤٢ ـ الفن الاسلامى فى مصر ، الجزء الأول ، طبعة دار الكتب المصرية .
القاهرة ١٩٣٥ م .
١٤٣ ـ الكنوز الفاطمية ، نشر المجمع المصرى للثقافة العلمية .
القاهرة ١٩٣٨ م .
١٤٤ ـ فنون الاسلام ، الطبعة الأولى .
القاهرة ١٩٤٨ م .
١٤٥ ـ أطلس الفنون الزخرفية .

زيدان عبد الباقى :
١٤٦ ـ العمل والعمال والمهن فى الاسلام ، مكتبة وهبة .
القاهرة ١٩٧٨ م .

سعاد ماهر :
١٤٧ ـ الفن القبطى .
القاهرة ١٩٧٧ م .

١٤٨ ـ البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية ، الكاتب العربى للطباعة والنشر .
القاهرة ١٩٦٧ م .

١٤٩ ـ النسيج الاسلامى .
القاهرة ١٩٧٧ م .

١٥٠ ـ محافظات الجمهورية العربية المتحدة ، وآثارها الباقية فى العصر الاسلامى ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
القاهرة ١٩٦٦ م .

سعد الخادم :

١٥١ ـ الصناعات الشعبية فى مصر ، دار المعارف بمصر .
القاهرة ١٩٥٧ م .

سعد زغلول عبد الحميد :

١٥٢ ـ تاريخ المغرب العربى ، دار المعارف .
القاهرة ١٩٦٥ م .

سعيد عبد الفتاح عاشور :

١٥٣ ـ اوروبا العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، والنظم والحضارة. الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية .
القاهرة ١٩٧٢ م .

سيدة اسماعيل كاشف :

١٥٤ ـ مصر فى فجر الاسلام ، دار الفكر العربى .
القاهرة ١٩٤٧ م .

١٥٥ ـ مصر فى عصر الاخشيديين ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية .
القاهرة ١٩٧٠ م .

ابو صالح الالفى :

١٥٦ ـ الفن الاسلامى ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .
القاهرة ١٩٧٤ م .

عبد الرحمن زكى :

١٥٧ ـ **القاهرة** ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى .

القاهرة ١٣٥٣ هـ/١٩٣٤ م .

عبد الرحمن فهمى :

١٥٨ ـ **صنج السكة فى فجر الاسلام** ، مطبوعات متحف الفن الاسلامى ، مطبعة دار الكتب المصرية .

القاهرة ١٩٥٧ م .

١٥٩ ـ **مجموعة النقود العربية وعلم النميات** ، فجر السكة العربية، مطبعة دار الكتب المصرية .

القاهرة ١٩٦٤ م .

١٦٠ ـ **النقود العربية ماضيها وحاضرها** ، المكتبة الثقافية (١٠٣)

القاهرة ١٩٦٤ م .

عبد العزيز الدالى :

١٦١ ـ **البرديات العربية** ، الناشر مكتبة الخانجى .

القاهرة ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣ م .

عبد العزيز الدورى :

١٦٢ ـ **تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى** ، مطبعة المعارف .

بغداد ١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م .

عبد المنعم ماجد .

١٦٣ ـ **التاريخ السياسى للدولة العربية** ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية .

القاهرة ١٩٦٠ م .

١٦٤ ـ **تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى** ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة

١٦٥ ـ **نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر** ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة .

القاهرة ١٩٧٨ م .

عبد المنعم المليجى النقيب :

١٦٦ ـ **مجمع البدائع فى الفنون والصنائع** ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية .

القاهرة ١٣١٠ هـ .

عصام الدين عبد الرؤوف الفقى :

١٦٧ ـ **الحواضر الاسلامية الكبرى** ، دار الفكر العربى .

القاهرة ١٩٧٦ م .

عطية القوصى :

١٦٨ ـ **تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية** ، دار النهضة العربية .

القاهرة ١٩٧٦ م .

١٦٩ ـ **تاريخ دولة الكنوز الاسلامية** ، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر .

القاهرة ١٩٨١ م .

عطية مصطفى مشرفة :

١٧٠ ـ **نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين** ، الناشر دار الفكر العربى .

١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م .

علماء الحملة الفرنسية :

١٧١ ـ **وصف مصر** ، المجلد السادس ، مكتبة الخانجى بمصر ، ترجمة زهير الشايب .

القاهرة ١٩٨٠ م .

علی ابراهیم حسن :

١٧٢ ـ **تاريخ جوهر الصقلى** ٠

القاهرة ١٣٥١ هـ ٠

علـى بهجت :

١٧٣ ـ **حفريات الفسطاط** ، بالاشتراك مع السيد البير جبريل ، نقله الى العربية على بهجت ومحمود عكوش ، مطبعة دار الكتب المصرية ٠

القاهرة ١٣٤٧ هـ/١٩٢٨ م

عـلى مبـــارك :

١٧٤ ـ **الخطط التوفيقية** ، جـ ١ ، جـ ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

١٩٨٠ ، ١٩٨٢ م ٠

غوستاف لوبون :

١٧٥ ـ **حضارة العرب** ، نقله الى العربية عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ٠

القاهرة

فريد شافعى :

١٧٦ ـ **العمارة العربية فى مصر الاسلامية** ، المجلد الأول ، عصر الولاه ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ٠

القاهرة ١٩٧٠ م ٠

كمال الدين سامح :

١٧٧ ـ **العمارة الاسلامية فى مصر** ، الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية ، مطبعة جامعة القاهرة ٠

القاهرة ١٩٧٠ م ٠

١٧٨ ـ **العمارة فى صدر الاسلام** ، الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية ، مطبعة جامعة القاهرة ٠

القاهرة ١٩٧١ م ٠

لينبول (ستانلى) :

١٧٩ ـ سيرة القاهرة ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، على ابراهيم حسن ، طبع مكتبة النهضة المصرية .

القاهرة ١٩٥٠ م .

محمد توفيق جاد :

١٨٠ ـ تاريخ الزخرفة ، بالاشتراك مع واسيلى حبيب أميرهم ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

القاهرة ١٣٨١ هـ/١٩٦٢ م

محمد جمال الدين سرور :

١٨١ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثالثة .

١٨٢ ـ مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر .

القاهرة ١٩٦٠ م .

محمد عبد العزيز مرزوق :

١٨٣ ـ الفنون الزخرفية الاسلامية فى مصر قبل الطولونيين ، مكتبة الأنجلو المصرية .

القاهرة ١٩٧٤ م .

١٨٤ ـ الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، نشر دار الكتب المصرية .

القاهرة ١٩٤٢ م .

١٨٥ ـ الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والأندلس ، طبعة دار الثقافة .

بيروت

محمد كرد على :

١٨٦ ـ الاسلام والحضارة العربية ، جزءان .

١٨٧ ـ خطط الشام ، جـ ٦ .

دمشق ١٩٣٨ م .

محمــود أحمــد :

١٨٨ ــ جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية ، طبعة بولاق

القاهرة ١٩٣٨ م ٠

محمــود عكوش :

١٨٩ ــ تاريخ ووصف الجامع الطولوني ، دار الكتب المصرية ،

القاهرة ١٩٢٧ م ٠

مختــار القــاضي :

١٩٠ ــ أثر المدنية الاسلامية في الحضارة الغربية ، نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ٠

القاهرة ١٩٧٣ م ٠

مونتجومري وات :

١٩١ ــ فضل الاسلام على الحضارة الغربية ، نقله الى العربية حسين أحمد أمين ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ٠

١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م ٠

نعمت اسماعيل علام :

١٩٢ ــ فنــون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية ، الطبعــة الثانية ، دار المعارف ٠

القاهرة ١٩٧٧ م ٠

ى ٠ هـــل :

١٩٣ ــ الحضــارة العربية ، نقله الى العربية د ٠ إبراهيـم أحمـد العدوى ، ط ٠ دار الهلال ٠

القاهرة ١٩٧٩ م ٠

هولمز ، هارنيكولز :

١٩٤ ــ قصة الكيمياء ، ترجمة ألفونس رياض ، عبد العظيم عباس ، القــاهرة

١٩٥ ـ جامع سيدنا عمرو بن العاص .

القاهرة ١٩٧٢ م .

(ء) الدوريات والرسائل العلمية

أحمد دارج :

١٩٦ ـ الحسبة وأثرها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع عشر .

القاهرة ١٩٦٨ م .

أحمد مختار العبادي :

١٩٧ ـ الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الحادى عشر العدد الأول .

القاهرة ١٩٨٠ م .

السيد الباز العريني :

١٩٨ ـ الحسبة والمحتسبون في مصر ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث .

أكتوبر ١٩٥٠ م .

برنارد لويس :

١٩٩ ـ النقابات الاسلامية ، ترجمة الدكتور عبد العزيز الدورى مجلة الرسالة ، الأعداد ٣٣٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ ، السنة الثانية .

١٩٤٠ م .

حسن الباشا :

٢٠٠ ـ طبق من الخزف باسم غبن ولى الحاكم بأمر الله ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٨ ، الجزء الأول .

مايو ١٩٥٦ م .

حسن عبد الوهاب :

٢٠١ ـ توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلامية ، نشر المجمع العلمى المصرى .

القاهرة ١٩٥٤ م .

٢٠٢ ـ الرسـومات الهندسية للعمارة الاسـلامية ، نشر المجمع العلمي المصري .

٢٠٣ ـ الآثار الفاطمية بين تونس والقاهرة .

٢٠٤ ـ من روائع العمارة الاسلامية في مصر ، المجلد الخاص بالمؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية في تونس .

١٨ ـ ٢٩ مايو ١٩٦٣ م .

طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ..

حلمي محمد سالم :

٢٠٥ ـ حـرف وصناعات الأطعمـة والأشربة في مصر في العصر المملوكي ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة ، جامعة الاسكندرية .

١٩٧٠ م .

حوريه عبده عبد المجيد سلام :

٢٠٦ ـ الحياة الاقتصادية والاجتمـاعية في مدينة الفسطاط حتى العصر الفاطمي ، رسالة ماجستير جامعة القاهرة .

روبرت . س . لويز :

٢٠٧ ـ محمد وشرلمان ، إعادة نظر ، ترجمـة توفيق اسكندر ، المجلة التاريخية المصرية .

القاهرة ١٩٦١ م .

زكي محمد حسن :

٢٠٨ ـ بعض التأثيرات القبطية في الفنون الإسلامية ، مجلة جمعية الآثار القبطية ، المجلد الثالث .

١٩٣٧ م .

سـعاد ماهـر :

٢٠٩ ـ السيف المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، مجلة كلية الآثار ، العدد الأول .

١٩٧٦ م .

سعيد محمد مصيلحى :

٢١٠ ـ **الاسطرلاب فى مصر الاسلامية** ، دراسة أثرية فنية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآثار جامعة القاهرة ٠

١٩٧٧ م ٠

سيدة اسماعيل كاشف :

٢١١ ـ **علاقة الصين بديار الاسلام** ، مجلة كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، العدد الأول ٠

١٩٧٥ م ٠

عبد الرؤوف على يوسف :

٢١٢ ـ **طبق غبن والخزف الفاطمى المبكر** ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الثامن عشر ، الجزء الأول ٠

مايو ١٩٥٦ م ٠

عبد الرؤوف عـون :

٢١٣ ـ **تاريخ فن الحرب ونظمها عند المسلمين حتى نهاية القرن الثانى** ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ٠

عبد العزيز الدورى :

٢١٤ ـ **نشوء الأصناف والحرف فى الاسلام** ، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ، العدد الأول ٠

١٩٥٩ م ٠

كارل جوهان لام :

٢١٥ ـ **الخزف الفاطمى** ، ترجمة وتعليق عبد الرحمن زكى ، مجلة المقتطف ، المجلد ٩٠ ٠

١٩٣٧ م ٠

محمد عبد الستار عثمان :

٢١٦ ـ **اضواء على المعمار الاسلامى** ، مجلة الفيصل ، العدد ٩٠ ٠ الرياض ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م ٠

موريس لمبـار :

٢١٧ ـ الذهب الاسلامى منذ القرن السابع الى القرن الحادى عشر الميلادى ، ترجمة توفيق اسكندر ، المجلة التاريخية المصرية . القاهرة ١٩٨٤ م .

نعمت محمد ابو بكر :

٢١٨ ـ المنابر الخشبية فى مصر حتى العصر المملوكى ، رسـالة غير منشورة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة .

(هـ) المراجع الأجنبية

1. Abu-Saleh, : *The Churches & Monasteries of Egypt*, London 1949.

2. Ameer, Ali Sayed, *A Short History of the Saracens*, London - 1949.

   Aly Mohamed Fahmy.

3. *Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century*, Second edition, Cairo-1980.

   Arnold sir Thomas & Grohmann (Adolf).

4. Artz. F. B. : *The Islamic Book.*

5. Artz. F.B. : *The Mind of the Middle Ages*, Berlin, 1953.

6. Bell. H. I., *Jews and Christians in Egypt....*

7. Translations of the Greek Aphrodito papyri (Der Islam) Vol 1-6.

8. Devonshire, Mrs. R. L. : *Moslem Builders of Cairo Second Edition*, Cairo, 1944.

9. Garner, H. : *Islamic pottery, A Comprehensive study* based on the Barlow collection Geza Fehervari, London 1973.

10. Gajori, F. : *A History of Mathematics* 2 edition London 1929 Grenfell, F.

11. *The Oxyrhnchus papyri*, vol, I-14. London, 1899-1933.

12. Grohmann. A., : *Arabic papyri in the Egyptian Library,* vol 3, 4. Cairo, 1938.

13. Holmyard E. J., : *Chemistry to the time of Dalton,* London
4 1925.

14. Jacog-Mann, : *The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs,* 2 vols, Oxford, 1920.

15. Johanson, A.C., & West. L., : *Byzantine Egypt,* Economic Studies London, 1940.

16. Lane-poole Stanley, : *A History of Egypt in the Middle Ages, Fourth* Edition, London 1925.

17. *Catalogue of the collection of Arabic coins in the Khedivial library at Cairo,* London 1891.

18. Milne, J.G. : *A History of Egypt under Roman rule,* London 1924.

19. Mohamed Ahmed, : *Concise Guide to principle Arabic monuments in Cairo, Bulak* 1939.

20. O'leary, D. L. : *A Shory History of the Fatimed Khalifate,* London 1923.

21. Wiet, G., : *L'Egypte Musulmane* (Precis de l'Histiore d'Egypte) tome, 2, Cairo 1932.

22. *Les Mosquées du Caire.*

23. Wiet, G., : *Steles Funeraires,* tome, 1-8, Cairo, 1936-1941.

24. *Repertoire Chronologuique D'Epigraphie Arabe*, tome. 1-8, le Caire, 1931 etc.

25. Wilson, G., : *Great Men of Science*, Their lives and Discoveries, New-York, 1942.

26. Zaky, M.' Hassan : *Les Tulunides*, Paris, 1933.

27. *Encyclopedia of Islam* (Art).

معجم صغير

لأهم المصطلحات المستخدمة فى الكتاب

الأدم والدرق :

نوع من الجلود لصناعة معدات الركوب التى يستخدمها الفارس ٠

الأرحيـــة :

الرقعة التى كان يكتب عليها ٠

الأرمنى :

نسيج اشتهر به الأرمن ٠

الآس والسلجم :

أنواع من الأشجار ٠

الانخاخ :

مواضع فى الأسواق لانزال أحمال الابل ٠

اهل البجة :

قبائل بدوية تقطن ساحل البحر الأحمر ٠

الاهليلج :

زيت يستخرج من نوع من الأشجار كالزيتون ٠

برطلة (براطيل) :

وهى الرشـــوة ٠

بزاز :

تاجر البز أو الثياب ٠

البقـم :

نوع من صبغة الألوان ٠

البلاتوس :

نوع من الأزهار .

البوقلمون :

١ ـ نوع من الأحجار التى كانت تستخرج بالقرب من شاطىء الاسكندرية .

٢ ـ نسيج انفردت تنيس بنسجه ، يتغير لونه بتغير ساعات النهار ، ظهر فى العصر الفاطمى .

التابسترى :

نوع من النسيج المزخرف .

التراس (التراسون) :

صانع التروس والدروع .

تنيس :

مدينة كانت تقع وسط (بحيرة المنزلة) .

التوريق :

الزخرفة بأشكال الأوراق النباتية .

جامة (جامات) :

وهى الكأس المصنوع من البلور .

الجزع :

نوع من الأحجار الكريمة .

جوسق (جواسق) :

حصن .

جوشن (جواشن) :

درع .

حبس (أحباس) :

وقف . (أوقاف) .

الحبوبى :

تاجر الحبوب .

الحـــذاء (بتشديد الذال) :

صانع الأحذية ·

الحصرى (الحصريون) :

صانع الحصر أو البسط ·

خراريب :

جمع خروبة وهى أصغر أنواع العملات ·

دبيـق :

مدينة كانت شهيرة بصناعة النسيج بالقرب من دمياط ·

دق :

الرقيق من الثياب ·

الدكاسة (الدكاسات) :

نوع من أنواع السفن ·

دمـيرة :

جهة فى الدلتا كانت شهيرة بصناعة البردى ·

الديباجى :

صانع النسيج من الحرير ·

الرقـــام (الرقامون) :

الذى يصنع علامات الثياب ·

الزجـاج (بتشديد الجيم) :

صانع الزجـاج ·

السراج : (بتشديد الراء) :

صانع السروج ·

سـفط :

وجمعها (أسفاط) وهى الثياب المطوية ·

سقلاطون :

نوع من النسيج يشبه الحرير ، أخـــذ المصريون سر صناعته من بلاد الروم ·

السماجة (السماجات) :

الحركات والألعاب القبيحة ·

السمار :

نوع من النبات كان يصنع منه الحصير .

السميد :

نوع من الخبز الجاف .

السنبوك :

قارب مدبب المقدمة .. وكان يستعمله أهل الحجاز وقد عرفته مصر الطولونية .

شاذروان :

الشرفة البارزة من البنيان .

الشب والنطرون :

مواد تستخرج من وادى النطرون وغيره .

الشبارة :

سفينة نهرية صغيرة تستخدم فى العراق .

الشختورة :

نوع من السفن الصغيرة بسار واحد فى الوسط وهى من المراكب النيلية التى كانت تستعمل لتعدية الناس فى النيل .

شطا :

مدينة فى الوجه البحرى كانت شهيرة بالثياب .

الشطوية :

ثياب تصنع بمدينة شطا .

الشلندية :

مركب مسقف .

الشماع (بتشديد الميم) :

صانع مادة الشمع المستخدمة فى الاضاءة .

الشمشم (بفتح الشين) :

نوع من المسحوق لعلاج العين (الششم) .

الشينى أو الشونة :

الجمع (شوانى) وهى السفن الحربية الكبيرة .

صاحب الكورة :

حاكم الاقليم أو المدينة وما حولها .

صولدى (صولدات) :

نوع من العملة الصغيرة البيزنطية .

الضراب (بتشديد الراء) :

الذى يقوم بسك العملة .

الطحان :

صاحب حرفة طحن الغلال أو الحنطة .

طراز أشمون وانصنى :

دارى صناعة النسيج بالأشمونين وإنصنا بالقرب من المنيا .

الطريدة :

سفينة الحرب .

طيفور (طيافر) :

وهو نوع من الأوانى .

الطــــلاء :

الطلاء أو الدهان .

طيلسان (طيالس) :

وهى طرحــة توضــع على المنكب ، وكان رجال القضــاء يلبسون الطيالس .

العبــابى :

نسبة الى محلة ببغداد تنسب الى عتابى بن أسيد فكانت تعرف فى بغداد بحى العتبية .

العرادة (العرادات) :

نوع من السفن الحربية الكبيرة .

العراض :

الفضاء الواسع بين الدور والمنازل .

العرصـة :

الفضاء وهو وسط الدار

العسجدة :

لؤلؤة ثمينة ونادرة .

العشارى أو العشارية .. والجمع (العشاريات) :

نوع من السفن الكبرى يسير فى النيل ويجر بعشرين مجدافا وينقل البضـــائع .

العفص الشامى :

المادة التى يستخرج منها الحبر أو مادة الكتابة .

العفص والزاج :

المادة التى يتخذ منها الحبر .

العقيـق :

نوع من الأحجار الثمينة .

العيار (العيارين) :

الذى يعمل فى دور الضرب أو سك النقود .

الغضار (بتشديد الضاد) :

صانع الغضار أو الأوانى .

الغضيرة (الغضائر) :

الاناء المصنوع من الخزف .

الفرش :

البسط .

الفوة :

نوع من الصبغة لتلوين الثياب بها .

القباطى :

الثياب المصرية الشهيرة وكانت تصنع من الكتان .

قطرميز :

برطمان من الزجاج .

القزازة (بكسر القاف) :

حرفة النسج ومنها القزاز (بتشديد الزين) وهو النساج والجمع قزازون .

القيس :

من مدن الصعيد الأوسط بالقرب من المنيا .

قيسرية (قيساريات) :

وهى الأسواق المسقوفة بالمدن .

القشاش (بتشديد الشين) :

صانع المقشات أو أدوات النظافة .

القصب :

نوع من النسيج الملون مما تلبس النساء .

قلفطة :

دهان السفن بمادة القار والزفت .

القنـــد :

عصير البصل .

الكاغـــد :

نوع من الورق كان يصنع بسمرقند .

الكراع :

الخيـــل .

الكفت :

صناعة الحفر على المعدن وزخرفته .

الكلس :

الحجر الجيرى .

كـورة :

الاقليم وكانت مقسمة الى عدة كور مصرية .

الليتورجيا :

أعمال السخرة .

ليقة (الليق) :

هى الطريقة التى تعمل بها الأحبار .

المرعز العسلى :

نوع من النسيج يصنع من شعر الماعز .

الملامس :

اسم شخص وكان عريف لقبيلة حضرموت اليمنية .

النحال (النحالة) :

صاحب خلايا النحل والذى يجمع العسل منه .

النـــرد :

الزهـــر (لعبة الطاولة) .

نفاط (بتشديد الفاء) :

صانعى كرات النفط أو الزيت .

النقارة .. النقارات (بتشديد القاف) :

آلات النقر والحفر فى الخشب .

نمط (أنماط) :

الأنماط نوع من الجلود واشتهرت أخميم بصناعتها .

النيلوفر :

نوع من الأزهار .

الهراس (بتشديد الراء) :

الدقاق والمهراس الحجر المطحون .

الوراق (بتشديد الراء) :

صاحب محل الوراقة وهو ناسخ الكتب وبائعها .

ويبة :

مكيال وهو سدس الأردب .

فهرس كتاب الحرف والصناعات

مقدمــــة ٥

الفصل الأول : صناعة النسيج منذ فجر الاســـلام حتى نهاية العصر الفــاطمى ١٥

١ ـ صناعة النسيج فى عصر الولاة ١٧

٢ ـ دور الطراز فى عهد الطولونيين والاخشيديين . . ٢٧

٣ ـ حرفة الصباغة وصناعة الألوان ٣٩

٤ ـ مظاهر تقدم صناعة النسيج فى العصر الفاطمى . . ٤٧

٥ ـ مراكز صناعة النسيج وازدهار فن الزخرفة فى العصر الفـــاطمى ٥٦

الفصل الثانى : حرفة الوراقة و فن الكتابة ٧١

١ ـ صناعة البردى فى عصر الولاة ٧٣

٢ ـ الوراقة فى عهــد الطولونيين والاخشيديين وصناعة الكتابة ٨١

٣ ـ صناعة الكتابة فى مصر منذ فجر الاسلام حتى نهاية عصر الطولونيين والاخشيديين ٨٦

٤ ـ ازدهار حرفة الوراقة وفن الكتابة فى العصر الفاطمى ٩٢

٥ ـ الكتاب فى العصر الفاطمى ١٠١

الفصل الثالث : صناعة الأوانى والأدوات الخزفية والزجاجية منذ فجر الاســـلام حتى نهاية العصر الفاطمى . . . ١٠٩

١ ـ صناعة الفخار والخزف منذ فجر الاسلام حتى نهاية العصر الفاطمى ١١١

٢ ـ صناعة الزجاج فى عصر الولاة والولاة المستقلين . . ١٢٢
٣ ـ ازدهار صناعة الزجاج والبلور الصخرى فى العصر الفاطمى ١٣٠

الفصل الرابع : الصناعات المعدنية من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى ١٣٧
١ ـ استخراج المعادن والحصول على المواد الخام والأحجار الكريمة ١٤٠
٢ ـ صناعة الأدوات والآلات الحديدية والنحاسية وفن التكفيت ١٥٢
٣ ـ صناعة الحلى والجواهر الكريمة ١٦٧
٤ ـ صناعة سك النقود ودوز الضرب المصرية . . . ١٨٠
٥ ـ صناعة الأسلحة ومعدات السفن الحربية فى مصر الاسلامية فى عصر الولاة ١٩٧

الفصل الخامس : الحرف والصناعات الخشبية ٢١٣
١ ـ بناء السفن الحربية والتجارية فى عصر الولاة . . ٢١٦
٢ ـ مظاهر النهضة فى صناعة السفن الحربية والتجارية فى عهد الطولونيين والاخشيديين ٢٢٤
٣ ـ ازدهار صناعة السفن وتجهيزها فى دور الصناعة الفاطمية ٢٣٢
٤ ـ حرفة النجارة وصناعة الأثاث فى عصر الولاة . . ٢٤٢
٥ ـ الحفر على الخشب ومظاهر التأثير الحضارى فى عصر الطولونيين والاخشيديين ٢٤٩
٦ ـ فن النحت والتطعيم بالعاج فى العصر الفاطمى . . ٢٥٤

الفصل السادس : الصناعات المعمارية فى مصر الاسلامية . . ٢٦١
١ ـ صناعة البناء فى عصر الولاة ٢٦٣
٢ ـ العمارة ومظاهر التأثير الحضارى فى عهد الطولونيين والاخشيديين ٢٧٤
٣ ـ تقدم فن العمارة فى العصر الفاطمى ٢٨٨

الفصل السابع : صناعة المواد الغذائية ٣٠٥
١ ــ حرفة الحبوبين وطحن الغلال . . ٣٠٧
٢ ــ صناعة الخبز والحلوى ٣١٩
٣ ــ صناعة استخراج الزيوت ٣٢٥
٤ ــ صناعة الصابون ٣٣٢
٥ ــ صناعة واستخدام الشمع ٣٤٢
٦ ــ حرفة النحالة ٣٤٧
٧ ــ حضانة الفراريج فى مصر الاسلامية ٣٥١
٨ ــ صناعة السكر والعسل ٣٥٤

الفصل الثامن : حرفة الدباغة وصناعة الجلود ٣٦٥
١ ــ حرفة الدباغة ٣٦٧
٢ ــ صناعة الجلود والأنماط ٣٧٠
٣ ــ صناعة الحصر فى مصر الاسلامية ٣٧٥

الفصل التاسع : الطوائف الحرفية ودورها فى الحياة العامة . . . ٣٨٠
١ ــ نظم وتقاليد طوائف الحرفيين ٣٨١
٢ ــ حياة الحرفيين الاقتصادية ٤٠١
٣ ــ طرق الاشراف والرقابة على الحرف والصناعات . ٤١٦
٤ ــ مكانة أصحاب الحرف الاجتماعية ٤٢٩
الخاتمة ٤٤٣

المصادر والمراجع العربية والأجنبية ٤٤٧

المخطوطات ٤٤٩
المصادر العربية ٤٥٠
المراجع الحديثة ٤٦٢
الدوريات والرسائل ٤٧٣
المراجع الأجنبية ٤٧٧
أهم المصطلحات ٤٨١

● ● كتب صدرت عن مشروع الألف كتاب (الثانى)

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ ـ أحلام الأعلام وقصص أخرى	برتراند رسل ٠
٢ ـ الألكترونيات والحياة الحديثة	ي ٠ رادونسكايا ٠
٣ ـ نقطة مقابل نقطة	ألدس هكسلى ٠
٤ ـ الجغرافيا فى مائة عام	ت ٠ و ٠ فريمان
٥ ـ الثقـــافة والمجتمـع	رايموند وليامز ٠
٦ ـ تاريخ العـــلم والتكنولوجيا ٠ جـ ٢ ٠ القرن الثامن عشر والتاسع عشر	ر ٠ ج ٠ فوربس
٧ ـ الأرض الغامضـــة	ليستر ديل راى
٨ ـ الرواية الانجليزية	والتر الن
٩ ـ المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس ٠
١٠ ـ آلهـــة مصر	فرانسوا دوماس ٠
١١ ـ الانسان المصرى على الشاشة	د ٠ قدرى حفنى وآخرون
١٢ ـ القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف ٠
١٣ ـ الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس ٠
١٤ ـ مجمـــوعات النقـــود صيانتها ٠٠ تصنيفها ٠٠ عرضها	ديفيد وليام ماكدوال ٠
١٥ ـ الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
١٦ ـ عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د٠ محسن جاسم الموسوى
١٧ ـ ديلان توماس « مجموعة مقالات نقدية »	اشراف س٠ بى٠ كوكس
١٨ ـ الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
١٩ ـ الرواية الحديثة ٠ جـ ١	بول ويست
٢٠ ـ المسرح المصرى المعاصر ٠ أصله وبدايته	د ٠ عبد المعطى شعراوى
٢١ ـ على محمود طه ٠ « الشاعر والانسان »	أنور المعداوى
٢٢ ـ القوة النفسية للأهرام	بيل شول وأدنبيت
٢٣ ـ فن الترجمـــة	د ٠ صفاء خلوصى
٢٤ ـ تولستوى	رالف ئى ماتلو
٢٥ ـ ستندال	فيكتور برومبير
٢٦ ـ رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو

الاسم	المؤلف
٢٧ ـ الجزء والكل (محـــاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
٢٨ ـ التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
٢٩ ـ فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع أدنيكوف
٣٠ ـ أدب الأطفـــال ٠ (فلسفته ـ فنــونه ـ وسائطه)	هادى نعمان الهيتى
٣١ ـ أحمد حسن الزيات ٠ كاتبا وناقدا	د ٠ نعمة رحيم العزاوى
٣٢ ـ أعلام العرب فى الكيمياء	د ٠ فاضل أحمد الطائى
٣٣ ـ فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
٣٤ ـ الجحيم	هنرى باربوس
٣٥ ـ صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العــــامة	السيد عليوة
٣٦ ـ التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)	جوكوب برونوفسكى
٣٧ ـ هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د ٠ روجر ستروجان
٣٨ ـ تربيـــة الدواجن	كاتى ثير
٣٩ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
٤٠ ـ النحل والطب	د ٠ ناعوم بيتر وفيتس
٤١ ـ سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
٤٢ ـ سياسة الولايات المتحـدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
٤٣ ـ كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د ٠ جون شندلر
٤٤ ـ الصحافة	بيير البير
٤٥ ـ أثر الكوميـديا الالهيـة لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
٤٦ ـ الأدب الروسى قبـــل الثـــورة البلشفية وبعدها	د ٠ رمسيس عوض
٤٧ ـ حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د ٠ محمد نعمان جلال
٤٨ ـ الفكر الأوروبى الحديث	فرانكلين ل ٠ باومر
٤٩ ـ الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
٥٠ ـ التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د ٠ محيى الدين أحمد حسين

الاسم	المؤلف
٥١ ـ نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج · دارلى أندرو
٥٢ ـ مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
٥٣ ـ الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	د · جوهان دورشنر
٥٤ ـ مبادرة الدفاع الاستراتيجى حرب الفضاء (دراسة تحليلية لأسلحة واستراتيجيات حرب الفضاء)	طائفة من العلماء الأمريكيين
٥٥ ـ ادارة الصراعات الدولية (دراسة فى سياسات التعاون الدولى)	د · السيد عليوة
٥٦ ـ الميكروكمبيوتر	د · مصطفى عنانى
٥٧ ـ مختارات من الأدب اليابانى (الشعر ـ الدراما ـ الحكاية ـ القصة القصيرة)	مجموعة من الكتاب اليابانية القدماء والمحدثين
٥٨ ـ الفكر الأوروبى الحديث · ج ٢ (الاتصال والتغير فى الأفكار) من ١٦٠٠ ـ ١٩٥٠	فرانكلين ل · باومر
٥٩ ـ تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابربيل باير
٦٠ ـ أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	أنطونى دى كرسبنى وكينيث مينوج
٦١ ـ الفكر الأوروبى الحديث · ج ٣	فرانكلين ل · باومر
٦٢ ـ كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
٦٣ ـ الزمن وقياسه	زافيلسكى ف · س
٦٤ ـ أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
٦٥ ـ الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
٦٦ ـ سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى ·	جوزيف داهموس
	س · م بورا
٦٨ ـ مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
٦٩ ـ العلم والطلاب والمدارس	رونالد د· سمبسون و نورمان د· أندرسون
٧٠ ـ الشارع المصرى والفكر ·	د· أنور عبد الملك
٧١ ـ حوار حول التنمية	والت روستو
٧٢ ـ تبسيط الكيمياء	فريد هيس
٧٣ ـ العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت

اسم الكتاب	اسم المؤلف
٧٤ ـ التذوق السينمائى	آلان كاسبر
٧٥ ـ التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
٧٦ ـ البذور الكونية	فريد هويل شندرا ويكرا ماسيغ
٧٧ ـ دراما الشاشة ج١	حسين حلمى المهندس
٧٨ ـ الهيروين والايدز	روى روبرتسون
٧٩ ـ الفكر الأوروبى الحديث ج ٤	فرانكلين ل٠ باومر
٨٠ ـ نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
٨١ ـ صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
٨٢ ـ الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د ٠ محمود سرى طه
٨٣ ـ دراما الشاشة ج ٢	حسين حلمى المهندس
٨٤ ـ المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
٨٥ ـ وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
٨٦ ـ الهندسة الوراثية	ويليـام بينز
٨٧ ـ تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
٨٨ ـ كتب غيرت الفكر الانسانى	أحمد محمد الشنوانى
٨٩ ـ الفلسفة وقضايا العصر ج١	جمعها : جـون ٠ ر ٠ بورر وميلتون جـولد ينجـر
٩٠ ـ الفكر التاريخى عند الاغريق :	أرنولد توينبى
٩١ ـ قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
٩٢ ـ التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ كنج وآخرون
٩٣ ـ الفلسفة وقضايا العصر ج ٢	جمعها : جون ريورد وميلتون جولدينجر
٩٤ ـ بداية بلا نهاية	جورج جافو
٩٥ ـ الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديره

رقم الايداع بدار الكتب ٩٤٤٣/ ١٩٩٠
ISBN — 977 — 07 — 2646 — 2

يعالج هذا الكتاب جانبا هاما من جوانب الحضارة الإسلامية فى مصر منذ الفتح الإسلامى وحتى نهاية العصر الفاطمى ، ويتناول الجهود التى بذلها الحرفيون والصناع فى سائر أنواع الحرف والصناعات خاصة فى مجال صناعة النسيج والبردى والخزف والزجاج والبلور وصناعة السفن التجارية .. والحربية وفى صناعة الجلود والصناعات الغذائية مما أعطى مصر شهرة على مدى قرون طويلة فى انتاج وتصدير بعض السلع وعسل النحل والسكر والشمع وافخر أنواع النسيج إلى كل من الشرق والغرب .

كما يتناول كيفية استخراج الزمرد والذهب من الصحراء الغربية والشرقية . ويعالج الكتاب دور الطوائف الحرفية فى الحياة العامة ومدى تماسك أصحاب الحرف وحالتهم الاقتصادية ومكانتهم الاجتماعية .



مطابع الهيئة المصرية ا

٨٠٠ قرش